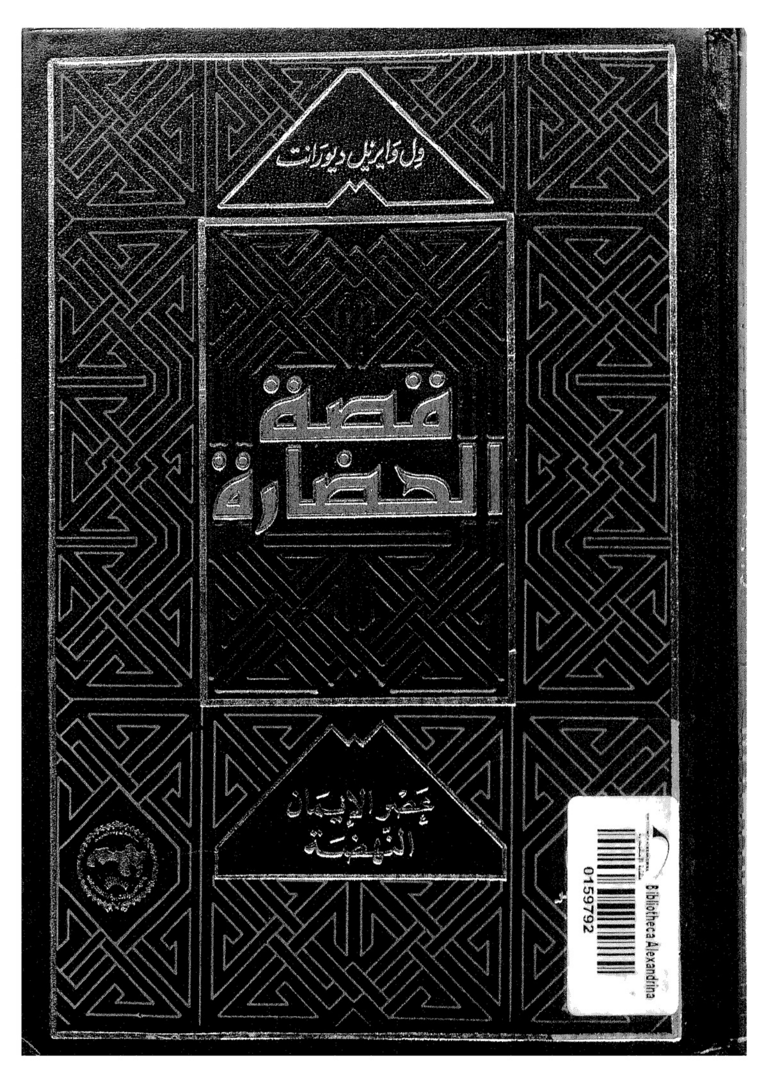
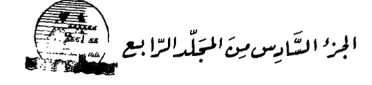

ول وايريل ديورانت
قصة الحضارة
عصر الإيمان
النهضة



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان



ترجمة
محمد بدران



الجزء السادس من المجلد الرابع

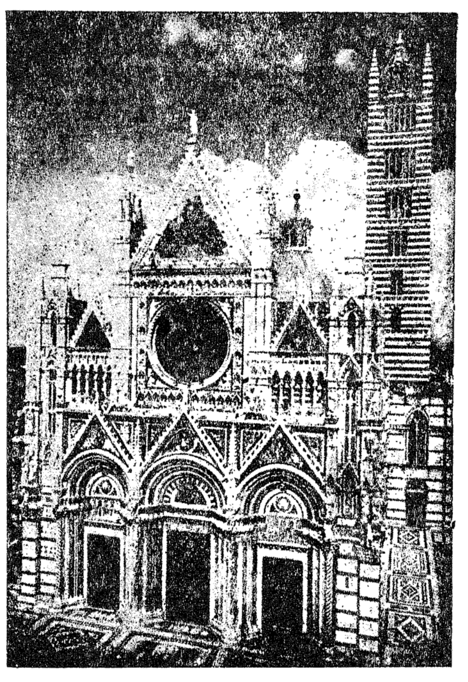
١٧





تونس بيروت

دار الجيل : ص.ب ٨٧٣٧، ـ ت : ٢٦٦١٥٨ ـ ٢٦٠٤٦٥ ـ تلكس : ٢٣٤٣٠
العنوان البرقي : دار جيلاب ـ بيروت ـ لبنان



(الصورة رقم ١) واجهة كتدرائية سينا

فهرس الصور

رقم الصورة		مدلولها	رقم الصفحة
الصورة	١	واجهة كتدرائية سينا	أول الكتاب
«	٢	واجهة وردية – كتدرائية أرفينو	أمام ص ٤٠
«	٣	منبر بيزانو	أمام ص ٥٦
«	٤	كتدرائية استراسبرج	أمام ص ٨٨
«	٥	الكنيسة – من كتدرائية استراسبرج	أمام ص ١٣٦
«	٦	المعبد – من كتدرائية استراسبرج	أمام ص ١٣٦
«	٧	مريم – من كتدرائية بامبرج	أمام ص ١٦٨
«	٨	القديسة إليصابات – من كتدرائية بامبرج	أمام ص ١٦٨
«	٩	إكارد وزوجته أوتا – من كتدرائية نومبرج	أمام ص ٢١٦
«	١٠	المنظر الخلفي لكتدرائية سلمنقة	أمام ص ٢٤٨
«	١١	داخل كتدرائية سنتياجودي كمبستيلا	أمام ص ٢٤٨

الفهـــرس

الموضوع الصفحة

الباب الرابع والثلاثون : انتقال المعارف

الفصل الأول : نشأة اللغات القومية ١
الفصل الثانى : عالم الكتب ٨
الفصل الثالث : المترجمون ١٥
الفصل الرابع : المدارس ٢٣
الفصل الخامس : جامعات الجنوب ٢٨
الفصل السادس : جامعات فرنسا ٣٦
الفصل السابع : جامعات إنجلترا ٤٤
الفصل الثامن : حياة الطلاب ٤٩

الباب الخامس والثلاثون : أبلار

الفصل الأول : الفلسفة القدسية ٥٨
الفصل الثانى : هلواز ٦٧
الفصل الثالث : صاحب النزعة العقلية ٧٢
الفصل الرابع : رسائل هلواز ٨٠
الفصل الخامس : الدين ٨٥

الباب السادس والثلاثون : مغامرات العقل

الفصل الأول : مدرسة شارتر ٩٢
الفصل الثانى : أرسطو فى باريس ١٠٠
الفصل الثالث : الزنادقة ١٠٤
الفصل الرابع : تطور الفلسفة المدرسية ١١٠
الفصل الخامس : تومس أكوناس أو (تومس الأكوينى) ١١٦
الفصل السادس : فلسفة تومس ١٢٦
(١) المنطق ١٢٦
(٢) ما وراء الطبيعة ١٢٨
(٣) اللاهوت ١٣٠
(٤) علم النفس ١٣٣
(٥) علم الأخلاق ١٣٦
(٦) علم السياسة ١٤٠

الموضوع — الصفحة

(٧) الدين ١٤٣
(٨) كيف استقبلت فلسفة تومس ١٤٥
الفصل السابع : خلفاء تومس ١٥٠

الباب السابع والثلاثون : العلوم المسيحية

الفصل الأول : البيئة السحرية ١٥٨
الفصل الثانى : الثورة الرياضية ١٦٩
الفصل الثالث : الأرض وحياتها ١٧٥
الفصل الرابع : المادة والطاقة ١٨١
الفصل الخامس : إحياء علم الطب ١٨٧
الفصل السادس : ألبرتس مجنس ٢٠٠
الفصل السابع : روجر بيكن ٢٠٥
الفصل الثامن : أصحاب الموسوعات ٢٢٣

الباب الثامن والثلاثون : عصر الخيال

الفصل الأول : إحياء اللغة اللاتينية ٢٢٧
الفصل الثانى : الخمر والمرأة والأغانى ٢٤٠
الفصل الثالث : بعث التمثيل ٢٤٦
الفصل الرابع : الملاحم والقصص المنثورة ٢٥١
الفصل الخامس : شعراء الفروسية الغزلون ٢٦٣
الفصل السادس : المتصيبون بالشعر من الألمان ٢٧٠
الفصل السابع : الروايات الغرامية ٢٧٦
الفصل الثامن : الرجوع إلى الهجاء ٢٩٤

الباب التاسع والثلاثون : دانتى

الفصل الأول : شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون ٣٠٢
الفصل الثانى : دانتى وبياتريس ٣٠٧
الفصل الثالث : دانتى فى غمار السياسة ٣١٣
الفصل الرابع : الملهاة المقدسة ٣٢١
(١) القصيدة ٣٢١
(٢) الجحيم ٣٢٦
(٣) المطهر ٣٣٣
(٤) السموات ٣٣٨
الخاتمة : تراث العصور الوسطى ٣٤٦
المراجع ٣٥٧

الباب الرابع والثلاثون

انتقال المعـــارف

١٠٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

نشأة اللغات القومية

حافظت الكنيسة إلى حد ما على وحدة أوربا الغربية التي حققتها الدولة الرومانية وحافظت كذلك شعائرها وعظاتها ومدارسها على تراث روماني لم يبق له وجود في هذه الأيام – هو لغة دولية يفهمها جميع السكان المتعلمين في إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، واسكنديناوة ، والأراضي الوطيئة ، وألمانيا ، وپولندة ، وبلاد المجر ، وبلاد البلقان الغربية . لقد كان المتعلمون من أهل تلك البلاد يستخدمون اللغة اللاتينية في مراسلاتهم ، وفي سجلات أعمالهم التجارية والمالية ، والدپلوماسية ، وفي القانون والأعمال الحكومية ، وفي العلم والفلسفة ، وفي آدابهم كلها تقريباً قبل القرن الثالث عشر . وكانوا يتكلمون اللغة اللاتينية على أنها لغة حية ، تشتق في كل يوم كلمة أو عبارة جديدة للدلالة على الحقائق أو الأفكار الجديدة أو المتغيرة في حياتهم ؛ وكانوا يكتبون رسائل باللاتينية من أبسط خطابات الحب إلى الرسائل الفصحى الطويلة المتبادلة بين هلواز وأبلار(*) Héloïse and Abélard . ولم يكن الكتاب يؤلف لأمة بل لقارة ، ولم يكن في حاجة

(*) انظر هذه الرسائل وقصتها في كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

إلى ترجمة بل كان ينتقل من قطر إلى قطر بسرعة وحرية غير معروفتين في هذه الأيام . كما كان الطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة دون أن تصادفهم عقبات اللغة ، وكان في وسع العلماء أن يحاضروا باللغة نفسها في بولونيا ، وسلمنقة ، وباريس ، وأكسفورد ، وأبسالا Uppsals ، وكولوني. ولم يكونوا يترددون في استعارة كلمات جديدة وضمها إلى اللغة اللاتينية ، وإن كان ذلك يزعج في بعض الأحيان الآذان التي اعتادت سماع لغة بترارك وشيشرون . وهكذا يستخدم العهد الأعظم الإنجليزى Magna Carta لفظى dessaisiatus و imprisonatus حين يقول إنه لا يصح أن « يقبض » على رجل حر أو « يسجن » . وأمثال هاتين الكلمتين ثقيلة الوقع على آذاننا ، ولكنها قد أبقت اللغة اللاتينية حية ؛ وإن كثيراً من الألفاظ الإنجليزية الحديثة — مثل instance ، و substantive, و esssence و entity(*) — لتنحدر من الكلمات التي أضيفت إلى اللغة اللاتينية في العصور الوسطى .

غير أن انفصام الصلات الدولية الذى أدى إليه سقوط رومة ، وانتشار الفاقة في العصور المظلمة انتشاراً أدى إلى انطواء الناس على أنفسهم ، وفساد الطرق وكساد التجارة ، كل هذا أوجد في الكلام تلك الاختلافات التي ما ابثت أن اتسعت بسبب عزلة المتحدثين ا بعضهم عن بعض . بل إن اللغة اللاتينيه كانت تعانى في أوج عزها بعض التغيرات القومية الناشئة من اختلاف المناخ وأساليب المنطق المترتبة على تركيب أعضائه . وكانت قد تبدلت في موطنها الأصلى نفسه . وكان موت الأدب قد أفسح الميدان لمفردات الرجل العامى وتراكيب جمله ، وهى مفردات وتراكيب كانت تختلف دائماً عن أقوال الشعراء والخطباء . وجاء تدفق الألمان ، والغاليين ، واليونان ، والأسيويين على إيطاليا باختلافات كثيرة في النطق ، وتخلص اللسان والعقل الكسولان بفطرتهما مما في الحديث الفصيح

(*) ومعناها المِثْل ، والاسم (في النحو) ، والجوهر ، والكيان . (المترجم)

الدقيق من علامات التصريف والإعراب فأضحى حرف H لا ينطق به في اللغة اللاتينية المتأخرة ، وبعد أن كان حرف V ينطق به في اللغة الفصحى كما ينطق بحرف W في اللغة الإنجليزية أصبح ينطق به كما ينطق بحرف V الإنجليزى . وامتنع النطق بحرف N قبل S فكلمة mensa (المائدة) أصبح ينطق بها nesa ، وتغير النطق بالحرفين المتصلين Æ و Œ وكان ينطق بهما في اللغة الفصحى كما ينطق بحرف I ، OI في ا للغة الإنجليزية فأصبح ينطق بهما كحرف A الإنجليزى الطويل أو حرف E الفرنسي . ولما كانت الحروف الساكنة في آخر الكلمات قد مضغت أو نسيت cilo, ciel (Coelum, ؛ rex, re,roi ؛ portus, porto, porte) فقد اقتضى ذلك أن تستبدل حروف الجر بعلامات الإعراب في الأسماء ، وبعلامات التعريف في أواخر الكلمات أفعال مساعدة . وتبدل أسماء الإشارة القديمان ille ، وilla فأصبحا هما أدوات التعريف il ، el ، lo ، le ، la ؛ واقتضب لفظ unus (واحد) اللاتيني ليكون أداة التنكير un . ولما انعدم تصريف الأسماء صار من الصعب أحيانا أن يعرف هل الاسم فاعل أو مفعول قبل الفعل أو بعده . وإذا ما تدبر الإنسان هذه العملية — عملية التبدل المستمر الممتد طوال عشرين قرنا من الزمان جاز له أن يقول إن اللغة اللاتينية لا تزال هي اللغة الحية الأدبية في إيطاليا ، وفرنسا وأسبانيا ، لم تتغير عن لغة شيشرون إلا بقدر ما تغيرت لغته هو لغة رميولوس أو لغتنا نحن(*) عن لغة تشوسر .

وكانت أسبانيا قد بدأت تتكلم اللاتينية منذ عام ٢٠٠ ق . م لا بعد ، وما وافى عهد شيشرون حتى اتسعت الهوة بينها وبين لاتينية رومة اتساعا روع شيشرون لما بدا له من رطانة قرطبة البربرية . وكان اتصال هذه اللغة اللاتينية بلهجات أيبريا سبباً في ترقيق الحروف الساكنة اللاتينية في أسبانيا : فرقت T إلى D ، P إلى B ، و K إلى G ؛ فـ Totum أصبحت todo ، و operan

(*) لغة الأمريكيين والإنجليز . (المترجم)

أصبحت obra ، و ecclesia أصبحت iglesia . كذلك رققت اللغة الفرنسية الحروف الساكنة اللاتينية ، وكثيراً ما أسقطتها فى النطق وإن ظلت محتفظة بها فى الكتابة : tout ، oeuvre ، église ، est . ونطق بالقسم الذى أقسمه لويس الألمانى Louis the German . وشارل الجسور بلغتين هما الألمانية والفرنسية(*) — الفرنسية التى كانت لا تزال لاتينية إلى حد سميت معه اللغة الرومانية lingua romana ، ثم انقسمت هذه اللغة الرومانية إلى ما سمته فرنسا لغتين : langue d'oc وهى لغة فرنسا الواقعة فى جنوب نهر اللوار و langue d'oïl وهى لغة فرنسا الشمالية(**) ؛ فلقد كان من عادات العصور الوسطى التفريق بين اللهجات بالطريقة التى ينطقون بها اللفظ المقابل للفظ « نعم » العربى ؛ فأهل فرنسا الجنوبية كانوا يعبرون عنه بلفظ oc المشتق من اللفظ اللاتينى hoc ومعناه هذا ، أما أهل الشمال فكانوا يستعملون لفظ oïl وهو مزيج من اللفظين اللاتينيين hoc ille ، أى هذا — ذاك ؛ وكان لفرنسا الجنوبية لهجة من لهجات اللانج دك تسمى البروفنسال أضحت فيما بعد لغة أدبية مصقولة على أيدى الشعراء الغزلين ، ولكن الحروب الصليبية الألبجنسية كادت تقضى على هذه اللغة .

وكونت إيطاليا لغتها القومية ببطء أكثر مما تكونت به لغتا أسبانيا وإيطاليا . ذلك أن اللاتينية كانت لغتها الوطنية ، وأن رجال الدين ، وهم الذين كانوا يتكلمون اللغة اللاتينية ، كانوا كثيرى العدد فى إيطاليا ، وأن استمرار

(*) وتدل الثلاثة السطور الأولى من هذا القسم على البطء الذى نشأت به اللغتان الفرنسية والألمانية "Pro Deo amur et pro Christian poblo et notre Commun salvament, dist di in avant, in qnant Deus savir et podir me punt". "In Gedes min a ind in these Christian folches unser bedhero gealnissi, fon thesemo dage frammordes, so frame so mir Got gewizci indi madh forgibit"

وترجمتها العربية هى : حبا فى الله ، ولخير الشعب المسيحى ، ولنجاتنا جميعا ، ومن هذا اليوم إلى ما بعده ، بقدر ما يهبنى الله من الحكمة والقوة » .

(**) معنى اللفظين oc و oïl كليهما « نعم أو هذا » وكل الفرق هو فى طريقة النطق باللفظ الذى يحمل هذا المعنى . (المترجم)

ثقافتها ومدارسها منع اللغة أن تتغير بنفس اليسر والتحرر اللذين تغيرت بهما فى بلاد ذات تقاليد متقطعة غير متصلة .

ولقد كان القديس أنطونيوس أحد رجال الدين فى پدوا فى ذلك العام المتأخر عام ١٢٣٠ يخطب العامة باللغة اللاتينية ؛ بيد أن عظة لاتينية ألقاها فى پدوا نفسها عام ١١٨٩ أسقف لاتينى زائر كان لا بد أن يترجمها إلى اللغة الدارجة أسقف من أساقفة تلك المدينة[٢] . ولم يكد يكون للغة الإيطالية وجود فى بداية القرن الثالث عشر ؛ وكل ما كان فى إيطاليا فى ذلك الوقت نحو أربع عشرة لهجة ، كانت هى استمراراً وتحريفاً متنوعاً للهجات السوقة لا تكاد إحداها يفهمها الباقون الذين لا ينطقون بها ، وتعتز كل منها بما بينها وبين غيرها من فروق اعتزازاً مبعثه العنصرية العارمة ؛ وكان لكل حى من الأحياء المختلفة فى المدينة الواحدة — كمدينة بولونيا — فى بعض الأحيان لهجة مختلفة . لهذا كان لزاماً على أسلاف دانتى أن يخلقوا لغة ، كما كان عليهم أن يخلقوا أدباً . ولقد حسب الشاعر فى أحد أخيلته الظريفة أن الشعراء الغزلين التسكانيين اختاروا أن يكتبوا شعرهم باللغة الإيطالية لأنهم كانوا يكتبون فى الحب ، ولأن السيدات اللائى كن يخاطبونهن قد لا يفهمن اللغة اللاتينية[٣] . غير أنه مع هذا تردد فى عام ١٣٠٠ بين اللغة اللاتينية واللهجة التسكانية أيهما يختار لكتابة *الملهاة الإلهية* . وكان الفارق البسيط بين اللغة التى اختارها والتى لم يخترها هو الذى أنجاه من النسيان .

وبينا كانت اللغة اللاتينية تنقسم وتتولد منها اللغات الرومنسية ، كانت اللغة الألمانية القديمة تتفتت هى الأخرى إلى اللغة الألمانية الوسطى ، واللغة الفريزية ، والهولندية ، والفلمنكية ، والإنجليزية ، والدنمرقية ، والسويدية ، والنرويجية والأيسلندية . وليست عبارة « الألمانية القديمة » إلا تعبيراً سهلا يشمل اللهجات الكثيرة التى كانت تفرض سيادتها القبلية أو الإقليمية فى ألمانيا قبل عام ١٠٥٠ :

وهى اللهجات الفلمنكية ، والهولندية ، والوستفالية (الغالية الغربية) والإبستقالية (الغالية الشرقية) والألمانية Allemanic ، والباڤارية ، والفرنكونية ، والثورنجية ، والسكسونية ، والسيكيزية . . . . وتطورت اللغة الألمانية القديمة إلى الألمانية الوسطى (١٠٥٠ — ١٥٠٠) وكان من أسباب هذا التطور تدفق الكلمات الجديدة التى جاءت مع الدين المسيحى . ذلك أن الرهبان القادمين من أيرلندة ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وإيطاليا جدوا فى وضع المصطلحات التى كانوا فى حاجة إليها لترجمة الألفاظ اللاتينية . فكانوا فى بعض الأحيان يدخلون كلمات لاتينية بنصها إلى اللغة الألمانية — مثل Kaiser (قيصر) و Prinz (أمير) و Legende (قصة) ؛ وتلك لصوصية مشروعة ؛ لكن كان من المآسى تأثير التركيب اللاتينى للجمل كتأخير الفعل إلى آخر الجملة — فقد أحل الوقفات الجامدة المقلوبة القاطعة للأنفاس التى نراها فى الأسلوب الألمانى المتأخر محل التراكيب السهلة التى كانت من خصائص لغة الشعوب الألمانية[٤] . ولعل أجمل اللغات الألمانية كانت هى اللغة الألمانية العليا الوسطى التى كتب بها الشعراء العظام فى القرن الثالث عشر — ولتر ڤن در ڤو جلويد Walter vsn der Vogelweide ، وهارتمـــان ڤن أوى Hartman von Aue ، وجتفرايد الاسترسبرجى Goufried of Strassbourg ، و ولفرام ڤن اسشنباخ Wolfram von Eschenbach ؛ ولم تعد اللغة الألمانية إلى مثل هذه البساطة والمرونة ، والوضوح ، والقصد مباشرة إلى المعنى المطلوب إلا على يد هين Heine وجيتة الشاب .

وانتقل اللسان التيوتونى إلى انجلترا فى القرن الخامس مع الإنجليز ، والسكسون والجوت ، وكان هو أساس اللغة الإنجليزية الحاضرة . فهو الذى حباها بكل ما تنطوى عليه تقريباً من كلمات قصيرة طلية . ثم طغت اللغة الفرنسية على البلاد حين أقبل عليها النورمان ، وسيطرت على البلاط ، والمحاكم ، والأشراف من عام ١٠٦٦ إلى ١٣٦٢ ، وإن ظلت اللاتينية اللغة السائدة فى

الدين والتعليم ، وبقيت (إلى عام ١٣٧١) واجبة الوثائق الرسمية ، ودخلت آلاف الكلمات الفرنسية فى اللغة الإنجليزية ، وبخاصة فى الثياب ، والطهو ، والقانون ؛ حتى أصبحت نصف المصطلحات فى القانون الإنجليزى فرنسية(٥) ؛ وظلت آداب فرنسا وإنجلترا مدى ثلاثة قرون آداباً واحدة ؛ كما ظلت الرسائل الإنجليزية فى روحها ولغتها حتى زمن تشوسر لا قبل (١٣٤٠ — ١٤٠٠) نصف فرنسية . ولما فقدت إنجلترا أملاكها فى فرنسا عادت إلى الانطواء على نفسها ، وانتصرت العناصر الأنجليسكسونية فى اللسان الإنجليزى ؛ ولما زالت السيطرة الفرنسية من البلاد ، كانت اللغة الإنجليزية قد اغتنت غناء لا حد له ؛ فقد استطاعت بما أضيف إلى أصلها الألمانى من ألفاظ فرنسية ولاتينية ، أن تعبر عن كل فكرة من آلاف الأفكار المختلفة بثلاثة تعبيرات مختلفة (kingly, royal بمعنى ملكى ؛ towfold, double, duplex بمعنى مزدوج ؛ daily, Journal, diurnal بمعنى يومى . . . .) . وإلى هذا يرجع غناها بما فيها من مترادفات تميز بها الفروق المختلفة فى المعانى والاختلافات الدقيقة فى ألفاظ الحديث . ومن يعرف تاريخ الألفاظ يعرف التاريخ كله .

الفصل الثاني

عالم الكتب

وكيف كانت تكتب هذه اللغات المختلفة ؟ لقد استعمل البرابرة بعد أن سقطت رومة في أيديهم عام ٤٧٦ الحروف الهجائية اللاتينية ، وكتبوها كتابة « جارية » ، ربطوا فيها الحروف بعضها ببعض ، وخلعوا على معظمها شكلا دائريا بدل الحروف المعتدلة التي كانت سهلة الاستعمال في الكتابة على السطوح الصلبة كالحجارة أو الخشب . وكانت الكنيسة في تلك القرون تفضل الكتابة ذات الحروف « الكبيرة » لتسهل بذلك قراءة كتب القداس وكتب الصلوات . ولما عمل النساخون في عهد شارلمان على حفظ الآداب اللاتينية بنسخ عدة كتب من الآداب القديمة ، استخدموا في عملهم هذا كتابة ذات حروف « صغيرة » ، واتفقوا على صور معينة لهذه الحروف ، فأوجدوا بذلك « الحروف الصغيرة المقررة » التي ظلت أربعة قرون الطريقة العادية التي تكتب بها نسخ العصور الوسطى . وكأنما أريد أن تتمشى هذه الحروف مع الزخارف الخصيبة التي أخذت تنمو في العمارة القوطية فأضيفت إليها شرط تزينها ، وخطوط شَعْرية رفيعة ، وزوائد معقوفة ، فأصبحت هي الحروف « القوطية » التي ظلت منتشرة في أوربا إلى عهد النهضة ، وفي ألمانيا حتى يومنا هذا . ولم توضع علامات الترقيم إلا في عدد قليل جداً من مخطوطات العصور الوسطى ؛ لأن هذه الوسيلة التي ترشد القارئ إلى حيث يلتقط نَفَسه قد ضاقت في أثناء الغوص التي صحبت غارات البرابرة ، ثم عادت إلى الظهور في القرن الثالث عشر ولكنها لم يعم استعمالها حتى قررتها الطباعة في القرن الخامس عشر . وكانت الطباعة قد أعدت عدتها إلى حد ما في عام ١١٤٧ لا بعد وذلك باستعمال القطع الخشبية . وبدأ ذلك في أديرة

بلاد الرين لطبع الحروف الأولى أو الرسوم على المنسوجات[٦] . وكانت أشكال كثيرة من الاختزال تستخدم فى تلك الأيام ، وكلها أحط كثيراً من « العلامات التيرونية » التى توصل إليها أرقاء شيشرون .

وكانوا يكتبون على الجلد السميك ، وأوراق البردى ، والجلد الرقيق أو الورق ، بريش الطير ، أو بأقلام الغاب ، ويستخدمون لذلك مداداً أسود أو ملوناً . واختفى البردى من الاستعمال العام فى أوربا بعد فتح العرب مصر . وكان الرق المتخذ من جلد الخراف الصغيرة غالى الثمن ، وكان لذلك يُدخر للمخطوطات المترفة ، أما الرق المتخذ من جلد الضأن السميك فكان هو المادة المعتادة للكتابة عليها فى العصور الوسطى . وظل الورق مادة غالية الثمن تستورد من بلاد الإسلام ، ولكن مصانع أقيمت لصناعته فى ألمانيا وفرنسا فى عام ١١٩٠ ، وشرعت أوربا فى القرن الثالث عشر تصنع ورقاً من الكتان .

وكانت كثير من الرقوق يُمحى ما عليها من مخطوطات قديمة ليكتب عليها كتاب جديد ، وكان يُطلق على هذه الرقوق اسم خاص هو palimsest ومعناه « الممحو مرة ثانية » . وقد فقدت كثير من الكتب القديمة بهذا المحو ، وبالوضع الخاطئ للمخطوطات ، وبالحرب والنهب ، والحريق والتلف . فقد نهب الهون مكاتب الأديرة فى بافاريا ، ونهب أهل الشمال مكاتبها فى فرنسا ؛ وتلفت كثير من الكتب اليونانية حين نُهبت القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر تعارض فى قراءة الكتب الوثنية القديمة ؛ وقامت أصوات مرتاعة فى كل قرن تقريباً تندد بهذه الكتب ، منها أصوات جريجورى الأول ، وإزدور الأشبيلى ، وبطرس دميان . ودمر توفيلس كبير أساقفة الإسكندرية كل ما وجده من المخطوطات الوثنية ؛ كما أقنع القساوسة اليونان ، على حد قول دمتريوس كلكنديلاس Demetrius Chalcondylas[٧] ، أباطرة الروم بإحراق جميع مؤلفات الشعراء الغزلين ومنهم سابفو وأنكريون . غير أنه

كان فى هذه القرون نفسها كثيرون من رجال الدين المولعين بالكتب الوثنية القديمة والحريصين على الاحتفاظ بهذه الكتب . وكانوا فى بعض الحالات يفلون سلاح النقد الموجه إليهم بتفسير معنى الشعر الوثنى تفسيراً يتضمن أعظم العواطف المسيحية ؛ واستطاعوا بطريق الاستعارات الظريفة أن يحولوا شعر أوفد الغرامى إلى شعر يحض على مكارم الأخلاق . وكذلك احتفظ النساخون فى الأديرة بقسم كبير من التراث الأدبى القديم[٨] ؛ وكان يقال للرهبان إذا تعبوا إن الله سيغفر لهم ذنباً من ذنوبهم نظير كل سطر ينسخونه ، ويحدثنا أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis أن أحد الرهبان نجا من الجحيم وكان على قيد شعرة منها بحرف واحد نسخه[٩] . ويلى الرهبان وحدهم فى نسخ المخطوطات القديمة الكتبة الخصوصيون أو المحترفون الذين يستخدمهم الأغنياء أو بائعو الكتب أو الأديرة نفسها . وكان عمل هؤلاء النساخين مجهداً مملا جعلهم يدوّنون على الصفحات الأخيرة من المخطوطات المنسوخة مطالب غريبة كقول أحدهم :

بهذا يتم جميع الكتاب

فبحق المسيح هات لى جرعة

وظن كاتب آخر أنه خليق بأكثر من هذا فكتب فى آخر مخطوطه تلك الخاتمة : « فليجز الكاتب على (عمل قلمه) بفتاة جميلة »[١٠] .

ولم تفرض كنيسة العصور الوسطى رقابة منظمة على نشر الكتب ؛ فإذا تبين أن كتاباً ما مناقض للدين ، وكان فى الوقت نفسه ذا تأثير قوى ككتاب أبيلار عن التثليث استنكره مجلس من مجالس الكنيسة ولكن عدد الكتب كان وقتئذ أقل من أن يكون شديد الخطر على الدين القويم ؛ وحتى الكتاب المقدس نفسه كان نادر الوجود فى خارج الأديرة ، فقد كان نسخُه يحتاج إلى عام كامل ، وشراؤه يحتاج إلى إيراد قس أبرشية ؛ ولهذا قل من رجال الدين من

كان يمتلك نسخة كاملة منه [١٢] . غير أن كتاب العهد الجديد وأسفاراً خاصة من العهد القديم كانت أوسع منه انتشاراً . وأخرجت فى القرن الثانى عشر نسخ من الكتاب المقدس ضخمة الحجم ، فخمة الزخرف ؛ ولم يكن يستطاع استعمال هذه الكتب إلا على مكتب ، وكان ذلك عادة فى مكتبة الدير ، وكانت فى بعض الأحيان تشد إلى المكتب بسلسلة للمحافظة عليها . وقد روعت الكنيسة حين وجدت الولدنسيين والألبجنسيين ينشرون ويوزعون تراجمهم هم للكتب المقدسة ، ولهذا حرم مجلس من مجالس الكنيسة عقد فى نربونه (١٢٢٧) على غير رجال الدين أن يكون لديهم أى جزء من الكتب المقدسة ؛ ولقد تحدثنا عن هذا من قبل[١٣] . ولكن يمكن القول بوجه عام إن الكنيسة لم تكن قبل القرن الرابع عشر تعارض فى أن يقرأ الكتاب المقدس غير رجال الدين ؛ وإن لم تكن تشجع هذه القراءة لأنها لم تكن تثق بتفسير العامة لأسرار الكتب الدينية .

وكان حجم الكتاب وعدد صفحاته يحددهما ما يستطاع وجوده من الجلود ، وكان كل جلد منها يطبق لتتكون منه « ملزمة » ، ولم تكن الكتب بعد القرن الخامس تصدر فى صورة ملفات كما كانت تصدر فى العهود القديمة(*) ، بل كانت الجلود تقطع قطعاً مستطيلة لتكون ملازم من أربع أوراق ، أو ثمان ، أو اثنتى عشرة ورقة أو ست عشرة . وكانت ملازم مكونة من ست عشرة ورقة تضم مؤلفات طويلة فى كتب صغيرة الحجم توضع فى الجيب لتكون سهلة الاستعمال وكانت تغلف أحياناً بالرق السميك أو القماش ، أو الجلد المدبوغ ، أو الورق المقوى . وكان الغلاف المصنوع من الجلد يزخرف أحياناً بأن تطبع

(*) وظل كثير من السجلات الحكومية يكتب فى ملفات ؛ حتى أن « أنابيب الملفات » كانت تستعمل فى إنجلترا من عام ١١٣١ إلى عام ١٨٣٣ . وكان المكلف بالمحافظة على هذه السجلات يسمى صاحب الملفات » .

عليه رسوم غير ملونة بقوالب من المعدن المحمى . وجاء الفنانون المسلمون الذين استقروا فى البندقية إلى أوربا بفن ملء هذه الأجزاء المنخفضة من الغلاف بألوان ذهبية . أما الغلاف الخشبى فقد كان يزخرف أحياناً بالميناء أو العاج المحفور ، أو يطعم بالذهب أو الفضة أو الجواهر . وكان مما عابه القديس چيروم على الرومان قوله : « إن كتبكم مطعمة بالحجارة الثمينة ، مع أن المسيح مات عارياً ! »(١٤) وقل أن يوجد من الكتب الحديثة ما يضارع التجليد الفخم الذى حليت به كتب العصور الوسطى .

وكانت الكتب البسيطة نفسها من مواد الترف . فقد كان الكتاب العادى غير المزخرف يكلف مقتنيه ما بين ١٦٠ دولاراً ومائتى دولار من نقود الولايات المتحدة الأمريكية حسب قيمتها فى عام ١٩٤٩(١٥) . وحسبنا شاهداً على هذا أن أحد زعماء حركة إحياء الآداب القديمة فى القرن الثانى عشر وهو برنار من أهل شارتر قد خلف مكتبة لا تزيد مجلداتها على أربعة وعشرين مجلداً . وكانت إيطاليا أغنى بالكتب من فرنسا ، ولهذا جمع أكرسيوس Accursius الأكبر عالمها القانونى الشهير ثلاثة وستين كتاباً . ونسمع عن نسخة عظيمة من الكتاب المقدس بيعت بعشر وزنات — أى بما لا يقل عن ١٠,٠٠٠ دولار ، وعن كتاب للصلوات استبدلت به كرمة ؛ وعن مجلدين من مؤلفات برشيان Prescian أحد النحاة فى القرن الخامس بيعاً ببيت وأرض(١٦) . وعاق غلو الكتب قيام تجارة بائعيها حتى القرن الثانى عشر ؛ حين استأجرت مدن الجامعات رجالا من الوراقين وأصحاب المكتبات لينظموا جماعات من النساخين ينسخون الكتب للمدرسين والطلاب ، وكان هؤلاء الرجال يبيعون نسخاً منها لكل من يعنى بأداء أثمانها . ويبدو أنهم لم يدر قط بخلدهم أن يؤدوا شيئاً من المال لمؤلف حى . وإذا أصر رجل ما على أن يؤلف كتاباً جديداً ، كان عليه أن يؤدى نفقة كتابته ، أو يبحث عن ملك ، أو نبيل ، أو ثرى يمنحه هبة من المال نظير إهدائه

بالكتاب أو الثناء عليه فيه . ولم يكن فى وسعه أن يعلن عن كتابه إلا شفويا ، كما لم يكن فى وسعه أن ينشره — أى يذيعه على الجمهور — إلا بالعمل على أن يستخدم فى إحدى المدارس أو أن يتلى أمام من يستطيع جمعهم من المستمعين . وبهذه الطريقة قرأ چرالد من أهل ويلز حين عاد من أيرلندة فى عام ١٢٠٠ كتابه فى تخطيط هذا القطر Topgraphy على جمعية فى أكسفورد .

وأدى ارتفاع أثمان الكتب ، وقلة الأموال اللازمة لإنشاء المدارس إلى انتشار الأمية إلى حد لو أنه وجد فى بلاد اليونان أو الرومان الأقدمين لحللهم العار . فقد كانت معرفة القراءة والكتابة قبل عام ١١٠٠ فى البلاد الواقعة شمال جبال الألب تكاد تكون مقصورة على « خدم الدين » — وهم رجال الدين ، والحسبة ، والكتبة ، وموظفو الحكومة ، وأصحاب المهن . وما من شك فى أن رجال الأعمال كانوا فى القرن الثانى عشر ممن يعرفون القراءة والكتابة ، لأنهم كانوا يحتفظون بحسابات دقيقة محكمة . وكان الكتاب فى المنزل تحفة ثمينة ؛ وكان فى العادة يقرأ بصوت عال إلى عدد من المستمعين ؛ وقد وضع الكثير من قواعد الترقيم والأسلوب فيما بعد لتيسير القراءة الشفوية ؛ وكان يعنى كل العناية بتبادل الكتب بين الأسر بعضها وبعض ، وبين مختلف الأديرة ، والأقطار .

وكانت دور الكتب كثيرة العدد وإن قل حجمها . وكان القديس قد قرر أن يكون لكل دير بندكتى مكتبة ؛ وكانت بيوت الكارثوزيين والسسترسيين تجد فى جمع الكتب رغم كراهية القديس برنار للعلم ، كذلك كان لكثير من الكتدرائيات — أمثال كتدرائيات طليطلة ، وبرشلونة ، وبامبرج Bamberg وهلدسهايم Hildesheim — مكتبات كبيرة ؛ فكان فى كنيسة كنتربرى مثلا ٥٠٠٠ كتاب فى عام ١٣٠٠ ، ولكن هذا مثل نادر لا يقاس عليه[١٧] ، أما معظم المكتبات فكان فى الواحدة منها ما يقل عن مائة كتاب ؛ وكان فى مكتبة كلونى وهى من أحسن المكتبات ٥٧٠ مجلداً[١٨] . وكان عند مانفرد ملك

صقلية مجموعة قيمة انتقلت إلى البابوية وأضحت نواة مجموعة الفاتيكان اليونانية . وقد بدأت المكتبة البابوية فى عهد البابا دمسوس Damasus (٣٦٦ — ٣٨٤) ، ثم فقدت مخطوطاتها الثمينة ومحفوظاتها القيمة فى فوضى القرن الثالث عشر ، ولهذا يرجع تاريخ مكتبة الفاتيكان الحاضرة إلى القرن الخامس عشر . وشرعت الجامعات — أو على الأصح قاعات كلياتها — تنشئ لها مكتبات فى القرن الثانى عشر ، وأنشأ القديس لويس مكتبة سانت شابل Sainte Chapelle فى باريس ، وأغناها بالكتب التى أمر بنسخها من مائة دير ؛ وكانت كثير من المكتبات ، كمكتبات نتردام ، وسان جرمان ده بريه St. Germain des Prés والسربون مفتوحة للطلبة الموثوق بهم ، وكان من المستطاع استعارة الكتب فى الخارج بضمان واف : وإن طالب العلم اليوم ليصعب عليه أن يقدر قيمة الثروة الأدبية التى كانت المدينة والكلية تضعها بين يديه دون مقابل .

وكانت هناك مكتبات خاصة فى أماكن متفرقة ، وإنا لنجد فى ظلمات القرن العاشر نفسه جربرت Gerbert يجمع كتباً بحماسة محبى الكتب الحقة ؛ وكان لغيره من رجال الدين أمثال چون السلزبرى مجموعات خاصة بهم . كما كان لعدد قليل من النبلاء مكتبات صغيرة فى قصورهم ؛ وكان لفردريك بربرسا وفردريك الثانى مجموعات كبيرة ، وجمع هنرى الأرغونى مكتبة عظيمة حرقت علنا لاتهامه بالاتصال بالشيطان[١٩] . وجاء دانيل من أهل مورلى Morley إلى إنجلترا من أسپانيا فى عام ١٢٠٠ « بطائفة كبيرة قيمة من الكتب »[٢٠] . وكشفت أوربا فى القرن الثانى عشر ثروة أسپانيا العظيمة من الكتب فهرع العلماء إلى طليطلة ، وقرطبة ، وأشبيلة ، وعبرت جموع رجال العلم الجديد التى لا حصر لها جبال البرانس وأحدثت فى الحياة الذهنية فى بلاد الشمال التى كانت وقتئذ فى دور المراهقة انقلابا عظيم الأثر .

الفصل الثالث

المترجمون

كانت أوربا فى العصور الوسطى منقسمة نصفين أحدهما لاتينى والآخر يونانى وإن كانت تجمعها إلى حد ما لغة مشتركة . وكان النصفان متعادين ويجهل أحدهما الآخر . وقد نسى الشرق اليونانى التراث اللاتينى ما عدا القانون ، كذلك نُسى التراث اليونانى فى الغرب كله ما عدا الصقليتين ؛ لكن بعض هذا التراث اليونانى كان مختبئاً وراء أسوار المسيحية — فى بيت المقدس الإسلامية ، والإسكندرية ، والقاهرة ، وتونس ، وأسبانيا ؛ أما العالم الواسع الرقعة البعيد الشقة الذى يشمل الهند والصين واليابان ، والذى كان من عهد بعيد غنيا بالأدب والفلسفة والفن ، فلم يكد العالم المسيحى قبل القرن الثالث عشر يعرف عنه شيئاً .

واضطلع اليهود ببعض العمل الذى يهدف إلى ربط الثقافات المختلفة بعضها ببعض ، فقد كانوا ينتقلون بين هذه الثقافات تنقل مجارى الماء المخصبة تحت تربة الأرض . ولما كثر عدد اليهود المهاجرين من بلاد الإسلام إلى البلاد المسيحية ، ونسوا اللغة العربية ، رأى علماؤهم أنه يجدر بهم أن يترجموا المؤلفات العربية (التى ألف اليهود كثيراً منها) إلى اللغة التى لا يعرف علماء هذا الشعب المشتت غيرها وهى اللغة العبرية . ومن أجل هذا ترجم يوسف قمحى (١١٠٥ ؟ — ١١٩٠ ؟) فى نربونة كتاب « المرشد إلى واجبات القلب » تأليف الفيلسوف اليهودى بهية إلى تلك اللغة . وكان يوسف هذا والد أبناء من جلة العلماء ، ولكن أعلى منهم كعبا فى شؤون الترجمة أبناء يهوذا بن شاؤل بن طبون (١١٢٠ ؟ — ١١٩٠ ؟) ؛ وكان هو أيضاً قد هاجر من بلاد الأندلس الإسلامية إلى جنوبى فرنسا ؛ وهو وإن كان من أكثر أطباء عصره نجاحا فى مهنته كان له

من النشاط ما استطاع به ترجمة المؤلفات اليهودية العبرية لسعديه جاؤن ، وابن جبيرول ، ويهودا هليفى إلى اللغة العبرية . وأثار ابنه صمويل (١١٥٠ ؟ — ١٢٣٢) العالم اليهودى إلى ترجمة كتاب **دليل الحيران** لابن ميمون إلى اللغة العبرية ، وترجم موسى بن طبون كتاب **العناصر** لإقليدس من اللغة العربية أيضا ، وترجم كتاب **القانون** الصغير لابن سينا ، وكتاب **الترياق** للرازى ، وثلاثة من مؤلفات ابن ميمون ، وشروح ابن رشد القصيرة لأرسطو . وتزعّم يعقوب بن طبون حفيد صمويل حركة الكفاح من أجل ابن ميمون فى منپليه ، واشتهر بنبوغه فى علم الفلك ، ولكنه مع هذا ترجم عدداً من الرسائل العربية إلى اللغة العبرية ، كما ترجم بعضها إلى اللغة اليونانية . وتزوجت ابنة صمويل عالما أوسع شهرة من أبيها هو يعقوب أناضولى . وقد ولد يعقوب هذا فى مرسيلية حوالى عام ١١٩٤ ودعاه فردريك الثانى لتدريس اللغة العبرية فى جامعة نابلى ، وفيها ترجم إلى اللغة العبرية شروح ابن رشد الكبرى . وكان لهذه الشروح أبلغ الأثر فى الفلسفة اليهودية . وكانت ترجمة **كتاب المنصورى** للرازى على يد الطبيب الفيلسوف شم طب (١٢٦٤) فى مرسيلية حافزاً قويا إلى النهضة الطبية عند العبرانيين .

وترجمت إلى اللغة اللاتينية كثير من التراجم العبرية للكتب العربية من ذلك أن كتاب **التيسير** لابن زهر ترجم إلى اللغة اللاتينية فى پدوا (١٢٨٠) ؛ وفى بداية القرن الثالث عشر ترجم أحد اليهود أسفار العهد القديم كلها ترجمة حرفية من اللغة العبرية إلى اليونانية مباشرة . وتمثل لنا ترجمة كتاب **كليلة ودمنة** لبيدبا الطرق الملتوية التى كانت تسير فيها الهجرة الثقافية : فقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية من ترجمة أسبانية لترجمة لاتينية لترجمة عبرية ، لترجمة عربيـــة لترجمة فهلوية لترجمة للنسخة السنسكريتية المزعومة[٢١] .

أما التيار الرئيسى الذى صب به تيار الثروة الفكرية الإسلامية فى العالم الغربى فكان عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية . فقد ترجم قسطنطين الأفريقى حوالى عام ١٠٦٠ إلى اللغة اللاتينية كتاب الاعتبار للرازى وكتب إسحق يوديوس فى الطب ، وترجمة حنين العربية لأمثال أبقراط وشرح جالينوس . وجمع ريمند (١١٣٠ ؟) المستنير المتسامح كبير أساقفة طليطلة بعد استردادها من المسلمين طائفة من المترجمين برياسة دمنيكو جنديسلفى وعهد إليهم ترجمة الكتب العربية فى العلوم الطبيعية والفلسفية . وكان معظم هؤلاء المترجمين من اليهود الذين يعرفون اللغات العربية ، والعبرية ، والأسبانية ، بالإضافة إلى اللاتينية فى بعض الأحيان . وكان أكثر هذه الفئة نشاطاً أحد اليهود المتنصرين يدعى حنا الأسبانى (أو « الأشبيلى ») وقد حور الفلاسفة المدرسيون كنيته العربية وهى ابن داود فسموه أفنديث Avendeath . وقد ترجم حنا هذا مكتبة حقة من مؤلفات ابن سينا ، والغزالى ، والفارابى ، . . . والخوارزمى عن أصولها العربية أو عن تراجمها اليهودية . وأدخل بترجمته لكتاب الخوارزمى الأرقام الهندية — العربية فى بلاد الغرب . ولا يقل هذا الكتاب أثراً عن ترجمته لكتاب مدسوس على أرسطو فى الفلسفة والأسرار الخفية يدعى Secretum Secretorum وهو كتاب يدل على سعة انتشاره بقاء مائتى نسخة مخطوطة منه . وكانت بعض الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية مباشرة ، وبعضها يترجم إلى اللغة القشتالية ثم يترجمها غنديسلوى إلى اللاتينية . وبهذه الطريقة حول العالمان كتاب حكور حاتم فأصبح Fon Vitae أو ينبوع الحياة وبه أصبح ابن جبيرول « Avicebron » من أشهر الفلاسفة فى محيط الفلسفة الكلامية .

وكانت هناك روافد أخرى تغذى هذا التيار اللاتينى العربى . من ذلك أن

عالما من باث Bath يدعى أبلار تعلم العربية فى أنطاكية ، وطرسوس ، وطليطلة ثم نقل كتاب إقليدس من العربية إلى اللاتينية (١١٢٠) فكانت هذه الترجمة أول ترجمة لاتينية لهذا الكتاب ؛ وهو الذى أدخل حساب المثلثات من بلاد المسلمين إلى الغرب بترجمته أزياج الخوارزمى (١١٢٦)[٢٣] .

وفى عام ١١٤١ قام بطرس الموقر رئيس دير كلونى هو وثلاثة من العلماء المسيحيين يساعدهم أحد علماء العرب بترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية . ودخل علم الكيمياء والكيمياء الكاذبة العالم اللاتينى بترجمة ربرت من أهل تشستر أحد الكتب العربية فى عام ١١٤٤ . وبعد عام من ذلك الوقت قام رجل إيطالى يدعى أفلاطون التيفولى بترجمة رسالة هيورها مشيحه العظيمة الشأن لمؤلفها أبراهام بارحيا .

وكان أعظم المترجمين على بكرة أبيهم رجلا يدعى حرار من أهل كريمونا . ذلك أنه لما قدم هذا الرجل إلى طليطلة حوالى ١١٦٥ أعجبه بثروة العرب فى العلوم والفلسفة فصمم على أن يترجم خير ما فى هذه الثروة إلى اللغة اللاتينية ، وقضى فى هذا العمل التسع السنين الباقية من حياته ؛ فتعلم اللغة العربية واستعان كما يبـــدو بمسيحى من أهل المدينة وبآخر يهودى[٢٤] .

وليس من المعقول أن يكون هو الذى ترجم الكتب الواحد والسبعين من غير أن يعاونه فيها أحد . ومهما يكن من شىء فإن الغرب مدين له بالتراجم اللاتينية للتراجم العربيـــة لكتب أرسطو فى التحليلات ، وفى السموات والأرض ، والكون والفساد ، والمتيورولوجيا ؛ وبطائفة من الشروح لاسكندر الأفروديسى ، والعناصر والفروض لإقليدس ، وقياس الدائرة لأرخميدس ، والمخروطات لأپلونيوس البرجاوى ، وأحد عشر كتاباً معزوة إلى جالينوس ، وعدة مؤلفات فى الفلك يونانية الأصل ، وأربعة مجلدات يونانية — عربية فى الطبيعة ، وأحد عشر كتاباً فى الطب عند العرب ، من بينها أكبر كتب الرازى وابن سينا والفارابى

وثلاثة من كتب الكندى ، وكتابين لإسحاق إسرائيلى ، وأربعة عشر كتاباً فى الرياضة والهيئة عند العرب ، وثلاث مجموعات من الأزياج الفلكية ، وسبعة مؤلفات عربية فى الهندسة والفلك ؛ وقصارى القول أن ليس فى التاريخ كله رجل أغنى بمفرده ثقافة بأخرى كما فعل چرار هذا . ولا يضارع چرار فى عمله هذا إلا عمل حنين بن إسحق ، وعمل « بيت الحكمة » الذى أنشأه المأمون ، وهما اللذان صبا العلوم والفلسفة اليونانية فى القالب العربى .

ويلى أسپانيا فى مزج الثقافات على هذا النحو مملكة الصقليتين النورمانية . ذلك أن حكام النورمان لم يكادوا يفتحون الجزيرة (١٠٩١) حتى استخدموا مترجمين ليقوموا بترجمة المؤلفات العربية واليونانية فى الرياضة والهيئة المنتشرة فى پالرم إلى اللغة اللاتينية . وواصل فردريك الثانى هذا العمل فى فوجيا Foggia واستقدم إلى بلاطه للقيام به وبغيره من الأعمال عقلاً من أعجب العقول وأكثرها نشاطا فى أوائل القرن الثالث عشر ونعنى بصاحب هذا العقل ميخائيل اسكت . وقد اشتق اسم هذا الرجل من موطنه الأصلى فى اسكتلندة ؛ وتراه فى طليطلة عام ١٢١٧ وفى بولونيا عام ١٢٢٠ ، وفى رومة من ١٢٢٤ إلى ١٢٢٧ ، ثم تراه بعدئذ فى فوجيا أو نابلى . وكان أول ما ترجمه كتاب الأجسام الكرية للبطروجى وهو نقد كتاب بطليموس ؛ وأعجب اسكت بما يمتاز به تفكير أرسطو من حرية واتساع فى الأفق . فترجم إلى اللغة اللاتينية الترجمة العربية لكتاب تاريخ الحيوان لأرسطو بما فيه « أجزاء الحيوان » و « توالد الحيوان » ، وتعزو إليه رواية غير محققة تراجم كتب « ما وراء الطبيعة » ، و « الطبيعة » و « النفس » ، و « والسموات » ، ولعله ترجم كذلك كتاب « الأخلاق » . ووصلت تراجم ميخائيل لكتب أرسطو إلى ألبرتس مجنس وروچر بيكن ، وكان لها أثر كبير فى الحركة العلمية فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب أنچو مناصرة الترجمة فى جنوبى إيطاليا ، وعمل له فى هذا العالم اليهودى موسى من أهل سلرنو ، وأكبر الظن أن

شارل هو الذى قدم المال اللازم لترجمة الموسوعة الطبية الضخمة (١٢٧٤) للرازى وهى المعروفة باسم «كتاب الحاوى» إلى اللغة اللاتينية على يد العالم اليهودى فرج بن سالم الجرجنتى .

وكانت جميع التراجم اللاتينية السالفة الذكر لعلوم اليونان وفلسفتهم منقولة عن التراجم العربية — وكان منها ما هو ترجمة عربية للترجمة السريانية للأصل الذى يكتنفه الغموض . ولم تكن هذه التراجم خالية من الدقة إلى الحد الذى اتهمها به روچر بيكن ؛ ولكن ما من شك فى أن الحاجة كانت منذ ذلك الوقت ماسة إلى تراجم من الأصل مباشرة . وكان من بين أقدم هذه التراجم الأصلية ترجمة كتب أرسطو على يد چيمس الذى لا نعرف عنه أكثر من أنه «كاتب من البندقية» قبل عام ١١٢٨ . وفى عام ١١٥٤ ترجم يوچين «أمير» پالرم كتاب بطليموس فى «البصريات» ، ثم اشترك فى عام ١١٦٠ فى ترجمة لاتينية لكتاب المجسطى من اللغة اليونانية مباشرة . وكان أرستيس من أهل قطانيا قد ترجم فى الوقت عينه (١١٥٦ ؟) كتاب حياة الفلاسفة لديوجنز لِبرتيوس وكتاب مينون وفيدون لأفلاطون . ولم يؤثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الترجمة بالقـــدر الذى كان يحق لنا أن نتوقعه ؛ فنحن لم نسمع إلا عن ترجمة جزء من كتاب الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) لأرسطو (١٢٠٩) ؛ وأعقبت ذلك ترجمة مجدية شرع بعدها فى عام ١٢٦٠ وليم الموربيكى William of Moerbeke كبير أساقفة كورنث الفلمنكى يعاونه فى أغلب الظن عدد من المترجمين بترجمة طائفة من الكتب عن اللغة اليونانية مباشرة . وإن عدد هذه التراجم وأهميتها لتنزلانه بين أبطال نقل الثقافة منزلة لا تعلو عليها إلا منزلة چرارد الكريمونى . وكانت استجابته لطلب صديقه وزميله الراهب الدمنيكى تومس أكوناس من الأسباب التى حملته على ترجمة عدد كبير من مؤلفات أرسطو

تاريخ الحيوانات ، **وتوالد الحيوانات** ، **والسياسة** ، **والبلاغة** ، وعلى إتمام ترجمة بعض التراجم السابقة أو مراجعتها : **الميتافيزيقا والميترولوجية** (الأرصاد الجوية) **وفى النفس** . وترجم للقديس تومس عدة شروح على كتب أرسطو وأفلاطون ؛ وأضاف إلى هذه الأعمال الكثيرة تراجم لكتاب **التشخيص لأبقراط** وكتاب جالينوس **فى الطعام** وعدة مؤلفات فى علم الطبيعة لهرون الإسكندرى وأرخميدس . ولعلنا مدينون له أيضاً بترجمة لكتاب **الأخلاق** لأرسطو كانت تعزى من قبل إلى ربرت جروستستى ، وكانت هذه التراجم جزءاً من المادة التى بنى عليها تومس كتابه العظيم الأثر فى اللاهوت . ولم يحل عام ١٢٨٠ حتى كانت كتب أرسطو كلها تقريباً فى متناول العقل الغربى .

وقد أحدثت هذه التراجم كلها فى أوربا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر ، ذلك أن تدفق النصوص العلمية من بلاد الإسلام واليونان كان له أعمق الأثر فى استثارة العلماء الذين بدءوا يستيقظون من سباتهم ؛ وكان لا بد أن تحدث تطورات جديدة فى النحو وفقه اللغة ، ووسعت نطاق المناهج الدراسية ، وأسهمت بنصيب فى نشأة الجامعات ونمائها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وكان عجز المترجمين عن أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدى المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية فى اللغات الأوربية ؛ ولم يكن هذا أكثر من حادث عارض فى أعمال الترجمة ، ولكن أهم من هذا أن الجبر ، وعلامة الصفر ، والنظام العشرى فى الحساب قد دخلت كلها فى بلاد الغرب المسيحية بفضل هذه التراجم ، وأن الطب من ناحيته النظرية والعملية تقدم تقدما عظيما بفضل ما قام به العلماء المترجمون اليونان ، واللاتين ، والعرب ، واليهود ، وأن ما كان لعلم الهيئة اليونانى والعربى من شأن خطير قد أحدث ، وكان لا بد أن يحدث ، توسعا فى علوم الدين ، وفى تعديل أفكار العلماء عن

الإله ، وكان ذلك إرهاصا بتغيير فى هذه الناحية أوسع مدى جاء بعد عهد كوپرنيق . وإن فى إشارات روچر بيكن المتكررة لابن رشد ، وابن سينا ، والفارابى لدليلا على ما كان لهؤلاء العلماء من تأثير وحافز جديد . وفى ذلك يقول روچر بيكن نفسه : « لقد جاءت إلينا الفلسفة من العرب »(٢٥) ، وسنرى أن الذى دعا تومس أكوناس لتأليف كتابه الجامع فى اللاهوت هو أن يحول دون تسرب التفاسير العربية لأرسطو إلى علوم الدين المسيحية . وهكذا ردّ الإسلام إلى أوربا ما أخذه عن اليونان بطريق بلاد الشام ؛ وكما أن هذه العلوم كانت بداية ذلك العصر العظيم عصر العلوم والفلسفة العربية ، كذلك أثارت هذه التراجم عقل أوربا وحفزته إلى البحث والتفكير ، وأرغمته على أن يشيد ذلك الصرح العقلى الخطير صرح الفلسفة المدرسية ، وأن ينقض ذلك الصرح الفخم حجراً بعد حجر ، فينهار بذلك نظام العصور الوسطى الفلسفى فى القرن الرابع عشر ، وتبدأ الفلسفة الحديثة فى غمرة التحمس العظيم أثناء عصر النهضة .

الفصل الرابع

المـــدارس

وكان الذى يقوم بنقل الحضارة من جيل إلى جيل الأسرة ، والكنيسة ، والمدرسة . وكان يعنى عناية خاصة بالتربية الخلقية فى العصور الوسطى ، على حساب الثقافة العقلية ، كما يعنى اليوم بالتربية العقلية ، على حساب التأديب الخلقى.. ولم يكن من غير المألوف فى إنجلترا بين الطبقات الوسطى والعليا أن يرسل الولد فى سن السابعة أو نحوها ليربى وقتاً ما فى بيت غير بيته ؛ وكان الغرض المقصود من هذا تمكين الروابط بين الأسر من جهة ، وإبعاد الولد عن اللين المنبعث من حنان الأبوين من جهة أخرى[٣٦] . وكان نظام المدارس الفخم الذى أنشأته الإمبراطورية الرومانية قد انهار فى خلال الفوضى الناشئة من الغارات ومن نقص سكان المدن ، ولما أن هدأت موجة الهجرة فى القرن السادس بقيت قلة من المدارس العلمانية فى إيطاليا ؛ وكان معظم الباقى مدارس لتعليم المعتنقين الجدد للدين المسيحى وقساوسة المستقبل . وظلت الكنيسة فترة من الزمن (٥٠٠ — ٨٠٠) تخص بعنايتها التدريب الأخلاقى ، ولم تكن ترى أن نقل العلوم الدنيوية من واجباتها ؛ ولكن الكتدرائيات ، والأديرة ، وكنائس الأبرشيات وأديرة النساء ، قد حفزها شارلمان إلى فتح أبوابها لتعليم البنين والبنات تعليما عاما .

وحملت مدارس الأديرة وحدها فى أول الأمر هذا العبء كله تقريباً . وكانت المدارس نوعين مدرسة داخلية تهيئ التعليم للمستجدين ومن ينذرهم آباؤهم للرهبنة أو الكنيسة ، ومدرسة خارجية تعلم الأولاد من غير أجر على

ما يظهر(٢٧) . ونجت مدارس الأديرة الألمانية من اضطرابات القرن التاسع ، وأسهمت بنصيب مثمر فى النهضة الأتونية Ottonian ؛ وكانت ألمانيا فى القرنين التاسع والعاشر تعلو على فرنسا فى كل ما يزين العقل ، ذلك أن انحلال البيت الكارولنجى فى فرنسا ، وغارات أهل الشمال ، كانا ضربتين قويتين وجهتا إلى مدارس الأديرة ، ولهذا لم تبق مدرسة القصر التى أنشأها شارلمان فى بلاط الفرنجة بعد أن مات شارل الأصلع (فى عام ٨٧٧) . وزادت الأسقفيات الفرنسية قوة كلما زاد الملوك ضعفا ، ولما أن وقفت غارات أهل الشمال كان الأساقفة ورجال الدين فى خارج الأديرة أغنى من رؤساء الأديرة ومن الأديرة نفسها ، ولهذا قامت مدارس الكتدرائيات فى القرن العاشر فى باريس ، وشارتر ، وأورليان ، وتور ، ولاؤن ، وريمس ، ولييج ، وكولونى ؛ على حين أن مدارس الأديرة ضعفت فى ذلك القرن ؛ ولما توفى فلبرت الصالح العظيم فى شارتر ، احتفظ الأسقف إيڤو Ivo بالمستوى الرفيع وبحسن السمعة اللذين نالتهما مدرسة كتدرائيتها فى الدراسات اليونانية والرومانية القديمة ، وجرى برنار أسقف شارتر الذى خلف إيڤو على تقاليد سلفه الطيبة ؛ وقد وصف حنا السلزبرى برنار هذا فى القرن الثانى عشر بقوله إنه « فى الوقت الحاضر أغزر منبع للآداب فى غالة وأعظم هذه المنابع روعة »(٢٨) . وفى إنجلترا ذاعت شهرة مدرسة يورك حتى قبل أن تعبر ألكوين إلى شارلمان ؛ وكادت مدرسة كنتربرى تصبح جامعة ذات مكتبة كبيرة ، وكان أمينها هو الرجل العظيم حنا السلزبرى السالف الذكر ، وهو رجل من أعظم العلماء والفلاسفة عقلا فى العصور الوسطى . ويبدو أن الطلاب الذين يهيأون لأن يكونوا قساوسة كان ينفق عليهم من أموال الكتدرائية ، أما غيرهم من الطلاب فكانوا يؤدون أجوراً قليلة . وقد أصدر مجلس لاتران الثالث (١١٧٩) قراراً يقول : « لكى لا يحرم الأطفال الفقراء من فرصة القراءة والرقى . . . يجب أن يخصص مرتب كاف لمدرس يعلم بالمجان من يعدون لممارسة مهنة الكهانة

والفقراء من التلاميذ »[٢٩] وطالب مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) بأن ينشأ كرسي للنحو فى كل كتدرائية من كتدرائيات العالم المسيحى ، وأمر كل كبير أساقفة بأن يكون لديه كرسيان للفلسفة والقانون الكنسى[٣٠] . وحض البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فى أوامره السامية كنائس الأبرشيات على أن تنشئ مدرسة للتعليم الأولى ، وتدل البحوث الحديثة على أن مدارس الأبرشيات هذه — المخصصة أولا للتعليم الدينى — كانت منتشرة فى جميع أنحاء العالم المسيحى[٣١] .

ترى ماذا كانت نسبة المراهقين من الأهلين الذين كانوا يؤمون هذه المدارس ؟ أما البنات فلم يكن يذهب إليها فيما يبدو إلا بنات الطبقة الموسرة ، وكانت معظم الأديرة تنشئ مدارس للبنات كالمدرسة التى فى أرجنتى Argenteuil ؛ وعلمت هلواز الآداب القديمة تعليما ممتازاً (حوالى عام ١١١٠) ، ولكن أغلب الظن أن هذه المدارس لم تدخلها إلا نسبة صغيرة من البنات . ومن مدارس الكتدرائيات ما كانت تقبل البنات ، فها هو ذا أبلار يحدثنا عن « النساء الشريفات المولد » اللائى كن يذهبن إلى مدرسة نتردام فى باريس عام ١١١٤[٣٢] . أما الأولاد فكانوا أحسن حظا من البنات ، ولكن يبدو أن ابن رقيق الأرض كان يصعب عليه أن ينال تعليما ما[٣٣] . وإن كنا نسمع أن بعض الأرقاء استطاعوا أن يلحقوا أبناءهم بأكسفورد[٣٤] . وكان كثير من المواد التى تعلم الآن فى المدرسة يعلم وقتئذ فى المنزل أو بالتدرب فى الحوانيت ؛ ولا ريب فى أن انتشار الفنون فى العصور الوسطى والدرجة الرفيعة التى بلغتها يوحيان بأنه كان ثمة فرص واسعة للتدرب على الفنون والحرف . وتقدر إحدى الإحصاءات عدد الأولاد الملتحقين بالمدارس الأولية بإنجلترا فى عام ١٥٣٠ بستة وعشرين ألفاً من بين سكانها الذين يقدرون فى ذلك الوقت بخمسة ملايين ، أى بجزء من ثلاثين جزء من سكانها فى عام ١٩٣١[٣٥] ؛ ولكن دراسة حديثة لهذا

الموضوع تقول إن « القرن الثالث عشر كان أقرب إلى التعليم الشعبي والاجتماعي من القرن السادس عشر »[٣٦] .

وكان قس من قساوسة بيت الكتدرائية هو الذى يدير مدرسة الكتدرائية عادة ؛ وكان يسمى بأسماء مختلفة هي ارشكولا (كبير المدرسة) Archiscola أواسكلاريوس scolarius أواسكلاستكس Scolasticus (المدرس) . وكان التعليم كله باللغة اللاتينية ؛ وكان التأديب صارما ، فكان الضرب يعدّ من مستلزمات التعليم كما كانت الجحيم من مستلزمات الدين ، ومن أجل هذا كانت مدرسة ونشستر تحيي طلابها ببيت من الشعر سداسي الأوتاد صريح فى معناه وهو : «Aut disce, an discede manet sors tertia caedi» ومعناه « تعلّم أو ارحل والثالثة التى تختارها هي أن تضرب » . وكان المنهج يبـدأ بالمجموعة الثلاثية — النحو والبلاغة ، والمنطق — ؛ ثم ينتقل الطالب بعدها إلى « المجموعة الرباعية » — الحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك ؛ وكانت هذه هي « الفنون الحرة السبعة » . على أن هذه المصطلحات لم تكن لها فى ذلك الوقت نفس المعنى الذى لها فى الوقت الحاضر . فأما المجموعة الثلاثية Trivium فكان معناها بطبيعة الحال أنها مكونة من ثلاث طرق ، وأما الفنون الحرة فهي التى عرفها أرسطو قبل ذلك الوقت بأنها المواد الخليقة بالأحرار الذين لا يجرون وراء المهارات العملية (وكانت هذه تترك لصبيان الصناعات) ، بل يسعون وراء التفوق العقلي والخلقي[٢٨] . وكان ڤارو (١١٦ — ١٢٧ ق . م) قد كتب سبعة كتب فى التأديب ذكر فيها سبع دراسات وصفها بأنها تؤلف المنهج اليونانى الرومانى . وكتب مارتيانس كابلا Martianus Capella فى القرن الخامس الميلادى كتاباً فى مبادئ التربية نحا فيه منحى الاستعارة والتشبيه وكانت له شهرة واسعة وسماه « فى زواج الفلسفة وعطارد On the Marriage of Philosophy and Mercury » ، وأخرج الطب والعمارة من مناهج التعليم لأنهما دراستان

عمليتان أكثر مما يجب أن تكون الدراسات ، وبقيت بعد السبع الدراسات الشهيرة . ولم يكن « النحو » هو الدراسة المملة التي تضيع فيها روح اللغة بدراسة عظامها ، بل كان هو فن الكتابة (gramma, graphs) ؛ وقد عرفه كسيودوزرس بأنه هو دراسة العظيم من الشعر والخطابة دراسة تمكن الإنسان من أن يكتب كتابة صحيحة ظريفة . وكانت هذه الدراسة تبدأ فى مدارس العصور الوسطى بالمزامير ، ثم تنتقل إلى غيرها من أسفار الكتاب المقدس ، ثم إلى كتب آباء الكنيسة اللاتين ، ثم إلى الآداب اللاتينية القديمة — شيشرون ، وفرجيل ، وهوراس ، واستانيوس ، وأوفد . وظل معنى البيان هو فن الحديث ، ولكنه كان يشمل أيضاً دراسة واسعة فى الأدب . ويبدو أن المنطق كان من الموضوعات الراقية التى لا يمكن أن تشملها المجموعة الثلاثية . ولكن يبدو أنه كان من الخير للتلاميذ أن يتعلموا اتباع قواعد المنطق حين يبدءون يحبون الجدل .

وأدخلت الثورة الاقتصادية شيئا من التغيير فى ميدان التعليم ، فقد أحست المدن التى تعيش بالعمل فى التجارة والصناعة بحاجتها إلى موظفين ذوى تدريب عملى ؛ ولهذا أنشأت ، رغم معارضة قوية من جانب الكنيسة ، مدارس زمنية يعلم فيها مدرسون علمانيون نظير أجور يتقاضونها من آباء التلاميذ . وكان الأجر السنوى فى المدرسة العامة التى فى مرتبة المدارس الثانوية بأكسفورد نحو أربعة بنسات أو خمسة (٤ ½ دولار أمريكى) ؛ وقد أحصى ڤلانى Villani فى عام ١٢٨٣ تسعة آلاف ولد وبنت فى مدارس الكنائس بفلورنس ، و١١٠٠ فى ست من مدارس « المعَمرات » التى تهيؤهم للاشتغال بالأعمال التجارية والمالية ، و٥٧٥ تلميذاً فى المدارس الثانوية . ونشأت المدارس الزمنية فى فلاندرز فى القرن الثانى عشر ؛ ولم يحل النصف الثانى من القرن الثالث عشر حتى كانت هذه الحركة قد انتشرت فى لوبك Lübeck ومدن البحر البلطى . ونقرأ فى عام ١٢٩٢ عن معلمة تدير مدرسة خاصة فى باريس ، وسرعان ما أضحت هذه واحدة من كثيرات مثلها(٣٩) ، فقد أخذ تحول التعليم إلى الناحية الدنيوية يجرى مجراه .

الفصل الخامس

جامعات الجنوب

وكانت المدارس غير الدينية كثيرة فى إيطاليا بنوع خاص ؛ وكان مدرسوها فى العادة من غير رجال الدين بخلاف ماكانت عليه الحال فيما وراء الألب ؛ كما كانت الروح والثقافة الإيطاليتان بوجه عام أقل فى نزعتهما الدينية مما كانت عليه الحال فى غير إيطاليا من البلاد . بل ذهب البعض إلى أكثر من هذا فحدث حوالى عام ٩٧٠ أن نظم رجل يدعى ڤلجاردس Vilgardus حركة فى راڤنا تهدف إلى إعادة الوثنية[٤٠] . وكان فى البلاد بطبيعة الحال كثير من مدارس الكتدرائيات ، وكانت مدارس كتدرائيات ميلان ، وباڤيا ، وأوستا Aosta ، وپارما ذات كفاية خاصة ، وفى وسعنا أن نحكم على مقدار هذه الكفاية إذا عرفنا أن من خريجها لافرانك وأنسلم ، وكادت مدرسة مُنْتِى كازينو فى عهد دزدريوس تكون جامعة . ولقد تضافر بقاء الأنظمة البندية ، ونجاح المدن اللمباردية فى مقاومة بربرسا (١١٧٦) ، والطلب المتزايد على المعلومات القانونية والتجارية ، تضافرت هذه العوامل كلها على أن تنيل إيطاليا شرف السبق فى مضمار إنشاء الجامعات فى العصور الوسطى .

ولقد احتفلت جامعة پدوا فى عام ١٩٤٥ بالعيد المتمم للمائة بعد الألف من إنشائها على يد لوثير الأول Lothair I . وأكبر الظن أنها كانت مدرسة حقوق لا جامعة ، ولم تتلق المرسوم الذى يجعلها مدرسة عامة إلا فى عام ١٣٦١ . وكان هذا هو الاسم الذى يطلق فى العصور الوسطى على الجامعة التى تضم عدداً من الكليات المختلفة ، وكانت إحدى المدارس الكثيرة التى شرعت من القرن

التاسع عشر وما بعده تحيي دراسة القانون الرومانى : مدارس رومة ، ورافنا ، وأورليان فى القرن التاسع ؛ ومدارس ميلان ، ونربونة ، وليون Lyons فى القرن العاشر ؛ ومدارس ڤرونا ، ومنتوا ، وأنجرس Ongers فى القرن الحادى عشر . ويبدو أن بولونيا هى أولى مدائن غربى أوربا التى وسعت مدرستها فجعلتها مدرسة عامة ، وفى ذلك يقول المؤرخ الإخبارى أودوفريدوس Odsfredus فى عام ١٠٧٦ : « شرع مدرس يدعى پيپو Pepo يحاضر القانون على مسئوليته الخاصة . . . فى بولونيا ، وكان من أعظم الرجال شهرة »[٤١] . ثم انضم إليه غيره من المدرسين ، حتى غدت مدرسة الحقوق فى بولونيا قبل أيام إرنريوس Irnerius بإجماع الآراء خير مدارس أوربا على الإطلاق ؟

وبدأ إرنريوس يدرس القانون فى بولونيا عام ١٠٨٨ ، وانحاز فى تدريسه من جانب الجلف إلى جانب الجبلين ، وفسر فقه القانون الذى عاد وقتئذ إلى الحياة تفسيراً يتفق ومصلحة المطالب الإمبراطورية . ولسنا نعلم أكان منشأ هذا العمل من جانبه أن دراسة القانون الرومانى أقنعته بقوة الحجج التاريخية والعملية التى تؤيد تفوق السلطة الإمبراطورية على السلطة الدينية ، أم أن المكافآت التى تتيحها له الخدمة الإمبراطورية قد أغرته بهذا الانحياز ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأباطرة الذين قدروا له عمله أغدقوا المال على المدرسة ، وهرع عدد كبير من الطلاب الألمان إلى بولونيا . وألف إرنريوس مجلداً فى التأويلات أو الشروح على كتاب القوانين لجستنيان وطبق الطريقة العلمية على تنظيم القانون . ويعد كتاب قوانينه الذى جمعه هو أو جمع من محاضراته آية من آيات العرض الجيـــد والحجج القوية .

وبدأ بإرنريوس العصر الذهبى فى التشريع أثناء العصور الوسطى ، وأقبل الرجال على بولونيا من جميع بلاد أوربا اللاتينية ليتلقوا فيها علم القانون الذى عاد

وقتئذ إلى شبابه ، وطبق جراتيان تلميذ إرنريوس الأساليب الجديدة على التشريع الكنسى ، ونشر (١١٣٩) المجموعة الأولى من القانون الكنسى . وجاء بعد إرنريوس « العلماء الأربعة » — بلجارس Bulgarus ، ومرتينس Martinus ، وياقوبس Jacobus ، وهو جو Hugo — بسلسلة من التأويلات الذائعة الصيت بتطبيق دستور جستنيان على المشاكل التشريعية فى القرن الثانى عشر ، وأفلحوا فى إدخال القانون الرومانى إلى ميدان مطرد الاتساع . وجمع أكرسيوس Acoursius الأكبر (١١٨٥ ؟ — ١٢٦٠) ، أعظم « الشراح » فى بداية القرن الثالث عشر ، أعماله هو وأعمالهم فى شروح عامة أصبحت هى المرجع المعتمد الذى استعان به الملوك والعامة على تحطيم سلطان القانون الإقطاعى ، ومحاربة سلطان البابوات . وبذلت البابوية كل ما تستطيع من الجد لتعطل حركة بعث القانون الذى يجعل الدين عملا من أعمال الدولة وخادما لها ، ولكن الدراسة الجديدة غذت النزعة العقلية وحركة التحول إلى الناحية الدنيوية اللتين قامتا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وكانت هى المعبرة عنهما ، وأوجدت طبقة من المحامين أخذت تتضاعف على مر الأيام وتجد فى تخفيض نصيب الكنيسة فى الحكم وتوسيع سلطان الدولة : ووصل الأمر إلى حد شكا معه القديس برنار من أن محاكم أوربا تدوى بشرائع جستنيان ، ولم تعد تسمع قوانين الله[٤٢] . وكان انتشار فقه القانون الجديد حافزاً إلى خلق روح الاحترام للقانون ، والشغف باتباع العقل لا يقل فى قوته عن تراجم الكتب العربية واليونانية ، وكان هذا الشغف هو الذى أوجد الفلسفة المدرسية الكلامية وقوض بعدئذ أركانها .

ولسنا نعلم متى قامت مدرسة للفنون — أى الفنون السبعة الحرة ، فى بولونيا ، كما لا نعلم أيضاً متى أنشئت مدرسة الطب الشهيرة بهذه المدينة . ومبلغ علمنا أن الصلة الوحيدة التى قامت بين المدارس الثلاث كانت تنحصر فى أن يتسلم خريجو كل واحدة منها درجاتها العلمية من وكيل الأسقف فى بولونيا . وقد نظم

الأساتذة أنفسهم فى نقابة كنقابات الحرف ، وحوالى عام ١٢١٥ نظم طلبة كل كلية أنفسهم فى اتحاد طلاب جنوب الألب أو اتحاد طلاب ما وراء الألب . وضمت هذه « الجامعات » من بداية القرن الثالث عشر طالبات وطلاباً ، وكان فى كليات بولونيا فى القرن الرابع عشر أستاذات[٤٣] .

وأنشئت نقابات الطلاب فى بداية الأمر لتقوم بواجب الحماية المتبادلة لهم وتمكينهم من حكم أنفسهم بأنفسهم ، ثم صار لها فى القرن الثالث سلطة عظيمة على هيئة التدريس ؛ فقد كان فى مقدور الطلبة أن يحولوا بين أى إنسان وبين الاستمرار فى حياة التدريس فى بولونيا بالمقاطعة المنظمة لمن لا يرضيهم من المدرسين . هذا إلى أن مرتبات الأساتذة كانت فى كثير من الأحيان تؤديها « جامعات الطلاب » ، وكان الأساتذة يرغمون على أن يقسموا أن يطيعوا « مديرى الجامعات » أى رؤساء نقابات الطلاب[٤٤] . وكان على المدرس الذى يرغب فى إجازة للتغيب عن العمل ، وإن لم تزد على يوم واحد ، أن يحصل على إذن بذلك من تلاميذه عن طريق رؤساء نقاباتهم . وكان يحرم عليه تحريماً صريحاً أن « يبتدع عطلات بمحض رغبته »[٤٥]. وكانت اللوائح التى تضعها نقابات الطلاب تحدد الدقيقة التى يبدأ فيها المدرس محاضرته ، والتى ينتهى فيها من هذه المحاضرة ، ونوع العقوبات التى تفرض عليه إذا خالف هذه القواعد . وكانت قوانين النقابات تأمر الطلاب أن يغادروا قاعة الدرس إذا أطال الأستاذ محاضرته عن الوقت المحدد لها . وكانت لوائح النقابات تفرض غرامة على المدرس إذا ترك فصلا أو مرسوماً فى شرحه القوانين ؛ كما كانت تحدد مقدار ما يخصص من المنهج لكل جزء من أجزاء الكتب المقررة . وكان يطلب إلى الأستاذ فى بداية كل سنة جامعية أن يودع أمانة قدرها عشرة جنيهات فى أحد مصارف بولونيا ، تخصم منها الغرامات التى يفرضها عليه رؤساء نقابات الطلاب ، ويرد إليه ما يبقى منها فى نهاية العام الدراسى بناء على أوامر أولئك الرؤساء . وكان لجان من الطلاب

تعين لمراقبة سلوك كل مدرس وتبلغ رؤساء النقابات كل ما تراه من شذوذ أو عيب فى هذا السلوك(٤٦) . وإذا ما بدت هذه القواعد لطالب هذه الأيام معقولة إلى درجة غير عادية . وجب عليه أن يذكر أن طلاب الحقوق فى جامعة بولونيا كانوا رجالا بين السابعة عشرة والأربعين من عمرهم ، وأنهم كانوا فى سن يستطيعون وهم فيها أن يؤدبوا أنفسهم ؛ وأنهم جاءوا للدرس لا للعب ، وأن الأستاذ لم يكن موظفاً عند أمناء الجامعة ، بل كان محاضراً حراً يؤجره الطلبة فى واقع الأمر لكى يعلمهم . وكان مرتب المدرس فى بولونيا يتكون من الأجور التى يؤديها طلابه ويحددها اتفاق يعقد معهم . ثم غير نظام الأداء حوالى آخر القرن الثالث عشر حين عرضت المدن الإيطالية ، حرصاً منها على أن يكون لها جامعات خاصة بها ، مرتبات تؤديها البلديات إلى بعض أساتذة بولونيا ؛ فما كان من مدينة بولونيا نفسها وقتئذ (١٢٨٩) إلا أن وعدت بأداء مرتب سنوى لاثنين من الأساتذة ؛ ولكن اختيار الأساتذة ظل متروكا للطلاب ، وزاد عدد هذه المرتبات السنوية التى تؤديها البلديات شيئاً فشيئاً ، حتى إذا كان القرن الرابع عشر انتقل اختيار الأساتذة وانتقلت مرتباتهم إلى المدينة نفسها . ولما أصبحت بولونيا جزءاً من الولايات البابوية فى عام ١٥٠٦ صار تعيين الأساتذة من اختصاص السلطات الكنسية .

بيد أن جامعة بولونيا انطبعت فى القرن الثالث عشر بروح علمانية تكاد تكون معادية للكنيسة ، وقلما نجدها فى غيرها من المراكز التعليمية الأوربية . وجرى غيرها من جامعات إيطاليا على هذا النسق وإن لم يبلغ فيه ما بلغته جامعة بولونيا . فبينا كانت كلية أصول الدين أهم الكليات فى هذه الجامعات الأخرى ، لم يكن فى بولونيا كلية دينية على الإطلاق قبل عام ١٣٦٤ ، بل حل القانون الكنسى فيها محل علم اللاهوت ؛ وحتى علم البيان نفسه قد اتخذ صورة القانون ، بل إن فن الكتابة نفسه أضحى — فى جامعات بولونيا ، وباريس ، وأورليان ،

ومنهلييه ، وتور ، ؛؛: فن كتابة الوثائق القانونية ، أو التجارية والمالية ، أو الرسمية ؛ وكانت درجات جامعية خاصة تمنح فى هذا الفن[٤٧] .
وكان من الأقوال الشائعة أن أقرب ما يمكن الحصول عليه من تعلم إلى الأحوال الواقعية هو الذى يتلقاه الطلاب فى بولونيا ؛ وتروى إحدى القصص المتداولة أن أحد علماء التربية الباريسيين نقض فى بولونيا ما علمه فى باريس ، ثم عاد إلى باريس فنقض فيها ما علمه فى بولونيا[٤٨] . وتزعمت بولونيا فى القرن الثانى عشر الحركة العقلية فى أوربا ، فلما كان القرن الثالث عشر تركت تعليمها يجمد حتى أضحى فلسفة للقانون مدرسية كلامية آسنة ، وحتى أضحت الشروح الأكورسية نصاً مقدساً لا يكاد يقبل التغير ، ويعطل تكييف القانون تكييفاً تقدمياً يوائم سير الحياة ؛ ومن أجل هذا انتقلت روح البحث إلى ميادين أوسع حرية من ميدان القانون .

وانتشرت الجامعات فى جميع أنحاء إيطاليا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ونشأت بعضها من جامعة بولونيا بهجرة الأساتذة والطلاب من هذه الجامعة ؛ ومن ذلك أن پليوس غادرها فى عام ١١٨٢ لينشئ مدرسة فى مودينا ؛ وأن يقوبس دى مندرا Jacobus de Mandra خرج منها إلى رجيو إميليا Reggio Emilia فى عام ١١٨٨ وأخذ معه تلاميذه ، ونشأ من هجرة أخرى حدثت فى أغلب الظن من بولونيا عام ١٢٠٤ مدرسة عامة أو اتحاد مؤلف من عدة كليات فى ڤيسنزا ؛ وفى عام ١٢١٥ غادر رفريدس Roffredus جامعة بولونيا ليفتتح مدرسة للحقوق فى أرزو Arezzo ؛ وفى عام ١٢٢٢ وسع عدد كبير من المدرسين والطلاب الذين غادروا بولونيا مدرسة قديمة كانت فى پدوا ، فأضيفت كليات للطب والآداب إلى مدرسة الحقوق التى كانت فى هذه المدينة ؛ وبعثت إليها مدينة البندقية بطلابها ، وأسهمت فيما كانت تؤديه المدينة من مرتبات للأساتذة ؛ وبذلك أصبحت پدوا فى القرن الرابع عشر من أنشط مراكز

التفكير الأوربى . وفى عام ١٢٢٤ أسس فردريك الثانى جامعة ناپلى ليمنع طلاب إيطاليا الجنوبية من الهجرة جماعات إلى الشمال : ولعل هذا السبب عينه مضافاً إلى الدبلوماسية الكنسية هو الذى حمل إنوسنت الرابع على إنشاء جامعة بلاط رومة التى تبعت البلاط البابوى فى هجراته ومنها هجرته إلى أقنيون نفسها . وفى عام ١٣٠٣ أسس بنيفاس الثامن جامعة رومة التى بلغت مجدها فى أيام نقولاس الخامس وليو العاشر ، وأحرزت لقب سپنزا Sapienza (العاقلة) فى عهد بولس الثالث . وبدأت سينا جامعة بلديتها فى عام ١٢٤٦ ، وپياسنزا فى عام ١٢٤٨ ؛ وقبل أن يختتم القرن الثالث عشر وجدت مدارس القانون ، والآداب ، والطب أيضاً أحياناً ، فى كل مدينة كبرى بإيطاليا .

وكانت جامعات أسپانيا فذة فى نوعها ، فقد أنشأها الملوك وبسطوا حمايتهم عليها ، فكانت تخدمهم وتخضع لإشراف حكوماتهم . فأنشأت قشتالة جامعة ملكية فى بالنسية (Palencia) (١٢٠٨) ثم أنشأت جامعة أخرى فى بلد الوليد (١٣٠٤) ؛ وأنشأت ليون Leon جامعة فى سلمنقة (١٢٢٧) وأنشأت جزائر البليار جامعة فى بلما (١٢٨٠) ، وأنشأت قطلونية جامعة فى لريدا (١٣٠٠) . وكانت الجامعات الأسپانية تقبل إشراف الكنيسة عليها والمعونة المالية منها رغم صلتها بالملوك ؛ ومنها ما نشأ من مداس الكتدرائيات كجامعة بالنسية . وخص سان فرنندو وألفنسوا الحكيم جامعة سلمنقة بأموال كثيرة فى القرن الثالث عشر ،وسرعان ماساوت هذه الجامعة فى شهرتها ومركزها العلمى جامعتى بولونيا وباريس . وكانت معظم هذه الجامعات تعلم اللغة اللاتينية ، والعلوم الرياضية ،والفلك ، وعلوم الدين ، والقانون ؛ ومنها ماكان يعلم الطب ،واللغة العبرية ، أو اليونانية . وافتتح راهب دمنيكى فى عام ١٢٥٠ مدرسة للدراسات

الشرقية فى طليطلة لتدريس اللغتين العربية والعبرية . وما من شك فى أن هذه المدرسة قد أفادت خيراً كثيراً لأن أحد خريجيها ريمند مارتن Raymond Martin (حوالى عام ١٢٦٠) أظهر علماً واسعاً بجميع كبار الفلاسفة ورجال الدين المسلمين . وكذلك كان للدراسات العلمية مكان بارز فى جامعة أشبيلية التى أنشأها ألفنسو الحكيم فى عام ١٢٥٤ . وأنشأ الملك الشاعر دنيز Diniz فى لشبونة جامعة للبرتغال عام ١٢٩٠ .

الفصل السادس

جامعات فرنسا

كانت فرنسا بلا ريب الزعيمة العقلية لأوربا فى العصور الوسطى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ فقد أصبحت لمدارس كتدرائياتها منذ بداية القرن الحادى عشر شهرة دولية عظيمة ؛ وإذا كانت هذه المدارس قد نمت وازدهرت حتى أضحت جامعة عظيمة فى باريس لا فى شارتر ، أو لاؤن ، أو ريمس ، فأكبر الظن أن سبب هذا هو أن تجارة السين والأعمال المالية التى توجد عادة فى العاصمة قد جاءت إلى تلك المدينة بالثراء الذى يغرى العقول وأنها كانت تقدم المال الذى يحتاجه العلم والفلسفة والفن .

وأول من عرف من المعلمين فى مدرسة كتدرائية نتردام هو وليم الشامپووى William of Champeaux (١٠٧٠ — ١١٢١) ، وكانت محاضراته التى تلقى فى أبهاء نتردام مثار الحركة العقلية التى نشأت منها جامعة باريس ؛ ولما خرج أبلار من بريطانى (حوالى عام ١١٠٣) ووجه إلى وليم قياساً منطقياً أفعمه وقضى على سمعته ، وبدأ أشهر المحاضرات فى التاريخ الفرنسى ، هرع الطلاب من كل صوب ليستمعوا إليه ، فازداد عدد طلاب باريس وتضاعف عدد المدرسين . وكان الأستاذ (magister) فى عالم التربية بباريس فى القرن الثانى عشر رجلا أجاز له رئيس كتدرائية نتردام أن يدرس . وكانت جامعة باريس فى ذلك الوقت قد خطت خطوات سريعة لا نستطيع تتبعها ، فارتقت من مدرسة كنيسة المدينة ونالت وحدتها الأولى من هذا المصدر الوحيد-مصدر الإجازة التعليمية . وكانت هذه الإجازة تعطى عادة بالمجان لكل من قضى وقتاً كافياً تلميذاً لأستاذ مرخص بشرط أن يوافق هذا

الأستاذ على طلبه ؛ وكان من التهم التى وجهت إلى أبلار أنه اشتغل بمهنة التدريس دون أن يقضى فترة التلمذة المعتمدة من أستاذ .

وكان إدراك فن التدريس على هذا النحو ، أى الأستاذ المعلّم والصبى المتعلم ، من الأصول التى قامت عليها الجامعة . ولما أن تضاعف عدد الأساتذة أنشأوا لهم بطبيعة الحال نقابة طائفية . وظل لفظ (جامعة Universitas) يطبق منذ قرون على كل هيئة من عدة أفراد بما فى ذلك النقابات الطائفية . وفى عام ١٢١٤ وصف ماثيو باريس « زمالة الصفوة المختارة من المدرسين » فى باريس بأنها منظمة قائمة من زمن بعيد . ولنا أن نفترض ، وإن كنا لا نستطيع أن نبرهن ، أن « الجامعة » اتخذت حوالى عام ١١٧٠ صورة نقابة طائفية للمدرسين لا اتحاداً لعدة كليات ، فلما كان عام ١٢١٠ أصدر البابا إنوسنت الثالث — وكان هو نفسه من خريجى جامعة باريس — مرسوما اعترف فيه بقوانين نقابة المدرسين المدونة واعتمدها ، ثم أصدر هذا البابا نفسه مرسوماً آخر خوّل فيه النقابة أن تختار مندوباً عنها يمثلها فى المحكمة البابوية .

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر انقسم مدرسو(*) جامعة باريس إلى أربع « سلطات » أو كليات كما نسميها الآن (faculties)(**) : اللاهوت ، والقانون الكنسى ، والطب ، و « الفنون » . ولم يكن للقانون المدنى بعد عام ١٢١٩ مكان فى جامعة باريس بعكس ما كانت عليه الحال فى جامعة بولونيا . وكان المنهج يبدأ بالفنون السبعة ، ثم يرقى إلى الفلسفة وينتهى بعلوم الدين . وكان طلبة الفنون Arts (وكانوا يسمون Artistae أى فنانين) هم المقابلين عندنا « للطلاب » الذين لا يزالون فى الجامعة ؛ وإذ كانوا هم يؤلفون الجزء

(*) لا يفرق المؤلف فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة بين مدرس وأستاذ . (المترجم)

(**) الكلمة ذات صلة بكلمة facile الفرنسية ومعناها تيسير أو تخويل أو سلطة للعمل . (المترجم)

الأكبر من المتعلمين فى باريس فقد انقسموا — لتبادل المعونة ولأغراض الألفة والاختلاط — إلى أربع أمم Nations حسب مسقط رأسهم natio أو أصلهم : « فرنسا » (أى المملكة الضيقة الخاضعة خضوعاً مباشراً للملك الفرنسى) وپكاردى Picardy ، ونورمندية ، وإنجلترا ؛ وضم طلاب جنوبى فرنسا وإيطاليا وأسپانيا إلى الطلبة الفرنساويى المولد ، وضم طلبة الأراضى الوطيئة إلى « پكاردى » وطلبة أوربا الوسطى الشرقية إلى « إنجلترا » ، وكان الطلاب الذين جاءوا من ألمانيا من الكثرة بحيث تأخرت تلك البلاد عن إنشاء جامعات بها حتى عام ١٣٤٧ . وكان يحكم كل جماعة « وكيل procurator » أو مدير ، وكل كلية عميد : وكان لطلاب كلية الفنون — ومدرسيها فى أغلب الأحيان — مدير يرأسهم ، ثم اتسعت دائرة أعماله تدريجاً حتى أصبح قبل عام ١٢٥٥ مدير الجامعة كلها .

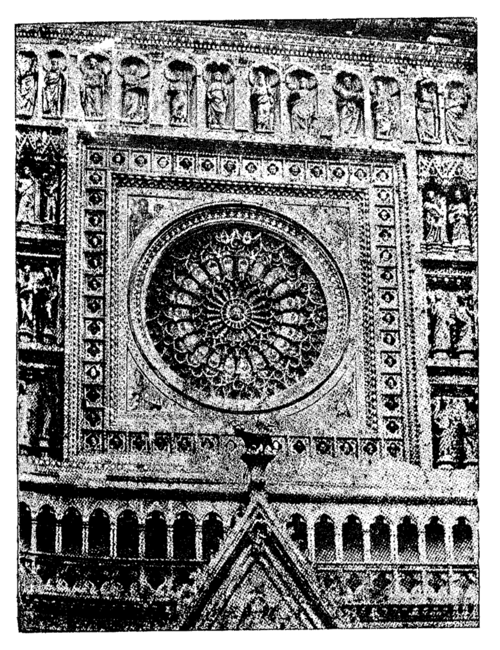
ولسنا نسمع عن وجود أبنية خاصة بالجامعات ، ويلوح أن المحاضرات كانت تلقى أثناء القرن الثانى عشر فى أروقة نتردام ، وسان چنڤييڤ ، وسان ڤكتور ، وغيرها من الأبنية الدينية ، ولكننا نجد فى القرن الثالث عشر مدرسين يستأجرون حجرات خاصة لفصولهم . وكان المدرسون — الذين أصبحوا يسمون أيضاً أساتذة professores ومعنى هذا اللفظ اللاتينى « المعلنون » — رجال دين مترهبين يفقدون مناصبهم إذا تزوجوا . وكانت طريق التعليم هى المحاضرات ، وأكبر السبب فى هذا أنه لم يكن فى مقدور كل تلميذ أن يبتاع الكتب التى تجب عليه دراستها ، أو يحصل على نسخ منها من دور الكتب . وكان الطلاب يجلسون على الطوار أو على الأرض ويدونون كثيراً من المذكرات . وكان العبء الملقى على ذاكرتهم شديداً اضطرهم إلى ابتكار عدة أساليب لمساعدة الذاكرة تتخذ فى العادة شكل أبيات شعرية مثقلة بالمعنى بغيضة الصورة . وكانت لوائح الجامعة تحرم على المدرس أن يقرأ محاضرته للطلاب ، بل كان يطلب

إليه أن يتكلم ارتجالا ، بل كان يحرم عليه أيضاً أن يُقطِّع الكلام . وكان الطلاب يتبرعون بتحذير المستجدين من أن يؤدوا أجر أى منهج قبل أن يستمعوا إلى ثلاث محاضرات فيه . وقد شكا وليم الكنشيسى فى القرن الثانى عشر من أن المدرسين يلقون على الطلاب مناهج سهلة لكى يكسبوا بذلك الشهرة ، والطلبة ، والأجور ، وأن طريقة الاختيار التى تعطى للطالب مجالا واسعاً لاختيار الموضوعات والمدرسين أخذت تنزل بمستوى التعليم(٥٠) .

وكان التعليم ينتعش ويكتسب بعض الحيوية من حين إلى حين بمناقشات عامة تجرى بين المدرسين ، والطلبة المتقدمين ، والزائرين الممتازين ، وكان النقاش يجرى فى العادة على شكل مقرر محدد يسمى **النقاش المدرسى** : فيوضع السؤال ، ويجاب عنه جواباً سلبياً ، ويؤيد هذا الجواب بعبارات مقتبسة من الكتب المقدسة أو كتب آباء الكنيسة ، وبالاستنباط الذى يتخذ شكل الاعتراضات ؛ ويتلو ذلك جواب إيجابى يؤيد بمقتبسات من الكتاب المقدس ، ومن كتب آباء الكنيسة ، وبأجوبة منطقية على الاعتراضات ؛ والنقاش المدرسى هو الذى حدد الصورة النهائية للفلسفة المدرسية فى عهد تومس أكوناس . وكانت تُعقد بالإضافة إلى هذه المناقشات المدرسية الرسمية مناقشات غير رسمية يسمونها « *أى شىء تحب* quodiberta » — يستطيع المناقش بموجبها أن يتقدم بأى سؤال يناقش فى التو والساعة . وقد أوجدت هذه المناقشات غير المقيدة هى الأخرى صورة من الصور الأدبية نشاهد مثلا منها فى كتابات القديس تومس الصغرى ؛ وشحذت المناقشات الرسمية منها وغير الرسمية العقول فى العصور الوسطى ، وأفسحت المجال لحرية التفكير والقول ؛ غير أنها اتجهت عند بعض الناس إلى خلق نوع من المهـــارة يستطيعون به أن يثبتوا أى شىء يريدون إثباته ، أو الشعوذة اللفظية التى تكدس جبالا من الجدل حول أنفه النقط .

وكان معظم الطلاب يعيشون فى مضايف Hospicia تؤجرها جماعات منظمة من الطلاب . وكانت بعض المضايف تأوى فقراء الطلاب نظير أجر اسمى ؛ ومثال ذلك أن بيت الله Hôtel Dieu الملاصق لكتدرائية نتردام خصص حجرة « للطلبة الفقراء » . ثم اشترى چوسيوس اللندنى Jucius of London هذا المسكن فى عام ١١٨٠ واشترك من ذلك الوقت مع المستشفى فى تقديم المسكن والمأكل لثمانية عشر طالباً يقيمون فيه ، ولم يحل عام ١٢٣١ حتى كانت هذه الطائفة من الطلاب قد انتقلت إلى مسكن أوسع من مسكنها القديم ، ولكنها مع ذلك ظلت تسمى نفسها **جماعة الثمانية عشر** . ثم أنشأت طوائف الرهبان ، أو الكنائس ، أو أنشأ المحسنون الخيرون ، مضايف أو مساكن أخرى للطلاب ، وحبست عليها الحبوس ، أو خصت بأقساط سنوية خفضت بعض نفقات العيش على الطلاب . وفى عام ١٢٥٧ وهب ربرت ده سربون Robert de Sorbon قس القديس لويس « بيت السربون » المال اللازم لإيواء ستة عشر طالباً من طلبة علوم الدين ، وأضيفت إلى ذلك هبات لغير هؤلاء من لويس وغيره من المحسنين حتى ارتفع عدد من تشملهم إلى ستة وثلاثين ؛ ومن هذا البيت نشأت كلية السربون(*) وأنشئت كليات — Collegia بمعناها القديم وهو الجماعات — بعد عام ١٣٠٠ ، وجاء المدرسون إليها ليسكنوا فيها ، وعملوا مدرسين خصوصيين للطلاب ، يستمعون إلى محفوظاتهم ، و « يقرأون » معهم النصوص ؛ وأخذ المدرسون القرن الخامس عشر يدرسون بعض المناهج فى أبهاء المساكن ، وازداد عدد المناهج التى تدرس بهذه الطريقة ، ونقص عدد ما يدرس منها فى خارجها ، حتى أضحت « الكلية » مكاناً للتعليم ومسكناً للطلاب فى وقت واحد .

(*) وأصبحت السربون فى القرن السادس عشر الكلية الدينية فى الجامعة ، ثم أغلقتها الثورة فى عام ١٧٩٢ ، وأعادها بعدئذ نابليون ، وهى الآن مركز لتدريس مناهج عامة فى العلوم والآداب فى جامعة باريس .



(الصورة رقم ٢) واجهة وردية – كتدرائية ارفيتو

وحدث مثل هذا التطور فى الكلية من بيت الطلبة فى أكسفورد ، ومنپلييه ، وطولوز . وهكذا بدأت الجامعة من جمعية للمدرسين حتى أضحت جمعية من المعاهد أو الكليات .

وكان من بين مساكن الطلاب فى باريس مسكنان مخصصان للطلاب المبتدئين الجدد فى طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس ، وكان الرهبان الدمنيك من بداية أمرهم يهتمون بالتعليم ويتخذونه وسيلة لمقاومة الإلحاد . وقد أنشأوا لهم مدارس على نظام خاص بهم أشهرها كلها المدرسة العامة Studium generale فى كولونى ، وكانت لهم معاهد أخرى من نوعها فى بولونيا ، وأكسفورد . وأصبح كثيرون من الإخوان أساتذة فى هذه المدارس ، يعلّمون فى الأروقة الخاصة بطائفتهم . وفى عام ١٢٣٢ . انضم ألكسندر الهاليسى Alexander of Hales وهو من أقدر المدرسين فى باريس إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ، وواصل تدريس مناهجه للجمهور فى دير الكردلير Cordeliers ، وأخذ عدد الإخوان الذين يدرسون فى باريس يزداد عاما بعد عام ، كما أخذ عدد من يستمعون إليهم من غير الرهبان يتضاعف ، حتى شكا المدرسون من غير رجال الدين أنهم قد تركوا جالسين أمام مكاتبهم «كالطيور المنفردة فى أعلى البيوت» ، وأجاب الرهبان عن ذلك بأن المدرسين غير الرهبان يسرفون فى الطعام والشراب ، فأضحوا لذلك كسالى بلداء[٥١] . وحدث فى عام ١٢٥٣ أن قتل طالب فى شجار بأحد الشوارع ، فاعتقل ولاة الأمور فى المدينة عدداً من الطلاب ، وأعرضوا عن احتجاجهم وطلبهم أن يحاكموا أمام أساتذة الجامعة أو الأسقف ، وأمر المدرسون بوقف المحاضرات احتجاجاً على هذا التصرف ؛ ولكن اثنين من رهبان الدمنيك ، وواحداً من الرهبان الفرنسيس ، وهم من جمعية المدرسين ، لم يطيعوا أمر الامتناع عن إلقاء المحاضرات ، فقررت الجمعية وقف عضويتهم فيها ؛ غير أنهم لجأوا إلى الإسكندر الرابع فأمر أساتذة الجامعة (١٢٥٥) بإعادتهم إلى

عضوية الجمعية . وأراد المدرسون أن يتجنبوا إطاعة الأمر فتفرقوا ، وحرمهم البابا من الدين واعتدى الطلاب والغوغاء على الرهبان فى الشوارع ؛ ودام الجدل ست سنين تراضى الطرفان بعدها : فقبل الأساتذة بعد أن نظموا من جديد ، المدرسين الرهبان ، وأقسم هؤلاء أن يطيعوا من ذلك الوقت قوانين « الجامعة » . ولكن كلية الفنون حرمت جميع الرهبان حرمانا دائماً من عضويتها . وناصبت جامعة باريس البابوية العداء بعد أن كانت محل عطفهم ، وناصرت الملوك فى نزاعهم مع البابوات ، وأضحت فى مستقبل الأيام مركز حركة « غاليّة » تسعى لفصل الكنيسة الفرنسية عن رومة .

ولم يكن لأى معهد علمى منذ أيام أوسطو من النفوذ ما كان لجامعة باريس ، فقد ظلت ثلاثة قرون لا تجتذب إليها أكبر عدد من الطلاب فحسب ، بل تجتذب فوق ذلك أعظم مجموعة من الرجال ذوى العقلية الممتازة . فأبلار ، وحنا السلزبرى ، وألبرتس مجنس ، وسيجر البرابنتى ، وتومس أكوناس ، وبورفنتونا Boroventura ، وروجر بيكن ، ودنزاسكوتس ، ووليم الأكامى William fs Occam — هؤلاء يكادون يكونون هم تاريخ الفلسفة من ١١٠٠ إلى ١٤٠٠ . وما من شك فى أنه كان فى باريس مدرسون أفذاذ هم الذين أخرجوا أولئك الرجال العظام ، ونشروا من المتعة العقلية ما لا يوجد إلا فى ذرى التاريخ البشرى . يضاف إلى هذا أن جامعة باريس كانت خلال هذه القرون ذات سلطان قوى فى الدين والدولة ، فقد كانت لساناً قوياً يعبر عن الرأى العام ، وكانت فى القرن الرابع عشر من أعظم مراكز التفكير الحر ، وفى القرن الخامس عشر حصناً منيعاً للدين القويم والمحافظة على القديم . ولا يمكن القول بأنها « لم تضطلع بدور حقير » فى الحكم على جان دارك .

وكان لغيرها من الجامعات نصيب فى رفع فرنسا إلى منزلة الزعامة الثقافية فى أوربا . فقد كان فى أورليان مدرسة للقانون منذ القرن التاسع لا بعد ، وكانت

فى القرن الثانى عشر مركزاً للدراسات القديمة والأدبية الحديثة تنافس شارتر ، ولم يكن يفوقها فى القرن الثالث عشر إلا بولونيا فى تدريس القانون المدنى والكنسى . ولا تكاد تقل عنها فى شهرتها مدرسة القانون فى أنجر Angers وهى المدرسة التى أضحت فى عام ١٢٣٢ من أكبر جامعات فرنسا . وكانت طولوز « طلوشة » مدينة بجامعتها إلى إلحادها فى الدين : ذلك أن جريجورى التاسع أرغم الكونت ريمند فى عام ١٢٢٩ على أن يتعهد بأداء مرتبات أربعة عشر أستاذاً — فى علوم الدين ، والقانون الكنسى ، والفنون — يرسلون من باريس إلى طولوز لمقاومة حركة الإلحاد الألبجنسية بفضل ما لهم من النفوذ على الشبان الأكتانيين .

وكانت أشهر الجامعات الفرنسية القائمة فى خارج باريس هى جامعة منپلييه . لقد كانت هذه المدينة ، بفضل وقوعها على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف المسافة بين مرسيليا وأسبانيا ، تستمتع بمزيج وثاب من الدم الفرنسى ، واليونانى ، والأسبانى ، ومن ثقافة هذه الأجناس ؛ وكان من أهلها عدد من التجار الإيطاليين وبقية من الجالية الإسلامية المغربية التى كانت فى وقت ما تحكم المدينة وكانت تجارتها رائجة ناشطة . وأنشأت منبلييه فى وقت غير معروف مدرسة للطب ما لبثت أن فاقت مدرسة سلرنو ، ولسنا نعلم علم اليقين أكان إنشاؤها أثرا من آثار طب سلرنو ، أم طب العرب ، أم اليهود . وأضيفت إلى هذه المدرسة مدارس للقانون وعلوم الدين ، و « الفنون » ، واكتسبت منبلييه بفضل تقارب هذه الكليات وتعاونها شهرة علمية واسعة ، وإن كانت كل واحدة منها كلية مستقلة . واضمحل شأن الجامعة فى القرن الرابع عشر ، ولكن مدرسة الطب انتعشت فى عصر النهضة ، وقام فيها عام ١٥٣٧ أستاذ يدعى فرانسوا ربليه يلقى سلسلة من المحاضرات عن أبقراط باللغة اليونانية .

الفصل السابع

جامعات إنجلترا

نشأت أكسفورد ، كما نشأت بسپورس المماثلة لها فى اسمها ، لتكون معبراً للماشية ؛ ذلك بأن نهر التاميز يضيق عند هذه النقطة ويقل غوره . وبنى حصن عندها فى عام ٩١٢ ، ونشأت سوق ، وعقد الملكان كنوت Cnut وهرلد Harold جمعيات هناك قبل أن تنشأ الجامعة بزمن طويل . ويبدو أن مدارس نشأت فى اكسفورد فى أيام كنوت ، ولكننا لا نسمع بوجود مدرسة كتدرائية بها . ونسمع حوالى عام ١١٧ عن وجود « أستاذ فى أكسفورد » ، Oxenford . وفى عام ١١٣٣ جاء من باريس ربرت پلن Robert Pullen ، وهو رجل من رجال الدين ، وأخذ يحاضر فى اللاهوت فى أكسفورد[٥٢] . وخطت المدرسة خطوات لايعرف التاريخ عنها شيئاً الآن ، أضحت بعدها مدرسة أكسفورد فى القرن الثانى عشر مدرسة عامة أى جامعة — « ولا يعرف أحد متى تم ذلك »[٥٣] وفى عام ١٢٠٩ ، كما يقدر ذلك أحد كتاب ذلك العصر ، كان فى أكسفورد ثلاثة آلاف طالب ومدرس[٥٤] . وكان فيها كما كان فى جامعة باريس أربع كليات : كلية الفنون ، وكلية اللاهوت ، وكلية الطب ، وكلية قانون الكنيسية . أما تدريس القانون المدنى فقد أغفلته الجامعات فى إنجلترا واستقر فى دور المحاكم فى لندن — وكانت دار لنكولن ، وجراى ، والمعبد الداخلى Inner Temple ، والمعبد الأوسط Middle Temple فى القرن الرابع عشر وليدة البيوت أو الحجرات التى كان القضاة وأساتذة القانون القرن الثانى عشر يستقبلون فيها الطلاب ليدربوهم .

وبدأت الكليات فى أكسفورد كما بدأت فى باريس وكمبردج أروقة محبوسة عليها الأموال لفقراء الطلاب ، وأصبحت فى زمن مبكر ، بالإضافة إلى غرضها الأول قاعات للمحاضرات ؛ فكان المدرسون يسكنون فيها مع الطلاب ، ولم ينقض القرن الثالث عشر حتى كانت القاعات هى الأقسام المادية والتعليمية التى تكونت منها الجامعة . وحوالى عام ١٢٦٠ أنشأ سير چون ده باليول Sir John de Balliol الاسكتلندى (والد الملك الذى حكم اسكتلندة فى عام ١٢٩٢) « بيت باليون » فى أكسفورد ؛ ليكفر به عن جرم غير معروف ، ليأوى بعض الطلاب الفقراء الذين سموا socii أى الزملاء ، وخص كلا منهم بثمانية بنسات (أى ما يعادل ٨ دولارات أمريكية) فى الأسبوع . وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أنشأ ولتر ده مرتون Walter de Merton « بيت طلاب مرتون » فى مولدن Malden أولا ثم فى أكسفور بعد قليل ، وحبس عليه بعض المال ، ليبعنى بطلاب بقدر ما تمكنه من ذلك موارده . وتضاعفت هذه الإيرادات أكثر من مرة على أثر ارتفاع قيمة الأرض ، وبلغ هذا الارتفاع حداً شكا معه كبير الأساقفة بكهام Peckham فى عام ١٢٨٤ من أن « الطلبة الفقراء » يتلقون منحاً إضافية « للمعيشة المترفة »(٥٥) . ويمكن القول بوجه عام إن الكليات الإنجليزية لم تغتن بفضـــل المنح الدراسية وغيرها من الهبات فحسب ، بل اغتنت فوق ذلك بفضل ارتفاع قيمة الضياع التى حبست عليها . وفى عام ١٢٨٠ أنشئت قاعة الجامعة — وهى الآن كلية الجامعة University College بهبة من وليم الدرهامى كبير أساقفة رون Rouen . ويتبين الإنسان كيف بدأت هـــذه الكليات الشهيرة بداية متواضعة إذا اطلع على شروط تأسيسها ، فقد كانت تنص على وجود أربعة أساتذة وعدد من الطلاب الذين يهمهم أن يسكنوا معهم . وكان الأساتذة يختارون واحداً من بينهم ليكون « الزميل الأكبر »

أو « الرئيس principal » وهو الاسم الذى يعرف به عمداء الكليات الإنجليزية فى هذه الأيام . وكانت جامعة أكسفورد فى القرن الثالث عشر هى هذه الكليات مجتمعة فى نقابة الأساتذة «University» ؛ وكان هؤلاء يحكمهم وكلاء عنهم ثم مدير يختارونه ويخضع إلى أسقف لنكولن وإلى الملك .

ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كانت أكسفورد مركزاً للنشاط الذهنى والنفوذ العام لا تفوقها فى ذلك إلا باريس . وكان أشهر خريجيها كلهم هو روجر بيكن . والتف حوله عدد آخر من الرهبان الفرنسيس من بينهم آدم مارش Adam Marsh ، وتومس اليوركى Thomas of York ، وجون بكهام John Peckham ، فتألفت منه ومنهم جماعة ممتازة من رجال العلم . وكان زعيمهم وملهمهم ربرت جروستستى Robert Grosseteste (١١٧٥ ؟ — ١٢٥٣) أظرف شخصية فى حياة أكسفورد فى القرن الثالث عشر : فقد درس فيها القانون والطب ، والعلوم الطبيعية ، وتخرج فى عام ١١٧٩ ، ونال درجته فى علوم الدين فى ١١٨٩ ، وسرعان ما اختير بعدئذ « أستاذ مدارس أكسفورد » — وتلك أقدام صوورة من لقب مدير الجامعة .

وأصبح فى عام ١٢٣٥ ، وهو لا يزال مديراً لجامعة أكسفورد ، أسقف لنكولن ، وأشرف وهو فى منصبه هذا على إتمام الكتدرائية العظيمة . وأبدى نشاطا عظيما فى دراسة اللغة اليونانية وأرسطو ، وأسهم فى الجهود العقلية الجبارة التى بذلت فى القرن الثالث عشر للتوفيق بين فلسفة أرسطو والدين المسيحى ، وكتب شروحاً لكتاب الطبيعة لأرسطو ، والتحليلات ، ولخص علوم زمانه فى موسوعة علمية ، وعمل على إصلاح التقويم . وكان يفهم المبادئ التى يقوم عليها المجهر والمرقب ، وفتح أبواباً كثيرة لروجر بيكن فى الرياضيات والعلوم الطبيعية ؛ وأكبر الظن أنه هو الذى عرف بيكن بالخصائص المكبرة

للعدسات[٥٦] . ويبدو أن كثيراً من الآراء التى نعزوها إلى بيكن — فى فن المنظور ، وقوس قزح ، والمد والجزر ، والتقويم ، والاعتماد على التجارب العلمية — قد أشار بها عليه جروستستى ، ونخص منها بالذكر الفكرة القائلة إن العلوم كلها يجب أن تعتمد على الرياضيات ، لأن القوى كلها أثناء انتقالها فى الفضاء تتبع أشكالا وقواعد هندسية[٥٧] . وكتب شعراً فرنسياً ورسالة فى الزراعة ، وكان رجل قانون وطبيباً ، كما كان عالما فى الدين وفى العلوم الطبيعية . وقد شجع دراسة اللغة العبرية ، وكان يهدف بذلك إلى هداية اليهود إلى الدين المسيحى ، وكان فى هذه الأثناء يعاملهم معاملة المسيحى الكثير التسامح ، ويحميهم قدر ما يستطيع من حقد الجماهير واعتدائهم . وكان فوق هذا كله مصلحا اجتماعيا نشيطا ، يدين على الدوام بالولاء للكنيسة ، ولكنه جرؤ على أن يعرض على البابا إنوسنت الرابع (١٢٥٠) مذكرة مكتوبة يعزو فيها عيوب الكنيسة إلى محكمة الكرسى البابوى[٥٨] . وأنشأ فى أكسفورد أول « صندوق » يقرض الطلاب المال بغير فائدة[٥٩] ، وقصارى القول أنه هو أول واحد من ألف من ذوى العقول النابهة الذين أوجدوا بأعمالهم الجليلة هيبة أكسفورد العالية ومكانتها العظيمة فى عالم العلم والعقل .

وأكسفورد الآن جامعة ومركز صناعى معاً ، تصنع السيارات كما تصنع العظماء ، أما كيمبردج فلا تزال مدينة كليات جامعية ، وجوهرة من جواهر العصور الوسطى تزينها الثروة الحديثة وحسن الذوق الإنجليزى ، كل ما فيها ينتمى إلى كلياتها ، ولا يزال الهدوء العقلى الذى هو من خصائص العصور الوسطى باقيا فى هذه البلدة ، أجمل البلدان الجامعية على الإطلاق . ويبدو أن عظمتها الذهنية يجب أن ترجع إلى حادث اغتيال وقع فى أكسفورد فقد قتل أحد الطلاب فى عام ١٢٠٩ امرأة فى تلك البلدة الأخيرة ، فاعتدى أهلها على مسكن الطلاب وشنقوا طالبين أو ثلاثة منهم . وأضربت نقابة المدرسين عن

العمل احتجاجا على ما اقترفه أهل المدينة ؛ وغادر أكسفورد ٣٠٠٠ طالب ومعهم ، بطبيعة الحال ، كثيرون من المدرسين — إذا صدقنا ماثيو باريس وهو رجل لا يوثق بأقواله عادة . ويقال إن عدداً كبيراً منهم ذهبوا إلى كيمبردج وأقاموا فيها قاعات وكليات . ذلك أول ما ذكر عن وجود شيء أعلى درجة من مدرسة أولية . وحدثت هجرة ثانية — من الطلاب الباريسيين في ١٢٢٨ — زاد بها عدد الطلاب زيادة كبيرة . وفي عام ١٢٨١ نظم أسقف إلى Ely أولى الكليات غير الدينية في كيمبردج وهي كلية القديس بطرس التي تسمى الآن پيتر هوس « بيت بطرس » . وشهدت القرون الثلاثة الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر إنشاء كليات أخرى وازدهارها ، منها ما هو آية من آيات العمارة في العصور الوسطى . ويحتضنها كلها نهر كام Cam الهادئ المتثنى ، وتكون هي وملحقاتها طائفة من أروع ما قام به الإنسان من الأعمال .

الفصل الثامن

حياة الطلاب

لم تكن سن طالب العصور الوسطى محددة ؛ فقد يكون فى أى سن ؛ وقد يكون قساً أو راهباً ممتازاً ، أو رئيس دير ، أو تاجراً ، وقد يكون متزوجاً أو غلاماً فى الثالثة عشرة من عمره ، يثقله عبء الكرامة المفاجئة التى ألقيت عليه فى هذه السن . وكان هذا الطالب يذهب إلى بولونيا ؛ أو أورليان ؛ أو منپلييه ليصبح محامياً ، أو طبيباً ، أو يذهب إلى غير هذه الجامعات فى بعض الأحوال لكى يؤهل نفسه لخدمة الحكومة ؛ أو يجد لنفسه فى العادة مجالا فى الكنيسة . ولم يكن يؤدى امتحاناً للدخول فى الجامعة ، بل كل ما كان يطلب إليه أن يعرف اللغة اللاتينية ، وأن يكون قادراً على أداء أجر زهيد لكل مدرس يدرس منهجه عليه . فإذا كان فقيراً ، فإنه قد يستعين على ذلك بمنحة دراسية أو بمعونة تسدها إليه قريته أو كنيسته ، أو يسدها إليه أصدقاؤه أو أسقفه . وكانت هناك آلاف من هذه الحالات(٦٠) . فسامسون Samson رئيس الدير وبطل **أخبار جوسلين** Jocelyn's Chronicle **والماضى والحاضر** لكارليل Carlyle's Past and Present مدين بتعليمه إلى قس فقير كان يبيع الماء المقدس ليؤدى لسامسون أجر تعليمه(٦١) . وكان الطالب الذاهب إلى جامعة أو العائد منها ينتقل عادة بالمجان ، ويجد الطعام والمأوى فى الأديرة التى فى طريقه(٦٢) .

فإذا قدم إلى أكسفورد ، أو پاريس أو بولونيا ألفى نفسه عضواً فى جماعة كبيرة من الطلاب السعداء ، الحيارى ، المقبلين على العلم يجرفهم تيار دافق من الحماسة يجعل الفلسفة – المشوبة بنزعة إلى الإلحاد – مثيرة كالحرب ؛ كما

يجعل الجدل ممتعا فتانا كأنه ألعاب البرجاس . وإذا كان يعيش فى عام ١٣٠٠ فإنه يجد فى باريس ٧٠٠٠ طالب ، وفى بولونيا ٦٠٠٠ ، وفى أكسفورد ٣٠٠٠(*) . وكان عدد طلاب جامعات باريس ، وأكسفورد وبولونيا فى القرن الثالث عشر يزيد عادة على عددهم بعده ، وأكبر الظن أن سبب هذه الزيادة قلة الجامعات المنافسة لها ، وكان الطالب الحديث تستقبله « أسرته » وقد ترشده إلى مسكن يعيش فيه — ربما كان مع أسرة فقيرة . وإذا كان لها صلات قوية بالمسئولين فقد يعطى سريراً ويترك مع غيره من الطلاب فى حجرة فى « بيت الطلبة » ، فتقل بذلك نفقاته . وكان الطالب فى أكسفورد عام ١٣٧٤ يؤدى مائة شلن وأربعة شلنات (ألف دولار وأربعين دولاراً) فى العام نظير مسكنه وطعامه وعشرين شلناً (أن مائتى دولار) أجراً لتعليمه وأربعين شلناً ثمناً لملابسه(٦٥) .

ولم يكن تفرض عليه ملابس جامعية خاصة ، على أنه كان يطلب إليه أن يشد ثوبه الخارجى بالأزرار وألا يمشى حافى القدمين إلا إذا كان جلبابه يصل إلى عقبيه(٦٦) . وكان الأساتذة يمتازون بلبس القبة Cappa وهى « حرملة » حمراء أو أرجوانية ذات حاشية من جلد السنجاب ومُقَنَّعة ، وكانوا فى بعض الأحيان يغطون رءوسهم بقلنسوة مربعة فى أعلاها خصلة بدل « الشرابة » . وكان الطالب فى جامعة باريس فى منزلة رجل الدين ويتمتع بحصاناته . فكان

(*) هذه هى تقديرات راشدول Rashdall المتحفظ(٦٣) . أما أودوفردوس Odofredus العالم القانونى الذى كان يكتب فى عام ١٢٥٠ فقد قدر عدد طلاب بولونيا فى عام ١٢٠٠ بعشرة آلاف طالب ، وقدر رابانس جوما Rabanus Gaume وهو راهب نسطورى عدد طلاب جامعة بارس فى عام ١٢٨٧ بثلاثين ألفا ، وقال فتز رالف Fitzralph كبير أساقفة أرماغ Armagh حوالى عام ١٣٦٠ إنه كان فى جامعة أكسفورد فى وقت ما ثلاثون ألف طالب ؛ وقدرهم ويكلف Wyclif فى عام ١٣٨٠ بضعف هذا العدد ؛ وعاد الأسقف غاسقوين Gascoigne الذى كان رئيس شرف فى جامعة أكسفورد فقدرهم بثلاثين ألفاً(٦٤) ؛ ولا يخفى أن هذه التقديرات كلها إنما تعتمد على الحدس والتخمين ، وأنها مبالغ فيها بلا ريب ولكننا لا نستطيع البرهنة على كذبها .

يعفى من الخدمة العسكرية ، ومن الضرائب التى تفرضها الدولة على غيره ، ومن المحاكمة أمام المحاكم غير الدينية . وكان ينتظر منه أن يدخل فى سلك رجال الدين ؛ على أنه لم يكن يرغم على ذلك فى كل الأحوال . وكان فى وسعه إذا تزوج أن يظل طالباً ، ولكنه فى هذه الحال يفقد امتيازات رجال الدين ، ولا يستطيع الحصول على درجة علمية . أما الاختلاط الجنسى المتزن فلم يكن يجازى عليه بمثل هذه العقوبات . وقد وصف الراهب جاك ده فترى Jaque de Vitry طلبة جامعة باريس فى عام ١٢٣٠ بأنهم : « فاسقون أكثر من سائر أبناء الشعب ؛ فهم لا يرون الفسق إثماً ؛ وكانت العاهرات يسحبن الطلاب إلى المواخير سحباً يكاد يكون قوة واقتداراً ، ويفعلن ذلك علناً فى شوارع المدينة ، فإذا امتنع الطلاب عن الدخول اتهمتهم باللواط . . . وكانت هذه الرذيلة البشعة (اللواط) تملأ المدينة إلى حد كان يعد معه من علامات النبل أن يكون للشخص غلام أو أكثر . وكان يوجد فى المنزل الواحد حجرات للدرس فى الطابق العلوى وماخور فى أسفل منه ؛ فكان الأساتذة يحاضرون فى الطبقة العليا ، والعاهرات يمارسن حرفتهن الدنيئة فى الطبقة السفلى ؛ وكانت مناقشات الفلاسفة تسمع فى البيت الواحد مختلطة بمشاحنات العاهرات والقوادين[٦٧] .

هذا وصف يحمل فى طياته المغالاة الواجبة ؛ وكل ما يحق لنا أن نستنتجه منه أن لفظى **طالب الدين والقريس** لم يكونا مترادفين فى باريس(*) . ويواصل جاك وصفه فيقول إن كل « أمة » من الطلاب كانت لديها صفات محببة لها تصف بها « الأمم » الأخرى . فالإنجليز كانوا يوصفون بأنهم يكثرون من الشراب وأن لهم ذيولا ؛ والفرنسيون كانوا مزهوين مخنثين ؛ والألمان

(*) ولكن قارن هذا بقول راشدول : « وإن الأدلة الكثيرة على أن الصورة التى يصور بها ده فترى الحياة المدرسية ليست فى أساسها غير صادقة وإن كان فيها مبالغة[٦٨] »

كانوا صخابين ؛ « بذيئين إذا شربوا » ؛ والفلمنكيون كانوا بدناً نهمين « لينين كالزبد » ؛ وكانوا كلهم « كثيراً ما يتنقلون بهذا الاغتياب من الألفاظ إلى اللكمات »[69] . وكان طلاب جامعة باريس يحشرون أولا فى الجزيرة التى تقوم عليها كتدرائية نُتردام ؛ وكانت هذه الجزيرة هى الحى اللاتينى الأصلى ، وكان سبب تسميتها بذلك الاسم أن الطلاب كان يراد منهم أن يتكلموا باللغة اللاتينيه — حتى فى حديثهم غير المدرسى — وهى قاعدة كثيراً ما كانت تخرق ، وحتى حين اتسعت رقعة الحى اللاتينى حتى شملت الطرف الغربى من الضاحية الممتدة فى جنوب نهر السين ، كان عدد الطلاب فيها من الكثرة بحيث لم يكن من المستطاع السيطرة عليهم ، فكانت المشاحنات كثيرة بين الطالب والطالب ، وبين الطالب والأستاذ ، وبين الطالب والشخص من أهل البلدة ، وبين الراهب وغير الراهب . هذا فى باريس ، وفى أكسفورد كان ناقوس سانت مارى يدعو الطلاب ، وناقوس سانت مارتن يدعو أهل البلدة ، إلى حرب متقطعة بين بلدة وبلدة . وقد حدث شغب فى أكسفورد (١٩٢٨) وقعت فيه على الممتلكات أضرار قيمتها ٣٠٠٠ جنيه (١٥٠٫٠٠٠ دولار)[70] . وأصدر موظف فى باريس (١٢٦٩) إعلاناً ضد الطلاب الذين « يرتكبون بالنهار والليل فظائع تؤدى إلى إصابة الكثيرين بالجروح وإلى قتلهم ، ويخطفون النساء ، ويفسقون بالعذارى ، ويسطون على البيوت » ، ويرتكبون « مراراً وتكراراً حوادث السرقة وغيرها من الفظائع »[71] . ولربما كان طلاب أكسفورد أقل انهماكا فى الشهوات الجنسية من طلبة باريس ، ولكن حوادث القتل كانت كثيرة فيها ، وتنفيذ العقاب فى القاتل كان نادراً ؛ فقلما كان القاتل يطارد إذا غادر البلدة ، وكان الرجل فى أكسفورد يرى أن حسب القاتل عقاباً له على جرمه أن يضطر إلى الانتقال إلى كيمبردج[72] .

وإذ كان شرب الماء غير مأمون العاقبة وقتئذ ، لأن أوربا لم تكن قد

عرفت الشاى ، أو القهوة ، أو الدخان ، فإن الطلاب كانوا يوفقون بين حاجتهم من جهة ، وبين مطالب أرسطو والحجرات غير المدفأة من جهة أخرى ، بالخمر والجعة . وكان من الأسباب الداعية إلى إنشاء « نقابات » الطلاب الاحتفال بالأعياد الدينية والجامعية بالشرب الكثير جهرة . وكانت كل خطوة فى السنة المدرسية « موسماً للطرب » يحيا بالشراب . وكان الطلاب فى كثير من الحالات يقدمون هذه المرطبات لممتحنيهم . وكانت « الأمم » فى العادة تنفق فى الحانات كل ما بقى لديها من المال فى آخر العام الدراسى . وكان لعب الكعوب تسلية أخرى للطلاب ، وقد فرضت عقوبة الحرمان الدينى على بعض الطلاب للعبهم بالكعوب على مذابح نتردام(٧٣) . أما فى الأوقات الأكثر نظاماً فقد كان الطلاب يسلون أنفسهم بالكلاب ، والصقور ، والموسيقى ، والرقص ، والشطرنج ، ورواية القصص ، والسخرية من الطلبة الجدد . وكان هؤلاء الجدد يسمون ذوى المناقير الصفر ، وكانوا يتخذون هدفاً للإساءة والسخرية ، ويرغمون على إقامة وليمة لسادتهم الذين سبقوهم إلى الجامعة بعام ؛ وكان الخروج على القوانين يعاقب بالغرامات أو بإرغام الخارج على تقديم عدة جالونات من الخمر يشربها الجماعة . ولم يرد ذكر للجَلْد فى تأديب طلاب الجامعات حتى القرن الخامس عشر وإن كان كثيراً ما يلجأ إليه فى المدارس العامة . وكان ولاة الأمور فى الجامعة يفرضون على الطلاب زيادة على هذا أن يقسموا يميناً مغلظة بإطاعة جميع اللوائح ، وكان من الأيمان المفروضة فى جامعة باريس يميناً يتعهد الطالب بمقتضاها ألا ينتقم من الممتحنين الذين يسقطونه فى الامتحان(٧٤) ، فكان التلاميذ يقسمون مسرعين وينقضون أيمانهم على مهل . لقد كان الحنث فى الأيمان كثيراً لأن الجحيم لم تكن ترهب رجال الدين المحدثين .

ومع هذا كله كان وقت الطلاب يتسع لسماع المحاضرات . وكان منهم الكسالى ، ومنهم من كان الفراغ أحب إليهم من الشهرة ؛ فكانوا لذلك

يفضلون مناهج القانون الكنسى الذى كانت دروسه تبدأ فى الساعة الثالثة وتمكنهم من أن يواصلوا نومهم(٧٥) . وإذ كانت الساعة الثالثة بحساب ذلك الوقت هى الساعة التاسعة صباحاً ، فإنه يظهر من هذا أن معظم الفصول كانت تبدأ الدراسة بعيد الفجر ؛ وأكبر الظن أن ذلك كان فى الساعة السابعة صباحاً . وكانت السنة الدراسية فى بداية القرن الثالث عشر تدوم أحد عشر شهراً ، وقبل أن ينصرم القرن الرابع عشر كانت « العطلة الطويلة » ، التى نشأت من الحاجة إلى أيدى الشباب فى زمن الحصاد ، تمتد من ٢٨ يونية إلى ٢٥ أغسطس أو ١٥ سيتمبر ، وفى جامعتى أكسفورد وباريس لم تكن عطلة عيد الميلاد وعيد الفصح تزيد على بضعة أيام قليلة ، أما فى جامعة بولونيا حيث كان الطلاب أكبر سناً وأكثر غنى ، ولعلهم كانوا أيضاً أبعد موطناً ، فقد كانت عطلة عيد الميلاد عشرة أيام وعطلة عيد الفصح أربعة عشر يوماً ، وكانوا يعطون واحداً وعشرين يوماً فى الحفلات التى تسبق الصوم الكبير .

ويبدو أنه لم تكن تعقد امتحانات فى أثناء دراسة المناهج ، ولكن كان هناك إلقاء ونقاش ، وكان يمكن إقصاء العاجزين فى خلال الدراسة . ثم نشأت حوالى منتصف القرن الثالث عشر عادة إلزام الطالب ، بعد أن يمضى خمس سنين مقيما فى الجامعة للدراسة ، أن يؤدى امتحاناً أولياً أمام لجنة من « أمته » . وكان هذا يتضمن أولا اختباراً خاصاً منفرداً — يشمل إجابات عن أسئلة ، ويتضمن ثانيا مناقشة علنية يدافع الطالب فيها عن موضوع أو موضوعين ، ويفند اعتراض المعترضين ، ثم يختتم النقاش بتلخيص للنتائج . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات الأولية بنجاح يسمون البكلارى Baccalarii أى الأتباع ؛ وكان يسمح لهم أن يخدموا أستاذاً بوصفهم مدرسين مساعدين أو محاضرين « عاجلين » . وكان فى وسع التابع أن يواصل دراساته وهو مقيم ثلاث سنين أخرى ، فإذا رأى أستاذه بعدئذ أنه خليق بالتقدم إلى الامتحان قدم إلى ممتحنين يعينهم رئيس الجامعة .

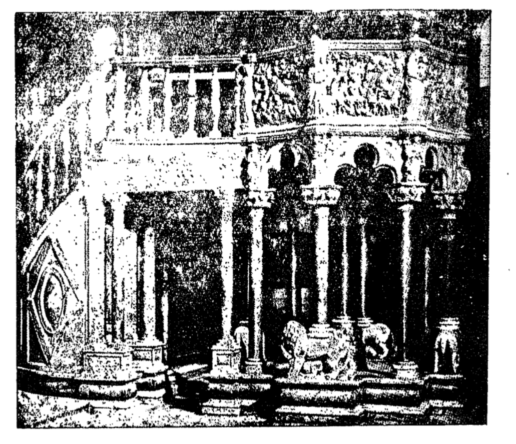
وكان ينتظر من الأساتذة ألا يقدموا طلاباً يتضح أنهم غير مستعدين للامتحان إلا إذا كان هؤلاء الطلاب من ذوى الثراء أو المكانة الممتازة ؛ وكان الامتحان فى هذه الحالة يعد لكى يناسب مقدرة الطالب ، أو كان يُستغنى عنه استغناء تاما[٧٦] . وكانت الصفات الخلقية من الموضوعات التى يشملها الامتحان ؛ لذلك فإن الجرائم الخلقية التى يرتكبها الطالب خلال السنين الأربع أو السبع التى يقضيها فى الجامعة قد تحول بينه وبين الحصول على الدرجة التى يريدها ، لأن الدرجة كانت شهادة بالرقى الأخلاقى والاستعداد العقلى فى وقت واحد . وحسبنا شاهداً على ذلك أن السبعة عشر الذين رسبوا من ثلاثة وأربعين تقدموا لامتحان جامعة فينا فى عام ١٤٤٩ رسبوا كلهم لنقص فى أخلاقهم ، ولم يرسب منهم واحد لعدم كفايته العقلية .

فإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان العلنى والأخير أصبح أستاذاً أو « دكتوراً » وحصل من تلقاء نفسه على إجازة مصدق عليها من السلطة الدينية ليدَرِّس فى أى مكان شاء فى العالم المسيحى . وكان وهو « تابع » يُدَرِّس مكشوف الرأس ، أما الآن وقد نال إجازته فقد كان يتوّج بقلنسوة ، ويقبّله أستاذه ويباركه ، ثم يجلسونه فى كرسى الأستاذية ، فيلقى محاضرة افتتاحية ، أو يعقد نقاشا افتتاحيا ؛ وكان هذا هو بداية عمله أستاذاً . وكان من مستلزمات هذا التخرج أن يدعو جميع أساتذة الجامعة أو كثرتهم إلى وليمة ويقدم لهم الهدايا ، وبهذه الاحتفالات وغيرها ينضم إلى نقابة الأساتذة .

ومما يريح بالنا أن نقول إن التعليم فى العصور الوسطى كان فيه من العيوب المتعبة بقدر ما فى نظمنا التعليمية فى الوقت الحاضر . فلم يكن يواصل الدراسة فى الخمس السنين التى يتطلبها نيل البكالوريوس إلا قلة صغيرة من المقيدين فى

محلات الجامعة . وكان افتراض ذوى الشأن أن جميع عقائد الكنيسة المقررة يلتزم بها المؤمنون بالدين مما يدعو عقول الطلاب للدعة لا للعمل . وكان البحث عن الحجج التى تثبت هذه العقائد ، وإيراد الشواهد من الكتاب المقدس أو من أقوال آباء الكنيسة لتأييدها ، وتفسير أقوال أرسطو بحيث تتفق معها ، كان هذا كله يدرّب العقول على التقسيم الشّعرى الدقيق أكثر مما يدرب الذهن على توخى الحقيقة والإذعان لما يمليه الضمير الحى . وفى وسعنا أن نسارع إلى العفو عن هذه الأخطاء إذا ذكرنا أن أى أسلوب من أساليب الحياة ينمى مثل هذا التعسف فى الإيمان بالفروض التى يقوم عليها هذا الأسلوب . وها نحن أولاء فى هذه الأيام نترك الناس أحراراً يشكّون فى عقائد آبائهم الدينية ، ولا نتركهم أحراراً يشكون فى عقائدهم السياسية ؛ وهاهو ذا الإلحاد السياسى يعاقب عليه بالحرمان الاجتماعى كما كان الإلحاد فى الدين يعاقب عليه بالحرمان الدينى فى عصر الإيمان . والآن ورجل الشرطة يعمل جاهداً لكى يحل محل الله ، فقد أصبح الارتياب فى الدولة أشد خطورة من الارتياب فى الكنيسة ، ذلك أنه ما من نظام يغض النظر عن تحدى المبادئ الأساسية التى يقوم عليها .

وما من شك فى أن انتقـــال المعارف والتدرب على معرفة القيم أكثر انتشاراً وأعظم قدراً فيما يبدو لنا مما كانا فى العصور الوسطى ، ولكننا لا يصح لنا أن نقول هذا القول نفسه عن التربية الخلقية . ولم تكن المقدرة العملية مما تعوز خريج الجامعة فى العصور الوسطى ، فقد كانت تخرج فى كل عام عدداً كبيراً من رجال الإدارة القادرين ، ورجال القانون الذين أوجدوا الملكية الفرنسية ، والفلاسفة الذين قادوا سفينة المسيحية فى بحار العقل الصاخبة ، والبابوات الذين أوتوا من الجرأة ما جعلهم يفكرون تفكير أوربا الموحدة . ولقد شحذت المسيحية ذكاء



(الصورة رقم ٣ منبر پيزانو

الرجل الغربى ، وخلقت لغة الفلسفة ، ورفعت مكانة التعليم وهيبته ، وقضت على فترة المراهقة الذهنية عند البرابرة الظافرين .

لقد انهارت كثير من أعمال العصور الوسطى أمام عجلة الزمن التى تدمر كل شئ فى سبيلها ، أما الجامعات التى خلفها لنا عصر الإيمان بكل ما فيها من عناصر التنظيم ، فها هى ذى تكيف نفسها حسب التطورات التى لا مفر منها ، وتخلع عن نفسها إهابها القديم لتحيا حياة جديدة ، وتنتظر منا أن نعقد لواءها بلواء الحكومة .

الباب الخامس والثلاثون

أبـــلار

۱۰۷۹ – ۱۱٤۲

الفصل الأول

الفلسفة القدسية

ليسمح لنا القارئ بأن نخص أبلار بباب كامل ، وليس حديثنا عنه فى هذا الباب مقصوراً عليه بوصفه فيلسوفاً أو من أصحاب الفضل فى إنشاء جامعة باريس أو شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، بل سنتحدث عنه بوصفه هو وهلواز ممثلين لأخلاق عصرهما وآدابه ، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويبهر العقل فى ذلك العصر : كان مولد أبلار فى قرية له باليه Pallet القريبة من نانت Nantes إحدى مدن بريطانيا . وكان أبوه المعروف لنا باسم بيرنجر Bérenger ولا شىء غير هذا ، صاحب ضيعة متواضعة ، وكان فى مقدوره أن يهيئ لأولاده الثلاثة ولابنته تعليما حراً . وكان بيير Pierre (ولسنا نعرف أصل لقبه أبلار) أكبر أولئك الأبناء وكان فى مقدوره أن يطالب بحق الابن الأكبر فى ميراث أبيه ؛ ولكنه كان مولعاً بالدرس والتفكير إلى حد جعله بعد أن كبر ينزل لأخويه عن حقه ، وعن نصيبه فى أملاك الأسرة ، وشرع يطلب الفلسفة ، ويلقى بنفسه فى معركتها أينما حمى وطيسها ، أو أينما وجد معلماً ذائع الصيت يدرسها ؛ وكان من أعظم ما أثر فى حياته المستقبلة أن كان من أول

أساتذته جان روسلان Jean Roscelin (حوالى ١٠٥٠ — حوالى ١١٢٠) ، وهو رجل متمرد انصب عليه كما انصب على أبلار من بعده سخط الكنيسة وحرمانه من الدين .

وكان منشأ الجدل الذى أثاره روسلان مسألة من مسائل المنطق الجاف الموغل فى الجفاف ، والتى تبدو أبعد المسائل كلها عن الأذى ، وهى الوجود الموضوعى « للكليات » . وكان « الكلى » فى الفلسفة اليونانية وفلسفة العصور الوسطى هو الفكرة العامة التى تدل على صنف من الأشياء (كالكتاب ، والحجر ، والكوكب ، والرجل ، والنوع الإنسانى ، والشعب الفرنسى ، والكنيسة الكاثوليكية) ؛ أو الأعمال (كالقسوة ، والعدالة) ؛ أو الصفات (كالجمال والصدق) . وكان أفلاطون ، وهو العليم بسرعة زوال الكائنات والأشياء الفردية ، قد قال بأن الكلى أكثر بقاء ، وأنه لذلك أكثر حقيقة ، من أى فرد من الصنف الذى يصفه : فالجمال أكثر حقيقة من فرينى Phryne ، والعدالة أكثر حقيقة من أرستيديز ، والرجل أكثر حقيقة من سقراط ؛ وهذا هو الذى كانت العصور الوسطى تعبر عنه « بالواقعية » . وخالف أرسطو هذا الرأى وقال إن « الكلى » ليس إلا فكرة يكونها العقل لتمثل صنفاً من الأشياء المماثلة ؛ فهو يرى أن الصنف نفسه لا يوجد إلا فى صورة أعضائه التى يتركب هو منها . والناس فى وقتنا هذا يتجادلون : هل يوجد « عقل جماعة » منفصلا عن رغبات الأفراد الذين تتكون منهم هذه الجماعة وأفكارهم ومشاعرهم ؟ فأما هيوم فقد قال إن « العقل » الفردى نفسه ليس إلا اسماً مجرداً لسلسلة الأحاسيس والأفكار ، والإرادات التى فى كائن حى ولمجموعها . ولم يكن اليونان يهتمون اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، واكتفى فيلسوف من آخر الفلاسفة الوثنيين — هو برفيرى Porphyry (حوالى ٢٣٢ — حوالى ٣٠٤) الذى أقام فى الشام وفى رومة — بصياغتها دون أن يعرض حلا لها . لكن العصور الوسطى كانت تراها

مسألة حيوية . فقد كانت الكنيسة تزعم أنها موجود روحى بالإضافة إلى مجموع الأفراد المنضمين إليها ؛ وكانت تشعر بأن « للكل » صفات وقوى غير صفات أجزائه وقواها ؛ ولم يكن فى مقدورها أن تعترف بأنها فكرة مجردة ، وأن الأفكار والعلاقات التى لا نهاية لها والتى يُوحى بها لفظ « الكنيسة » ليست إلا أفكاراً ومشاعر فى أعضائها المكونين لها ، بل إنها هى « عروس المسيح » الحية . وشر من هذا قولها : إذا كان الأشخاص ، والأشياء ، والأعمال ، والأفكار المفردة ، هى وحدها الموجودة ، فماذا يكون مصير الثالوث ؟ هل تكون وحدة الأقانيم الثلاثة فكرة مجردة لا أكثر ، أو هل هى ثلاثة آلهة منفصلة بعضها عن بعض ؟ إن علينا أن نضع أنفسنا فى الجو اللاهوتى المحيط بروسلان إذا شئنا أن نفهم ما حل به .

ولسنا نعرف آراءه إلا من أقوال معارضيه ، فهم يقولون إنه يرى أن الكليات أو الأفكار العامة ليست إلا ألفاظا (voces) ، أى هواء الصوت (flatus vocis) ؛ فأما الأشياء المفردة فموجودة ، والأفراد المفرودون موجودون ، وأما كل ما عدا هذا فهو أسماء (noméina) . وليس للأجناس ، والأنواع ، والصفات ، وجود مستقل ؛ فالإنسان لا وجود له ، بل الذين يوجدون هم الرجال ، ولا وجود للون إلا فى الأشياء الملونة . وما من شك فى أن الكنيسة كانت تترك روسلان وشأنه لو لم يطبق هذه « الاسمية » على الثالوث . فقد نُقل عنه أنه قال إن الله لفظ أطلق على أقانيم الثالوث الثلاثة ، كما أطلق لفظ الإنسان على كثيرين من الرجال ولكن كل ما له وجود حق هو الأقانيم الثلاثة — أى ثلاثة آلهة فى واقع الأمر . وفى هذا اعتراف بالشرك الذى يتهم به الإسلام المسيحية اتهاماً ضمنيا خمس مرات فى اليوم من فوق ألف مأذنة(*) . ولم تكن الكنيسة ترضى

(*) يقصد حين يقول المؤذن « لا إله إلا الله » ولكننا لا نرى فى هذا اتهاماً للمسيحة بل تقريرا لركن من أركان الإسلام . (المترجم)

بصدور هذه التعاليم من شخص هو قس من قساوسة كنيسة كمبيني Compiègne . ودعى روسلان للمثول بين يدى مجمع دينى مقدس فى سواسون (١٠٩٢) وخيير بين الرجوع عن أقواله والحرمان ، فاختار الرجوع ، وفر إلى إنجلترا وهاجم فيها عادة التسرى عند رجال الدين ؛ ثم عاد إلى فرنسا ودرس فى تور ولوش Loche . ويبدو أن هذه البلدة هى التى جلس فيها أبلار عند قدميه وهو نافد الصبر متململ[٢] . ورفض أبلار فكرة « الاسمية » ولكنه حرم من الدين مرتين لشكه فى الثالوث . وخليق بالملاحظة أيضا أن القرن الثانى عشر كان يسمى الواقعية « العقيدة القديمة » وأنه كان يسمى معارضيها الحديثين moderni[٣]

ودافع أنسلم (١٠٣٣ — ١١٠٩) عن الكنيسة دفاعاً مجيداً فى عدة مؤلفات يبدو أنها حركت عواطف أبلار ، وكان لها فيه أثر عميق ، وإن لم يكن هذا الأثر إلا المعارضة . وكان أنسلم من أبناء أسرة من أشراف إيطاليا ؛ وعين رئيساً لدير بك Bec فى نورمندية عام ١٠٧٨ . وأضحى دير بك فى أثناء حكمه ، كما أضحى فى أيام لافران La Faanc مدرسة من أكبر المدارس التعليمية فى الغرب . ولعل أنسلم كان ، كما وصفه زميله الراهب إيدمر Eadmer فى ترجمة له تنم عن تعلقه به ، زاهداً ظريفاً لا يرغب فى شىء سوى التفكير والصلاة ، خرج من صومعته كارهاً ليحكم الدير ومدرسته . وكان الشك أبعد الأشياء عن رجل مثله ، بل كان الإيمان عنده هو الحياة ، و « يجب أن يسبق الإيمان ؛ وكيف يستطيع عقل محدود أن يأتى عليه يوم يفهم فيه الله ؟ » وفى هذا يقول كما يقول أوغسطين : « لست أسعى للفهم لكى أعتقد ، بل إنى أعتقد لكى أفهم » ، ولكن تلاميذه طلبوا إليه حججاً يجادلون بها الكفار ؛ وكان هو نفسه يرى أن « من الإهمال ، وقد تثبتنا فى ديننا ، ألا نعمل لفهم ما اعتقدنا »[٤] ؛ وكان

شعاره هو *الإيمان يطلب الفهم* ؛ وألف سلسلة من الكتب العظيمة الأثر بدأ بها الفلسفة المدرسية حين حاول أن يدافع عن الدين المسيحى دفاعاً قائماً على العقل .

ودافع فى رسالة صغيرة تدعى « *حديث للنفس* » عن الوجود الموضوعى للكليات فقال : « إن آراءنا فى الخير ، والعدالة والحق ، نسبية ، ولا معنى لها إلا إذا قورنت بخير مطلق أو عدالة مطلقة ، أو حق مطلق ؛ وإذا لم يوجد هذا الحق المطلق فلن يكون لنا مقياس أكيد للحكم ، وبذلك تصبح علومنا وأخلاقنا على السواء جوفاء عديمة الأساس . والله — وهو الخير المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق — هو هذا المطلق المنقذ ، وهو الغرض الذى لا بد منه فى حياتنا . وكأنما أراد أنسلم أن يذهب بهذه الواقعية إلى أبعد مدى فانتقل فى كتابه Proslogion (حوالى ١٠٧٤) إلى برهانه الشهير المستمد من فن ما وراء المادة الذى أراد أن يثبت به وجود الله فقال : الله أكمل كائن يستطيع العقل أن يتصوره ؛ ولكنه إذا لم يكن إلا فكرة فى رءوسنا ، فإن ذلك ينقصه عنصراً من عناصر الكمال — وهو الوجود : وإذن فالله ، وهو أكمل الكائنات ، موجود . وكتب راهب متواضع ، يدعى جونيلو Gaunilso ، ويرمز لاسمه بلفظ *الأبله* Insipio — إلى أنسلم احتجاجاً يقول فيه إننا لا نستطيع أن ننتقل هذا الانتقال السحرى من الإدراك إلى الوجود ، وإن حجة لا تقل عن الحجة السابقة فى قوتها يمكن أن تثبت وجود جزيرة تبلغ درجة الكمال ، وإن تومس أكويناس يتفق فى الرأى مع جونيلو . ثم حاول أنسلم فى مقالة رائعة ولكنها غير مقنعة أسماها « ابن الله الإنسان » أن يجد أساساً معقولا للعقيدة المسيحية الأساسية القائلة بأن الله أصبح إنساناً ، ويسأل لم كان هذا التجسد ضرورياً ؟ لقد كانت هناك فكرة يؤيدها أمبروز ، والبابا ليو الأول وطائفة من آباء الكنيسة(٦) ، تقول إن آدم وحواء حين

أكلا الفاكهة المحرمة قد باعا نفسهما وباعا كل نسلهما إلى الشيطان ، وأن لا شيء يستطيع افتداء البشرية من الشيطان والجحيم إلا موت الله الذى أصبح إنساناً . وعرض أنسلم حجة أدق من هذه وأبلغ فقال : إن عصيان أبوينا الأولين كان ذنباً غير محدود لأنه ذنب فى حق كائن غير محدود ، وإنه قلب النظام الخلقى للعالم كله ؛ ولا شيء يمكن أن يوازن ويمحو ذلك الذنب غير المحدود إلا التكفير عنه تكفيراً غير محدود ؛ ولا يستطيع تقديم هذه الكفارة الغير المحدودة إلا كائن غير محدود ؛ ومن أجل هذا صار الإله إنسانا لكى يعيد إلى العالم توازنه الأخلاقى .

ونمت واقعية أنسلم وتطورت على يد تلميذ من تلاميذ روسلان يدعى وليم الشابوكسى William of Chapeaux (١٠٧٠ ؟ — ١١٢١) . فقد بدأ وليم فى عام ١١٠٣ يعلم الجدل فى مدرسة كتدرائية نتردام بباريس . وإذا جاز لنا أن نصدق أبلار — الذى كانت براعته الحربية تحول دون براعته التاريخية — قلنا إن وليم ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أفلاطون ، فكان أفلاطونيا أكثر من أفلاطون نفسه حين قال إن الكليات ليست حقائق موضوعية فحسب ، بل إن الفرد تحوير عارضى للحقيقة الجنسية ، ولا وجود له إلا باشتراكه فى الكلى ؛ وعلى هذا فالإنسانية هى الكائن الحقيقى ، الذى يدخل فى سقراط ، ويكسبه وجوده . وينقلون عن وليم أنه قال فضلا عن هذا إن الكلى بأجمعه حاضر فى كل فرد من صنفه ، فالإنسانية كلها حاضرة فى سقراط وفى الإسكندر .

وألقى أبلار عصا التسيار فى مدرسة وليم بعد كثير من التجوال العلمى (١١٠٣) ، وكان وقتئذ فى الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمره . وكان وسيم الخلق حسن القوام ، بهى الطلعة(٧) ، ذا جبهة عريضة تبعث فى النفس الروعة ؛ وكانت روحه المرحة تكسب طباعه وحديثه فتنة وحيوية . وكان يستطيع تأليف الأغانى وإنشادها ، وكانت فكاهته القوية تزلزل الضعاف فى قاعات الجدل . وكان شابا مرحاً طروباً ، عرف فى الوقت نفسه باريس والفلسفة .

وكانت عيوبه هى العيوب التى تستلزمها صفاته : فقد كان مغروراً ، مزهواً بنفسه ، وقحاً ، منطوياً على نفسه ، دفعه ابتهاجه بمواهبه التى كان يعرفها حق المعرفة إلى أن يطرح بتهور الشباب العقائد التعسفية والعواطف الرقيقة التى كانت سائدة فى عصره وبين أساتذته . وقد أسكرته « بهجة » الفلسفة « المحببة » إليه ؛ فهذا العاشق الذائع الصيت يحب الجدل أكثر مما يحب هلواز :

وقد سخر من واقعية أستاذه المسرفة ، وتحداه علناً أمام فرقته : يا عجباً الإنسانية كلها حاضرة فى سقراط ؟ إذن فحين تكون الإنسانية كلها حاضرة فى الإسكندر لا بد أن يكون سقراط (الذى تشمله الإنسانية كلها) حاضراً فى الإسكندر . ويخيل إلينا أن ماكان يقصده وليم هو أن جميع العناصر الجوهرية التى فى الإنسانية حاضرة فى كل كائن بشرى . على أننا لم تصل إلينا حجج وليم فى هذا النقاش ؛ ومهما كانت هذه الحجج فإن أبلار لم يأخذ بشىء منها . فقد عارض واقعية وليم واسمية روسلان بالفلسفة التى سميت فيما بعد بالفلسفة الإدراكية ؛ وهى تقول إن الصنف (الإنسان والحجر) ليس له وجود جسمى إلا فى أفراده التى يتكون منها (الرجال ، والحجارة) ؛ وإن الصفات (كالبياض ، والطيبة ، والحقيقة) لا وجود لها إلا فى الأجسام ، أو الأفعال ، أو الأفكار التى تصفها . ولكن الصنف والصفة ليسا مجرد اسمين ، بل هما مدركان تكونهما عقولنا من العناصر أو المظاهر التى نلاحظ وجودها مشتركة بين طائفـة من الأفراد ، أو الأجسام ، أو الآراء . وهذه العناصر المشتركة حقيقية ، وإن لم تظهر إلا فى الصور الفردية . وليست المدركات التى نفكر بها فى هذه العناصر المشتركة — الأفكار الجنسية أو الكلية التى نفكر بها فى الأصناف المكونة من أجسام متماثلة — ليست هذه المدركات « رياح الصوت » ، بل هى أكثر أدوات التفكير نفعا وأكثرها ضرورة ، وبغيرها لا يمكن أن يكون للعلم ولا للفلسفة وجود .

ويقولون إن أبلار بقى مع وليم « بعض الوقت » . ثم شرع هو نفسه يدرس فى ميلون Melun أولا ثم فى كوربى Corbeil بعدئذ ، وتبعد أولى البلدتين أربعين ميلا عن باريس أما الثانية فتبعد عنها خمسة وعشرين . وقد أخذ عليه بعضهم أنه أنشأ « حانوته » بعد تدريب جد قصير ، ولكن عدداً كبيراً من الطلاب هرع إليه ، لإعجابهم بسرعة بديهته وزلاقة لسانه . وكان وليم فى هذه الأثناء قد أصبح راهباً فى دير القديس ڤكتور حيث « طلب إليه » أن يستمر فى إلقاء محاضراته ؛ وعاد إليه أبلار تلميذاً بعد « مرض شديد » . ويبدو أنه كان على عظام فلسفة وليم لحم أكثر مما توحى به القراءة العاجلة لسيرة أبلار الموجزة التى كتبها بنفسه . ولكن سرعان ما تجددت مناقشاتهم القديمة ، وأرغم أبلار (كما يقول أبلار نفسه) وليم على أن يعدل فلسفته الواقعية ، وبدأت مكانة وليم فى الهبوط . وعرض الأستاذ الذى خلفه والذى عينه بنفسه فى نتردام أن يخلى مكانه لأبلار (١١٠٩ ؟) ، ولكن وليم لم يوافق على هذا العرض . وواصل أبلار محاضراته فى مليون ، ثم فوق جبل سانت چنڤييف المجاور لباريس . ونشبت بينه وبين وليم ، وبين طلابهما ، حرب كلامية دامت عدة سنين ، وأصبح أبلار زعيم المحدثين أى الشبان المتمردين المتحمسين أصحاب المدرسة « الحديثة » . وبينما هو يخوض غمار هذه الحرب ترهّب والداه . ولعلهما فعلا ذلك استعداداً للموت ، واضطر أبلار أن يعود إلى له باليه Le Pallet ليكون فى وداعهما ، وربما كان من أسباب عودته تسوية بعض المشاكل الخاصة بأملاك الأسرة . ثم رجع أبلار إلى باريس فى عام ١١١٥ ، بعد أن قضى بعض الوقت يدرس علوم الدين فى لاءون ، وأقام مدرسته ، أو بدأ منهج محاضراته ، فى قاعات نتردام التى كان يجلس فيها وهو طالب قبل ذلك الوقت باثنتى عشرة سنة أو نحوها . ويبدو أنه لم يلق فى ذلك معارضة ما . وكان وقتئذ من موظفى الكتدرائية وإن لم يصبح من قساوستها[٨] . وكان فى مقدوره أن يتطلع إلى

المناصب الكهنوتية العليا إذا لزم الصمت ؛ ولكن هذا الشرط كان ثقيلا عليه ، لأنه درس الأدب كما درس الفلسفة ، وكان أستاذاً فى عرض الآراء عرضاً واضحاً لطيفاً ؛ وكان كغيره من الفرنسيين يرى أن الوضوح فى التعبير واجب تحتمه المبادئ الخلقية ، ولم يكن يخشى أن يخفف من عبء حديثه بقليل من الفكاهة . وأقبل الطلاب من كثير من البلاد ليستمعوا إليه ، وكانت الفصول التى يدرس لها كبيرة كبراً أغناه بالمال وأذاع شهرته بين الأمم[٩] ، تشهد بذلك رسالة بعث بها إليه فولك Foulques رئيس أحد الأديرة يقول فيها :

بعثت إليك رومة أبناءها تعلمهم : : : ولم تمنع المسافة الشاسعة ، أو الجبال أو الوديان أو الطرق الموبوءة باللصوص ، الشبان من الإقبال عليك . وازدحمت فصولك بالشبان الإنجليز الذين عبروا البحر المفعم بالأخطار ، وأقبل عليك التلاميذ من جميع أنحاء أسپانيا وفلاندرز وألمانيا ، ولم يملوا من الثناء على قوة عقلك . ولست أذكر شيئاً عن سكان باريس ، وأقاصى فرنسا التى كانت هى الأخرى ظمأى لتعليمك ، كأنه لا يوجد علم من العلوم لا يستطاع أخذه عنك[١٠] .

وما دام قد بلغ هذه الذروة من المجد والنجاح وبُعد الصيت ، فلِمَ لا يرقى إلى كرسى الأسقفية (كما ارتقى إليه وليم) ، ثم إلى كرسى رئيس الأساقفة ، ولِمَ لا يرقى إلى كرسى البابوية ؟

الفصل الثانى

هلــواز

ويؤكد أبلار أنه ظل حتى ذلك الوقت « مستعففاً إلى أقصى حدود الاستعفاف » ، وأنه كان « حريصاً على الامتناع عن جميـــع ضروب الإفراط »(١١) . ولكن هلواز ابنة أخى فلبير Fulbert قس الكتدرائية كان لها من جمال الخلق والهيام بالعلم ما أثار كل ما كان كامنا فى أبلار من حساسية مرهفة برجولته وإعجاب بعقليته . وفى خلال تلك السنين المحمومة التى كانت الحرب ناشبة فيها بين أبلار ووليم عن الكلى وغير الكلى شبت هلواز من الطفولة إلى الأنوثة المكتملة ، يتيمة لم يبق لأبويها أثر . وبعث بها عمها إلى دير فى أرجنتى Argentuil لتقضى فيه عدداً كبيراً من السنين . فلما ذهبت إليه هامت بما فى مكتبته الصغيرة من الكتب هياما أصبحت معه أنبه راهبة فى الدير . ولما عرف فلبير أنها تستطيع التحدث باللاتينية بنفس الطلاقة التى تتكلم بها الفرنسية ، وأنها لم تكتف بهذا بل أخذت تتعلم العبرية(١٢) ، لما عرف هذا أعجب بها ، وجاء بها لتعيش معه فى بيته القريب من الكتدرائية .

وكانت فى سن السادسة عشرة حين اتصلت حياتها بحياة أبلار (١١١٧) ؛ وفى ظننا أنها سمعت به قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، وما من شك فى أنها كانت قد أبصرت مئات الطلاب تغص بهم الأبهاء وقاعات المحاضرات ، وقد جاءوا ليستمعوا إليه ؛ ولعلها وهى ذات الحماسة الذهنية القوية قد ذهبت خفية أو علناً لترى وتسمع معبود علماء باريس ومثلهم الأعلى . وفى وسعنا أن نتصور حياءها وارتياعها حين أخبرها فلبير أن أبلار سيسكن معهما ويصبح معلمها

الخاص . وها هو ذا الفيلسوف نفسه يفسر لنا أصرح تفسير كيف حدث هذا :

« وكانت هذه الفتاة الصغيرة هى التى . . . اعتزمتْ أن أرتبط بها برباط الحب . والحق أن هذا العمل من أسهل الأمور . فهاهو ذا اسمى على كل لسان ، ولى من مزايا الشباب والجمال ما لا أخشى معه أن ترفضنى امرأة ، أيا كان شأنها ، أتعطف عليها بحبى . . . وهكذا شرعت ، وقلبى ملتهب بحب هذه الفتاة ، أبحث عن الوسائل التى تمكننى من أن أتحدث إليها فى كل يوم حديث المودة الخالية من الكلفة ، حتى يسهل علىّ بذلك أن أحظى بموافقتها . ومن أجل هذا أقنعت عم الفتاة . . . أن يأوينى فى بيته . . . نظير أجر قليل أؤديه له . . . وكان هو رجلا بخيلا حريصا على المال و . . . اعتقد أن ابنة أخيه ستفيد كثيراً من تعليمى . . . ولقد ذهلت من سذاجة الرجل ، ولو أنه عهد بحَمَل وديع إلى عناية ذئب مفترس لما كنت أشد من ذلك دهشة وذهولا . . .

« ولِمَ أطيل القول ؟ واجتمعنا أولا فى المسكن الذى أظل حبنا ، ثم فى القلبين اللذين كانا يتحرقان بين جنبينا . وقضينا الساعات الطوال ننعم بسعادة الحب متسترين بستار الدرس . . . وكانت قُبلاتنا يزيد عديدها على كلماتنا المنطقية ، وكانت أيدينا أقل بحثاً عن الكتاب منها عن صدرينا ، وكان الحب يجذب عينَى كل منا إلى الآخر[١٣] » .

وهكذا أحالت رقة هلواز العاطفة التى بدأت رغبة جسمية بسيطة « حناناً أذكى من عرف الطيب » . وكانت هذه تجربة جديدة فى حياته لهته عن الفلسفة ، فقد استعار من محاضراته وجداً وهياما لحبه ، فأضحت هذه المحاضرات مملة على خلاف عادتها . وأسف طلابه لما أصاب الجدلى المنطيق ، ولكنهم رحبوا بالعاشق ، وسرهم أن يعرفوا أن سقراط نفسه يمكن أن يأثم ، وعزوا أنفسهم عما فقدوه من الحجج الدامغة بترديد أغانى الحب التى بدأ يؤلفها ؛ وكانت هلواز

تسمع من نافذة بيتها أغانى افتتانه بها تتردد أصداؤها الصاخبة على ألسنة تلاميذه[١٤] .

ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى أبلغته أنها حامل فما كان منه إلا أن اختطفها سراً من بيت عمها وأرسلها إلى بيت أخته فى بريطانى[١٥] . ودفعه الخوف من جهة والرحمة من جهة أخرى فعرض على عمها الغاضب الحانق أن يتزوجها بشرط أن يسمح له فلبير بأن يظل أمر الزواج سراً . ووافق القس على هذا ، وسافر أبلار إلى بريطانى فى أثناء العطلة ليحضر عروسه الرقيقة القلب غير الراضية بالزواج . وكان عمر ابنهما أسطرلاب Astorlabe ثلاثة أيام حين أقبل هو على والدته . وظلت هلواز زمناً طويلا ترفض الزواج به . ذلك أن إصلاحات ليو التاسع وجريجورى السابع كانت منذ جيل من الزمان قد حرمت مناصب القسيسين على المتزوجين إلا إذا ترهبت الزوجة ، ولم تكن هلواز مستعدة لأن تفارق رفيقها وابنها على هذا النحو ، وعرضت عليه أن تبقى عشيقته بحجة أن هذه العلاقة ، إذا ظلت سراً يخفى عن الناس بحكمة ، لن تحول بينه وبين الرقى فى مناصب الكنيسة كما يحول الزواج[١٦] . وقد أورد أبلار فى كتابه تاريخ مصائبى (الفصل السابع) فقرة طويلة يعزو فيها إلى هلواز فى هذا الظرف ثبتاً طويلا من المراجع والأمثلة المعارضة لزواج الفلاسفة ، وحججاً فصيحة قوية فى الاعتراض على « حرمان الكنيسة من ضوئه البراق » : « تذكر أن سقراط قد تزوج ، وكيف طهرت الفلسفة من هذا العار الذى دنسها تطهيراً خسيسا حتى يكون الناس بعدئذ أكثر حكمة وأحكم تدبيراً » ، ثم ينقل عنها قولها : « إنها أحلى لها كثيراً أن تسمى عشيقتى من أن يعرف الناس أنها زوجتى ، بل إن هذا يكون أيضا أشرف لى »[١٧] . ولكنه أقنعها بأن وعدها ألا يعرف الزواج إلا عدد قليل من أوثق الناس صلة بهما .

وتركا أسطرلاب مع أخت أبلار وعادا إلى باريس وتزوجا بحضور فلبير . وأراد أبلار أن يحتفظ بسرية الزواج فعاد إلى حيث كان يسكن وهو أعزب ، وعادت هلواز إلى السكنى مع عمها ، ولم يكن كلا الحبيبين يرى الآخر إلا نادراً وخلسة . ولكن فلبير ، فى حرصه على أن يسترد مكانته ، أخلف الوعد الذى قطعهُ لأبلار وأذاع السر ؛ وأنكرته هلواز ، « وأنزل بها فلبير العقاب بعد العقاب » . فما كان من أبلار إلا أن فر بها مرة أخرى ، وبعث بها هذه المرة ، على كره منها شديد ، إلى دير أرچنتى ، وأمرها أن ترتدى ثياب الراهبات ، وألا تقسم اليمين أو تلبس النقاب . ويقول أبلار إنه لما سمع فلبير وأقاربه بهذا « أيقنوا أننى قد غدرت بهم أشد الغدر ، وتخلصت إلى أبد الدهر من هلواز إذ أرغمتها على أن تترهب . فاستشاطوا من هذا غضباً ودبروا مؤامرة على ؛ وبينا كنت نائماً ذات ليلة . . . فى حجرة سرية بمسكنى ، إذ اقتحموها علىّ بمعونة خادم من خدمى قدموا له رشوة ، وانتقموا منى انتقاما شنيعا يجللهم العار . . . لأنهم بتروا أعضاء جسمى التى فعلت بها ما كان سبباً فى حزنهم . ولاذوا بالفرار بعد أن فعلوا فعلتهم ، ولكن اثنين منهم قُبض عليهما وفقدا أعينهما وأعضاء تناسلهما »[١٨] .

ولم يكن فى وسع أعدائه أن يختاروا له عقاباً أدل على مكرهم من هذا العقاب . نعم إنه لم يحط من منزلته لساعته ، فإن باريس كلها بمن فيها من رجال الدين عطفت عليه[١٩] ، وأقبل عليه طلابه يواسونه ، وانكمش فلبير واختفى وجرّ عليه النسيان ذيوله ، وصادر الأسقف أملاكه . ولكن أبلار أدرك أن قد قضى عليه ، وأن « قصة هذا الاعتداء الشنيع ستنتشر حتى تبلغ أطراف الأرض » . ولم يعد يستطيع التفكير فى الرقى فى مناصب الكنيسة ، وأحس أن سمعته الطيبة قد

« محيت من الوجود محواً تاما » ، وأنه سيكون مضغة فى أفواه الأجيال المقبلة . وشعر بأن فى سقوطه هذا قسطا من العدالة الطبيعية غير الشعرية ، فقد اجتث من لحمه ذلك الجزء الذى أذنب ، وغدر به نفس الرجل الذى غدر هو به من قبل . وأمر هلواز أن تلبس النقاب وتترهب ، وذهب هو إلى دير القديس دنيس وأقسم يمين الرهبنة(*) .

(*) اقرأ قصة هلواز وأبلار مفصلة فى الجزء الأول من كتابنا : « أشهر الرسائل العالمية » . (المترجم)

الفصل الثالث

صاحب النزعة العقلية

وعاد إلى محاضراته بعد عام من ذلك الوقت (١١٢٠) مستجيبا لإلحاح طلابه ورئيس ديره ، وأخذ يلقيها فى « صومعة » فى شعبة دير ميزنسل Maisoncelle . ونظن أننا نجد فى كتبه أهم ما كان يحتويه منهج محاضراته . على أن هذه المحاضرات قد ألفها وهو قلق مضطرب على دفعات متقطعة ، لا نستطيع أن نحدد تواريخها . وقد راجعها فى سنيه الأخيرة حين تحطمت روحه ، ولسنا ندرى مقدار ما تحطم من حرارة الشباب بفعل الزمن . ولأبلار أربعة كتب صغرى فى المنطق تدور كلها حول مسألة الكليات .

ولا حاجة بنا إلى أن نوقظها من رقادها ، لكن كتابه الجدل رسالة تقع فى ٣٧٥ صفحة فى المنطق بمعناه عند أرسطو : فهى تحليل عقلى لأجزاء الكلام ، وأدوات التفكير (المادة ، والكم ، والمكان ، والوضع ، والزمن ، والعلاقة ، والصفة ، والملكية والعقل ، « والعاطفة ») وأشكال القضايا المنطقية ، وقواعد الاستدلال . وكان من واجب عقل أوربا الغربية بعد أن استيقظ من سباته أن يوضح لنفسه هذه الأفكار الأساسية كما يفعل الطفل حين يتعلم القراءة . وكان الجدل أهم ما تعنى به الفلسفة فى أيام أبلار ، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن الفلسفة الجديدة قد تفرعت من أرسطو عن طريق بوئيثيوس Boethius وپرفيرى . ولم يكن الجيل الأول من أصحاب الفلسفة المدرسية يعرف إلا رسائل أرسطو المنطقية (وحتى هذه الرسائل لم تكن كلها معروفة له) . ولهذا لم يكن كتاب أبلار فى الجدل كتاباً ممتعاً خلاباً . ولكننا نسمع فى صفحاته التى تعنى بالشكل قبل كل شىء إلى طلقة أو طلقتين من تلك المناوشات الأولى فى الحرب التى قامت بين الدين والعقل ودامت مائتى عام .

وكيف نستطيع ونحن في عصر أخذ يشك في العقل نفسه ، أن ندرك لألاء ذلك العهد الذى بدأ فى التو يكشف « سر المعرفة العظيم ؟ »[٢٠]
ويقول أبلار إن الحق لا يمكن أن يناقض الحق ، وإن حقائق الكتاب المقدس يجب أن تتفق مع مكتشفات العقل ، وإلا لكان الله الذى وهبنا هذه وتلك يخدعنا بإحداهما[٢١]

ولعله قد كتب فى عهده الباكر — قبل مأساته — كتابه **حوار بين فيلسوف ويهودى ومسيحى** . وفيه يقول : « إن ثلاثة رجال أقبلوا عليه فى رؤيا أثناء الليل » وسألوه بوصفه أستاذاً ذائع الصيت ، أن يفصل فى نزاع قائم بينهم . وقالوا إنهم كلهم يؤمنون بالله ، وإن اثنين منهم يقبلان ما جاء بالكتب العبرية المقدسة ، أما الفيلسوف فيرفضها ، ويقترح أن يقيم حياته ومبادئه الأخلاقية على أساس العقل والقانون الطبيعى . ويرد عليهم الفيلسوف بقوله إن من أسخف السخف أن نستمسك بعقائد الطفولة . وأن نشارك الغوغاء فى أباطيلهم ، وأن نزج فى الجحيم من لا يقبلون هذه السخافات التى لا تفترق فى شىء عن عبث الأطفال ! » . ويختتم قوله اختتاما غير فلسفى فيرمى اليهود بالبلاهة والمسيحيين بالجنون . ويرد عليه اليهودى بقوله إن الناس لا يستطيعون الحياة بغير القوانين ؛ وإن الله قد فعل ما يفعله الملك الصالح فأنزل على الناس دستوراً للأخلاق الفاضلة ، وإن تعاليم التوراة هى التى أبقت على شجاعة اليهود وأخلاقهم خلال ما أصابهم من التشتت والمآسى التى دامت قروناً طوالا . فيسأله الفيلسوف : وكيف إذن عاش آباؤكم هذه المعيشة النبيلة قبل أن يرسل موسى وشرائعه بزمن طويل ؟ — وكيف تؤمنون بوحى يعدكم بالنعيم فى الدنيا ، ومع هذا فقد ترككم تقاسون آلام الفاقة والبؤس ؟ ويقبل المسيحى كثيراً مما قاله الفيلسوف واليهودى ، ولكنه يقول إن المسيحية قد نمت وأكملت شريعة الفيلسوف الطبيعية وشريعة اليهودى الموسوية ؛ وإنها قد سمت بمثل الإنسانية العليا إلى درجة لم تسم إليها قط من قبل ؛ فلا

الفلسفة ولا اليهودية ، كما جاءت فى الكتب المقدسة ، قد وهبت الإنسان سعادة سرمدية ؛ أما المسيحية فتهب الإنسان القلق المعذَّب ، هذا الأمل فى السعادة ، وهى لهذا عظيمة القيمة إلى أبعد حد . الا إن هذا الحوار الذى لم ينته إلى غاية لهو ثمرة رائعة من نتاج قس فى كتدرائية بباريس عام ١١٢٠ .

وقد وَجَدت حرية فى النقاش شبيهة بهذه الحرية نفسها منفذاً لها فى كتاب آخر لأبلار يعد أشهر كتبه على الإطلاق ، وهو كتاب **نعم ولا** sic et non (١١٢٠) . ونجد أول ذكر لهذا الكتاب فى رسالة كتبها رجل من سانت تييرى St. Tierry يدعى William إلى القديس برنار (١١٤٠) يصف فيها ذلك الكتاب بأنه كتاب مريب يوزع سراً بين تلاميذ أبلار والمتشيعين له[٢٣] . ثم اختفى هذا الكتاب بعدئذ من التاريخ حتى عام ١٨٣٦ حين كشف ڤكتور كوزن Victor Cousin المخطوط بمكتبة فى أڤرانش Avranche . وما من شك فى أن شكل الكتاب نفسه قد أحزن هذا الأسقف ؛ ذلك أنه يبدأ بمقدمة تتم عن التقى والصلاح ، ثم ينقسم إلى ١٥٧ سؤالا تشمل أهم العقائد الأساسية للدين ؛ وقد وضعت فى عمودين متقابلين تحت كل سؤال طائفتان من الأقوال إحداهما تؤيد الرد الإيجابى والأخرى تؤيد الرد السلبى ، وكلتاهما مقتبسة من الكتاب المقدس ، أو من كتب آباء الكنيسة ، أو من الآداب اليونانية الرومانية القديمة ، بل إن بعضها مقتبس من فوه الحب لأوڤد . وقد يكون القصد من تأليف هذا الكتاب هو أن يكون مراجع يُلجأ إليهـــا فى النقاش المدرسى ، ولكن مقدمته تنتقص من قيمة الاعتماد على آباء الكنيسة — سواء أراد الكاتب ذلك أو لم يرده — لأنها تظهر ما بينهم من التناقض ، بل إنها لتظهر تناقض كل منهم لنفسه . ولم يشك أبلار فى قيمة الكتاب المقدس بوصفه مرجعاً دينياً ، ولكنه يقول إن لغته قد كتبت لغير المتعلمين ، وإنها يجب تفسيرها

بالرجوع إلى العقل والمنطق . غير أن النص المقدس قد فسد فى بعض الأحيان لما أضيف إليه زوراً ، أو لعدم العناية بالنسخ ؛ ولهذا فإذا ناقضت نصوص الكتاب المقدس أو كتب آباء الكنيسة بعضها بعضاً ، وجب أن نحاول التوفيق بين النصوص المتناقضة بالاعتماد على العقل . وكتب فى نفس كلمة الافتتاح عبارة استبق بها شكوك ديكارت بأربعمائة عام فقال : « إن أول مفاتيح الحكمة هو المثابرة على الأسئلة وتكرارها! . . . لأن الشك يؤدى بنا إلى البحث ، والبحث يوصلنا إلى النتيجة »(٢٤) . ويقول إن عيسى نفسه حين واجه العلماء فى المعبد أمطرهم وابلا من الأسئلة . ويكاد الحوار الأول فى الكتاب يكون إعلاناً لاستقلال الفلسفة : « يجب أن يكون أساس الإيمان فى عقل الإنسان وفى القضايا المتناقضة » . وهو ينقل أقوالا عن أمبروز ، وأوغسطين ، وجريجورى الأول ، تؤيد الإيمان ، ويستشهد بأقوال من هيلارى Hilary ، وجيروم ، وأوغسطين ، على أن من الخير أن يستطيع الإنسان أن يثبت دينه بالاعتماد على العقل . ويكرر أبلار استمساكه بأصول الدين ، ولكنه يعرض للجدل مسائل مثل : الإرادة الإلهية ، والإرادة الحرة ، ووجود الخطيئة والشر فى عالم خلقه إله خيِّر قادر على كل شىء ، واحتمال أن يكون الله غير قادر على كل شىء . وما من شك فى أن استدلاله الحر فى هذه المسائل قد زلزل إيمان الطلاب الشبان المولعين بالجدل . على أن هذه الطريقة — طريقة التعلم بالبحث الحر إلى أقصى حدود الحرية — أضحت هى الخطة المألوفة المتبعة فى الجامعات الفرنسية وفى الكتابات الفلسفية والدينية ؛ وأكبر الظن أنها قد سلكت هذه السبيل بفضل المثل الذى ضربه لها أبلار(٢٥) . وسنرى القديس تومس يتبعها دون أن يخشى شيئا ودون أن يوجه إليه لوم ؛ وهكذا وجدت النزعة العقلية مكاناً لها فى مستهل عهد الفلسفة المدرسية .

وإذا كان كتابه **نعم ولا** لم يغضب إلا عدداً قليلاً من الناس لأنه لم يوزع منه إلا عدد قليل من النسخ ، فإن ما حاوله أبلار من تحكيم العقل فى

موضوع التثليث — وهو الموضوع الشديد الغموض — لم يكن له ذلك الأثر الضيق الذى كان لهذا الكتاب ، ولم يكن ارتياع الناس له محصوراً فى القليل منهم ؛ وذلك لأنه كان موضوع محاضراته التى ألقاها فى عام ١١٢٠ ، وموضوع كتابه *فى وحدة الإله والتثليث* . وقد كتب هذا الكتاب ، كما يقول هو نفسه : « لطلاّبى لأنهم كانوا على الدوام يبحثون عن المعقول وعن الشروح الفلسفية ، ويسألون عما يستطيعون فهمه من الأسباب لا عن الألفاظ دون غيرها ، ويقولون إن من العبث أن ننطق بألفاظ لا يستطيع العقل تتبعها ، وإنه لا شىء يمكن تصديقه إلا إذا أمكن فهمه أولا ، وإن من أسخف الأشياء أن يعظ إنسان غيره بشىء لا يستطيع هو نفسه أن يفهمه ولا يستطيع من يسعى لتعليمهم أن يفهموه[٢٦] » .

وهو يقول إن هذا الكتاب « انتشر انتشاراً واسعا جداً » وإن الناس أعجبوا بما فيه من دقة . وقد أشار فيه إلى أن وحدة الله هى النقطة الوحيدة التى يتفق فيها أعظم الأديان وأعظم الفلاسفة . ففى الله الواحد الأحد تشهد قدرته بوصفه الأقنوم الأول ، وحكمته بوصفه الأقنوم الثانى ، ونعمته ، وإحسانه ، وحبه بوصفها الأقنوم الثالث . وهذه كلها نواح أو أعراض من الجوهر القدسى ؛ ولكن جميع أفعال الله تتضمن وتجمع فى الوقت عينه قدرته ، وحكمته ، وحبه[٢٧] . وقد شعر كثيرون من رجال الدين بأن هذا التشبيه مما يمكن التجاوز عنه والسماح به ؛ ورفض أسقف باريس طلبه إليه روسلان — وكان قد أصبح وقتئذ شيخاً طاعناً فى السن مستمسكا بالدين — أن يتهم أبلار بالكفر ؛ ودافع چيفروى Geoffroy أسقف شارتر عن أبلار طوال فترة السخط الذى حل بهذا الفيلسوف المستهتر . ولكن ألبريك Alberic ولوتلف ، وهما مدرسان فى ريمس كانا قد تنازعا مع أبلار فى لاءون عام ١١١٣ ، حرّضا كبير الأساقفة على أن يأمره بالمجىء إلى سواسون ومعه كتابه عن التثليث ، وأن يدفع عن نفسه تهمة الإلحاد . فلما قدم أبلار إلى سواسون (١١٢١) وجد أن الغوغاء قد أثيروا عليه ، وأنهم

« يوشكون أن يرجمونى بالحجارة . . . لاعتقادهم أنى قلت بوجود آلهة ثلاثة »[٢٨] . وطاب أسقف شارتر أن يستمع المجلس إلى دفاع أبلار عن نفسه ، ولكن ألبريك وغيره رفضوا طلبه بحجة أن أحداً لا يستطيع أن يدحض حجج أبلار ولا يسعه إلا أن يقتنع بأقواله . وأدانه المجلس من غير أن يستمع إليه ، وأرغمه على أن يلقى كتابه فى النار ، وأمر رئيس دير القديس ميدار **Medard** أن يحجزه فى الدير سنة كاملة ، ولكن مرسوماً بابوياً أفرج عنه بعد وقت قصير ، وأعاده إلى دير القديس دنيس .

وقضى أبلار فى الدير سنة فى شجار دائم مع رهبانه المشاكسين ، ثم حصل بعد ذلك من رئيس الدير الجديد سوجر **Suger** العظيم على إذن بأن يبنى لنفسه صومعة فى بقعة منعزلة فى منتصف المسافة بين فونتينبلو **Fontainebleau** وتروى (١١٢٢) ، وهناك أقام بمعونة رفيق فى الدرجات الدنيا من الرهبنة مصلى صغيرة من القش والغاب سماها « الثالوث المقدس » . ولما سمع الطلاب أنه قد أجيز له مرة أخرى أن يُدرِّس أقبلوا عليه ، وجعلوا من أنفسهم مدرسة عاجلة مرتجلة ، وبنوا أكواخاً بجوار المصلى ، وناموا على القش والبوص ، وطعموا « الخبز الخشن وأعشاب الحقول »[٢٩] . وظهر فى هذا المكان تعطش للعلم ما لبث أن أوجد الجامعات وملأها بالطلاب . والحق أن العصور المظلمة أضحت فى هذا المكان وكأنها كابوس أوشك أن يدرج فى طيات النسيان . وأخذ الطلاب ، فى نظير ما يلقيه من المحاضرات ، يحرثون الأرض ، ويقيمون الأبنية ، وأنشأوا له مصلى جديدة من الخشب والحجارة سماها الروح القدس ، كأنه يريد أن يقول إن حب مريديه قد نزل عليه نزول الروح القدس فى اللحظة التى فر فيها من المجتمع إلى العزلة واليأس .

ولم تكن الثلاث السنين التى قضاها فى ذلك المكان أقل سعادة من أية سنين عرفها من قبل . وأكبر الظن أن المحاضرات التى ألقاها على هؤلاء

الطلاب المشوقين قد احتُفظ بها وأعيدت صياغتها فى كتابين يسمى أحدهما **الدين المسيحى** Theologia Christiana ويسمى الثـــانى **الدين** Theologia لا غير . وكانت العقائد الواردة فى الكتابين مطابقة للدين القويم ، ولكن العصر الذى كان حتى ذلك الوقت غريباً عن معظم آراء الفلسفة اليونانية قد راعه بعض الشىء أن يجد فى الكتابين إشارات إلى المفكرين الوثنيين مصحوبة بالثناء عليهم ، كما وجد فيها ما يشير إلى أن أفلاطون أيضاً قد استمتع إلى حد ما بالإلهام الإلهى[٣٠] . ولم يكن فى وسع أبلار أن يعتقد أن جميع هذه العقول العظيمة الفذة السابقة للمسيح قد فاتتها أسباب النجاة[٣١] ، وأصر على أن الله يفيض حبه على جميع الناس ، وفيهم اليهود والكفار[٣٢] ؛ وعاد أبلار فى غير ندم يدافع عن تحكيم العقل فى أمور الدين ، وقال إن الملحدين يجب أن يردوا عن إلحادهم بالعقل والمنطق لا بالعنف[٣٣] ، وإن الذين يوصون بالإيمان بلا فهم إنما يسعون فى كثير من الأحيان لستر عجزهم عن أن يعلّموا الدين تعليماً يدركه العقل[٣٤] ، وتلك شوكة نفذت من غير شك فى جلود بعض الناس ! فقد يبدو أن أبلار حين يحاول تفسير الدين المسيحى تفسيراً ينطبق على العقل والمنطق ، لم يجرؤ على أكثر مما حاوله الإسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس من بعده ؛ ولكن أبلار حاول أن يدخل أكثر عقائد الكنيسة خفاء وأعمقها غوراً فى قبضة العقل ، على حين أن تومس رغم شجاعته وجرأته ترك مسألة التثليث ، وخلق العالم فى زمن محدد ، لإيمان بعيد عن متناول العقل ، وفوق إدراكه .

وخلقت له جرأته على هذا التفكير وحدة ذهنه المتجددة أعداء جدداً . فقد كتب يشير فى أغلب الظن إلى برنار الكليرفوكسى Bernard of Clairvaux ونوربرت Norbert مؤسس طائفة البريمنستراتنسيين يقول :

يهرول بعض الرسل الجدد ، الذين يثق العالم فيهم أعظم الثقة ، هنا وهناك ...

ينهشون عرضى دون حياء . ولا يتركون لذلك سبيلا إلا سلكوها . حتى أفلحوا على مر الزمن فى أن يجعلونى هدفاً لسخرية الكثيرين من ذوى السلطان . . . ويشهد الله أننى كلما علمت بأن اجتماعاً جديداً لرجال الدين قد دعى إلى الانعقاد ، اعتقدت أنهم لم يدعوا إلا لغرض واحد صريح هو إدانتى (٣٥) .

ولعله أراد أن يكسب أولئك الناقدين . فترك التدريس وقبل دعوة وجهت إليه بأن يكون رئيس دير القديس جلداس فى بريطانى (١١٢٥ ؟) . ولكن أرجح من هذا أن سوجر هو الذى نظم بدهائه وحكمته هذه النقلة مؤملا بهذا أن تسكن العاصفة . وكان فى هذا الانتقال ترقية لأبلار وسجن له فى وقت واحد ، فقد ألفى الفيلسوف نفسه وسط سكان من « البرابرة الذين « لا يفهمون » ، وبين رهبان « أدنياء لا يُرَوَّضون » يعيشون جهرة مع حظياتهم (٣٦) . ونفر أولئك الرهبان من إصلاحاته فدسوا له السم فى الكأس التى كان يشرب منها وقت العشاء الربانى ؛ فلما خاب تدبيرهم هذا رشوا خادمه بأن يدس له السم فى الطعام ؛ ولكن راهباً غيره تناول الطعام « وخر صريعاً من فوره » (٣٧) ؛ غير أن مرجعنا الوحيد فى هذه الأقوال هو أبلار وحده . واستبسل أبلار فى النضال فى هذه المعركة لأنه بقى فى هذا المكان المنعزل إحدى عشرة سنة تتخللها بعض فترات كان فى أثنائها بعيداً عنه .

الفصل الرابع

رسائل هلواز

ومرت به فترة من السعادة المعتدلة حين قرر سوجر أن يستخدم البيت الذى فى إرجنتى لأغراض أخرى غير الدير . وكانت هلواز مذ افترقت عن أبلار قد عكفت فى هذا البيت على أداء الواجبات التى تفرضها عليها حياة الرهبنة حتى عينت رئيسة الدير و « علت مكانتها عند الجميع . . . فأحبها الأساقفة حب الآباء للأبناء ، وأحبها رؤساء الأديرة حب الإخوة للأخوات ، وأحبها غير رجال الدين كما يحب الأبناء الأمهات » . ولما علم أبلار أن هلواز ومن معها من الراهبات يبحثن عن مكان لهن جديد ، عرض عليهن مصلى « الروح القدس » ومبانيها ، وذهب بنفسه ليساعدهن على تنظيم إقامتهن فى مقرهن الجديد . وكثيراً ما كان يزورهن ليعظهن ويعظ القرويين الذين أقاموا بالقرب منهن . وهمس النمامون « أنى لا زالت تسيطر على مباهج الحب الأرضى ، وأنا الذى لم أكن أطيق فى الأيام الخالية أن أفارق من امتلأ قلبى بحبها »[٣٨] .

وكانت هذه الفترة المضطربة التى قضاها رئيساً لدير القديس جلداس هى التى كتب فيها سيرته « *تاريخ مصائبى* » (١١٣٢) . ولسنا نعرف الباعث له على كتابة هذه السيرة ، فهى تتخذ شكل مقالة يواسى بها صديقاً يشكو بؤسه ، « حتى إذا وازنت أحزانك بأحزانى ، رأيت أن أولاهما ليست إلى جانب الثانية بالتى تستحق الذكر » ؛ ولكن يبدو أن هذه السيرة كان يقصد بها أن يطلع عليها العالم ، وأن تكون اعترافاً أخلاقياً ، ودفاعاً دينياً . وتقول رواية قديمة ، ولكنها مما لا يمكن تحقيقه ، إن نسخة من الكتاب وصلت إلى يد هلواز ، وإنها ردت عليه هذا الرد العجيب :

« إلى سيدها ، بل أبيها ، إلى زوجها ، بل أخيها : من خادمته ، بل ابنته ، من زوجته ، بل أخته : إلى أبلار ، من هلواز :

« لقد جيء إليّ مصادفة منذ زمن قريب بخطابك الذى كتبته يا حبيبى تعزية إلى صديق ... وقد حوى أشياء لايستطيع أحد أن يطلع عليها دون أن تفيض عيناه بالدمع لأنها تجدد أحزانى كاملة ... فباسم الله الذى لايزال يرعاك .. باسم المسيح ، ونحن خادماته وخادماتك ، نستحلفك أن تتفضل فتخبرنا فى رسائل منك متتابعة عن المصائب التى لازالت تتقاذفك حتى نشاركك على الأقل فى أحزانك ومسراتك ، نحن الذين بقينا على الدوام أوفياء لك ...

« إنك لتعرف يا أعز الناس عليّ — وإن الناس كلهم ليعرفون — ماذا خسرتُ بفقدك ... لقد بدلت ثيابى وقلبى طوعاً لأمرك ، كى أظهر لك أنك مالك جسمى وعقلى ... ولم أكن أتطلع إلى عهد الزواج ، أو إلى مهر تمهرنى به ... وإذا كان اسم الزوجة يبدو أكثر قداسة وأقوى رابطة ، فإنّ أحب إليّ ، اسم الصديقة منه وأعذب على الدوام ؛ أو ، إذا لم يكن فى هذا ما تستحى منه ، اسم العشيقة أو العاهرة ... وإنى لأشهد الله لو أن أغسطس الذى حكم العالم كله رأى أنى خليقة بأن يكون لى شرف الزواج به ، وأن يملّكنى العالم بأسره أحكمه حكما يدوم أبد الدهر ، لكان قولهم إنى مومسك أحب إليّ من قولهم إنى إمبراطورته ...

« وهل بين الملوك أو الفلاسفة من يضارعك فى شهرتك ؟ وأية مملكة أو مدينة أو قرية لم تتحرق شوقاً لرؤيتك ؟ ومَن من الناس لم يستحث الخطى لينظر إليك ، حين تبدو أمام الجماهير ؟ ... وأية زوجة ، وأية عذراء ، لم تتلهف عليك وأنت غائب ، أو تتحرق شوقاً إليك وأنت حاضر ؟ وأية ملكة أو سيدة ذات سلطان لم تحسدنى على مباهجى وفراشى ؟

« هلا حدثتنى عن شيء واحد إن استطعت : لم أهملتنى ونسيتنى ، بعد أن سلكتُ سبيل الحياة الدينية التى كنت أنت دون غيرك الآمر بها ، فلم أحظ بعدئذ

بكلمة منك أو نظرة إليك تبتهج بها نفسى ، أو رسالة منك غيبتك يرتاح لها قلبى ؟ ألا فحدثنى عن شىء واحد لا أكثر إن استطعت ، أو دعنى أفض إليك بما أحس به ، بل ما يظنه الناس جميعاً : إن الشهوة الجنسية لا الحب هى التى وثقت الصلة بينى وبينك ... فلما أن نلت ما تبغيه ، زال من فوره كل ما كنت تتظاهر به ... ليس هذا يا أحب الناس إلىّ ، ما أظنه أنا وحدى ، بل ما يظنه الناس جميعاً ... وكم كنت أتمنى أن يكون هذا ظنى دون غيرى ، وأن يجد حبك من يبرره غيرى فتخفّ بذلك بعض الشىء لواعج أحزانى .

« أتوسل إليك أن تستمع لما أطلبه إليك ... فى الوقت الذى أخادع نفسى فيه بوجودك معى فى ألفاظك المكتوبة على الأقل — وهى ألفاظ لديك منها الشىء الكثير — أهد إلىّ صورتك الحلوة ... فأنا أستحق منك أكثر منها ... بعد أن فعلت من أجلك كل ما يمكن فعله ... أنا التى غويت حياة الدير الخشنة فى سن الشباب ... لاعن تقى وحب للدين بل إطاعة لأمرك لا لشىء سواه .. ولست أنتظر ثواباً من الله على هذا العمل ، لأنى لم أعمل شيئاً لوجه الله كما تعرف ذلك حق المعرفة ... ولذلك أستحلفك باسم الذى وهبت له نفسك ، وأتوسل إليك أمام الله أن تعيد إلىّ وجودك بأية سبيل فى استطاعتك ، ولو بكلمة منك تخفف عنى آلامى ... وداعاً يا كل من أحب »[٣٩] .

لكن أبلار كان عاجزاً عجزاً جسمياً عن أن يستجيب إلى هذه العواطف الجياشة بعواطف من نوعها ، ولهذا كانت الرسالة التى تعزوها إليه الرواية المتواترة تذكيراً لها بالنذر الدينى الذى نذر له نفسه : « إلى هلواز أخته العزيزة فى المسيح ، من أبلار أخيها فى المسيح نفسه » ؛ وهو يوصيها بأن تقبل ما حل بهما من مصائب خاضعة لها ، راضية بها ، على أنها تطهير وعقاب للنجاة من عند الله . ويطلب إليها أن تدعو له ، ويأمرها أن تخفف من أحزانها بأملها فى أن يجتمعا معاً فى السماء ، ويرجوها أن تواريه الثرى حين يموت فى أراضى « الروح

القدس » . وتعيد فى رسالتها الثانية عبارات الهيام وعدم التقى فتقول : « لقد كنت على الدوام أخشى أن أغضبك ، لا أن أغضب الله ، وأعمل على رضائك أكثر مما أعمل على رضاه ... فانظر أية حياة تعسة لابد أن أحياها إذا كنت أقاسى كل هذا عبثاً ، لا أمل لى فى أن أثاب عليه فى المستقبل . لقد ظللت ، كما ظل الكثيرون غيرك زمناً طويلا مغروراً بخداعى وتمويهى فحسبت النفاق ديناً »(٤٠) . فيجيبها بأن المسيح ، لا هو ، قد أحبها بحق : لقد كان هيامى شهوة جنسية لا حباً ، ولقد أشبعت شهوتى الدنيئة فيك ، وكان هذا كل ما أحببت... فاذرفى الدمع من أجل منقذك لا من أجل من أغواك ، من أجل منجيك لا من أجل مدنسك(٤١) . ثم يؤلف دعاء مؤثراً يطلب إليها أن تتلوه من أجله . وتبدو فى رسالتها الثالثة وقد استسلمت لموت حبه الدنيوى ؛ ولا تطلب إليه وقتئذ إلا قاعدة جديدة تستطيع هى ومن معها من الراهبات أن يحيين بها حياة دينية حقة. ويستجيب هو إلى رغبتها ويضع لهن دستوراً رحيما معتدلا ، ويكتب مواعظ يقوى بها إيمانهن . ويبعث بهذه كلها إلى هلواز موقعة بتوقيع دقيق : « وداعاً فى الرب إلى خادمته ، من كانت فى وقت ما عزيزة على فى هذا العالم ، وأضحت الآن أعز الناس فى المسيح » . لقد كان فى ثنايا قلبه المحطم لا يزال يهيم بحبها .

وبعد ، فهل هذه الرسائل الشهيرة حقيقية ؟ إن هذه المشكلة لتواجهنا قوية مستعصية . يقال إن أولى رسائل هلواز قد كتبت على أثر ظهور كتابه تاريخ مصائبى وهو يذكر فيه عدة زيارات قام بها أبلار لهلواز فى الروح القدس ؛ ومع هذا فهى تشكو أنه أغفلها . ولكن لعل تاريخه قد ظهر أجزاء متقطعة ، وأن الأجزاء الأولى منه وحدها هى السابقة على الرسالة . ثم إن النزعة الشهوانية الخريئة الظاهرة فى بعض فقراتها تبدو غير معقولة لصدورها من امرأة أكسبها تقاها وتفانيها فى أمور الدين مدى أربعة عشر عاما ذلك الإجلال السامى عند جميع الناس . وهو الإجلال الذى يشهد به بطرس المبجل Peter the Venerable

كما يشهد به أبلار . يضاف إلى هذا ما فى الرسائل من تنميق بلاغى ومقتبسات من كتب الأدب القديم ، ومن كتب الآباء ، دالة على التحذلق والتكلف لا يمكن وجودها فى عقل يحس إحساسا صادقا بالحب أو التقى أو الندم . وفوق هذا كله فإن أقدم مخطوطات هذه الرسائل يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر . ويبدو أن چان ده مونج قد ترجمها من اللغة اللاتينية إلى الفرنسية فى عام ١٢٨٥ [٤٢] .
وإلى أن نجد أدلة أكثر مما لدينا قوة فإن لنا أن نختتم هذا الفصل بقولنا إنها من أبدع الوثائق المزورة فى التاريخ ، وإن حوادثها غير موثوق بصحتها ، ولكنها قسم خالد لا يفنى من أدب فرنسا الغرامى [٤٣] .

الفصل الخامس

المـــلدين

لسنا نعرف متى فر أبلار من منصبه العالى فى رياسة الدير ومما كان يعانيه من آلام أو كيف أتيح له هذا الفرار. فهاهو يوحنا السلزبرى يقول إنه استمع إلى محاضرات أبلار على جبل سانت جنفييف فى عام ١١٣٦ ، كذلك لا نعرف أى رخصة أجازت له أن يعود إلى التعليم ، ولعله لم يطلب ترخيصا ما ، ولعله قد استهزأ فى وقت ما بآداب الكنيسة فثار عليه رجالها وسلكوا ضده سبلا ملتوية أدت إلى سقوطه الأخير.

وإذا كان إخصاؤه قد أزال رجولته ، فإنا لا نرى أثراً لهذا فى الكتب التى نقلت إلينا أسس تعاليمه . وإن من الصعب علينا أن نجد فيها خروجا صريحا على الدين ، وإن كان من اليسير أن نجد فيها فقرات أثارت بلا ريب غضب رجال الدين . من ذلك أنه يقول فى كتاب له عن فلسفة الأخلاق عنوانه **اعرف نفسك** Scito te ipsum إن الخطيئة ليست فى العمل نفسه بل فى نية العامل ، وإن العمل أيا كان — حتى القتل نفسه — ليس خطيئة فى ذاته . مثال ذلك أن أماً لم تجد لديها من الثياب ما يكفى لتدفئة طفلها فضمته إلى صدرها وأماتته خنقاً على علم منها ، لقد قتلت هذه الأم طفلها الحبيب إليها فعاقبها القانون العقاب الذى تستحقه كى يصبح غيرها من النساء أكثر منها عناية ، ولكن هذه الأم بريئة من الذنب عند الله . وفوق هذا فلكى تكون هناك خطيئة ، يجب أن يكون مرتكبها قد خالف ضميره الأخلاقى لا ضمير غيره من الناس وحدهم ، وعلى هذا فإن قتل الشهداء المسيحيين لا يعد إثما ارتكبه الرومان الذين كانوا يشعرون بأن

اضطهاد هؤلاء المسيحيين واجب للإبقاء على دولتهم أو دينهم الذى خالوه صحيحاً . وأكثر من هذا « أن الذين اضطهدوا المسيح أنفسهم أو اضطهدوا أتباعه ، وهم يرون من واجبهم أن يضطهدوهم ، قد ارتكبوا إثما من حيث عملهم ، ولكن لو أنهم امتنعوا عن اضطهادهم مخالفين بذلك ما تمليه عليهم ضمائرهم لارتكبوا بذلك إثما أكبر »(٤٤) . قد يكون هذا كله منطقا سليما ومثيراً معا ، ولكن إذا أخذ بهذه النظرية فإن عقيدة الخطيئة من أولها إلى آخرها من حيث مخالفتها لأوامر الله معرضة لأن تتبخر فى تيار الجدل القائم حول النيات فلا يبقى لها وجود قط ؛ فأى الناس ، إذا استثنينا القديس بولس وعدداً قليلا ممن هم على شاكلته ، يعترف بأنه عمل ما يخالف ضميره ؟ وكانت ست فقرات من الفقرات الست عشرة التى أدين أبلار من أجلها فى عام ١١٤١ مأخوذة من هذا الكتاب .

وكان الذى أزعج الكنيسة أكثر من أى إلحاد معين تبينته عند أبلار هو افتراضه أن لا أسرار فى الدين ، وأن العقائد كلها يجب أن تكون قابلة للتفسير القائم على العقل ، ولم يكن ثمة غرابة فى صدور هذا القول منه . ألم يكن ثملاً بنشوة المنطق الذى جرؤ على أن يربطه بكلمة لله ويكاد يجعله من العلوم القدسية ؟(٤٥) . ولنا أن نتساءل كم من العقول القاصرة غير الناضجة التى تأثرت بجرثومة ذلك التحليل المنطقى قد ضلت طريقها بحججه الطلية المؤيدة والمعارضة إذا سلمنا بأن هذا الاستاذ الذى افتتن به الناس وأغواهم قد وصل بأساليب غير مستقيمة إلى نتائج صحيحة سليمة ؟ ولو أنه لم يكن له أمثلة من نوعه لترك وشأنه دون أن يناله أذى ، رجاء ألا يطول أجله . لكنه كان له أتباع متحمسون ، وكان ثمة معلمون غيره — وليم الكنشسى William of Conches ، وجلبرت ده لاپريه Gibert de la Porrée ، وبرنجر الثورى Berenger of Tours — وكانوا كلهم يضعون الدين على مشرحة العقل . فإذا ظل هذا التيار يجرى فى مجراه ، فإلى متى تستطيع الكنيسة أن تحتفظ بوحدة العقيدة الدينية وقوة الإيمان

اللتين يقوم عليهما — فيما يبدو لها — نظام أوربا الأخلاقى والاجتماعى ؟ ألم يشرع آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أحد تلاميذ أبلار يشعل فعلا نار الثورة فى إيطاليا ؟

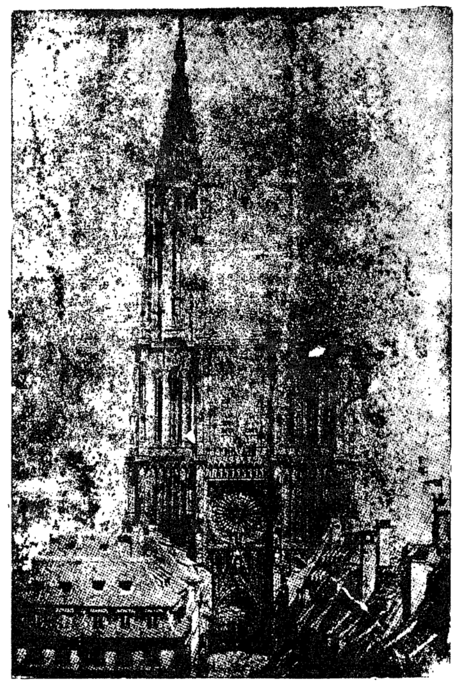
وأكبر الظن أن هذه الاعتبارات أو نحوها هى التى أوقفت القديس برنار موقف العداء جهرة أمام أبلار . ذلك بأن حارس الدين الحريص على سلامته قد اشتم رائحة الخطر الذى يتهدد معتنقيه ، فقاد المؤمنين إلى النضال . وكان من وقت بعيد ينظر بعين الارتياب إلى هجمات العقل الجرىء المتربص بالدين ؛ ويبدو له أن طلب العلم إذا لم يقصد به خدمة الدين هو الوثنية بعينها ؛ أما أن يحاول إنسان تفسير الأسرار المقدسة بقواعد العقل والمنطق فهو المعصية والحماقة ؛ والعقل الذى يبدأ بتفسير هذه الأسرار الخفية سينتهى آخر الأمر إلى تدنيسها . ولم يكن القديس بالرجل الشرس المتربص للشر ؛ ذلك أنه لما أن لفت وليم التيبرىّ أحد رهبان ريمس نظره فى عام ١١٣٩ إلى ما فى تعاليم أبلار من خطر ، وطلب إليه أن يتهم الفيلسوف ، صرف الراهب من عنده ولم يفعل شيئاً . ولكن أبلار نفسه استعجل الأمور بأن كتب إلى كبير أساقفة سان Sens أن تتاح له أثناء انعقاد مجلس الكنيسة المقبل فى تلك المدينة ، فرصة يدفع فيها عن نفسه تهمة الإلحاد التى يذيعها بعضهم عنه . ووافق كبير الأساقفة على هذا الطلب ، لأنه لم يكن يرى بأساً فى أن يكون كرسيه قبلة العالم المسيحى ؛ وأراد أن يكون الكفاح قويا فدعا برنار إلى الحضور ، ولكنه أبى وقال إنه سيكون فى حلبة الجدل « طفلا لا أكثر » أمام أبلار الذى تدرب على المنطق أربعين عاما . غير أنه كتب إلى عدد من الأساقفة يحثهم على الحضور للدفاع عن الدين :

« يحاول بطرس أبلار أن يقوّض فضائل الدين المسيحى حين يدعى لنفسه القدرة على فهم الله فهما كاملا بالاعتماد على العقل البشرى . فهو يرقى إلى السموات العلا ، وينزل إلى الأغوار السحيقة ؛ ولا يستطيع شىء أن يختفى

عنه ! . . . وهو لا يكتفى بأن ينظر إلى الأشياء من خلال المنظار نظرة غير واضحة ، بل يرى أن لا بد له من النظر إلى الأشياء وجها لوجه . . . إن فيه لشبهاً بأريوس حين يتحدث عن التثليث ، وبيلاچيوس Pelagius حين يتحدث عن البركة ، ونسطوريوس حين يتحدث عن شخص المسيح . . . إن دين المتقين هو الإيمان والتصديق ، لا المجادلة ؛ أما هذا الرجل فليس له عقل يصدق به ما لم يسبق له أن ناقشه بمنقطه(٤٦) .

وتغلب أتباع برنار عليه ، وأظهروا له ضعفهم ، فاضطروه إلى الحضور ؛ فلما أقبل أبلار على سان (يونية سنة ١١٤٠) وجد الجماهير ، كما وجدها فى سواسون قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، ثائرة عليه لمجرد وجود برنار فى المدينة ، ولعدائه الشديد له ، حتى لم يكن يجرؤ على الظهور فى شوارعها . أما كبير الأساقفة فقد حقق حلمه ، لأن سان بدت أسبوعا كاملا وكأنها مركز العالم كله . لقد جاء إليها ملك فرنسا تحف به حاشيته الفخمة ، وأقبل عليها عشرات من كبار رجال الكنيسة ، وكان برنار الذى أقعدته الرثية وعلت وجهه صرامة القداسة يبعث الرعب فى قلوبهم جميعاً ؛ وكان بعض أولئك الأحبار قد أحسوا فرادى أو مجتمعين بوخز الطعنات التى وجهها أبلار لمعائب رجال الدين ، ولفساد أخلاق القساوسة والرهبان ، وبيع صكوك الغفران ، واختراع المعجزات الزائفة . وأيقن أبلار أن المجلس سيدينه ، فحضر جلسته الأولى وأعلن أنه لن يرضى بأن يحكم عليه غير البابا نفسه ؛ ثم غادر الاجتماع وخرج من المدينة . ولم يكن المجلس واثقاً ، بعد أن طلب إليه التنحى عن الحكم ، أن من حقه قانوناً أن يحاكم أبلار ؛ ولكن برنار أكد له أن هذا من حقه ، فأخذ المجلس يطعن فى ست عشرة مسألة منتزعة من كتب أبلار ، ومن بينها تعريفه للذنب ، ونظريته فى التثليث التى يقول فيها إنه هو القدرة ، والحكمة ، والحب من صفات الإله الواحد .

وسافر أبلار إلى رومة ليعرض قضيته على البابا وهو لا يكاد يملك شروى نقير ،



(الصورة رقم ٤) كتدرائية استراسبرج

واعترضه فى السفر شيخوخته وضعفه فتأخر كثيراً فى الطريق . ولما وصل إلى دير كلونى فى برغندية استقبله بطرس المبجل بالشفقة والحنان ، فاستراح فى الدير بضعة أيام قليلة . وفى هذه الأثناء أصدر إنوسنت الثانى قراراً بالتصديق على حكم المجلس ، وفرض الصمت الدائم على أبلار ، والأمر بحجزه فى أحد الأديرة . ورغب أبلار بالرغم من صدور هذا القرار أن يواصل حجه ، ولكن بطرس أقنعه بألا يفعل ، وقال له إن البابا لا يمكن أن يصدر قرراً يخالف ما يراه برنار . وخضع أبلار لهذا الرأى لما عاناه من الإعياء الجسمى والروحى ، فصار راهبا فى دير كلونى واختفى فى ظلام أسواره وطقوسه ، وقوى روح زملائه الرهبان بتقواه ، وصمته ، وصلواته . وكتب إلى هلواز — التى لم يرها قط بعد ذلك الوقت — يعترف اعترافا مؤثراً بإيمانه بتعاليم المسيح ، وألف لها فى أغلب الظن ترانيم من أجمل ما يحتويه أدب العصور الوسطى . وتعزى إليه « مرثية » فى صورة رثاء من داود إلى يوناثان ، ولكن فى وسع أى قاوئ أن يلمح فيها أنيناً رقيقاً :

لو قُدّر لى أن أرقد معك فى قبر واحد
لرأيت السعادة فى أن أموت ،
فلست أعرف من النعم التى يمكن أن يهبها الحب فى هذه الدنيا ما هو
أعظم من هذه النعمة .
ولو أننى عشت بعد أن تموتين ويبرد جسمك
لكان ذلك هو الموت الأبدى ،
ولن يكون فى شبحى نصف روح
يمسك على حياتى أو نصف نفسى .

* * *

هأنذا ، ألقى قيثارتى ،
ألا ليتنى أستطيع
أن أمسك كذلك دموعى وأنينى !
لقد آلم العزف يدى
وبحّ صوتى
من فرط الحزن ، وحل بروحى الإعياء .

وأصابه المرض بعد هذا الوقت بقليل ، وأرسله رئيس الدير الرحيم إلى دير القديس مارسل St. Marcel بالقرب من شالون ليبدل فيه الهواء ؛ وهنالك وفى اليوم الحادى والعشرين من إبريل عام ١١٤٢ وافته المنية وهو فى السادسة والثلاثين من عمره . ودفن فى كنيسة الدير ؛ ولكن هلواز ذكّرت بطرس المبجل بأن أبلار قد طلب فى حياته أن يدفن فى « الروح القدس » . وجاء إليها الرئيس الرحيم نفسه بالجثة ، وحاول أن يواسيها بالتحدث عن حبيبها الميت بأنه سقراط زمانه وأفلاطونه وأرسطوطاليسه ؛ وترك معها رسالة تفيض بالحنان المسيحى :

وهكذا يا أختى العزيزة المعظمة فى الله ، إن الرجل الذى اجتمعت وإياه ، بعد رابطتكما الجسمية ، برابطة خير منها وأقوى هى رابطة الحب المقدس ، والذى خدمت . . . الله معه ، هذا الرجل يأخذه الله بدلا منك ، فهو صورة أخرى منك ، وينفث فيه دفء صدره ؛ ويحتفظ به حين يُدوى صوت الملاك الأكبر ، وينفخ فى الصور من السموات العلى ، ليرده إليه نعمة منه ورحمة(٤٨) .

ولحقت بحبيبها فى عام ١١٦٤ بعد أن بلغت من السن ما بلغه هو ، وكادت تنال من الشهرة مثل ما ناله . ودفنت بجـواره فى حديقة « الروح القدس » .

ودمرت هذه الحديقة فى أثناء الثورة الفرنسية ، وعبثت الأيدى بالقبور، ولعلها اختلط بعضها ببعض . ثم نقل ما يظن أنه رفات أبلار وهلواز إلى مقبرة الأب لاشيز Père Lachaise بباريس عام ١٨١٧ . وهناك ترى الرجال والنساء إلى يومنا هذا يأتون فى أيام الأحد من فصل الصيف يحملون الأزهار ليزينوا بها القبر(*) .

(*) لقد أوردنا قصة أبلار وهلواز ورسائلهما فى كتابنا « أشهر الرسائل العالمية » فليقرأها من أراد الاطلاع على هذه السيرة العجيبة . (المترجم)

الباب السادس والثلاثون

مغامرات العقل

١١٢٠ – ١٣٠٨

الفصل الأول

مدرسة شارتر

ترى كيف تفسر تلك الثورة الفلسفية العجيبة التي بدأت بأنسلم، وروسلان، وأبلار، وبلغت ذروتها في ألبرتس مجنس والقديس تومس أكوناس؟ لقد كان لهذه الثورة، كما هي العادة، كثير من الأسباب: منها أن الشرق اليوناني لم يكن قد تخلى قط عن تراثه الثقافي القديم، بل كانت كتب الفلاسفة الأقدمين تدرس في كل قرن في القسطنطينية، وأنطاكية، والإسكندرية؛ وكان رجال أمثال ميخائيل بسلس Miehael Psellus، ونقفورس بلميدس Nicephorus Blemydes (١١٩٧؟ – ١٢٧٢)، وجورج بشميرس George Pachymeres (١٢٤٢؟ – ١٣١٠)، وبارهبريوس Bar Hebareus السوري (١٢٢٦؟ – ١٢٨٢) كان رجال من أمثال هؤلاء مطلعين على مؤلفات أفلاطون وأرسطو بلغتها الأصلية؛ وأخذ المعلمون اليونان يدخلون بلاد الغرب كما أخذت المخطوطات اليونانية تدخلها تدريجاً. وحتى في تلك البلاد نفسها كان قليل من التراث اليوناني قد بقي بعد العاصفة البربرية؛ فقد بقي الجزء الأكبر من **أرغنون** أرسطو في المنطق، ومن كتابي **مينون** و**تيماوس** لأفلاطون، وكانت

الصورة التى رسمها هذا الفيلسوف لإر Er هى التى لونت خيال المسيحيين عن الجحيم . وقد جاءت الموجات المتتابعة من الكتب العربية واليونانية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بما تحتويه الفلسفتان اليونانية والإسلامية من أفكار جديدة تتحدى الأفكار المسيحية وتختلف عنها اختلافاً يهدد باكتساح لاهوت العالم المسيحى كله إذا لم تنشئ المسيحية لها فلسفة مناهضة لها . على أن هذه المؤثرات لم تكن تستطيع أن تنشئ تلك الفلسفة المسيحية إذا كان الغرب قد ظل فقيراً كما كان ؛ أما الذى جعل لهذه العوامل أثراً فعالا فهو نمو الثروة حين أخذت الزراعة تغزو القارة الأوربية ، واتسع نطاق التجارة والصناعة ، وتكاثرت الأموال وما تؤديه من خدمات . وتعاونت هذه النهضة الاقتصادية مع تحرر المدن ذات الحكم الذاتى ، وقيام الجامعات ، وإحياء الآداب اللاتينية والقانون الرومانى ، وتقنين الشريعة الكنسية ، ومجد الفن القوطى ، وازدهار الأدب الخيالى ، و « علم » الشعراء الغزلين « المرح » ، واستيقاظ العلوم ، وبعث الفلسفة ، تعاونت هذه كلها على إيجاد « نهضة القرن الثانى عشر » .

وجاء فى أعقاب الثروة الفراغ ، والدرس ، والمدارس ، وكانت كلمة Scholê تعنى فى أول الأمر الفراغ . وكان الأسكلاستكوس scholasticus هو المدرس أو الأستاذ ، كما كانت عبارة « الفلسفة المدرسية » تعنى الفلسفة التى تدرس فى مدارس العصور الوسطى الثانوية أو فى الجامعات التى نشأت كثرتها الغالبة من هذه المدارس الثانوية . كذلك كانت « الطريقة المدرسية » هى أسلوب الجدل الفلسفى والعرض الفلسفى اللذين يستخدمان فى هذه المدارس . وإذا ما استثنينا فصول أبلار التى كانت فى باريس أو قريبة منها ، فقد كانت مدرسة شارتر أكثر هذه المدارس نشاطاً وأعظمها شهرة ؛ ففيها امتزجت الفلسفة بالأدب ، وكان فى وسع من يتخرج فيها أن يكتب فى المسائل الخفية العويصة بالوضوح والظرف اللذين أصبحا من التقاليد المشرفة فى فرنسا . وكان أفلاطون ، الذى جعل هو

أيضاً الفلسفة مفهومة مستساغة ، من الفلاسفة المحببين هناك ؛ وفيها سوّى النزاع القائم بين الواقعيين والقائلين بأن الكليات إن هى إلا ألفاظ وليس لها وجود حقيقى فى العقل أو خارجه ، سوّى هذا النزاع بقولهم إن الكليات « الحقيقية » هى بعينها الأفكار الأفلاطونية ، أو النماذج الأولى الخلاّقة التى فى عقل الله . وبلغت مدرسة شارتر ذروة نفوذها فى عهد برنار أحد مواطنيها (حوالى ١١١٧) وأخيه ثيودريك (حوالى ١١٤٠) ؛ وكان ثلاثة من خريجيها يسيطرون على ميدان الفلسفة بأوربا الغربية فى النصف القرن التالى لحياة أبلار وهم : وليم الكوشى ، وجلبرت ده لابُرِّيه ، ويوحنا السلزبرى .

ويتبين الإنسان اتساع مجال الفلسفة المدرسية بوضوح عجيب فى سيرة وليم الكوشى (١٠٨٠ ؟ — ١١٥٤) . فقد كان رجلا ملماً بكتب أبقراط ، ولكريشيوش ، وحنين بن إسحق ، وقسطنطين الأفريقى ، بل وحتى دمقريطس نفسه[١] . وقد افتتن بالنظرية الذرية ؛ واستنتج أن جميع أعمال الطبيعة تبدأ فى الأصل باجتماع الذرات ، ويصدق هذا على أرقى عمليات الجسم البشرى وأعظمها خطراً[٢] . والنفس عنده هى اتحاد العناصر الجوهرية فى الفرد مع النفس الكونية أو العنصر الجوهرى فى العالم[٣] . ونهج وليم نهج أبلار فى إحدى المسائل الخفية الشديدة الخطورة فكتب يقول : « فى الألوهية قدرة ، وحكمة ، وإرادة ، وهى التى يسميها القديسيون أقانيم ثلاثة[٤] » . وهو يفهم القصة القائلة إن حواء خلقت من ضلع آدم فهماً يعتمد على المجاز الواسع . وهو يرد بعنف على شخص ما يدعى كرنفيوس Cornifius وغيره من « الكرنفيوسيين » الذين يقاومون العلم والفلسفة بحجة أن فى الإيمان الساذج ما يكفيهم . « فهم لا يطيقون أن يبحث غيرهم شيئاً ما ، ويريدون منا أن نؤمن كما يؤمن السذج والهمج من غير أن نسأل عن السبب ، كى يكون لهم رفاق فى الجهالة . . . ولكنا نقول : إن من واجبنا أن نبحث لكل شىء عن علة ، فإذا عجزنا عن معرفة تلك العلة

وكلنا الأمر إلى ... إلى الروح القدس وإلى الإيمان(٥) ... (ويقولون) : لسنا نعرف كيف يكون هذا ، ولكننا نعرف أن فى قدرة الله أن يفعله . ألا أيها البلهاء المساكين ! إن فى قدرة الله أن يخلق غراباً من شجرة ، ولكن هل فعل الله هذا فى يوم من الأيام ؟ فعليكم إذن أن تدلوا بعلة لوجود شىء ما بالصورة التى هو عليها ، وإلا فامتنعوا عن الاعتقاد بأنه على هذه الصورة...(٦) **إننا لا تسرنا الكثرة ، وإنما تسرنا القلة المختبرة ، ونحن نكد فى البحث عن الحقيقة وحدها .**

لقد كان هذا القول أكثر مما يطيقه وليم التيبرى ، ولهذا بادر الراهب المتحمس ، الذى أغرى القديس برنار بمهاجمة أبلار ، بالطعن على هذا الثائر الجديد صاحب النزعة العقلية والتنديد به عند رئيس دير كلبرفو اليقظ المترقب . ورجع وليم الكوشى عن إلحاده ، ووافق على أن حواء خلقت من ضلع آدم(٨) ، وهجر الفلسفة لأنها مغامرة لا يتناسب فيها الكسب مع ما يتعرض له صاحبها من أخطار ، واشتغل مربياً لهنرى بلانتجنت Henry Plantagenet الإنجليزى واختفى اسمه من التاريخ .

وكان جلبرت ده لاپريه Gilbert de la Porrée (١٠٧٠ — ١١٥٤) أكثر من وليم توفيقاً فى هذا العمل المفعم بالأخطار . فقد تعلم ودرس فى شارتر وفى باريس ، وصار أسقفاً لپتيير Potiers ووضع **كتابا ذا ستة مبادئ** Liber sex prencepiorium ظل ستة قرون النص الذى يرجع إليه فى علم المنطق ؛ ولكن **التعليق على بؤثيوس** قد فهم منه أن طبيعة الله بعيدة عن إدراك العقل البشرى بعداً يتحتم معه أن يؤخذ كل قول عنها على أنه تشبيه أو مجاز لا أكثر ، ثم إنه أكد وحدة الله تأكيداً يجعل التثليث يبدو وكأنه مجاز لا غير(٩) . وفى عام ١١٤٨ اتهمه القديس برنار بالإلحاد ، وإن كان وقتئذ سن الثانية والسبعين ، وحوكم على هذه التهمة فى أوكسير Auxerre ، وحير

معارضيه بما أورده من فروق دقيقة ، وعاد إلى موطنه غير مدين . وحوكم مرة أخرى بعد سنة من ذلك الوقت ، ورضى أن تحرق بعض فقرات انتزعت من كتبه ، ولكنه عاد حراً إلى أبرشيته ؛ ولما طلب إليه أن يناقش آراءه مع برنار رفض الاقتراح وقال : إن هذا القديس يعوزه التبحر فى اللاهوت إلى حد لا يستطع معه فهم آرائه[١٠] ، ويقول عنه يوحنا السلزبرى : إن جلبرت « ناضج فى الثقافة الحرة نضوجاً لا يفوقه فيه أحد من الناس[١١] » .

وكان فى مقدور يوحنا أن يقول هذا القول عن نفسه ، لأنه كان من بين الفلاسفة المدرسيين أوسعهم ثقافة وأكثرهم تهذيباً ، وأبلغهم قلماً . وكان مولده فى سلزبرى حوالى عام ١١١٧ . وتتلمذ على أبلار فى جبل القديس چنيفيف ، وعلى وليم الكوشى فى شارتر ، وعلى جلبرت ده لاپريه فى باريس ، ثم عاد إلى انجلترا فى عام ١١٤٩ ، وعمل أميناً لاثنين من رؤساء أساقفة كنتربرى هما : ثيوبولد وتومس أبكت ، وقام لهما بعدة مهام دبلوماسية ، زار فيها إيطاليا ست مرات ، وأقام فى البلاط البابوى ثمانى سنين ، وشارك بكت فى فرنسا ، وشاهد مقتله فى كتدرائيته ، وعين أسقفاً لشارتر فى عام ١١٧٨ ، وتوفى فى عام ١١٨٠ . وكانت حياته مليئة بالجد ، متعددة النواحى ، عمل فيها هذا الرجل على وضع المنطق تحت مخبار تجارب الحياة ودراسة الفلسفة بتواضع منقطع النظير . ولما تقدمت به السن ورجع إلى آراء المدارس الفلسفية المختلفة أدهشه أن يراها لا تزال تجادل فى الفرق بين الاسمية والواقعية : « ليس فى مقدور الإنسان أن يتجنب هذه المسألة ، ولقد هرم العالمَ وهو يبحثها ، واستغرق بحثها من الوقت أكثر مما استغرقه القياصرة فى فتح العالمَ وحكمه ... وأيا كانت النقطة التى يبدأ منها النقاش ، فإنه يعود على الدوام ويرتبط بتلك المسألة ، فهى أشبه بجنون روفس Rofus بنيڤيا Naevia « إنه لا يفكر فى شىء آخر ، ولا يتحدث عن شىء آخر ، ولو أن نيڤيا لم يوجد لظل رفس أبكم لا يبين »[١٢] .

وحسم يوحنا نفسه الأمر من أيسر السبل حين قال : إن الكلى مدرك عقلى ييسر ربط الصفات المشتركة للكائنات المفردة ؛ وكان جون لا أبلار هو الذى اقترح النظرية القائلة إن الكليات توجد فى العقل مستقلة عن أفرادها المجسمة المادية .

وألف فى تاريخ الفلسفة اليونانية والرومانية كتاباً بلغة لاتينية هى أحسن ما كتب منذ ظهرت رسائل ألكوين — ويعدّ هذا الكتاب شاهداً عجيباً على اتساع الأفق العقلى فى العصور الوسطى اتساعا مطرداً ؛ وظهر بعده كتاب المتالوچيكون Metalogicon الذى خفف فيه علم المنطق بما أضافه من ترجمة لنفسه ، ثم كتاب پوليكراتكس Polycraticus (١١٥٩) الذى وضع له عنواناً ثانويا غريبا « فى حماقات رجال الحاشية وآثار الفلاسفة » De nugis Curialium et vistigüo philosophorum . وكان هذا الكتاب أول مقال فى أدب العالم المسيحى عن الفلسفة السياسية . وهو يكشف عن أخطاء الحكومات القائمة فى أيامه ورذائلها ، ويرسم صورة للدولة المثالية ، ويذكر صفات الرجل المثالى ، ثم يواسينا بقوله : « كل شىء يشترى علناً ، إلا إذا كان تواضع البائع هو الذى يمنع هذا الشراء ، إن نار الجشع الدنسة تهدد مذابح الكنائس نفسها ... وإن أحبار الكرسى الرسولى نفسه لايضنون بأيديهم عن أن تدنسها العطايا ، بل إنهم فى بعض الأوقات يجوسون خلال الأقاليم فى عربدة جنونية »[١٣] . وإذا جاز لنا أن نصدق روايته التى نقلنا منها فقرات من قبل فإنه أبلغ البابا هدريان الرابع أن للكنيسة نصيبا موفوراً فيما يسود تلك الأيام من فساد ، وأن البابا أجابه بما معناه أن الآدميين سيظلون آدميين مهما كانت أثوابهم ؛ ويضيف يوحنا إلى ذلك تلك العبارة الحكيمة : « فى منصب من مناصب بيت الله (الكنيسة) إذا كان بعض رجالها يتكاسلون ، فإن غيرهم يضافون إليهم ليؤدوا

عملهم . ولقد شاهدت من بين الشمامسة ، ورؤساء الشمامسة ، والأساقفة ، والأحبار من يقومون بما يوجبه عليهم الله بجد وإخلاص يستبين الإنسان معهما أنهم أوتوا من مزايا الإيمان وفضائله أن من عهدوا إليه بحرث أبينا قد أحسنوا كل الإحسان »[١٤] . وهو يرى أن الحكومة المدنية أكثر فساداً من رجال الدين ، وأن من الخير لحماية الخلق أن يكون للكنيسة سلطان أخلاقى على جميع العالم ودوله[١٥] .

وأوسع الفقرات شهرة فى كتاب پوليكراتكس هى التى تشير إلى قتل الطغاة .

« إذا حاد الأمراء شيئاً فشيئاً عن الطريق الحق ، فليس من الخير فى شىء أن يطاح بهم كلية على الفور ، بل يكفى لومهم على ظلمهم بتعذيرهم والصبر عليهم ، حتى يتبين أخيراً أنهم معاندون مصرون على فعل الشر ... أما إذا تعارض سلطان الحاكم مع الأوامر الإلهية وأراد أن يحملنى على أن أشاركه فى حربه على الله ، فإنى لا أتردد قط فى أن أرد عليه بقولى إن الله يجب أن يفضل على كل إنسان على ظهر الأرض أيا كان قدره ... وليس قتل المستبد مشروعا فحسب ، بل هو حق وعدل »[١٦] .

كانت هذه سورة من چون مهيجة مثيرة ، أضاف إليها فقرة أخرى فى موضع بعدها من الكتاب نفسه « بشرط ألا يكون القاتل مرتبطا بالولاء للمستبد »[١٧] . وهى جملة فيها نجاة للمستبدين لأن كل حاكم يلزم رعاياه بأن يقسموا يمين الولاء له . وفى القرن الخامس عشر دافع جان بتى (Jean Petie) عن اغتيال لويس صاحب أورليان بعبارات نقلها عن البوليكراتكس ، ولكن مجلس كنستانس تغلب على پتى بحجة أن الملك نفسه لا يحق له أن يدين متهما دون أن يدعوه للمثول أمامه ويحاكمه .

ونحن « المحدثين » لا نستطيع أن نتفق على الدوام مع « المحدثين » فى القرن الثانى عشر الذين كان يوحنا واحداً منهم ؛ وهو يقول من آن إلى آن كلاما

يبدو لنا أنه هراء ، ولكن هراءه نفسه مصوغ فى أسلوب من التسامح والظرف لا نكاد نعثر على ما يماثله بعدئذ قبل إرزمس Erasmus . وكان يوحنا أيضاً من الإنسانيين ، يحب الحياة أكثر مما يحب الخلود ، ويعشق الجمال والرحمة أكثر مما يعشق العقائد التحكمية فى أى دين ، ويقتبس من الآداب اليونانية — الرومانية القديمة وهو منشرح مغتبط أكثر منه حين يقتبس من صحف الكتاب المقدس . وهو يضع ثبتاً « بالأشياء التى يصبح للرجل الحكيم أن يشك فيها dubitabilia ، ومنها طبيعة النفس ومنشؤها ، وخلق العالم ، والعلاقة بين علم الله السابق وحرية الإرادة . ولكنه كان أحصف من أن يندفع إلى الإلحاد ، بل كان يسير وسط الجدل القائم فى أيامه بحصافة دبلوماسية وسحر خلاب . ولم يكن يرى أن الفلسفة صورة من صور الحرب ، بل كان يراها بلسما للسلام ، ويقول إن الفلسفة قوة ملطفة معدلة فى الأشياء جميعها ، وإن من وصل بطريق الفلسفة إلى الإحسان والمحبة فقد بلغ هدفها الحق »[١٨] .

الفصل الثاني

أرسطو في باريس

نشر بطرس لمبارد أحد تلاميذ أبلار في عام ١١٥٠ كتابا جمع فيه آراء أبلار مطهرة من الإلحاد ، وكان في الوقت عينه بداية للفلسفة المدرسية الرسمية ؛ وكان بطرس هذا ، كما كان أنسلم ، وآرنلدا البريشياني ، وبنوفنتورا ، وتومس أكوناس ، إيطاليًّا جاء إلى فرنسا ليواصل العمل الراقي في اللاهوت والفلسفة . وكان يحب أبلار ويسمى كتابه **نعم ولا** كتاب صلواته ، ولكنه إلى هذا كان يريد أن يكون أسقفاً ، وقد طبق في كتابه المسمى *أربعة كتب في الآراء* Sententearum libr IV طرائق نعم ولا بعد أن طهرها : وذلك بأن وضع تحت كل سؤال من أسئلة اللاهوت طائفة من العبارات المقتبسة من الكتاب المقدس ومن كتب آباء الكنيسة بعضها يؤيده وبعضها يعارضه ؛ ولكن بطرس هذا جد مخلصا لكي يحيل كل الآراء المعارضة إلى نتائج تتفق مع الدين القويم . وقد عين أسقفاً لباريس وظل كتابه مدى أربعة قرون النص المحبب في برامج التعليم الديني إلى حد دعا روچر بيكن أن يأخذ عليه أنه حل محل الكتاب المقدس نفسه ؛ ويقال إن أربعة من علماء اللاهوت ومنهم ألبرت وتومس كتبوا شروحا على هذا الكتاب .

وإذا كان كتاب لمبارد قد أيد سلطان الكتب المقدسة والكنيسة على مطالب العقل الفردي ، فقد حال مدى نصف قرن دون تقدم النزعة العقلية ؛ ولكن حادثة عجيبة وقعت في تلك الخمسين عاما بدلت علم اللاهوت ؛ ذلك أن دخول أفكار أرسطو في ثوبها اللاتيني إلى أوربا بعد عامي ١١٥٠ و ١٢٥٠ دفع علماء الدين الكاثوليك إلى أن يحاولوا التوفيق بين علم ما وراء الطبيعة اليونا-

وعلم اللاهوت المسيحى ، كما أن ترجمة مؤلفات أرسطو العلمية وفيما وراء الطبيعة إلى اللغة العربية دفعت المفكرين المسلمين إلى أن يحاولوا التوفيق بين العقائد الإسلامية والفلسفة اليونانية . وكما أن اصطدام آراء أرسطو بعقول العبرانيين فى أسبانيا قد أخذ يدفع ابن داود وابن ميمون فى القرن الثانى عشر لأن يحاولا التوفيق بين اليهودية والتفكير الهليني ، وإن كان أرسطو قد بدا فوق متناول سلطان الكتب المقدسة ، فقد اضطر علماء الدين المسيحى إلى استخدام لغة العقل والمنطق وأسلحتهما . ولو أن الفليسوف اليونانى كان حيا فى هذه الأثناء لتبسم وهو يشهد كم من الأديان التى زلزلت العالم تجل آراء .

ولكن ليس من حقنا أن نغالى فى تقدير أثر المفكرين اليونان فى ازدهار الفلسفة أثناء تلك الفترة من الزمن . ذلك أن انتشار التعليم ، وما كان للجدل والحياة الذهنية من قوة حيوية فى المدارس والجامعات خلال القرن الثانى عشر ، والحافز القوى الذى كان لرجال من أمثال روسلان ، ووليم الشمبوكسى ، وأبلار ، ووليم الكنشيسى ، ويوحنا السلزبرى ، واتساع آفاق الفكر بتأثير الحروب الصليبية ، وازدياد علم الأوربيين بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامى فى الشرق والغرب — كل هذا كان من شأنه أن يخلق رجالا على شاكلة أكوناس ولو ظل أرسطو مجهولا ، والحق أن منشأ الجد الذى اتصف به أكوناس لم يكن حب أرسطو بل خشية ابن رشد . ذلك أن الفلاسفة العرب واليهود أخذوا منذ القرن الثانى عشر يؤثرون فى التفكير المسيحى فى أسبانيا ، فقد دخل الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، واين جبيرول ، وابن رشد ، وابن ميمون أوربا اللاتينية من نفس الأبواب التى دخلها منها أفلاطون ، وأرسطو ، وأبقراط ، وجالينوس ، وإقليدس ، وبطليموس .

وكان غزو التفكير الأجنبى على هذا النحو من أقوى الصدمات الذهنية للعقل الغربى الذى لم ينضج بعد ، فلا عجب والحالة هذه إذا قوبل فى بادئ الأمر

بالعمل على قمعه أو تأخيره ، بل إن علينا أن نعجب من قوة التكييف المدهشة التي مكنت الدين الجديد من امتصاص المعارف القديمة ـ الجديدة . وكان الأثر الأول لكتابي الطبيعة وما وراء الطبيعة لأرسطو ، ولشروح ابن رشد ، وهي الكتب التي وصلت إلى باريس في العشر السنين الأولى من القرن الثالث عشر ، أن زلزلت عقائد كثيرين من الطلاب ، وأن قام من العلماء أمثال أملريك البيني Amalric of Bène وداود الدينتي David of Dinant يهاجمون بعض العقائد المسيحية الجوهرية كعقيدة خلق العالم ، والإيمان بالمعجزات ، والخلود الفردي . وظنت الكنيسة أن تسرب الأفكار العربية ـ اليونانية إلى جنوبي فرنسا أدّى إلى تحلل الطبقات المتعلمة من الاستمساك بالدين القويم ، وأضعف من عزمها على مقاومة إلحاد الألبجنسيين . ولهذا اجتمع مجلس كنسي في باريس عام ١٢١٠ وأدان أملريك وداود وحرّم قراءة كتب أرسطو فيما « بعد الطبيعة والفلسفة الطبيعية » كما حرم قراءة « شروحها » . وإذ كان هذا التحريم قد كرره مندوب من قِبَل البابا في عام ١٢١٥ فإن لنا أن نفترض أن مرسوم عام ١٢١٠ قد أغرى الناس بقراءة هذه المؤلفات التي لولا هذا التحريم لكانت عندهم ممقوتة . وأجاز مجلس لاتران الرابع قراءة كتابي أرسطو في المنطق والأخلاق ولكنه حرم غيرهما من كتبه . وفي عام ١٢٣١ عفا جريجوري التاسع عن الأساتذة والعلماء الذين عصوا هذه المراسيم ، ولكنه جدّد المراسيم « إلى أجل موقت حتى تبحث هذه الكتب وتطهر مما فيها » . ويبدو أن الثلاثة الأساتذة الباريسيين الذين عينوا للقيام بمهمة تطهير كتب أرسطو قد تركوا هذا العمل . ولم تنفذ مراسيم التحريم زمناً طويلا ، لأن كتابي الطبيعة وماوراء الطبيعة (الفيزيقا والمتافيزيقا) وغيرهما من كتب أرسطو كانا يقرآن في جامعة باريس عام ١٢٥٥ (١٩) . وأعاد إربان الرابع أمر التحريم في عام ١٢٦٣ ؛ ولكن يبدو أن تومس أكويناس أكد له أن كتب أرسطو يمكن أن تطهر ،

ولم يعمل إربان على تنفيذ تحريمه . وانتهى الأمر فى عام ١٢٦٦ إلى أن كان مبعوثو إربان الخامس فى باريس يطلبون إلى جميع الطلاب المتقدمين لنيل درجة فى الآداب دراسة جميع مؤلفات أرسطو دراسة وافية شاملة(٢٠) .

وأحدثت المشكلة التى واجهت العالم المسيحى اللاتينى فى الربع الأول من القرن الثالث عشر أزمة كبرى فى تاريخ الدين المسيحى . ذلك أن التعطش إلى الفلسفة الجديدة كان وقتئذ حمى ذهنية لا يمكن السيطرة عليها ؛ ولهذا لم تواصل الكنيسة جهودها لفرض هذه السيطرة ، بل إنها بدلا من هذا وجهت قواها لحصار الغزاة وامتصاصهم فيها ، فأخذ رهبانها الأوفياء يدرسون هذا اليونانى المدهش الذى قلب ثلاثة أديان رأساً على عقب ؛ حتى أن الرهبان الفرنسيس وهم الذين يفضلون أوغسطين على أرسطو ، رحبوا بالإسكندر الهاليسى الذى بذل أول الجهود للتوفيق بين « الفيلسوف » والمسيحية . وبذل الرهبان الدمنيكيون كل تشجيع مستطاع لألبرتس وتومس أكوناس فى هذا المشروع عينه ؛ ولما أن أتم هؤلاء الرجال الثلاثة عملهم بدا أن أرسطو لم يعد خطراً على المسيحية .

الفصل الثالث

الزنادقــــة

إذا شئنا ألا نفهم الفلسفة المدرسية على أنها تكديس لا طائل من ورائه للتجريدات المملة، وجب علينا ألا ننظر إلى القرن الثالث على أنه الميدان الذى يصول فيه الفلاسفة المدرسيون ويجولون غير منازعين ، بل أن ننظر إليه على أنه ميدان اصطرع فيه مدى سبعين عاما المتشككة ، والماديون ، والأحديون القائلون بوحدة الوجود ، والجاحدون بالله ، اصطرع فيه هؤلاء مع علماء اللاهوت المسيحيين للاستحواذ على العقل الأوربى .

ولقد لاحظنا من قبل وجود نزعة عدم الإيمان بين أقلية ضئيلة من سكان أوربا ، وزادت هذه الأقلية فى القرن الثالث عشر على أثر اتصال الأوربيين بالمسلمين عن طريق الحروب الصليبية وتراجم الكتب العربية . ولما تبين الأوربيون وجود دين آخر عظيم ، أخرج رجالا عظاما أمثال صلاح الدين والكندى ، وفلاسفة مثل ابن سينا وابن رشد ، كان ذلك فى حد ذاته كشفاً اضطربت له نفوسهم ؛ ذلك أن مقارنة الأديان لا تنفع الدين أى نفع . ومن الشواهد على هذا ما نقله ألفنسو الحكيم Alfonso the Wise (١٢٥٢ — ١٢٨٤) عن انتشار عدم الاعتقاد بالخلود بين مسيحيي أسبانيا[٢١] ؛ وليس ببعيد أن تكون آراء ابن رشد قد تسربت إلى الشعب نفسه . وكان فى جنوبى فرنسا فى القرن الثالث عشر جماعة من أصحاب النزعة العقلية القائلين بأن الله بعد أن خلق العالم تركه تسيره القوانين الطبيعية ، وكانوا يعتقدون أن المعجزات مستحيلة ، وأن الصلاة لاتستطيع تغيير مسلك العناصر ، وأن الأنواع الجديدة لم تخلق خلقاً خاصاً وإنما وجدت بالتطور الطبيعى[٢٢] . وكان بعض أصحاب التفكير الحر

— وبعض القساوسة أنفسهم — ينكرون تحول العشاء الرباني إلى جسم المسيح(٢٣) . وأخذ أحد المدرسين فى أكسفورد يشكو قائلا « إنه ليس ثمة ما هو أشبه بالوثنية من القربان عند المذبح »(٢٤) . ويقول ألان الليلي Alain of Lille (١١١٤ — ١٢٠٣) إن كثيرين من المسيحيين الزائفين فى وقتنا هذا ينكرون البعث لأن الروح تفنى مع الجسم » ؛ وهم يؤيدون اعتقادهم بأقوال أبيقور ولكريشيوس . ويعتنقون مذهب الجوهر الفرد ، ويخرجون من هذا إلى أن خير ما يفعله الإنسان هو أن يستمتع بالحياة على ظهر الأرض(٢٥) .

ويبدو أن انتشار الصناعة فى حواضر فلاندرز قد عمل على نشر الإلحاد . وشاهد ذلك أننا نجد داود الدينتى فى بداية القرن الثالث عشر وسيجر البرابنتى قرب اختتامه يتزعمان حركة تشكك قوية . وكان داود (حوالى ١٢٠٠) يدرس الفلسفة فى باريس ، ويمتع إنوسنت الثالث بجدله الدقيق(٢٦) ، ويعبث بضرب مادى من عقيدة الأحدية مضمونه أن الله ، والعقل ، والمادة الخالصة (المادة قبل أن تتشكل) أصبحت كلها وحدة فى ثالوث جديد(٢٧) وحرم كتابه الكواترنولى Quaternuli ، الذى لا وجود له الآن ، وأحرق بأمر مجلس باريس المقدس الذى عقد فى عام ١٢١٠ . وندد هذا المجلس نفسه بأحدية قال بها أستاذ آخر من جامعة باريس هو أملريك البينى ، ومضمونها أن الله والخليقة شيء واحد . وأرغم أملريك على أن يرجع عن قوله ومات ، كما يقول ، من حسرة الخيبة (١٢٠٧)(٢٨) . وأمر المجلس بأن تنبش عظامه وتحرق فى ميدان باريس إرهاباً لأتباعه الكثيرين . غير أنهم ظلوا مستمسكين بآرائهم على الرغم من هذا ، ووسعوا نطاق آرائه فأنكروا وجود الجنة والنار ، وقوة القربان المقدس . وحرق عشرة من أتباع أملريك هذا أحياء (١٢١٠)(٢٩) .

وازدهر التفكير الدينى الحر فى جنوبى إيطاليا الذى كان يحكمه فردريك الثانى ، حيث شب القديس تومس ، وحيث أعلن الكردنال أبلدينى صديق

فردريك جهرة اعتناقه المذهب المادى[٣٠] . أما فى إيطاليا الشمالية فإن عمال الصناعة ، ورجال التجارة والمال ، والمحامين ، وأساتذة الجامعات اندفعوا إلى حد ما فى تيار المتشككين . واشتهرت جامعة بولونيا بعدم مبالاتها بالدين ، فكانت المدارس الطبية فيها وفى غيرها من المدن مراكز للشك ، وفيها نشأ القول المأثور « حيث يجتمع ثلاثة أطباء يكون اثنان منهم كافرين « ubi tres medici duo athei »[٣١] ، وكادت آراء ابن رشد حوالى عام ١٢٤٠ تصبح الطراز العصرى بين الطبقات المتعلمة من غير رجال الدين فى إيطاليا . وكان آلاف منهم يقبلون عقائد ابن رشد القائلة بأن القانون الطبيعى يحكم العالم دون تدخل من قبل الله ؛ وإن العالم مخلد كالله ؛ وإنه لايوجد إلا نفس واحدة خالدة هى « عقل » الكون « الفعال » ، وإن النفس الفردية ليست إلا مظهراً أو صورة عابرة زائلة من هذا العقل ، وإن الجنة والنار قصص اخترعت لتغرى العامة أو ترهبهم فيحسن سلوكهم[٣٢] . وأراد بعض المعتنقين لآراء ابن رشد أن يسترضوا محاكم التفتيش فتقدموا بعقيدة الحقيقة المزدوجة : فقالوا إن القضية قد تبدو صحيحة من ناحية الفلسفة أوحسب التعليل الطبيعى ، ولكنها مع ذلك قد تكون خاطئة حسب الكتب المقدسة أو الدين المسيحى ؛ وأقروا فى الوقت نفسه أنهم يؤمنون بمقتضى الدين بما يشكون فيه حسب قواعد العقل والمنطق . وهذه النظرية تنكر الفرض الأساسى من فروض الفلسفة المدرسية — وهو إمكان التوفيق بين العقل والدين .

وكانت جامعة بدوا فى أواخر القرن الثالث عشر ، وطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر مركزاً مضطرباً لفلسفة ابن رشد . ونذكر من الشواهد الدالة على هذا الاضطراب أن بطرس الأبانوى Peter of abano (حوالى ١٢٥٠ — ١٣١٦) أستاذ الطب فى جامعة باريس ثم أستاذ الفلسفة فى جامعة بدوا ، ألّف كتاباً يراد به التوفيق بين النظريات الطبية والفلسفية . وقد اكتسب مكانة

ملحوظة فى تاريخ العلوم الطبيعية لأنه قال فى دروسه إن المخ هو مصدر الأعصاب وإن القلب مصدر الأوعية الدموية ، ولأنه قدّر طول السنة تقديراً مدهشاً فى وقته وهو ٣٦٥ يوما ، وست ساعات وأربع دقائق[٣٤] . وكان لثقته بالفلسفة يُرجع العلل كلها تقريبا لقوة النجوم وحركاتها ، وكاد يبعد الله عن حكم العالم[٣٥] . واتهمه رجال محاكم التفتيش بالإلحاد ؛ غير أن المركيز أزو دست Azzo d'Este والبابا هونوريوس الرابع كانا من بين مرضاه فبسطا حمايتهما عليه . ثم اتهم مرة أخرى فى عام ١٣١٥ ، ونجا هذه المرة من المحاكمة بأن مات ميتة طبيعية . وحكم قضاة محكمة التفتيش بأن تحرق جثته فى ميدان الحريق ، ولكن أصدقاءه أخفوا رفاته إخفاء محكما اضطرت المحكمة معه أن تنفذ حكمها بحرق صورة له[٣٦] .

ووجد تومس أكوناس بعد انتقاله من إيطاليا إلى باريس أن فلسفة ابن رشد قد استحوذت من زمن بعيد على جزء كبير من الجامعة ، ويؤيد هذا ما لاحظه وليم الأوفرنى فى عام ١٢٤٠ من أن فى الجامعة « كثيرين من الرجال يلتهمون هذه النتائج (من فلسفة ابن رشد) من غير تمحيص » ؛ وأن تومس نفسه وجد فلسفة ابن رشد منتشرة بين شباب الجامعة[٣٧] . ولعل ما نقله تومس عن هؤلاء الطلاب قد روع البابا اسكندر الرابع (١٢٥٦) فكلف ألبرتس مجنس أن يكتب رسالة ***فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد*** . ولما جاء تومس ليدرس فى باريس (١٢٥٢ — ١٢٦١ ، ١٢٥٩ — ١٢٧٢) كانت حركة الفلسفة الرشدية قد بلغت ذروتها ؛ وقد درس زعيمها فى سيجر البرابنتى Siger of Brabant فى هذه الجامعة من ١٢٦٦ إلى ١٢٧٦ . وظلت فلسفة ابن رشد والكثلكة تتخذان من جامعة باريس ميداناً لاقتتالها جيلا من الزمان .

وكان سيجر (د ١٢٣٥؟ — ١٢٨١) وهو قس من غير رجال الأديرة متجراً فى العلم ؛ وحتى الأجزاء القليلة الباقية من مؤلفاته تنقل عن الكندى ، والفارابى ، والغزالى ، وابن سينا ، وابن باجة ، وابن جبيرول ، وابن ميمون . ويقول سيجر فى سلسلة

من الشروح والتعليقات على أرسطو ، وفى مقالة جدلية **ضد رجلى الفلسفة الذائعى الصيت ، ألبرت وتوميس** ، يقول سيجر فى هذه وتلك إن ألبرت وتومس يفسران الفلسفة تفسيراً خاطئاً وإن ابن رشد يفسرها تفسيراً صحيحاً[٣٩] . وهو يستخلص ما يستخلصه ابن رشد من أن العالم أزلى ، وأن القانون الطبيعى لايتبدل ، وأن نفس النوع وحدها هى التى تبقى بعد موت الفرد . ويقول سيجر إنّ الله هو العلة النهائية ، لا العلة الفعالة ، للأشياء — وهو هدف الخليقة لا علتها . وقد افتتن بالمنطق فقاده هذا الافتتان كما قاد ڤيكو Vico ونتشة إلى الإيمان بعقيدة تسلسل الحادثات تسلسلا لانهائياً فقال : بما أن جميع الحادثات الأرضية تحددها فى نهاية الأمر تجمعات النجوم ، وبما أن عدد التجمعات الممكن حدوثها محدود ، فإن كل تجمع لا بد أن يتكرر بصورته نفسها المرة بعد المرة فى زمن لانهائى ، تكراراً تعقبه حتما نفس النتائج التى أعقبته من قبل ؛ وبذلك تعود « نفس الأنواع ، ونفس الآراء ، والقوانين ، والأديان »[٤٠] . وقد حرص سيجر على أن يضيف إلى هذا « ونحن نقول هذا أخذاً برأى الفيلسوف ، دون أن نقطع بصحته »[٤١] . وكان يضيف مثل هذا الاحتياط إلى كل رأى من آرائه الملحدة . ولم يكن يجهر بعقيدة الحقيقتين ؛ وكان يُعلّم تلاميذه أن بعض النتائج تستتبعها آراء أرسطو ويستتبعها العقل ؛ فإذا كانت هذه النتائج تناقض العقائد المسيحية ، فإنه يؤكد إيمانه بعقائد الدين ، ويسمها هى وحدها ، دون الفلسفة ، بميسم الحق[٤٢] .

ويدل تقدم سيجر إلى المطالبة بأن يكون مديراً للجامعة على أنه كان له فيها أتباع كثيرون ، وإن لم يوفق فى طلبه هذا (١٢٧١) . وليس أدل على تمكن فلسفة ابن رشد فى جامعة باريس من تنديد إتين تمپييه Étienne Tempier أسقف باريس بهذه الحركة المرة بعد المرة . ففى عام ١٢٦٩ حكم بأن ثلاث عشرة

قضية من القضايا التى يعلمها فى الجامعة بعض الفلاسفة مبادئ إلحادية لاتتفق مع الدين ، وهذه القضايا هى :

أنه لا يوجد فى الناس كلهم إلا عقل واحد . . . وأن العالم أزلى . . . وأنه لم يوجد قط رجل أول . . . وأن النفس تفسد بفساد الجسم . . . وأن إرادة الإنسان تريد وتختار بحكم الضرورة ... وأن الله لا علم له بالحوادث الفردية . . . وأن أعمال الإنسان لا تسيطر عليها العناية الإلهية(٤٣) .

ويبدو أن مدرسة ابن رشد الفلسفية ظلت تعلم كما كانت تعلم من قبل ، وشاهد ذلك أن الأسقف أصدر فى عام ١٢٧٧ ثبتاً بتسع عشرة ومائتى مسألة قرر رسميا أنها تسم القائلين بها بالإلحاد . وهذه المسائل ، على حد قول الأسقف ، كان يعلمها سيجر أو بوئيثوس الداشياوى Boethius of Dacia أو غيرهما من أساتذة جامعة باريس ومنهم القديس تومس نفسه . وكانت هذه المسائل التسع عشرة والمائتين تشمل التى حكم عليها فى عام ١٢٦٩ وغيرها من المسائل الشبيهة بالأقوال الآتية :

أن عملية الخلق مستحيلة . . . أن الجسم إذا فسد (بالموت) لا يمكن أن يقوم بعدئذ بوصف كونه الجسم نفسه . . . أن من واجب الفيلسوف ألا يؤمن ببعث فى المستقبل ، لأن هذا لا يمكن أن يمحصه العقل . . . أن أقوال علماء الدين قائمة على الخرافات . . . أن علوم الدين لا تضيف شيئاً ما إلى معلوماتنا . . . أن الدين المسيحى يقف فى سبيل العلم . . . أن الإنسان يحصل على السعادة فى هذه الحياة لا فى غيرها . . . أن العقلاء فى هذه الأرض هم الفلاسفة وحدهم . . . أنه ليس ثمة حالة أفضل من أن يجد الإنسان فراغاً للدراسة الفلسفية(٤٤) .

وأدانت محكمة التفتيش سيجر فى شهر أكتوبر من عام ١٢٧٧ ؛ وقضى سنيه الأخيرة فى إيطاليا سجيناً بأمر المحكمة الرومانية حتى اغتاله مغتال نصف مجنون فى أرڤيتو Orvieto .

الفصل الرابع

تطور الفلسفة المدرسية

لم يكن الحكم على هذه القضايا الإلحادية يكفى لصد هذا الهجوم الشديد على الدين المسيحى . ذلك أن الشباب ثمل بخمر الفلسفة القوى . فهل كان كسب المعركة بالالتجاء إلى العقل ؟ لقد أقبل علماء الدين من الرهبان الفرنسيس والدمنيكيين ، والأحبار من غير الرهبان أمثال وليم الأوفرنى وهنرى الغنتى Henry of Ghent ، للدفاع عن المسيحية وعن الكنيسة ، كما كان المتكلمون من قبلهم يدافعون عن الإسلام ضد المعتزلة .

وقسم الدفاع نفسه إلى معسكرين رئيسيين : المعسكر الصوفى — الأفلاطونى ومعظم رجاله من الرهبان الفرنسيس ؛ والمعسكر العقلى — الأرسطوطاليسى ومعظم رجاله من الرهبان الدمنيكيين . أما البندكتيون أمثال هيو Hugh ورتشرد السانت ڤكتورى فقد كانوا يحسون أن خير دفاع عن الدين هو إدراك الإنسان المباشر وجود حقيقة روحية أعمق من كل تعمق ذهنى . وكان « المتزمتون » أمثال بطرس رجل بلوا Blois ، واستيفن رجل تورناى يقولون إن الفلسفة يجب ألا تبحث فى مسائل اللاهوت ، فإذا فعلت فعليها أن تتحدث وتسلك بوصفها خادمة للاهوت[٤٦] . ومن واجبنا أن نذكر أن هذا الرأى لم يكن يقول به إلا قسم من الجبهة المدرسية[٤٧] .

وعالج عدد قليل من الرهبان الفرنسيس أمثال اسكندر الهاليسى (١١٧٠ ؟ —١٢٤٥) المسألة عن طريق العقل ، وحاولوا أن يدافعوا عن المسيحية باستخدام المصطلحات الفلسفية والأرسطوطاليسية ، ولكن معظم الرهبان الفرنسيس

لم يكونوا يثقون بالفلسفة ؛ وكانوا يحسون أن مغامرات العقل مهما تأت للكنيسة بالقوة والمجد إلى حين ، قد تفلت من السيطرة عليها فيما بعد ، وتبعد الناس عن الدين بعد أن تترك المسيحية ضعيفة لا نصير لها فى عالم جاحد فاسد الأخلاق . فكانوا لهذا يفضلون أفلاطون عن أرسطو ، وبرنار عن أبلار ، وأوغسطين عن أكوناس . وكانوا يعرفون النفس كما عرفها أفلاطون بأنها روح مستقلة تسكن الجسم وتسجن فيه ، وهالهم أن يروا تومس يأخذ بتعريف أرسطو للنفس بأنها « الصورة المادية » للجسم . وقد وجدوا فى أفلاطون نظرية للخلود غير الشخصى لا فائدة منها قط فى قمع غرائز الناس الحيوانية . واتبعوا رأى أوغسطين فوضعوا الإرادة فوق العقل فى الله وفى الإنسان على حد سواء ، وكان الهدف الذى يبتغونه هو الخير لا الحقيقة . وكانوا فى ترتيبهم للقيم يجعلون الصوفى أقرب من الفيلسوف لجوهر الحياة الخفى ومعناها .

وسيطر القسم الأفلاطونى — الأوغسطينى من جيش المدرسين على العلوم الدينية التقليدية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . وكان أعظم الناطقين بلسان هذا القسم هو بونا ڤنتورا التقى — وهو رجل طيب القلب طارد الإلحاد ، وصوفى يكتب فى الفلسفة ، وعالم يستهجن العلم ، وصديق مدى الحياة ومعارض لتومس أكوناس ، ومدافع عن الفقر الذى يدعو إليه الإنجيل ومضرب المثل لهذا الفقر ، جمعت طائفة الرهبان الفرنسيس بإشرافه ورعايته قدراً كبيراً من الثروة الجماعية . وقد ولد چيوڤنى دى فدانزا Giovanni di Fidanza فى تسكانيا عام ١٢٢١ ثم أصبح اسمه لسبب لا نعرفه بوناڤنتورا — الحظ الحسن . وكاد يموت وهو صغير من أحد أمراض الأطفال ، وأخذت أمه تصلّى إلى القديس فرانسس ليمن عليه بالشفاء ؛ وأحس چيوڤنى بعدئذ بأنه مدين بحياته إلى هذا القديس . ولهذا انضم إلى أتباعه وأرسل إلى باريس ليدرس على الإسكندر الهاليسى ، ثم شرع فى عام ١٢٤٨ يعلّم اللاهوت فى الجامعة ، واختير فى عام ١٢٥٧ ،

وهو لا يزال شابا فى السادسة والثلاثين من عمره ، راعيا عاما لطائفة الرهبان الفرنسيس ، فلم يدخر وسعا فى إصلاح ما دبَّ فى الطائفة من تراخ ، ولكن دماثة أخلاقه لم تمكنه من النجاح ، وإن كان هو نفسه يحيا حياة الزاهد البسيطة ؛ ولما جاءه الرسل يبلغونه أنه اختير كردنالا وجدوه يغسل الصحاف ؛ ومات بعد عام واحد (١٢٧٤) من فرط الإجهاد .

وكانت كتبه جيدة الأسلوب ، واضحة موجزة . وكان يتظاهر بأنه جامع لها لا أكثر ، ولكنه بعث فى كل موضوع مسه بقلمه روح النظام ، والحماسة ، والتواضع الذى يستل السخائم . وكان كتابه **القول الموجز** خلاصة للاهوت المسيحى تثير الإعجاب ، كما كان **الحديث المفرد** ، و **رحلة العقل إلى الله** درّتين فى تاج التقى الصوفى . ومن أهم مبادئه أن المعرفة الحقة لا تأتى عن طريق إدراك الحواس للعالم المادى بل تأتى بإدراك النفس للعالم الروحى عن طريق اللقانة . وكان بونا فنتورا يحب القديس تومس ، ولكنه كان يعارض فى قراءة الفلسفة ، وينتقد فى صراحة بعض ما استخلصه أكوناس من النتائج . وكان يذكر الرهبان الدمنيكيين بأن أرسطو كان كافراً ، وأنه يجب ألاّ توضع أقواله فى منزلة أقوال آباء الكنيسة ، وتساءل هل فى مقدور فلسفة أرسطو أن تفسر حركات نجم من النجوم لحظة واحدة ؟(٤٨) . وهو يقول إن الله ليس نتيجة يصل إليها العقل عن طريق الفلسفة بل هو وجود حى ، الإحساس به خير من تحديده ، وإن الخير أسمى من الحقيقة ، والفضائل الساذجة تعلو على كل العلوم . ويقولون إن الأخ إجيديو Egidio هاله فى يوم من الأيام تبحر بونافنتورا فى العلم فقال له : « واحسرتاه ! ماذا نفعل نحن الجهلاء السذج كى نكون خليقين بحب الله ؟ » فأجابه بونا فنتورا بقوله : « أخى ، إنك لتعلم حق العلم أنه يكفيك حب الله » فرد عليه إجيديو بقوله : « فهل تؤمن إذن بأن فى مقدور امرأة ساذجة أن تسُرَّه كما يسُرُّه أستاذ فى اللاهوت ؟ » . فلما أجابه بنعم اندفع إجيديو إلى الطريق وصاح

فى امرأة متسولة : « ابتهجى ، لأنك إذا أحببت الله ، فقد يكون لك مكان فى ملكوت السموات أعلى من مكان الأخ بونا فنتورا ! »(٤٩) .

وجلى أن من الخطأ أن نظن أن « الفلسفة » المدرسية المعروفة بهذا الاسم إنما هى آراء وأساليب فى البحث مجدبة متفق عليها بالإجماع . لقد كانت هناك فى واقع الأمر مائة من الفلسفات المدرسية ؛ فقد كانت الكلية الواحدة من كليات الجامعة تضم أحد أشياع تومس الذى يمجد العقل ، وأحد أنصار بونا فنتورا الذى يستهجنه ويزدريه ، وأحد أتباع وليم الأوفرنى (١١٨٠ — ١٢٤٠) الذى يقول مع ابن جبيرول بحرية الإرادة ، وأحد أتباع سيجر يعلم فلسفة ابن رشد . وكاد الاختلاف والنزاع بين أنصار الدين القويم يبلغان من الشدة ما بلغاه بين الدين واللادين . فكان يوحنا بكهام الأسقف الفرنسيسى يندد بأكوناس تنديداً لا يقل صرامة عن تنديد تومس بسيجر وابن رشد ؛ وكتب ألبرتس مجنس فى ساعة فارقه فيها صلاحه يقول : « هناك أناس جاهلون لا يتورعون عن محاربة استخدام الفلسفة بكل سلاح ، وأخص بالذكر من هؤلاء الرهبان الفرنسيس — أولئك الوحوش الكاسرة الذين يسبون ما لا يعرفون »(٥٠) .

وكان ألبرت يحب العلم ويعجب بأرسطو إلا حين يتطرق إلى الإلحاد فى الدين ، وكان أول من درس من الفلاسفة المدرسيين جميع مؤلفات الفيلسوف الكبرى ، وأخذ على نفسه أن يفسرها تفسيراً يوافق الدين المسيحى . وكان مولده فى لاننجن Laningen بسوابيا Swabia حوالى عام ١٢٠١ ووالده هو الكونت بلستادت Bollstädt الثرى ، ثم درس فى پدوا وانضم إلى الرهبان الدمنيكيين واشتغل بالتدريس فى مدارس الدمنيك فى هلدسهايم Hildesheim ، وفرايبرج Freiburg ، وراتسبون Ratisbon ، واسترسبورج ، وكولونى (١٢٢٨ — ١٢٤٥) وباريس (١٢٤٥ — ١٢٤٨) . ثم عين بعدئذ مندوباً إقليمياً

لطائفته فى ألمانيا ثم أسقفاً لراتسبون (١٢٦٠) على الرغم من تفضيله حياة التدريس . وتقول الرواية المأثورة إنه كان يمشى حافى القدمين فى جميع أسفاره[٥١] . وفى عام ١٢٦٢ سمح له أن يعتزل العمل ويأوى إلى دير فى كولونى ، ثم ترك ما كان فيه من هدوء وهو فى السادسة والسبعين من عمره (١٢٧٧) ليدافع عن عقيدة تلميذه المتوفى تومس أكويناس وعن ذكراه فى جامعة باريس . وأفلح فيما ندب إليه ، فعاد إلى ديره ، وتوفى فى التاسعة والسبعين من عمره . وإن حياته العامرة بالوفاء والإخلاص لدينه ، وتواضعه الخلقى ، وتعدد نواحى نشاطه العقلى ، لتظهر فيها حياة الأديرة فى خير مظاهرها .

وليس ثمة ما يفسر لنا كيف يستطيع رجل قضى ما قضى من الوقت فى التدريس والأعمال الإدارية أن يكتب مقالات فى كل فرع من فروع العلم تقريباً ، ورسائل قيمة فى كل فرع من فروع الفلسفة وعلوم الدين ، نقول ليس ثمة شىء يفسر لنا هذا إلا هدوء حياة الأديرة الرتيبة والصبر الفائق الذى يمتاز به العلماء الألمان(*) . وقلما يوجد فى التاريخ من كتب هذا القدر من الكتب والرسائل والمقالات ، أو أخذ من غيره مثل ما أخذ ، أو اعترف بمثل صراحته

(*) وإلى القارئ كتب ألبرت الكبرى فى الفلسفة واللاهوت بأسمائها الأصلية :

(١) فى المنطق Philosophia Rationalis Perihermenias; de praedicaabilibus; (De iuterpretatione i.e.) de praedicamentis Analytica priora, de sex principüs; Analytica posteriora, Tropica; libri elenchorum;

(٢) وفيما وراء الطبيعة metaphy-sica; de fato De unitae intellictus contra Averroistas;

(٣) وفى علم النفس De anima; De sensu et sensato, De memoria et reminiscentia, De intellectua et ietelligibili, De potentüs animae

(٤) وفى علم الأخلاق Ethica (٥) وفى السياسة Politica

(٦) وفى اللاهوت Commentarium Summa theologiae; Summa de creaturis iu sententlas Petri Lomhardi; commentarium de divinis naminibus

وتتكون الرسائل الخمس الواردة فى هذا الثبت من واحد وعشرين مجلدا من مؤلفات ألبرت التى لم تنشر كلها بعد .

بدينه لمن أخذ عنهم . ويتخذ ألبرت مؤلفات أرسطو أسساً لكتبه وتكاد عناوينها كلها تكون هى بعينها عناوين مؤلفات الفيلسوف القديم ؛ وهو يستعين بشروح ابن رشد على تفسير مؤلفات ذلك الفيلسوف ، ولكنه يفسر المؤلفات الأصيلة والشروح تفسيراً جريئاً إذا ما ناقضت الدين المسيحى . وهو يرجع إلى آراء المفكرين المسلمين بدرجة جعلت مؤلفاته مصدراً هاماً لما نعرفه عن الفلسفة الإسلامية . ولا تخلو صفحتان من كتبه من أقوال يقتبسها من ابن رشد ، ويرجع أحياناً إلى كتاب دلالة الحائرين لابن ميمون ، ويعترف بأن أرسطو أعظم مرجع فى العلوم والفلسفة ، وأوغسطين أعظم مرجع فى علوم الدين ، والكتاب المقدس أعظم المراجع فى كل شىء . ومقالاته المكدسة التى يخطئها الحصر سيئة الترتيب ولا يمكن أن يستخلص منها نظام متسق للتفكير ، وهو يدافع عن عقيدة ما فى موضع ، ثم يهاجمها فى موضع آخر أو فى الموضع نفسه أحياناً ؛ ولم يتسع وقته لتصفية متناقضاته . وكان إفراطه فى الطيبة والتقى يحول بينه وبين التفكير الموضوعى ؛ وكان فى وسعه أن يتبع تعليقاً على أرسطو برسالة طويلة مؤلفة من اثنى عشر « كتاباً » فى الثناء على مريم العذراء المباركة يقول فيها إن مريم كانت ملمة إلماما كاملا بالنحو ، والبيان ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والموسيقى ، والفلك .

فما هى إذن أهم أعماله ؟ إن أهم هذه الأعمال هى أنه كان له نصيب موفور فى البحث العلمى فى ذلك الوقت وفى نظرياته ؛ وأنه فى ميدان الفلسفة « قدم أرسطو للاتين » ، وهو كل ما كان يهدف إليه ؛ وكان له الفضل فى استخدام مؤلفات أرسطو فى تعليم الفلسفة ، وجميع كنوز التفكير والجدل الوثنية والعربية واليهودية والمسيحية التى استخدمها تلميذه الذائع الصيت فى فلسفته التركيبية التى تفوق فلسفة أستاذه وضوحا وتنظيما . ولسنا نجافى الحقيقة إذا قلنا إنه لولا ألبرت لما وجد تومس .

الفصل الخامس

تومس أكوناس (أو تومس الأكوينى)

كان تومس ، كما كان ألبرت ، من أسرة شريفة ، ولكنه تخلى عن الثراء لينال جنة الخلد ؛ فقد كان والده الكونت لاندلف الأكوينى Count La of Apuino من النبلاء الألمان ، وابن عم بربرسا ، ومن أبرز الشخصيات فى البلاط الأكوينى لفردريك الثانى الزنديق . كذلك كانت أمه من سلالة أمراء صقلية النورمان . ومع أن تومس إيطالى المولد فقد كان من ناحيتى أبيه وأمه ينتمى إلى أصل شمالى أهم ما يجرى فى عروقه هو الدم التيوتونى ؛ ولم يكن فيه شىء من ظرف الطليان وخبثهم ، بل شب على ضخامة الجسم الألمانية ، فكان كبير الرأس ، عريض الوجه ، أشقر الشعر ، هادئا راضيا بجده الذهنى ، وكان أصدقاؤه يلقبونه « ثور صقلية الأبكم العظيم »[٥٢] .

وقد ولد فى عام ١٢٢٥ بقصر أبيه فى ركاسكا Roccosecca ، على بُعد ثلاثة أميال من أكوينو وفى منتصف الطريق بين نابلى ورومة . وكان دير جبل كسينو قريباً من مسقط رأسه ، وفيه تلقى تومس تعليمه المبكر ، ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره بدأ دراسته فى جامعة نابلى واستمرت هذه الدراسة خمس سنين ، وكان فى هذه الجامعة ميخائيل اسكت يترجم مؤلفات ابن رشد إلى اللغة اللاتينية ؛ ويعقوب الأناضولى يترجم مؤلفات هذا الفيلسوف إلى اللغة العبرية ؛ وبطرس الأيرلندى أحد أساتذة تومس الشديد التحمس لأرسطو . وكانت هذه الجامعة تموج بالمؤثرات اليونانية ، والعربية ، والعبرية ، تصطدم فيها بالأفكار المسيحية . واتجه إخوة تومس نحو الشعر ؛ ودخل أحدهم رينلدو Rainaldo

فى بلاط فردريك وصار فيه من الصائدين بالبزاة ، وطلب إلى تومس أن ينضم إليه ، وأيده فى هذه الدعوة پيرو دل ڤنى Piero delle Vigne وفردريك نفسه ، ولكن تومس ، بدلا من أن يقبل الدعوة ، انضم إلى الرهبان الدمنيكيين (١٢٤٤) ؛ وأرسل بعد قليل من ذلك الوقت الى باريس ليدرس اللاهوت ؛ غير أن اثنين من إخوته اختطفاه فى بداية رحلته بتحريض أمهما ؛ وجىء به إلى قصر ركاسكا حيث وضع تحت الرقابة مدة عام[٥٣] ، اتخذت معه فى خلاله كل وسيلة لمنعه من الاتجاه إلى هذه الناحية ، وتروى إحدى القصص ، وأكبر الظن أنها موضوعه ، أن فتاة حسناء أدخلت إلى حجرته رجاء أن تغريه بالعودة إلى هذه الحياة الدنيا ، ولكنه اختطف من المدفأة شعلة ملتهبة أخرجها بها من الحجرة ، وحرق علامة الصليب التى كانت بالباب[٥٤] . وما لبثت شدة تقواه أن ضمت أمه إلى جانبه ، فساعدته على الفرار ، ثم أصبحت أخته ماركتا Marcotta ، بعد أحاديث كثيرة معه ، راهبة بندكتية .

وكان ألبرت الأكبر أحد معلميه فى جامعة باريس (١٢٥٤) ، فلما نُقل ألبرت إلى جامعة كولونى تبعه تومس إليها ، وظل يدرس معه فيها حتى عام ١٢٥٢ . وكان تومس يبدو غبياً فى بعض الأحيان ، ولكن ألبرت كان يدافع عنه ويتنبأ بعظمته[٥٥] . ثم عاد بعدئذ إلى باريس وأخذ يدرس فيها بعد أن نال درجة البكالوريوس فى علوم الدين ، وحذا فى هذا الوقت حذو أستاذه فبدأ سلسلة من المؤلفات يعرض فيها فلسفة أرسطو فى ثياب مسيحية . وغادر باريس فى عام ١٢٥٩ ليدرس فى المعهد الذى أقامه الديوان البابوى تارة فى أنانى وتارة فى آرڤيتو ، وطوراً فى ڤيتربو . والتقى فى الديوان البابوى بوليم موربياك William Moerbeke وطلب إليه أن يصدر ترجمة لاتينية لمؤلفات أرسطو من اللغة اليونانية مباشرة .

وكان سيجر برابانت وقتئذ يتزعم فى جامعة باريس ثورة تدعو إلى فلسفة ابن رشد ، فأرسل تومس ليقاوم هذه الدعوة ؛ ولما وصل إلى باريس نقل مركز

المعركة إلى معسكر العدو برسالته **فى وحدة العقل ضد فلسفة ابن رشد** (١٢٧٠) واختتمها بهذه الفقرة النارية التى لا عهد للناس بها :

انظروا كيف فندنا هذه الأخطاء ؛ إنا لم نَبْنِ هذا التفنيد على أسس من وثائق مستندة إلى الإيمان بالدين ، بل بيناه على علل وأقوال منقولة عن الفلاسفة أنفسهم . فإذا وُجد إنسان يفخر مزهواً بحكمته المزعومة ، ويرغب فى نقض ما كتبناه ، فعليه ألا يفعل هذا فى ركن من الأركان ، أو أمام أطفال لا قدرة لهم على البت فى مثل هذه المسائل الشائكة . عليه أن يجيب علناً إذا كان له من الشجاعة ما يمكنه من هذا العمل ، وسيجدنى مستعداً لمواجهته ، ولن يجد شخصى العاجز وحده ، بل سيجد كثيرين غيرى ممن جعلوا الحقيقة موضوع دراستهم ؛ سنحارب أخطاءه ونداوى جهله[٥٦] .

ولم تكن الحرب فى ميدان واحد ، لأن تومس لم يكن مضطراً فى هذه الفترة الثانية من اشتغاله بالتدريس أن يقاوم فلسفة ابن رشد وحدها ، بل كان عليه فوق ذلك أن يصد هجمات زملائه الرهبان ، الذين لم يكونوا يثقون بالعقل ، ويرفضون قول تومس إنه يمكن التوفيق بين أرسطو والمسيحية . ووجّه جون بكهام الذى خلف بونا فنتورا فى كرسى الرهبان الفرنسيس للفلسفة بجامعة باريس أشد اللوم إلى تومس لربطه اللاهوت المسيحى بفلسفة إنسان وثنى . ويقول بكهام فيما بعد إن تومس لم يتحول عن موقفه وردّ عليه « برفق وتواضع عظيمين »[٥٧] . وربما كانت هذه السنوات الثلاث التى احتدم فيها الجدل هى التى أنهكت قواه .

ودعى فى عام ١٢٧٢ إلى العودة إلى إيطاليا بدعوة من شارل دوق أنجو ليعيد تنظيم جامعة نابلى ، ثم امتنع عن الكتابة فى سنيه الأخيرة ؛ ولسنا نعرف أكان سبب هذا ما اعتراه من ملل أم أنه قد خاب ظنه فى فائدة النقاش والجدل . ولما أن ألح عليه صديق له بأن يتم كتابه **الموجز فى علوم الدين** أجابه

بقوله : « لا أستطيع ؛ لقد تكشفت لى أشياء يبدو لى معها أن ما كتبته ليس إلا هباء »(٥٨). ودعاه جريجورى العاشر فى عام ١٢٧٤ لحضور مجلس ليون ؛ فبدأ سفره الطويل على ظهر بغل مخترقا إيطاليا ، ولكنه اعتراه الضعف فى الطريق بين نابلى ورمة ، فآوى إلى الفراش فى دير السسترسيين فى فسانوفا Fossanuova بكمپانيا ، وتوفى فيه عام ١٢٧٤ غير متجاوز التاسعة والأربعين من عمره .

ولما ضم بعد وفاته إلى مجمع القديسين شهد الشهود بأنه كان حلو اللسان ، سهل الحديث ، بشوش الوجه وديعاً ... كريم الأخلاق ، صبوراً إلى أقصى حد ، يتلألأ وجهه بالبشاشة والتقوى الممزوجة بالرقة ، شديد العطف على الفقراء(٥٩) . وكان منهمكا فى التقى والدرس انهماكاً يشغل كل تفكيره وكل لحظة يقضيها فى يومه . يحضر جميع الصلوات المقررة فى مواعيدها ، يتلو قداسا أو يستمع لقداسين فى كل صباح ، ويقرأ ويكتب ، ويعظ ويعلّم ، ويصلى . وكان من عادته قبل أن يلقى عظة أو محاضرة ، وقبل أن يجلس للدرس أو التأليف ، أن يصلى ؛ وكان زملاؤه الرهبان يظنون أنه « مدين بعلمه إلى صلواته أكثر مما هو مدين به إلى جهود عقله »(٦٠) . وإنا لنجد من حين إلى حين على هامش مخطوطاته دعوات صالحات مثل « السلام عليك يامريم ! Ave Maria »(٦١) . وقد انهمك فى الحياة الدينية والعقلية انهماكاً قلّما كان يلاحظ معه ما يحدث حوله ؛ فكانت صحفته ترفع وتغيّر فى غرفة الطعام دون أن يدرى ما بها فى بعض الأحيان ؛ ولكن يبدو أن شهيته للطعام كانت جيدة . دعى مرة للعشاء مع جماعة من رجال الدين على مائدة لويس التاسع ، فترك العنان للتفكير وهو جالس إلى المائدة حتى نسى نفسه ، ثم ضرب المائدة فجاءة بقبضته وصاح قائلا : « هذه هى الحجة الدامغة ضد المانونين ! » . وأنّبه رئيس ديره على عمله هذا وقال له : إنك جالس إلى مائدة ملك فرنسا ، ولكن لويس أظهر من الرقة والمجاملة ما هو خليق بملك مثله ، فأمر أحد أتباعه بأن يأتى للراهب المنتصر بأدوات

كتابية(٦٢) . ومع هذا كله كان فى مقدور الراهب المنهمك فى أمور الدين أن يكتب فى كثير من شئون الحياة العملية كتابة جيدة المعنى . وكان الناس يلاحظون كيف يستطيع أن يكيف مواعظه لتوائم عقول زملائه الرهبان المجدين فى الدرس ، أو عقول العامة السذج . وكان بعيداً عن التكلف ، عديم مطالب الحياة ، لا يسعى إلى ألقاب التعظيم ، ويرفض الرقى إلى مناصب الكنيسة ، وقد انتشرت كتاباته فى جميع العالم ، ولكنها لاتحتوى على كلمة واحدة نابية ؛ وهو يواجه بها كل حجة مقاومة لدينه ، ويقرعها بالحسنى وفى هدوء .

وجرى على عادة زمانه وزاد عليها ، فكان يعترف صراحة بما يأخذه عن غيره ، فهو يقتبس من ابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وإسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول ، وابن ميمون ؛ وما من شك فى أن أى طالب لا يستطيع فهم فلسفة القرن الثالث عشر المدرسية من غير أن يدرس ما سبقها من فلسفات المسلمين واليهود . ولا يشارك تومس وليم الأوفرنى فى تقديره لابن جبيرول ، . ولكنه عظيم الإجلال « للرابى ميسز Rabbi Moyses » كما يسمى موسى بن ميمون ، ويقول بما قال به هذا الفيلسوف من أنه يمكن التوفيق بين العقل والدين ، ولكنه يوافقه أيضاً على أن بعض أسرار الدين بعيدة عن متناول العقل ؛ وينقل الحجج المؤيدة لهذا البعد من كتاب دلالة الحائرين (٦٣) . وهو يتفق مع ابن ميمون فى أن فى مقدور العقل البشرى أن يثبت وجود الله ، ولكنه ليس فى مقدوره أن يسمو لمعرفة صفاته ، وهو يتتبع خطى ابن ميمون خطوة خطوة فى بحث أزلية العالم(*) . ويسترشد فى المنطق وما بعد الطبيعة بأرسطو ويكاد ينقل عنه فى كل

(*) ويقول العالم جلسن Gilson : « لو أن ابن ميمون لم يتأثر بابن رشد فيعتنق فكرة خاصة عن الخلود ، لكان فى وسعنا أن نقول إن ابن ميمون وتومس يتفقان فى جميع النقط الهامة » (٦٥) وفى هـذا القول شىء من المبالغة إلا إذا قلنا إن التثليث وتجسد الأقنوم الثانى ، والكفاوة من العناصر غير ذات الشأن فى الدين المسيحى

صفحة من كتبه ، ولكنه لا يتردد فى أن يخالفه حينما يحيد الفيلسوف عن العقائد المسيحية ؛ وبعد أن يعترف بأن التثليث ، والتجسد ، والافتداء ويوم الحساب لا يمكن إثباتها عن طريق العقل ، يتقبل حكم العقل فى جميع المسائل الأخرى قبولا كاملا لا تردد فيه ، ارتاع له أتباع أوغسطين . وكان ينزع إلى مبادئ الصوفية فى اعترافه بأن بعض العقائد المسيحية فوق متناول العقل البشرى ، ويشاركهم فى الشوق إلى الاتحاد مع الله ؛ ولكنه كان من جماعة « العقليين » لأنه يفضل العقل على « القلب » بوصفه أداة توصل إلى الحقيقة . وقد تنبأ بأن أوربا مقبلة على « عصر العقل » ، وكان يرى أن من واجب الفيلسوف المسيحى أن يستعد لملاقاة هذه النزعة الجديدة فى ميدانها . وكان يبدأ حججه المنطقية بأقوال يقتبسها من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ولكنه يقول بصراحة محكمة قوية : « إن الحجة التى تستند إلى أقوال الغير أوهن الحجج »(٦٦) . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن دراسة الفلسفة لا تهدف إلى الكشف عما فكر فيه الآخرون بل تريد أن تصل إلى حقيقة الأمور »(٦٧) . وإن كتاباته لتضارع كتابات أرسطو فيما يسرى فيها كلها من منطق .

وقلما نجـــد فى التاريخ كله عقلا واحداً أخضع مثله ميداناً من ميادين التفكير بمثل هذه السعة لحسن التنظيم والوضوح . ولن نجد فى أسلوب تومس ما يبهرنا أو يخلب لبنا ، فهو أسلوب سهل يصل إلى الهدف من أقرب السبل ، موجز ، دقيق ، خال من الحشو والزخرف ؛ ولكننا لا نجد فيه مثل ما نجد فى أسلوب أوغسطين من قوة ، وسعة الخيال ، وانفعال ونزعة شعرية . وكان تومس يرى أن لا محل فى الفلسفة للبلاغة ، وكان يستطيع إذا شاء أن ينازل الشعراء فى ميدانهم ؛ ذلك أن أقرب ما كتبه إلى الكمال هو الترانيم والأوراد التى وضعها لعيد القربان المقدس ، ومن بينها ترنيمة **Lauda Sion salvatorem** التى تقول بوجود جسم المسيح ودمه وجوداً حقيقياً فى العشاء الربانى ، وصاغها فى شعر فخم

طنان رنان . وفى السابع ترنيمة تبـــدأ بعبارة من أقوال أمبروز : Verqum supernum prodiens ، وتختتم بمقطوعتين Osalularis Bostia تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى . وفى صلاة المساء ترنيمة هى أعظم ما وجد من الترانيم فى جميع العصور ، وهى مزيج من الشعر واللاهوت :

تغنَّ ، يا لسان ، بسر الجسم المجيد ؛
وبالدم الذى لا يقدر بمال ، والذى أراقه
ملك الخلائق جميعاً ، وثمرة أكرم الأرحام ،
فداء للعالمين .
أهدته إلينا وولدته عذراء لم يمسسها بشر ،
وأقام على هذا الكوكب ينشر بذور الكلمة التى استحالت لحما ،
أقام بيننا فى تواضع ، ثم اختتم مقامه اختتاماً عجيباً .
وفى ليلة العشاء الأخير والرسل لا يزالون مضطجعين ،
مراعين كل ما تقضى به الشريعة القديمة فى شأن الطعام الذى
وضعته الشريعة ،
الطعام الذى يطعمه الاثنا عشر مجتمعين يقدمه لنفسه بيديه ،
إن الكلمة التى تجسدت تحيل الخبز بكلمة إلى لحمه ؛
والنبيذ يصبح دم المسيح ، وإذا عجزت الحواس أن ترى .
فليقو الطهر فى القلب بالإيمان وحده .
ومن أجل هذا نجلّ هذا العشاء الربانى العظيم ونحن سجَّد ؛
ألا فلتخل الطقوس القديمة مكانها لهذه الشعيرة الجديدة ؛
وليُنج إيماننا عجز حواسنا المظلمة .
سبّحوا بحمد الوالد والمولود وغنوا له أبهج الأغانى ؛

سلام ؛ وتكريم ، وسلطان ، وبركات كثيرة
وليرفع له تسبيحنا غير منتقص
صادر عن حواسنا وقلوبنا(*) .

وتكاد كتابات تومس تساوى فى كثرتها كتابات ألبرت ، وإن كانت حياة أولهما لا تزيد إلا قليلا على حياة الأخير . وقد كتب شروحاً على **أمثال** بطرس لمبارد ، وعلى أناجيل إشعيا ، وأيوب ، وبولس ؛ وعلى كتاب تياوس لأفلاطون ، وعلى مؤلفات بؤيثيوس والمؤلفات المدسوسة على ديونيسيوس ، وعلى كتب أرغنون ، وفى السماء والأرض ، والكون والفساد ، والأفلاك ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وفى النفس ، والسياسة ، والأخلاق ، وفى الحقيقة ، وفى السلطان ، وفى الشر ، وفى العقل ، وفى الفضيلة ، وغيرها من كتب أرسطو ؛ وكتب يبحث نقطاً تثار عارضة فى جلسات الجامعة . وله رسائل فى قوانين الطبيعة ، والكائن ، والجوهر ، وحكم الأمراء ، وعمليات الطبيعة الخفية ، وكتاب فى أربعـــة مجلدات يسمى : *خلاصة المذهب الكاثوليكى ضد الوثنيين* Summa de veritate catholica de contra Gentiles (١٢٦٧ — ١٢٧٣) *وخلاصة اللاهوت* Compendium theologiae (١٢٧١ — ١٢٧٣) . ويملأ ما نشر من مؤلفات تومس ١٠,٠٠٠ صفحة من القطع الكبير ذى العمودين فى كل صفحة .

وكان إعداد خلاصة الدين الكاثوليكى ضد الوثنيين بطلب من ريمند البنيافورتى Raymond of Penafort زعيم طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ليستعين به على ضم المسلمين واليهود فى أسبانيا إلى الدين المسيحى . ولهذا فإن تومس يكاد

(*) والمقطوعتان الأخيرتان تنشدان أثناء البركة التى يمنحها الكاهن وقت العشاء الربانى وتتلى الترنيمة كلها فى موكب يوم خميس الصعود .

يستند فى كل ما يورده من حجج فى هذا الكتاب إلى العقل والمنطق ، وإن كان يقول فى أسف إن « هذا لا يكفى فى الأمور المتعلقة بالله »[٦٨] . وهو يتخلى فيه عن الطريقة المدرسية فى النقاش ، ويعرض مادته أسلوب يكاد يكون هو الأسلوب الحديث بعينه ، ويعرضها أحياناً بمرارة لا تليق بهذا العالم الوديع الشبيه بالملاك . وهو يقول إن المسيحية دين إلهى بلا ريب ؛ لأنها غلبت رومة وأوربا على الرغم من دعوتها ضد ملاذ الدنيا وملاذ الجسد ، وهى الدعوة التى لا يرحب بها الناس[٦٩] ؛ وهو يعترف صراحة فى الجزء الرابع من الكتاب بأن العقائد الأساسية فى الدين المسيحى لا يمكن إثباتها بالاستناد إلى العقل والمنطق ، وإنها تتطلب الإيمان بالوحى الإلهى كما جاء فى الكتب المقدسة عند اليهود والمسيحيين .

ويوجه تومس أوسع كتبه كلها وهو **خلاصة اللاهوت** إلى المسيحيين أنفسهم ؛ وهو محاولة لشرح مجموعة العقائد الكاثوليكية فى الفلسفة واللاهوت والدفاع عنها بالاستناد إلى الكتب المقدسة وكتب آباء الكنيسة وإلى العقل[*] . ومما جاء فى مقدمة الكتاب : « سنحاول أن نتتبع الأمور المتعلقة بالعقائد المقدسة بإيجاز ووضوح بقدر ما تسمح به مادة هذا الموضوع » . وقد يكون من حقنا أن نبتسم لهذا الإيجاز الذى يحتويه واحد وعشرون مجلداً ، ولكن هذا ما يقوله المؤلف . والحق أن هذه **الخلاصة** ضخمة الحجم ولكنها بعيدة عن الحشو واللغو ؛ وليست ضخامة حجمها إلا نتيجة سعة مجال بحثها ؛ ذلك أن فى هذه الرسالة عن اللاهوت رسائل كاملة فيما بعد الطبيعة ، وفى علم النفس ، والأخلاق ، والقانون ؛ وفيها ثمان وثلاثون رسالة ، و٦٣١ سؤالا أو موضوعا ، وعشرة آلاف اعتراض أو رد . وترتيب الحجج الخاصة بكل سؤال مما يدعو إلى الإعجاب .

(*) هذا الكتاب من أوله إلى السؤال التسعين من الجزء الثالث بما فيه هذا من تأليف تومس ؛ أما بقية الكتاب فقد يكون من تأليف ريجنلد البيرنوى رفيقه وناشر كتبه .

أما تركيب الكتاب فقد نال من الثناء أكثر مما يستحق ، فهو لا يضارع التنظيم المنطقى لكتاب الأخلاق لاسپنوزا أو التتابع المسلسل لكتاب **الفلسفة التركيبية** لاسپنسر . ورسالته فى علم النفس (الجزء الأول المشتمل على الأبواب من ٧٥ إلى ٩٤) موضوعة بين بحثه فى الستة الأيام التى تم فيها الخلق وبين دراسة الإنسان وهو فى عهد البراءة الأولى . وشكل الكتاب أكثر طرافة من تركيبه ؛ وهو فى جوهره يواصل طريقة أبلار من الحد الذى بلغته على يد بطرس لمبارد ويبلغ بها درجة الكمال : يبدأ بالسؤال ، تتلوه الحجج النافية ، والاعتراضات على الحجج الموجبة ، ثم الحجج الموجبة المأخوذة من الكتاب المقدس ، ومن كتب الآباء ، والمستندة إلى العقل ، ثم الردود على الاعتراضات . وهذه الطريقة تضيع الو أحياناً لأنها تورد حججاً واهية ثم تدحضها ، ولكن النقاش أحياناً نقاش جوهرى وحق ، ومن خصائص تومس أنه يورد الرأى المخالف لرأيه بصراحة مدهشة وقوة عظيمة ؛ وبهذه الطريقة كان الكتاب خلاصة للإلحاد كما هو حصن حصين للعقائد المسيحية ، ويمكن اتخاذه كتاباً جامعاً للشكوك . وقد لا نقنع على الدوام بردوده ، ولكننا لا نستطيع أن نشكو قط من أن الشيطان لم يجد له مدافعا قديراً .

الفصل السادس

فلســفة تومس

١ — المنطــق

ما هى المعرفة ؟ هل هى نور إلهى بعثه الله فى الإنسان ، وبغير هذا لايمكن أن تكون ؟ يخالف تومس منذ البداية أوغطسين ، والمتصوفة ، والقائلين بمذهب اللقانة(*)؛ فالمعرفة فى رأيه نتاج طبيعى ، يحصل عليها الإنسان من حواس الجسم الخارجية ، ومن الحاسة الداخلية المعروفة بالشعور بالذات . وهى معرفة محدودة غاية فى القصور فما من عالم قد عرف حتى وقتنا هذا حقيقة الذبابة(٧٠) . ولكن المعرفة فى داخل حدودها خليقة بأن يوثق بها ، ولا حاجة بنا لأن يتولانا الغضب من أن العالم الخارجى قد يكون كله خداعا فى خداع . ويقبل تومس تعريف المدرسيين للحقيقة بأنها مطابقة الفكرة للشىء adequatio rei et intellectus (٧١) . وإذ كان العقل يستمد كل معلوماته الطبيعية من الحواس(٧٢) فإن معرفته المباشرة للأشياء الخارجية عنه مقصورة على الأجسام — أى على عالم الحس أو المحسوس ، وليس فى مقدوره أن يعرف من طريق مباشر العالم الذى فوق المحسوس ، عالم ما وراء الطبيعة ، العقول التى فى داخل الأجسام أو الله فى خلقه ؛ ولكن فى وسعه عن طريق المقارنة والقياس أن يستمد من تجارب الحس معرفة غير مباشرة بالعقول الأخرى ، وأن يحصل بمثل هذه الطريقة على معرفة غير مباشرة بالله(٧٣) . أما العالم الثالث عالم ما فوق الطبيعة — حيث يوجد الله — فليس فى مقدور عقل الإنسان أن يعرف عنه شيئا إلا من طريق الوحى .

(*) Intuitionists

الإلهى . وفى وسعنا أن نعرف بطريق الفهم الطبيعى أن الله موجود ، وأنه واحد ، لأن وجوده ووحدانيته تتلألآن فى عجائب العالم وحسن تنظيمه ؛ ولكننا لا نستطيع بعقلنا وحده أن نعرف جوهره أو حقيقة التثليث ، وحتى علم الملائكة أنفسهم قاصر ومحدود وإلا كانوا آلهة .

وقصور علمنا فى حد ذاته دليل على وجود عالم فوق الطبيعى . ويكشف الله لنا عن هذا العالم فى كتبه المقدسة ، وكما أن من الحمق أن يقول الفلاح إن نظريات الفلسفة كاذبة لأنه يعجز عن فهمها ، كذلك يكون من الحمق أن يرفض الإنسان الإيمان بالوحى الإلهى بحجة أنه يبدو له فى بعض النقط مناقضاً لمعلومات الإنسان الطبيعية . وعلينا أن نثق بأنه لو كانت معلوماتنا كاملة ، لما كان ثمة تناقض بين الوحى والفلسفة ، ومن الخطأ أن نقول إن قضية ما يمكن أن تكون خاطئة فى الفلسفة وصحيحة فى الدين ، ذلك بأن الحقائق كلها تأتى من عند الله وهى واحدة . غير أنه يحسن بنا أن نفرق بين ما نفهمه عن طريق العقل وما نعتقده عن طريق الإيمان(٧٤) ، لأن ميدانى الفلسفة والتصور ميدانان منفصلان ، ويجوز للعلماء أن يبحثوا فيما بينهم ما يعترض به على الدين ، ولكن « لا يحسن بالسذج من الناس أن يستمعوا إلى ما يقوله غير المؤمنين ضد الدين » لأن العقول الساذجة ليس لها من الاستعداد ما تستطيع أن ترد به على المعترضين(٧٥) . ويجب على العلماء والفلاسفة ، كما يجب على الفلاحين أن ينحنوا أمام قرارات الكنيسة ؛ ومن واجبنا أن نهتدى بهديها فى كل شىء(٧٦) ، لأنها هى المكان الذى أودع فيه الله الحكمة الإلهية ؛ وقد أعطى البابا « الحق فى أن يصدر أحكاما نهائية فى شؤون الدين حتى يأخذها الناس جميعا بإيمان لا يتزعزع(٧٧) » . وبغير هذا لا مفر من الفوضى العقلية ، والأخلاقية ، والاجتماعية .

٢ — ما وراء الطبيعة

(الميتافيزيقا)

ميتافيزيقية تومس تعريفات معقدة عويصة وفروق دقيقة يقوم عليها كلها لاهوته .

١ — الجوهر والوجود فى الأشياء المخلوقة مختلفتان ، فالجوهر هو ما لا بد منه لإدراك الشيء ؛ والوجود هو عملية الكينونة . فجوهر المثلث — أى أنه ثلاثة خطوط مستقيمة تضم بينها فراغاً — واحد لا يتغير سواء وجد المثلث أو كان مجرد إدراك ذهنى . أما فى حالة الله فالجوهر والوجود شيء واحد ؛ لأن جوهره هو أنه العلة الأولى ، والقوة التى تقوم عليها كل الأشياء (أو التى تقف تحت الأشياء) كما يقول اسپنوزا . وتعريفه يحتم وجوده لكى يوجد كل ما عداه من الأشياء .

٢ — والله موجود بالحقيقة ، وهو الكائن المكون لجميع الكائنات ، وعلتها التى تستند إليها . وكل الكائنات الأخرى موجودة بالتصور لا غير ، وبالاشتراك المحدد فى حقيقة الله .

٣ — وكل الكائنات المخلوقة فاعلة ومنفعلة معاً — أى أنها تفعل وتنفعل . وهى أيضاً مزيج من الكينونة والصيرورة : فلها صفات معينة قد تفقد بعضها وتكسب غيرها — فالماء مثلا قد يدفأ . ويعبر تومس عن هذا التأثر بالعمل الخارجى أو التبدل الداخلى بلفظ الإمكانية **potentia** . والله وحده هو المنزه عن هذه الإمكانية ، فهو لا ينفعل ولا يتبدل ، وهو نشاط خالص ، وحقيقة خالصة ؛ وهو من بادئ الأمر كل شيء يمكن أن يكونه . ويمكن ترتيب الموجودات التى دون الله ترتيباً تنازلياً يقوم على عظم إمكانيتها فى التأثر بما هو

خارج عنها والتحدد به . وعلى هذا يكون الرجل أرقى من المرأة لأن « الأب هو المبدأ الفعال ، على حين أن الأم هى المبدأ المنفعل أو المادى ؛ فهى تقدم مادة الجسم التى لا صورة لها ، والتى تتلقى صورتها عن طريق القوة المكونة التى فى منى الأب »(٢٨) ؛

٤ — كل الكائنات ذات الأجسام تتكون من مادة وصورة ، ولكن الصورة هنا (كما هى عند أرسطو) ليس معناها الشكل بل العنصر الفطرى المنشط المميز . وحين تكوّن الصورة أو العنصر الحيوى جوهرَ كائن ما فهى تكون صورة أساسية جوهرية ، وبهذا تكون النفس العاقلة — أى القوة التى تهب الحياة والقادرة على التفكير — هى صورة الجسم الأساسية ، والله هو صورة الكون الأساسية .

٥ — والحقائق كلها إما جوهر أو عرض : إما أن تكون موجودات منفصلة كالحجر والإنسان ، أو أنها لا توجد إلا على هيئة صفات فى شىء آخر كالبياض والكثافة . أما الله فهو جوهر محض ؛ لأنه هو الحقيقة الكاملة الموجودة بذاتها .

٦ — والجواهر كلها فردية ، ولا شىء غير الأفراد موجود إلا فى الفكر ، والفكرة القائلة بأن الفردية خداع هى نفسها خداع .

٧ — وفى الكائنات المكونة من مادة وصورة يكون العنصر الأساسى أو مبدأ الانفراد — أى تضاعف عدد الأفراد فى النوع أو الصنف — هو المادة . أما الصورة أو المبدأ الحيوى فى النوع بأكمله فهى فى جوهرها واحدة . وهذا المبدأ يستخدم فى كل فرد ، مقداراً معيناً وشكلا من المادة . ويستحوذ عليه ، ويعطيه شكلا ؛ وهذه المادة التى تعينت بكميتها هى مبدأ الانفرادية — وليست الانفرادية هى الفردية بل الذاتية المنفصلة .

٣ — اللاهوت

المحور الذى تدور حوله فلسفة تومس وموضوع بحثها هو الله لا الإنسان ، وقد كتب فى ذلك يقول : « إن أرقى ما نستطيع تحصيله من معرفة عنه فى هذه الحياة أن نعرف أنه فوق كل ما يمكن أن يدور بخلدنا عنه »[٧٩] . وهو يرفض حجج أنسلم الكونية ، ولكنه يقترب منها حين يقول إن وجوده وجوهره شىء واحد ، فالله عنده هو الوجود نفسه : « أنا من أنا » .

ويقول تومس إنه يمكن البرهنة على وجود الله بعلل طبيعية : (١) فالحركات كلها تنشأ من حركات سابقة ، وهذه تنشأ من أخرى قبلها ، وهذه إما أن تنتهى إلى محرك أول أو أن تستمر فى الرجوع إلى حركات أسبق منها رجوعا لا نهاية له وهذا مستحيل ، (٢) كذلك يتطلب تسلسل العلل علة أولى ، (٣) والعرضى ، وهو ما قد يكون ولكن لا يتحتم أن يكون ، يعتمد على الضرورى الذى لا بد أن يكون ؛ ويعتمد الممكن على الواقع ، وهذا التسلسل يرجع بنا إلى كائن ضرورى هو الحقيقة الخالصة ، (٤) والأشياء طيبة ، وحقة ، وسامية ، بدرجات مختلفة ، ولا بد أن يكون هناك أصل أو مصدر لهذه الفضائل الناقصة يبلغ حد الكمال فى الطيبة والحقيقة والسمو ، (٥) فى العالم آلاف من الشواهد الدالة على ما فيه من نظام ، وحتى الجمادات نفسها تتحرك بطريقة منظمة ، وكيف يمكن وجود هذا إلا إذا كانت هناك قوة عاقلة هى التى خلقت هذه الأشياء ؟[*][٨١] .

وإذا ما استثنينا مسألة وجود الله قلنا إن تومس يكاد يكون لا أدريا فى اللاهوت الطبيعى « لا نستطيع أن نعرف ما هو الله ، بل نعرف فقط ما لا يمكن أن يكونه »[٨٢] — إنه لا يتحرك ، ولا يتعدد ، ولا يتحول ، ولا يحيط به زمان . ولِمَ تريد العقول المتناهية فى الصغر أن تزيد علمها بما لا نهاية له ؟ ويقول تومس

(*) ١ ، ٢ ، ٥ منقولة عن ألبرت عن أرسطو (٣) عن ابن ميمون (٤) عن أنسلم

إن من الصعب علينا أن نتصور الروح غير المادية (وهو يسبق برجسون فى قوله هذا) لأن العقل يعتمد على الحواس . ولأن تجاربنا الخارجية كلها مقصورة على الأشياء المادية ؛ وعلى هذا « فإننا لا نعرف الأشياء المجردة من الأجسام ، والتى لا صور لها ، إلا بمقارنتها بالأجسام المحسوسة التى لها صور »[٨٣] . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله (كما يقول ابن ميمون) إلا عن طريق المجاز والتشبيه ، فنستدل عليه من أنفسنا ومن تجاربنا ؛ وعلى هذا فإذا كان فى الناس خير ، وحب ، وحق ، وعقل ، وقدرة ، وحرية ، أو أية ميزة أخرى ، فلابد أن تكون هذه أيضاً فى خالق الإنسان ، وأن تكون فيه بدرجة أعلى تتفق مع النسبة الموجودة بين اللانهائية وبيننا نحن . وإذا ما استعملنا ضمائر المذكر حين نتحدث عن الله فليس ذلك إلا من قبيل التيسير ، أما الحقيقة فليس ثمة ذكر وأنثى فى الله ولا فى الملائكة . والله واحد لأنه حسب تعريفه هو الوجود ذاته ؛ وإن سر العالم الموحد ليكشف عن عقل واحد وقانون واحد . وإن القول بوجود ثلاثة أقانيم فى هذه الوحدة الإلهية لهو سر غامض لا يدركه العقل ، ولابد أن نعتقده بإيمان الواثقين .

وليس فى مقدورنا كذلك أن نعرف هل خلق العالم فى وقت بعينه ، وبذلك يكون قد خلق من لا شىء ، أو هل هو أزلى كما يظن أرسطو وابن رشد ؟ ومن رأيه أن الحجج التى يدلى بها رجال الدين ليثبتوا بها خلق العالم فى زمن بعينه حجج واهية يجب رفضها « حتى لا تبدو العقيدة السمحة بأنها قائمة على أسانيد منطقية جوفاء »[٨٤] . ويستنتج تومس من هذا أن علينا أن نعتقد بالاستناد إلى إيماننا وحده بخلق العالم فى وقت معين ؛ ولكنه يضيف إلى هـــذا أن ذلك أمر لا معنى له لأن الوقت لم يكن له وجود قبل الخلق ، إذ ليس ثمة وقت بلا تغير ، ولا مادة تتحرك . وهو يحاول بأقصى جهده أن يشرح كيف ينتقل الله من لا خلق إلى خلق دون أن يعتريه تغير . وعملية الخلق فى رأيه أزلية ، ولكنها

تشمل فى إرادة القيام بها تحديد الوقت الذى يتطلبه ظهور نتائجها[٨٥] — وتلك طريقة ظريفة يروغ بها هذا الرجل العنيد من المشكلة التى يواجهها .

والملائكة فى رأيه هم أرقى طبقات الخلق ، وهم عقول بلا أجسام ، غير قابلين للفساد ، مخلدون . وهم رسل الله فى حكم العالم ، بهم تتحرك الأجرام السماوية وبهم تهتدى[٨٦] ، ولكل إنسان ملك يحرسه ، وكبار الملائكة يعنون بجماعات كبيرة من الناس . وإذ كان الملائكة عقولا بلا مادة ، فإن فى مقدورهم أن ينتقلوا من أحد أطراف العالم إلى الطرف الآخر من غير أن يجتازوا ما بينهما من فضاء . ويملأ تومس ثلاثاً وتسعين صفحة فى طبقات الملائكة ، وحركاتهم ، وحبهم ، وعلمهم ، وإرادتهم ، وكلامهم ، وعاداتهم — وهذا هو أكثر أجزاء الخلاصة الطويلة تكلفاً وأكثرها استعصاء على التفنيد .

وكما أن هناك ملائكة فكذلك يوجد عفاريت ، وهم أبالسة صغار يأتمرون بأمر الشيطان ؛ وليس هؤلاء مجرد خيالات تخلقها عقول العوام ، بل هم كائنات حقيقية يسببون ما لا حصر له من الأذى ؛ وفى وسعهم أن يجعلوا الرجل عاجزاً عن القيام بالوظيفة الجنسية بأن يثيروا فيه كره المرأة[٨٧] ، ويقومون بضروب مختلفة من السحر ؛ فقد يرقد العفريت تحت الرجل ، ويتلقى منيّه ، ويحمله مسرعا فى الفضاء ، ويجامع امرأة ، فتحمل من منىّ رجل غائب[٨٨] . وفى وسع العفاريت أن يمكنوا السحرة من أن يتنبئوا بالحوادث التى لا تعتمد على إرادة الإنسان الحرة . وفى وسعهم أن يبلغوا الناس معلومات بأن يطبعوها فى خيالهم ، أو بأن يظهروا أمام عيونهم ، أو يتحدثوا لهم بصوت مسموع ؛ وقد يتعاونون مع الساحرات ، ويساعدونهن على إيذاء الأطفال ، عن طريق الحسد[٨٩] .

وكان تومس يعتقد بصدق التنجيم فى كثير من الأمور ، شأنه فى ذلك شأن كثيرين من معاصريه ، وكثيرين من معاصرينا نحن :

يجب أن نربط بين حركات الأجسام . . . على هذه الأرض وحركات

الأجرام السماوية وهى علتها . . . وثمة طريقتان يستطاع بهما تفسير قدرة المنجمين فى كثير من الأحيان على التنبؤ بالحقائق برصد النجوم : أولاهما أن عدداً كبيراً من الناس يسيرون وراء انفعالاتهم الجسمية ، وبذلك تتجه أعمالهم فى معظم الأحيان حسب ميل الأجرام السماوية ، على حين أن هناك قلة منهم — وهم العقلاء وحدهم — يهدئون ميولهم بعقولهم . . . وثانيتهما ناشئة من تدخل العفاريت[٩٠] .

بيد أن « أعمال البشر لا تخضع لفعل الأجرام السماوية إلا خضوعاً عارضا وبطريق غير مباشر »[٩١] ؛ وفيها مجال كبير لحرية الآدميين .

٤ — علم النفس

يعنى تومس ببحث المشاكل الفلسفية التى يتضمنها علم النفس ، والصفحات التى يخصصها لهذا الموضوع من أحسن ما فى كتابه من تحليل . وهو يبدأ بفكرة أن الكائن الحى عضوى معارضا فى ذلك فكرة أنه آلى : فالآلة تتكون من أجزاء تضم بعضها إلى بعض من الخارج ، أما الكائن الحى فيكوّن أجزاءه بنفسه ويحرك نفسه بما فيه من قوة داخلية[٩٢] . وهذه القوة الداخلية المكوّنة هى النفس ، ويعبر تومس عن هذه الفكرة بمصطلحات من كتب أرسطو : فالنفس عنده « صورة هيولية » للجسم — أى أنها هى المبدأ الحيوى والطاقة التى تعطى الكائن الحى وجوداً وشكلا : « النفس هى المبدأ الأول لغذائنا ، وإحساسنا ، وحركتنا ، وفهمنا »[٩٣] . والنفس ثلاث درجات : النفس النابتة — أى القدرة على النماء ، والنفس الحاسة — أى القدرة على الشعور ، والنفس العاقلة — أى القدرة على التعقل والاستدلال . والأولى موجودة فى كل ما هو حى ، أما الثانية فلا توجد إلا فى الحيوانات والآدميين ، وأما الثالثة فلا توجد إلا فى بنى الإنسان . غير أن الكائنات الحية العليا تمر فى نمائها الجسمى والفردى بالمراحل التى تبقى فيها

الكائنات السفلى ؛ و « كلما علت الصورة فى سلم المخلوقات . . . زاد عدد الأشكال الوسطى التى تمر بها قبل أن تصل إلى صورتها الكاملة »(٩٤) — ويشبه هذا القول نظرية « الإعادة » التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والتى تقول إن جنين الإنسان يمر بالمراحل التى مر فيها النوع أثناء نموه .

وبينا كان أفلاطون ، وأوغسطين ، والرهبان الفرنسيس يظنون أن النفس سجينة فى الجسم ، ويقولون إن الإنسان هو النفس لا غير ، كان تومس جريئاً فى قبول فكرة أرسطو ، وهو يعرف الإنسان — بل يعرف الشخصية نفسها — بأنه مزيج من الجسم والنفس ومن المادة والصورة(٩٥). فالنفس وهى الطاقة الداخلية التى تبعث الحياة ، وتخلق الصورة ، توجد فى كل جزء من أجزاء الجسم كاملة غير قابلة للانقسام(٩٦) وهى ترتبط بالجسم بألف طريقة . فهى بوصفها نفساً نباتية تعتمد على الطعام ، وبوصفها نفساً حاسة تعتمد على الإحساس ، وبوصفها نفساً عاقلة تحتاج إلى الصور التى تنتج أو تتركب من الإحساسات . وحتى المقدرة العقلية والمدركات الأخلاقية تعتمد على وجود جسم سليم إلى حد معقول . فالجلد السميك يدل على النفس العديمة الإحساس(٩٧) ؛ وللأحلام ، والانفعالات ، والأمراض العقلية ، والأمزجة أسس فى وظائف الأعضاء(٩٨) . ويتحدث تومس فى بعض الأحيان كما لو كان الجسم والنفس حقيقة واحدة موحدة ، أى الطاقة الداخلية والصورة الخارجية لكل لا يتجزأ . ومع هذا فقد كان يبدو له واضحاً كل الوضوح أن النفس العاقلة — المجردة ، المعممة ، والمستدلة ، المصورة للكون ، — حقيقة غير جسمية ؛ وأننا مهما حاولنا ، وعلى الرغم من ميلنا إلى التفكير فى جميع الأشياء بمصطلحات مادية ، لانستطيع أن نجد شيئاً مادياً فى الإدراك ؛ فهو حقيقة تختلف كل الاختلاف عن جميع الأشياء المادية أو المكانية ؛ ويجب أن نصف هذه النفس العاقلة بأنها روحية ، شىء يبعثه فينا الله وهو القوة النفسية القائمة وراء كل الظواهر المادية . والقوة غير المادية وحدها هى التى تستطيع

أن تكون فكرة كلية ، أو تقفز إلى الأمام وإلى الخلف فى الزمان ، أو تدرك الكبير والصغير بدرجة واحدة من السهولة[٩٩] . وفى مقدور العقل أن يدرك نفسه ، ولكن من المستحيل أن يتصور كائناً ماديا يدرك نفسه .

ولهذا فلا حرج علينا إذا اعتقدنا أن هذه القوة الروحية الموجودة فينا تبقى بعد موت الجسم ؛ ولكن النفس التى تفارق الجسم على هذا النحو ليست ذات شخصية ، فهى لا تقدر أن تحس أو تريد ، أو تفكر ، بل هى طيف لا قوة له ولا يستطيع أن يقوم بعمل بغير الجسم[١٠٠]، ولا تكوّن مع الجسم شخصية منفردة لا يجوز عليها الموت إلا إذا عادت إلى الاتحاد مع الجسم ، أى مع الإطار الجسدى الذى كانت هى حياته الداخلية . ولقد كان السبب الذى دفع ابن رشد وأتباعه إلى النظرية القائلة بأن « لا خلود إلا للعقل الفاعل » وحده ، أو نفس الكون ، أو نفس النوع ، هوعدم إيمانهم ببعث الجسم . أما تومس فيسخر كل ما وهب من قوة الجدل ليدحض هذه النظرية ، وعنده أن اختلافه عن ابن رشد فى مسألة الخلود هو أهم المشاكل القائمة فى القرن الذى يعيش فيه ، وأن ما ينشأ عن الوقائع الحربية من تبديل فى الحدود وتغيير فى الألقاب يبدو إلى جانبها عبثا وجنونا لا أكثر .

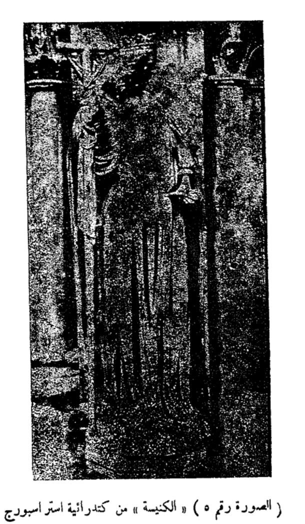
ويقول تومس إن للنفس خمس صور أو قوى : النفس النباتية وبها نطعم ، وتنمو ونتكاثر ؛ والنفس الحاسة وبها نستقبل التنبيهات من العالم الخارجى ؛ والنفس المشتهية ، وبها نرغب ونريد ؛ والنفس المحركة وبها تحدث الحركة ؛ والنفس العاقلة وبها نفكر[١٠١] . والمعلومات كلها تبدأ بالحواس ، ولكن التنبيهات لا تسقط على سطح فارغ أملس ، بل يتلقاها بناء معقد هو مركز الإحساس المشترك ، الذى يصوغ هذه التنبيهات أو الأحاسيس فيؤلف منها أفكاراً . ويتفق تومس مع أرسطو ولُك Locke فى أنه « لا شىء فى العقل لم يكن له من قبل وجود فى الحواس » ، ولكنه يضيف إلى ذلك كما يضيف كانت وليبنتز قوله :

« إلا العقل نفسه » – وهو قوة منظمة تستطيع تنظيم التنبيهات إلى أفكار ، وأخيراً إلى تلك الكليات والأفكار المجردة التى هى أدوات الاستدلال ، والميزة التى اختص بها الإنسان على هذه الأرض .

والإرادة أو الرغبة هى الموهبة التى تستطيع بها النفس أو القوة الحيوية أن تتحرك نحو ما يرى العقل أنه خير . ويعرف تومس الخير كما يعرفه أرسطو بأنه « هو الشىء المرغوب فيه »(١٠٢) . والجمال شكل من أشكال الخير ، لأنه هو الذى تسر رؤيته . ولم كانت رؤيته سارة ؟ إنها تسر لما بين أجزائها من تناسب وتناسق يجعل منها كلا منظما . والعقل خاضع للإرادة لأن الرغبة تستطيع أن تحدد اتجاه الفكر ، ولكن الإرادة نفسها خاضعة للعقل لأن رغباتنا تحددها الطريقة التى تدرك بها الأشياء ، والآراء التى تكونها عنها (مقلدين فى ذلك غيرنا عادة) . وليست الحرية مستقرة حقيقة فى الإرادة التى « يحركها بالضرورة » فهمنا للمادة كما يعرضها علينا العقل(١٠٣) ، بل هى مستقرة فى التمييز (arbitirium) : ولهذا تتناسب الحرية تناسباً مطرداً مع درجات المعرفة ، والقدرة على الاستدلال ، والحكمة ، وعلى قدرة العقل أن يعرض صورة صحيحة للحالة القائمة على الإرادة ، ومن ذلك يرى أن الحكماء وحدهم هم الأحرار حقاً(١٠٤). وليس الذكاء خير مواهب النفس وأسماها فحسب بل هو أيضاً أعظمها قوة : « وطلب الحكمة هو من بين مطالب الإنسان كلها أكملها ، وأسماها ، وأعظمها نفعاً ، وأجلبها للسرور »(١٠٥) : « وعمل الإنسان الخليق به هو أن يفهم »(١٠٦) .

٥ – علم الأخلاق

وإذن فغاية الإنسان الحقة هى أن يصل إلى الحقيقة فى الحياة الدنيا ، وأن يشهد هذه الحقيقة فى الله فى الحياة الآخرة ؛ ذلك أننا إذا سلمنا مع أرسطو بأن ما يسعى إليه الإنسان هو السعادة ، فأين يجد أحسنها ؟ إنه لا يجدها فى الملاذ



(الصورة رقم ٥) « الكنيسة » من كتدرائية استراسبورج



(الصورة رقم ٦) « المعبد » من كتدرائية استراسبورج

الجسمية ، ولا فى الشرف ، ولا فى الثروة ، ولا فى السلطان . بل إنه لايجدها فى الأعمال الصادرة عن الفضيلة الخلقية ، وإن حصل من هذه كلها على البهجة . ولنسلم كذلك بأن « النظام الكامل للجسم ضرورى . . . للسعادة الكاملة »[١٠٧] . ولكن ليس فى هذه الطيبات كلها ما يضارع السعادة الهادئة الشاملة المتصلة الناشئة من الفهم . ولعل تومس كان يذكر وتنشد قول فرجيل : « ما أسعد من استطاع أن يعرف علل الأشياء ! » فاعتقد أن أسمى عمل تقوم به النفس وأعظم ما تغتبط به — أى الذروة الطبيعية لعقليتها الخاصة — هى « أن ينقش عليها النظام الكامل للكون وأسبابه »[١٠٨] . وإن السلام الذى يعلو على الفهم لينشأ من الفهم .

ولكن هذه السعادة الدنيوية العليا نفسها لاتترك الإنسان راضياً كل الرضا قانعاً كل القناعة ، فهو يعرف معرفة غامضة أن « السعادة الكاملة الحقة لايمكن أن تنال فى هذه الحياة » . وأن فى داخله صوتاً لايمكن إسكانه يجعله يتوق على الدوام لسعادة وفهم لايتأثران بما يتعرض له الآدميون الفانون من تغيرات ومن صروف الزمان . وقد تجد غير هذه الشهوات ما يشبعها فى الطيبات الوسطى ، أما عقل الإنسان الكامل فلن يستريح إلا إذا وصل إلى ذروة الحق وجماعه وهو الله[١٠٩] . فى الله وحده الخير الأسمى لأنه مصدر كل الطيبات الأخرى ، ولأنه علة سائر العلل ، وحقيقة كل الحقائق ، والهدف الأخير للإنسان هو نور النعيم الباهر — الرؤى التى تهب السعادة(*) .

وعلى هذا يكون علم الأخلاق هو الفن والعلم اللذين يعدان الإنسان لبلوغ هذه السعادة النهائية السرمدية ؛ ويمكن تعريف الطيبة الخلقية أو الفضيلة بأنها السلوك المؤدى إلى غاية الإنسان الحقة وهى أن يرى الله والإنسان بطبعه ميال إلى الخير — المرغوب فيه : ولكن ما يراه هو خيراً ليس فى كل الأحوال خيراً

(*) وهو النور الذى يراه الملائكة والأبرار عند دخولهم الجنة . (المترجم)

من الناحية الأخلاقية ؛ وقد عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء فى الحكم على ما هو خير ، وهو يحمل الآن فى كل جيل وزر هذه الخطيئة الأولى(*) . وإذا ما سأل إنسان عند هذه النقطة لم خلق الله ، الذى يعرف كل شىء قبل حدوثه ، رجلا وامرأة قدر عليهما أن يكونا مشغوفين بالمعرفة ، وخلق جيلا قدر عليه أن يكون ملوثاً بهذا الإثم الموروث ، أجابه تومس أن من المستحيل على أى مخلوق بمقتضى قوانين ما وراء الطبيعة أن يكون كاملا . وأن حرية الإنسان فى أن يأثم هى الثمن الذى يجب عليه أن يؤديه نظير حريته فى الاختيار . وإذا سلب الإنسان حرية الإرادة أصبح مجرد آلة ذات حركة ذاتية لاتسمو على الخير والشر بل تنحط دونها ، ولا تكون لها كرامة أكثر من أنها آلة .

وإذ كان تومس قد انغمس فى عقيدة الخطيئة الأولى ، وانغمس فى مبادئ أرسطو ، وفى الخوف من النساء واعتزلهن اعتزالا ناشئا من حياة الأديرة ، فقد كان لابد أن يكون سيئ الظن بالنساء ، وأن يتحدث عنهن حديث الرجال ، وليس عليه فى هذا لوم . وهو يحذو حذو أرسطو فى أنانيته البالغة الخطورة حين يظن أن الطبيعة كبطارقة العصور الوسطى ترغب على الدوام فى أن تخرج ذكوراً ، وأن المرأة مخلوق عاجز عارض ، أو أنها ذكر أخطأه التوفيق (mas occasisnatum) ، وأكبر الظن — على حد قوله — أنها نتيجة لضعف قوة التلقيح عند الأب ، أو لعامل آخر خارجى مثل ريح جنوبية رطبة[١١١] . وكان يظن بالاعتماد على آراء أرسطو وبعض معاصريه فى علم الأحياء أن المرأة ليس لها إلا المادة المنفعلة فى الذرية ، أما الرجل فهو الذى يعطى الصورة الفاعلة ؛ وأن المرأة هى انتصار المادة على الصورة ؛ وهى من ثم أضعف الأوعية فى الجسم ، والعقل ، والإرادة . وشأنها

(*) لم يكن تومس يعرف أن الكنيسة ستقر نظرية الحمل بلا دنس الخاصة بالعذراء — أى تحررها من التلوث بالخطيئة الأولى — ولهذا ظن أن مريم أيضاً قد « حملت فى إثم » وقد أضاف إلى ذلك فى شهامة لم تمح ما قرره قبل « أنها قد طهرت قبل أن تلد من الرحم »[١١٩] .

مع الإنسان شأن الحواس مع العقل . وفيها تسود الشهوة الجنسية ؛ أما الإنسان فهو المعبر عن العنصر الأكثر ثباتاً . والرجل والمرأة كلاهما صُوِّرا فى صورة الله ، ولكن الرجل أشبه به من المرأة . والرجل هو مبدأ المرأة وغايتها ، كما أن الله هو مبدأ الكون وغايته ، وهى تحتاج إلى الرجل فى كل شىء ، أما هو فلا يحتاجها إلا للتناسل ؛ والرجل قادر على أن يؤدى جميع الواجبات أحسن من أداء المرأة — لا يستثنى من هذا العناية بالبيت(١١٢) ، فهى لا تصلح لأن تشغل أى منصب هام فى الكنيسة أو الدولة ؛ وهى جزء من الرجل وإن شئت الدقة الحرفية فهى ضلع من ضلوعه(١١٣) ؛ وعليها أن تنظر إلى الرجل نظرتها إلى سيدها الطبيعى ، وأن تقبل إرشاده ، وتخضع لتقويمه وتأديبه ، وبهذه الطريقة تؤدى رسالتها وتحظى بسعادتها .

هذا هو ما يقوله تومس عن المرأة ؛ أما الشر فيبذل غاية جهده ليثبت أنه فى نظر علم ما وراء الطبيعة لا وجود له ؛ ويقول إن الشر ليس موجوداً إيجابيا ، لأن كل حقيقة بوصفها حقيقة خير(١١٤) ؛ وليس الشر إلا غياب صفة أو مقدرة يجب أن تكون موجودة فى الكائن بطبيعته ، أو هى الحرمان من هذه الصفة أو المقدرة . فليس شراً فى الرجل ألا يكون له جناحان ، لكن شراً ألا تكون له يدان ، مع أنه ليس من الشر فى الطائر ألا تكون له يدان . وكل شىء طيب كما خلقه الله ، ولكن الله نفسه لا يستطيع أن ينقل كماله اللانهائى إلى مخلوقاته . والله يجيز بعض الشرور بقصد الوصول إلى بعض الغايات الخيِّرة أو لمنع شرور أشد منها كما « تجيز بعض الحكومات ... بحق بعض الشرور — كالعهر مثلا — خشية ... أن يؤدى منعها إلى أضرار أشد منها »(١١٥) .

والخطيئة عمل من أعمال الإرادة الحرة حين تخرق نظام العقل الذى هو أيضاً نظام الكون . ونظام العقل هو التوفيق الصحيح بين الوسائل والغايات ، وهو فيما يختص بالإنسان تكييف السلوك بحيث يؤدى إلى السعادة السرمدية . والله ههنا

حرية ارتكاب الخطأ ، ولكنه يهبنا أيضاً ، بوحيه الإلهى ، الشعور بالصواب والخطأ . وهذا الضمير الغريزى ذو سلطان مطلق يجب أن يطاع مهما تكن النتيجة ؛ فإذا أمرت الكنيسة إنساناً بشىء يخالف ضميره وجب عليه أن يعصى أمرها ، وإذا حدثه ضميره بأن الإيمان بالمسيح شر ، وجب عليه أن ينفر من ذلك الدّين(١١٦) .

والضمير فى الأحوال العادية لايميل بنا إلى الفضائل الطبيعية وحدها كالعدالة ، والفطنة ، والجَلَد ، بل يميل بنا أيضاً إلى الفضائل التى يأمرنا بها الدين كالإيمان ، والأمل ، والصدقات . وهذه الثلاث الصفات الأخيرة هى الصفات الخلقية التى يمتاز بها الدين المسيحى ، وهى أيضاً سبب مجده . والإيمان واجب أخلاقى على الإنسان لأن العقل البشرى قاصر محدود ؛ فعلى الإنسان أن يصدق تصديقا قائماً على الإيمان عقائد الكنيسة التى تعلو على إدراك العقل وعقائدها التى يستطيع أن يعرفها بطريق العقل . وإذا كان الخطأ فى شئون الدين قد يؤدى بالإنسان إلى الجحيم ، فإن من الواجب ألا يتسامح فى عدم الإيمان إلا إذا قصد بذلك تجنب شر أكبر ؛ « فالكنيسة قد أجازت فى بعض الأحيان شعائر الملحدين والوثنيين أنفسهم ، حين كان غير المؤمنين كثيرى العدد »(١١٧). ويجب ألاّ يسمح لغير المؤمنين بأن يكون لهم السيطرة أو السلطان على المؤمنين(١١٨) ؛ ويمكن التسامح بوجه خاص مع اليهود لأن شعائرهم ترمز إلى شعائر الدين المسيحى قبل ظهوره ، فتشهد بذلك على صحة هذا الدين(١١٩) . ويجب ألا يُرغم اليهود غير المعمدين على اعتناق الدين المسيحى(١٢٠) ، ولكن الملحدين – وهم الذين تخلوا عن إيمانهم بعقائد الكنيسة – يجوز إرغامهم دون أن يكون فى ذلك حرج على من يرغمهم(١٢١) . ويجب ألا يعدّ أى إنسان ملحداً إلا إذا أصرّ على خطئه بعد أن تبينه له سلطة كهنوتية ؛ والذين يرجعون عن إلحادهم يمكن أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، بل يمكن فوق ذلك أن تعاد لهم كرامتهم الأولى ؛ فإذا عادوا

إلى الحادهم « جاز أن يسمح لهم بالتكفير عن ذنبهم ، ولكنهم لا ينجون من آلام الموت »[١٢٢] .

٦ – علم السياسة

كتب تومس فى الفلسفة السياسية ثلاث مرات : فى شرحه لكتاب **السياسة** لأرسطو ، وفى **الخلاصة فى اللاهوت** ، وفى رسالة قصيرة تسمى : **فى حكم الأمراء** De regimine principum[*]. ويبدو لأول وهلة أن تومس إنما يُعيد أقوال أرسطو ، ولكننا إذا واصلنا القراءة أدهشتنا كثرة ما فى كتاباته من أفكار أصيلة قاطعة .

فهو يقول إن التنظيم الاجتماعى أداة أوجدها الإنسان بدلا من أعضاء الجسم للحصول على مطالبه والدفاع عن نفسه ، وإن المجتمع والدولة قد وجدا للفرد ، ولم يوجد الفرد للمجتمع والدولة ، وإن السيادة تأتى من عند الله وهى حق للشعب ؛ ولكن الشعب كثير العدد ، مشتت ، متقلب ، جاهل ، وهو لذلك عاجز عن أن يمارس حقوق السيادة بنفسه وبحكمة ؛ ولهذا فإنه يكل هذه السيادة إلى أمير أو زعيم آخر . وتوكيل الشعب من ينوب عنه على هذا النحو يستطاع إلغاؤه على الدوام ، و « لا يحتفظ الأمير بسلطة التشريع إلا من حيث هو ممثل لإرادة الشعب »[١٢٣] .

ويمكن أن ينيب الشعب عنه ممارسة سيادته عدداً كبيراً من الناس أو عدداً قليلا منهم أو فرداً واحداً . وتصلح الدمقراطية ، والأرستقراطية ، والملكية إذا صلحت القوانين وحسن تنفيذها . ويمكن القول بوجه عام إن خير

(*) لم يكتب تومس من هذه الرسالة إلا الكتاب الأول والفصول ١ – ٤ من الكتاب الثانى . أما بقية الرسالة فقد كتبها بطليموس اللوقى Ptolemy of Lucca .

أنواع الحكومات هو الحكومة الملكية الدستورية ، لأنها تمكن للوحدة ، والاستمرار ، والاستقرار . « وحكم الجماهير » كما يقول هوميروس « على يد الفرد خير من حكمهم على أيدى الكثيرين »(١٣٤) . غير أن الأمير أو الملك يجب أن يختاره الشعب من أية طبقة حرة من السكان(١٣٥) ؛ وإذ استبد الملك وجب خلعه بعمل منظم يقوم به الشعب(١٣٦) ، ويجب أن يظل على الدوام خادم القانون لا سيده .

والقانون ثلاثة أنواع : قانون طبيعى مثل « القوانين الطبيعية للكون » ؛ وإلهى كالقوانين الواردة فى الكتاب المقدس ، وبشرى أو وضعى كالقوانين التى تسنها الدولة . وقد أصبح النوع الثالث منها ضرورياً بسبب ما فى طباع الناس من انفعالات ، وبسبب قيام الدولة . ومن أجل هذا كان آباء الكنيسة يعتقدون أن الملكية الفردية تتعارض مع الشريعتين الطبيعية والإلهية ، وأنها نتيجة لنزعة الإنسان فى ارتكاب الآثام . ولكن تومس لا يعترف بأن الملكية تتعارض مع القوانين الطبيعية ؛ فهو يبحث فى حجج الشيوعيين أيامه ويرد عليهم كما يرد أرسطو بأن إذا كان كل واحد من الناس يملك كل شىء فإن أحداً من الناس لا يعنى بأى شىء(١٣٧) . غير أن الملكية الفردية — فى رأيه — وديعة عامة ، « فالإنسان يجب ألا يمتلك الأشياء الخارجية على أنها ملكه الخاص بل على أنها ملك عام ، وبذلك يكون على استعداد لأن ينقلها إلى غيره من الناس إذا ما احتاجوا إليها »(١٣٨) . وإذا ما اشتهى الإنسان الكثير الزائد من الثروة ، أو سعى إلى أكثر مما يحتاجه منها لحفظ مركزه فى الحياة ، كان طامعا أثيما(١٣٩) . « وكل ما يمتلكه بعض الناس أكثر من حاجتهم إنما يقصد به حسب القانون الطبيعى مساعدة الفقراء » و « إذا لم يوجد علاج آخر فإن من حق الإنسان أن يسد حاجته من ملك غيره ، بالاستيلاء عليه سراً أو جهراً »(١٣٠).

ولم يكن تومس الرجل الذى يجعل الاقتصاد علماً مملا غير شيق بفصله عن

الأخلاق . فكان يؤمن بحق الجماعة فى تنظيم أعمال الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والإشراف على الربا ، وبلغ منه أن طالب بتحديد « ثمن عادل » للخدمات والسلع . وكان ينظر بعين الريبة إلى عملية الشراء بثمن منخفض والبيع بثمن مرتفع . ويندد أشد التنديد بجميع أنواع المضاربة فى التجارة ، وبكل المحاولات التى تبذل للحصول على الكسب بالمهارة فى الاستفادة من تقلبات السوق(١٣١) . وكان يعارض فى الإقراض بفائدة ، ولكنه لا يرى إثما فى الاقتراض « لغرض طيب » من مقرض محترف(١٣٢)

ولم يكن أرقى من أهل زمانه فى نظرته إلى الاسترقاق ، فقد كان الفقهاء السوفسطائيون ، والرواقيون ، والرومان ، يعلمون أن الناس « بطبيعتهم » أحرار ؛ وكان آباء الكنيسة يوافقون على الرق ويفسرونه كما يفسرون الملك بأنه ناشئ من نزعة الإنسان الآثمة التى كسبها نتيجة لسقوط آدم . وبرر أرسطو صديق الأقوياء الرق بزعمه أنه نتيجة لعدم المساواة الطبيعية فى الإنسان . وحاول تومس أن يوفق بين هذه الآراء المتعارضة : فقال إنه لم يكن ثمة رق فى حالة البراءة ، أما بعد سقوط آدم فقد وجد أن من الخير إخضاع السذج للعقلاء ، لأن من لهم أجسام قوية وعقول ضعيفة قد أريد لهم بحكم الطبيعة أن يكونوا أرقاء(١٣٣) . لكن العبد ليس ملكا لسيده إلا بجسمه لا بروحه ؛ وليس العبد مرغما على قبول الاتصال الجنسى بالسيد ، ويجب أن تتبع قواعد الأخلاق المسيحية بأجمعها فى معاملة العبد .

٧ – الدين

وبدا لتومس أنه ما دامت المسائل الاقتصادية والسياسية فى آخر الأمر مسائل أخلاقية ، فإن من العدل أن يوضع الدين فى مرتبة أعلى من مرتبة السياسة والصناعة ، وأن تخضع الدولة فى مسائل الأخلاق لرقابة الكنيسة وإرشادها

وكلما سمت أغراض السلطة ازداد نبلها ؛ ويجب أن يخضع ملوك الأرض ، الذين يهدون الناس إلى السعادة الدنيوية ، لسلطان البابا الذى يهدى الناس إلى السعادة الأبدية . على أنه يجب أن تبقى الدولة صاحبة السلطان فى الشئون الدنيوية ، غير أن من حق البابا فى هذه الشئون نفسها أن يتدخل إذا خالف الحكام قواعد الأخلاق الصالحة أو تسببوا فى الإضرار بشعوبهم إضراراً كان يستطاع تجنبه . ولهذا فمن حق البابا أن يعاقب الملك المسىء أو يعفى رعاياه من يمين الولاء له ؛ وفوق هذا فإن من واجب الدولة أن تحمى الدين ، وتؤيد الكنيسة ، وتنفذ قراراتها[١٣٤] .

والمهمة العليا للكنيسة أن تهدى الناس إلى سبيل النجاة ؛ وليس الإنسان مواطناً فى هذه الدولة الأرضية وحدها ، بل هو فوق ذلك مواطن فى مملكة روحية أعظم إلى أبعد حد من أية دولة أخرى . وحقائق التاريخ الكبرى تنبئ أن الإنسان قد ارتكب جرماً لا حد له بعصيان الله ، فاستحق بهذا العصيان عقاباً لا حد له ، وأن الله الابن قد أصبح إنساناً وقاسى العار والموت ، وأنه قد خلق رصيداً من البركة المنجية يستطيع الإنسان أن ينجو به رغم خطيئته الأولى ؛ والله يهب من يشاء من هذه البركة ما يشاء ؛ وليس فى مقدورنا أن نتبين أسباب اختياره ، ولكن « ما من أحد من الناس قد بلغ من الجنون حداً يقول معه إن الجدارة هى سبب الاختيار الإلهى »[١٣٥] . وتتردد عقيدة بولس وأوغسطين الرهيبة فى أقوال تومس الرفيق الظريف :

« من الخير أن يسيّر الله الإنسان بقضائه وقدَره ، لأن الأشياء جميعاً خاضعة لمشيئته ... وإذ كان الناس قد هيئوا للحياة السرمدية بمشيئة الله ، فإن من مشيئة الله أيضاً أن يسمح لبعضهم أن يعجزوا عن بلوغ هذه الغاية ، وهذا هو ما يسمى « الشقاء » . . . وإذ كان قضاء الله وقدَره يشمل إرادته فى أن يهب البركة والمجد ، فإن الشقاء أيضاً يشمل إرادته فى أن يسمح لشخص ما أن يقع فى الخطيئة ؛

وأن يعاقب على تلك الخطيئة بعذاب الجحيم . . . « اختارنا فيه قبل تأسيس العالم »[١٣٦] .

ويبذل توماس ما وسعه من جهد ليوفق بين قضاء الله وقدَره وبين حرية البشر ، وبين لِمَ يجب على الإنسان الذى قُدّر له مصيره أن يعمل لكسب الفضيلة ، وكيف تستطيع الصلوات أن تؤثر فى الله الذى لا يتغير ولا يتحول ، وماذا يكون عمل الكنيسة فى مجتمع قسّم أفراده من قبل إلى ناجين ومعذَّبين ؟ وهو يجيب عن هذا بأن كل ما هنالك أن الله قد عرف من قبل ما سوف يختاره كل إنسان بحريته ؛ وهو يفترض أن الوثنيين جميعهم من المعذبين مع جواز استثناء عدد قليل منهم بعث الله إليهم بوحى شخصى خاص(*)[١٣٧] .

وأعظم ما يناله الناجون من السعادة هو فى رأيه رؤية الله ؛ وليس معنى هذا أنهم سيفهمونه ، إذ لا يفهم اللانهائىَّ غيرُ اللانهائى ؛ بيد أن المنعمين بما ينفخ فيهم من النعمة الإلهية سوف يشهدون جوهر الله[١٣٩] . وبما أن الخليقة كلها قد نشأت من الله فإنها ستعود إلى الله ، والنفس البشرية التى هى منحة من كرمه لا تستريح حتى تعود فتنضم إلى مصدرها . وهكذا تتم الدورة المقدسة دورة الخلق والعودة ، وتختتم فلسفة توماس كما بدأت بالله .

٨ – كيف استقبلت فلسفة توماس ؟

لقد رأت الكثرة الغالبة من معاصريه أنها تكديس فظيع للاستدلالات الوثنية شديدة الخطر على الدين المسيحى ؛ وصدمت مشاعرَ الرهبان الفرنسيس الذين كانوا يسلكون لمعرفة الله طريق الحب الصوفى الذى يقول به أوغسطين

(*) إن الفقرة التى تقول إن كثيراً من المنعمين فى الجنة يزيد نعيمهم بمشاهدة عذاب المعذبين توجد فى ملحق كتاب الخلاصة (٩٧ : ٧) وليست هذه الفقرة المخزية من أقوال توماس بل هى من أقوال ريچنلد البيرنوى[١٣٨] .

« نزعةُ » تومس « العقلية » ، ورفعُه العقل فوق الإرادة ، والفهم فوق الحب . وعجب الكثيرون كيف يمكن الدعاء والصلاة لإله فاتر ، سلبى ، يُعبد كالإله الموصوف فى كتاب **الخلاصة** ؟ وكيف يمكن أن يكون عيسى جزءاً من هذا المعنى المجرد ؟ وماذا كان يقول القديس فرانسس عن الله أو بأى شىء كان يتحدث إليه ؟ وبدا لهم قوله إن الجسم والنفس يكونان وحدة سيقضى على عقيدة خلود النفس وعدم فسادها ، وقوله إن المادة والصورة وحدة سيؤدى ، رغم إنكار تومس المتكرر ، إلى الانحدار إلى نظرية ابن رشد القائلة بأن العالم أزلى ، وإن المادة ، لا الصورة ، هى مبدأ الانفرادية سيحول دون التفرقة بين نفس ونفس ، وينحدر بنا إلى نظرية ابن رشد القائلة بوحدة النفس وخلودها اللاشخصى . وشر من هذا كله أن غلبة أرسطو على أوغسطين فى فلسفة تومس قد بدت للرهبان الفرنسيس كأنها انتصار للوثنية على المسيحية . ألا يوجد من الآن فى جامعة باريس معلمون وطلاب يرفعون كتب أرسطو فوق الأناجيل ؟

ودافعت المسيحية « السنية » عن نفسها فى الربع الثالث من القرن الثانى عشر عن فلسفة تومس الأرسطوطيلية ، كما قاوم أهل السنة المسلمون ابن رشد لاعتناقه فلسفة أرسطو ونفوه ، وكما حرق اليهود السنيون فى بداية القرن الثالث عشر كتب ابن ميمون لنزعته الأرسطوطيلية . فقد حدث فى عام ١٢٧٧ أن أصدر أسقف باريس بإيعاز البابا يوحنا الحادى والعشرين مرسوما باعتبار ٢١٩ قضية من قضايا تومس خروجا على الدين . وكان من بين هذه القضايا ثلاث « بنوع خاص » اتهم بها الأخ تومس ، وهى قوله إن الملائكة لا أجسام لها ، وإن كل واحد منهم يكون بمفرده نوعا منفصلا عن غيره ؛ وإن المادة أساس الانفرادية ؛ وإن الله لا يستطيع مضاعفة الأفراد فى نوع ما من غير المادة . وقال

الأسقف إن كل من يعتنق هذه العقائد يُعدّ بهذا العمل وحده محروما من الدين . وبعد أيام قلائل من صدور هذا المرسوم أقنع ربرت كلواردبى Robert Kilwardby أحد كبار الرهبان الدمنيك أساتذة جامعة أكسفورد بأن يندد ببعض عقائد تومس ومنها وحدة النفس والجسد فى الإنسان .

وكان قد مضى على وفاة تومس فى ذلك الوقت ثلاث سنين ، ولم يكن فى وسعة أن يدافع عن نفسه ، ولكن ألبرت أستاذه القديم ، اندفع من كولونى إلى باريس وأقنع رهبان فرنسا الدمنيك بأن يشدوا أزر زميلهم وأخيهم ؛ ودخل راهب فرنسيسى يدعى وليم ده لا مار William de la Mare فى المعركة برسالة سماها : Correctorium fratris Thomae يقول فيها إن تومس على حق فى ١١٨ نقطة ، فقام راهب فرنسيسى آخر يدعى يوحنا بكهام ، كبير أساقفة كنتربرى يندد رسميا بفلسفة تومس وينادى بالعودة إلى بونا فنتورا والقديس فرانسس . وانضم دانتى إلى المتنازعين فصاغ من فلسفة تومس فلسفة معدلة كانت الإطار العام الذى وضع فيه **الملهاة المقدسة** ، واختار تومس ليقوده على السلم الموصل إلى أعلى سماء . ودامت الحرب مائة عام أقنع بعدها الرهبان الدمنيك البابا يوحنا الثانى والعشرين أن تومس من القديسين ، وكان تقديسه (١٣٢٣) انتصاراً لفلسفته . ووجد المتصوفة من ذلك الوقت فى كتاب **الخلاصة**(١٤٠) أعمق وأوضح عرض للحياة الصوفية الفكرية . ولما عقد مجلس ترنت (١٥٤٥ — ١٥٦٣) وضع كتاب **الخلاصة** على المذبح إلى جانب الكتاب المقـــدس وكتاب القوانين الكنسية(١٤١) . وفرض إجناتيوس ليولا Ignatius Loyola على اليسوعيين أن يعلّموا فلسفة تومس ، وقرر البابا ليو الثالث عشر فى عام ١٨٧٩ ،

والبابا بندكت الخامس عشر فى عام ١٩٢١ أن تكون مؤلفات تومس الفلسفة الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ، وإن لم يعلنا أن هذه المؤلفات سليمة من الأخطاء ؛ وهذه الفلسفة تدرس الآن فى جميع كليات الروم الكاثوليك ؛ ولقد كسبت لها أنصاراً جدداً فى وقتنا الحاضر ، وإن كان لها نقاد من بين علماء الدين الكاثوليك ، وهى الآن من أقوى أنظمة التفكير الفلسفى تأثيراً وأبقاها على الزمن ، لا تقل فى ذلك عن الأفلاطونية والأرسطوطيلية .

وبعد فإن من السهل على من يقف الآن على كتفى السبعمائة العام الأخيرة أن يشير فى مؤلفات أكونوس إلى بعض العناصر التى لم تثبت الأيام صحتها . وإن مما يعيبه ويشرفه معاً أنه كان كثير الاعتماد على أرسطو ، وبقدر هذا الاعتماد كان يعوزه الابتكار ويظهر من الشجاعة ما أثار السبل للعقول فى العصور الوسطى . وعنى تومس بالحصول على تراجم دقيقة لأرسطو منقولة عن اللغة اليونانية مباشرة ، فكان لهذا يجيد معرفة مؤلفاته الفلسفية (لا العلمية) أكثر مما يجيد معرفتها أى مفكر آخر فى العصور الوسطى عدا ابن رشد . ولم يكن يستنكف أن يأخذ العلم عن المسلمين واليهود ، ويعامل فلاسفتهم باحترام صادر عن وثوقه بنفسه . وإنا لنجد فى نظامه الفلسفى قدراً كبيراً من السخف والأباطيل التى نجد مثلها فى جميع الفلسفات التى لا تتفق مع فلسفتنا ؛ وإن من أعجب الأشياء أن يكتب هذا الرجل المتواضع بمثل ماكتب من الطول عن الطريقة التى يعرف بها الملائكة ما يعرفون ، وعما كان عليه الإنسان قبل سقوطه ، وعما كان يؤول إليه أمر الجنس البشرى لولا رغبة حواء فى المعرفة . ولعلنا نخطئ إذ نفكر فيه على أنه فيلسوف ؛ فقد كان هو نفسه أميناً إذ سمى مؤلفه كتاباً فى علم الدين ، ولم يدع أنه يسير وراء العقل إلى حيث يقوده ، ويعترف أنه يبدأ بنتائجه ، وهو عمل يسمه معظم الفلاسفة بأنه خيانة للفلسفة وإن كانت كثرتهم تفعله . وقد كان

مجال بحثه أوسع مما جرؤ عايه مفكر بعده عدا اسپنسر ، وكان فى كل ميدان واضحاً هادئ المزاج بعيداً عن المغالاة يبحث عن الطريقة الوسطى المعتدلة ، ومن أقواله فى هذا المعنى « أن الرجل العاقل يخلق النظام »(١٤٢) . ولم يفلح فى التوفيق بين أرسطو والمسيحية ، ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصراً مؤزراً سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيراً إلى قاعة الدين ؛ ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان .

الفصل السابع

خلفاء تومس

يسرف المؤرخ على الدوام فى التبسيط ، ويتعجل فيعمد إلى حشد كبير من الأنفس والحوادث لا يستطيع قط أن يلم بها كل الإلمام أو يفهمها كل الفهم ، ويختار من بينها عدداً قليلا من الحقائق والوجوه يراها أطوع لقلمه من غيرها . وليس من حقنا أن نظن أن الفلسفة المدرسية معانى مجردة أزيلت منها آلاف الحقائق الغريبة ؛ بل علينا أن ننظر إليها على أنها اسم غامض غير دقيق يطلق على مئات الفلسفات المتناقضة والنظريات اللاهوتية التى كانت تعلّم فى مدارس العصور الوسطى من أيام أنسلم فى القرن الحادى عشر إلى أيام أكام Occam فى القرن الرابع عشر . والمؤرخ يخضع أشد الخضوع وأثقله على نفسه لقصر الوقت ونفاد الصبر الذى هو من طبيعة بنى الإنسان ؛ ويخط سطراً واحداً يحط به من قدر رجال خلّدوا أسماءهم فى أحد الأيام ولكنهم اختفوا الآن فى طيات التاريخ .

وكان من أعجب الشخصيات فى القرن الثالث عشر الملىء بذوى المواهب المتعددة من الرجال رامون لَل Ramon Lull أو ريمند لَلّى Raymond Lully (١٢٣٢؟ – ١٣١٥) . وقد وُلد فى پالما لأسرة قطالية Catalan وشق طريقه إلى بلاط جيمس الثانى فى برشلونة ، واستمتع بشباب صاخب ، ثم أخذ يضيّق نطاق عشقه حتى اكتفى بزوج واحدة . ولما بلغ سن الثلاثين نبذ على حين غفلة ملاذ العالم ، والجسم ، والشيطان ، ووهب نشاطه المتعدد النواحى للتصوف والمعارف الخفية ، وحب الإنسانية ، والتبشير بالدين ، والسعى للاستشهاد . ثم درس اللغة العربية ، وأنشأ كلية للدراسات العربية فى ميورقة ، وطلب إلى مجلس

فينا أن ينشئ مدارس للغات والآداب الشرقية تعد الناس للتبشير بين المسلمين واليهود . واستجاب المجلس لرغبته وأنشأ خمس مدارس من هذا النوع — فى رومة ، وبولونيا ، وباريس ، وأكسفورد ، وسلمنقة — كان فيها كراسى للغات العبرية والكلدانية ، والعربية . ولعل للى نفسه تعلم اللغة العبرية لأنه أصبح عالما متبحراً فى القبالة .

ويستحيل علينا أن نقسم مؤلفاته البالغ عددها ١٥٠ أصنافا . وحسبنا أن نسجلها هنا فنقول إنه فى شبابه أنشأ الأدب القطالى بان كتب عدة مجلدات من الشعر الغزلى ؛ ثم ألف باللغة العربية كتاباً ترجمه فيما بعد إلى اللغة القطالية «كتاب التفكير فى الله» . وليس هذا الكتاب مجرد حلم صوفى بل هو موسوعة فى علوم الدين من ألف ألف كلمة (١٢٧٢) . وبعد عامين من ذلك الوقت ، وكأنما بدل نفسه ، ألّف كتاباً فى حرب الفروسية ، وألف فى الوقت عينه تقريباً كتاباً فى التربية سماه «كتاب فى عقائد الشباب» ، ثم جرّب حظه فى الحوار الفلسفى ونشر فيه ثلاثة كتب يعرض فيها وجهات النظر الإسلامية ، واليهودية ، والمسيحية اليونانية ، والمسيحية الرومانية ، والتتارية ، بتسامح ونزاهة ، ورفق ، تثير الدهشة . وألف حوالى عام ١٢٨٣ رواية دينية طويلة سماها **بلانكيرنا** Blanquerna حكم الخبراء الذين أوتوا الصبر على قراءتها بأنها «من روائع آداب العصور المسيحية»[١٤٣] . ثم أصـــدر فى رومة عام ١٢٩٥ موســـوعة أخرى سماها **شجرة العلم** Arbre de sciencis حوت أربعة آلاف سؤال فى ستة عشر علماً مع أجوبة عنها موثوق بها . وحارب أثناء مقامه فى باريس (١٣٠٩ — ١٣١١) فلسفة ابن رشد التى كانت آثارها لا تزال باقية فيها ، وذلك فى عدة مؤلفات دينية صغرى وقعها بإمضاء دقيق دقة لم يعتدها وهو Phantasticus «الواهم» وظل خلال حياته الطويلة يصدر مجلدات فى العلوم والفلسفة بلغت من الكثرة حداً يصعب معه حصرها .

وافتتن فى أثناء هذه المشاغل كلها بفكرة استهوت عقول العباقرة فى هذه الأيام — وهى أن جميع قوانين المنطق وعملياته يمكن ردها إلى صور رياضية أو رمزية . فيقول ريمند إن « الفن العظيم » — فن المنطق — هو كتابة المدركات الأساسية للفكر البشرى على مربعات متحركة ، ثم جمع هذه المربعات فى أوضاع مختلفة ليس القصد منها رد جميع الأفكار الفلسفية إلى معادلات وأشكال فحسب ، بل يقصد بها كذلك أن تثبت بالمتساويات الرياضية حقائق الدين المسيحى . وكان ريمند يتصف بما يتصف به بعض مرضى العقول من دعة ولطف ، فيأمل أن يرد المسلمين عن دينهم إلى الدين المسيحى بتأثير فنه المقنع . ورحبت الكنيسة بهذه الثقة ، ولكنها لم ترض عما اقترحه من رد جميع أصول الدين إلى العقل ووضع التثليث والتجسد على مشرحة منطقه(١٤٤) .

واعتزم فى عام ١٢٩٢ أن يستعيض عن استيلاء المسلمين على فلسطين بتحويل أفريقية الشمالية إلى بلاد مسيحية ، فعبر البحر إلى تونس ، ونظم فيها سراً جالية مسيحية صغيرة ، ثم قبض عليه فى عام ١٣٠٧ أثناء رحلة تبشيرية إلى تلك البلاد وجىء به أمام قاضى القضاة . وعقد القاضى مناقشة علنية بين ريمند وبعض علماء الدين المسلمين . ويقول صاحب سيرة ريمند إنه انتصر فيما دار من نقاش وإنه ألقى فى السجن ، ولكن بعض التجار المسيحيين أفلحوا فى إنقاذه وإعادته إلى أوربا . ويلوح أنه كان يتوق إلى الاستشهاد فعبر البحر مرة أخرى إلى بوجى فى عام ١٣١٤ ، وأخذ يدعو للمسيحية علناً فرجمه الغوغاء المسلمون بالحجارة حتى مات (١٣١٥) .

وإذا انتقلنا من ريمند للى إلى چون دنز اسكوتس John Duns Scotus كنا كمن ينتقل من **طارمو إلى كلافيكورد الصافية المزاج**(*) . واشتق

(*) تمثيليتان غنائيتان أولاهما لبيزيه والثانية لباخ . (المترجم)

اسما چون الثانى والثالث من مسقط رأسة فى دنز Duns من أعمال بروكشير Bérwick-shire (؟) ولما بلغ الحادية عشرة من عمره أرسل إلى دير للرهبان الفرنسيس فى دنفريز Dunfries، وانضم إلى طائفة الرهبان رسمياً بعد أربع سنين من دخول الدير . وتلقى العلم فى جامعتى أكسفورد وباريس ثم علّم أكسفورد، وباريس، وكولونى، ومات وهو كهل فى الثانية والأربعين من عمره (١٣٠٨)، بعد أن خلف وراءه عدداً جماً من المؤلفات معظمها فيما وراء الطبيعة تمتاز كلها بالغموض والخفاء بدرجة يندر أن تظهر مرة أخرى فى الفلسفة إلا إذا ظهر اسكوتس جديد . والحق أن عمل دنز اسكوتس ليشبه إلى حد كبير عمل كانت الذى جاء بعده بخمسة قرون — فهو يقول إن العقائد الدينية يجب أن يدافع عنها بأنها لا غنى عنها من الوجهة الأخلاقية العملية لا بتماسكها المنطقى . ورضى الرهبان الفرنسيس أن يفيدوا الفلسفة لينقذوا أوغسطين من تومس الدمنيكى فاتخذوا دكتورهم الشاب بطلا لهم ونصيراً، وانضووا تحت لوائه، فى حياته وبعد مماته، طوال عدة أجيال من الحرب الفلسفية .

وكان دنز هذا ذا عقل من أشد العقول توقداً وذكاء فى تاريخ العصور الوسطى . فقد درس الرياضة وغيرها من العلوم، وتأثر فى أكسفورد بجروستستى وروچر بيكين، فتكونت لديه فكرة صارمة عما يجب أن يكون البرهان الصحيح، وطبق هذا الاختبار على فلسفة تومس فقضى بذلك على تهوره فى اقتران الدين والفلسفة، ولما يكد هذا الاقتران يتم شهر العسل . وكان دنز يفهم الطريقة الاستقرائية فى المنطق ولكنه كان يقول عكس ما يقوله فرانسس بيكن بالضبط، وهو أن كل استقراء، أى برهان — من النتيجة إلى العلة — برهان غير موثوق به، وإن البرهان الحقيقى الوحيد هو البرهان الاستنتاجى أى إظهار أن نتائج معينة لا بد أن تحدث من طبيعة العلة ذاتها . مثال هذا أننا إذا أردنا أن نثبت وجود الله فإن علينا أن ندرس أولا علم ما وراء الطبيعة — أى أن

تدرس « الكائن بوصفه كائناً » ، ثم نصل عن طريق المنطق الدقيق إلى الصفات الجوهرية للعالم . وفى عالم الجواهر لا بد أن يكون هناك جوهر هو مصدر كل ما عداه منها وهو **الكائن الأول** ؛ وهذا الكائن الأول هو الله .
ويتفق دنز مع تومس فى أن الله هو **الحقيقة الخالصة** ولكنه لا يفهم تلك العبارة على أنها الواقعية الخالصة بل يفهم منها أنها الفاعلية الخالصة . فالله هو أولا إرادة لا عقل ، وهو علة العلل جميعها ، وهو أزلى ، ولكن هذا هو كل ما نستطيع أن نعرفه عنه بطريق العقل . أما أنه إله الرحمة ، وأنه ثلاثة فى واحد ، وأنه خلق العالم فى وقت ، وأنه يسيطر على جميع الأشياء بقدرته — هذه وجميع عقائد الدين المسيحى كلها تقريباً يجب أن نؤمن بها أى أن نصدقها اعتماداً على الكتب المقدسة والكنيسة ولكنا لا نستطيع إثباتها بالفعل . والحق أننا فى الساعة التى نبدأ فيها باستخدام العقل فى إثبات وجود الله نقع فى متناقضات تحيرنا (وهى التى يسميها كانْت « متناقضات العقل الخالص ») .
وإذ كان الله قادراً على كل شىء ، فهو علة كل النقائص ، ومنها كل الشرور ؛ وإذن تكون العلل الثانوية ومنها الإرادة البشرية ، وهماً لا حقيقة ولكى نتلافى هذه النتائج الهدامة ، ولما كانت العقيدة الدينية لازمة للحياة الأخلاقية (وهو ما يسميه كانت « العقل العملى ») فإن من الحكمة ألا نلجأ إلى فلسفة تومس التى تحاول أن تثبت الدّين بالفلسفة ، وأن نقبل عقائد الدين بالرجوع إلى الكتاب المقدس وإلى الكنيسة(١٤٥) . وليس فى مقدورنا أن نعرف الله ولكننا قادرون على أن نحبه ، وهذا الحب خير من المعرفة(١٤٦) .

ودنز فى علم النفس « واقعى » من الطراز الدقيق الخاص به : فالكليات عنده حقيقة موضــوعية بمعنى أن تلك المظاهر الموحدة التى يجردها العقل من الأجسام المتماثلة ليكون منها فكرة عامة ، لابد أن تكون موجودة فى الأجسام ، وإلا لما استطعنا أن ندركها ونجردها . وهو يتفق مع تومس فى أن جميع المعرفة

الطبيعية مستمدة من الحواس ، أما فيما عدا هذا فإنه يخالفه فى جميع آرائه الفلسفية . فهو يقول إن أساس الانفرادية ليس هو المادة بل الصورة ، والصورة بمعناها الضيق الدقيق الذى نستطيع أن نقول عنها « هـــذه » haecceitas — أى الصفات الخاصة والعلامات المميزة للشخص أو الشىء الفردى . وليست مواهب النفس مُميَّزة بعضها عن بعض ، وليست من النفس ذاتها . وليست موهبة النفس الأساسية هى الفهم بل هى الإرادة ، فالإرادة هى التى تعين الإحساس أو القصد الذى يجب أن يتجه إليه العقل ، والإرادة voluntas وحدها لا قوة الحكم (arbitrium) هى الحرة ؛ ومن رأيه أن قول تومس إن تعطشنا للاستمرار وللسعادة الكاملة يثبت خلود النفس قول مبالغ فيه لأنه يمكن تطبيقه على كل حيوان فى الحقول ، وليس فى مقدورنا أن نثبت الخلود الشخصى ، بل علينا أن نؤمن به لا أكثر .

وكان فى وسع الرهبان الدمنيك أن يروا فى دنز انتصار الفلسفة الغربية على الفلسفة الإسلامية ، كما كان الرهبان الفرنسيس يدعون أنهم يرون فى تومس انتصار أرسطو على الأناجيل ، ففلسفة ما وراء الطبيعة عنده هى فلسفة ابن رشد ، وفلسفة شرائع الكون هى فلسفة ابن جبيرول ، ولكن الحقيقة الأساسية الداعية إلى الأسى فى اسكوتس هى تخليه عن محاولته إثبات العقائد المسيحية الأساسية بالالتجاء إلى العقل . واشتط أتباعه فذهبوا فى هذه المسألة إلى أبعد من هذا ؛ وأخرجوا عقائد الدين واحدة بعد واحدة من ميدان العقل ، وضاعفوا بذلك ما وضعه من الفروق والمميزات الدقيقة إلى حد جعل لفظ « الدنزى » فى إنجلترا يعنى الأبله المولع بالتقسيم الشَّعرى ، والسوفسطائى : البليد والغبى(*) . وأبى الذين يحبون الفلسفة أن يخضعوا لعلماء اللاهوت الذين نبذوا الفلسفة وتنازعت الدراستان وافترقتا ؛ وأدى رفض الدين للعقل إلى رفض العقل للدين ، وانتهت بذلك المغامرة الجريئة الكبرى التى قامت فى عصر الإيمان .

(*) dunce واللفظ مشتق من اسمه duns . (المترجم)

وبعد فقد كانت الفلسفة المدرسية مأساة يونانية تكمن فى جوهرها الأسباب التى قضت عليها . ذلك أن فى محاولتها إثبات الدين عن طريق العقل اعترافا ضمنيا بسلطان العقل ، وأن اعتراف دنز اسكوتس وغيره بأن الدين لا يمكن إثباته بالعقل قد حطم الفلسفة المدرسية ، وأضعف الدين فى القرن الرابع عشر إضعافا أدى إلى نشوب الثورة على طول جبهة العقائد الكنسية . لقد كانت فلسفة أرسطو هدية يونانية للمسيحية اللاتينية ، وكانت أشبه بجواد طروادة يخفى فى باطنه ألف عنصر من العناصر المعادية لهذا الدين . ولم تكن هذه البذور التى نبتت منها النهضة والاستنارة « هى انتقام الوثنية » من المسيحية فحسب ، بل كانت فوق ذلك انتقاما للإسلام على غير علم منه . فقد غزت المسيحية بلاد فلسطين ، وأخرجت المسلمين من أسبانيا كلها تقريبا فنقلوا علومهم وفلسفتهم إلى أوربا الغربية ، وكانت هذه العلوم والفلسفة قوة من القوى العاملة على تفكك المسيحية وتفرقها ، وكان ابن سينا وابن رشد ، كما كان أرسطو ، هما اللذين بثا جراثيم النزعة العقلية فى أوربا المسيحية .

ولكن مهما يكن من عيوب المغامرة المدرسية فإن شيئا منها لا يمكن أن يغشى لألاءها الساطع . لقد كانت مغامرة جريئة مشهورة جرأة الشباب وتهوره ؛ وكان لها ما للشباب من إفراط فى الثقة وإسراف فى الجدل ؛ وكانت صوت أوربا الجديدة الناقهة التى كشفت من جديد قوة العقل المثيرة . ولقد استمتعت الفلسفة المدرسية فى خلال القرنين اللذين سمت فيهما إلى عليائها بحرية فى البحث ، والتفكير ، والتعليم ، لا نكاد نجد ما يفوقها فى جامعات أوربا فى هذه الأيام ؛ وذلك على الرغم من المجالس التى كانت تطارد الإلحاد وبالرغم من محاكم التفتيش ؛ واستطاعت بمعونة فقهاء القانون فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أن تشحذ عقول الغربيين بما صاغته من أدوات المنطق ومصطلحاته ، وبالاستدلال الدقيق

المتقن الذى لا يفوقه فى الفلسفة الوثنية شيء . وما من شك فى أن هذه السهولة فى الجدل قد أسرف فيها إسرافا كبيراً ، وأنها ولدت الجدل المفعم بالحشو ولغو الكلام « والتفتيت المدرسى » الذى لم يثر عليه روچر بيكن وفرانسس بيكن وحدهما ، بل ثارت عليه أيضاً العصور الوسطى نفسها(*) . ومع هذا فإن كفة الخير فى هذا التراث ترجح كفة الشر . ذلك أن « المنطق ، وعلم الأخلاق ، وما وراء الطبيعة » على حد قول كندورسيه Condorcet « مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من دقة لا يعرفها الأقدمون أنفسهم » ، كما يقول سير وليم همنتن إن « اللغات العامية مدينة للفلسفة المدرسية بما فيها من إحكام ودقة تحليلية »(١٤٩) ، وإن أكثر ما فى العقل الفرنسى من صفات خاصة ينفرد بها عما عداه — وهى حبه المنطق ، ووضوحه . ودقته — قد كوّنه المنطق أيام مجده فى مدارس فرنسا أثناء العصور الوسطى .

وكانت الفلسفة المدرسية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر تقدما ثوريا فى التفكير البشرى أو فى إعادته إلى سابق عهده . ذلك أن التفكير « الحديث » يبدأ بنزعة أبلار العقلية ، ويسمو إلى ذروته الأولى فى وضوح تومس أكوناس ومغامرته ، ويصاب بهزيمة مؤقتة على يد دنز اسكوتس ، يفيق منها على يد أكَّام ، ويستحوذ على البابوية حين يخضع ليو العاشر لسلطانه ، وعلى المسيحية حين يقبض على إرزمس Erasmus ، ويضحك بأعلى صوته فى ربليه ، ويبتسم فى منتانى ، ويصخب فى ڤلتير ، وينتصر متهكما فى هيوم ، ويحزن على ما فاته من نصر فى أناطول فرانس . ولقد كان الاندفاع وراء العقل فى العصور الوسطى هو الذى أقام هذه الطائفة من الفلاسفة المشهورين ذوى الأسماء اللامعة والعقول الباهرة .

(*) يحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis عن شاب قضى خمس سنين يدرس الفلسفة فى باريس على نفقة أبيه الذى لم يكن موفور المال ، فلما عاد أثبت لأبيه بمنطقه القاسى الصارم أن ست بيضات موضوعة على المائدة كانت اثنتى عشرة بيضة ، فما كان من الأب إلا أن أكل البيضات الست التى كان فى وسعه أن يراها وترك الأخرى لولده(١٤٨) .

الباب السابع والثلاثون

العلوم المسيحية

١٠٩٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

البيئة السحرية

كان الرومان فى أوج مجدهم الإمبراطورى يقدرون العلوم التطبيقية ، ولكنهم كادوا ينسون علوم اليونان البحتة . وإنا لنجد منذ العهد القديم فى كتاب **التاريخ الطبيعى** تأليف بلنى الأكبر خرافات يظنها الناس من اختراع العصور الوسطى ، ولا تكاد تخلو منها صحيفتان من ذلك الكتاب . ولقد تآزرت قلة عناية الرومان والمسيحيين بالعلوم حتى كادت تجدب البلاد منها قبل أن يغزوها البرابرة بزمن طويل وينثرون حطام المجتمع المدمر فى سبيل انتقال الثقافة . ودفن ما بقى فى أوربا من علوم اليونان فى مكتبات القسطنطينية ، وحتى هذا القليل الباقى امتدت إليه يد التدمير حين نهبت المدينة فى عام ١٢٠٤ . وهاجرت علوم اليونان فى القرن التاسع إلى بلاد المسلمين عن طريق الشام ، ونهبت أفكارهم فقامت فى بلادهم نهضة ثقافية من أعظم النهضات وأكثرها إثارة للدهشة فى التاريخ كله ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا المسيحية تجاهد للخروج من ظلمات الخرافات والهمجية .

وكان لا بد للعلوم والفلسفة فى العصور الوسطى أن ينمو غرسهما فى جو من

الأساطير ، والخرافات ، والمعجزات ، والفأل ، والطيرة ، والعفاريت ، والهولات ، والسحر ، والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، وهى العقائد التى لا تنتشر إلا فى عصور الفوضى والخوف . كل هذه كانت توجد فى العالم الوثنى ، ولا تزال توجد فى هذه الأيام ، ولكنها يخفف من حدتها فكاهة المدنية والعقول المستنيرة . وكانت ذات سلطان قوى عند الأقوام الساميين ، وأضحت لها الغلبة بعد أيام ابن رشد وابن ميمون ، وحطمت فيما بين القرن السادس والقرن الحادى عشر أسوار الثقافة فى غربى أوربا ، وغمرت عقول الناس فى العصور الوسطى فى بحر زاخر من الآراء الغامضة الخفية والسذاجة التى تصدق كل ما يقال مهما كان بعيداً عن المعقول . وحسبنا أن نذكر مثلا لذلك أن أوغسطين كان يعتقد أن آلهة الوثنيين لا تزال موجودة فى صورة عفاريت ، وأن جن الحراج وجنياتها حقيقة[1] . كما كان أبلاريظن أن الشياطين تستطيع أن تقوم بأعمال السحر لمعرفتها الوثيقة بأسرار الطبيعة[2] . وكان ألفنسو الحكيم يؤمن بالسحر ويقبل النبوءات عن طريق النجوم[3] ؛ وإذ كان هذا هو اعتقاد أولئك الرجال فكيف يشك فيه من هم أقل منهم شأناً ؟

وتسربت طائفة كبيرة من الكائنات الخفية غير الطبيعية من الوثنية إلى المسيحية ، وكانت فى الوقت الذى نتحدث عنه لا تزال تتسرب إليها من ألمانيا واسكنديناوة وأيرلندة فى صورة سحرة ، وجن ، ومردة ، وجنيات ، وأغوال وهولات عجيبة ، وشياطين وعفاريت تمتص الدماء . وظلت خرافات جديدة تدخل أوربا من بلاد الشرق ؛ فكان الأموات يمشون فى الهواء فى صورة أشباح ، وكان الخلائق الذين باعوا أنفسهم للشيطان يجوسون خلال الغابات والحقول كما كانت تجوس خلالها الذئاب ؛ وكانت أرواح الأطفال الذين ماتوا قبل أن يعمدوا تغشى المستنقعات وتظهر للناس فى صورة غاز المستنقعات المضىء ؛ ولما أن رأى القديس إدمند رتش St. Emund Rich جماعة من الغربان السود أدرك من

فوره أنها سرب من الشياطين جاءت لتحمل روح غراب فى تلك المنطقة[٤]؛ وكانت كثير من قصص العصور الوسطى تقول إنه إذا أخرج شيطان من جسم رجل ، فإن فى مقدور من حوله أن يروا ذبابة كبيرة سوداء تخرج من فمه[٥]؛ وكانت دنيا الشياطين لا يعتريها الضعف مطلقاً .

وكانت مئات الأشياء — كالأعشاب ، والحجارة ، والتمائم ، والأقراط ، والجواهر — تلبس لكى ترد بقوتها السحرية الشياطين وتأتى للابسها بالحظ الطيب . وكان حذاء الفرس مجلبة للحظ الطيب لأنه على شكل الهلال ، الذى كان فى وقت ما إلهة معبودة ، وكان الملاحون الذين هم تحت رحمة العناصر الطبيعية ، والفلاحون الذين تتحكم فيهم تقلبات الأرض والسماء ، يرون خوارق الطبيعة أينما ساروا ، ويعيشون فى جو من الخرافات والأوهام . وانتقل الاعتقاد بأن لبعض الأعداد قوى سحرية من فيثاغورس عن طريق الآباء المسيحيين : فكان رقم ٣ وهو عدد الثالوث المقدس أكثر الأعداد قداسة ، وكان يرمز إلى النفس البشرية ؛ وكان الرقم ٤ يمثل الجسم ؛ ورقم ٧ وهو مجموع الرقمين يرمز إلى الإنسان الكامل ؛ ومن ثم كانت فضائل الرقم ٧ — سبعة أعمار الإنسان ، والكواكب السبعة ، والسبع الفضائل الرئيسية ، والخطايا السبع المهلكة . وكانت عطسة فى غير الوقت المناسب نذير سوء ، وكان من الخير أن يتقى شرها بعبارة « يرحمك الله » ، كلما حدثت . وكان مزيج من الدواء يعطى لتوليد الحب أو القضاء عليه ؛ وكان منع الحمل ببصق ثلاث مرات فى فم ضفدعة ، أو إمساك حصاة من حجر اليشب باليد أثناء الجماع[٦] . وكان أجوبار Agobard المستنير كبير أساقفة ليون Lyons فى القرن التاسع عشر يشكو من أن المسيحيين يؤمنون بهذه السخافات التى لم يكن يستطيع الإنسان قبل ذلك الوقت أن يحمل الكفرة على تصديقها[٧] » .

وقاومت الكنيسة وثنية هذه الخرافات ، ونددت بكثير من المعتقدات

وأعمال الشعوذة ، وعاقبت مرتكبيها بضروب من الكفارات متدرجة فى صرامتها ، فكانت تندد بالسحر الأسود — الالتجاء إلى العفاريت لنيل السلطان على الحوادث — ، ولكن هذا الضرب من السحر كان واسع الانتشار فى ألف مكان خفى . وكان الذين يمارسونه يوزعون سراً كتاب اللعنة المحتوى على أسماء العفاريت الكبرى ومساكنها ، وقواها الخاصة(٨) . وكان كل إنسان تقريبا يؤمن ببعض الوسائل السحريه التى تحول مقدرة الكائنات فوق الطبيعية إلى غايات محبوبة . وهاهو ذا يوحنا السلزبرى يحدثنا عن ضرب من السحر يستخدمه شماس وقس وكبير أساقفة(٩) . وكان أبسط أنواع السحر ما يحدث بتلاوة الرقية وهى عبارة تتلى عدة مرات فى العادة ؛ وبها يمكن اتقاء شر ، وشفاء من مرض ؛ وإبعاد عدو من الطريق . وأكبر الظن أن معظم المسيحيين كانوا يعدّون علامة الصليب ، والصلاة الربانية ، والسلام عليك يا مريم Ave Maria رقى سحرية ، ويستخدمون الماء المقدس ، والعشاء الربانى على أنهما من الطقوس السحرية ذات الآثار المعجزة .

وكاد الاعتقاد بوجود النساء الساحرات يكون عاما فى ذلك الوقت ، فهاهو ذا كتاب التوبة الذى وضعه أسقف إكستر Exter ينـــدد بالنساء اللائى يدعين القدرة على تبديل عقول الرجال بضروب السحر ، كتبديل الكره حُبًّا ، والحب كُرهاً ، أو « سحر بضائع الناس وسرقتها » ، أو « يدعين القدرة على أن يركبن فى بعض الليالى على ظهور بعض الدواب مع حشد من العفاريت فى صورة النساء ، وعلى أن ينضممن إلى تلك الجماعات »(١٠) — وذلك هو « سبت الساحرات » الذى ذاعت سمعته السيئة فى القرن الرابع عشر . وكان من ضروب سحر النساء السهلة صنع صورة من الشمع للضحية المقصودة ، وإنقاذ الإبر فيها ، وتلاوة صيغ من اللعنات عليها ؛ وقد اتهم وزير من وزراء فليب الرابع بأنه استأجر ساحرة لتفعل هذا بصورة الملك . وكان من المعتقدات المنتشرة أن بعض النساء يستطعن أن

يؤذين أو يقتلن بنظرة من « عيونهن الحاسدة » . وكان برثولد الرچنز برجى Berthold of Regenesburg يظن أن سيلتى فى الجحيم من النساء أكثر ممن سيلقى فيها من الرجال لأن كثيرات من النساء يمارسن فنون السحر — فلديهن « رُقىً للحصول على الزواج ، ورقى للزواج ، ورقى قبل مولد الطفل ، ورقى قبل التعميد ... ومن عجب أن الرجال لا يفقدون عقولهم بسبب فنون السحر الرهيبة التى تمارسها النساء عليهن »(١١) . وكانت قوانين القوط الغربيين تتهم النساء باستحضار العفاريت ، وبتقريب القرابين للشياطين ، وبإثارة العواصف وما إلى ذلك ، وتأمر بأن تحلق رؤوس من تثبت عليهن هـذه الجرائم ، وبجلدهن مائتى جلدة(١٢) . وكانت قوانين كانوت Cnut فى انجلترا تعترف بأن من المستطاع قتل إنسان بالسحر . وكانت الكنيسة فى بادئ الأمر سهلة مع أصحاب هذه العقائد الشعبية ، ترى فيها بقايا وثنية لن تلبث أن تزول ولكن الذى حدث كان عكس هذا ، فقد أخذت تزيد وتنتشر ؛ حتى إذا كان عام ١٢٩٨ شنت محكمة التفتيش حملة قوية بغية القضاء على السحر بحرق الساحرات علناً . ذلك أن الكثيرين من رجال الدين كانوا يعتقدون مخلصين أن من النساء من كن على صلة بالعفاريت ، وأن من الواجب أن يحمى المؤمنون من رقاهن السحرية . ويؤكد لنا قيصريوس الهسترباخى Caesarius of Heisterbach أن كثيرين من الرجال فى أيامه يتخالفون مع الشياطين(١٣) ، ويقال إن من يمارسون السحر الأسود كانوا يحتقرون الكنيسة ويسخرون من شعائرها بأن يعبدوا الشيطان بقداس أسود(١٤) . وكان كثيرون من المرضى وضعاف النفوس يعتقدون أنهم قد لبستهم العفاريت ؛ ولربما كان القصد من الأدعية ، والصيغ ، والاحتفالات التى تتلى أو تقام لإخراج هذه العفاريت والتى تستخدمها الكنيسة لهذا الغرض ، أن تتخذ علاجا نفسانياً لتهدئة عقول المخرفين .

وكان الطب فى العصور الوسطى إلى حد ما فرعاً من اللاهوت والشعائر

الدينية ؛ فقد كان أوغسطين يظن أن أمراض الآدميين تسببها العفاريت ، ووافقه لوثر على ظنه هذا ؛ وبدا من ثم أن علاج الأمراض بالصلوات ، وعلاج الأوبئة بالمواكب الدينية وإقامة الكنائس ، أمر يتفق مع المنطق السليم . ومن أجل هذا بنيت كنيسة سانتا ماريا دلاسالوتى Santa Matia della Salute فى البندقية لمقاومة طاعون ؛ وقد شفيت تلك المدينة — على حد قولهم — من وباء الزحار بفضل الصلوات التى أقامها القديس جربولد Gerbold أسقف بايو Bayeux[١٥] . وكان الأطباء الصادقون يرحبون بما يسديه الإيمان بالدين من عون لنجاح وسائل العلاج ، فكانوا يوصون بإقامة الصلوات ، ولبس التمائم[١٦] ؛ ولهذا نجد منذ عهد إدورد المعترف لا بعد الحكام الإنجليز يباركون الخواتم لعلاج الجذام[١٧] . وكان الملوك الذين نالوا القداسة بلمس المخلفات الدينية يشعرون أن فى مقدورهم علاج المرضى بوضع أيديهم عليهم ؛ وكان يظن أن المصابين بالداء الخنازيرى يستجيبون أكثر من غ هم للمس الملوك ؛ ولهذا سمى هذا المرض « داء الملك King's evil » . وما أكثر ما تحمل القديس لويس من العناء الطويل فى مس المصابين بهذا الداء ، ويقال إن فليب قالوا « مس » ألفاً و خمسمائة من الأشخاص فى جلسة واحدة[١٨] .

وكان ثمة وسائل سحرية للمعرفة وللصحة جميعاً ، فقد انتشرت فى العصور الوسطى كلها معظم الوسائل الوثنية التى كانت تتبع للتنبؤ بالغيب أو رؤية الغائبين على الرغم من تنديد الكنيسة بهذه الوسائل ؛ مثال ذلك أن تومس أبكت Thomas à Becket أراد أن يسدى النصح إلى هنرى الثانى فى مشروعه لغزو بريطانى فاستشار لذلك عرّافاً بزجر الطير ومراقبة طيرانها ، وقارئ كف عرف مصير الحملة بدراسة خطوط يده[١٩] . ويدعى قارئو الكف أن « علمهم » هذا مؤيد من عند الله ، ويستدلون على صدق السحر بآية من سفر الخروج (الآية الثامنة عشرة من الأصحاح الثانى والعشرين) التى تقول : لا تدع ساحرة تعيش .

وكان غير هؤلاء من المتنبئين يحاولون معرفة الغيب بمراقبة حركات الرياح ، أو المياه ، أو الدخان المتصاعد من نار . وكان بعضهم يعلمون مواضع خبط عشواء على الأرض (أو أية مادة من مواد الكتابة) ويصلون هذه النقط بخطوط ، ويتنبئون بحظ السائل بالنظر فى الأشكال الهندسية التى تحدث بهذه الطريقة . ويقال إن بعضهم كانوا يتنبئون بالمستقبل باستحضار أرواح الموتى ؛ من ذلك أن ألبرتس جروتس Albertus Grotus استحضر – على حد قولهم – روح زوجة الإمبراطور فردريك بربرسا بناء على طلبه(٢٠) . ومنهم من كان يستشير كتب التنبؤ بالغيب ، كالكتب التى يقال إنها تحتوى على نبوءات السيبلات Sibyls أو مرلين Merlin أو سليمان . ومنهم من كان يفتح الكتاب المقدس أو الإنياذة فى غير موضع معين ، ويتنبأ بالمستقبل بقراءة الآية أو بيت الشعر الذى تقع أعينهم عليه . وكان أكثر المؤرخين جداً ووقاراً فى العصور الوسطى يجدون – كما وجد ليفى – أن الحوادث ذات البال قد عرفت قبل وقوعها إما مباشرة أو رمزاً ، بالنذر ، أو الرؤى ، أو النبوءات ، أو الأحلام . وكانت توجد أكداس من الكتب – ككتاب آرنلد الڤلانوڤى Arnold Villsnova – تعرض أحدث التفسيرات العلمية للأحلام – ولم تكن هذه التفسيرات أكثر سخفاً مما كتبه أشهر العلماء فى القرن العشرين . وكان الناس فى الزمن القديم يمارسون الأساليب المتبعة للتنبؤ أو الجلاء البصرى كلها تقريباً كما يمارسونها فى هذه الأيام .

غير أن زماننا الحاضر ، على الرغم مما بذل فيه من بعض الجهود ، لم يبلغ ما بلغه عصر الإيمان – فى الإسلام أو اليهودية أو المسيحية – من اعتقاد بأن المستقبل مكتوب فى النجوم كتابة لا يستطاع حل رموزها(*) . فإذا كان مناخ الأرض – على حد قولهم – ونمو النبات يتأثران تأثراً واضحاً بالأجرام السماوية ،

(*) لعل الكاتب يريد أن بعض المسلمين كانوا يعتقدون أن المستقبل مدون فى النجوم وربما كان هذا صحيحاً ولكن الدين الإسلامى نفسه لا يشير بهذا لا تصريحاً ولا تلميحاً . (المترجم)

فكيف لا تؤثر هذه الأجرام ، فى أحوال الناس والدول ، بل كيف لا تحدد هذه الأحوال تحديداً فتسيطر على نموهم ، وطبيعتهم ، وأمراضهم ، ومراحل حياتهم ، وخصوبتهم ، وما يفشو بينهم من أوبئة ، وما يقع لهم من أحداث وثورات ، وتقرر مصيرهم ؟ هذا ما كان راسخاً فى عقل كل إنسان تقريباً فى العصور الوسطى . وقلما كان يخلو بيت ملك أو أمير من منجم محترف . وكان الأطباء يحجمون مرضاهم ، كما لا يزال كثير من الفلاحين يبذرون حبهم ، حسب أوجه القمر ؛ وكانت معظم الجامعات تدرس مناهج فى التنجيم ، ويقصدون به « علم النجوم » ؛ وكان علم الفلك نفسه جزءاً من التنجيم ، وكان من أكبر أسباب تقدمه اهتمام الناس بالتنجيم وأغراضه . وكان العلماء الجادون يقررون أنهم وجدوا علاقات ثابتة منتظمة يمكن التنبؤ بنتائجها بين الأجرام السماوية والأرض ؛ فالذين يولدون وزحل فى أوجه يكونون باردى المزاج ، نكدين ، منقبضى الصدور ، والذين يولدون والمشترى فى أوجه يكونون معتدلى المزاج مرحين ؛ ومن يولدون تحت تأثير المريخ يكونون ملتهبى المزاج ذوى نزعة عسكرية ؛ ومن يولدون تحت تأثير الزهرة يتصفون بالرقة وكثرة النسل ؛ ومن يولدون تحت تأثير عطارد يصبرون خلائق متقلبين لا يثبتون على حال ؛ ومن يولدون والقمر فى كبد السماء يكونون سوداويين قد تصل حالهم إلى حد الجنون . وكانت قراءة طالع المولود تنبئ بحياتها كلها بالنظر إلى البرج الموجود وقت مولده . ولهذا فإن من يريد معرفة الطالع الصحيح لشخص ما يجب عليه أن ينظر إلى الساعة ويعرف بالدقة اللحظة التى ولد فيها ، وموضع النجوم بغاية الدقة والتحديد . ومن ثم كانت أهم الأغراض التى وضعت من أجلها الأزياح الفلكية هى المساعدة على معرفة هذه الطوالع .

وتبرز فى تلك الأيام أسماء المتبحرين فى هذه العلوم الخفية ؛ من هؤلاء بطرس الأبنوى Peter of Abano الذى كان ينزل بالفلسفة فيجعلها تنجيماً . وكان لآرنلد الفلانوفى الطبيب الشهير ولع بالسحر ؛ وكان سكوداسكولى

Cecco d'Ascoli (١٢٥٧ ؟ — ١٣٢٧) مدرس التنجيم فى جامعة بولونيا يفخر بأنه يستطيع قراءة أفكار أى إنسان ، أو يعرف ما يخبؤه فى يده إذا عرف تاريخ مولده . وأراد أن يشرح آراءه هذه فعمل على كشف طالع المسيح ، وأثبت أن البرج الذى كان فى السماء ساعة مولده قد جعل صلبه أمراً محتوماً . وأدانته محكمة التفتيش (١٣٢٤) ، وأرغم على إنكار دعواه ، وعفى عنه على شريطة أن يلزم الصمت ، وخرج إلى فلورنس ، ومارس التنجيم لعدد من العملاء ، ثم حرق علناً لأنه أنكر حرية الإرادة (١٣٢٧) . واتهم كثيرون من العلماء المخلصين لعلمهم — ومنهم قسطنطين الأفريقى ، وجربرت ، وألبرتس مجنس ، وروجر بيكن ، وفنسنت البوفيسى Vincent of Beauvais — بالسحر وبالاتصال بالشياطين لأن الناس لم يكونوا يصدقون أنهم حصلوا على علمهم بالوسائل الطبيعية . وكان ميخائيل اسكت هدفاً للريبة لأنه كتب رسائل ذائعة الصيت عن العلوم الخفية ، منها كتاب فى التنجيم ، وكتاب فى العلاقة بين الصفات الخلقية وصفات الجسم ، وكتابين فى الكيمياء الكاذبة . وكان ميخائيل يندد بالسحر ، ولكنه يسره أن يكتب عنه ، وقد ذكر ثمانى وعشرين طريقة للتنبؤ بالغيب ، ويبدو أنه كان يؤمن بها كلها[٢١] . وكان كمعظم معاصريه دقيق الملاحظة ، يجرى بعض التجارب ؛ ولكنه يقول إن حمل حجر اليشب أو الياقوت الأصفر يساعد الرجل على الامتناع عن الجماع[٢٢] . وقد بلغ من مهارته أن ظل حسن الصلة بفردريك الثانى والبابابوات ، ولكن دانتى الصلب الذى لا يقبل شفاعة جعل مثواه الجحيم .

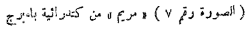
وكانت الكنيسة ومحكمة التفتيش جزءاً من البيئة المحيطة بالعلوم الأوربية فى القرن الثالث عشر . وكانت الجامعات تعمل فى الأغلب الأعم تحت سلطان الكنيسة ورقابتها . بيد أن الكنيسة كانت تترك للأساتذة قدراً كبيراً من حرية العقيدة ، وكانت فى كثير من الأحوال تشجع طلب العلم . من ذلك أن

ولیم الأوڤرنی أسقف باریس (المتوفی عام ١٢٤٩) ، كان يناصر البحث العلمي ، ويسخر من الذين يتسرعون فيرون فى كل حادثة غير مألوفة عملا من أعمال الله مباشرة . وقد برع جروستستى أسقف لنكلن فى دراسة العلوم الرياضية ، والبصريات ، وفى العلوم التجريبية ، براعة جعلت روجر بيكن ، يضعه منزلة أرسطو . ولسنا نعرف أن طائفتى الرهبان الدمنيك أو الفرنسيس قد أثارتا اعتراضاً على الدراسات العلمية التى قام بها ألبرتس مجنس أو روجر بيكن ؛ أما القديس برنار وبعض المتحمسين المتزمتين فكانوا يعارضون فى طلب العلم ؛ ولكن الكنيسة لم تأخذ برأيهم هذا(٢٣) ؛ وكانت ترى أن من الصعب عليها أن ترضى بتشريح جثث الآدميين لأن من عقائدها الأساسية أن الإنسان خلق فى صورة الله ، وأن الجسم والروح كليهما سيقومان من القبر . وكان المسلمون واليهود يرون معها هذا الرأى بعينه(٢٤) ، كما كانت تقول به الكثرة الغالبة من الناس(٢٥) . وقال جيـــدو الڤچيڤانوى Guido of Vigevano فى عام ١٣٤٥ عن التشريح إنه « محرم بأمر الكنيسة »(٢٦) . ولكننا لانجد مايحرمه فى أوامرها قبل مرسوم البابا بنيفاس الثامن الصادر فى عام ١٣٠٠ ، وحتى هذا المرسوم لاينهى إلا عن تقطيع الجثث وغلى لحمها ، لكى ترسل عظام الصليبيين المعقمة إلى أهليهم ليدفنوها فى بلادهم(٢٧) . وربما فسر هذا تفسيراً خاطئاً ففهم على أنه نهى عن تشريح الجثث بعد الموت ، ولكننا نجد مندينو Mondino الجراح الإيطالى يغلى الجثث ويشرحها حوالى عام ١٣٢٠ ؛ ومبلغ علمنا أن الكنيسة لم تحتج على عمله هذا(٢٨) .

وبعد فإذا ما بدت ثمار العلوم الطبيعية فى الغرب أثناء العصور الوسطى ضئيلة قليلة الغناء فى هذا الموجز الذى يراه القارئ فيما بعد ؛ فإن علينا أن نذكر أنها نشأت فى بيئة من الخرافة والسحر معادية للعلم ، وفى عصر تتجه فيه خير العقول إلى القانون ، واللاهوت ، وفى وقت يعتقد فيه الناس كلهم تقريباً أن المسائل

الكبرى الخاصة بنشأة الكون ، وبنى الإنسان ، والطبيعة ، ومصائر الناس قد حلت كلها . ولكن العقول فى أوربا الغربية استفاقت من رقدتها بعد عام ١١٥٠ لما أن ازداد الفراغ ، وتمت الثروة ، وأخذت التراجم تنصب صبا فى أوربا من بلاد الإسلام ، واشتدت رغبة الناس فى المعرفة حتى صارت ولعاً وتحمساً ، وشرعوا يبحثون شئون العالم القديم العظيم الذى كان يبحثه اليونان دون أن تقام فى وجههم العقبات والعراقيل ، ولم يمض إلا قرن من الزمان حتى كانت أوربا اللاتينية كلها تموج بالعلم والفلسفة .





(الصورة رقم ٧) « مريم » من كتدرائية بامبرج



(الصورة رقم ٨) «القديسة إليصابات» من كتدرائية بامبرج

الفصل الثانى

الثورة الرياضية

إن أول الأسماء العظيمة فى علوم ذلك الوقت اسم لبونارد وفيبوناتشى البيزى Leonardo Fibonacci of Pisa .

لقد انتقلت علوم الرياضة السومرية ، التى لا نعرف نشأتها ، إلى بابل عن طريق بلاد اليونان ؛ وانتقل علم الهندسة المصرية ، الذى لا يزال ماثلا أمام أعيننا فى الأهرام ، إلى أيونيا وبلاد اليونان ، ولعل انتقاله كان عن طريق كريت ورودس؛ وانتقلت علوم الرياضة اليونانية إلى أيونيا فى أثر الإسكندر ، وكان لها شأن أيما شأن فى ذلك التطور الذى بلغ ذروته فى براهماجپتا Brahmagupta (٥٨٨ ؟ — ٦٦٠ ؟) وترجمت مؤلفات الهنود الرياضية إلى اللغة العربية حوالى ٧٧٥ ؛ وبعد قليل من ذلك الوقت ترجمت مؤلفات اليونان فى هذا العلم إلى تلك اللغة نفسها ؛ ودخلت الأرقام الهندية إلى بلاد المسلمين الشرقية حوالى عام ٨٣٠ ؛ ثم نقلها جربرت Gerbert إلى فرنسا حوالى عام ١٠٠٠ ، ودخلت علوم الرياضة اليونانية ، والعربية ، والعبرية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بلاد أوربا الغربية عن طريق أسپانيا وصقلية ، وحملها التجار الإيطاليون إلى البندقية وجنوى ، وأملفى ، وبيزا ؛ وشأن النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة .

وظهر طريق آخر من طرق نقل العلوم فى القرن السادس قبل الميلاد وذلك فى صورة « المعدّ » الصينى ؛ وهو أداة للعد بنقل عصى صغيرة من الخيزران من مجموعة إلى أخرى ؛ ولا تزال أداة منقولة عن هذه تستعمل فى بلاد الصين إلى يومنا هذا ؛ ويقول هيرودوت إن المصريين فى القرن الخامس

قبل الميلاد كانوا يستخدمون الحصا فى العد ، وينقلونه بأيديهم من اليمين إلى اليسار » . أما اليونان فقد ساروا فيه من اليسار إلى اليمين ؛ واستخدم الرومان أشكالا كثيرة من المِعَد ، كانت أدوات العد فى أحدها تنزلق فى حزوز ، وكانت هذه الأدوات تصنع من الحجارة ، أو المعادن ، أو الزجاج الملون ؛ وكانوا يسمونها الكلكولى Calculi أى الحجارة الصغيرة[٢٩] . ويذكر بوئيثيوس حوالى عام ٥٢٥ المعد ويقول عنه إنه يمكن الإنسان من العد بالعشرات ؛ ولكن هذه البداية لاستخدام الطريقة العشرية أهملت ؛ وكان تجار إيطاليا يستخدمون المعد ، ولكنهم يكتبون نتائجه بالأرقام الرومانية السمجة .

وولد ليو ناردو فيبوناتشى فى بيزا عام ١١٨٠ ؛ وكان والده مديراً لإحدى المؤسسات التجارية فى بلاد الجزائر ، وانضم إليه ليوناردو فى تلك البلاد وهو فى سن المراهقة ، وتعلم على أستاذ مسلم ، ثم طاف ببلاد مصر ، والشام ، واليونان ، وصقلية ، ودرس أساليب التجار ، وتعلم طريقة العد ، على حد قوله « بوسيلة عجيبة استخدم فيها أرقام الهنود التسعة »[٣٠] ؛ وهنا كانت الأرقام الهندية فى بداية تاريخها الأوربى تسمى بحق أرقاما هندية ؛ وكانت هذه الأرقام التى هى من أسباب الملل والإجهاد لأطفال هذه الأيام موضع الدهشة والبهجة فى ذلك الوقت . ولعل ليوناردو قد تعلم اللغة اليونانية كما تعلم العربية ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فإنا نجده ملماً كل الإلمام برياضيات أرخميدس ، وإقليدس ، وهيرون ؛ وديوفانتس Diophantus . ونشر فى عام ١٢٠٢ كتاب العد Liber abaci وهو أول عرض أوربى كامل للأرقام الهندية ، وللصفر ، والطريقة العشرية ، يقوم به مؤلف مسيحى ، وكان بداية بعث العلوم الرياضية فى بلاد أوربا المسيحية . وأدخل هذا الكتاب نفسه الجبر العربى فى أوربا الغربية ، وأحدث انقلابا بسيطا فى ذلك العلم لأنه كان يستخدم من حين إلى حين حروفاً بدل الأرقام لتعميم

المعادلات الجبرية واختزالها . واستخدم ليوناردو فى كتابه الهندسة التطبيقية Practica geometrica (١٢٢٠) — لأول مرة فى العالم المسيحى على ما تعلم — الجبر فى حل النظريات الهندسية . ووضع فى كتابين آخرين نشرا فى عام ١٢٢٥ طرقاً مبتكرة لحل معادلات الدرجة الأولى والثانية . وفى تلك السنة نفسها رأس فردريك الثانى فى مدينة بيزا مهرجاناً رياضيا ، وضع فيه يوحنا بالرمو John Palermo مسائل مختلفة حلها فيبوناتشى .

وظل تجار أوربا يقاومون طريقة العد الجديدة على الرغم من ظهور هذا المؤلف الذى يُعدّ بداية عهد جديد فى تاريخ العلوم الرياضية ، فقد كان كثيرون منهم يفضلون تحريك المعدّ بأصابعهم وكتابة النتائج بالأرقام الرومانية ؛ وفى عام ١٢٩٩ استطاع « العدّادون » فى فلورنس أن يقنعوا ولاة الأمور بسن قانون يحرم استعمال « الأرقام الخيالية الجديدة[٣٢] » ، ولم يدرك إلا عدد قليل من الرياضيين الرموز الجديدة وهى الصفر وترتيب الخانات العشرية فى آحاد وعشرات ومئات ... قد مهدت السبيل إلى تطور يكاد يكون مستحيلا إذا ظلوا يتخذون الحروف القديمة اليونانية والرومانية والعبرية أرقاما . ولم تحلّ الأرقام الهندية آخر الأمر محل الأرقام الرومانية إلا فى القرن السادس عشر ، ولا تزال طريقة العد الاثنا عشرية مستخدمة فى ميادين كثيرة فى إنجلترا وأمريكا لأن رقم ١٠ لم ينتصر بعد فى كفاحه الطويل الذى دام ألف عام انتصاراً حاسماً على رقم ١٢ .

وكان للعلوم الرياضية فى العصور الوسطى أغراض ثلاثة : خدمة التجار ، وإمساك حسابات رجال الأعمال ، ورسم خرائط للسماء . وكانت علوم الرياضة ، والطبيعة ، والفلك وثيقة الصلة بعضها ببعض ، ومن كتب فى واحد منها أفاد العلمين الآخرين ؛ ومن أمثلة هؤلاء العلماء جون الهوليوودى John of Holywood (فى يوركشير) المعروف فى العالم اللاتينى باسم جوانس ده سكروبسكو

Johannes de Saerobosco الذى درس فى أكسفورد، وكان أستاذاً فى جامعة باريس ، وألف رسالة عن الكرة الأرضية وعرضاً للرياضة الجديدة سماه الرياضة للعرب (حوالى ١٢٣٠) . وكان لفظ اللوغاريتمات وهو اسم ممسوخ من اسم الخوارزمى اصطلاحاً لاتينياً يطلق على الطريقة الرياضية التى تستخدم الأرقام الهندية . ويعزو چون إلى العرب فضل اختراع هذه الطريقة ؛ وهو من المسئولين عن الخطأ الذى أدى إلى تسمية الأرقام الهندية بـ « الأرقام العربية »[٣٢] . وجاء رجل من تشستر يدعى ربرت حوالى ١١٤٩ بحساب المثلثات العربى إلى إنجلترا ، وأدخل لفظ الجيب فى العلم الجديد ، وذلك فى أثناء تعديل أزياج البتانى والزرقانى .

وكان من أسباب دوام الاهتمام بالفلك حاجات الملاحة والرغبة الشديدة فى التنجيم . وكانت المكانة العظيمة التى يمثلها كتاب المجسطى الذى ترجم مراراً كثيرة من أسباب جمود علم الفلك فى أوربا المسيحية واستمساكه بنظرية بطليموس نظرية الدوائر المختلفة المراكز والدوائر التى فى محيطات دوائر أخرى ، والقائلة إن الأرض هى محور الكون . وأحست بعض العقول اليقظة كعقول ألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ؛ وروچر بيكن ، بقوة النقد الذى وجهه العالم الفلكى البطروجى ، لهذه النظرية فى القرن الثانى عشر ، ولكن لم توجد نظرية سماوية مقبولة تحل محل نظرية بطليموس الميكانيكية قبل أيام كوپرنيق . فقد كان علماء الفلك المسيحيون فى القرن الثالث يتصورون أن الكواكب تدور حول الأرض ، وأن النجوم الثوابت مرصوصة فى قبة من البلور يسيرها العقل الإلهى ، وتدور فى حشد منظم حول الأرض وأن مركز الكون كله وأرقى ما فيه هو ذلك الإنسان الذى يصفه علماء الدين بأنه دودة حقيرة ملوثة بالذنوب ، ومحكوم على كثرة أفراده بأن يصلوا نار الجحيم . وقد بحث علماء الفلك الساميون فى القرن

الثالث عشر رأى هرقليدس القائل بأن منشأ حركة السماء اليومية الظاهرة دوران الأرض حول محورها ، ولكن العالم المسيحي نسى هذا الرأى نسياناً تاماً ؛ ونقل مكروبيوس Macrobius ومارتيانس كابلا Martianus Capella رأياً آخر لهرقليدس وهو أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس ، واستمسك جون اسكوتس إرچينس بهذا الرأى فى القرن الثامن ثم طبقه على المريخ والمشترى ، وبهذا أوشكت النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم أن تنتصر[٣٤] . ولكن هذه الفروض الباهرة كانت من بين الأفكار التى اندثرت فى العصور المظلمة ، وظلت الأرض مركز الكون حتى عام ١٥٢١ ، وإن كان علماء الفلك جميعهم قد اتفقوا على أن الأرض كرية[٣٥] .

وجاءت الأزياج والآلات الفلكية إلى الغرب من بلاد الإسلام ، أو عملت على غرار الأزياج والآلات الإسلامية . ورصد ولشر اللوربنى Walcher of Lorraine الذى أصبح فيما بعد رئيساً لدير ملفرن Malvrn خسوف القمر فى إيطاليا بأسطرلاب ، وكان هذا أول الأرصاد الفلكية المعروفة فى العالم المسيحى الغربى ؛ ولكن وليم الكلودى William of St Cloud اضطر بعد مائتى عام من ذلك الوقت (حوالى ١٢٩٦) أن يذكر الفلكيين ، بأقواله وبما ضربه لهم من مثل بنفسه ، أن خير ما يتقدم به العلم هو الملاحظة لا القراءة أو الفلسفة . وخير ما قدم لعلم الفلك المسيحى من عون فى ذلك الوقت هو الأزياج الأنفسية لحركات الأجرام السماوية التى أعدها عالمان يهوديان أسپانيان لألفنسو الحكيم .

وتجمعت المعلومات الفلكية فكشفت عن أخطاء تقويم يوليوس قيصر (٤٦ ق . م) الذى وضع على أساس عمل سوسيجنيس والذى جعل السنة أطول من حقيقتها بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية . وكان ازدياد تنقل الفلكيين ، والتجار ، والمؤرخين بين أقطار العالم مما كشف عن الصعاب التى يلاقونها

من جراء اختلاف التقاويم . وكان البيرونى قد قام بدراسات نافعة للطرق المختلفة المتبعة فى تقسيم الزمن وتاريخ الحوادث (حوالى عام ١٠٠٠) ، وواصل هارون ابن مشلام وابراهام بارخية هذه الدراسة فى عامى ١١٠٦ و ١١٢٢ ، وأعقب ما ربرت جروستستى وروجر بيكن فعرضا فى القرن الثالث عشر مقترحات عملية ، أسفرت (حوالى عام ١٢٣٢) عن وضع جروستستى لطائفة من الأزياج لتعيين أوقات الحوادث الفلكية والتواريخ المتغيرة كتاريخ عيد القيامة ، وكانت هذه الأزياج أول خطوة لوضع التقويم الجريجورى (١٥٨٢) الذى يرشدنا ويضللنا فى هذه الأيام .

الفصل الثالث

الأرض وحياتها

وكان أكثر العلوم تقدماً فى العصور الوسطى هو علم طبقات الأرض ؛ وسبب ذلك أن الأرض كانت فى رأيهم موطن المسيح ، وغلاف الجحيم ، وأن الأحوال الجوية من تقدير الله . وكان المسلمون واليهود والمسيحيون على السواء يغشون علم التعدين بغلاف من الخرافات . ويؤلفون « الجوهريات » فيما للحجارة من قوى سحرية . من ذلك أن مَرْبو Marbood أسقف رنن Rennes (١٠٣٥ — ١١٢٣) كتب بالشعر اللاتينى كتاباً شعبيا سماه كتاب الجواهر وصف فيه القوى الخفية الكامنة فى ستين نوعا من الحجارة الكريمة ، فقال هذا الأسقف المتبحر فى العلوم إنه إذا أمسك الإنسان بيده حجراً من الياقوت الأزرق أثناء الصلاة كان ذلك أدعى لاستجابة الله إلى دعائه[٣٦] ، وإن حجر عين الهر إذا لف فى ورقة من نبات الفار يُخفى من يمسك به عن أعين الناس ، وإن حجر الجمشت يجعله بمأمن من السكر ؛ وإن الماس يجعل من يمسك به صنديداً لا يُهزَم[٣٧] .

وكان التشوف والتحمس اللذان أحاطا معادن الأرض بهذه الخرافات هما اللذين بعثا الناس فى العصور الوسطى على التجوال فى أوربا وبلاد الشرق ، فأغنوا بذلك علم الجغرافيا على مهل . من هؤلاء جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis — جرالد الويلزى Girald of Wales (١١٤٧ — ١٢٢٣) — الذى طاف ببلاد كثيرة وكتب فى موضوعات كثيرة ، وأتقن لغات كثيرة ليس

منها لغته هو ، والذى صحب الأمير چون إلى أيرلندة ، وعاش فيها عامين ، ثم طاف بأنحاء ويلز يدعو الناس إلى الحرب الصليبية الثالثة ، وألف أربعة كتب ممتعة عن هذين البلدين . وقد أثقل صحف كتبه بتحيزه وبكثرة ما أورده فيها من أخبار المعجزات ، ولكنه خففها بوصفه الواضح الحى للأشخاص والأماكن ، وحديثه الظريف عن الأشياء التافهة التى توضح خصائص الأشخاص والعصور . وكان واثقاً من أن كتبه سوف تخلد ذكره[٣٨] ، ولكنه استخف بما يمتاز به الزمان من قدرة على النسيان .

وكان هو واحداً من آلاف الرجال الذين حجوا إلى بلاد الشرق فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وقد رسمت خرائط البلاد والطرق ليهتدى بها هؤلاء الحجاج ، وأفاد من ذلك علم الجغرافية . وحدث بين عامى ١١٠٧ و ١١١١ أن أبحر سجورد چوراسلفار Siguard Jorasalfare ملك النرويج فى حملة صليبية ومعه ستون سفينة ، ومرَّ بإنجلترا ، وأسبانيا ، وصقلية ، ووصل إلى فلسطين . وحارب المسلمين كلما لاحت له فرصة لحربهم ، ثم قاد حملته بعد أن هلك منها من هلك إلى القسطنطينية ، ومنها اجتاز بلاد البلقان ، وألمانيا ، والدنمرقة بطريق البر حتى وصل إلى النرويج . وتكون قصة هذه الرحلة المفعمة بالأخطار جزءاً من قصص اسكنديناوة الشعبية العظيمة . وفى عام ١٢٧٠ أعاد لنزارتى مالوسلو Lanzarotte Malocello كشف جزائر الخالدات التى كانت معروفة للأقدمين . وتقول إحدى الروايات المتواترة التى لم تحقق بعد إن أوجولينو Ugo'ino وڤادينو ڤيڤلدو Vadino Vivaldo أبحرا من جنوى حوالى عام ١٢٩٠ على ظهر سفينتين كى يصلا إلى الهند بالطواف حول قارة أفريقية . ويبدو أن جميع من كانوا على ظهر السفينتين من الملاحين لقوا حتفهم . وانتقلت قصة هذه الرحلة بطريقة ساخرة فى صورة رسالة من « برستر جون » Prester John أمنطوزى (حوالى عام ١١٥٠) يتحـــدث فيها عن أملاكه فى أواسط آسية ،

وعن جغرافية بلاد الشرق حديثاً مليئاً بالأوهام والخرافات . وقلّما كان المسيحيون يعتقدون بوجود أرضين وسكان فى الأجزاء المقابلة لبلادهم وعلى سطح الأرض ، وذلك على الرغم من قيام الحروب الصليبية وما استتبعته من الأسفار . وكان القديس أوغسطين يرى أن « من غير المعقول أن يسكن الناس فى الجهة المقابلة لنا على سطح الأرض ، حيث تغرب الشمس حين تشرق عندنا ، وحيث يمشى الناس وأقدامهم فى اتجاه أقدامنا »[٣٩] ؛ وكان راهب أيرلندى يدعى القديس فرجيل St. Fergil قد أشار حوالى عام ٧٤٨ إلى إمكان وجود « عالم آخر وخلق آخرين تحت الأرض »[٤٠] . وقبل ألبرتس مجنس وروجر بيكن هذه الفكرة ، ولكنها بقيت خيالا جريئاً يطوف بعقول قلة من الناس حتى طاف مجلان Magellan بالكرة الأرضية .

وجاءت إلى أوربا أهم المعلومات عن الشرق الأقصى من راهبين فرنسيسين . ذلك أن إنوسنت الرابع أرسل فى إبريل من عام ١٢٤٥ إلى بلاط المغول فى قرقورم چيوڤنى ده بيانو كربينى Giouanni de Piano Carpèni ، وهو رجل بدين فى الخامسة والستين من عمره . ولاقى چيوڤنى ورفيقه من الصعاب شد ما يلقاه الإنسان فى حياته ، فقد ظلا مسافرين خمسة عشر عشر شهراً ، يبدلان الجياد فى كل يوم . وإذا كانت قوانين الرهبان الفرنسيس تحرم عليهما أكل اللحم ، فقد كادا يموتان جوعاً بين البدو الذين لا يكادون يجدون غيره طعاما يمدونهما به وأخفق چيوڤنى فى مهمته ، ولكنه كتب بعد عودته وصفاً لرحلته يعد الآن من أمهات كتب الأدب الجغرافى — فهو يمتاز بوضوحه ، وإنكاره لشخصه ، واهتمامه بالحقائق دون غيرها لا يذكر فيها كلمة شكوى أو كلمة عن نفسه . وأرسل لويس التاسع فى عام ١٢٥٣ وليم الربركويزى William of Rubruquis (وليم ڤان رويزبروك William van Ruysbrook إلى الخان الأعظم ليعيد على مسامعه رغبة البابا فى عقد حلف معه . وعاد وليم يحمل معه دعوة جافة

بخضوع فرنسا إلى سلطة المغول[٤١] ، وكان كل ما أثمرته البعثة هو وصف وليم الشيق الممتاز لعادات المغول وتاريخهم . وعرف الأوربيون وقتئذ لأول مرة منابع نهرى الدن Don والفلجا ، وموضع بحيرة بلكاش ، وشعائر الدلاى لاما Dalai Lama ، وأماكن النساطرة المسيحيين فى الصين ، والفرق بين المغول والتتار .

وأشهر الرحالة الأوربيين إلى بلاد الشرق الأقصى فى العصور الوسطى وأعظمهم نجاحا هم أسرة پولو تجار البندقية . فقد كان لأندريا بولو Andrea Polo أبناء ثلاثة هم ماركو الأكبر ، ونقولو ، ومافيو Maffeo ؛ وكانوا كلهم يعملون فى تجارة بزنطية ويعيشون فى القسطنطينية . وانتقل نقولو ومافيو حوالى عام ١٢٦٠ إلى بخارى حيث بقيا ثلاث سنين ، ومنها سافرا فى أعقاب بعثة سياسية تتاربة إلى بلاط كوبلاى خان فى شانجتو . وأعادهم كوبلاى فى بعثة إلى البابا كلمنت الرابع ؛ واستغرقت عودتهما إلى البندقية ثلاث سنين ، فلما جاءا إليها كان كلمنت قد مات . وفى عام ١٢٧١ خرجا من البندقية عائدين إلى الصين ، وأخذ نقولو معه ابنه ماركو الأصغر وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره . وقضيا ثلاث سنين ونصف سنة فى رحلتهما مخترقين قارة آسية عن طريق بلخ ، وهضبة الپامير وكاشغر ، ولوب نور وصحراء غوبى ، وتنجوت . فلما وصلا إلى تنجوت كان ماركو فى الحادية والعشرين من عمره ؛ وأعجب به كوبلاى ، وخصه بمناصب رئيسية ، ووكل إليه القيام ببعثات هامة ، وأبقى أفراد أسرة بولو الثلاثة فى الصين سبعة عشر عاما . ثم أبحروا عائدين إلى بلادهم ، وقضوا فى عودتهم ثلاث سنين عن طريق جاوة ، وسومطرة ، وسنغافورة ، وسرنديب ، والخليج الفارسى ؛ ثم ساروا برا إلى طربزون ، ومنها ركبوا السفينة إلى القسطنطينية والبندقية . فلما استقروا فيها لم يصدق أحد ، كما يعرف العالم كله ، القصص التى أخذ يقصها « ماركو ذو الملايين » عن « بلاد الشرق

الفخمة » . وأسر ماركو وهو يحارب فى جيش البندقية فى عام ١٢٩٨ ، وألقى فى سجن جنوى عاماً كاملا ، وفيه أملى قصته على زميل له فى السجن ؛ وأثبتت بحوث الرواد بعدئذ صحة عناصر قصته كلها تقريباً ، وكانت تعد من قبل غير معقولة . فقد وصف ماركو للمرة الأولى رحلة تخترق جميع بلاد آسية ، وفى كتابه أول لمحة كتبها أوربى عن بلاد اليابان ، وأول وصف صادق لبكين ، وجاوة ، وسومطرة ، وسيام ، وبورما ، وسرنديب ، وساحل زنجبار ، ومدغشقر ، وبلاد الحبشة ؛ وكشف كتابه للغرب الستار عن بلاد الشرق ، وساعد على فتح طرق جديدة للتجارة ، ولانتقال الأفكار ، وكان له نصيب فى تشكيل علم الجغرافية الذى أوحى إلى كولمبس بالسفر إلى الشرق بالاتجاه نحو الغرب .

ولما اتسع ميدان التجارة والأسفار أخذ علم رسم الخرائط يعود متثاقلا إلى المستوى الذى بلغه فى أيام أغسطس ، وشرع الملاحون يُعِدُّون كتباً يُهتَدَى بها إلى الثغور التجارية ، تحتوى خرائط ، ورسوماً ، وإرشادات للسائحين ، وأوصافاً ، لمختلف المرافئ ؛ وبلغت هذه الكتب على أيدى أهل بيزا وجنوى درجة كبرى من الدقة . وكانت خرائط العالم التى رسمها الرهبان فى ذلك الوقت إذا قورنت بغيرها تسير على نمط محدد لاتحيد له ويصعب فهمها .

وكانت رسائل أرسطو فى علم الحيوان ، وكتاب ثيوفراسطس الحجة فى النباتات ، حافزاً قويا لعقل الغرب المستيقظ من رقاده ، فأخذ يكافح للخروج من القصص ومن أقوال يلنى إلى علم الحيوان والنبات . وكان كل إنسان تقريبا فى ذلك الوقت يعتقد أن الكائنات العضوية الصغيرة ، بما فيها من الديدان والذباب ، تتولد من تلقاء نفسها من التراب ، والطين ، والمواد المتعفنة ، الفاسدة . وكادت الكتب التى تصف الحيوانات — الحقيقى منها والخرافى — وترسم صوراً لها تحل محل كتب علم الحيوان ؛ وإذ كان الرهبان هم الذين يؤلفون معظم هذه الكتب فقد كان علم الحيوان يوصف فى عبارات مستمدة من كتب اللاهوت

بأنه مستوع للرموز المقوية للإيمان ، وابتدعت منه مخلوقات إضافية ابتكرها الخيال للهو والتسلية ، أو خلقتها الحاجة إلى التقى والصلاح . انظر مثلاً إلى قول الأسقف هونوريوس الأوتونى Honorius of Autun من رجال القرن الثانى عشر الميلادى :

وحيد القرن ، وحش شديد الافتراس له قرن واحد ، فإذا أريد القبض عليه وُضعت فى الحقل فتاة عذراء ، إذا رآها اقترب منها واستراح فى حجرها ، وبذلك يُقبض عليه . ويمثل هذا الحيوان المسيح ، ويمثل قرنه قوة المسيح التى لا تُغلب ... فقد انتزعه الصيادون وهو فى رحم عذراء — أى أن الذين أحبوا المسيح وجدوه فى صورة إنسان(٤٢) .

وكان أقرب كتب الأحياء إلى العلم الصحيح فى العصور الوسطى هو كتاب فردريك الثانى المسمى « **فن القنص بالطير** » وهو رسالة فى هذا الفن فى ٥٨٩ صفحة ، تعتمد فيما تعتمد عليه على المخطوطات اليونانية والإسلامية ، ولكن الجزء الأكبر منها مستمد من الملاحظة والتجربة . وكان فردريك نفسه من أشهر الصائدين بالبزاة ؛ ويحتوى وصفه لأجسام الطير على عدد كبير من المعلومات الأصيلة التى لم يسبقه إليها غيره من المؤلفين ، ويدل تحليله لطيران الطيور وهجرتها ، وتجاربه فى تفريخ البيض بالطرق الصناعية ، وأعمال الصقورة ، على روح علمية لا نظير لها فى أيامه(٤٣) . وقد وضح فردريك نصوص كتابه بمئات من صور الطير ، ربما كانت من صنع يده — وهى رسوم « صادقة حتى فى أدق التفاصيل »(٤٤) . ولم تكن مجموعات الحيوانات التى جمعها ، مجرد هوى شاذ يقصد به التظاهر كما كان يظن بعض معاصريه ، بل كانت معملاً يدرس فيه دراسة مباشرة مسلك الحيوانات . وبذلك كان هذا الإسكندر أرسطو نفسه :

الفصل الرابع

المادة والطاقة

كان حظ الطبيعة والكيمياء أحسن من حظ علمى طبقات الأرض والأحياء ، ذلك أن قوانينهما وعجائبهما كانت فى جميع الأوقات أكثر ائتلافاً مع عقيدة الإيمان بالله من « أنياب العالم الطبيعى ومخالبه الحمراء » . ويدلنا على قوة هذين العلمين فى بداية تلك الفترة ما كان يبذله ألفر المالمزبرى Oliver of Malmesbury من جهود لصنع طائرة ؛ فقد أتم فى عام ١٠٦٥ تركيب جهازه ، وعلا به فى الجو من مكان مرتفع ولقى حتفه(٤٥) .

ولمع فى علم الميكانيكا فى القرن الثالث عشر اسم عظيم ، اسم راهب دمنيكى سبق إسحق نيوتن إلى عدد من المبادئ الأساسية فى هذا العلم . ذلك هو جردانس نموراريوس Jordanus Nemorarius الذى أصبح فى عام ١٢٢٢ القائد الثانى للرهبان الدمنيكيين . وإن قيامه بأعماله الباهرة فى ميدان العلوم الطبيعية ليشهد بما كان عليه الإخوان الواعظون من حماسة عقلية وغيرة علمية . وقد ألف هذا الراهب ثلاث رسائل فى العلوم الرياضية نافس فيها رسائل فيبوناتشى فى شجاعته ونفوذه العظيم ، استخدم فيها الأرقام الهندية ، وارتقى بعلم الجبر بحرصه الدائم على استعمال الحروف بدل الأرقام فى قوانينه العامة وقد درس فى كتابه Elements super demonstrationem ponderis فعل الجاذبية فى مسير جسم متحرك ، ووضع القانون المعروف الآن باسم بديهية جردانس . وهو أن القوة التى تستطيع رفع جسم معين إلى ارتفاع معين تستطيع رفع جسم أثقل من الأول ك المرات إلى ارتفاع يقل عن الارتفاع الأول ك المرات . وحلل فى رسالة أخرى De ratione ponderis (لعل مؤلفها أحد

تلاميذه) فكرة قوة السكون ــ حاصل قوة ما في طول ذراع رافعتها ، واستبق الأفكار الحديثة في ميكانيكية الروافع والمستويات المائلة(٤٦) . وحاولت رسالة أخرى تعزى إلى « مدرسة چوردانس » أن تعبر عن نظرية الإزاحة الافتراضية ــ وهي المبدأ الذي قدره فيما بعد ليوناردرو دافنشي ، وديكارت ، وچون برنولي John Bernoulli وصاغه آخر الأمر ج . ولارد چبز J. Willard Gibbs في القرن التاسع عشر .

وأثر تقدم الميكانيكا في الاختراع تأثيراً بسيطاً . من ذلك أن ربرت الإنجليزي Robert of England عرض في عام ١٢٧١ نظرية رقاص الساعة عرضاً واضحاً ؛ وفي عام ١٢٨٨ نسمع عن ساعة كبيرة في برج يوستمنستر ، كما نسمع حوالي ذلك الوقت نفسه عن ساعات ضخمة مثلها في كنائس أخرى بالقارة الأوربية ، ولكننا لا نجد دليلا قاطعاً على أن هذه الساعات كانت آلات ميكانيكية كاملة ؛ أما أول ذكر صريح لساعة تدار بالبكرات ، والأثقال ، والتروس فيرجع تاريخه إلى عام ١٣٢٠(٤٧)

وكان أكثر فروع علم الطبيعة نجاحاً في ذلك الوقت هو علم البصريات ، ذلك أن رسالة ابن الهيثم العربية التي ترجمت إلى اللغة اللاتينية قد فتحت آفاقاً جديدة في بلاد الغرب ؛ وقد تحدث ربرت جروستستي عن هذا العلم في مقال له عن قوس قزح نشر حوالي عام ١٢٣٠ عن فرع ثالث من فن المنظور . . . لم يطرق بابه ولم يعرفه بيننا أحد حتى هذا الوقت ...(وهو) يعرفنا كيف نجعل الأشياء الشديدة البعد عنا تبدو شديدة القرب منا ، وكيف نجعل الأشياء الكبيرة القريبة تبدو جد صغيرة ، وكيف نجعل الأشياء البعيدة تظهر بالحجم الذي نريده .

ويضيف إلى ذلك قوله إنه يمكن الوصول إلى هذه الأشياء العجيبة بتكسير « شعاع الضوء » وذلك بجعله يمر خلال عدة أجسام شفافة ، أو عدسات مختلفة التركيب . وافتتن تلميذه روچر بيكن بهذه الآراء أيما افتتان . وبحث چون بكهام ، وهو في أغلب الظن تلميذ من تلاميذ جروستستي في جامعة أكسفورد ،

فى انعكاس الضوء ، وانكساره ، وتركيب العين فى رسالة سماها فن **المنظور العام** Perspetiva Communis ؛ وإذا ذكرنا أن بكهام أصبح بعدئذ كبير أساقفة كنتربرى ، أدركنا مرة أخرى ما كان بين العلوم وكنيسة العصور الوسطى من وفاق .

وكان من نتائج هذه الدراسات فى الضوء اختراع النظارات . فقد كانت المجاهر — النظارات المكبرة — معروفة لليونان الأقدمين[٤٨] ، ولكن يبدو أن صنع هذه النظارات بحيث تجمع الأشعة جمعاً صحيحاً وهى قريبة من العين كان لا بد أن ينتظر البحوث التى تجرى فى هندسة انكسار الضوء . وتوجد وثيقة صينية ترجع إلى تاريخ غير موثوق بصحته بين عامى ١٢٦٠ و ١٣٠٠ تتحدث عن نظارات تسميها آى تاى Ai tai يستطيع بها كبار السن أن يقرأوا الكتابة الدقيقة . وجاء فى موعظة لراهب دومنيكى ألقاها فى بيسانزا عام ١٣٠٥ : « منذ عشرين عاماً قبل هذا الوقت كشف فن صنع النظارات (أكشيالى occhiali) التى تمكن الإنسان من أن يحسن القراءة . . . ولقد تحدثت بنفسى إلى الرجل الذى كان أول من كشفها وصنعها » . وورد فى خطاب مؤرخ عام ١٢٨٩ : « لقد تقدمت بى السنون حتى أصبحت عاجزاً عن القراءة والكتابة بغير النظارات المسماه (أكيالى okiial) التى اخترعت من وقت قريب » . ويعزى فضل اختراعها عادة إلى سلفينو دا مارتو Salvino da Marto الذى كُتب على شاهد قبره المصنوع فى عام ١٣١٧ « مخترع النظارات » . وفى عام ١٣٠٥ أعلن طبيب من منپلييه أنه أعد غسيلا للعين يجعل الإنسان فى غنى عن النظارات[٤٩] .

وكانت قوة المغنطيس الجذابة معروفة هى الأخرى لليونان ، ويلوح أن الصينيين هم الذين كشفوا فى القرن الأول الميلادى قدرته على تعيين الاتجاه . وتعزو إحدى الروايات الصينية المتواترة إلى المسلمين أول استعمال للإبرة المغنطيسية فى إرشاد السفن حوالى عام ١٠٩٣ . وأكبر الظن أن استعمالها كان واسع

الانتشار بين الملاحين المسلمين والمسيحيين قبل نهاية القرن الثانى عشر ؛ وترجع أقدم إشارة لهذا الاستعمال عند المسيحيين إلى عام ١٢٠٥ ، وعند المسلمين إلى عام ١٢٨٢[٥٠]، ولكن لعل الذين عرفوا هذا السر الثمين من زمن طويل لم يتعجلوا فى إذاعته ؛ يضاف إلى هذا أن الملاحين الذين كانوا يفيدون من هذا الاختراع كانوا يُرتاب فى أمرهم فيظن أنهم سحرة ، وبلغ من أمرهم أن بعض الملاحين رفضوا أن يسافروا مع أمير سفينة يحتفظ معه بهذه الآلة الشيطانية[٥١] . ونجد أول وصف معروف لتبيت إبرة تتحرك على نقطة ارتكاز فى رسالة فى المغنطيس كتبها بطرس برجرينس Petrus Peregrinus فى عام ١٢٦٩ . وقد سجل الحاج بطرس هذا كثيراً من التجارب ، ودعا إلى الطريقة التجريبية ، وأوضح فعل المغنطيس فى جذب الحديد ، ومغنطة غيره من الأجسام ، وتعيين اتجاه الشمال ، وحاول كذلك أن يصنع آلة دائمة الحركة تعمل بمغنطيسات تولد بنفسها القوة اللازمة لتحريكها[٥٢] .

وكانت البحوث فى الكيمياء الكاذبة أكبر العوامل فى تقدم علم الكيمياء ؛ فقد أخذت النصوص العربية فى هذا العلم تترجم إلى اللغة اللاتينية من القرن التاسع وما بعده ، وما لبثت البحوث الخاصة بهذا النوع من الكيمياء أن انتشرت فى بلاد الغرب حتى لم تخل منها الأديرة نفسها . فقد نشر الأخ إلياس خليفة القديس فرانسس كتاباً فى الكيميا القديمة طلبه إليه فردريك الثانى ؛ وكتب راهب فرنسيسى آخر يشايع فكرة تحويل المعادن بعضها إلى بعض ؛ وكان أشهر الكتب الطبية كلها فى ذلك العهد كتاب فى العلل يعرض الكيمياء القديمة والتنجيم كما وردا فى كتاب مدسوس على أرسطو . وكان عدد من ملوك أوربا يستخدمون الكيميائيين القدامى ليسدوا ما ينقص من أموال خزائنهم بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب[٥٣] . وواصل غيرهم من المتحمسين البحث عن إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . ولم تنقطع هـذه البحوث

رغم أن الكنيسة حرمتها فى عام ١٣٠٧ ووصفتها بأنها من البحوث الشيطانية ، ولعل بعض المؤلفين فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر أرادوا النجاة من غضب الكنيسة بأن عزوا مؤلفاتهم إلى « جبر » Gebir(*) المسلم .

وأضافت التجارب الطبية على العقاقير معلومات كثيرة إلى علم الكيمياء ، كما أن العمليات الخاصة بالصناعة كادت ترغم على الكشف إرغاما ، وأفاد علم الكيمياء فوائد جمة من أعمال عصر الجعة ، وصنع مواد الصباغة ، والخزف ، والميناء ، والزجاج ، والغراء ، واللك ، والمداد ، ومواد التجميل . وألف بطرس العمرى Peter of St. Omer حوالى عام ١٢٧٠ **كتاب صنع الألوان** libier de coloribus fasciendis ، فيه ذكر لعدد من المواد الملونة المستخدمة فى التصوير تصف واحدة منها كيفية صنع ألوان زيتية بخلط الألوان الملونة بزيت بذر الكتان(٥٤). ونشرت حوالى عام ١١٥٠ رسالة تعرف باسم Salernus Magister — ربما كانت من رسائل مدرسة الطب فى سلرنو — ذكر فيها تقطير الكحول ؛ وكان هذا أول ذكر صريح لهذه العملية المنتشرة فى جميع أنحاء العالم فى هذه الأيام . وكانت الأقطار التى تنتج العنب تقطر النبيذ وتسمى ما ينتج من تقطير هذا العصير **ماء الحياة** aqua vitae أو eau de vie أما بلاد الشمال ذات العنب القليل والبرد القارس فكانت تجد تقطير الحبوب أقل نفقة من تقطير العنب ؛ وكان لفظ **يسكيبثا** uisqebeatha الكلتى الذى اختصر فصار **وسكى** whisky يعنى أيضاً « ماء الحياة »(٥٥) . على أن التقطير كان معروفاً عند الكيميائيين المسلمين قبل ذلك الوقت بزمن طويل ، غير أن استكشاف الكحول ثم استكشاف الأحماض المعدنية بعد ذلك فى القرن الثالث عشر وسعا دائرة المعارف الكيميائية وآفاق الصناعة توسيعاً كبيراً .

(*) يريد جابر بن حيان الكيميائى الشهير . (المترجم)

ويكاد يضارع تقطير الكحول فيما له من آثار خطيرة استكشاف البارود . ويرتاب العلماء الآن فيما كان يظن قديماً من سبق الصينيين إلى هذا الاختراع . وليس في المخطوطات العربية ذكر صريح له قبل عام ١٣٠٠[٥٦]. وكانت أول إشارة معروفة لهذه المادة المفرقعة هي التي وردت في *كتاب النيران لحرق الأعداء* الذي ألفه ماركس غريقس Marcus Graecus حوالى عام ١٢٧٠ ، فقد وصف مارك اليوناني النار اليونانية والتألق الفصفوري ، ثم وصف طريقة عمل البارود فقال : حول إلى مسحوق دقيق — كلا على انفراد — رطلا من الكبريت الحي ، ورطلين من الفحم النباتي المصنوع من شجر الليمون الحامض أو الصفصاف ، وستة أرطال من ملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، ثم امزجها كلها[٥٧] . ولم نعثر على ذكر لاستخدام البارود في الأعمال الحربية قبل القرن الرابع عشر .

الفصل الخامس

إحياء علم الطب

يخلط الفقر على الدوام بين الأساطير والطب لأن الأساطير حرة لا ثمن لها والعلم غال عزيز المنال . والصورة الأساسية لطب العصور الوسطى هى صورة الأم ومخزنها الصغير من وسائل العلاج المنزلية ؛ والنساء العجائز غزيرات العلم بالأعشاب واللاصوق ، والرقى السحرية ؛ وجامعى حشائش التطبيب يطوفون بها على الناس ، والعقاقير المجربة ذات الفائدة الأكيدة ، والحبوب ذات القوة المعجزة ؛ والقابلات المتأهبات على الدوام لفصل الحياة الجديدة عن القديمة فى عملية الولادة المخزية السخيفة ، والدجالين المتأهبين لمداواة الناس أو قتلهم نظير أتفه الأجور ؛ والرهبان بما ورثوه من طب الأديرة ؛ والراهبات يواسين المرضى فى هدوء بما يقدمن لهم من خدمات أو دعوات صالحات ؛ والأطباء المدربين فى أماكن متفرقة يعالجون القادرين ويمارسون طبهم التمائم على أساس علمى إلى حد ما . وانتشرت العقاقير الغريبة المروعة والصيغ السحرية العجيبة ؛ وكما أن بعض الحجارة إذا أمسكت باليد كانت فى رأى بعض الناس تمنع الحمل ، كذلك كانت بعض النسوة وبعض الرجال — حتى فى سلرنو مدينة الطب نفسها — يأكلون روث الحمير لتقوى قدرتهم على الإخصاب .

وظل بعض رجال الدين يمارسون الطب حتى عام ١١٣٩ ، وكل ما كان هناك من علاج فى المستشفيات كان يوجد عادة فى ملاجئ أديرة الرجال والنساء . وكان للرهبان فضل عظيم فى حفظ التراث الطبى من الضياع ؛ وهم الذين مهدوا السبيل لزراعة النباتات الطبية ، وربما كانوا يعرفون ما يفعلون وهم يخلطون الطب بالمعجزات : وحتى الراهبات أنفسهن كن فى بعض الأحيان يحذقن علاج

المرضى . فقد كتبت هلديجاردى Hildegarde المتصوفة رئيسة دير بنجن Bengin كتاباً فى الطب العلاجى — وهو كتاب **العلل والعلاج** (حوالى عام ١١٥٠) — وكتاباً فى المواد الطبية أفسدته فى بعض مواضعه بالرقى السحرية ولكنه ملئ بالمعلومات الطبية . وربما كانت الرغبة فى القيام بالخدمة الطبية المدائمة من البواعث على التجاء الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء إلى الأديرة . ولما أن تقدم الطب الذى يمارسه غير رجال الدين . وسرى حب الكسب فى القائمين على العلاج فى الأديرة ، حرمت الكنيسة فى أوقات مختلفة (١١٣٠ ، ١٣٣٩ ، ١٦٦٣) على رجال الدين ممارسة الأعمال الطبية جهرة ، ولم يحل عام ١٢٠٠ حتى كاد هذا الفن القديم كله يصبح فى أيدى غير رجال الدين .

ويرجع أكبر الفضل فى بقاء الطب العلمى فى بلاد الغرب أثناء العصور المظلمة إلى الأطباء اليهود ، الذين نشروا المعلومات الطبية اليونانية — العربية فى بلاد العالم المسيحى . وذلك عن طريق الثقافة البيزنطية التى انتشرت فى جنوبى إيطاليا وترجمة الرسائل الطبية اليونانية والعربية إلى اللغة اللاتينية . وربما كانت مدرسة سلرنو الطبية قائمة فى أحسن المواقع . وكانت أحسن المدارس استعداداً للإفادة من هذه المؤثرات . فقد كان الأطباء اليونان ، واللاتين . والمسلمون . واليهود يعلمون أو يتعلمون فيها : وظلت حتى القرن الثانى عشر أكبر المعاهد الطبية فى أوربا اللاتينية . وكانت النساء يدرسن التمريض والقبالة فى سلرنو[٥٩] وأكبر الظن أن النساء اللاتى يسمين طبيبات سلرنو كن قابلات تدربن فى تلك المدرسة . وكان من أشهر ما أخرجته مدرسة سلرنو الطبية رسالة فى التوليد نشرت فى القرن الثانى عشر بعنوان : **ترتولا وعلاج أمراض النساء** ، وأكثر المؤرخين مجمعون على أن ترتولا Trotula هذه كانت قابلة فى سلرنو[٦٠] ولقد وصلتنا من مدرسة سلرنو عدة رسائل هامة

تشمل فروع الطب كلها تقريباً ، منها رسالة لأرخماثيوس Archimatheus تصف حال الطبيب وهو واقف بجوار سرير المريض : يجب أن يتحلى الطبيب وهو ينظر إلى حال المريض بالرزانة ، حتى لا تقلل من مكانته خاتمة المريض السيئة ، وحتى يضيف شفاؤه عجيبة أخرى إلى ما اشتهر به من العجائب ؛ وعليه ألا يغازل زوجة المريض أو ابنته أو خادمته ؛ وحتى إذا لم تكن ثمة ضرورة الدواء ما وجب عليه أن يصف له مركباً عديم الضرر ، حتى لا يظن المريض أن العلاج لا يساوى أجر الطبيب ، وحتى لا يظن أن الطبيعة هي التى شفت المريض دون معونة الطبيب[٦١] .

وحلت جامعة نابلى محل مدرسة سلرنو بعد عام ١٢٦٨ ، حتى لم نعد نسمع عن هذه المدرسة إلا الشيء القليل . وكان خريجوها قبل ذلك العام قد نشروا طب سلرنو فى طول أوربا وعرضها . وكانت ثمة مدارس للطب صالحة فى القرن الثالث عشر فى بولونيا ، وبدوا ، وفرارا ، وبروچيا وسينا ، ورومة ومنپلييه ، وباريس ، وأكسفورد ؛ وامتزجت فى هذه المدارس التقاليد الطبية الثلاثة الشهيرة — اليونانية ، والعربية ، والهودية ، وامتصتها امتصاصاً تاماً ، وصيغ التراث الطبى كله صياغة جديدة حتى اصبح هو أساس علم الطب الحديث ، واحتفظ أسلوبا التشخيص القديمان — وهما فحص جدران الصدر بالمسماع وتحليل البول — بشهرتهما وكثرة استعمالها (ولا يزالان يحتفظان بهما إلى يومنا هذا) . وبلغ من انتشارهما أن كانت المبولة رمز مهنة الطب أو دلالتها فى بعض الأماكن[٦٢] . كذلك بقيت أساليب العلاج القديمة بالمسهلات والحجامة ؛ وكان الطبيب فى انجلترا « مركب علَق » . وكانت الحمامات الحارة من طرق العلاج المحببة . فكان المرضى يسافرون « ليأخذوا الماء » من العيون المعدنية . وكان الطعام الخاص بالمرضى يوصف وصفاً دقيقاً فى الأمراض كلها تقريباً[٦٣] ، ولكن العقاقير الطبية كانت موفورة ، فقلما كان هناك عنصر من العناصر لا يستخدم فى العلاج — من الأعشاب البحرية (الغنية باليود) التى وصفها روچر السلرنى عام ١١٨٠

لعلاج تضخم الغدة الدرقية إلى الذهب الذى كان يتعاطى « لتسكين آلام الأطراف »(٦٤) — ويظهر أن هذه هى طريقتنا الحديثة لعلاج التهاب المفاصل . ويكاد كل عضو من أعضاء الحيوان يكون له عمل فى أقرباذين العصور الوسطى — قرون الغزال ، دماء التنين ، وصفراء الأفاعى ، ومنىّ الضفادع ؛ وكان براز الحيوان يوصف فى بعض الأوقات(٦٥) . وكان أكثر العقاقير استعمالا هو التِرياق theriacum ، وهو مزيج غريب من نحو سبع وخمسين مادة أشهرها لحم الأفاعى السامة . وكانت عقاقير كثيرة تستورد من بلاد الإسلام وظلت محتفظة بأسمائها العربية .

ولما ازداد عدد الأطباء المدربين شرعت الحكومات تنظم صناعة الطب . من ذلك أن روچر الثانى صاحب صقلية قصر مهنة الطب على الذين ترخص لهم الدولة ، وأكبر الظن أنه حذا فى ذلك حذو السوابق الإسلامية القديمة . وحتم فردريك الثانى (١٢٢٤) على من يريد ممارسة هذه المهنة أن يحصل على ترخيص بذلك من مدرسة سالرنو ؛ فإذا أراد إنسان أن يحصل عليها وجب عليه أن يتلقى منهاجاً يدوم ثلاث سنين فى العلوم المنطقية Scientia logicalil — ونظن أن معنى هذا اللفظ العلوم الطبيعية والفلسفة ؛ وكان عليه بعدئذ أن يدرس الطب فى المدرسة مدة خمس سنين ، وينجح فى امتحانين ، ويتمرن عاما تحت إشراف طبيب مجرب(٦٦) .

وكانت كل مدينة ذات شأن تدفع أجور الأطباء لعلاج الفقراء مجاناً(٦٧) . وكان فى بعض المدن أطباء موظفون . من ذلك أنه كان فى أسبانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر طبيب تستأجره البلدية للعناية بقسم خاص من الأهلين ، فكان يفحص فى فترات محددة كل شخص فى الإقليم المخصص له ، ويسدى النصيحة له حسب ما يكشف عنه الفحص . وكان يعالج الفقراء فى مستشفى عام ، ويجبر

على زيارة كل مريض ثلاث مرات في الشهر ؛ وكان كل هذا يؤدى من غير أجر إلا إذا زار المريض أكثر من ثلاث مرات فى الشهر ، فيصرح له فى هذا الحال أن يطلب أجراً عن الزيارة التالية . وكان الطبيب الذى يؤدى هذه الخدمات يعفى من الضرائب ويتقاضى مرتباً سنويا مقداره عشرون جنيها(٦٨) قيمتها أربعة آلاف دولار فى هذه الأيام(*) .

وإذا كان الأطباء المرخصون قليلى العدد فى أوربا المسيحيه أثناء القرن الثالث عشر ، فقد كانت أجورهم عالية ، وكانت لهم منزلة اجتماعية سامية ؛ فمنهم من جمعوا ثروات طائلة ، ومنهم من أصبحوا من هواة جمع التحف الفنية ، ومنهم من كانت لهم شهرة عالمية . فمن هؤلاء الأطباء بطرس هسپانس Petrus Hispanus – بطرس اللشبونى ولكمپستيلى Peter of Lis bon and Compostela – الذى هاجر إلى باريس ثم إلى سينا وكتب أوسع كتب الطب انتشاراً فى العصور الوسطى وهو كتاب **كنز الفقراء** ، وخير بحث فى علم النفس فى تلك العصور وهو كتاب **النفس** De anima ؛ وصار بعدئذ البابا يوحنا الحادى والعشرين فى عام ١٢٧٦ . ثم قضى نحبه حين سقط عليه سقف فى عام ١٢٧٧ . وكان أشهر طبيب مسيحى فى ذلك الوقت هو آرنلد الڤلانوڤى (حوالى ١٢٣٥ – ١٣١١) . وقد ولد بالقرب من بلنسية وتعلم اللغات العربية ، والعبرية ، واليونانية ؛ ودرس الطب فى ناپلى ، وعلمه هو أو الفلسفة الطبيعية فى پاريس ، ومنپلييه ، وبرشلونه ، ورومة ، وألف عدداً كبيراً من الكتب فى الطب ؛ والكيمياء ، والتنجيم ، والسحر ، واللاهوت ، وعصر النبيذ ، وتفسير الأحلام . ولما عين طبيباً لجيمس الثانى ملك أرغونة أنذر الملك مراراً أنه إن لم يحم الفقراء من الأغنياء فإنه سوف يلقى فى الجحيم (٧٠) . وكان جيمس يحبه رغم هذا التحذير

(*) ولم يكن يحق للطبيب حسب قوانين القوط الغربيين فى أسبانيا أن يتقاضى أجراً إذا توفى مريضه(٦٩) .

ويرسله فى كثير من البعثات الدبلوماسية . وهاله ما رآه فى كثير من البلدان من البؤس والاستغلال ، فأضحى من أتباع يواقيم الفلورى Joachim of Flora وأعلن فى رسائل يبعث بها إلى الأمراء والأحبار أن آثام الأقوياء وترف رجال الدين نذيران بخراب العالم . ورمى الرجل بالسحر والإلحاد واتهم بأنه صنع باستخدام الكيمياء سبائك من الذهب لربرت ملك نابلى . وأدانته محكمة الكنيسة ولكن البابا بنيفاس الثامن أطلق سراحه ؛ ونجح فى علاج البابا الشيخ من حصا فى الكلى ، فأهداه البابا قصراً فى أنيانى . ثم أنذر بنيفاس أنه إذا لم تصلح الكنيسة أحوالها ، فسيحل عليها غضب الله سريعاً . وما لبث بنيفاس بعدئذ أن حلت به النوائب التى ذاعت أخبارها فى طول البلاد وعرضها ومات من فرط اليأس . وظلت محكمة التفتيش تطارد آرنلد ولكن الملوك والبابوات كانوا يدافعون عنه لأنه يداوى أسقامهم ، إلى أن مات غريقاً أثناء بعثة من قبل چيمس الثانى لكلمنت الخامس(٧١) .

هذا من حيث الطب ، أما الجراحة فى ذلك الوقت فقد كانت تحارب فى جبهتين إحداهما الحلاقين والثانية ضد المطببين العموميين . فقد كان الحلاقون من زمن بعيد يعطون الحقن ، ويخلعون الأسنان ، ويعالجون الجروح ، ويحجمون . وكان الجراحون الذين تلقوا تدريبا طبيا يحتجون على أداء هذه الخدمات التى تستخدم فيها القوة العضلية ، ولكن القانون ظل يحمى الحلاقين طوال العصور المظلمة كلها ، حتى لقد ظل من واجبات جراحى الجيش فى بروسيا إلى عهد فردريك الأكبر أن يحلقوا ذقون الضباط(٧٢) . وكان من نتائج هذا الخلط فى الواجبات أن ظل الجراحون أقل منزلة من الأطباء فى العلم وفى نظر المجتمع ، فكان ينظر إليهم على أنهم صناع بسطاء يطيعون أوامر الطبيب الذى كان قبل القرن الثالث عشر يستنكف أن يمارس الجراحة بنفسه(٧٣) . وكان مما يثبط همم الجراحين زيادة على هذا خشيتهم من السجن أو الموت إذا أخفقوا فى أعمالهم ؛

ولم يكن يجرؤ على القيام بالجراحات الخطرة إلا أعظمهم شجاعة ؛ وكان معظم الأطباء يطلبون قبل إقدامهم على هذه المجازفة ضمانا كتابيا بأنهم لن يصيبهم مكروه إذا أخفقوا فى عملهم(٧٤) .

ومع هذا فقد تقدمت الجراحة فى ذلك الوقت أسرع من تقدم أى فرع آخر من فروع الطب ؛ ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أنها كانت تعنى بأحوال قائمة لا بنظريات ، كما يرجع بعضه إلى ما كان يتاح للجراحين من فرص قيمة فى معالجة جراح الجنود . ونشر روجز السالرنى حوالى ١١٧٠ كتابه *العمليات الجراحية* وهو أقدم رسالة فى الجراحة معروفة فى بلاد الغرب المسيحية ؛ وظلت هذه الرسالة من المراجع الهامة ثلاثة قرون ، وفى عام ١٢٣٨ أمر فردريك الثانى أن تشرح جثة مرة كل خمس سنوات فى سالرنو (٧٥) ؛ وظل تشريح الجثث يجرى بانتظام فى إيطاليا بعد عام ١٢٧٥(٧٦) ؛ وفى عام ١٢٨٦ فتح طبيب فى كرمونا جثة ليدرس عليها سبب وباء انتشر فى ذلك الوقت ، فكان هذا أول تشريح لجثة بعد الموت لمعرفة سبب الوفاة ؛ وفى عام ١٢٦٦ بدأ تيودريكو برجنيونى Theodorico Brogognomi أسقف سرڤيا Cervia كفاحاً طويلا فى الطب الإيطالى ضد الفكرة العربية القائلة إن تكوين الصديد يجب أن يشجع أولا فى علاج الجروح ؛ ويعد بحثه فى التعقيم من أعظم البحوث فى طب العصور الوسطى . وخطا ججليلموساليستى Guglielmo Salicetti — وليم الساليستوى William of Saliceto (١٢١٠ — ١٢٧٧) — أستاذ الطب فى جامعة بولونيا خطوات كبيرة إلى الأمام فى تحسين الجراحة ، وذلك فى *كتاب الجراحة* الذى صدر فى عام ١٢٧٥ . وقد قرن فى هذا الكتاب التشخيص الجراحى بمعرفة الطب الباطنى ، وكان يعنى بالاحتفاظ بسجلات للمرضى ، وأظهر كيف يوصل الأعصاب المنفصلة ، ودعا إلى استعمال المشرط بدل الكى الذى

كان واسع الانتشار عند الأطباء المسلمين ، لأن جروح المشرط أضمن من النار شفاء ولا تترك من الأثر فى الجسم مثل ما تتركه النار . وقال وليم فى رسالة عامة إن سبب تضخم الغدة اللمفاوية والقرحة الزهرية هو الاتصال الجنسى بعاهر مصابة بالمرضين ، ووصف داء الاستسقاء وصفاً دقيقاً وقال إنه ينشأ من تحجر الكليتين وضيقهما ، وأسدى نصائح طبية ممتازة فى الصحة والتغذية لكل سن فى حياة الإنسان .

ونقل تليمذاه هنرى المندڤيلى Henri de Mondeville (١٢٦٠ — ١٣٢٠) وجيدو لانفرانشى Guido Lanfranchi (المتوفى عام ١٣١٥) المعارف الطبية من بولونيا إلى فرنسا . وعمل المندڤيلى ما عمله تيودوريكو فحسن طرق التعقيم بأن دعا إلى العودة إلى طريقة إبقراط وهى الاحتفاظ بالجرح نظيفاً بأبسط الوسائل . ولما نفى لانفرانشى من ميلان فى عام ١٢٩٠ انتقل إلى ليون وباريس ، وألف كتاب التشريح الكبير Chirurgia Magna الذى أصبح المرجع المعتمد فى هذا العلم فى جامعة باريس . وقد وضع لانفرانشى مبدأ بفضله أنقذ علم التشريح من الوسائل الهمجية وهو : « ليس فى وسع إنسان أن يكون طبيباً قديراً إذا كان يجهل علم التشريح ، وليس فى مقدور إنسان ما أن يجرى جراحات ناجحة إذا كان يجهل الطب » . وكان لانفرانشى أول من استخدم تشريح الأعصاب لعلاج التنوس ، وإدخال أمبومية فى المرىء ، وهو أول من أدلى بالوصف الجراحى لارتجاج المخ . وقصارى القول أن الفصل الذى وصف فيه إصابات الرأس من المعالم البارزة فى تاريخ الطب .

وقد ورد ذكر الجرعات المنومة فى كتب أرجن Origen (١٨٥—٢٥٤) وهيلارى أسقف بواتيه Hilary Bishop of Poitiers (حوالى ٣٥٣) . وكانت طريقة التخدير المألوفة فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى هى طريقة

الاستنشاق مصحوبة فى أغلب الظن بشرب مزيج أساسه المندرغورة(*) ، ويحتوى فى العادة على الأفيون وعصير الشوكران ، والتوت . وقد ورد ذكر هذه « الإسفنجة المنومة » فى القرن التاسع وما بعده[٧٨] . أما التخدير الموضعى فكان يستعان عليه بضمادة غمست فى محلول شبيه بهذا : وكان المريض يوقظ بتشميمه عصير الشمر . ولم تكن أدوات الجراحة وقتئذ قد تقدمت عما كانت عليه عند اليونان الأقدمين ؛ أما فن التوليد فقد انحط عما كان عليه فى عهد سورانس Soranus (عام ١٠٠ م) وبولس الإيجينى Paul of Aegina (حوالى ٢٤٠ م) . وقد ذكرت العملية القيصرية(**) فى الأدب ولكن يبدو أنها لم يكن يلجأ إليها . وكان تقطيع الجنين عند تعسر الولادة لتخليصه من الرحم يلجأ إليه فى كثير من الأحيان لأن القابلة قلما كانت تعرف كيف تغير وضع الجنين . وكانت الولادة تحدث فى كرسى يعد لهذا الغرض خاصة[٧٩] .

وتقدمت المستشفيات وقتئذ عما عرف عنها فى أى عصر من العصور القديمة فقد كان عند اليونان الأقدمين مؤسسات دينية لعلاج المرضى ؛ وأنشأ الرومان مستشفيات لعلاج جنودهم ، ولكن نظم الصدقات المسيحية كانت هى السبب فى تقدم نظام المستشفيات تقدماً كبيراً . وحسبنا أن نذكر عن هذا التقدم أن القديس باسيلى أسس فى مدينة قيصرية من أعمال كپدوكيا داراً سميت **الباسلياس** نسبة إليه ، كان فيها عدة مبان للمرضى ، والممرضات ، والأطباء ، والمصانع ، والمدارس . وافتتح القديس إفرايم Ephraim مستشفى فى الرها عام ٣٧٥ ؛ وأنشئت مستشفيات أخرى فى جميع أنحاء الشرق اليونانى وتخصصت وتنوعت . وكان عند اليونان البيزنطيين مصحات للمرضى ؛ وملاجئ للقطاء ، وأخرى لليتامى ، وملاجئ للفقراء ،

(*) وتسمى البيروح وهى نبات من الفصيلة الباذنجانية معروف فى العالم القديم شبيه بصورة الإنسان (من قاموس الدكتور شرف) . (المترجم)

(**) وهى تخليص الجنين بشق البطن بدون استئصال الرحم . (المترجم)

وغيرها للفقراء أو العاجزين من الحجاج أو للشيوخ الطاعنين فى السن . وقد أسست فابيرلا Fabiola فى رومة عام ٤٠٠ أول مستشفى فى البلاد المسيحية اللاتينية . وأنشأت أديرة كثيرة مستشفيات صغيرة ، وقام عدد من الرهبان — رهبان المستشفيات ، ورهبان المعبد ، والأنطونيين ، والألكسيين Alexians ، — والراهبات بالعناية بالمرضى . ونظم إنوسنت الثالث فى رومة عام ١٢٠٤ مستشفى الروح القدس Santo Spiriot ، وقامت بوحى منه مؤسسات من نوعه فى جميع أنحاء أوربا ، فكان فى ألمانيا وحدها فى القرن الثالث عشر أكثر من مائة من « مستشفيات الروح القدس » : وكانت المستشفيات فى فرنسا تعنى بالفقراء ، والطاعنين فى السن ؛ والحجاج ، كما تعنى بالمرضى ؛ وكانت كمؤسسات الأديرة تستضيف هذه الطوائف ؛ وأنشأ لويس التاسع حوالى عام ١٢٦٠ ملجأ فى باريس يدعى الثلاثمائة Les quiuze-vingt ؛ وكان فى بادئ الأمر مأوى للمكفوفين ، ثم أضحى مستشفى للرمد ، وهو الآن من أهم المراكز الطبية فى باريس ؛ وأنشئ أول المستشفيات الإنجليزية المعروفة فى التاريخ (وليس من الضرورى أن يكون أول ما أنشئ منها فى إنجلترا) بكنتربرى عام ١٠٨٤ . وكانت هذه المستشفيات تقوم فى العادة بأداء الخدمات بالمجان لمن يعجزون عن أداء الأجور ، وكانت ممرضاتها (ما عدا مستشفيات أديرة الرجال) من الراهبات . واتخذت الأثواب التى ترتديها « ملائكة الرحمة ورسلها » ، وهى التى تبدو فى نظرنا مرهقة لهن ، فى القرن الثالث عشر ، وأكبر الظن أنها اتخذت هذا الشكل لحمايتهن من الأمراض المعدية ؛ ولهذا السبب عينه جرت عادة قص الشعر وتغطية الرأس (٨٠) .

وتطلب مرضان معينان اتخاذ وسائل خاصة للوقاية ، وهذان المرضان هما « نار القديس أنطونيوس » وهو وباء جلدى — لعله مرض الحمرة — وهو مرض بلغ من خبثه أن تألفت حوالى عام ١٠٩٥ طائفة من الرهبان هى جماعة

الأنطونيين لمعالجة ضحاياه . ويذكر جرجورى التورى Gregory of Tours (حوالى عام ٥٦٠) مستشفيات الجذام ؛ وتألفت جماعة القديس لازار St. Lazarus من الرهبان للخدمة فى مستشفيات الجذام . وكانت أمراض ثمانية تعد من الأمراض المعدية : وهى الطاعون الدملى ؛ والتدرن الرئوى ، والصرع ، والجرب ، والحمرة ، والبثرة الخبيثة ، والرمد الحبيبى ، والجذام . وكان يحرم على المصاب بأحد هذه الأمراض أن يدخل مدينة إلا معزولا عن غيره ، أو أن يعمل فى بيع الطعام أو الشراب . وكان يفرض على المجذوم أن يحذر الناس من اقترابه بالنفخ فى قرن أو بدق ناقوس . وكان مرضه يبدو عادة فى شكل طفح صديدى على الوجه والجسم . وليس هذا المرض شديد العدوى ، ولكن أكبر الظن أن ولاة الأمور فى العصور الوسطى كانوا يخشون انتشاره بطريق الجماع . وربما كان هذا اللفظ يشمل فيما يشمله ، ما يعرف الآن عند الأطباء بأنه مرض الزهرى ، ولكننا لا نجد إشارة صريحة لهذا الداء قبل القرن الخامس عشر[٨١] . ويبدو أنه لم تتخذ أية وسيلة خاصة لعلاج المصابين بأمراض عقلية قبل القرن الخامس عشر .

وعانت العصور الوسطى من فتك الأوبئة أكثر مما عاناه أى عصر آخر معروف ، وذلك لأن الفقر كان يحول بين أهلها وبين النظافة أو الغذاء الصالح ، ومن أمثلة ذلك « الوباء الأصفر » الذى اجتاح أيرلندة فى عامى ٥٥٠ و٦٦٤ وأهلك كما تقول الأخبار غير الموثوق بصحتها ثلثى الأهلين[٨٢] . واجتاحت أوبئة مثله بلاد ويلز فى القرن السادس ، وإنجلترا فى القرن السابع . وفشا فى فرنسا وألمانيا فى أعوام ٩٩٤ ، ١٠٤٣ ، ١٠٨٩ ، ١١٣٠ وباء يسميه الفرنسون mal des ardents (وباء الاحتراق) وقد وصف بأنه يحرق الأمعاء . وربما كان الصليبيون هم الذين نشروا وباءى الجذام والأسقربوط ، ويبدو أن مرض **التثنى البولندى** Plica Polonica —

وهو مرض من أمراض الشعر — قد جاء به الغزاة المغول إلى بولندة حين غزوها فى عام ١٢٨٧ ؛ وكان السكان البائسون يعزون هذه الأوبئة للقحط ، والجدب وجيوش الحشرات ، وتأثير النجوم ، وتسميم اليهود لآبار المياه ، أو غضب الإله . وأقرب من هذه الأسباب إلى العقل ازدحام المدن الصغيرة المسورة بالسكان ، وعدم وجود الاحتياطات الصحية أو مراعاة قواعدها ، وما ينشأ عن ذلك من ضعف مقاومة الأهلين للعدوى التى يحملها الجنود والحجاج والطلاب العائدون إلى أوطانهم(٨٣) . وليست لدينا إحصاءات عن عدد الموتى فى العصور الوسطى ولكن أكبر الظن أن الذين كانوا يصلون إلى سن النضوج لم يزيدوا على نصف المواليد ، وكانت خصوبة النساء تعمل جاهدة للتكفير عن غباء الرّجال وبسالة الجنود .

وتحسنت وسائل المحافظة على الصحة العامة فى القرن الثالث عشر . ولكنها لم تبلغ قط فى العصور الوسطى الدرجة الممتازة التى بلغتها أيام الإمبراطورية الرومانية . وكانت معظم المدن ، وأحياء المدن ، تعين موظفين للعناية بشوارعها(٨٤) ، ولكن أعمال هؤلاء الموظفين كانت بدائية ، وكان من يزورون المدن المسيحية من المسلمين يشكون — كما يشكو من يزورون المدن الإسلامية من المسيحيين فى هذه الأيام — من قذارة « مدن الكفار » ورائحتها الكريهة(٨٥) . فقد كانت الفضلات وأقذار البالوعات تجرى فوق البالوعات فى شوارع كمبردج التى تبلغ الآن درجة كبرى من الجمال والنظافة ، وكانت تنبعث منها « روائح كريهة . . . يمرض منها الكثيرون من المدرسين والطلاب »(٨٦) . وكانت لبعض المدن فى القرن الثالث عشر قنوات مغطاة لنقل ماء الشرب ، وبالوعات ، ومراحيض عامة ؛ وكانت الأمطار هى التى يعتمد عليها فى معظم المدن لاكتساح الأقذار ، وكان تدنيس الآبار ينشر وباء التيفود ؛ وكانت المياه التى تستخدم فى عمل الخبز وعصر الخمر تؤخذ عادة — فى البلاد الواقعة فى

شمال الألب — من المجارى المائية التى تتلقى أقذار المدن[٨٧] . وكانت إيطاليا أكثر رقياً من غيرها من البلدان ، وأكبر السبب فى هذا ما ورثته عن الرومان ، وما سنه فردريك الثانى ، من تشريعات مستنيرة لإزالة الأقذار ، ولكن عدوى الملاريا الناشئة من المستنقعات المحيطة بها جعلت رومة مدينة غير صحية ، قتلت كثيرين من كبار موظفيها وزائريها ، وأنجت المدينة بين الفينة والفينة من الجيوش المعادية التى استسلمت للحمى وسط انتصاراتها .

الفصل السادس

ألبرتس مجنس ١١٩٣ – ١٢٨٠

تبرز أمامنا فى تلك الفترة من الزمان أسماء ثلاثة رجال، وهبوا أنفسهم للعلم : أدلارد الباثى Adelard of Bath ، وألبرت العظيم ، وروچر بيكن .
فأما أدلارد فقد تلقى العلم فى كثير من الأقطار الإسلامية ثم عاد إلى إنجلترا وكتب (حوالى عام ١١٣٠) حواراً طويلا سماه **الأسئلة الطبيعية** يشمل كثيراً من العلوم . ويبدأ الكتاب على الطريقة الأفلاطونية بوصف اجتماع أدلارد بجماعة من أصدقائه ، ويسألهم عن الحالة فى إنجلترا ، فيجيبونه بأن الملوك يشعلون نيران الحروب ، والقضاة يرتشون ، وكبار رجال الدين يسرفون فى شرب الخمر ، وأن العهود جميعها تنكث ، والأصدقاء كلهم يتحاسدون . ويتقبل أدلارد هذا على أنه هو الحال الطبيعية التى لا تقبل التغير ، ويعرض على أصدقائه أن ينسوها . ويسأل ابنُ أخ لأدلارد عمَّه ماذا تعلم فى بلاد المسلمين ؟ فيجيبه بأنه يفضل علوم المسلمين عن علوم المسيحيين ، فيتحداه أصدقاؤه وتكون أجوبته لهم مختارات طريفة من جميع علوم ذلك العصر . ويندد فيها بما تفرضه التقاليد والسلطات من قيود ثقيلة ويقول : لقد تعلمت عن أساتذتى العرب أن أسترشد بالعقل ، أما أنتم يامن أسرتكم ... السلطات ، فإنكم تسيرون إلى حيث يقودكم المقود والزمام . . . وماذا عسى أن تسمى السلطة غير المقود والزمام ؟ » إن الذين يحسبون الآن من أصحاب السلطان إنما حصلوا على سلطانهم باتباع العقل ، لا السلطات . ثم يقول لابن أخيه : « فإذا شئت إذن أن تسمع منى أكثر مما سمعت فأعط العقل وخذه . . . إذ ليس شىء أكثر ضماناً من العقل . . . وليس شىء أكثر كذباً

من الحواس »[٨٨] . ويدلى أدلارد ببعض الأجوبة الطريفة وإن كان يسرف فى اعتماده على المنطق الاستدلالى . فإذا سئل ما الذى يمسك الأرض فى الفضاء أجاب بأن أسفل الأرض ومركزها شىء واحد ؛ ويسأل إلى أى مدى يسقط الحجر إذا ألقى فى ثقب يخترق مركز الأرض إلى الجانب الآخر منها ؟ فيجيب بأنه لا يصل إلا إلى مركز الأرض . وهو يذكر فى وضوح مبدأ عدم فناء المادة ، ويقول إن مبدأ الاستمرار العالمى يجعل وجود الفراغ مستحيلا . وجملة القول أن أدلارد برهان ساطع على يقظة العقل فى أوربا المسيحية أثناء القرن الثانى عشر . فقد كان شديد التحمس لإمكانيات العلوم ، ويسمى فى زهو وخيلاء عصره أى عصر أدلارد بالعصر الحديث[٨٩]، وأعلى ما وصل إليه التاريخ كله .

أما ألبرتس مجنس فلم تبلغ روحه العلمية ما بلغته روح أدلارد ، ولكن شغفه بمعرفة حقائق الكون أدى به إلى إنتاج ضخم أكسبه اسم « العظيم » . واتخذت معظم مؤلفاته العلمية ، كما اتخذت معظم مؤلفاته الفلسفية ؛ صورة شروح لرسائل أرسطو المقابلة لها ، ولكنها تحتوى من حين إلى حين نسمات جديدة من الملاحظات المبتكرة ، وتتاح له وســط سحب المقتبسات المنقولة عن المؤلفين اليونان ، والعرب واليهود فرص ينظر فيها إلى الطبيعة بنفسه . وقد زار معامل التجارب ، والمناجم ، ودرس كثيراً من المعادن المتنوعة ، وفحص عن حيوان بلاده الأصلية — ألمانيا — ونباتها ، ولاحظ حلول البحر محل الأرض والأرض محل البحر ، وفسر بذلك وجود الحفريات القديمة فى الصخور . وإذا كانت فلسفته قد طغت على علمه فحالت بينه وبين الدقة العلمية ، فقد ترك نظرياته « القَبْلية » (*) تؤثر فى نظرياته العلمية ، مثال ذلك ادعاؤه أنه رأى شعر الخيل يتحول فى الماء إلى ديدان . ولكنه كان مثل أدلارد يرفض تفسير الظواهر الطبيعية بأنها تحدث

(*) النظريات القبلية هى التى تكون فى عقل الباحث قبل أن يثبتها بالأدلة الاستقرائية .

تبعاً لإرادة الله ، ويقول إن الله يعمل وفق علل طبيعية ، وإن من واجب الإنسان أن يبحث عن الله فى هذه العلل نفسها .

وقد طمست ثقته بأرسطو رأيه فى التجارب العلمية . وإنا لنثير عقولنا فقرة شهيرة فى الكتاب العاشر من مؤلفه De vegetabilis يقول فيها : « إن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة Experimentum solum Certificat » ولكن كلمة تجربة experimentum كان لها وقتئذ معنى أوسع من معناها فى هذه الأيام كما يبدو ذلك من سياق هذه الفقرة : « إن كل ما هو مدون هنا إما ثمرة تجربتنا أو مأخوذ من مؤلفين نعلم أنهم قد كتبوا ما أيدته تجربتهم الشخصية ، لأن التجربة وحدها هى التى توصل إلى الحقائق المؤكدة » . ومع هذا كله فقد كان عمل ألبرتس تقدماً سليما عظيم النفع . ويسخر ألبرتس من المخلوقات الأسطورية أمثال الحيوان الذى نصفه أسد ونصفه نسر ؛ والهولة المفترسة القذرة التى لها جسم امرأة ، وجناحا الطير الجارح ومخالبه وقدماه ، والتى هى رسول انتقام الآلهة ، والخرافات وقصص الحيوانات الخرافية الواردة فى أحد الكتب الواسعة الانتشار فى ذلك الوقت وهو كتاب Physiologus ؛ ويذكر فيما يذكره أن « الفلاسفة يذكرون كثيراً من الأكاذيب » (٩٠) . وكان فى بعض الأحيان — ولا نقول فى أغلب الأحيان — يجرى تجارب ، كما حدث حين أثبت هو ورفاقه أن « زير الحصدة » (Cicada) ظل يغنى لحظة وجيزة بعد أن قطع رأسه . ولكنه كان يثق بأقوال يلنى ثقة الإنسان البرىء بأولياء الله الصالحين ، ويصدق تصديق السذج البلهاء القصص التى يرويها الكذابون من صائدى الوحوش والسمك .

وقد خضع لزمانه حين آمن بالتنجيم ، ويعلم بالغيب وعزا قوى عجيبة للجواهر والأحجار ، ويدعى أنه شاهد بعينيه ياقوتة زرقاء شفت قرحاً . وهو يرى ، كما يرى تومس الواثق من نفسه ، أن السحر من الحقائق المؤكدة ، وأنه من فعل

العفاريت ، ويؤمن بأن الأحلام تنبئ أحياناً بالحوادث المستقبلة ، ويقول : « إن النجوم فى الحقيقة هى التى تحكم العالم » فى الأحوال الجسمية ، وأن اقتران الكواكب يفسر فى أغلب الظن « أحداثاً خطيرة وأعاجيب عظيمة » ، وأن المذنبات قد تنذر بالحروب وموت الملوك : « إن فى الإنسان مصدراً مزدوجاً للعمل — الفطرة والإرادة ؛ فأما فطرته فتحكمها النجوم ، وأما الإرادة فحرة ؛ لكن الإرادة إذا لم تقاوم ، اكتسحتها الفطرة » . ويعتقد أن فى وسع المنجمين القادرين أن يتنبئوا إلى حد كبير بما سوف يحدث للإنسان فى حياته ، أو بنتيجة ما سوف يقدم عليه من المشروعات ؛ وذلك بالنظر فى مواقع النجوم . وهو يقبل ببعض التحفظ نظرية الكيميائيين القدامى ، (أو المذهب النووى الحديث) القائل بتحول العناصر بعضها إلى بعض[٩٢] .

وكان أحسن ما عمله فى علم النبات . فقد كان أول عالم فى النبات من أيام ثيوفراسطس (على قدر ما وصل إليه علمنا) يدرس النبات للعلم بالنبات لا لفائدته فى الزراعة أو الطب . وقد صنف النباتات ، ووصف ألوانها ، وروائحها ، وأجزاءها ، وثمارها ، ودرس قوة إحساسها ، ونومها ، وتذكيرها وتأنيثها ، ونموها ، وحاول أن يكتب مقالا فى الفلاحة . وقد دهش همبولدت Humboldt إذ وجد فى كتاب *النبات* لألبرت : « ملاحظات غاية فى الدقة عن التركيب العضوى للنبات وعن وظائف أعضائه »[٩٣] . وأما كتابه الضخم *فى الحيوان* فعظمه شرح لأرسطو ، ولكننا نجد فيه أيضاً ملاحظات أصيلة . فهو يحدثنا مثلا بأنه « سافر فى بحر الشمال للقيام ببحوث فيه ، وبأنه نزل فى الجزائر ، وعلى الشواطئ الرملية ليجمع » نماذج للدرس[٩٤] وقد وازن بين الأعضاء المتماثلة فى الحيوان والإنسان[٩٥] .

وإذا ما نظرنا إلى هذه الكتب فى ضوء علمنا الحاضر حكمنا على أن فيها كثيراً من الأغلاط ، ولكننا إذا نظرنا إليها فى ضوء ما كانت عليه عقول الناس فى الزمن الذى ألفت فيه حكمنا بأنها من أعظم ما أثمرته العقول فى العصور

الوسطى . فقد كان الناس فى ذلك الوقت يعترفون بأن ألبرت أعظم المعلمين فى زمانه ، ولقد طال به العمر حتى رأى رجالا من طراز بطرس الأسبانى Peter of Spain ، وڤنسنت البوڤيزى اللذين ماتا قبله ينقلون عنه فى مؤلفاتهم . نعم إنه لم يكن فى مقدوره أن يضارع ابن سينا أو ابن ميمون أو تومس فى دقة الحكم وصدقه أو فى قبضته على ناصية الفلسفة ، ولكنه كان أعظم علماء التاريخ الطبيعى فى زمانه .

الفصل السابع

روجر بيكن – حوالى عام ١٢١٤ – ١٢٩٢

ولد أشهر علماء العصور الوسطى فى سمرست حوالى عام ١٢١٤ ، ونحن على يقين من أنه عاش حتى عام ١٢٩٢ ، وأنه قال عن نفسه فى عام ١٢٦٧ إنه شيخ كبير(٩٦) . ودرس فى أكسفورد على جروستستى وكسب من هذا العالم المحيط بشتى الفنون افتناناً بالعلم . وكانت الروح الإنجليزية ، روح النفعية والاعتماد على الاختبار ، قد أخذت تتشكل . وسافر بيكن إلى باريس حوالى عام ١٢٤٠ ، ولكنه لم يجد فيها الحافز القوى الذى بعثته فيه أكسفورد ، وأدهشه كثيراً أن لم يجد إلا قلة ضئيلة من أساتذة جامعة باريس تعرف لغة من لغات العلم خلاف اللغة اللاتينية ، وأنهم لا يولون العلم إلا قدراً ضئيلا من وقتهم ، وأنهم ينفقون الكثير منه فى الجدل المنطقى والميتافيزيقى وهو الذى كان يبدو لبيكن عديم النفع فى الحياة إلى حد الإجرام . ودرس الطب وشرع يكتب رسالة فى تخفيف متاعب الشيخوخة . وسعى للحصول على ما يلزمه من المعلومات لهذه الرسالة بالسفر إلى إيطاليا ؛ ودرس اللغة اليونانية فى بلاد اليونان الكبرى(*) ، وفيها عرف بعض المؤلفات الطبية الإسلامية ، ثم عاد إلى أكسفورد فى عام ١٢٥١ ، وانضم إلى هيئة التدريس فى تلك الجامعة ؛ وكتب فى عام ١٢٦٧ يقول إنه أنفق فى العشرين السنة السابقة على ذلك العام ألفى جنيه فى شراء « الكتب السرية والآلات » وفى تعليم الشبان اللغات والعلوم الرياضية(٩٧) . واستأجر اليهود ليعلموه هو وطلابه اللغة العبرية وليعاونوه على قراءة العهد القديم بلغته الأصلية .

(*) كان اليونان فى الزمن القديم يطلقون هذا الاسم على جنوب إيطاليا . (المترجم)

وانضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيس حوالى عام ١٢٥٥ ، ولكن يبدو أنه لم يصبح فى يوم من الأيام قسا .

وعافت نفس بيكن ميتافيزيقية المدرسيين ، فألقى بنفسه بحماسة بالغة فى تيار العلوم الرياضية ، والتاريخ الطبيعى ، والفلسفة . وليس من حقنا أن نفكر فيه على أنه مبتكر فذ ، وصوت عالمى يدوى فى بيداء الفلسفة المدرسية ؛ لأن الواقع أنه كان فى كل ميدان مديناً لمن سبقوه ؛ وأن ما وهب من القدرة على الابتداع كان هو الذروة المحتومة لتطور طويل المدى. ولقد وضع ألكسندر نكهام، وبارثلميو الإنجليزى Bartholomew the Englishman ، وربرت جروستستى ، وآدم مارش Adam Marsh فى أكسفورد تقاليد علمية ثابتة ، ورثها بيكن ، وأعلنها إلى العالم ؛ وكان يعترف بفضل أولئك السابقين عليه ويثنى عليهم ثناء لا حد له : وكان يعترف كذلك بما للعلوم والفلسفة الإسلامية من فضل عليه وعلى العالم المسيحى كله ، وبما هو مدين لليونان عن طريق العلماء المسلمين ؛ وأشار إلى أن علماء اليونان والمسلمين « الكفرة » كانوا هم أيضاً ممن تلقوا الوحى والهداية من الله(٩٨) . وكان يجل إسحق إسرائيلى ، وابن جبيرول وغيرهما من المفكرين العبرانيين ، ووجد فى نفسه من الشجاعة ما يمكنه من أن يقول كلمة طيبة عن اليهود الذين كانوا يقيمون فى فلسطين حينما صلب المسيح(٩٩) . ولم يكن يأخذ العلم بنهم عن العلماء وحدهم ، بل كان يأخذه أيضاً عن أى إنسان تستطيع معارفه فى الصناعات اليدوية أو الأعمال الزراعية أن تزيد ما لديه من معلومات . وكتب فى هذا المعنى بتواضع لا عهد لنا به :

لاريب فى أن إنساناً ما لن يستطيع ، قبل أن يرى الله وجهاً لوجه ، أن يعرف شيئاً مؤكداً تأكيداً نهائيا ... لأنه لا يوجد إنسان ملم بجميع أحوال الطبيعة إلماما يمكنه من أن يعرف كل شىء .. عن طبيعة ذبابة واحدة وخواصها.. وإذ كانت الأشياء التى يجهلها الإنسان لا حصر لها ؛ وكانت أعظم وأجمل إذا

قيست إلى ما يعرفه منها ، فإن من يمتدح نفسه بكثرة ما يعرفه ، مخبول قد اختلت موازين عقله . وكلما زاد الناس حكمة ، كانوا أكثر تواضعاً واستعداداً لتلقى العلم من غيرهم ؛ وهؤلاء لا يحتقرون من يأخذون عنه لسذاجته ، ولكنهم يظهرون التواضع للفلاحين ، وللعجائز من النساء وللأطفال ، لأن السذج وغير المتعلمين يعرفون أشياء كثيرة تخفى على الحكماء . . . ولقد عرفت أنا نفسى من أُناس ذوى مكانة وضيعة حقائق أكثر أهمية من التى عرفتها من جلة العلماء الذائعى الصيت . فليحذر كل إنسان إذن أن يفاخر بما أُوتى من حكمة(١٠٠) .

واندفع فى العمل بجهد وسرعة أثرتا فى صحته حتى اعتل جسمه فى عام ١٢٥٦ ، فانسحب من الحياة الجامعية ولم نعد نعرف عنه شيئاً فى العشر السنين التالية . وأكبر الظن أنه ألف فى هذه الفترة بعض كتبه الصغيرة أمثال : **فى العدسات المحرقة وفى قوى الاختراع والطبيعة العجيبة** ، **وتقرير الحادثات الطبيعية** . ووضع فى هذا الوقت خطه « **الكتاب الرئيسى** » وهو موسوعة من عمل رجل واحد أراد أن تكون فى أربعة مجلدات : (١) النحو والمنطق . (٢) الرياضة ، والهيئة ، والموسيقى . (٣) العلوم الطبيعية — البصريات ، والجغرافية ، والتنجيم ، والكيمياء القديمة ، والزراعة ، والطب ، والعلوم التجريبية . (٤) ما وراء الطبيعة والأخلاق .

وبعد أن كتب أجزاء متفرقة من هذه الموسوعة واتته فرصة خيل إليه أنها فرصة سعيدة ، فحالت بينه وبين إنجاز برنامجه . ذلك أن جاى فولك Guy Foulques كبير أساقفة نربونة ارتقى عرش البابوية فى شهر فبراير من عام ١٢٦٥ وتسمى باسم كلمنت الرابع ، وجاء معه إلى البابوية ببعض الروح الحرة التى نشأت فى جنوبى فرنسا من اختلاط الشعوب والعقائد الدينية . وكتب إلى بيكن فى شهر يونية يأمره بإرسال « نسخة مبيضة » من مؤلفاته « سراً وعاجلا »

و « دون مبالاة بتحريم أى رئيس دينى ، أو لائحة الطائفة التى تنتمى إليها»[١٠١].
وشرع بيكن بكل ما فى وسعه من جهد (كما يتبين ذلك من أسلوبه الحماسى) يعمل ليتم موسوعته ؛ ولكنه خشى أن يتوفى كلمنت أو يفقد اهتمامه بالعمل قبل تمامه ، فأجله ، وألف فى اثنى عشر شهراً — أو جمع من مخطوطاته — الرسالة الأولية المعروفة لنا باسم **الكتاب الأكبر** Opus Maius ؛ وظن أن هذا المؤلف نفسه قد يكون أطول مما يريده البابا الكثير المشاغل فكتب عناصر منه سماها **الكتاب الأصغر** ؛ وأرسل هذين المخطوطين فى أوائل عام ١٢٦٨ إلى كلمنت ومعها مقال عن **تضاعف الرؤية** . وخشى أن تضيع هذه فى طريقها إلى البابا فكتب خلاصة أخرى لآرائه هى **الكتاب الرابع** وأرسلها إلى كلمنت مع رسول خاص ، مصحوبة بعدسة ، وأشار على البابا أن يجرى بها تجارب بنفسه . وتوفى كلمنت فى شهر نوفمبر من عام ١٢٦٨ . ومبلغ علمنا أن كلمة واحدة لم ترسل إلى الفيلسوف من البابا نفسه أو ممن جاءوا بعده اعترافاً منه أو منهم بوصول هذه الكتب .

فالكتاب الأكبر إذن هو عندنا « أكبر مؤلفات » بيكن ، وإن كان هو لم يرده إلا أن يكون فاتحة لمؤلفاته . وهو كتاب ضخم يضم ثمانمائة صفحة مقسمة إلى سبع رسائل : (١) فى الجهل والخطأ . (٢) وفى العلاقة بين الفلسفة وعلوم الدين. (٣) وفى دراسة اللغات الأجنبية . (٤) وفى فائدة العلوم الرياضية . (٥) وفى فن المنظور والبصريات ، (٦) وفى العلوم التجريبية . (٧) وفى الفلسفة الأخلاقية . وفى الكتاب قدره الخليق به من السخافات ، وفيه كثير من الاستطراد ، وأكثر مما يليق من المقتبسات الطويلة من مؤلفات غيره ؛ ولكنه يمتاز بالقوة ، والإخلاص ، والاتجاه إلى القصد مباشرة ، ويقبل عليه

القراء فى هذه الأيام أكثر من إقبالهم على أى مؤلف آخر من مؤلفات العصور الوسطى فى العلوم أو الفلسفة . وإنا ليسهل علينا أن نفهم الاضطراب الحماسى ، والإشادة بالبابوية ، والحرص الشديد على الجهر بالتمسك بالدين القويم ، والنزول بالعلم والفلسفة إلى منزلة الخدم لعلوم الدين ، نقول إنا ليسهل علينا أن نفهم وجود هذا كله فى كتاب يبلغ هذا المبلغ من اتساع المدى وتعدد الموضوعات ، كتب ليكون خلاصة عاجلة ، ويراد به الحصول على تأييد البابا للتربية العلمية والبحث العلمى . ذلك أن روچر بيكن كان يشعر به فرانسس بيكن وهو أن تقدم العلوم فى حاجة إلى معونة رؤساء الدين وكبار رجال الدولة ، وإلى أموالهم لتبتاع بها الكتب ، والآلات والسجلات ، ومعامل الاختبار ، والتجارب ، ولأداء أجور الموظفين .

وكأنما أراد أن يستبق سميه إلى تحطيم « الأصنام » بثلثمائة عام ، فبدأ بذكر أربعة أسباب هى التى توقع الإنسان فى الخطأ وهى ؛ « الاقتداء بالمراجع الراهنة غير الجديرة بأن يقتدى بها ، والعادة التى استقرت من زمن بعيد ، وإحساس الجماهير الجاهلة ، وتغشية الجهل بستار من التظاهر بالحكمة »[١٠٢]. ويحرص على أن يضيف إلى هذا أنه « لا يشير بحال من الأحوال إلى تلك السلطة القوية الموثوق بها التى .. وهبت إلى الكنيسة » . (٥) وهو يأسف لتسرع أهل زمانه واعتقادهم أنه يكفى لأن تكون قضية ما فى رأيهم قد ثبتت بالدليل إذا وجد فى أرسطو ، ويجهر بأنه لو أوتى السلطة الكافية لأحرق جميع كتب هذا الفيلسوف ، لأنها فى رأيه منبع الأخطاء ومصدر الجهل[١٠٣] ، ثم تراه بعد هذا لا تخلو صفحتان من كتابه دون عبارة مقتبسة من أرسطو .

ويكتب فى أول الجزء الثانى يقول : « وبعد أن أقصيت أسباب الخطأ الأربعة وألقيت بها فى الدرك الأسفل أحب أن أبين حكمة واحدة لا أكثر هى الحكمة الكاملة ، وهى الحكمة التى يحتويها الكتاب المقدس » . وفى رأيه أنه

إذا كان فلاسفه اليونان قد ألهموا نوعاً من الإلهام الثانوى ، فسبب ذلك أنهم اطلعوا على كتب الأنبياء والبطارقة(١٠٤). ويبدو أن بيكن يؤمن بقصص الكتاب المقدس إيماناً ساذجاً ، ويعجب لم لا يسمح الله للناس أن يعيشوا ستمائة عام(١٠٥) . ويؤمن كذلك بقرب نزول المسيح وبنهاية العالم . وهو يدفع عن العلم لأنه يكشف عن الخالق فى خلقه ، ولأنه يمكن المسيحيين من أن يهدوا الكفار الذين لا يتأثرون بالكتاب المقدس . وهكذا « يتأثر العقل البشرى فيؤمن بحقيقة مولد المسيح من العذراء ، لأن بعض الحيوانات تحمل وهى عذراء وتلد صغاراً ، ومن أمثلة ذلك الصقورة والقردة ، كما يقول أمبروز فى كتابه **الأيام الستة**(*) . هذا إلى أن الخيل فى كثير من البلدان تحمل بفعل الرياح وحدها حين تشتهى الذكر كما يقول پلنى(١٠٦) ، وتلك كلها أمثلة يؤسف لها اعتمد فيها على أصحاب « السلطة » العلمية لا أكثر .

ويبذل بيكن فى الجزء الثالث من كتابه غاية جهده ليعلم البابا اللغة العبرية لأن دراسة اللغات فى رأيه لازمة للدين ، والفلسفة ، والعلوم ، وذلك لأن الترجمة أيا كانت لا تنقل معنى الكتب المقدسة أو أقوال الفلاسفة الكفرة نقلا دقيقاً . ويتحدث بيكن فى **الكتاب الأصغر** حديثاً علميا مدهشاً عن التراجم المختلفة للكتاب المقدس ويثبت علمه الواسع بالنصوص العبرية واليونانية . ويقترح أن يعين البابا لجنة من العلماء المتبحرين فى اللغات العبرية واليونانية ، واللاتينية لمراجعة الترجمة اللاتينية القديمة لهذا الكتاب ، وأن تكون هذه الترجمة المراجعة — **لا أحكام** بطرس لمبارد هى التى تدرس مع علوم الدين ويحث على إنشاء كراسى أساتذة لتدريس اللغات العبرية واليونانية والعربية ، والكلدانية ؛ ويعارض فى استخدام القوة لتحويل غير المسيحيين إلى الدين المسيحى ، ويتساءل

(*) يريد الأيام الستة التى خلق الله فيها العالم . (المترجم)

كيف تستطيع الكنيسة أن تتصل بالمسيحيين اليونان ، والأرمن ، والسوريين ، والكلدان إلا عن طريق لغاتهم . وكان بيكن يعمل بجد فى هذا الميدان ويعظ الناس ، وكان أول العلماء فى العالم المسيحى الغربى يتم وضع كتاب نحو يونانى ليستخدمه الذين يعرفون اللاتينية ، وأول مسيحى يؤلف فى نحو اللغة العبرية . وكان يقول إن فى مقدوره أن يكتب باللغتين اليونانية والعبرية ، ويبدو أنه درس أيضاً اللغة العربية[١٠٧] .

وحين يصل بيكن إلى موضوع الرياضيات تصبح كتبه مسرحاً للتحمس البليغ والنظريات الغامضة . ويقول عن الرياضيات : « واعتقادى أن العلوم الرياضية لازمة وأنها تلى فى ذلك اللغات » . ويكشف عن خضوعه لتأثير الدين حين يقول إن العلوم الرياضية « يجب أن تساعد على معرفة مكان الجنة والنار » ، وتزيد من علمنا بجغرافية الكتاب المقدس والتواريخ الدينية ، وتمكن الكنيسة من إصلاح التقويم[١٠٨] . ويقول : ولنلاحظ كيف تساعدنا « القضية الأولى فى الهندسة » — وهى إنشاء مثلث متساوى الأضلاع على خط معلوم — على « أن ندرك أننا إذا سلمنا بشخص الله الأب ، تبدى أمامنا الثالوث ذو الأشخاص المتساوين »[١٠٩] ثم ينتقل من هذا المركز السامى الذى يضع فيه الرياضة فيستبق استباقا مدهشاً علم الطبيعة الرياضية الحديث بإصراره على أن العلم لا يبلغ حد الكمال فى الخصائص العلمية إلا إذا صاغ نتائجه كلها فى صورة رياضية ، وإن كان لا بد له أن يجعل التجارب هى الطريقة التى يستخدمها فى الوصول إلى تلك الغاية . وعنده أن جميع الظواهر غير الروحية أثر من آثار المادة والقوة ، وأن جميع القوى تعمل فى تناسق وانتظام ، ولهذا فإنها يمكن التعبير عنها بخطوط وأشكال « ومن الواجب تحقيق الأشياء بالبراهين المبينة بخطوط وأشكال » ؛ وليست جميع العلوم الطبيعية فى آخر الأمر إلا علوما رياضية[١١٠] .

ولكن إن كانت الرياضة هى النتيجة ، فإن التجربة يجب أن تكون وسيلة العلم وطريقة اختيار نتائجه . ولقد أحدث بيكن ثورة علمية أداتها الرياضيات والتجارب ، على حين أن الفلاسفة المدرسيين من أبلار إلى توماس أكويناس قد وضعوا كل ثقتهم فى المنطق ، وكادوا يضمون أرسطو إلى الثالوث المقدس ، لأنهم فى واقع الأمر جعلوه روحا قدسا . فهو يقول إن أدق النتائج التى يؤدى إليها المنطق تتركنا غير واثقين من صدقها حتى تؤيدها الخبرة ، فالحرق وحده هو الذى يقنعنا بحق أن النار تحرق ؛ « ومن يُرد أن يبتهج ابتهاجاً لاريب فيه بالحقائق الكامنة وراء الظواهر الطبيعية فليهب نفسه للتجارب العلمية »(١١١) . ويبدو أنه فى بعض الأوقات يرى أن التجربة experimentum ليست وسيلة من وسائل البحث ، بل هى الطريقة النهائية من طرق البرهان بوضع الأفكار — التى وصل إليها الإنسان بالخبرة والاستدلال — موضع الاختيار . وذلك بأن تصنع على أساسها أشياء ذات فائدة عملية(١١٢) . وهو يدرك ويعلن فى وضوح . أكثر من فرانسس بيكن أن التجربة فى العلوم الطبيعية هى البرهان الذى لا برهان غيره . ولم يكن يدعى أن هذه الفكرة جديدة أتى بها من عنده ، بل يعتقد أن أرسطو ، وچالينوس ، وبطليموس ، والعلماء المسلمين ، وأدلارد ، وبطرس الأسپانيولى ، وربرت جروستستى ، وألبرتس مجنس وغيرهم قد قاموا بالتجارب العلمية أو امتدحوها ، وكل ما فعله روجر بيكن أن جعل الضمنى صريحاً ؛ وأن ثبت راية العلم فى الأرض المنتزعة من بيداء الجهل .

ولم يفد روجر بيكن العلوم نفسها ، كما لم يفدها فرانسس بيكن ، إلا فى القليل الذى لا يغنى ، إذا استثنينا من ذلك علم البصريات وإصلاح التقويم . ذلك أن هذين الرجلين لم يكونا عالمين بل كانا من فلاسفة العلم . وقد واصل روجر عمل جروستستى وأمثاله فاستنتج أن التقويم اليوليوسى بالغ فى طول السنة الشمسية فزادها يوماً فى كل ١٢٥ سنة — وهو أدق تقدير وصل إليه العالم فى ذلك

الوقت — وأن التقويم كان فى عام ١٢٦٧ متقدماً عن الشمس بعشرة أيام : ولهذا اقترح إسقاط يوم من التقويم اليوليومى فى كل ١٢٥ سنة . ولا تكاد الصفحات المائة التى خصها بعلم الجغرافية فى الجزء الرابع من **الكتاب الكبير** تقل براعة عن هذه الفكرة البارعة . فقد تحدث روجر بحماسة بالغة مع ولیم ربرسكوى William of Rubresquis عن عودة زملائه الرهبان الفرنسيس من الشرق ، وعرف الشيء الكثير عنه ، وانطبع فى ذهنه قول وليم إن ثمة ملايين لا حصر لها من الناس لم يسمعوا شيئاً قط عن الدين المسيحى . وأعلن بالاستناد إلى أقوال وردت فى أرسطو وسنكا أن « البحر الذى يفصل طرف أسپانيا الغربى عن شرق الهند يمكن اجتيازه فى بضعة أيام قليلة جداً إذا كانت الريح مواتية »[١١٣] . وقد اقتبس كولمبس الفقرة التى نقلت عنه فى **مصور العالم** (١٤٨٠) لكردنال پيردايي Pierre d, Ailly فى خطاب كتبه إلى فرديناند وإزبلا فى عام ١٤٨٠ وقال إنها مما أوحى إليه بالرحلة التى قام بها فى عام ١٤٩٢[١١٤] .

وكأنما كان بيكن فى العمل الذى قام به فى علم الطبيعية يرى بعين الخيال المخترعات الحديثة ، وإن كان يغشاها من حين إلى حين الآراء السائدة فى عصره . وإلى القارئ ترجمة حرفية لفقرات مشهورة يقفز فيها من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين :

يختص جزء من خمسة أجزاء من كل علم بصنع آلات عظيمة النفع إلى أقصى حد كالآلات التى تستخدم فى الطيران ، أو بالانتقال فى مركبات لا تجرها دواب ، ولكنها تجرى مع هذا بسرعة لا تعادلها قط سرعة أخرى ؛ أو فى عبور البحار من غير مجاديف وبسرعة أكبر مما يظن أنها مستطاعة على أيدى الآدميين . ذلك أن هذه الأشياء قد حدثت فى أيامنا هذه . وليس من حق أى إنسان أن يسخر أو يدهش منها . وهذا الجزء من العلم يرينا كيف نصنع آلات يستطاع

بها رفع أثقال لا يصدقها العقل أو إنزالها بغير مشقة ولا جهد ...[١١٥]. ألا إن من المستطاع صنع آلات طائرة . . . إذا جلس الرجل فى وسط الواحدة منها أمكنه أن يديو دولاباً عجيب الابتكار تستطيع به أجنحة صناعية أن تضرب الهواء كما يضربه جناحا الطائر . » . ويمكن أيضاً صنع آلات يمشى بها الإنسان في البحر أو النهر وفى قاعهما نفسه ، من غير خطر عليه[١١٦] .

وفى **الكتاب الأكبر** فقرة فسرت بأنها تشير إلى البارود :

لقد كشفت فنون جديدة لمقاومة أعداء الدولة يستطاع بها إهلاك كل من يجرؤ على مقاومتها وإن لم يستخدم فى ذلك سيف أو غيره من الأسلحة التى تحتاج إلى الاتصال البدنى . . . . ذلك أن دوياً مروعاً يصدر من قوة الملح المعروف بنيترات البوتاس إذا اشتعل فيه جسم ضئيل الحجم ، وهو قطعة صغيرة من الرق . . . وهذا الدوى المروع يفوق هزيم الرعد وينبعث منه بريق أشد من البرق الذى يصحب الرعد .

وفى فقرة لعلها مدسوسة على **الكتاب الثالث** يضيف بيكن إلى القول السابق قوله إن بعض اللعب « المفرقعة » تستعمل فى ذلك الوقت وتحتوى على خليط من نيترات البوتاس (بنسبة ٢ر٤١٪) والفحم النباتى (بنسبة ٤ر٢٩٪) والكبريت (بنسبة ٤ر٢٩٪)[١١٧] ، ويشير إلى أن قوة هذا المسحوق المفرقعة يمكن مضاعفتها بوضعه فى داخل مادة صلبة . وهو لا يدعى بأنه اخترع البارود ، وكل ما فى الأمر أنه كان من أوائل من درسوه كيميائياً وتنبأوا بإمكانياته .

وخير ما كتبه بيكن على الإطلاق هو الجزء الخامس من **الكتاب الأكبر** « فى علم المنظور ». وفى الرسالة المكملة له فى **تضاعف الرؤية** . وقد تفرعت هذه المقالة البارعة فى البصريات من كتاب جروستستى عن قوس قزح ، ومن تلخيص وتلو Witelo لكتاب ابن الهيثم ، ومن دراسات علم البصريات التى تنقلت من

ابن سينا ، إلى الكندى ، إلى بطليموس ، وبلغت غايتها فى إقليدس (٣٠٠ ق.م) الذى برع فى تطبيق الهندسة النظرية على حركات الضوء . وكان من البحوث التى قام بها بيكن : هل الضوء هو انبعاث جزيئات من الجسم المرئى؟ أو هل هو تحرك الوسط الكائن بين هذا الجسم والعين ؟ ويعتقد بيكن أن كل جسم مادى يشع قوة فى جميع الاتجاهات ، وأن هذه الإشعاعات قد تنفذ فى الأجسام الصلبة :

ليس ثمة جسم يبلغ من الكثافة حداً يمنع الأشعة منعاً باتاً من أن تمر فيه ذلك أن المادة التى تتركب منها الأجسام واحدة فيها جميعاً ، ولهذا فليس ثمة جسم لا تحدث الأفعال التى تصحب مرور شعاع ما تغيراً فيه ... إن أشعة الحرارة والصوت تخترق جدران إناء من الذهب أو الشبه ، ويقول بوثيثيوس إن عين الوشق(*) تخترق الجدران السميكة(١١٨) .

ولسنا واثقين من هذه القوة المعزوة إلى الوشق ، ولكننا إذا استثنينا هذا القول حق علينا أن نعجب بهذا الخيال الجرىء لذلك الفيلسوف ، وهو « الخيال المتماسك فى كل أجزائه » . وحاول بيكن وهو يقوم بالتجارب على العدسات والمرايا أن يصوغ قوانين انكسار الضوء ، وانعكاسه ؛ وفعل الأشعة الضوئية فى تكبير الأجسام وتصغيرها . ومثل لنفسه قدرة العدسة المحدبة على تركيز كثير من أشعة الشمس فى نقطة واحدة ، ثم تشتيت هذه الأشعة خلف هذه النقطة لتكون منها صورة مكبرة فكتب يقول :

فى مقدورنا أن نشكل الأجسام الشفافة (العدسات) ونرتبها بالنسبة إلى قوة بصرنا وللأجسام المرئية ترتيباً يجعل الأشعة تنكسر وتنحنى فى أى اتجاه نريده ، فنرى من أية زاوية نشاء الجسم قريباً منا أو بعيداً عنا . وعلى هذا فإن فى وسعنا أن نقرأ أصغر الحروف من بعد لا يصدقه الإنسان ، وأن نعد حبات

(*) Lynx وهو حيوان من فصيلة الهر مرتفع الجسم عند مؤخره ، ذو شعر طويل ، وذيل قصير ، تنتهى أذناه بخصيلتين من الشعر ويقال إنه حاد البصر . (المترجم)

التراب او الرمل ... وعلى هذا فإن جيشاً صغيراً يمكن أن يبدو للناظر كبيراً ... وقريباً منه كل القرب ... وفى وسعنا أيضاً أن نجعل الشمس ، والقمر ، والنجوم تبدو كأنها قد نزلت إلينا ، ... وما إلى هذا من الظواهر الكثيرة المماثلة مما لا يتقبله عقل الشخص الذى يجهل الحقائق ...[119] ويمكن إلى هذا تصوير السماء بكل ما لها من طول وعرض بصورة مجسمة تتحرك حركتها اليومية ، وقيمة هذا عند الرجل العاقل تعادل مملكة بأسرها ... وثمة عجائب أخرى غير هذه يخطئها الحصر ويمكن عرضها على العين[120] .

تلك فقرات ذات روعة وجلال ، ويكاد كل عنصر من عناصر النظرية التى نبسطها يوجد قبل بيكن وخاصة فى كتب ابن الهيثم ؛ ولكنه هو الذى جمع مادتها كلها فى صورة عملية ثورية استطاعت وقت أن حل أوانها أن تبدل العالم . وهذه الفقرات هى التى أرشدت ليونارد دجس Leonard Diggis (المتوفى حوالى ١٥٧١) إلى وضع النظرية التى اخترع المرقب على أساسها[121]

ولكن ما الذى يحدث إذا زاد تقدم العلوم الطبيعية من قدرة الإنسان دون أن يسمو بأغراضه ؟ لعل أكثر نظرات بيكن نفاذاً إلى الصميم هى سبقه إلى تصور مشكلة لم تتضح للعالم إلا فى أيامنا هذه ، فها هو ذا فى الكتاب الأكبر يعبر عن اعتقاده الراسخ أن العلم وحده لا ينجى الإنسان :

كل هذه العلوم السالفة الذكر نظرية . ولسنا ننكر أن لكل علم وجهة عملية ؛ ... ولكن الفلسفة الأخلاقية وحدها هى التى نستطيع أن نقول عنها ... إنها عملية فى جوهرها ... لأنها تبحث فى سلوك الإنسان ، فى الفضيلة والرذيلة ؛ فى السعادة والشقاء ... والعلوم الأخرى كلها لا قيمة لها إلا من حيث أنها تعين على العمل الصالح ؛ وعلى هذا الاعتبار تصبح العلوم « العملية » ، كالتجارب والكيمياء ، وغيرهما علوماً نظرية إذا قورنت بالعمليات التى تعنى بها العلوم الأخلاقية أو السياسية . وعلم الأخلاق هذا هو سيد كل فرع من فروع الفلسفة[122] ؛



(الصورة رقم ٩) إكهارد وزجته أوتا — فى كتدرائية نومبرج

ويصور بيكن حكمه الأخير فى صالح الدين لا فى صالح الفلسفة ، فبالأخلاق وحدها يؤيدها الدين يستطيع الإنسان أن ينجى نفسه . ولكن أى دين يقصد ؟ إنه يحدثنا عن ندوة الأديان — البوذية ، والإسلام ، والمسيحية — وهى النـــدوة التى عقـــدت ، على ما يقول وليم الربرسكوى فى قرقورم Karakorum بناء على دعوة منجوخان وتحت رياسته[١٢٣]. ويفاضل بيكن بين الأديان الثلاثة ، ويصدر حكمه فى صالح الدين المسيحى ، ولكنه لا يصدر هذا الحكم له بوصفه ديناً يتعبد به الناس فى العالم وكفى . وهو يشعر بأن البابوية ، مهما وجه إليها جروستستى من نقد لاذع ، هى الرابطة الروحية لأوربا ، وبدونها تمزقها فوضى العقائد والحروب ، وكان يأمل أن يدعم الكنيسة بالعلوم ، واللغات ، والفلسفة يمكنها من أن تحكم العالم حكما روحياً خيراً من حكمها الحاضر[١٢٤] . وختم كتابه كما بدأ بالجهر الصادر عن عقيدة قوية بولائه للكنيسة ، ويمجد فى نهايته القربان المقدس — كأنه يقول إن الإنسان إذا لم يعمل من حين إلى حين للاتصال بأسمى مثله العليا احترق فى لهيب هذا العالم .

ولعل عجز البابوات عن الاستجابة بوسيلة ما إلى المنهج الذى وضعه بيكن وإلى دعواته المتكررة قد أظلم روحه وأمرّ قلمه . وكانت نتيجة هذا أنه نشر فى عام ١٢٧١ موجزا للدراسات الفلسفية غير كامل لم يضف إلا القليل للفلسفة ، ولكنه أضاف الشيء الكثير إلى الأحقاد الدينية التى كانت تمزق المدارس تمزيقاً . وفيه قضى قضاء عاجلا على الجدل الآخذ وقتئذ فى الضعف بين الواقعية والصورية فقال : « ليس الكلى إلا تماثل عدة أفراد » و « فى الفرد الواحد من الواقعية أكثر مما فى الكليات كلها مجتمعة »[١٢٥] . وأخذ بنظرية أوغسطين ووصل إلى أن جهود الأشياء كلها لإصلاح شأنها قد أحدثت سلسلة طويلة من التطورات[١٢٦] . كما أخذ بفكرة أرسطو القائلة بوجود العقل الفاعل

أو العقل الكونى الذى « يسرى إلى عقولنا وينيرها » وأقترب اقتراباً شديداً من مبدأ وحدة الوجود الذى ينادى به ابن رشد(١٢٧) .

ولكنه لم يهز مشاعر معاصريه بآرائه الفلسفية بقدر ما هزها بهجومه على منافسيه وعلى مبادئ زمانه الأخلاقية . ذلك أنه فى موجز الدراسات الفلسفية كاد يلهب بسوطه جميع نواحى الحياة فى القرن الثالث عشر : اضطراب نظام المحاكم البابوية ، وانحطاط طوائف رهبان الأديرة ، وجهل رجال الدين ، وثقل مواعظهم وخلوها من التشويق ، وفساد أخلاق طلاب العلم ، وما فى الفلسفة من لغو وتلاعب بالألفاظ . وذكر فى رسالة له عن أخطاء الطب « ستة وثلاثين عيباً أساسياً كبيراً » فى النظريات والأعمال الطبية فى عصره ، وكتب فى عام ١٢٧١ فقرة ربما تدعونا إلى التسامح فى عيوب أيامنا هذه :

يُرتكب فى عصرنا هذا من الذنوب أكثر مما يرتكب فى أى عصر قبله . فالكرسى البابوى يمزقه خداع الظالمين وغدرهم ... ولقد فشا الكبرياء بين الناس ؛ وغلت مراجل الطمع فى الصدور ؛ وأنشب الحسد أنيابه فى جميع النفوس ؛ والبلاط البابوى كله يسربله الفجور بالعار ، والنهم هو سيد الجميع ... وإذا كان هذا هو شأن الرأس فماذا عسى أن تفعل سائر الأعضاء ؟ فلننظر إلى كبار رجال الدين كيف يجرون وراء المال ، ويهملون العناية بالأرواح ، ويرفعون إلى المناصب العليا أبناء إخوتهم وأخواتهم وغيرهم من الأصدقاء وأولى الأرحام ؛ والمحامين الماكرين الذين يفسدون كل شىء بنصائحهم ... ولننظر إلى طوائف الرهبان من رجال الدين ، لست أستثنى أحداً مما أشاهده بينهم ؛ انظروا فى أية هاوية ترددوا ، وهووا من شامخ مجدهم فرادى وجماعات ، وهاهم أولاء الرهبان (الإخوان) الجدد قد فسدوا فساداً مروعاً وحادوا عن تقواهم الأولى . إن رجال الدين على بكرة أبيهم لا هم لهم إلا التكبر ، والفجور ، والبخل ، وحيثما يجتمع طلاب العلم ...

لا تسمع منهم إلا اغتياب غير رجال الدين والتشهير بحروبهم ومنازعاتهم وغيرها من الرذائل . والأمراء ، والأشراف ، والفرسان يظلم بعضهم بعضاً ، ويشقون رعاياهم بحروبهم ومطالبهم التى لا حد لها . . . . والشعب الذى يشقى بأمرائه ، يحقد على هؤلاء الأمراء ، ولا يدين لهم بولاء إلا إذا أرغم على ذلك قوة واقتداراً ؛ وقد أفسده المثل السيئ الذى ضربه له سادته وكبراؤه ، فترى أفراده يظلم بعضهم بعضاً ويخدعه ويغشه ، ونحن نشهد هذا كله بأعيننا فى كل مكان ، وهم منهمكون فى فسقهم ونهمهم ، وقد بلغوا من الانحطاط حداً يعجز اللسان عن النطق به . أما التجار والصناع فحدث عنهم ولا حرج ، لأن الخداع والغش هما ديدنهم فى جميع أقوالهم وأفعالهم . . . لقد كان الفلاسفة الأقدمون ، وإن أعوزتهم الكياسة المنعشة التى تجعل الناس خليقين بالخلود ، يعيشون خيراً منا إلى أبعد حد مستطاع ، سواء فى أدبهم أو فى احتقارهم هذا العالم وكل ما فيه من بهجة وغنى ، وثروة ، وألقاب التكريم ، كما يتبين الناس جميعاً من مؤلفات أرسطو ، وسنكا ، وتلى Tully ، وابن سينا ، والفارابى ، وأفلاطون ، وسقراط وغيرهم ؛ وبهذا وصلوا إلى أسرار الحكمة ، وكشفوا عن جميع المعارف ؛ أما نحن المسيحيين فلم نكشف شيئاً بما كشفه أولئك الفلاسفة ؛ بل إننا لنعجز عن إدراك حكمتهم . ومنشأ جهلنا هذا هو أن أخلاقنا شر من أخلاقهم . . . . وليس ثمة بين العقلاء من يخالجه أدنى شك فى أن الواجب يقضى بتطهير الكنيسة[١٢٨] .

ولم تنطبع فى عقله صورة طيبة من الفلاسفة المعاصرين له ، وشاهد ذلك ما كتبه عنهم إلى كلمنت الرابع يقول إن أحداً منهم لا يستطيع فى عشر سنين أن يؤلف كتاباً مثل **الكتاب الأكبر** ، فقد كانت مؤلفاتهم فى نظر بيكن مجلدات ضخمة من « الكذب الذى لا يستطاع وصفه » والحشو الذى لا ضرورة له[١٢٩] ؛ وكان هيكل تفكيرهم كله يقوم على الكتاب المقدس

ومؤلفات أرسطو ، وذاك قد أسيء فهمه وهذه قد أسيئت ترجمتها[١٣٠] .
وكان يسخر من نقاش تومس الطويل فى عادات الملائكة ، وسلطانهم ،
وذكائهم ، وحركاتهم[١٣١] .

وما من شك فى أن هذا الإسراف فى اتهام حياة أوربا وأخلاقها ،
وتفكيرها ، فى ذلك القرن المتلألئ الباهر قد جعل بيكن وحده فى ناحية
وأوربا كلها فى ناحية أخرى . ولكننا لا نجد دليلا على أن طائفته أو الكنيسة
قد اضطهدته أو تدخلت فى حرية فكره أو قوله قبل عام ١٢٧٧ ، أى قبل
أن يكتب المرثاة السالفة الذكر بست سنين . ولكن حدث فى تلك السنة أن
أخذ يوحنا القرشلى John of Vercelli رئيس الرهبان الدمنيك وجيروم
الأسكولى Jerome of Ascoli رئيس الرهبان الفرنسيس يتفاوضان ليخففا
من حدة بعض النزاع الذى شجر بين الطائفتين . واتفقا على أن يمتنع الإخوان
فى كل طائفة عن نقد الطائفة الأخرى ، وأن « كل أخ يتبين أنه أساء إلى أخ
من الطائفة الأخرى بالقول أو بالفعل يجب على مجلس مقاطعته أن يوقع عليه
من العقاب ما يرضى أخاه الذى أسيء إليه[١٣٢] . وبعد قليل من ذلك
الوقت قام جيروم — على حد قول **أخبار قادة الطائفة الأربعة والعشرين**
التى كتبت فى القرن الرابع عشر — « عملا بمشورة كثيرين من الإخوان
فعارض واستقبح تعاليم الأخ روجر بيكن مدرس علم اللاهوت المقدس
لأنها تحتوى على بدع تثير الشك ، ومن أجل هذا حكم على روجر
المذكور بالسجن »[١٣٣] . ولسنا نعلم عن هذه المسألة شيئاً غير هذا ؛ فهل
كانت هذه « البدع » هى الإلحاد ، أو ارتياب من حكموا عليه فى أنه
يمارس فنون السحر ، أو أن هذا الأمر يخفى فى طياته قراراً بإسكات هذا
الناقد البغيض إلى الدمنيك والفرنسيس على السواء ؟ ولسنا نعرف كذلك
ما فرض من التضييق على بيكن فى سجنه أو طول الزمن الذى ظل فيه

سجيناً مضيقاً عليه . وكل ما نعرفه أن بعض المساجين الذين حكم عليهم بالسجن فى عام ١٢٧٧ ؛ قد أطلق سراحهم فى عام ١٢٩٢ ، وربما كان بيكن ممن أطلق سراحهم فى ذلك الوقت أو قبله . لأنه نشر فى عام ١٢٩٢ *موجزا فى الدراسات اللاهوتية* ، ثم لا نجد بعد ذلك إلا كلمة فى سجل قديم : « دفن الدكتور روجر بيكن الجليل القدر فى كنيسة جريسى فريرز Grecy Friars (كنيسة الرهبان الفرنسيس) بأكسفورد فى عام ١٢٩٢ »(١٣٤) .

ولم يكن لبيكن فى عصره إلا أثر قليل . فكل ما يذكره به ذلك العصر أنه رجل يأتى بكثير من الأعاجيب ، وأنه ساحر ومشعوذ . وقد صور بهذه الصورة فى مسرحية كتبها روجر جرين RogerGreen بعد ثلاثمائة سنة من وفاته . وليس من السهل علينا أن نعرف مقدار ما يدين له به سميه فرانسس بيكن (١٥٦١ — ١٦٢٦) ؛ وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا أن فرانسس وروجر على السواء كلاهما رفضا منطق أرسطو ، والطريقة المدرسية ، وارتابا فى الاعتماد على المراجع القديمة ، وعلى العادات وغيرها من أصنام التفكير التقليدى ، وامتدحا العلوم ، وذكرا ما يتوقع اختراعه بالاعتماد عليها ، ورسما منهاجاً لها ، وأكدا فائدتها العملية . وأخذت شهرة بيكن تعظم وتنتشر ببطء من القرن السادس عشر حتى أصبحت حياته من القصص الخرافية — فقيل إنه مخترع البارود ، والبطل الحر التفكير ، الذى ظل طول حياته مضطهداً من رجال الدين ، والمبتكر العظيم للتفكير الحديث . والآن أخذت الآية تنقلب ، فالمؤرخون يقولون إنه لم تكن لديه إلا فكرة مهوشة عن التجارب العلمية ، وإنه لم يجر من هذه التجارب إلا القليل ، وإنه كان فى الدين أكثر حرصا على تقاليده من البابا نفسه ، وإن صفحات كتبه تنتشر فيها الخرافات ، والسحر ، والخطأ فى الاقتباس ، والتهم الكاذبة ، والقصص غير الصادقة المأخوذة من التاريخ .

وهذا كله صحيح ؛ وصحيح أيضا أنه وإن لم يجر من التجارب إلا القليل ، قد ساعد على دعم مبدأ التجربة العلمية ، ومهد السبيل إلى قيامها ، وأن جهره بالتمسك بالسنن الدينية قد يكون إجراء سياسيا من رجل يسعى للحصول على تأييد البابوية للعلوم التى كانت مثاراً للريبة . أما أخطاؤه فقد كانت عدوى زمانه ، أو لعلها قد نشأت من العجلة التى تسير بها روح تحرص على أن تجعل المعارف كلها ميدانا لها . وأما امتداحه نفسه فقد كان هو البلسم الشافى لتجاهل عبقريته ؛ كذلك كان هجومه على غيره تنفيسا لغضب إنسان جبار خابت آماله ، فأخذ يشهد إخفاق أحلامه النبيلة تغرق فى بحر من الجهل وهو عاجز عن إنقاذها . وأما هجومه على النقل فى الفلسفة والعلم فقد أنار السبيل لتفكير أوسع مجالا وأكثر حرية مما كان فى زمانه ؛ كذلك كان تأكيده لأسس العلم وأهدافه الرياضية تقدما بخمسمائة عام عن العصر الذى يعيش فيه ؛ وخير من هذا كله فى تحذيره الناس من إخضاع الأخلاق للعلم درس لرجال الغد يجب أن يأخذوا به . وملاك القول أن **الكتاب الأكبر** رغم أخطائه وآثامه ، خليق باسمه ، وأنه أعظم من أى مؤلف فى جميع آداب ذلك القرن العجيب .

الفصل الثامن

أصحاب الموسوعات

وقف العلماء المحيطون بمختلف العلوم موقفاً جريئاً بين العلم والفلسفة يعملون لبث النظام والوحدة فى معارف عصرهم التى كانت آفاقها تزداد اتساعاً على مر الأيام ؛ وليكونوا من العلم الفن ، والصناعة والحكومة ، والفلسفة والدين ، والأدب والتاريخ ، وحدة كلية منتظمة يمكن أن تتخذ أساساً للحكمة . ولهذا بز القرن الثالث عشر سائر القرون بما وضع فيه من الموسوعات ، والخلاصات التى كانت كتباً جامعة طابعها التركيب . وكان أكثر أصحاب الموسوعات تواضعاً يقنعون بتلخيص موضوعات العلوم الطبيعية ؛ ومن هؤلاء الكسندر نكهام رئيس دير سرنسستر Cirencester (حوالى عام ١٢٠٠) ؛ وتومس الكنتمبريثى Thomas of Cantimpré تراهب الدمنيكى الفرنسى (حوالى عام ١٢٤٤) ؛ وقد كتب كلاهما موجزاً فى العلوم بعنوان **طبيعة الأشياء** ، ومنهم بارثلميو الإنجليزى Bartholomew of England وهو راهب فرنسيسى أخرج مجلداً كثير الحشو فى **خصائص الأشياء** (حوالى ١٢٤٠) ؛ وفى عام ١٢٦٦ كتب برونتو لا تينى Brunetto Latini وهو مسجل صكوك من فلورنس نفى من بلده لمبادئه السياسية الجلفية (Guelf) ، وأقام بضع سنين فى فرنسا ، كتب بلغة دوئيل lange d'oil **كتاب الكنز** Le Livre de Tresor وهو موسوعة موجزة فى العلوم والأخلاق والتاريخ والحكم . وظلت هذه الموسوعة واسعة الانتشار حتى أن نابليون نفسه فكر فى أن تصدر الدولة طبعة منها بعد أن تراجع ، وذلك بعد خمسين عاما من إصدار ديدرو Diderot موسوعته الكبرى التى هزت العالم هزاً . وكانت هـــذه

المؤلفات كلها التي صدرت في القرن الثالث عشر تمزج اللاهوت بالعلوم ، والخرافات بالمشاهدات ، لأنها كانت تتنفس هواء زمانها ؛ ولو أننا قدر لنا أن نعرف نظرة الناس إلى علمنا الجامع بعد سبعة قرون من هذه الأيام لأغضبنا ما نرى .

وأشهر موسوعات المسيحيين في العصور الوسطى موسوعة ڤنسنت بوڤيه المسماة **المرآة الكبيرة** (١٢٠٠ — ١٢٦٤ أو حوالى ذلك الوقت) . وقد انضم بوڤيه هذا إلى جماعة الرهبان الدمنيك ، وأصبح معلماً للويس التاسع وولده ، وعهد إليه الإشراف على مكتبة الملك ، وأخذ على عاتقه هو وجماعة من أعوانه أن يضع في صورة سهلة التناول جميع ما يحيط به من ألوان المعرفة . وقد أطلق على موسوعته اسم **صورة العالم** Imago mundi ، ومثل فيها العالم بمرآة ينعكس عليها الذكاء **القدسى** والتخطيط الإلهي ، وكانت موسوعة ضخمة تعادل في حجمها أربعين مجلداً من المجلدات الكبيرة الحجم في هذه الأيام . وأتم منها ڤنسنت مع النساخين ثلاثة أجزاء : **المرآة الطبيعية** ، **ومرآة العقائد** ، **ومرآة التاريخ** ، وأضاف إليها من خلفوه في هذا العمل ، حوالى عام ١٣١٠ **مرآة الأخلاق** ومعظمها مأخوذ من موجز تومس أكوناس . وكان ڤنسنت نفسه إنساناً متواضعاً ظريفاً ، قال عن نفسه . « إني لا أعرف علماً واحداً » ، وهو يتنصل من أنه ابتكر شيئاً ما ، ويقول إن كل ما أراد أن يفعله هو أن ينقل أقوال ٤٥٠ مؤلفاً يونانياً ، ولاتينياً ، وعربياً . وقد نقل أخطاء بانى بأمانة ، وصدق كل عجائب التنجيم ، وملأ صحفه بالصفات السحرية للنبات والحجر ، ولكن عجائب الطبيعة وروائع جمالها تبدو مع ذلك واضحة في كتابه من حين إلى حين ، تنفذ من خلال ما فيه من أقوال غير ذات قيمة ، ويحس هو بها كما لا يستطيع أن يحس بها ملتهم الكتب فحسب :

أعترف ، وأنا الإنسان المذنب ، ذو العقل الملوث في الجسد ، أنني تدفعني الروح السامية نحو الخالق المسيطر على هذا العالم ، وأني أزداد تعظيما له حين تقع عيني على ما خلقه ... من عظمة وجمال . ذلك بأن العقل إذا ارتفع من الأقذار التي يحبها ، وسما ، وهو القادر على السمو ، إلى نور التأمل ، أبصر من شاهق علوه عظمة الكون المحتوى على أماكن لا حصر لها مليئة بطوائف المخلوقات المختلفة الأنواع (١٣٥) .

ويضارع النشاط العلمي الذي انبثق في القرن الثالث عشر عظمة فلسفاته المختلفة ، وآدابه المتنوعة الباهرة ، من الشعراء الغزلين إلى دانتي . لقد كان علم تلك الأيام ، كما كانت موجزاته العظيمة والملهاة الإلهية ، يعاني الشيء الكثير من إسراف أصحابه في الوثوق به ، ومن عجزهم عن بحث فروضه ، ومن خلط المعارف بالدين بلا تفريق بينهما . ولكن سفينة العلم الصغيرة التي كانت تسبح في بحر من المزاعم الخفية خطت خطوات واسعة في عصر الإيمان نفسه . فقد بدأ أدلارد ، وجروستستي ، وألبرت ، وآرنلد الفلانوفي ، ووليم السليستوي ، وهنري المندفيلي ، ولا نفراتشي ، وروجر بيكن ، وبطرس الحاج وبطرس الأسباني ، بدأ هؤلاء كلهم مشاهدات وملاحظات جديدة ، وتجارب صغيرة أخذت تحطم ما كان لأرسطو ، وبلني ، وجالينوس من سلطان على العقول . وملأ التحمس للارتياد والمغامرة أشرعة سفينة الرواد ، وقد عبر عن ذلك الإخلاص العلمي الجديد ألكسندر نكهام في بداية ذلك القرن العجيب فكتب يقول « إن العلم لا ينال إلا بثمن باهظ ، هو اليقظة الدائمة ، وإنفاق الوقت الطويل ، وبالجد والكدح المتواصلين ، وباستخدام العقل بحماسة وقوة »(١٣٦) .

ولكن مزاج العصور الوسطى يتحدث إلينا قبيل نهاية كتاب ألكسندر أحسن أحاديثه ، ويتحدث إلينا برقة لا تتناسب مع عصره فيقول :

ربما عشت أيها الكتاب بعد ألكسندر هذا ، وربما أكلنى الدود قبل أن تقرض صفحاتك ... إنك مرآة عقلى ، وشارح تأملاتى ... والشاهد الصادق على ضميرى ، والمواسى الرحيم لأحزانى ... وإنك أنت المستودع الأمين الذى أودعت فيه أسرار قلبى ... فيك أقرأ ما فى نفسى ... سوف تقع فى يدى قارئ تقى ينزل من عليائه فيدعو لى بخير ، وإذن فسيفيد منك صاحبك أيها الكتاب الصغير ، وإذن ستجزى إسكندرك أحسن جزاء وأعظمه ، ولست آسفاً على كدحى ، فستصادف إخلاص قارئ صالح يضعك تارة فى حجره ، ويرفعك تارة إلى صدره ، ويتخذك حيناً وسادة تحت رأسه ، ويطويك برفق ، ويدعو لى فى حرارة وإخلاص عيسى المسيح الذى يعيش مع الله والروح القدس خلال الأحقاب التى لا نهاية لها — آمين(١٣٧) .

الباب الثامن والثلاثون

عصر الخيـــال

١١٠٠ – ١٣٠٠

الفصل الأول

إحياء اللغـــة اللاتينية

كل عصر فى حياة العالم عصر خيال ، لأن الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بالخبز وحده ، والخيال عماد الحياة ، ولعل القرنين الثانى عشر والثالث عشر من تاريخ أوربا كانا إلى حد قليل أبعد خيالا من معظم العصور الأخرى . ذلك أن هذين القرنين لم يرثا جميع المخلوقات الخفية التى ابتدعها خيال أوربا الوثاب فحسب ، بل قبلا الملحمة المسيحية بكل ما فيها من جمال الخيال ورهبته ، واتخذا الحب والحرب فناً وديناً ؛ وشهد هذان القرنان الحروب الصليبية وجاءا بمئات القصص والعجائب من بلاد الشرق ، وكتبا فى واقع الأمر أطول القصص الخيالية المعروفة فى التاريخ كله .

وكان مما ساعد على ازدهار الأدب فى هذين القرنين ازدياد الثروة ، والفراغ ، والأدب غير الدينى ، ونشأة المدن والطبقة الوسطى ، وارتفاع شأن المرأة فى الدين ، ونظام الفروسية . ولما تضاعف عدد المدارس بهر شيشرون ، وفرچيل ، وهوراس ، وأوفد ، وليفى ، وسالست ، ولوكان ، وسنكا ، واستاتيوس ، وچوفنال ، وكونتليان ، وسيو نوتيوس ، وأبوليوس ، وسيدونيوس ، وحتى ماريتال وپترونيوس

السفيهان المفحشان ، بهر هؤلاء بفنهم وعالمهم الغريب كثيراً من ملاجئ الأساتذة والأديرة المنعزلة عن العالم وتسربا فى بعض البلاد إلى قصور الأعيان ؛ واختلست الأرواح المسيحية من چيروم إلى ألكوين ، إلى هلواز ، وهيدلبيرت ، دقائق من أوقات صلواتهم لينشدوا أغانى الإنياذة وهم صامتون . وكانت جامعة أورليان تعتز اعتزازاً خاصاً قوياً بآداب رومة الوثنية ، حتى شكا أحد المتزمتين وهو مرتاع وجل قائلا إن الآلهة القدامى ، لا المسيح أو مريم ، هى التى تعبد فيها . وكاد القرن الثانى عشر يصبح « عصر أوڤد » ؛ فقد أنزل فرچيل عن العرش الذى رفعه إليه ألكوين حتى جعله شاعر بلاط شارلمان ؛ وكان الرهبان ، والسيدات ، « والعلماء الجاثلون » على السواء يقرأون بنشوة وابتهاج كتب *التحولات* ، *والهيرويدات* ، *وفن الحب* . وفى وسعنا أن نعفو عن كثير من أسباب اللهو المباح عند الرهبان الذين أحبوا هذه الكتب الملعونة ، وحفظوها من الضياع ، ولقنوها بإخلاص ووفاء إلى الشبان المتبرمين الشاكرين .

ونشأت من هذه الدراسات القديمة لغة لاتينية خاصة بالعصور الوسطى ، كان فيها من التنوع وأسباب المتعة ما يعد من أعظم المفاجآت السارة فى الكشوف الأدبية . مثال ذلك أن القديس برنار الذى لم يكن يعتد إلا قليلا بالمزايا العقلية ، كتب رسائل تفيض بالحب الرقيق ، والقدح الفصيح ، واللغة اللاتينية الممتازة ؛ وقد احتفظت عظاة بطرس دميان ، وبرنار ، وأبلار ، وبرثولد الرچنزبرجى للغة اللاتينية بقوتها وحيويتها .

وكتب المؤرخون الإخباريون فى الأديرة بلغة لاتينية فظيعة ؛ ولكنهم لم يكونوا يدعون أنهم يكتبون كتابة تشبع حاسة الجمال لدى القراء . بل كانوا يسجلون أولا نشأة أديرتهم وتاريخها — انتخاباتها ، ومبانيها ، ووفاة رؤسائها ، ومعجزات الرهبان ومنازعاتهم ؛ وأضافوا إلى ذلك مذكرات عن الخسوف

والكسوف ، والمذنبات ، والجفاف ، والفيضان ، والقحط ، والأوبئة ، ونذر أيامهم ؛ وتوسع بعضهم فضمن كتاباته بعض الحوادث القومية والدولية نفسها . وقل منهم من كان يبحث فى المراجع التى يعتمد عليها بروح النقد الصحيح ، أويفحص عن العلل ؛ وكان معظمهم مهملين غير دقيقين ، يضيفون إلى أرقامهم صفراً أو صفرين ليبعثوا الحياة فى الإحصاءات الميتة ؛ وكلهم بلا استثناء يأتون بالمعجزات ، ويظهرون سذاجة واستعداداً ظريفاً لتصديق كل ما يقال . من ذلك أن الإخباريين الفرنسيين افترضوا أن فرنسا قد استوطنها الطرواديون النبلاء ، وأن شارلمان فتح أسبانيا واستولى على بيت المقدس ، وحاول كتاب **أعمال الفرنسيين** Gesta Francorum (حوالى ١١٠٠) أن يروى بأمانة نسبية قصة الحرب الصليبية الأولى ، ولكن كتاب **أعمال الرومان** Gesta Romanortum (حوالى ١٢٨٠) يروى فى صراحة تاريخاً مخترعاً لتشوسر ، وشيكسبير ، وألفا من كتاب الروايات . وجعل جوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth حوالى (١١٠٠ — ١١٥٤) من كتابه **تاريخ بريطانيا** Historia Britonum ضرباً من الأساطير القومية ، وجد فيها الشعراء قصص الملك لير ، وآرثر ، وميرلين Merlin ، ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وبرسفال Perceval ، وجريل المقدس Holy Grail . ومن الأدب الحى حتى الآن ثرثرة چوسلين Jocelyn وما رواه من أخبار بيورى سانت إدمندس Bury St. Edmonds (حوالى ١٢٠٠) وما رواه الأخ سلمبينى Salimbene عن بارما (حوالى ١٢٨٠) .

وفى عام ١٢٠٨ أهدى ساكسولانج (اللغوى) Saxo Lange الذى سمى بعد وفاته ساكسو النحوى Saxo Grammaticus إلى أبسالوم كبير أساقفة لند Lund كتابه **أعمال الدنمرقيين** ، وهو كتاب فيه بعض الحشو وفيه من سرعة التصديق ما لا يصدقه الإنسان( ) . ولكنه مع ذلك قصة قوية حية ، فيها من

الاتصال أكثر مما فى كثير من تواريخ الغرب فى هذه الأيام . فنى الكتاب الثالث من هذا المؤلف نقرأ عن أملث Amleth أمير جتلندة Jutland الذى قتل عمه الملك وتزوج الملكة . ويقول سكسو إن أملث هذا « اختار أن يتظاهر بالبلادة وفقدان الوعى فقداناً كاملا ، وضمن بهذا الصنع الماكر سلامته » .

وارتقى خمسة من المؤرخين اللاتين فى ذينك القرنين من طبقة الإخباريين إلى طبقة المؤرخين وإن احتفظوا بالطابع الإخبارى . من هؤلاء ولیم المالمزبرى (حوالى ١٠٩٠ — ١١٤٣) الذى رتب مادة كتابه **أعمال الأحبار** Gesta Pontificum ، **وأعمال الملوك الإنجليز** Gesta Regum Anglorum ليجعل منها قصة متصلة حية ، نزيهة ، جديرة بالثقة ، تروى أخبار الأحبار والملوك . وأرسل أردركس ڤيتالس Ordericus Vitalis (حوالى ١٠٧٥ — ١١٤٣) المولود فى شروزبرى Shrewsbury إلى دير القديس إڤرول St. Evroul فى نورمندية فى العاشرة من عمره وفاء لنذر ، وعاش فيها بقية سنيه الثمان والستين ، ولم ير خلالها أبويه . وقضى من هذه السنين ثمانى عشرة فى كتابة **تاريخ الكنيسة** المكون من خمسة مجلدات ، ولم يمتنع عن العمل فى خلال تلك السنين ، كما يقول الرواة ، وأشد أيام الشتاء برداً حين كانت أصابعه تفقد حساسيتها من فرط البرد . ومن عجب أن عقلا مضيقاً عليه فى المكان يستطيع التحدث هذا الحديث الحسن فى مختلف الشئون الدينية والدنيوية ، فضلا عن استطرادات فى تاريخ الرسائل والأخلاق العادية . وقص أتو Otto أسقف ڤرايزنج (حوالى ١١١٤ — ٥٨) فى كتابه **فى المدينتين** تاريخ الدين والعالم الدنيوى من خلق آدم إلى ١١٤٦ ، وبدأ ترجمة مليئة بالفخر لابن أخيه فردريك بربرسا ، ولكنه توفى ولما يتجاوز بطله منتصف حياته . وعين رجل فرنسى مولود فى فلسطين يدعى وليم الصورى William of Tyre (حوالى ١١٣٠ — ١١٩٠) مستشاراً لبولدون الرابع ملك بيت المقدس ،

ثم أصبح بعدئذ كبير أساقفة صور ؛ وتعلم اللغات الفرنسية ، واللاتينية واليونانية والعربية وقليلا من اللغة العبرية ؛ وكتب بلغة لاتينية سليمة كتاباً هو خير ما يعتمد عليه من المصادر فى تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، وسماه *تاريخ حوادث ما وراء البحار* Historia reum in partibus transmarinis gestarum . وقد حاول فيه أن يفسر الحوادث جميعها بالاستناد إلى الأسباب الطبيعية . وكانت نزاهته فى تصوير أخلاق نور الدين محمود وصلاح الدين من أكبر أسباب عقيدة أوربا المسيحية فى هذين العاهلين اللذين يخالفانها فى الدين . وكان ماثيو باريس (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٥٩) راهباً فى دير سانت أولبنز ، وشغل أولا منصب مؤرخ لديره ، ثم بعد ذلك منصب مؤرخ للملك هنرى الثالث ، واستعان بهذين المنصبين على تأليف كتابه *التاريخ الكبير* بلغة شيقة ممتعة ؛ وهو يروى الحوادث الهامة التى وقعت فى تاريخ أوربا بين عامى ١٢٣٥ ، ١٢٥٩ . ويمتاز كتابه بالوضوح والدقة ، ولكن فيه تحيزاً لم يكن متوقعاً منه ؛ وندد فيه « بالبخل الذى نفر الشعب من البابا » ، وانحاز إلى فردريك الثانى ضد البابوية . وملأ صفحاته بأنباء المعجزات ، وروى قصة اليهودى الجوال (فى عام ١٢٢٨) ، ولكنه روى بصراحة تشكك أهل لندن فى انتقال بعض نقط من دماء المسيح إلى دير وستمنستر (١٢٤٧) . ووضح كتابه بعدة خرائط لإنجلترا رسمها بنفسه ، وهى خير ما رسم من الخرائط فى ذلك الوقت ، وربما كان هو الذى رسم أيضاً الأشكال التى وضح بها كتابه . وإنا لنعجب بجده وغزارة علمه ، ولكن الصورة التى رسمها للنبى محمد (١٢٣٦) تكشف عما يمكن أن يكون عليه رجل مسيحى متعلم من جهل عجيب بالتاريخ الإسلامى .

أما أعظم المؤرخين فى ذلك العصر فهما فرنسيان كتبا بلغتهما القومية ، وكان لهما مع الشعراء الغزلين ورواة الملاحم وشعرائها الفضل فى جعل اللغة الفرنسية لغة

أدبية . فأما أولهما جيوفروى ده ڤيل هاردون Geoffroy de Villehardouin (حوالى ١١٥٠ — حوالى ١٢١٨) . فكان من النبلاء والمحاربين لم ينل من التعليم النظامى إلا القليل ؛ ولكن جهله بالحيل البلاغية التى تعلم فى المدارس هو الذى مكنه من أن يملى كتابه **فتح القسطنطينية** (١٢٠٧) بلغة فرنسية دقيقة خالية من التنميق ، تتجه نحو الغرض من أقرب طريق ، ومن أن يجعل هذا الكتاب من أهم ما كتب فى فن كتابة التاريخ . ولم يكن من أسباب شهرة هذا الرجل بُعده عن التحيز ، فقد كان وثيق الصلة بالحرب الصليبية الرابعة ، واضطلع فيها بدور هام ، فلم يستطع لهذين السببين أن يرى تلك الخيانة الجميلة الظاهرة ، خيانة الحقيقة والتاريخ ، بعين الرجل الموضوعى الذى ينظر إلى الحقائق دون غيرها ؛ ولكن من أهم مزاياه أنه كان فى وسط الحوادث نفسها يشهدها ويحس بها حين وقوعها ، مما أضفى على كتابه حيوية لا يكاد يبليها الزمن . وظهر بعد قرن أو نحوه من ذلك الوقت چان سير ده چوانڤيل Jean Sire de Joinville قيم القصر فى شمبانيا ؛ وبعد أن خدم لويس التاسع فى حملته الصليبية وفى فرنسا ، كتب وهو فى الثامنة والخمسين من عمره كتابه **تاريخ القديس لويس** (١٣٠٩) ؛ ونحن نحمد له وصفه خلائق التاريخ وصفاً أميناً بعيداً عن التكلف ، واهتمامه بعاداتهم وقصصهم التى توضح سيرهم وتنير ما يكتنفها من ظلمات . وبفضله نستطيع أن نحس بالجو الذى كان سائداً فى ذلك العصر كما لا نحس به فى كتاب ڤيل هاردون ، فتصحبه حين يخرج من قصره بعد أن يرهن ما يمتلكه كله تقريباً لينضم إلى الحملة الصليبية ؛ ويقول إنه لم يجرؤ على النظر إلى الوراء حتى لا يذوب قلبه أسى حين تقع عينه على زوجته وأبنائه ، ولعله لن يراهم بعد ذلك اليوم . ولم يكن لهذا الرجل ما كان لڤيل هاردون من دهاء وسعة حيلة ، ولكنه كان يمتاز بالإدراك الفطرى السليم ، وكان يرى ما فى قديسه من عيوب ، ولهذا رفض أن ينضم إلى الحملة الصليبية التالية حين طلب إليه لويس الانضمام إليها ،

لأنه رأى ببصيرته أن هذه مغامرة لا يرجى لها فلاح ، ويقول إنه حين سأله هذا الملك الورع : « أيهما تفضل — أن تصاب بالجذام أو أن ترتكب خطيئة موبقة ؟ » .

« فأجبته وأنا الذى لم يكذب عليه قط بأنه خير لى أن أرتكب ثلاثين خطيئة موبقة من أن أصاب بالجذام . ولما خرج الرهبان من حضرته استدعانى وحدى وأجلسنى عند قدميه وقال لى : كيف تجرؤ على هذا القول ؟ ... فأجبته بأنى قلته مرة أخرى بعد ذلك الوقت ؛ فرد علىّ بقوله : لقد تسرعت وكنت أحمق فى ردك ، فإن من واجبك أن تعرف أنه ليس ثمة جذام أبشع من ارتكاب الخطيئة الموبقة ... وسألنى : هل غسلت أقدام الفقراء يوم خميس الصعود ؟ فأجبته : يا مولاى ، لو فعلت لأصبت بالغثيان ، إنى لن أغسل قط أقدام أولئك الأوشاء . فقال لى الملك : الحق أنك قد اخطأت إذ نطقت بهذا القول ، لأن عليك ألا تحتقر ما فعله الله ليعلمنا ، ولهذا فإنى أرجوك بحق حبك الله أولا وحبك إياى ثانياً أن تعوّد نفسك غسل أقدام الفقراء »(٢) .

ولم تكن حياة القديسين كلها تروى بمثل هذا الصدق وتلك الأمانة ؛ ذلك أن الإحساس بالتزام الأمانة ومراعاة الضمير فى رواية التاريخ كانا من الضعف فى عقول الناس فى العصور الوسطى بحيث يخيل إلينا معهما أن كتاب هذه القصص الأخلاقية كانوا يظنون أن لا ضرر مطلقاً فى اعتقاد الناس أن ما يروونه صحيح كله ، وأن الخير كل الخير فى أن يصدقوه . وأكبر الظن أن المؤلفين كانوا فى معظم الأوقات يأخذون القصص المنتشرة عن غيرهم ، وأنهم كانوا يصدقون ما يكتبون . وإذا أخذنا تراجم القديسين على أنها قصص لا أكثر وجدناها مليئة بالطرائف والمتع . فلينظر القارئ مثلا إلى الطريقة التى حصل بها القديس كرستفر Christopher على اسمه لقد كان فى أول حياته رجلا جباراً من أهل كنعان يبلغ طوله

ثمانى عشرة قدماً ، ثم دخل فى خدمة أحد الملوك لأنه سمع أن هذا الملك أقوى رجل فى العالم . وحدث فى يوم من الأيام أن رسم الملك على نفسه علامة الصليب حين ذكر بعضهم أمامه اسم الشيطان ، فاستدل كرستفر من هذا على أن الشيطان أقوى من الملك ، ولم يكن منه إلا أن دخل فى خدمة الشيطان . ولكن الشيطان رأى علامة الصليب إلى جانب الطريق فولى هارباً ، واستدل كرستفر من هذا على أن عيسى (عليه السلام) أقوى بلا شك من الشيطان ، فوهب نفسه للمسيح . ووجد الرجل مشقة فى الصوم المسيحى ، فقد كان جسمه الضخم يتطلب الطعام الكثير ، وكان لسانه الكبير يتعثر فى أبسط الصلوات . ووضعه ناسك صالح على شاطئ مخاضة أغرق تيارها السريع كثيرين ممن حاولوا اجتيازها . وحمل كرستفر المسافرين على ظهره ونقلهم إلى الشاطئ الآخر فى أمان دون أن يبتلوا بالماء ، حتى كان فى يوم من الأيام يحمل طفلا صغيراً ليعبر به المجرى ، فوجده ثقيلا ؛ ولما سأله عن السبب أجابه الطفل بأنه يحمل ثقل العالم كله ؛ ولما وصل هذا الطفل إلى بر السلامة شكر له حسن صنيعه وقال له : « أنا المسيح عيسى » ثم اختفى ؛ وفى هذه اللحظة أزهرت فجأة عصا كرستفر وكان قد غرسها فى الرمل[٣] . ثم لينظر القارئ إلى قصة القديس چورچ شفيع بريطانيا . فمن هو هذا القديس ؟ لقد كان بالقرب من سيلينم Şilenum فى ليبيا تنين يقدم له فى كل عام شاب أو شابة طعاما له ؛ وكان الشاب (أو الشابة) يختار بالقرعة ويقدم للتنين حتى لا يسمم القرية بنفسه . ووقعت القرعة فى أحد الأعوام على ابنة الملك العذراء ، ولما أقبل اليوم الموعود مشت نحو البركة التى يقيم فيها التنين ، فرآها القديس چورچ وسألها عن سبب بكائها ، فأجابته الفتاة قائلة : « أيها الشاب ، أرى أن لك قلباً كبيراً نبيلا ، ولكنى أرجوك أن تبادر بالابتعاد عنى » . وأبى الشاب أن يجيبها إلى ما طلبت ، وما زال بها حتى أجابته عن سؤاله ، فلما فعلت قال لها :

« لا تخافى فإنى سأساعدك باسم عيسى المسيح » . وخرج التنين من الماء فى هذه اللحظة ورسم چورچ علامة الصليب ، ونادى باسم المسيح ، وهجم على التنين ، وطعنه بحربته ، وأمر الفتاة أن تلقى بمنطقتها حول عنق التنين الجريح ، ففعلت ما أمرها به ؛ وخضع التنين لسحر جمالها الفتان كما يخضع له كل شهم من الرجال ، وسار خلفها مطيعاً ذليلا طوال حياتها وجمع ياقوبو ده ڤوراجين Jacopo de Voragine كبير أساقفة جنوى هاتين القصتين وأمثالها فى كتاب ذائع الصيت نشر حوالى ١٢٩٠ ؛ فكان يروى لكل يوم من أيام السنة قصة قديسها المخصص هذا لليوم له ، وسمى كتابه **قراءات عن القديسين** Legenda sanctorum . وصارت مجموعة قصص ياقوبو من الكتب المحببة للقراء فى العصور الوسطى ، وأطلقوا عليها اسم **القراءات الذهبية** . وأشارت الكنيسة بوجوب الاحتياط فى تصديق بعض هذه القصص(٤) ، ولكن الناس أحبوها وصدقوها كلها ، ولعلهم لم يكونوا فى هذا أكثر انخداعا فى الحياة عن السذج من الناس الذين يصدقون القصص الخرافية فى هذه الأيام .

وكان الشعر أحسن ما كتب باللغة اللاتينية فى العصور الوسطى ، ولم يكن الكثير منه شعراً إلا بالاسم فحسب ، لأن جميع المواد التلقينية على اختلاف أنواعها — من تاريخ ، وقصص ، ورياضة ، ومنطق ، ودين ، وطب — كانت تكتب فى أبيات موزونة مقفاة ، ليسهل بذلك استظهارها . وكتبت أيضاً ملاحم تافهة عظيمة الطول مثل ملحمة **الكسندريس** Alexandreis (١١٧٦) التى نظمها ولتر الشاتيونى Walter of Châtillon وتبدو لنا هذه الملاحم الآن مملة بقدر ما تبدو قصيدة **الفردوس المفقود** Paradise Lost وكتب أيضاً جدل شعرى — بين الجسم والنفس ، والموت والإنسان ، والرحمة والصدق ، والفلاح والقس ، والمرأة والرجل والنبيذ والماء ، والنبيذ والجعة ، والورد والبنفسج ، والطالب الفقير والقس

الذى ينال من الطعام كفايته . بل ذهب بعضهم إلى أبعد من هذا فكتب جدلا بين هلين وجنيميد ليوازن بين فضائل عشق الرجال للنساء وعشق الرجال للغلمان(٥) . وقصارى القول أن شيئاً ما من شئون الآدميين لم يكن غريبا على الشعر .

وترك الكتّاب من القرن الخامس وما بعده قياس أوزان الشعر بمقدار ما فيه من الحروف المتحركة كما كانوا يفعلون فى الشعر القديم ، وجاء الشعر اللاتينى المستمد من الشعور العام لا من الفن العلمى بنوع من الشعر جديد يعتمد على النبرات والوزن والقافية . وكانت هذه الضروب من الشعر موجودة بين الرومان قبل أن تغزو الأوزان اليونانية بلادهم ، وظلت ألف عام مع الطراز اليونانى . وبقيت الأنماط الفصحى — من شعر سداسى الأوتاد، ومراث ، وشعر من نوع شعر سافو طوال العصور الوسطى ؛ ولكن العالم اللاتينى حل هذه الأنماط ، فقد خيل إليه أنها لا تتناغم مع أمزجة التقى ، والرحمة ، والرقة ، والأدعية الدينية التى نشرها الدين المسيحى ؛ فدخلت فيه أوزان أكثر منها بساطة ، هى الأبيات القصيرة من البحر العميق(*) تكاد تنقل كل عاطفة بشرية من خلجات القلب إلى ضربات أرجل الجند الزاحفين إلى الحرب .

وما من أحد يعرف من أين جاءت القافية إلى العالم المسيحى الغربى وإن كان الكثيرون يبدون آراء تعتمد على الحدس وحده . لقد اتبعت القافية فى عدد قليل من القصائد الوثنية كقصائد إينوس ، وشيشرون ، وأبوليوس ؛ وكانت تستعمل أحياناً فى الشعر العبرى والسريانى ، واستعملت مراراً متفرقة فى الشعر اللاتينى أثناء القرن الخامس ؛ وهى شائعة الاستعمال فى الشعر العربى منذ عهد قديم يرجع إلى القرن السادس الميلادى . ولعل حب المسلمين للقافية قد أثر فى

(*) iambic بحر من الشعر مؤلف من فواصل قصيرة تليها فواصل طويلة ، أو من مقاطع لها نبرة صوتية تليها مقاطع غير ذات نبرة صوتية . (المترجم عن قاموس سعادة)

المسيحيين الذين اتصلوا بالإسلام ، وبذكرنا الإفراط فى التزام القافية فى أواسط الأبيات وأواخرها فى شعر العصور الوسطى اللاتينى بهذا الإفراط عينه فى الشعر العربى . ومهما يكن فى هذا من خير أو شر فإن هذه الصيغ الجديدة قد أنتجت ضرباً جديداً من الشعر اللاتينى ، يختلف فى كل شىء عن الشعر القديم ، موفوراً وفرة عجيبة ، يبلغ من الجودة درجة لم تكن متوقعة . وإلى القارئ مثلا من شعر بطرس دميان (١٠٠٧–١٠٧٢) الناسك المصلح يشبه دعوة المسيح بدعوة محب فتاة يحبها :

منذا الذى يدق بابى ؟
أتريد أن تبدد أحلام ليلى ؟
فنادينى ، يا أجمل العذارى ،
يا أختى ، ورفيقتى ، يا جوهرة متألقة !
أسرعى ! قومى ! افتحى يا أحلى الفتيات !

* * *

أنا ابن الملك العلى الأعلى
أنا أكبر أبنائه وأصغرهم
هبط من السماء إلى هذه الظلمة
ليحرر أرواح الأسرى .
لقد تحملت الموت وكثيراً من ضروب الأذى » .

* * *

فغادرت فراشى من فورى
وهرولت نحو عتبة الباب
لكى يُفتح البيت كله إلى الحبيب
وتتملى روحى برؤية

من تتحرق شوقاً إليه .
ولكنه مرّ بنا مسرعاً
وغادر بالى
فماذا أفعل أنا الشقية البائسة ؟
فتبعت والدمع ينهمر من عينى
الشاب الذى صوّرت يداه الإنسان .

وكان قول الشعر عند بطرس دميان أمراً عارضاً ؛ أما عند هيلدبرت اللفرديني Hildebert of Lavardin (١٠٥٥ — ١١٣٣) كبير أساقفة تور فكان هياماً شق به طريقه إلى الإيمان . ولعل برنجر Birenger عالم تور Tours الذى درس على فلبرت فى بلدة شارتر Chartres قد بعث فيه حباً للآداب اللاتينية القديمة . ونزلت به محن كثيرة سافر بعدها إلى رومة ، وهو لا يدرى أى الأمرين أقوى عنده من الآخر : أهو السعى إلى البركة البابوية ، أم إلى رؤية الأماكن التى جعلتها القراءة عزيزة عنده ؟ وتأثر الرجل بعظمة العاصمة القديمة واضمحلالها ، وأنطقه شعوره بمرثاة من الطراز القديم :

« أى رومة ! ليس فى المدائن كلها ما يماثلك ! وإن كدت تصبحين خربات ! ألا ما كان أعظمك وأنت بمنجاة من الدمار ! إننا نتعلم منك فى محنتك ، لقد حطم كبرياءك مر الدهور ، فتداعت فى المناقع حصون قيصر مع هياكل الأرباب . وتهدمت تلك الصروح ، تلك الصروح الشاهقة التى كان البرابرة العتاة يرتعدون خوفاً حين يرونها قائمة ، ويحزنون حين يرونها متداعية . . . ولكن كر الدهور وقعقعة السيوف لا يقويان على إبادة هذا المجد » .

فى هذه المرثاة برع شاعر فى العصور الوسطى فى استخدام اللغة اللاتينية براعة لا تقل عن براعة ڤرجيل نفسه . ولكنه لم تفارقه قط نزعته المسيحية ، فقد كان يجد من السلوى فى المسيح ومريم أكثر مما يجدها فى جوپتر ومنيرڤا ، ولهذا

نراه فى قصيدة متأخرة عن القصيدة السابقة يهجر الأضرحة القديمة ويقول :

(رومة تتحدث) : إن هذه الهزيمة أحلى عندى من تلك الانتصارات ، وإنى فى فقرى لأعظم منى فى غناى ، وإنى وأنا ملقاة على الأرض لأعظم منى وأنا رفيعة العماد ، ولقد أمدنى علَم الصليب بأكثر مما أمدتنى النسور ، ووهبنى بطرس أكثر مما وهبنى قيصر ، وحبتنى الجموع العزلاء بأكثر مما حبانى القواد المدججون بالسلاح . لقد سدت الأمم وأنا قائمة على قدمى ، وهأنذا وأنا مخربة أضرب فى أعماق الأرض ؛ ولقد سيطرت على الأجسام وأنا قائمة ، وهأنذا وأنا محطمة جاثية أحكم الأرواح ؛ لقد كنت فى الزمن القديم آمر شعبا بائسا ، أما الآن فإنى أصدر أوامرى إلى أمراء الظلام ؛ لقد كانت المدائن مملكتى فى الزمن القديم أما الآن فمملكتى هى السماء .

إن اللغة اللاتينية لم يكتب بها حتى ذلك الوقت شعر يضارع هذا الشعر منذ أيام فورتناتس Fortunatus .

الفصل الثانى

الخمر والمرأة والأغانى

من الطبيعى أن يكون علمنا بالنواحى الوثنية أو المتشككة فى حياة العصور الوسطى قطعا متفرقة ؛ ذلك بأن الماضى لم يصل إلينا نزيها أمينا إلا فى دمائنا . وهذا يزيد من إعجابنا بروح التسامح والتحرر — أو روح الزمالة فى الغبطة — التى حملت ديربندكتبيرن Benediktbeuern (فى باڤاريا العليا) على الاحتفاظ بالمخطوط الذى شق طريقه إلى المطبعة فى عام ١٨٤٧ وسمى باسم **قصائد بيرانه** Carmina Burana والذى يعد الآن أهم ما لدينا من المصادر لشعر « العلماء الجوالين »(*). ولم يكن هؤلاء من الذين يضربون فى الآفاق ؛ فقد كان منهم رهبان ضلوا فى طريقهم إلى أديرتهم ، ومنهم قساوسة فقدوا مناصبهم ، وكانت كثرتهم طلابا فى طريقهم من موطنهم إلى جامعتهم أو من إحدى الجامعات إلى الأخرى ؛ وكثيراً ما كانوا يقطعون طريقهم هذا سيراً على أقدامهم . وكان كثيرون من الطلاب يعرجون على الحانات فى الطريق ، ومنهم من كانوا يتذوقون الخمر والنساء ، ويستمعون إلى المعارف غير المدونة ، ومنهم من كانوا يؤلفون الأغانى ، ويتغنون بها ، ويبيعونها لمن يطلبها ؛ ومنهم من فقدوا أملهم فى أن يكونوا من رجال الدين فكانوا يعيشون بأقلامهم يخصون بشعرهم الأساقفة أو الأعيان . وكانت أكثر ميادين نشاطهم فرنسا وألمانيا الغربية ؛ ولكن شعرهم ما لبث أن انتشر بين البلدان المختلفة لأنهم كانوا يكتبونه باللغة اللاتينية . وكانوا يدعون أنهم ينتظمون فى هيئة خاصة هى **نقابة الجوالين** ، واخترعوا لها مؤسسا ، وهو ما

(*) ومن المصادر الأخرى مخطوط فى مكتبة هارلم ألف قبل عام ١٢٦٤ ونشره تومس ريت فى عام ١٨٤١ باسم « قصائد لاتينية تعزى عادة إلى والترمبس » .

وقديساً شفيعاً هو شخصية أسطورية شبيهة بشخصيات ربليه وسموه جلياس Golias . وإنا لنجد من ذلك الزمن البعيد ، وهو القرن العاشر الميلادى ، ولتر كبير أساقفة سان Sens ساخطاً أشد السخط على « أسرة جلياس » المرذولة ، كما أن مجلساً كنسياً عقد فى عام ١٢٢٧ جهر بسخطه على الجليارديين Goliardi لأنهم ينشدون أشعاراً يسخرون فيها من أقدس الأناشيد والطقوس الدينية(٦) . ويقول مجلس سلزبرج المنعقد فى عام ١٢٨١ إنهم « يسيرون بين الناس عراة ، ويناموني فى أفران الخبز ، ويغشون الحانات ، وأماكن الألعاب ، والمواخير ، ويكسبون عيشهم برذائلهم ، ويتشبثون أشد التشبث بشيعتهم »(٧) .

ولسنا نعرف من هؤلاء الشعراء الجليارديين ، إلا أفراداً قلائل ، منهم شاعر يسمى هيو Hugh أو هوجو بريماس Hugo Primas ، وكان راهباً علمانياً فى أورليان عام ١١٤٠ يصفه كاتب من منافسيه(٨) بأنه « إنسان دنىء ، مشوه الوجه » ، ولكنه اشتهر « فى كثير من الأقاليم » بحضور البديهة ، وقرض الشعر ، هلك لأن أحداً لم يبتع شعره ؛ وكان يقذف الأغنياء من رجال الدين بأقذع أنواع الهجاء التى يمليها عليه حقده . كان رجلا غزير العلم ، صفيق الوجه ، قليل الحياء ، يصوغ أفحش المعانى فى شعر سداسى الأوتاد ، لا يقل روعة عن شعر هيلدبيرت .

وكان أوسع منه شهرة شاعر آخر لا نعرف الآن اسمه ولكن المعجبين به كانوا يسمونه « كبير الشعراء Archipoeta » (حوالى ١١٦١) ؛ وهو فارس ألمانى يفضل الخمر والمداد عن السيف والدم ، ويعيش عيشاً مضطرباً على الصدقات التى كان يمده بها من حين إلى حين رينلد ڤن داسل Rainald Von Dassel كبير أساقفة كولونى المنتخب ، وسفير بربرسا فى بافيا . وحاول رينلد أن يصلح ما فسد من أخلاقه ، ولكن الشاعر توسل إليه أن يتركه وشأنه ، وكان ذلك فى قصيدة من أشهر ما قيل من القصائد فى العصور الوسطى ، وهى قصيدة « اعتراف

جالوت» — التى أصبحت المقطوعة الأخيرة منها نشيد الشراب المحبب الشائع فى الجامعات الألمانية :

١ أنا الذى فاضت نفسى بالحقد الدفين الشديد ،
استمع يا صاح إلىّ أعلن ما فى نفسى من حقد مرير :
لقد خلقت من عنصر واحد ، مادتى الطيش ،
أشبه الأشياء بورقة من شجرة فى مهب الريح .

* * *

٢ لم أطق حتى اليوم الأحزان ولا الاعتدال فى الشهوات ،
أحب النكات ، والمرح عندى أحلى من الشهد .
وكل ما أمرت به ڤينوس هو عندى الغبطة التى لا تعادلها غبطة ،
وهى لم تتخذ قط لها مسكناً فى قلب خبيث .

* * *

٣ إنى أسير فى الطريق الرحب شاباً غير نادم على شىء ؛
ألا فلفتّنى فى الرذائل لفاً لكى أنسى كل الفضائل(*) .
فإن شرهى لعب اللذات أكثر من شوقى إلى ملكوت السموات ،
لأن ما كان فىّ من روح قد مات ، وأصبح من الخير لى أن
أنجى الجسد .

* * *

٤ عفواً أيها السيد الصالح ، يا صاحب العقل الحصيف ،
إن هذا الموت الذى أسعى إليه حلو ؛ وهو سم ما أحلاه .
لقد نفذت فى جسمى سهام لحاظ فتاة جميلة .

(*) يذكرنا هذا بقول أبى نواس : تكثر ما استطعت من الخطايا . . . الخ . انظر الجزء ١٣ من هذه السلسلة . (المترجم) .

وماذا على العقل لو عبدها إن لم يكن إليها من سبيل ؟

* * *

٥ ألا تحرقك النار إن جلست فى وسطها ؟
وإن جئت إلى پاڤيا ، فهل تعود منها طاهراً عفيفاً كما جئتها ؟
پاڤيا التى تجتذب الشباب بأطراف أناملها ،
الشباب الذى وقع فى شرك عينها وافتتن بسحر شفتيها .

* * *

٦ جىء بهپوليتس ليتعشى فى پاڤيا ،
فإذا أصبح الصباح اختفى هپوليتس عن الأنظار .
فليس فى پاڤيا طريق لا يؤدى إلى الفجور ،
وليس فى أبراجها الكثيرة برج واحد للعفاف .

* * *

٧ إن هذا هو معقد أملى ؛ فإذا دنت الساعة منى ،
فدعنى أمت فى الحانة وكأس الخمر إلى جوارى ،
والملائكة يطلون على ويغنون مغتبطين :
« رضى الله عن هذا السكير » (*)

وتشمل قصائد بيرن جميع موضوعات الشباب : تشمل الربيع ، والحب ، والافتخار بغواية النساء ، والفحش الرقيق ، وأغانى الحب الحنونة التى لا يستجيب لها الحبيب ، وأغنية ينشدها طالب علم يشير فيها بوقف الدرس ، وتقرير يوم عطلة للحب . . . وفى إحدى الأغانى تفاجىء فتاة شاباً أثناء كدحه وتسأله : « ماذا تفعل ياسيدى ؟ هيا بنا نلعب سوياً » ؛ وتتغنى أنشودة أخرى بخيانة النساء . وأخرى

(*) ما أشبه هذه القصيدة بشعر عمر الخيام الذى ذكر المؤلف شيئاً منه فى الجزء الذى عقده للحضارة الإسلامية فى هذا المجلد . (المترجم) .

عبرها بحزن فتاة غدر بها الحبيب ، وكانت بدانتها سببا فى الضربات يكيلها لها أبواها . ويتغنى كثير من القصائد بملذات الشراب ، والميسر ؛ ومنها ما يندد بثروة الكنيسة مثل « قصيدة الإنجيل حسب المارك الفضى » ؛ ومنها ما يقلد أنبل الترانيم ، ومنها قصيدة على غرار قصائد هوتمان Whitman تتغنى بالطريق المفتوح(١٠) . وكثير منها شعر غث لكن منه ما هو آية رائعة من آيات الشعر الغنائى . وها هى ذى أنشودة محب يتغنى فيها بالموت المثالى :

لما أن استسلمت فى غير مبالاة للحب ولى ،
ضحك الجمال من كوكبها الوضاء البعيد فى السماء ،
وغمرتنى نشوة لا حد لعظمتها ،
ولم يتسع قلبى لهذه الغبطة العظيمة التى فاضت على
حين بدلتنى حبيبتى ، وقد طوقتنى بذراعيها ، غير ما كنت ،
وصبت كل ما فى شفتيها من رحيق فى قبلة حبتنى بها .
وما أكثر ما أحلم بالحرية التى نلتها من صدرها الابن .
لقد أصبحت بعدها ربا آخر بين أرباب السماء ،
وإذا ما وجدت يدى مرة أخرى فوق صدرها فسأكون الحكم الأعلى
بين الآلهة والخلق(*)(١١) .

ومعظم الشعر الغزلى فى قصائد بيرن شهوانى صريح . نعم إن فيه أبياتاً تفيض رقة وظرفاً ولكنها أبيات قليلة نادرة الوجود ؛ وكان علينا ولو لم نعثر على هذا الشعر أن نتوقع وجود ترانيم لڤينوس تنشأ عاجلا أو آجلا إلى جوار ترانيم الكنيسة . ذلك أن المرأة ، وهى الدعامة القوية الوفية للدين ، هى أكبر منافس للآلهة . وظلت الكنيسة تستمع وهى صابرة لهذه الأغانى ، أغانى الحب والخمر ،

(*) وهذا يذكرنا أيضاً بقول امرئ القيس فى معلقته : وبيضة خدر . . . الخ . (المترجم)

ولكن مجلساً لها عقد فى عام ١٢٨١ قرر أن كل قس (ومن ثم كل طالب) يؤلف أغانى شهوانيـــة أو خارجة على الدين ، أو يتغنى بها ، يفقد بذلك منصبه الدينى وحقوقه . وبذلك انحط من بقى من الطلاب بعد هذا القرار مواليًا لجولياث إلى منزلة المغنى ، وخرج من سلك الأدباء إلى سلك الوزانين المفحشين . ولم يحل عام ١٢٥٠ حتى كان عهد الطلاب الجوالين قد انقضى . ولكنهم كانوا قد ورثوا تياراً وثنياً يسرى فى طيات القرون المسيحية ، ولهذا فإن مزاجهم وشعرهم بقيا كامنين حتى دخلا فى عصر النهضة .

وكان الشعر اللاتينى نفسه يلفظ آخر أنفاسه بانقضاء عهد الطلاب الجوالين ؛ ذلك أن القرن الثالث عشر قد وجه العقول نحو الفلسفة ؛ وانزوت الآداب القديمة وقنعت بمنزلة صغرى فى برامج الجامعات . ولم يجد الأدب الظريف الممتع أدب هيلد بيرت ويوحنا السلزبرى الذى كان يضارع أدب عصر أغسطس ، لم يجد هذا الأدب من يرثه . ولما تصرم القرن الثالث عشر واتخذ دانتى اللغة الإيطالية أداة يكتب بها شعره ، أضحت اللغات القومية لغات الأدب ؛ وحتى التمثيل ربيب الكنيسة وخادمها خلع عنه رداء اللاتينية ونطق بلغات الشعوب .

الفصل الثالث

بعث التمثيل

مات فن التمثيل القديم قبل بداية العصور الوسطى ، لأنه انحدر إلى تمثيليات هزلية ماجنة ثم حلت محله استعراضات للألعاب ؛ وكانت تمثيليات سنكا وهرسويذا Hroswftha حركات رياضية لا أكثر ، ويبدو أنها لم تجد سبيلها إلى المسرح . وبقيت بعد ذلك ناحيتان من نواحي النشاط التمثيلي تصلان الماضي القديم بالزمن الذي تلا العصور الوسطى : أولاهما مناظر المحاكاة التي كانت تجرى فى الأعياد الزراعية ، وثانيتهما التمثيليات الهزلية التي كان يمثلها المغنون الجوالون والمهرّجون فى أبهاء القصور أو ميادين القرى(١٢) .

ولكن أشهر منابع التمثيل فى العصور الوسطى هى الطقوس الكنسية شأنها فى هذا شأن اليونان القديمة . فالقداس نفسه منظر تمثيلى ، والحرم المقدس مسرح مقدس ، وكان القساوسة القائمون بخدمة القداس يلبسون حللا رمزية ؛ ويقومون هم وخدم الكنيسة بالحوار . وأناشيد القساوسة والمرتلين المتبادلة ، والمرتلين بعضهم مع بعض ، توحى بأن التمثيل تطور من الحوار الذى نشأت منه المسرحية الديونيسية . وفى الاحتفالات التى كانت تقام فى بعض الأعياد المقدسة نشأ العنصر التمثيلى نشأة واضحة صريحة ؛ فقد كان الناس فى بعض الطقوس الدينية التى تقام فى يوم عيد الميلاد فى القرن الحادى عشر يدخلون الكنائس فى زى رعاة الغنم ويحييهم غلام « ملاك » من المغنين بقوله : « أخبار سارّة » ، ويتعبدون أمام صورة طفل من الجبس فى مذود . ثم يدخلون ثلاثة « ملوك » من باب فى الجهة الشرقية ويقودهم إلى المذود نجم يُجرّ على سلك(١٣) . وكانت بعض الكنائس تمثـل فى

الثامن والعشرين من ديسمبر « مذبحة البريئين » : فكان بعض الغلمان المرتلين يمشون فى صحن الكنيسة وجناحيها ، ويسقطون على الأرض كأن هيرود قد ذبحهم ، ثم يقومون ، ويسيرون إلى الحرم المقدس ، يرمزون بذلك لصعودهم إلى السماء[١٤] . وفى يوم الجمعة الحزينة كانت كنائس كثيرة ترفع صور المسيح المصلوب من المذبح ، ثم تحمل هذه الصور وتودع فى مستقر يشبه الضريح المقدس ، تعاد منه بعد ذلك إلى المذبح فى صباح عيد الفصح باحتفال مهيب رمزاً لبعث المسيح[١٥]. وكتب جريجورى نزيانزين Gregory Nazianzen بطريق القسطنطينية فى عام ٣٨٠ لا بعد قصة آلام المسيح فى صورة تمثيلية يوربيدية Euripidean[١٦] ، ولا تزال تمثيلية آلام المسيح من ذلك الوقت حتى الآن ذات شأن عظيم عند الشعوب المسيحية . وكانت الكتب تقول إن أول مسرحية من هذا النوع هى التى مثلت فى سينا حوالى عام ١٢٠٠ ، ولكن أكبر الظن أن مسرحيات أخرى كثيرة من نوعها مثلت قبل ذلك التاريخ بزمن طويل .

وإذ كانت الكنيسة تستعين بالبناء ، والنحت ، والتصوير ، والموسيقى لتطبع فى عقول المؤمنين المناظر والأفكار الرئيسية فى الملحمة المسيحية ، فإنها بذلك كانت تلجأ إلى خيال الشعب وتزيد تقواه بما تضفيه على المناظر التمثيلية فى الأعياد الكبرى من روعة وتفاصيل مطردة الزيادة ؛ وكانت النصوص الموضحة التى أضيفت إلى الطقوس الدينية لتكسبها الروعة الموسيقية ، كانت هذه النصوص الموضحة تحول أحياناً إلى تمثيليات قصيرة . من ذلك أن نصاً موضحاً لعيد الفصح فى مخطوط من القرن العاشر فى سانت جول St, Gall يدخل الحوار الآتى فى ترنيمة مقسمة لتمثل فيها الملائكة والمريمات الثلاث(*).

الملائكة : منذ الذى تبحثن عنه فى الضريح يا خادمات المسيح ؟

المريمات : نبحث عن المسيح الذى صلب يا رسلا من السماء .

(*) مريم أم المسيح ، ومريم أختها ، ومريم المجدلية .   (المترجم)

الملائكة : ليس هو فى هذا المكان ، لقد صعد كما قال من قبل ؛ اذهبن وأذعن أنه قد صعد .

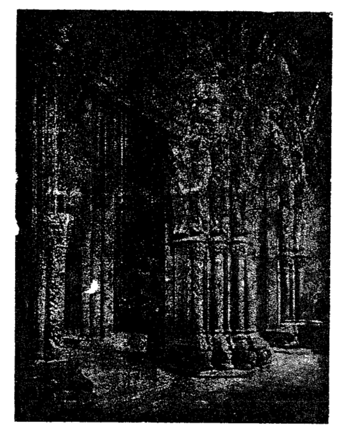
المرتلون جميعاً : احمدوا الرب ، الرب قد صعد(١٧) .

وأخذت المناظر الدينية منذ القرن الثانى تزداد تعقيداً على مر الأيام حتى لم يعد تمثيلها فى داخل الكنيسة مستطاعاً ، ولذا أقيم طوار مرتفع فى خارجها ومثل المسرحية فوقه ممثلون يختارون من بين أفراد الشعب ، ويدربون على استظهار أدوار مطولة مكتوبة . وأقدم ما لدينا من أمثلة لهذا الضرب من التمثيل *تمثيلية آدم* التى كتبت فى القرن الثانى عشر باللغة الفرنسية بينها سطور باللغة اللاتينية مكتوبة بالمداد الأحمر لتكون تعليمات للممثلين .

وفى هذه المسرحية يظهر آدم وحواء فى دثارين أبيضين يلعبان فى جنة ممثلة بأعشاب وأزهار أمام الكنيسة . ثم تظهر الشياطين فى الأثواب الحمراء الملتصقة بالجسم التى أضحت من ذلك الوقت ثيابهم الخاصة فى دور التمثيل ، ويجرى أولئك الشياطين بين النظارة يلوون أجسامهم ويقطبون وجوههم تقطيباً مروعاً رهيباً ، ويقدمون الفاكهة المحرمة لآدم فيرفضها ، فيقدمونها لحواء ، فتتناولها ، وتقنع آدم بأن يحذو حذوها . ويدان آدم وحواء برغبتهما فى المعرفة فيسلكان فى أغلال من الحديد وتجرهما الشياطين إلى الجحيم ممثلة بحفرة فى الأرض ينبعث منها صوت رهيب دال على الفرح . وفى الفصل الثانى يستعد قابين لذبح هابيل وينادى : « يا هابيل سوف تموت » ، فيسأله هابيل : « ولم أموت ؟ » فيجيبه قابين : « أتريد أن تعرف لم أريد أن أقتلك ؟ . . . سأخبرك . سبب ذلك أنك تفرط فى سعيك لتنال الحظوة عند الله » . ويلقى قابين بنفسه فوق هابيل ويضربه حتى يموت . ولكن مؤلف الرواية تأخذه الرأفة فيكتب بين السطور بالمداد الأحمر : « سيكون تحت ثياب هابيل جفنة »(١٨) .



(الصورة رقم ١٠) المنظر الخلفى لكتدرائية سلمنقة



(الصور رقم ١١) داخل كتدرائية سنتياجو دى كمپستيلا

وأطلق فيما بعد على هذه التمثيليات المستمدة من الكتاب المقدس اسم « الأفعال الخفية » ؛ واللفظ مشتق من الكلمة اللاتينية ministerium ومعناها الفعل، وكان هذا أيضاً هو معنى drama . ولما أضحت القصة تمثل أحداثاً وقعت بعد زمن الكتاب المقدس سميت بمسرحيات المعجزات ، وكانت تدور فى العادة حول بعض الأفعال العجيبة التى قامت بها العذراء أو قام بها بعض القديسين . وقد كتب هيلاريوس Hilarius تلميذ أبلار كثيراً من هذه المسرحيات (حوالى ١١٢٥) بخليط من اللغتين اللاتينية والفرنسية ، ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى كانت اللغات القومية الأداة التى تكتب بها « مسرحيات المعجزات » . وأخذت الفكاهات المتزايدة الصراحة تصبح فيها ذات شأن مطرد الزيادة ، كما أصبحت موضوعاتها تتجه شيئاً فشيئاً وجهة دنيوية غير دينية .

وكانت « المهازل » فى هذه الأثناء قد أخذت تتطور تطوراً مستقلا نحو المسرحيات . ويتمثل هذا التطور فى مسرحيتين قصيرتين وصلتا إلينا من قلم آدم ده لا هال Adam de la Halle (حوالى ١٢٦٠) ، وهو رجل أحدب من أراس Arras . وتدور إحدى هاتين المسرحيتين ، مسرحية آدم Li Jus Adam ؛ حول حياة المؤلف نفسه . فقد كان يفكر فى أن يكون قساً ، ولكنه أحب مارية الحسناء . « وفى يوم جميل من أيام الصيف سماؤه صافية ، وجوه لطيف ، بينما كانت الطيور تنطلق بأصواتها العذبة ، تحت بين الأشجار العالية على شاطئ النهر فتاة هى الآن زوجتى . . . لقد رويت الآن ظمأى منها » . ويخبرها بهذا فى صراحة ظريفة ويعتزم الذهاب إلى باريس وإلى الجامعة . ويُدخل المؤلف فى هذا الفصل الخاص بشئونه هو وزوجته ، طبيباً ، ومجنوناً ، وراهباً ، يستجدى الناس الصدقات ويعدهم بالمعجزات ، وجماعة من الجنيات ينشدن الأناشيد ، ويذكرنا هذا بأدوار الرقص التى تقحم إقحاماً فى التمثيليات الغنائية الحديثة . ويسىء آدم إلى إحدى الجنيات ، فتصب عليه لعنة تمنعه أن يفارق زوجته طول حياته ، ومن

هذا الهراء أخذت المسرحيات تتطور تطوراً مستمراً حتى وصلت إلى مسرحيات برناردشو Bernaad Shaw .

وكلما بعدت المسرحيات عن الموضوعات الدينيـة واقتربت من الموضوعات الدنيوية ، انتقل تمثيلها شيئاً فشيئاً من الكنيسة وما حولها إلى السوق العامة أو إلى غيرها من ميادين البلدة . ذلك أنه لم تكن هناك وقتئذ دور للتمثيل ، فكانوا إذا أرادوا أن يمثلوا فى مكان ما تلك المسرحيات القليلة — وكان ذلك يحدث فى العادة فى عيد من الأعياد الصيفية — يقيمون مسرحاً مؤقتاً ، ويضعون مقاعد للنظارة ، وينشئون مظلات مزركشة لأصحاب المقامات العالية . وكان من المستطاع أن تستخدم البيوت المحيطة بالميدان لتمثيل المناظر الخلفية وغيرها مما يحتاجه الممثلون . وكان الذين يقومون بالأدوار فى المسرحيات الدينية هم الشبان من رجال الدين ؛ أما فى المسرحيات غير الدينية فكان الممثلون هم أهل المدينة « الماجنين » أو المغنين الجوالين ؛ وقلما كانت النساء يشتركن فى التمثيل . ولما زاد بعد التمثيليات عن الكنيسة فى مناظرها وموضوعاتها ، نزعت هذه التمثيليات إلى التهريج والخلاعة والفحش ؛ ورأت الكنيسة ، وهى التى نشأت فى أحضانها المسرحية الجديدة ، أن لا بد لها من أن تعلن أن التمثيليات القروية تجافى الأخلاق الفاضلة . وهكذا نرى جروستستى أسقف لنكلن يضم التمثيليات ، ومنها « تمثيليات المعجزات » إلى مجالس الشراب . « وعيد الحمقى »(*) ، ويقول إن هذه أعمال يجب ألا يشهدها أى مسيحى ؛ وصدرت بعده أوامر شبيهة بهذا الأمر (بين عامى ١١٣٦ و١١٤٤) تقضى بأن الممثلين الذين يشتركون فى هذه التمثيليات يحرمون من الدين . أما القديس تومس فكان أكثر من هذا تسامحاً ، وقال إن مهنة التمثيل قد وجدت لمواساة الإنسانية ، وإن الممثل الذى يمارسها على خير وجه ربما نجا من الجحيم برحمة من الله .

(*) اسم كان يطلق على رأس السنة عند بعض كنائس فرنسا فى العصور الوسطى وسمى كذلك لما كان يحدث فيه من الخلاعة . (المترجم)

الفصل الرابع

الملاحم والقصص المنثورة

سار اصطباغ الأدب بالصبغة الدنيوية مع نشأة اللغات القومية جنباً إلى جنب . ويمكن القول بوجه عام إن رجال الدين وحدهم هم الذين كانوا يفهمون اللغة اللاتينية قبل القرن الثانى عشر ، وإن الكتاب الذين كانوا يريدون أن يتصلوا بغير رجال الدين كانوا مضطرين إلى الكتابة باللغات القومية ؛ وكان جمهور القراء يزداد اتساعاً كلما زاد النظام الاجتماعى نماء ، وأخذت الآداب القومية ترتقى تدريجاً لتسد مطالب هذا الجمهور . وكانت نتيجة هذا أن نشأ الأدب الفرنسىُ فى القرن الحادى عشر ، والأدب الألمانى فى القرن الثانى عشر ، والإنجليزى والأسبانى والإيطالى فى القرن الثالث عشر .

وكان من الطبيعى أن تصبح الصورة الأولى لهذا الأدب القومى هى الأغنية الشعبية ، ثم طالت الأغنية فأضحت هى القصيدة الغنائية ، ثم كبرت القصيدة الغنائية بما أدخل عليها من تطور وتضحم فصارت هى الملحمة الصغرى كملحمة بيولف Beowulf ، وأغنية رولان Chanson de Roland ونيبلنچنلايد Nibelungenlied والسيد Cid . وأكبر الظن أن أغنية رولان ضمت بعضها إلى بعض حوالى عام ١١٣٠ من أغان كانت شائعة فى القرن التاسع أو القرن العاشر. وهى تروى فى أربعة آلاف بيت من الشعر السهل المنسجم العميق الوزن قصة موت رولان فى رنسفال Roncessvales . وتفصيل ذلك أن شارلمان يعد أن « فتح » بلاد الأندلس الإسلامية كان عائدا بجيشه نحو فرنسا ، فما كان من جانيلون Ganelon الخائن إلا أن دل العدو على طريق الجيش ، وتطوع رولان لقيادة المؤخرة لينجيها من مأزق خطر . وبينا هو سائر فى أخدود ضيق

ملتو فى جبال البرانس إذ انقض حشد من الباشقنس من شعاب الجبال على قوة رولان الصغيرة . ويرجوه صديقه ألقييه أن ينفخ فى بوقه الكبير ليستنجد بشارلمان ، ولكن رولان يأبى أن يطلب النجدة ، ويقود هو وألقييه ، وتوربين Turpin كبير الأساقفة ، جنودهم ، ويدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت حتى يقتلوا كلهم تقريباً . وينزف الدم من جروح مميتة فى رأس ألقييه ويغشى عينيه فيظن رولان جنديا من الأعداء ويضربه بسيفه ويشق خوذته من أعلى رأسه إلى موضع أنفه ، ولكنه ينجو من الموت :

وينظر إليه رولان وهو يضربه ؛
ويسأله بصوت لين حنون :
« أيها السيد الرفيق ؛ أتفعل هذا بجد ؟
إنى أنا رولان الذى يحبك أعظم الحب
ولم تطلب إلىّ النزال »
فيقول ألقييه : « أنا الآن أستمع قولك ؛
ولكنى لا أراك ، رعاك الله وأنجاك !
لقد ضربتك ، فاغفرها لى ! »
فيجيبه رولان : « لم أصب بسوء
وأعفو عنك لساعتى وأشهد الله . »
فلما نطق بهذا انحنى كلاهما لصاحبه
وافترقا متحابين[٢٠] .

وينفخ رولان أخيراً فى بوقه العاجى ، ويواصل النفخ حتى ينبثق الدم من صدغيه ، ويسمعه شارلمان فيعود لنجدته و « لحيته البيضاء تطير فى الريح » . ولكن الطريق طويل و « الجبال شامخة ، شاسعة مظلمة ، والوديان عميقة ، والأنهار سريعة التيار » . ورولان فى هذه الأثناء حزين مكب على جثة ألقييه

يناديها بقوله : « أيها السيد الرفيق ، لقد كنا زميلين أياماً وليالى طوالا ، لم تسئ إلىّ فيها ولم أسئ إليك ، فإذا مت فالحياة من بعدك كلها آلام » . ويتوسل إليه كبير الأساقفة وهو يحتضر أن ينجو بالهرب . ويأبى رولان ، ويواصل الحرب حتى يفرّ المهاجمون ، ولكنه هو أيضاً يصاب بجرح مميت . ويستجمع آخر ما فيه من قوة ويحطم فوق صخرة من الصخور سيفه دورندال Durendal المطعم بالجواهر حتى لا يقع فى أيدى الكفار . و « رقد الكونت رولان تحت شجرة صنوبر ووجهه متجه نحو أسبانيا . . . وطافت به وقتئذ ذكريات كثيرة ، ففكر فى البلاد التى فتحها ، وفى فرنسا الحلوة ، وفى أسرته ، وفى شارل الذى رباه ، وبكى » . ورفع قفازه إلى السماء دليلا على خضوعه لله ، ووفاته . ويقبل شارل ويجده قد مات . تلك هى خلاصة القصة مترجمة ولكن الترجمة أيا كانت لا تستطيع محاكاة أصلها السهل الجذل ، وما من أحد غير من نشأ على حب فرنسا وتكريمها يستطيع أن يحس بالقوة والعاطفة اللتين تفيض بهما هذه الملحمة التى يحفظها كل طفل فرنسى ويتلوها فى كل صلواته .

ووهب شاعر مجهول حوالى عام ١١٦٠ أسبانيا ملحمة قومية يمجد فيها أخلاق راى Ruy أو ردريجو دياز (المتوفى سنة ١٠٩٩) ، وهى المعروفة بملحمة السيد Poema de Cid . وموضوعها هى الأخرى القتال بين الفرسان المسيحيين والمسلمين فى الأندلس ، وتمجيد بطولة سادة الإقطاع ، وشرفهم ، وعظمتهم ، وتفضيل أمجاد الحرب عن ذلة الحب . وينفى رولان ملك جاحد بفضله ، فيودع زوجته وأبناءه فى أحد الأديرة ويقسم ألا يعيش بينهم بعدئذ حتى ينتصر فى خمس معارك ، ويخرج لقتال المسلمين . ويردد النصف الأول من القصيد ذكر انتصارات هومرية . وينهب السيد فى خلال الفترات الواقعة بين المعارك أموال اليهود ، ويوزع الصدقات على الفقراء ، ويقدم الطعام بيده إلى مجذوم ، ويأكل معه فى صحفة واحدة ، وينام معه فى فراش واحد ، ويتبين أنه ألعازر Lazarus الذى

رفعه السيح من بين الموتى . وليست هذه بطبيعة الحال هى صفات السيد التاريخية ، ولكنها لا تسىء إلى التاريخ أكثر مما تسىء إليه أغنية رولان بتمجيدها شارلمان وجعلها إياه مثلا أعلى للرجال ، وأضحت ملحمة السيد حافزاً قوياً للتفكير الأسبانى والعزة الوطنية الأسپانية ؛ وألفت مئات الأغانى الشعرية التى تدور حول بطلها ، كما ألفت عنه مئات من الكتب متفاوتة القرب من الحقيقة التاريخية . وبعد فليس فى الأشياء ما هو أبعد عن قلوب الناس من الصدق ، وعماد الناس والدول هو الروايات الخيالية التى تتعاقب على مدى الأيام .

* * *

ولننتقل بعد ذلك إلى أيسلندة فنقول إن أحداً لم يفسر لنا بعد كيف أخرجت هذه الجزيرة الصغيرة ، التى قست عليها الطبيعة وفصلتها البحار عن غيرها من البلدان ، فى تلك الفترة من الزمان ، أدباً لا يتناسب فى مداه ولا فى بهائه مع مكانها وحجمها . لقد ساعدها على ذلك عاملان : قدر كبير من الروايات التاريخية المتواترة ، العزيزة على قلب كل جماعة من الناس معزولة عن غيرها من الجماعات ، وحب للقراءة ، أو الاستماع إلى القارئين — أعان عليه طول ليالى الشتاء . لقد وجد فى الجزيرة منذ القرن الثانى عشر لا بعد كثير من دور الكتب بالإضافة إلى مكتبات الأديرة . ولما أن أصبحت الكتابة من مميزات الشخص المهذب ، صاغ الكتاب من رجال الدنيا والدين هذه القصص الشعبية صياغة أدبية بعد أن كانت من قبل ملكا للشعراء الشعبيين .

وكان من المصادفات النادرة أن زعيم كتاب القرن الثالث عشر فى أيسلندة كان هو أغنى أهلها ، والرجل الذى اختير مرتين ليكون رئيساً لجمهوريتها — الناطق بالقانون كما يسمونه فيها . كان أسنرى استورلسون Snorri Sturlson (١١٧٨ — ١٢٤١) يحب الحياة أكثر مما يحب الأدب ، وكان كثير الأسفار ، منهمكا فى السياسة والمنازعات ، ثم قتله زوج ابنته وهو فى الثانية والستين من عمره .

وقد روى فى كتابه العالم المستدير Heimskringla تاريخ بلاد الشمال وقصصها بما فطر عليه رجل الجد والعمل من بساطة وإيجاز ؛ وروى فى كتاب إدا استرا استورلسونز Edda Snorra Sturlsnar أو إدا المنثورة موجز التاريخ الوارد فى الكتاب المقدس ، وشذرات من أساطير الشماليين ، وضمنه مقالا فى أوزان الشعر ، ورسالة فيه ، وشرحا فذاً لنشأة هذا الفن من البول يقول فيه إن طائفتين من الأرباب اقتتلوا ثم عقدوا الصلح بأن أخذوا يبصقون فى جرة ، ونشأ من هذا البصاق نصف إله يدعى أكفازير Kvasir. علم الناس الحكمة كما علمهم إياها پروميثيوس . وقتل الأقزام أكفازير ، ومزجوا دمه بالخمر وصنعوا رحيقا يهب كل من يشربه القدرة على الغناء . واتخذ الإله العظيم أودين Odin سبيله إلى المكان الذى خزن فيه الأقزام هذا الخمر الشعرى ، وشربه كله ، وطار إلى السماء ؛ غير أن بعض السائل المحبوس خرج منه بطريقة قلما تستخدم فى الفساقى العامة ؛ وسقط هذا الماء الإلهى رذاذاً ماهما على الأرض ، وامتص من سقط عليه موهبة قرض الشعر[٢١] . ذلك هراء جاء به عالم من العلماء وليس هو أبعد عن العقل من التاريخ .

وهذه الفترة من تاريخ أيسلندة غنية بأدبها غنى تحار فيه العقول ، ولا يزال هذا الأدب يفيض طرافة ، ومرحا ، وفكاهة ، وفتنة شعرية تسرى فى نثره . وكتبت فى ذلك العهد مئات من القصص المنثورة بعضها قصير وبعضها فى طول الروايات النثرية ، بعضها تاريخى وبعضها يخلط التاريخ بالأساطير . وكلها بوجه عام ذكريات للحضارة من عصر الهمجية ، مليئة بأعمال المروءة والعنف ، يُعَقِّدها التقاضى ويخفف من مللها الحب . وكثيراً ما يرد فى قصص إنجلنجا Ynglinga تأليف أسنرى ذكر فرسان الشمال الذين يحرق بعضهم بعضاً ، أو يحرق الواحد منهم نفسه ، أو ذكر أبطالهم أو أقداح شرابهم . وأوسع هذه القصص خيالا

.. قصص الفلسنجاساجا Volsungasaga . وقد وردت قصصها فى صورة باكرة فى الإدا الكبرى أو الإدا الشعرية ؛ وأحدث صورة لها هى التى وردت فى خاتم النبلنجيين Nibalungs تأليف ڤاجنر Wagern .

والفلسنج Volsung هو كل من تناسل من ويلز Waels ، وويلز هذا ملك من ملوك الشمال ، وهو ابن حفيد أودين وجد سيجورد Sigurd (سيجفريد Siegfried) . والنيبلنجون حسب نص النيبلنجيد Nibelungenlied ملوك برغنديون ، أما فى الفلسنجاساجا فهم سلالة من الأقزام يحرسون فى بلاد الرين كنزاً وخاتماً من الذهب يجلاّن عن التقدير ، ولكنهما يجلبان النقمة لكل من يمتلكهما . ويقتل سيجورد فهنير Fahnir التنين الذى يحرس الكنز ويستولى عليه ، ويصل فى تجواله إلى تل تحيط به النيران وتنام عليه برندهلد Brundhild الڤلكيرية Valkyrie (نصف الإلهة التى من نسل أودين) . وتلك إحدى صور قصة الجميلة النائمة Sleeping Beauty . ويفتتن سيجورد بجمالها وتفتتن هى به ، ويقسمان يمين الوفاء ، ثم يتركها ويواصل أسفاره — كما يفعل الرجال فى كثير من قصص العصور الوسطى . ويلتقى فى بلاط جيوكى Gukil أحد ملوك بلاد الرين بالأميرة جدرون Gudrun ، وتسقيه أمها شراباً مسحوراً ينسيه برندهلد ويتزوج جدرون ؛ ثم يتزوج جنار Gunnar بن جيوكى برندهلد ويأتى بها إلى بلاط أبيه ، ويسوؤها نسيان سيجورد إياها فتعمل على قتله ، ثم تندم على فعلتها فتعلو كومة حريقة ، وتنتحر بسيفه وتحترق معه .

وأحدث صورة لهذه القصص الأيسلندية هى قصة أنجال المحترق Njai (حوالى ١٢٢٠) . وشخصيات هذه القصة واضحة تحددهم أعمالهم وأقوالهم أكثر مما يحددهم وصفهم . والقصة محكمة البناء وتنتقل حوادثها المثيرة تنقلا يحتمه السياق حتى تصل إلى الكارثة التى تدور حولها حوادثها — وهى احتراق بيت

نجال ؛ واحتراقه هو وزوجته برجثورا Bergthura وأبنائه على أيدى جماعة مسلحة من الأعداء يقودهم شخص يدعى فلوسى Flosi يحقد على أبناء نجال ويعمل على الانتقام منهم :

ثم نادى فلوسى . . . نجال وقال له .

« إنى آذن لك ، يا سيد نجال ، أن تخرج لأنه لا يليق بك أن تحترق فى داخل الدار »

فيرد عليه نجال قائلا : لن أخرج لأنى شيخ كبير ؛ لا أقوى على الثأر لأبنائى ، ولكن لن أعيش مجللا بالعار »

ثم نادى فلوسى برجثورا قائلا : « أخرجى يا صاحبة الدار لأنى لا أريد أن أحرقك داخل البيت مهما تكن الأسباب »

فتجيبه برجثورا بقولها : « لقد تزوجت نجال وأنا صغيرة ، ووعدته أن ألقى وإياه نفس المصير »

ثم عادا بعد ذلك إلى البيت :

وسألته برجثورا : « أية نصيحة نتبعها الآن ؟ » .

فيجيبها نجال : « سنذهب إلى فراشنا ، ونرقد عليه ، فطالما تاقت نفسى إلى الراحة »

ثم قالت للغلام ثورد Thord بن كارى : Kari : « سأخرجك أنت ولن تحترق هنا »

فيجيبها الغلام قائلا : « لقد وعدتنى يا جدتى ألا نفترق ما دمت أرغب البقاء معك ؛ ولكنى أرى أن موتى معك ومع نجال خير من حياتى بعدكما »

ثم حملت الغلام إلى سريرها و... ووضعته بينها وبين نجال ، ورسما عليهما

وعلى الغلام علامة الصليب ، وأسلما أرواحهما إلى الله » وكان هذا آخر لفظ سمعه الناس منهما(٢٢)

وكان عصر الهجرة (٣٠٠ — ٦٠٠) قد ترك فى ذكريات الشعوب والمغنين المضطربة ألف قصة وقصة عن الفوضى الاجتماعية ، والشجاعة الهمجية ، والحب القاتل ؛ وانتقلت بعض هذه القصص إلى بلاد النرويج وأيسلندة وأثمرت الفلسنجاساجا ، وكثير منها متقاربة الأسماء والموضوعات ، وقد عاشت وتضاعف عددها فى ألمانيا فى صورة قصص تاريخية ، وقصائد غنائية وقصص شعبية ، حتى قام رجل ألمانى غير معروف فى زمن غير معروف أثناء القرن الثانى عشر وصاغ من تلك المواد النيبلنجلنيد أو أغانى النيبلنجيين . وهى مصوغة فى قصص مسلسل من الشعر لكل بيتين منه قافية واحدة بلغة القسم الأوسط من ألمانيا العليا ؛ وقصصها مزيج من الانفعالات البدائية والأمزجة الوثنية .

وحكم الملك جنثر Gunther وأخواه برغندية زمناً ما فى القرن الرابع الميلادى فى قصرهم فى ورمز على ضفة نهر الرين ، وكانت تقيم معهم فى ذلك القصر أختهم الشابة كريمهيلد Kremhild — « التى لم يكن أجمل منها فى بلد من البلاد » . وكان الملك سجمند فى هذه الأثناء يحكم الأراضى الوطيئة ، وأقطع ابنه سيجفريد (سيجورد) ضيعة غنية بالقرب من أكسنتين Xanten الواقعة هى الأخرى على ضفة الرين . وترامت إلى مسامع سيجفريد أخبار جمال كريمهيلد فذهب لزيارة بلاط جنثر وأقام هناك على الرحب والسعة مدة عام ، ولكنه لم ير كريمهيلد قط وإن كانت هى قد أبصرت من نافذتها الشبان يتثاقفون فى فناء القصر ، فأحبته من أول نظرة . ذلك أن سيجفريد كان يفوق سائر الشباب فى قراع السيوف ، وأظهر بسالة عظيمة فى حربه فى صفوف البرغنديين ؛ وأراد جنثر أن يحتفل بعقد الصلح بعد انتصاره وأمر سيدات القصر أن يشهدن الاحتفال !

وازينت كثيرات من بنات الأشراف أحسن زينة ، وتاقت نفوس الشبان لنيل رضاء السيدات وإعجابهن ، ونزلوا عن حقهم فى أرض الملك الغنية نظير فوزهم بهذا الإعجاب . . . : وتبدت كريمهيلد كأنها كوكب الصباح يتألق بين السحب الدكناء ، ولم يكد يراها الشاب الذى انطوى قلبه على حبها من زمن بعيد حتى ذهب عنه ما كان يحس به من تعب . . . . وسر سيجفريد وحزن ، فقد قال فى نفسه : « كيف أخطب ود فتاة مثلك ؟ تلك لاريب أضغاث أحلام ، ولكن الموت عندى أفضل من البعد عنك » ... واحمرت وجنتاها حين أبصرت أمامها ذلك الرجل ذا النفس العالية ، وقالت : « مرحباً بك يا سيجفريد ، أيها الفارس الباسل النبيل » . وامتلأ قلب الفارس شجاعة حين سمع هذه الألفاظ ، وانحنى أمامها انحناءة جميلة شأن الفارس الشهم ، وشكر لها تحيتها . وارتبط قلباهما برباط الحب القوى وتبادلا النظرات سراً .

وترامت أخبار برنهيلد ملكة أيسلندة إلى جنثر وكان أعزب ، وقيل له إنها لا ينالها إلا من يتفوق عليها فى ثلاث تجارب للقوى ، وإنه إذا أخفق فى أية تجربة منها جوزى بقطع رأسه . ووافق سيجفريد على أن يساعد جنثر على نيل برنهيلد إذا زوجه بكريمهيلد . ويعبران البحر بسرعة القصص وسهولتها ؛ ويلبس سيجفريد طيلساناً سحرياً يخفيه عن الأنظار ، ويساعد جنـــثر على الخروج ظافراً من التجارب الثلاث ، ويأتى جنثر ببرنهيلد إلى موطنه ليتزوجها على كره منها . وتساعد ست وثمانون فتاة كريمهيلد على إعداد الأثواب الغالية للعروس . ويحتفـــل بزواج جنثر وبرنهيلد وبزواج سيجفريد وكريمهيلد احتفالا فخما .

ولكن برنهيلد تبصر سيجفريد فتحس أنه هو لا جنثر الذى يليق أن يكون زوجها . ويقبل جنثر عليها ليلة زفافها فترده عنها خائباً ؛ وتربطه فى عقدة وتعلقه على الجدار . وينطلق جنثر من العقدة ويستنجد بسجفريد ؛ وفى الليلة الثانية يتخفى البطل فى زى جنثر وينام بجوار برنهيلد ، بينا يكون جنثر نفسه مختبئاً فى

حجرة مظلمة يستمع إلى كل شيء ولا يرى شيئاً . وتلتقى برنهيلد بسيجفريد بعيداً عن الفراش وتشتبك معه فى معركة تفرى العظم ، وتحطم الرأس ، ولا تجرى على سنن متبعة . ويقول فى نفسه أثناء المعركة : « واحسرتاه ! إننى إذا مت بيد امرأة فإن الزوجات جميعهن سيحتقرن أزواجهن » . وتهزم برنهيلد آخر الأمر ، وتعد أن تكون زوجة . وينسحب سيجفريد دون أن يراه أحد حاملا معه منطقتها وقرطها ، ويحل جنثر محله بجوار الملكة الخائرة القوى . ويهدى سيجفريد المنطقة والقرط إلى كريمهيلد ، ويأتى بها إلى أبيها ، فيتوجه ملكا على الأراضى الوطيئة . ويستخدم سيجفريد ما له من ثروة فى سنيبلنجن فيلبس زوجته ووصيفاتها من الثياب ما لم تلبسه امرأة أخرى قبلهن .

وتزور كريمهيلد بعد فترة من ذلك الوقت برنهيلد فى مدينة ورمز . وتبصر برنهيلد أثواب كريمهيلد الغالية فتدب الغيرة فى قلبها ، وتذكرها بأن سيجفريد من أتباع جنثر . وترد عليها كريمهيلد بأن تكشف لها عن المنطقة والقرط لتثبت لها أن سيجفريد لا جنثر هو الذى غلبها على أمرها . وكان لجنثر أخ نكد غير شقيق يدعى هاجن Hagen ملأ صدره حقداً على سيجفريد ؛ فأرسلا إليه يدعوانه للخروج إلى الصيد . وينحنى سيجفريد فوق مجرى ماء ليروى ظمأه . فيطعنه هاجن بحربة ، وتبصر كريمهيلد بطلها يلقى منيته « فيغمى عليها وتفقد وعيها طوال ذلك اليوم وتلك الليلة » . وترث كنز نيبلنج بوصفها أرملة سيجفريد ، ولكن هاجن يغرى جنثر باغتصابه منها ، ويدفن جنثر وإخوته هذا الكنز فى نهر الرين ويقسموا ألا يكشفوا لأحد عن مخبئه .

وتظل كريمهيلد ثلاثة عشر عاماً تفكر فى الثأر لزوجها من هاجن وإخوتها ، ولكنها لا تجد الفرصة التى تمكنها من هذا الثأر ، ثم تقبل ما عرضه عليها إتزل Etzel (أتلا Atilla) ملك الهون من زواجه بها ؛ وتنتقل إلى ڤينا Vienna لتعيش فيها وتكون زوجة له . « وكان إتزل ذا شهرة عظيمة تجتذب إلى بلاطه

بلا انقطاع أشجع الفرسان مسيحيين وكفاراً على السواء . . . . وكان الإنسان يرى عنده ما لا يستطيع أن يراه فى هذه الأيام — يرى المسيحيين والكفرة جنباً إلى جنب . وكان الملك ندى اليد سخياً على الناس جميعاً أيا كانت عقائدهم ، فلم يكن ثمة أحد لا ينال رفده » . وظلت كريمهيلد تحكم البلاد « حكما صالحا » مدى ثلاثة عشر عاما بدا فيها أنها لم تعد تفكر فى الانتقام ؛ وبلغ من أمرها أن طلبت إلى إتزل أن يدعو هاجن وإخوتها إلى وليمة ؛ ويلبى هؤلاء الدعوة رغم تحذير هاجن ؛ ولكنهم يأتون معهم بحاشية من الفلاحين والفرسان المسلحين . وبينا كان إخوة الملك وهاجن ومن معهم من الفرسان يستمتعون بضيافة حاشية الهون فى بهو إتزل ، إذ يقتل الفلاحون الذين فى خارج البهو بأمر كريمهيلد ، ويتلقى هاجن النبأ ، فيستل سيفه ، وتدور معركة رهيبة فى البهو بين البرغنديين والهون (ولعل القصة ذكرى حربهم الحقيقية التى دارت فى عام ٤٣٧م) . ويطيح هاجن بضربته الأولى برأس أرتليب Artlieb ابن كريمهيلد وإتزل البالغ من العمر خمس سنين ويلقى برأسه فى حجر كريمهيلد وجنثر . ولما كاد البرغنديون جميعا يهلكون يطلب جرنوت Gernot أخو كريمهيلد وجنثر إلى إتزل أن يسمح للباقين من الزوار بالخروج من البهو . ويظهر فرسان الهون رغبتهم فى إجابة هذا الطلب ولكن كريمهيلد ترفضه ، وتستمر المذبحة : ويتوسل إليها جزلهر Gisslher أخوها الأصغر الذى كان غلاما بريئا فى الخامسة من عمره لما قتل سيجفريد ويناديها : « أختى يا أجمل النساء ، بأى ذنب أستحق الموت بأيدى الهون ؟ لقد كنت على الدوام وفيا لك ، لم تمسسك يداى بأذى ؛ ولكنى جئت إلى هذا المكان يا أعز الأخوات لأنى وثقت بحبك ، فهلا رحمتنى » . وترضى كريمهيلد بأن يخرج الباقون إذا أسلموا هاجن ، فيرد عليها جرنوت بقوله : « ذلك ما يأباه الله فى علو سمائه ، خير لنا أن نهلك عن آخرنا من أن نقتدى أنفسنا بواحد منا » . وتخرج كريمهيلد الهون من البناء ، وتغلق الأبواب على من

فيه من البرغنديين ، وتأمر بإحراقه . ويجن البرغنديون من فرط الحرارة والظمأ فيصيحون من شدة الألم ، فيأمرهم هاجن بأن يطفئوا ظمأهم بشرب دماء القتلى ، فيصدعوا بما يؤمرون ، ويخرج بعضهم من بين الأخشاب الملتهبة المتساقطة ، وتستمر المعركة دائرة فى الفناء حتى لا يبقى حياً من البرغنديين غير جنثر وهاجن . ويقاتل ديتريخ Dietrich القوطى هاجن ، وينتصر عليه ، ويأتى به إلى كريمهيلد مكبلا بالأغلال . وتسأله هاجن أين أخفى كنز نيبلنج ، فيجيبها بأنه لن يكشف لها عن ذلك السر ما دام جنثر حياً ؛ ويقتل جنثر ، وكان لا يزال حياً ، بأمر أخته ، ويحمل رأسه إلى هاجن ، ولكن هاجن يتحداها بقوله : « إن مكان الكنز لا يعرفه الآن إلا الله وحده وأنا ، ولن تعرفى هذا السر أيتها المرأة الشيطانة » ؛ فتقبض بيدها على سيفه وتقتله به . وتشمئز نفس هالدبراند Hildébrand القوطى مما سفكته كريمهيلد من الدماء فيقتلها .

تلك قصة رهيبة تجرى فيها الدماء كما تجرى فى أية قصة أخرى فى عالم الأدب أو فيما هو دونه . وإنا لنظلم هذه القصة بعض الظلم إذا انتزعنا لحظاتها الرهيبة مما يحيط بها من ولائم ، ومثاقفة ، وصيد ، وشئون النساء . ولكن هذا هو الموضوع الذى تدور حوادثها حوله — فتاة رقيقة يبدلها ما صادفته من الشر امرأة وحشية سفاحة . ومن عجب أنه قلما يبقى فى القصة بعد هذا شىء يقربها من الدين المسيحى ، فهى فى الواقع مأساة يونانية تدور حول الانتقام ، ولا تفعل ما تفعله المآسى اليونانية إذ تأبى أن تقع أعمال العنف على المسرح . وتطغى هذه الجرائم على جميع فضائل الإقطاع فلا يكاد يظهر منها شىء حتى إكرام رب الدار أضيافه الذين دعاهم لزيارته ، وليس ثمة ما يفوق وحشية هذه القصة إلا وحشية أيامنا نحن .

الفصل الخامس

شعراء الفروسية الغزلون(*)

فى أواخر القرن الثالث عشر ، أى فى الوقت الذى كنا نتوقع فيه أن يكون الأدب الأوربى مصطبغاً بالحماسة الدينية التى بعثتها فى الناس الحروب الصليبية ، فى أواخر هذا القرن بالذات نشأت فى جنوبى فرنسا مدرسة من الشعر الغنائى أرستقراطية ، وثنية ، غير كهنونية ، عليها الطابع العربى ، تنبئ بانتصار المرأة على القيود الثقيلة التى فرضتها نظرية سقوط آدم . وانتقل هذا الطراز الشعرى من طولوز إلى باريس ومن باريس إلى لندن مع إليانور الأكتانية ، واستحوذ على قلب ابنها الباسل رتشرد الأول ، وأوجد المتصببين بالشعر من الألمان ، وصاغ النغمات العذبة الهادئة التى مهدت السبيل إلى دانتى .

ويتلألأ فى بداية هذا الطراز من الشعر وليم التاسع كونت پواتو ، ودوق أكتين ، وجد إليانور نفسها . وألفى هذا الخليع المستهتر نفسه فى الحادية عشرة من عمره (١٠٨٧) حاكما لفرنسا الجنوبية يكاد يكون مستقلا بحكمها ؛ واشترك فى الحرب الصليبية الأولى وتغنى بنصرها ؛ ولكنه كان مثل كثيرين غيره من النبلاء فى أرضه التى طغى عليها الإلحاد ، فكان قليل الإجلال للكنيسة يسخر من قساوستها . وقد وُصف فى ترجمة پروڤنسالية له بأنه « من أكثر خلق الله أدباً وظرفاً ، ومن أكثرهم غواية للنساء ، وأنه فارس مغوار ، كثير التورط فى مغامرات الحب ، يجيد الغناء وقرض الشعر ، وقد ظل وقتاً طويلا يجول فى البلدان ويغوى النساء »(٢٣) ؛ وقد اختطف وهو متزوج كونتة شاتل رول Châtellerault الحسناء ، وعاش معها علناً دون حياء ؛ ولما أمره أنجوليم Angoulême الأصلع

(*) Troubadour انظر اشتقاق هذا اللفظ فيما بعد . (المترجم)

الجرىء أن يقلع عن غيه أجابه بقوله : « سأنبذ الكونتة فى الساعة التى يحتاج فيها شَعرك إلى مشط » . والتقى يوماً ما بأسقف بواتيه بعد أن حكم بطرده من الكنيسة وقال له : « اغفر لى وإلا قتلتك » فرد عليه الأسقف وهو يمد له عنقه : « اضرب » ، وأجابه وليم : « لست أحبك بالقدر الذى يكفى لأن أبعث بك إلى الجنة »[٢٤] . ووضع الدوق طرازاً من الشعر الغزلى يكتب إلى النبيلات ، وكان يفعل ما يقول ، وكانت حياته قصيرة مليئة بالمرح ، فقد مات فى السادسة والخمسين من عمره (١١٣٧) ، وأورث إليانور ضياعه الواسعة وذوقه الشعرى والغرامى .

وجمعت إليانور الشعراء حولها فى طواوز ، وسرهم أن يتغنوا لها ولحاشيتها بجمال النساء وما تبعثه مفاتنهن من نشوة . وشرع برنار ده ڤنتادور Bernard de Ventadour ، وكان شعره فى نظر پترارك لا ينقص إلا قليلا عن شعره هو نفسه ، يتغنى بجمال ڤيكونتة ڤنتادور ؛ وحملت الڤيكونتة مديحه محمل الجد فاضطر زوجها أن يحبسها فى برج قصره . وشجع هذا برنار فراح يتغنى بجمال إليانور نفسها وتبعها إلى رون Rouen ؛ ولما أن فضلت حب ملكين أفرغ ما فى قلبه من هيام فى لحن حزين ذائع الصيت . وبعد جيل من ذلك الوقت أصبح الشاعر الغزلى برتران ده بورن Bertrand de Born صديق رتشرد الأول الحميم ، ومنافسه المتفوق عليه فى حب السيدة مينز المرتنياكية Dame Maens of Martignac ؛ وصحب شاعر غزلى آخر يدعى پير ڤيدال Peire Vidal (١١٦٧ ؟ — ١٢١٥) رتشرد الأول فى الحرب الصليبية ، ورجع سالماً ، وعاش بعد مجيئه فقيراً يقرض الشعر حتى ظفر آخر الأمر بضيعة وهبها له ريمند السادس كونت طولوز[٢٥] . ولدينا أسماء ٤٤٦ شاعراً آخر من الشعراء الغزلين ، ولكن حسبنا هؤلاء الأربعة دليلا على ما كانت عليه هذه الطائفة المغنية من انحلال .

كان بعض أفرادها موسيقيين أفاقين ، وكانت كثرتهم من صغار النبلاء المولعين بالغناء ، وكان أربعة منهم ملوكا — رتشرد الأول ، وفردريك الثانى ،

وألفنسو الثانى ، وبدرو الثالث ملك أرغونة . وظل هؤلاء الشعراء قرناً من الزمان (١١٥٠ — ١٢٥٠) يسيطرون على أدب فرنسا الجنوبية ، ويشكلون عادات الطبقات الأرستقراطية التى كانت تنتقل فى ذلك الوقت من الوحشية الريفية إلى الفروسية التى كادت تكفّر بالمجاملات عن آثام الحرب ، وبالظرف والأدب عن الفجور والفسق . وكانت لغة شعراء الفروسية الغزلين هى لانج دك Lsngne Dioc أو لغة الرومان Roman التى كانوا يتكلمون بها فى جنوبى فرنسا وشمالى أسبانيا الشرقى . أما اشتقاق اسمهم فهو موضع الخلاف الشديد ، والراجح أن كلمة تروبدور Troubodour مشتقة من الكلمة الرومانية تروبار Trobar ومعناها يجد أو يخترع ، كما أن من الواضح أن الكلمة الإيطالية Trovatore (تروفتورى) مشتقة من تروفارى Torvare ، ولكن من الناس من يقول إنها مشتقة من كلمة الطرب العربية ومعناها الغناء[٢٦] . وكانوا يسمون فنهم « الحكمة المرحة » gai saber أو gaya ciencia ولكنهم كانوا يرونه من الأعمال الجدية التى تتطلب وقتاً طويلا من المران على الشعر ، والموسيقى ، وآداب الحديث التى تليق بالفرسان أولى النبل والشهامة . وكانو يتزيون بزى الأشراف ، ويتشحون برداء طرزت حواشيه بالذهب والفراء الثمينة ، وكثيراً ما كانوا يركبون وهم مدرعون بدروع الفرسان ، ويتسابقون فى ألعاب البرجاس ، ويقاتلون بالرماح والأقلام فى سبيل السيدات اللاتى يقدمون لهن شعرهم وإن لم يقدموا لهن حياتهم ؛ ولم يكونوا يكتبون لغير طبقة الأشراف ، وكانوا عادة يلحّنون بأنفسهم شعرهم الغنائى ويستأجرون المغنين ليغنوه فى المآدب وألعاب البرجاس ، ولكنهم كثيراً ما كانوا هم أنفسهم يعزفون على القيثار وينفسون بأغنية عن عاطفة مكبوتة .

وأكبر الظن أن العواطف التى كانوا يعبرون عنها لم تكن إلا صورة أدبية ، وأن تحرقهم لم يكن أكثر من رغبة ، وأن مسكنهم مع حبيباتهم فى السماء تعبير عن إشباع رغبتهم ، وأن يأس التروبدور المحزن إن هو إلا رخصة شعرية وأداة للتعبير .

ويبدو أن الأزواج الذين كانوا يسمعون هؤلاء الشعراء يتشببون بنسائهم لم يكونوا يرون فى هيامهم أكثر من هذا ، وأنهم لم يكونوا أكثر حرصاً على أزواجهم من معظم الذكور وإذ كان الزواج بين الأشراف لا يعدو أن يكون حادثاً من حوادث تداول الثروة ، فقد كان الحب إذا وجد يعقب الثروة لا يسبقها كما يحدث فى القصص الفرنسى : وأما ما وجد من الحب فى أدب العصور فكان كله من فرنسسكا Francesca وبيتريس Beatrice فى الجنوب إلى إيسلد Isolde وجنيفير Guinevere فى الشمال ، حباً حراماً إذا استثنينا منه بعض الأمثلة القليلة : وكان عجز المحب عن الوصول إلى السيدة المتزوجة هو الذى أوجد طائفة التروبدور ؛ ذلك أن من الصعب خلق رواية غرامية تدور حول الرغبة المشبعة ، وحيث لا توجد العقبات لا يوجد الشعر . ولسنا نسمع إلا عن أفراد قلائل من شعراء الفروسية الغزلين حظوا آخر الأمر بعطف السيدات اللائى اختاروهن موضوعاً لأغانيهم ، ولكن هذا لم يكن إلا خزقاً للمألوف من القواعد فى الشعر ، فقد جرت العادة أن يطفئ الشاعر حرقته بقبلة من الحبيبة أو بلمس يدها : وكان هذا التمنع من أسباب الرقة والظرف ؛ ومن أجل هذا انتقل شعر التروبدور — ولعله تأثر فى هذا الانتقال بعبادة مريم — من الشهوانية إلى ما يقرب من الرقة الروحية .

لكنهم قلما كانوا رجالا أتقياء صالحين ، وكان عدم تعففهم من أسباب التنافر بينهم وبين الكنيسة . وقد ألف بعضهم القصائد فى هجو كبار رجال الدين ، وفى السخرية من الجحيم[٢٧] ، والدفاع عن الملاحدة الألبجنسيين ، والإشادة بالحملة الصليبية التى انتصر فيها فردريك العاصى حيث أخفق لويس الصالح . ولم يرض جولم أديمار Guillem Adémar إلا عن حملة صليبية واحدة ، وكان سبب رضائه عنها أنها أبعدت من طريقه زوج سيدة يتشبب بها . وكان

ريمون چوردن Ra mon Jorden يفضل ليلة يقضيها مع محبوبته عن أية جنة سماوية يعدونه بها[٢٨] .

وكانت الصور الإنشائية فى نظر شعراء الفروسية الغزلين أجل شأناً من الوصايا الأخلاقية . وكان لكل ضرب من قصائدهم اسم يتسمى به فالكانزو Canzo أغنية الغرام ، و البلانتى plante مرثية لصديق أو حبيب مات ، و التنسون Tenson حوار مقفى عن الحب ، والأخلاق ، والفروسية ، والسرفنتى sirvente أغنية الحرب ، والنزاع والهجوم السياسى ، والستينة sixtene قصيدة تتألف من ست مقطوعات معقدة القافية ، فى كل واحدة منها ستة أبيات ، اخترعها أرنو دانيل Arnaud Daniel وأعجب بها دانتى ، و الرعوية pastourelle حوار بين شاعر فروسية غزلى وراعية ، والفجرية aubade أو alba أغنية الفجر ، وهى فى العادة تنذر العاشقين بأن النهار سوف يفضح أمرهم ، والسيرينا أو السرنيد serena أو serenade أغنية المساء ، و البلادا balada قصة شعرية . وها هى ذى فجرية لشاعر غير معروف تنطق ببعض أبياتها فتاة من فتيات القرن الثانى عشر تذكرنا بچوليت Juliet :

فى حديقة ينشر فيها الشوك الأبيض أوراقه ،
كانت سيدتى يضطجع حبيبها بجوارها
حتى نادى الرقيب بطلوع الفجر — ويلاه الفجر الذى يحزن المحبين !
رباه ؟ يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

أتوسل إليك يا رب ألا ينقضى الليل ، الليل الحبيب ،
وألا يبتعد عنى حبيبى ،

وألا ينادى الرقيب « الفجر » — الفجر الذى يقضى على السلام !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

« صديقتى الجميلة الحلوة ، أنيلينى شفتيك — شفتينا مرة أخرى !
ها هى ذى الطيور فى المراعى تشدو
فليكن نصيبنا الحب ، ونصيب الحسود الألم !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً !

* * *

من تلك الريح الحلوة التى تقبل من بعيد
شربت حتى ارتويت من أنفاس الحبيب ،
نعم ، من أنفاس حبيبى المرح العزيز !
رباه ! يا رباه ، ما بال الفجر يقبل مسرعاً

* * *

ألا ما أجمل فتاتى وما أظرفها ،
وما أكثر من يرقبون الطريق الذى يتجلى فيه جمالها
ولا يطوف بقلبها طائف القدر !
رباه ! يا رباه ! ما بال الفجر يقبل مسرعاً ![٢٩] .

وقضى على حركة شعراء الفروسية الغزلين فى فرنسا منتصف القرن الثالث عشر ، وكان من أسباب القضاء عليها ما فى صياغتها وعواطفها من تكلف وتصنع أخذا يتزايدان على مر الأيام ، وما حل بجنوبى فرنسا من دمار بسبب الحروب الدينية الألبجلسية ، فقد تهدمت فى الوقت العصيب كثير من القصور التى كان يأوى إليها شعراء الفروسية الغزلون ؛ ولما أن قاست طولوز نفسها حصاراً مزدوجاً انهار نظام الفروسية هذا فى أكتتن . وفر بعض المغنين إلى أسبانيا وبعضهم إلى

إيطاليا ، وفيهما بعث فن أغانى الحب بعثاً جديداً فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ولم يكن پترارك ودانتى إلا وريثين للتروبدور . وكان ما خلفوه من تقاليد الشهامة والمرح عوناً على صياغة دستور الفروسية ، وتحويل سكان جنوبى أوربا الهمج إلى رجال مهذبين ؛ ولقد ظلت الآداب من ذلك الحين تحس بأثر أغانيهم الرقيقة ، ولعل الحب تفوح منه فى هذه الأيام رائحة ذكية مستمدة من عطر مديحهم .

الفصل السادس

المتصببون بالشعر من الألمان

انتشرت حركة شعراء الفروسية الغزلين من فرنسا إلى جنوبى ألمانيا حيث ازدهرت فى عصر أباطرة هوهنستارفن الذهبى وكان الشعراء الألمان يسمون المنيسانجر Mennisänger أى المتصببين بالشعر ، ووجد شعرهم فى الوقت الذى وجدت فيه فى دستور الفروسية المعاصر خدمة المحبوب Minnedienst وخدمة السيدات Fraundienst . ونحن نعرف أسماء ثلثمائة من هؤلاء المتصببين ، ولدينا ثروة موفورة من شعرهم ؛ وكان بعضهم من طبقة الأشراف الدنيا ، وبعضهم من الفقراء ، يرعاهم الأباطرة أو الأدواق . وكان كثيرون منهم أميين وإن التزموا قواعد صارمة فى الوزن والقافية ، وكانوا يملون ألفاظ أغانيهم وموسيقاها ؛ ولا يزال الشعر يسمى فى ألمانيا إلى يومنا هذا دختونج Dichfung أى الإملاء . وكانوا عادة يتركون المغنين العازفين يغنون أشعارهم ، وكانوا أحياناً ينشدونها بأنفسهم . ويروى لنا الرواة مباراة غنائية Sängerkrieg عظيمة عقدت فى قصر وارتبيرج Wartburg عام ١٢٠٧ ، ويقال إن تان هوزر Tannhäuser وولفرام ڤن إشنباخ Wolfram von Eschenbach اشتركا فيها(٣٠)(*). وظل المتصببون قرناً من الزمان يعملون على رفع منزلة المرأة فى ألمانيا ، وأضحت نساء طبقة الأشراف الباعثة والملهمة لثقافة أرق من أية ثقافة عرفتها تلك البلاد فيما بعد حتى عصر شلر Schiller وجيته .

(*) لقد خلطت القصص بين تان هوزر ، وهو من المتصببين المتأخرين ، وبين الفارس تان هوزر الذى فر من ڤينسبرج Venusberg إلى رومة ووجد له مكاناً صغيراً فى إحد المسرحيات الغنائية .

ويُضَمّ ولفرام وولتّر ڤن در ڤوجلويد Walther von der Vogelweide إلى طائفة المتصببين لأنهما كتبا أغانى فى الحب ، ولكن الأفضل أن يسلك ولفرام وقصائده المعروفة باسم بارزفال Parzival فى سلك كتاب الروايات الغرامية . وكان مولد ولتر « ابن مرج الطيور » فى مكان ما فى التيرول Tirol قبل عام ١١٧٠ . وكان من طبقة الفرسان ولكنه من فقرائهم ، وزاد أحواله سوءاً على سوء بأن اتخذ الشعر صناعة له . ونسمع عنه وهو فى سن العشرين يكسب قوته بالغناء فى بيوت الأشراف من أهل ڤينا . وكان وهو فى سن الشباب هذه يكتب فى الحب كتابة شهوانية طليقة أغضبت منه منافسيه ، ولا يزال الألمان حتى الآن يعتزون بقصيدته *تحت شجرة التيليا* Unter den Linden :

تحت شجرة التيليا وعلى الخلنج
كان لنا نحن الاثنين فراش ،
وهنا كنت تبصرنا وقد التفت حولنا
الأزهار المتقطعة والكلأ الهشيم ؛
ومن أجمة فى الوادى — تندرادى —
يشدو البلبل بألحانه العذبة .

* * *

وأسرعتُ إليه من خلال الفضاء بين الأشجار ،
ووصل حبيبى إلى المكان قبلى ،
وهناك وقعت فى شرك الحبيب — وكنت أسعد الفتيات ،
وحظيت بسعادة ليس فوقها سعادة .
وهناك قبلنى مراراً — تندرادى .

انظروا إلى شفتى ما أشد حمرتها !

* * *

وهنا أسرع وهو مغتبط
فأقام لنا عريشاً من الأزهار ،
ولا يزال هذا دعابة زائلة ،
لأن الذين يمرون بهذا الطريق ويرون المكان الذى
وضعت فيها رأسى بين الورود — تندرادى !

* * *

ولو أن إنساناً (لا قدر الله !) كان بالقرب منا
لجللنى العار ، فقد رقدنا هناك سوياً :
ولكن هذا لم يعرفه أحد غيرى أنا والحبيب
والعندليب الصغير — تندرادى ! —
وأنا أعرف أنه لن ينم علينا[٣٢]

ونضج تفكيره لما كبر ، وبدأ يرى فى المرأة مفاتن ومحاسن أجمل من بشرتها البضة ، وبدت له فوائد الاتحاد بالزواج أعظم قيمة من التقلب بين النساء : « ما أسعد الرجل وما أسعد المرأة ، اللذين يرتبط قلباهما بالإخلاص المتبادل ، واللذين تزداد حياتهما قيمة على مر الزمن ، وبارك الله فى بيتهما وجميع أيامهما »[٣٣] . وأخذ يندد بتملق زملائه الشعراء نساء البلاط ، وقال إن لقب « المرأة » أعظم قيمة لديه من لقب « السيدة » ، وإن النساء الصالحات والرجال الصالحين هم الأشراف بحق ، وإن « النساء الألمانيات يضارعن الملائكة فى الجمال ، وإن من يذمهن كذاب أشر »[٣٤] .

ومات الإمبراطور هنرى السادس فى عام ١١٩٧ وعمت الفوضى بلاد ألمانيا مدى جيل كامل ولم تنقطع إلا بعد أن بلغ فردريك الثانى سن الرشد . ولم يعد

الأشراف يناصرون الأدباء ويبسطون عليهم رعايتهم ، فأخذ ولتر يتنقل من بلاط إلى بلاط يغنى غناء البائس الشقى طلباً للقوت ، ينافسه فيه المشعوذون والمهرجون الأذلاء . وحسبنا دليلا على ما كان يعانيه فى ذلك الوقت هذه العبارة المنقولة من حساب نفقات ولفجر Wolfger أسقف باسو Passau « خمسة صلدات صرفت فى ١٢ نوفمبر عام ١٢٠٣ إلى ولتر ڤن درڤوچلويد ليشترى بها سترة من الفراء يتقى بها برد الشتاء »[٣٥] . وكانت هذه حسنة مضاعفة لأن ولتر جبليني متحمس ، هجا فى شعره البابوات ، وندد بعيوب الكنيسة ، وثار على نقل الأموال الألمانية فوق جبال الألب لتملأ بها خزائن كنيسة القديس بطرس[٣٦] . غير أنه كان على الرغم من هذا مسيحياً صادقاً ، ألف نشيداً عظيما سماه « نشيد الصليبيين » ، ولكنه كان يستطيع فى بعض الأوقات أن يسمو فوق المعارك الحربية ويرى أن الناس كلهم إخوة :

الناس كلهم من أم واحدة
ونحن جميعاً أكفاء من الخارج والداخل ؛
وأفواهنا تطعم كلها بطعام واحد ،
وإذا ما سقطت عظامهم وأصبحت كومة مختلطة
فهل تعرفون يا من تميزون الأحياء بنظرة إليهم
أيهم الدنىء الآن وأيهم الشريف
بعد أن أكل الدود لحومهم وتعرت عظامهم ؟
إن المسيحيين واليهود والكفار كلهم يتعبدون
والله يبسط رعايته على جميع الخلق[٣٧] .

وظل ولتر ربع قرن فى تجواله وفقره ، ثم وهبه فردريك الثانى ضيعة ودخلا ثابتاً (١٢٢١) ، فاستطاع أن يقضى السبع السنين الباقية من حياته

هادئاً مطمئناً . وقد أحزنه أن شيخوخته ومرضه لا يمكنانه من الاشتراك فى الحرب الصليبية ، وطلب إلى الله أن يغفر له عجزه عن أن يحب أعداءه[٣٨] . وقد أوصى فى قصيدة له بمن يرث مخلفاته « فللحساد سوء حظى ، وللكاذبين أحزانى وللمحبين الغادرين حماقاتى ، وللسيدات آلام قلبى »[٣٩] . ودفن فى كتدرائية ورزبرج Würzburg وأقيم بالقرب منها نصب تذكازى يعلن حب ألمانيا لأعظم شعراء عصره .

وقضى على حركة الشعراء المتصببين بعد موته ما تورطت فيه من إسراف ومغالاة ؛ وحل بها ما حل بألمانيا من دمار بعد سقوط فردريك الثانى . ويصف لنا الريخ فن لختنشتاين Ulrich von Lichtenstein (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٦) فى سيرته الذاتية الشعرية (Frauendienst) كيف نشأ وسط عواطف « خدمة السيدات » . فاختار سيدة لتكون له معبودة ، وخيطت شفته الشرماء ليقلل نفورها منه ، وحارب من أجلها فى ألعاب البرجاس . ولما قيل له إنها عجبت حين عرفت أنه لاتزال له إصبع كانت تظن أنه فقدها فى الدفاع عن شرفها ، قطع هذا العضو الآثم وبعث به إليها دليلا على الولاء والخضوع . وكاد يغمى عليه من شدة الفرح حين أسعده الحظ بشرب الماء الذى غسلت فيه يديها[٤٠] . ولما تلقى منها رسالة ظل يحملها فى جيبه عدة أسابيع حتى وجد شخصاً يستطيع أن يثق بأنه سيقرؤها له سراً ، لأن ألريخ كان يجهل القراءة[٤١] . ولما وعدته بأنها ستعطف عليه انتظر وفاءها بوعدها يومين كاملين فى ثياب المتسولين بين المجذومين الواقفين ببابها ؛ ثم أذنت له بالدخول ، ولما تبينت إلحاحه أمرت به فأنزل من نافذة مخدعها فى ملاءة سرير . وكان له فى ذلك الوقت زوجة وأبناء .

واختتمت حركة الشعراء المتصببين اختتاماً فيه بعض الكرامة بموت هنريخ فن مايسن Henrich von Meissen الذى أحرز بأغانيه فى تكريم

النساء لقب « مداح النساء » . ولما مات فى ميتز عام ١٣١٧ حملت نساء المدينة نعشه وأخذن يندبنه حتى وورى التراب فى كتدرائية المدينة ، وسكبن فوق تابوته خمراً بلغ من كثرتها أن جرت فى طول الكنيسة كلها[٤٢] . وخرج فن الغناء بعد موته من أيدى الفرسان إلى أيدى الطبقة الوسطى ؛ وزالت نزعة عباد السيدات الغرامية ، وحل محلها فى القرن الرابع عشر مرح جماعة المغنين فى المدن وفنهم العارمان يرفعان إلى ربات الشعر قيام طبقة الملاك الوسطى .

الفصل السابع

الروايات الغرامية

أما فى الروايات الغرامية فقد كانت الطبقة الوسطى هى المسيطرة على الميدان ؛ ذلك أن شعراء شمالى فرنسا أبناء الطبقة الدنيا — المعروفين عند الفرنسيين باسم التروفير Trouvères أى المخترعين — كانوا يحيون ليالى الطبقات الوسطى والعليا بقصص شعرية تتحدث عن الحب والحرب ، كما كان شعراء الفروسية الغزلون — التروبدور والتروڤتورى يكتبون الأغانى الشعرية الرقيقة لنساء جنوبى فرنسا وإيطاليا .

وكانت كتابات المخترعين تتخذ صور القصص الشعرية ، ballade والأغانى الشعرية lai ، والتحدث بأعمال الأبطال Chanson de geste ، والقصص الغرامية . وقد وصلت إلينا نماذج جميلة من الأغانى الشعرية من قول كاتبة تدعى إنجلترا وفرنسا كلتاهما أنها أول شاعراتها العظيمات . فقد انتقلت Marie de Franca (مارية الفرنسية) من بريطانى لتعيش فى إنجلترا فى أيام هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) . وأشار عليها أن تصوغ عدداً من أقاصيص البريطانيين شعراً ، ففعلت وخلعت عليها من طلاوة اللفظ وقوة العاطفة ما لم يفقها فيهما أى شاعر من شعراء الفروسية الغزلين . وخليق بإحدى قصائدها العاطفية أن تحتل مكاناً فى صفحات هذا الكتاب ، هى جديرة به ، لموضوعها غير العادى — حديث المحبوبة الحية إلى حبيبها الميت :

هل أحبَّكَ هناك إنسان طوال الصيفِ والشتاء ؟

وهل وجدتَ هناك جمالا وضع فى القبر معك !

وهل قبلة الميت الطويلة أحلى مما كانت قبلتى لك ؟

أو هل انتقلت إلى سعادة بعيدة ونسيتنى كل النسيان ؟
أى نوم رقيق همت به فلفك لفاً رقيقاً ؟
وأى موت ساحر أغواك بقوته العجيبة فاستحوذ عليك بالليل والنهار ؟
إنك ترقد فى بقعة صغيرة تحت الكلأ بعيدة عن الشمس والظلال
ولكنها لشدة حزنى بعيدة عنى بعد السماء ...
ستظل ترقد فى ذلك المكان كما ترقد الآن
وإن كان فى العالم العلوى شخص آخر يحيا حياتك مرة أخرى
ويحب حبيبتك كما كنت تحبها .
أليس مقامك حلواً تحت النخيل ؟
أليس اليوم الدفىء الهادئ الطويل الجميل الذى لا يعرف كنهه
خيراً من الحب ومن الحياة ؟
ألا ما أشبه أوراق الشجر العطرة العريضة العجيبة
بالأيدى تنسج برد الليل إلى نهايته ،
تنسج النوم الذى لا يستطيع الطير البراق مقاومته ،
أما أنت فالموت ينسج لك النوم
ويسلبك فى الصباح وفى الظهيرة
كثيراً من الأنفاس العجيبة القوية .
ويقينى أنك وأنت فى هذا المكان
قد وجدت الموت إغماء لذيذاً .
لا تستمسك من هذه الساعة بكلمة قلتها أو غنيتها
فما من شك فى أنك قد سمعت من زمن بعيد أغانى كثيرة أعذب منها ،
لأن التربة الخصيبة قد وصلت بلا ريب إلى قلبك ، وحولت إيمانك أزهاراً ،
واختلست الريح الدفئة شيئاً فشيئاً روحك أثناء للساعات الغادرة .
ووجدت كثير من البذور الطرية تربة من التفكير المثمر

أنبتت زهرة تستقبل الشمس ، ولولاها لما استقبلتها ،
ولا ريب فى أنك قد استمعت إلى كثير
من العواطف القوية الجائشة
التى جعلت ذلك الموضع أجمل مما كان
وجعلت جزءاً من عواطفك لا يحنو علىَّ هناك[٤٣] .

وربما نشأت **أغانى الأفعال** من قصص الحوادث أو الأغانى . فكان الشاعر ينسج حول حادث تاريخى ، يأخذه عادة من المؤرخين الإخباريين ، قصة من المغامرات الخيالية يرويها فى أبيات ذات عشرة مقاطع أو اثنى عشر مقطعاً ، وتبلغ من الطول ما لا تتسع له إلا ليالى الشتاء فى الشمال . ولقد كانت أغنية رولان مثلا متقدماً لهذه الأغانى . وكان البطل المحبب لأغانى الأفعال الفرنسية هو شارلمان ؛ وقد أفاد الشعراء الغزلون الفرنسيون من عظمته التاريخية فرفعوه فى شعرهم إلى درجة من العظمة لا يكاد يسمو إليها آدمى ، فبدلوا هزيمته فى أسپانيا فتحاً مبيناً ، وسيروه فى حملات مظفرة إلى القسطنطينية ؛ وبيت المقدس ، ومن حول لحيته البيضاء الخرافية هالة من العظمة والجلال . وكانت الأغانى الفرنسية مرآة ينعكس عليها عصر الإقطاع فى موضوعاته ، وأخلاق أهله ، وأمزجتهم . وكما كان بيولف والنيبلنجليد يرددان أصداء « عصر الأبطال » فى زمن الهجرات ، كانت هذه الأغانى الفرنسية — أيا كان موضوعها ، أو مكانها أو زمانها — تتحرك فى جو إقطاعى إلى أهداف إقطاعية فى أثواب إقطاعية . وكان موضوعها الذى لا تنفك تردده هو الحرب ، بين سادة الإقطاع ، أو بين الدول ، أو الأديان ، ولم تكن المرأة والحب يجدان بين قعقعة السيوف إلا أصغر مكان .

ولما صلحت أحوال النظام الاجتماعى ، وارتفعت منزلة المرأة على أثر ازدياد الثروة ، تخلت الحرب عن مكانها فى هذه الأغانى للحب ، فأضحى هو موضوع الشعراء الرئيسى ، فلما كان القرن الثانى عشر حلت القصص الغرامية محل أغانى الأفعال ، وجلست على عرش الأدب ، وظلت تجلس عليه قروناً عدة . وكان اللفظ الفرنسى roman المقابل للرواية الغرامية يعنى فى أول الأمر أى مؤلَّف مكتوب باللغة الفرنسية التى كانت تسمى هى الأخرى رومان Roman دليلا على أنها من تراث الرومان الأقدمين . ولم تكن القصص الغرامية Romances تسمى فى اللغة الفرنسية بهذا الاسم لأنها قصص وجدانية ، بل كان الأمر عكس هذا أى أن بعض العواطف أضحت توصف بأنها رومانسية romantic (وجدانية) لأنها كثيراً ما كتبت بهذه اللغةالرومانية roman الفرنسية . فكانت **رواية الوردة** Roman de la rose أو **طروادة** le Troie أو **الثعلب** de Renard لاتعنى أكثر من قصة عن وردة ، أو عن طروادة ، أو عن ثعلب باللغة الرومانية أى الفرنسية الأولى ؛ وإذ كانت كل صورة أدبية يجب ألا تولد فى عرف الأدباء إلا من أبوين شرعيين ، فإن لنا أن نعزو أصل الروايات الغرامية إلى **أغانى الأفعال** ممتزجة مع ما كان فى قصائد شعراء الفروسية الغزلين من عواطف الغرام . ولعل بعض مادة هذه القصص قد أخذ من الروايات اليونانية مثل **إثيوبيا** Ethiopica لهليودورس Heliodorus . وكان لكتاب واحد يونانى ترجم إلى اللغةاللاتينية فى القرن الرابع أثر عميق فى هذه الناحية ،ونعنى به سيرة الإسكندر الخيالية التى تعزى زورا إلى كلسثنيز Callisthenes مؤرخه الرسمى . ذلك أن القصص التى تروى عن الإسكندر أضحت المعين المحبب الذى لا ينضب للفيض المتتابع من «سلاسل» الروايات التى انتشرت خلال العصور الوسطى فى أوربا وفى بلاد الشرق الناطقة باللغة اليونانية . وكانت أجمل صورة لهذه القصة فى بلاد الغرب **رواية الإسكندر**

Roman d' Alixandre من تأليف الشاعرين الغزليين لامبيرلى تور Lambert li Tors وإسكندر البرنانى Alexander of Bernay حوالى عام ١٢٠٠ . وتقع هذه الرواية فى عشرين ألفاً من الأبيات الأثنى عشرية المقاطع ، أى من البحر المعروف بالبحر « الإسكندرى » .

وأكثر من هذه تنوعاً وأرق منها عاطفة سلسلة الروايات الفرنسية ، والإنجليزية ، والألمانية التى أخذت موضوعاتها من حصار طروادة . وكان أكبر ملهم لهذه الروايات هو ڤرچيل لاهومر . وكانت القصة التى كتبها ديدو Dido رواية غرامية حقة وإن جاءت فى هذا الوقت البعيد . ألم يستوطن الطرواديون الفارون من هزيمة هم غير خليقين بها فرنسا ، وإنجلترا ، كما استوطنوا إيطاليا ؟ ثم قام حوالى عام ١١٨٤ شاعر فرنسى غزلى يسمى بنوا ده سانت مور Benoît de Ste-Maure بإعادة قصة طروادة فى ثلاثين ألف بيت من الشعر ، ترجمت إلى أكثر من عشر لغات ، ودخلت فى آداب أكثر من عشر أمم . وفى ألمانيا كتب ولفرام ڤن إسشنباخ Wolfram von Eschenbach قصة حصار طروادة التى لا تقل فى حجمها عن الإلياذة نفسها ، وفى إيطاليا أخذ بوكاشيو Boccaccio من بنوا Benoît قصة فيلوستراتو Filostrato ؛ وفى إنجلترا كتب ليامون Layamon قصة بروت Brut (حوالى عام ١٢٠٥) فى ٣٢٫٠٠٠ بيت وُصف بها تأسيس لندن على يد بروتس ابن حفيد إينياس Aeneas ؛ ومن بنوا جاءت قصة ترويلس وكرسدى Troilus and Criseyde لتشوسر ومسرحية شيكسپير .

وكانت السلسلة الثالثة العظيمة من روايات العصور الوسطى الغرامية هى روايات آرثر Arthur . ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن آرثر هذا نبيل مسيحى إنجليزى ، حارب الغزاة السكسون فى القرن السادس . ولسنا ندرى من هو الذى خلق منه هو وفرسانه تلك القصص البديعة المطربة التى لم يتذوق جمالها

إلا محبو مالورى Malory وحدهم ؟ ومنذا الذى ابتدع جاوين Gawaine وجـــلاهاد Galahad وپرسڤال Perceval ، ومرلين Merlin وچنڤير Guenevere . ولانسلت Lancelot ، وترسترام Tristram ، وفروسية المائدة المستديرة Round Table ذات الصبغة الدينية المسيحية ، وقصة الكأس المقدسة Holy Grail(*) ؟ لم يصل الأدباء إلى جواب مؤكد عن هذه الأسئلة بعد نقاش دام مائة عام كاملة ، ذلك أن البحث يقضى على الحقيقة المؤكدة(**) . ونجد أقدم إشارة لآرثر فى كتب المؤرخين الإخباريين الإنجليز ، وتظهر بعض عناصر قصته فى أخبار ننيوس Nenius (٩٧٦) ، ووُسِّع نطاق هذه القصة فى التاريخ البريطانى Historia Britonum لجوفرى المنموثى Geoffrey of Monmouth ؛ وصاغ قصة جوفرى شعراً فرنسياً ربرت ويس Robert Wace وهو شاعرغزلى من چرسى Jersey فى رواية بروتس الإنجليزى Le Brut d'Angleterre (١١٥٥) ؛ وفيها نجد للمرة الأولى قصة المائدة المستديرة . والراجح أن أقدم أجزاء متقطعة لهذه القصة هى بعض قصص ويلز التى جمعت الآن فى مابنوجيون Mabinogion ؛ وأقدم مخطوطات عثرنا عليها للقصيدة بعد نمائها وتطورها مخطوطات فرنسية . والإجماع منعقد على أن مكان بلاط آرثر والكأس المقدسة فى ويلز والجنوب الغربى من بريطانيا . وأقدم رواية كاملة منثورة للقصة هى التى نجدها فى مخطوط إنجليزى يعزى إلى ولتر ماپ Walter Map أحـــد كبار شمامسة أكسفورد (١١٣٧ — ١١٩٦) وإن كان هذا مشكوكاً فى صحته . وأقدم صياغة شعرية لهذه السلسلة هى التى نجدها فى روايات Romans كريتيان ده تروى Chretien de Troyes (حوالى ١١٤٠ — ١١٩١) .

(*) الكأس التى استعملها المسيح فى العشاء الأخير . (المترجم)

(**) يريد فى أغلب الظن ما كان يظنه الناس حقيقة مؤكدة . (المترجم)

ولسنا نعرف عن حياة كريتيان إلا قدراً ضئيلا لا يكاد يزيد على ما نعرفه عن حياة آرثر . نعرف عنه أنه ألف فى بدء حياته الأدبية قصة مفقودة تدعى **ترستان** Tristan . ووصلت هذه القصة إلى يدى الكونتة مارى ده شمپانى Marie de Champagne ابنة إليانور الإكتانية ، ويلوح أنها قد بعثت فى قلبها الأمل بأن كريتيان هو الرجل الخليق بأن يصوغ « الحب الرقيق » ، وأنبل المثل العليا للفروسية فى صورة **الرواية الغرامية** . واستدعته مارى لأن يكون شاعرها الغزلى — إذا صح هذا التعبير — فى بلاطها بترويه Troyes . وكتب وهو فى رعايتها (١١٦٠ — ١١٧٢) أربع روايات غرامية فى شعر مقفى (الشعر الدوبيت العربى) كل بيتين منه ذوا قافية واحدة ، وفى كل بيت ثمانية مقاطع . وهذه الروايات هى **إرك وانيد** Eric et Enide **وكليجيه** Cligès ، **وأيفين** Yvaine **وفارس العربة** Le Chevalier de la Charette — ولم يجد هذا الشاعر عنواناً أرق من هـذا لقصة « الفارس الكامل » لانسلت Lancelot . وبدأ فى عام ١١٧٥ أثناء إقامته فى بلاد فليب كونت فلاندرز رواية كونت دل جرال Conte del Graal أو پرسڤال له جالوا Perceval le Gallois ، وكتب منها ٩٠٠٠ بيت وتركها ليتمها غيره فى ٦٠٫٠٠٠ بيت . ويظهر جو هذه فى القصص بداية **إرك** :

عقد الملك آرثر فى يوم عيد الفصح مجلساً للبلاط فى كاردجان Cardigan ، ولم يشهد الناس قبل ذلك الاجتماع حاشية أغنى من حاشيته ، فقد حضر الاجتماع كثيرون من صفوة الفرسان الأقوياء ، البواسل ، ذوى الجرأة والشجاعة ، كما اجتمع منها كثيرات من النساء والفتيات ذوات الثراء الواسع ، وبنات الملوك ذوات الرقة والجمال . وقبل أن ينفض الاجتماع فى ذلك اليوم أبلغ الملك فرسانه أنه يرغب فى أن يخرج فى اليوم الثانى لصيد الوعل الأبيض ؛ وكان ذلك استمساكاً منه بالعادة القديمة . فلما سمع لورد جاوين هذا غضب أشد الغضب وقال : « مولاى !

لن يعود عليك من هذا الصيد ثناء ولا رضاء . فنحن نعرف من زمن بعيد ما هى هذه العادة عادة الوعل الأبيض : نعرف أن من يقتل الوعل الأبيض يجب أن يقبل أجمل فتاة فى حاشيتك . . . ولكن هذا قد يؤدى إلى شر مستطير ، لأن فى هذا المكان خمسمائة فتاة من ذوات الحسب والنسب ، . . . وما من واحدة منهن إلا لها فارس جرىء مغوار ، على استعداد لأن يعلن بالحق أو بالباطل أن السيدة التى هو متيم بها أروعهن كلهن جمالا وأعظمهن رقة » . فأجابه الملك بقوله : « إنى أعلم هذا حق العلم ، ولكن علمى به لا يحول بينى وبين تنفيذ ما اعتزمته . . . وسنذهب غداً لنصيد الوعل الأبيض وسيكون ذلك اليوم يوم بهجة ومرح »(٤٤) .

وفى بداية الرواية أيضاً نجد المبالغات القصصية الممتعة . « لقد عمدت الطبيعة فى تكوين إنيد Enide إلى كل ما لديها من حذق ، ودهشت الطبيعة خمسمائة مرة من نجاحها فى إبداع هذا المخلوق الكامل » . ويقال فى قصة لانسلت إن « المحب الكامل مطبع على اللوام ، يسارع إلى تنفيذ رغبات حبيبته وهو مسرور . . . والألم (فى سبيلها) محبب إليه ، لأن الحب الذى يهديه ويقوده فى سبيله يخفف هذا الألم بل يمحوه »(٤٥) . غير أن الكونتة مارى كان لها فى الحب رأى فيه شىء من المرونة :

إذا وجد الفارس فتاة أو عذراء مهجورة ، وإذا كان يعنى بسمعته الطيبة ، فإن نفسه لا تطاوعه بأن يعاملها معاملة غير شريفة إلا بقدر ما تطاوعه لأن يقطع عنقه . وإذا ما هاجمها فإنه سيجلل بالعار فى كل بلاط ، أما إذا انتزعها منه وهى تحت حراسته بحد السلاح فارس آخر اشتبك معه فى معركة ، فإن من حق هذا الفارس الثانى أن يفعل بها ما يريد دون أن يجلله عار أو يستحق من أجله لوماً(٤٦) .

وشعر كريتيان ظريف ولكنه ضعيف ، وسرعان ما يمل الإنسان ثقله وكبرته فى عصر السرعة الحديث . لكنه يمتاز بأن فيه أكمل تعبير باق حتى اليوم عن المثل الأعلى للفروسية ، وذلك فى الصورة التى رسمها الكاتب لحاشية

تبدو فيها المجاملات ، والشرف ، والبسالة والإخلاص للحبيب أجل قدراً من الكنيسة أو العقيدة . ولقد أثبت كريتيان فى روايته الأخيرة أنه خليق باسمه(*) ، ورفع سلسلة الروايات التى تدور حول الملك آرثر إلى الذروة العليا بأن أضاف إليها قصة الكأس المقدسة(**) فقد جاء فى القصة أن يوسف الأريماثيائى Joseph of Arimathea تلقى بعض دم المسيح المصلوب فى وعاء شرب منه المسيح نفسه أثناء العشاء الأخير ؛ وجاء يوسف أو واحد من نسله بهذا الوعاء والدم الخالد إلى بريطانيا ، حيث احتفظ به ملك مريض سجين فى قصر خفى عجيب ، ولن يعثر على الكأس ويطلق سراح الملك بسؤاله عن سبب مرضه إلا فارس كملت طهارة حياته وقلبه . وتقول قصة كريتيان إن پرسفال الغالى أخذ يبحث عن الكأس ، أما الصيغة الإنجليزية للقصة فتقول إن الذى أخذ يبحث عنها جلاهاد الابن الطاهر للانسلوت الملوث . وتتفق القصتان فى أن الذى عثر عليها صعد بها إلى السماء . وفى ألمانيا بدل ولفرام ڤن اسشنباخ پرسڤال فجعله پارڤيزال Parvizal وأعطى القصة أشهر صورة كانت عليها فى العصور الوسطى .

وولفرام هذا فارس باڤارى (حوالى ١١٦٥ — حوالى ١٢٢٠) كان يكسب قوته بشعره ، ثم وجد له نصيراً فى هرمان Hermann أمير ثورنجيا Thuringia ، وأقام فى قصر وارتبرج Wartburg عشرين عاماً ، وكتب أشهر قصيدة فى القرن الثالث عشر . وما من شك فى أنه كان يملها إملاء لأن الرواة يؤكدون لنا أنه لم يتعلم قط القراءة . وهو يقول إنه لم يأخذ قصة پارزيڤال عن كريتيان بل أخذها عن شاعر پروڤنسالى يدعى كيو Kiot . ولسنا نعرف شاعراً يسمى بهذا الاسم ، كما أننا لا نعرف أحداً تعرض لهذه القصة بين زمنى كريتيان (١١٧٥)

(*) أى بأنه مسيحى صميم . (المترجم)

(**) Holy Grail ويقال إن لفظ Grail مأخوذ من لفظ Gratalis المشتق من اللفظ اللاتينى crater ومعناه الكأس .

وو افرام (١٢٠٥) . ويبدو أن أحد عشر « كتاباً » من « كتب » قصيدة ولفرام البالغ عددها ستة عشر تعتمد على قصة *كونت دل جرال* Conte del Graal لكريتيان ، ولم يكن المسيحيون الصالحون والفرسان الأنجاد من رجال العصور الوسطى يرون أن من واجبهم أن يعترفوا بما عليهم من ديون أدبية ، بل إن الكتاب كانوا يرون أن مادة الروايات الغرامية ملك مشاع ، من حق كل من يشاء أن يستعيرها إذا كان فى وسعه أن يرقى بها ، ولقد فاق ولفرام فى هذه الناحية أستاذه كريتيان .

وپارزيڤال فى قصة ولفرام ابن فارس من أنجو Anjou رزقه من الملكة هرزليد Herzeleide (الحزينة القلب) حفيدة تيتورل Titurel — أول حراس الكأس — وأخت أمفورتاس Amfortas الملك المريض فى ذلك الوقت . ويبلغها قبل أن تلد پارزيڤال بقليل أن زوجها خر صريعاً فى معركة بين الفرسان أمام الإسكندرية . وتعتزم ألا تعرض پارزيڤال للموت وهو صغير السن ، فتربيه فى عزلة فى الريف ؛ وتخفى عنه أصله الملكى ، وينشأ جاهلا بفنون القتال وحمل السلاح :

وحزن لذلك أهلها أشد الحزن ، لأنهم رأوه عملا مشئوماً ،
وقالوا إن هذه النشأة لا تليق قط بابن ملك عظيم ،
ولكن أمه أخفته فى أودية الغابات البرية ،
وحال حبها وحزنها بينها وبين التفكير فى مبلغ إساءتها للطفل الملكى .
فلم تعطه قط سلاحاً من أسلحة الفرسان إلا ما كان يصنعه لنفسه
فى أثناء لعبه من الأعشاب التى تنبت فى طريقه المنعزل .
فقد صنع لنفسه منها قوساً وسهاماً ، يقذف بها ،
وهو مرح غافل عن التفكير ،
الطيور وهى تشدو فوق رأسه على الأشجار المورقة .

فلما أن سقط طير الغاب المغرد ميتاً عند قدميه ،
مال برأسه ذى الشعر الذهبي فى دهشة وحيرة صامتة ،
واندفع فى غضب الطفولة وحيرتها الصامتة يقتلع غدائر شعره الذهبي ؛
(فأنا أعلم حق العلم أنه لم يكن على ظهر الأرض كلها من يضارعه فى جماله)
وطاف بعقله أن الموسيقى التى ظل طول حياته يعزفها بيده
قد ملأت بأنغامها العذبة قلبه نشوة ، فأحزنه هذا التفكير وأمضه[٤٧].

ويبلغ پارزيڤال طور الرجولة وهو قوى الجسم فارغ العقل ، حتى تقع عينه فى يوم من الأيام على فارسين فى الطريق ، فيعجب بدروعهما البراقة ، ويظنهما إلهين لافارسين ، ويعتزم أن يكون له مثل ما لهما من رونق وبهاء . ويعود إلى موطنه ليبحث عن الملك آرثر الذى يجعل الرجال فرساناً ، وتحزن أمه لذهابه حزناً يكاد يقتلها . ويلتقى پارزيڤال فى طريقه بدوقة نائمة فيختلس منها قبلة ، ويسلبها منطقتها ، وخاتمها ، ويرتكب بعمله هذا إثماً يدنسه سنين طوالا . ثم يلتقى بإيثر Ither ، الفارس الأحمر ، ويرسل معه هذا الفارس رسالة يدعو فيها الملك آرثر للقتال . ويدخل پارزيڤال على الملك ويستأذنه فى أن يجيب هو دعوة إيثر ، فيأذن له ويعود إلى إيثر ، ويقتله — لأن الحظ فى القصص يكون فى جانب المبتدئ — ، ويلبس دروعه ، ويركب طلباً للمغامرات : ويطلب إلى جرنمانز Gernemanz فى أثناء الليل أن يستضيفه ، ويعجب به البارون الشيخ ، فيعلمه أساليب القتال الإقطاعية ويسدى إليه نصيحة الفرسان :

اشفق على المحتاجين ، وكن رحيما ، كريماً ، متواضعاً . إن الرجل الكريم المحتاج يستحيى أن يسأل ، فتقدم إليه أنت بالعون قبل أن يسألك . . . ولكن كن حازماً لاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط . . . لاتكثر من السؤال ، ولاترفض الإجابة عن سؤال خليق أن تسأله . لاحظ واستمع . . . أعف عمن يستسلم لك مهما تكن إساءته إليك . . . تخلق بأخلاق الرجولة

وكن مرحاً . . . احترم النساء وأحبهن ، فذلك مما يزيد فى شرف الشاب — كن ثابتاً غير متقلب فإن الثبات من شيم الرجال . ألا ما أقل ما ينال من الثناء شخص يخون الحب الشريف(٤٨) .

ويخرج پارزيڤال مرة أخرى فى طلب المغامرات ، ويفك الحصار عن كندورامور Kondurramur ، ويتزوجها ، ويتحدى زوجها بعد عودته ، ويبارزه ، ويقتله ، ثم يترك زوجته ليبحث عن أمه . وتشاء الصدف أن يصل إلى قصر « الكأس المقدسة » فيستضيفه حراسه الفرسان ، وتقع عينه على الكأس (والكأس فى هذه القصة حجر ثمين) ، ويذكر نصيحة جورنماتز الطيب ، فلا يسأل عن الكأس المسحورة أو الملك المريض ، ولم يكن يعرف أنه عمه . ويصحو فى صباح اليوم الثانى فيجد القصر كله خاوياً على عروشه ؛ فيخرج على ظهر جواده ، وترفع أيد مجهولة الجسور الموصلة إلى القصر كأنها تنهاه عن العودة إليه . وينضم مرة أخرى إلى بلاط آرثر ، ولكن العرافة كندرى Kondury تتهمه فى أثناء هذا الترحيب بالجهل وقلة الأدب لأنه لم يسأل عن سبب علة أمفورتاس ، ويقسم پارزيڤال أن يعود مرة أخرى لطلب الكأس .

ولكن سورة من الغضب تظلم عليه حياته فى تلك الساعة . فهو يشعر أنه غير جدير بما وجهته إليه كندرى من تقريع ، ويدرك كثرة ما فى العالم من مظالم ، ويخرج عن طاعة الله ، ويظل أربع سنين لا يزور كنيسة ، ولا ينطق بصلاة(٤٩) . وتصيبه فى تلك السنين مائة من الكوارث ، ويظل يبحث عن الكأس ولكنه لا يجدها .. ثم يعثر فى يوم من الأيام على خلوة ناسك يدعى تريڤريزنت Treverezent ويتبين أنه عمه ، ويعرف منه قصة الكأس ، وأن علة أمفورتاس التى تفارقه سببها أنه ترك حراسة الكأس ليشغل نفسه بحب غير مشروع . ويعيد الناسك پارزيڤال إلى الدين المسيحى ، ويتحمل عنه عقاب ذنوبه . وهكذا يهون پارزيڤال على نفسه ، ويتطهر من خطاياه، وجهله وينجيه

عذابه من آثامه ، فيعود إلى البحث عن الكأس المقدسة . ويكشف الناسك إلى كندرى أن پارزيڤال ابن أخى أمفورتاس ووارث ملكه ، فتبحث عنه وتعلن إليه أنه اختير ليخلف أمفورتاس على العرش وليكون حارساً على الكأس . ثم تقوده إلى القصر الخفى ، ويسأل أمفورتاس عن سبب مرضه ، ويشفى الملك الشيخ لساعته . ويجد بارزيڤال زوجته كندوبرامور وتأتى إليه لتكون ملكته . ويرزقان بولد يدعى لوهنجرين Lohengrin .

وكأنما أراد جتفرايد السلزبرجى Gottfrind of Salisburg أن يمد ڤاجنر Wagner بموضوع آخر لمسرحياته الموسيقية ، فأخرج حوالى عام ١٢١٠ أعظم تراجم قصة ترستان نجاحاً . وهذه القصة تمجد الزنا وعدم الوفاء تمجيداً حماسياً ، وتندد بالدستور الأخلاقى الإقطاعى والمسيحى على السواء .

ولد ترستان ، كما ولد پارزيڤان ، لأم صغيرة السن تدعى بلانش فلير Blanche fleur (الزهرة البيضاء) ولما يمض إلا وقت قصير على نبأ يأتيها بأن زوجها الأمير قتل فى معركة . ولهذا تسمى الطفل ترستان — أى الحزين — وتموت بعد مولده . ويكفل الولدَ عمُّه مارك Mark ملك كورنول Cornwall ويجعله من الفرسان . ولما بلغ أشده واستوى نبغ فى ألعاب البرجاس وقتل موروُلد Morold خصيمه الأيرلندى ، ولكنه يجرح فى المعركة جرحاً مسموماً يقول له عنه موروُلد وهو يحتضر إنه لا يشفيه إلا إيزيولت Isenlt ملكة أيرلندة . فيتخفى فى زى تانتريس Tantris العازف على القيثارة ، ويزور أيرلندة وتشفيه ملكتها . ويعين مربياً لابنة الملكة واسمها أيضاً إيزيولت . ويعود بعدئذ إلى كورنوول ويحدث مارك عن جمال إيزيوات الصغيرة وحسن صفاتها وأدبها ، ويرسله مارك مرة ثانية ليخطب له هذه الفتاة . وتأبى إيزيوات أن تفارق وطنها ، وتتبين أن ترستان هو قاتل عمها موروُلد فيمتلئ قلبها حقداً عليه ؛ ولكن أمها تقنعها بالرحيل ، وتعطى وصيفتها برنجين Brangane شراباً مسحوراً يبعث الحب

تي القلوب لتسقيه إيزيولت ومارك لتستثير به حبهما . وتخطئ الوصيفة فتسقيه إيزيولت وترستان فلا يلبث الاثنان أن يحتضن كلاهما الآخر ، وتكثر الخيانات ويتفقان على أن يخفيا حبهما ؛ وتتزوج إيزيولت مارك ، وتنام مع ترستان ، وتدبر مكيدة لقتل برنجين لأنها تعرف أكثر مما ينبغي أن تعرفه . ومارك هو الرجل الشهم النبيل في هذه القصة (وليس الأمر كذلك في قصة مالوري) ؛ فهو يكشف الخديعة ، ويخبر إيزيولت وترستان أنهما أعز عليه من أن ينتقم منهما ، ويقنع في ذلك بنفي ابن أخيه من البلاد . ويلتقي ترستان في تجواله بإيزيولت ثالثة ويقع في حبها ، وإن كان قد أقسم أن يكون هو وملكة مارك « قلباً واحداً ، وروحاً واحدة ، وجسماً واحداً ، وحياة واحدة » . وهنا يترك جتفرايد القصة ناقصة حطمت فيها جميع المثل العليا للفروسية . أما بقية القصة فمن صنع مالوري وعصر متأخر .

وأخرجت ألمانيا في هذا الجيل العجيب ، الجيل الأول من القرن الثالث عشر شاعراً آخر يكون هو وولتر ، وولفرام ، وجنفرايد أربعة لا يدانيهم أربعة سواهم في أي مكان آخر في أدب العالم المسيحي في أيامهم . بدأ هارتمان فن أو Hartman von Aue بتقليد كريتيان تقليداً أعرج في روايتيه الشعريتين إرك Erec و إوين Iwein ولكنه لما التفت إلى أقاصيص بلاده سوابيا Swabia أخرج آية فنية صغرى هي Der arme Heinrich (حوالي عام ١٢٠٥) . وكان « هنري المسكين » كما كان أيوب رجلا غنياً يصاب وهو في عنفوان مجده بداء الجذام ولا يستطيع أن يشفيه منه إلا موت عذراء طاهرة من أجله (إذ لا بد أن يقول السحر في العصور الوسطى كلمته في القصص) . ولا يتوقع هنري أن يجد هذه التضحية فيستسلم للحزن واليأس ، ولكن فتاة هذه صفاتها في الوجود ، تعتزم أن تموت كي يشفى هنريخ من دائه الوبيل . ويظن أبواها أن قرارها هذا موحى

به من عند الله فيوافقان على هذا العمل الذى لم يكن أحد يظن أنهما سيوافقان عليه ، وتكشف الفتاة عن صدرها الجميل للنصل . ولكن هنربخ تدب فيه نخوة الرجولة على حين غفلة ، فيأمر بألا تقتل الفتاة ، ويرفض هذه التضية ، ويمتنع عن العويل ، ويرتضى آلامه معتقداً أنها من عند الله ، وتتبدل روحه بفضل هذه النزعة الجديدة ، فيزول مرضه الجثمانى زوالا سريعاً ، ويتزوج الفتاة التى أنقذته ويعوض هارتمان القصة عما فيها من سخف وبعد عن المعقول بشعره البسيط السلس الخالى من التكلف ، وقد احتفظت ألمانيا بهذه القصيدة حتى هذا العصر القليل الإيمان .

وثمة قصة أجمل منها كتبها شاعر فرنسى غير معروف فى وقت ما فى النصف الأول من القرن الثالث عشر وسماها *هذان هما أوكسان ونيقولت* C'est d'Aucaassin et Nicolette. والقصة نصفها رواية غرامية ، ونصفها سخرية من الروايات الغرامية ، صيغت كما يليق بها أن تصاغ تارة شعراً وتارة نثراً ، ووضعت لها علامات موسيقية بين النصوص الشعرية .

وخلاصتها أن أوكسان ابن الكونت بوكير Beaucaire يغرم بنيقولت متبناة ڤيكونت بوكير . ويعارض الكونت فى زواجه بها لأنه يريد أن يزوج ابنه من أحد البيوت الإقطاعية التى تستطيع أن تمده بالعون فى الحرب ، ويأمر تابعه الڤيكونت أن يخفى الفتاة . ويريد أوكسان أن يراها فيشير عليه الڤيكونت أن « يدع نيقولت وشأنها وإلا فلن يرى الجنة قط » . ويرد عليه أوكسان رداً يتفق مع نزعة التشكك التى أخذت تظهر فى الوقت :

ما شأنى أنا والجنة ؟ إنى لا يهمنى قط أن أدخلها ، وكل الذى يهمنى أن أحظى بنيقولت ... ذلك أن الجنة لا يدخلها إلا القساوسة الطاعنون فى السن ، والشيوخ المقعدون ، والمرضى الذين لا يبارحهم السعال ليلا أو نهاراً أمام مذابح الكنائس ... أما أنا فلا شأن لى بهؤلاء ، بل إنى أريد أن يكون مأواى الجحيم ، لأن الجحيم مثوى العلماء الظرفاء ، والفرسان الأمجاد الذين يقتلون فى ألعاب

الفروسية أو الحروب العوان ، كما هي مأوى النابل القوى والرجل الوفى : إنى أريد أن أكون مع هؤلاء . وإليها تذهب السيدات الحسان الظريفات اللاتى لكل منهن أصدقاء – اثنان أو ثلاثة – زيادة على زوجها . وفيها يمر العازفون ، والمغنون ، وملوك العالم . سأذهب مع هؤلاء إذا كانت نيقولت صديقتى الحلوة الجميلة إلى جانبى .

ويغلق والد نيقولت باب حجرتها عليها ، كما يحبس والد أوكسان ابنه فى سرداب أرضى حيث يتغنى الصبى بدواء عجيب مسحور :

نيقولت – يا زهرة الزنبق البيضاء ،
يا أحلى فتاة وجدت فى عريش ،
يا حلوة كالكرمة
التى تفيض بها الكأس المتبلة حلاوة ؛
حدث لك فى يوم من الأيام ،
أن جاء من ليموزين Limousin
حاج متعب خائف ،
يرقد من شدة الألم على فراشه ،
يتقلب ويخشى الموت حين يتنفس ،
مكتئب أشد الاكتئاب ،
قاب قوسين أو أدنى من الموت .
فدخلت يا ذات الطهر والنقاء .
ومشيت بخفة حتى أبصرك الرجل العليل ،
ورفعت ذيل ثوبك المسبل ،
ورفعت الجلباب الموشى بالفراء ؛

ورفعت الشعار وكشفت له بخفة
عن كل عضو فيك جميل .
وحدث وقتئذ حادث عجيب ،
فقد قام فى تلك الساعة سليما معافى ،
وغادر فراشه ، وأمسك بيده الصليب ،
واتجه مرة أخرى نحو بلاده العزيزة .
يا زهرة الزنبق البيضاء الحلوة ،
ما أحلى وقع قدميك !
وما أحلى ضحكك وما أحلى حديثك !
وما أجمل لعبنا معاً !
وما أحلى قبلاتك وما ألين ملمسك !
إن الناس كلهم لا بد مولعون بك(٥١) .

وفى هذه الأثناء تفتل زهرة الزنبق حبلا من أغطية فراشها وتنزل به إلى الحديقة . وتمسك ذيل ثوبها بكلتا يديها . . . وانزلقت بخفة فوق الندى المتراكم على الكلأ ، وخرجت بهذه الطريقة من الحديقة . وكان شعرها ذهبياً ، جعلت منه غدائر حب صغيرة . وعيناها زرقاوين باسمتين ، ووجهها جميل يسر المرء أن يراه . لها شفتان أشد حمرة من الوردة أو الكرزة فى حر الصيف ، وأسنان بيضاء صغيرة ، وثديان ناهدان يبدوان تحت ثيابها كأنهما رمانتان ، وكانت ذات خصر نحيل تكاد يداك تنطبقان عليه ، وكانت الأزهار التى تتكسر تحت قدميها تبدو سوداء أمام باطنهما وبشرتها .
ألا ما أنصع بياض تلك الفتاة الحسناء(٥٢) .

وتجد سمتها إلى نافذة سجن أوكسان ذات القضبان الحديدية وتقص خصلة من شعرها وتلقيها إليه ، وتقسم أن حبها لا يقل عن حبه . ويرسل والدها من يبحث عنها . فتفر إلى الغابات وتعيش مع الرعاة الذين يعرفون قدرها . ويظن

والد أوكسان بعد مضى فترة من الزمان أنها أصبحت بعيدة عن ولده فيطلق سراحه . فيخرج أوكسان إلى الغابات ويبحث عنها وتعترضه فى ذلك البحث حوادث لا تخلو من الهزل ، ثم يعثر عليها ويردفها خلفه على جواده و « يقبلها وهما راكبان » . ويريدان الفرار من أبويها اللذين يتعقبانهما ، فيركبان سفينة يعبران بها البحر المتوسط ؛ وينزلان فى أرض بلد فيها الرجال ، ويحترب الناس بالترامى المرح بالفاكهة . ويعتقلهما محاربون أقل من هؤلاء رقة ، ويفترقان مدى ثلاثة أعوام ، ثم يجتمعان آخر الأمر مرة أخرى ؛ ويموت الوالدان الحانقان لحسن الحظ ، ويصبح أوكسان ونيقولت كونت بوكير وكنتتها .

وليس فى أدب فرنسا الموفور الثراء ما هو أبدع من هذه القصة .

الفصل الثامن

الرجوع إلى الهجاء

وكانت الفكاهة التى تخللت فصول هذه القصة توحى بأن الفرنسيين بدأوا يتخمون بالروايات الغرامية . ذلك أن أشهر قصائد العصور الوسطى — وهى القصيدة التى يعرفها من القراء أكثر ممن يعرفون المسلاة الإلهية — بدأت قصة غرامية وانتهت بأن كانت أقوى وأفحش قصيدة هجائية فى التاريخ كله . وتفصيل ذلك أن جيوم ده لوريس Guillaume de Lorris(*)، وهو طالب صغير السن فى أورليان ، كتب حوالى عام ١٢٣٧ قصيدة رمزية كان يقصد بها أن تشمل جميع فنون الحب ، وأن تكون بفضل صبغتها التجريدية نموذجا لجميع الروايات الغرامية وخلاصة لهذه الروايات . ولسنا نعرف عن وليم اللوارى هذا William of the Loire(*) أكثر من أنه كتب الأبيات الأولى البالغ عددها ٤٢٦٦ من رواية الوردة Roman de la rose. وهو يصور نفسه فيها يطوف فى حلمه بحديقة حب فخمة تتفتح فيها كل زهرة معروفة وتشدو فيها جميع الطيور ، وتجتمع فيها أزواج سعيدة تمثل كل ما فى حياة الحب من متعة ونعيم — المرح والسرور ، والأدب والجمال ، ويرقص كل زوجين اثنين من هذه المتع تحت رياسة إله الحب . ذلك دين جديد يحتوى فكرة جديدة عن الجنة تحل فيها المرأة محل الله . وفى هذه الجنه يرى الحالم زهرة أبهى من كل ما يحيط بها من جمال ، ولكنها تحرسها ألف شوكة . وهذه الوردة هى رمز المحبوب . وتتألف من شوق بطل الرواية إلى بلوغها وقطفها قصة جميع الحملات الغرامية التى تثيرها الشهوة المكبوتة التى تثير الخيال وتغذيه . وليس فى القصة كلها إنسان سوى راويها نفسه ، أما من بقى من الممثلين فيها فتجسيد

(*) جيوم هو وليم كما يكتبه الفرنسيون . (المترجم)

لصفات خلقية توجد فى كل القصور التى يطارد فيها الرجال النساء : المظهر الجميل ، والكبرياء ، والنذالة ، والحياء ، والثراء ، والبخل ، والحسد ، والخمول ، والنفاق ، والشباب ، واليأس ، و « الفكر الجديد » نفسه — ومعنى الفكر الجديد هنا هو التذبذب . وأعجب ما فى القصة أن جويوم استطاع بهذه التجريدات أن يقرض شعراً ممتعاً — ولعل سبب ذلك أن الحب أياً كان عصره وأياً كان مظهره فيه من المتعة بقدر ما فى الدم من حرارة(*) .

ومات وليم صغير السن دون أن يتم قصيدته ؛ وظل العالم أربعين عاماً حائراً لا يدرى هل فعل المحب الذى أصابه كيوبد إله الحب بسهمه فأخذ يرتجف من شدة الحب ، نقول هل فعل أكثر من أن يقبل الوردة . ثم أمسك فرنسى آخر يدعى چان ده مونج Jean de Meung بالشعلة ، وبلغ بها أكثر من اثنين وعشرين ألف بيت من الشعر فى قصيدة بينها وبين قصيدة وليم من البعد مثل ما بين ربليه وتنيسُنْ Tennyson . ذلك أن مرور جيل من الزمان قد بدل مزاج القوم ؛ وأن الروايات الغرامية قد استنفدت إلى حين كل ما عندها من حديث ، وأخذت الفلسفة تغشى بستار العقل شعر الإيمان ؛ وكانت الحروب الصليبية قد أخفقت ، وبدأ عصر الشك والهجاء . ويقول بعضهم إن چان كتب الجزء العاصف العجاج الذى أكمل به القصيدة بناء على إشارة الملك فليب الرابع الذى بعث بمحاميه المتشككين ليضحكوا فى وجه البابا . وكان مولد چان كلوپنل Jean Clopinel فى مونج القائمة على شاطئ نهر اللوار حوالى عام ١٢٥٠ ، ودرس الفلسفة والأدب فى باريس ، وأصبح من أعظم رجال زمانه تبحرا فى العلوم . ولسنا ندرى أى عامل من عوامل الشر والفساد أغراه بأن يسخر علمه ، وبغضه للكهنوتية ، واحتقاره للمرأة والروايات الغرامية ،

(*) لا تقل ترجمة تشوسر للنصف الأول من قصيدة **رواية الوردة** "The Romaunt of the Rose" فى جمالها عن أصلها الذى كتبه وليم نفسه .

أن يسخر هذا كله ليكمل به أعظم قصيدة غرامية فى الأدب كله . فقد أخذ چان يبسط آراءه فى جميع الموضوعات من خلق العالم إلى يوم الحساب بينا ينتظر الحبيب المسكين فى الحديقة طوال هذا الوقت ليقطف الوردة . ويصوغ أبياته فى شعر من نفس البحر ذى الثمانية المقاطع والقافية الواحدة فى كل بيتين كالذى صاغ فيه وليم قصيدته ، ولكنه بما فيه من حماسة وطرب بعيدٌ كل البعد عن أشعار وليم الحالمة . وإذا كان قد بقى فى قلب چان شيء من الغرام فقد كان ذلك هو صورة أفلاطون الخيالية للعصر الذهبى فى الماضى « لا يقول أحد فيه إن هذا الشيء أو ذاك ملك له ، ولا يعرف فيه الناس الشهوات أو السلب والنهب » ، ولم يكن فيه سادة إقطاعيون ، ولا دولة ، ولا قانون ، يعيش الناس فيه دون أن يأكلوا اللحم أو السمك أو الطير ، و « تكون فيه جميع خيرات الأرض ملكا مشاعاً بينهم »(٥٣) . وليس چان متحرراً من الدين ، فهو يقبل عقائد الكنيسة دون أن يحط من قدرها ، ولكنه يبغض « أولئك الفجار البدن المترفين ، والإخوان المتسولين ، الذين يخدعون الناس بالألفاظ الكاذبة ، ويملأون بطونهم باللحم والشراب »(٥٤) وهو لا يطيق المنافقين ، ويوصيهم بأكل البصل والثوم لييسر لهم أن يذرفوا دموع التماسيح(٥٥) . ويقر بأن « حب امرأة ظريفة » خير ما فى الحياة من نعم ، ولكن يبدو أنه لم يتذوق قط هذه النعمة(٥٦) ، ولعله لم يكن خليقاً بأن يتذوقها لأن الهجاء لم يكن قط طريق كسب فتاة حسناء ؛ ولأن چان كان شديد التأثر بأوفد ، وقد تتلمذ عليه إلى حد جعله يفكر فى وسائل الانتفاع بالنساء ، ويُعَلِّم غيره هذه الوسائل ، أكثر مما يحبهن . وهو يجهر بأن الاقتصار على زوجة واحدة سخف ، لأن الطبيعة قد أعدت الكل للكل — كل النساء لكل الرجال . وهو يُنطق الرجل المشيع بهذه الأبيات يؤنب بها زوجته المزدانة :

وماذا تجدى هذه المظاهر كلها ؟
وأى نفع يعود على من الأثواب الغالية وهذه الحلل ذات القطع
الشاذ الغريب ؟
وماذا يعنيني من هذه العصائب التي تلوين بها شعرك وتعقصينه ،
وتجدلينه بخيوط من الذهب ؟ ولماذا تطعمين بالعاج
مرايا مرصعة بالميناء ، منشورة عليها دوائر ذهبية ؟
وما شأن هذه الجواهر الخليقة بتيجان الملوك ،
لؤلؤ وياقوت أحمر وأزرق جميل ، يبعث فيك الغرور الجنونى
الممقوت ؟
وما جدوى هذه الأقمشة الغالية !
والطيات المثناة المجدولة ، والمناطق التي تطوقين بها خصرك .
محلاة ومزدانة بالنقوش الكثيرة ؟
ثم قولى لم تختارين أن تلبسى فى قدميك حذاءين ملتمعين
إلا إذا كنت تشتهين أن تكشفى عن ساقيك الجميلتين ؟
قسما بالقديس ثيبو Thibaud لأبيعن هذه الأشياء الغثة
قبل أن تمضى من هذا الوقت ثلاثة أيام ، ولأنبذنك نبذ الثوب
الخلق ![٥٧] .

وإنا لنجد بعض السلوى حين نعرف أن إله الحب يهاجم فى آخر الأمر ، على رأس أتباعه الذين يخطئهم الحصر ، البرج الذى يقوم فيه الخطر ، والحياء ، والخوف (تردد السيدة) بحراسة الوردة ، ويُدخِل الترحابُ الحبيبَ إلى الكعبة الداخلية ويتركه يقتطف أمل أحلامه . ولكن أ' لهذه الخاتمة الغرامية التى طال انتظارها أن تمحو ١٨٫٠٠٠ بيت من الواقعية الفظة والبذاءة الساخرة ؟

وكان أكثر ما يقبل الناس على قراءته فى أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كتبٌ ثلاثة هى رواية الوردة ، والقصة الذهبية ، ورينار

الثعلب . وبدأت قصة Reynard باللاتينية فى إيسنجرينس Ysingrinus حوالى عام ١١٥٠ ثم انتقلت منها إلى عدة لغات قومية بأسماء مختلفة Roman de Renart ، Reyuard the Fox ، Reineke de Vos ، Reinaert ، وانتهى تطوافها برواية Reineke Fuchs لجيته . وأضاف مؤلفون مختلفون نحو ثلاثين قصة مرحة لهذه السلسلة حتى بلغ مجموعها ٢٤٠٠٠ بيت خصصت كلها تقريباً لهجاء الإساليب الإقطاعية ، وحاشية الملوك ، والاحتفالات المسيحية ، والعيوب الآدمية على لسان الحيوان .

ويحتال رينال الثعلب حيلا شيطانية على الأسد نوبل Noble (الشريف) ملك الدولة ، ويُعظِّر درع نوبل بالسيدة هاروج Dame Harouge الفهدة ، وينصب لها من الدسائس ما لا يقل عن دسائس تليران Tallyrand حتى ترضى أن تكون عشيقته . ويسترضى نوبل وغيره من الوحوش بأن يهب كلا منها طلسما ينبئ الزوج بخيانات زوجته . وبهذه الطريقة تنكشف مخاز رهيبة ، ويضرب الأزواج زوجاتهم الخائنات ، فتفر الزوجات ويحتمين برنار فيتخذهن جميعاً حريماً له . وتقول إحدى القصص إن الحيوانات تشتبك فى ألعاب الفروسية ، وتبدو بأثواب الفرسان الزاهية فى استعراض رائع . وترى الثعلب فى قصة رينار الميت La Mort Renart يحتضر ؛ ويقبل برنار Bernard الحمار كبير أساقفة الحاشية ليقوم له بالمراسم الدينية ، ويخاطبه بلغة توفى على الغاية فى العاطفة والإخلاص ، ويتصنع منتهى الجد والوقار . ويعترف رينار بذنوبه ، ولكنه يشترط إذا شفى من مرضه أن يصبح فى حل من يمينه غير مقيد بها . وتدل المظاهر كلها على أنه مات ، وتجتمع كل الوحوش الكثيرة العدد التى خانها فى زوجاتها ، أو ضربها ، أو مزق لحمها ، أو خدعها ، تتظاهر بحزنها ، ولكنها فى خبيئة أمرها سعيدة بموته . ويلقى كبير الأساقفة على قبر الميت عظة شبيهة بأقوال ربليه ، ويلوم رينار لأنه كان يرى « أن كل شيء حسن إذا استطعت أن

تستحوذ عليه » . ولكن رينار تدب فيه الحياة حين يرش عليه الماء المقدس ، ويقبض على عُنق شانتكلير (الديك) وهو يطوح بالمبخرة ، ويخرج إلى الغابة بفريسته . وبعد فإذا أراد الإنسان أن يفهم العصور الوسطى على حقيقتها فعليه ألا ينسى رينار .

ذلك أن قصة رينار أعظم القصص الخرافية التى تروى على لسان الحيوان لهجاء الإنسان . وكانت هذه القصص عادة تكتب بالشعر ذى الثمانية الأوتاد ، ويتراوح طولها بين ثلاثين بيتاً وألف بيت ؛ ومنها ما هو قديم يرجع إلى عهد إيسوب Aesop أو إلى أقدم من عهده ، وجاء بعضها من بلاد الهند عن طريق المسلمين . وكان أكثره قذفاً فى حق النساء أو القسيسين ، يحسد النساء على ما حبتهن الطبيعة من سلطان ، والقسيسين على ما لهم من قوى غير طبيعية ؛ يضاف إلى هذا أن النساء والقساوسة قد عابوا على المغنين تلاوة القصص الخرافية الشائنة . ذلك أن الخرافات كانت تتجه على الدوام لأصحاب البطون القوية ، وتستخدم لغة الحانات والمواخير ، وصاغت آلافاً من الفكاهات شعراً . ولكن تشوسر ، وبوكاشيو ، وأريستو Ariosto ، ولافنتين ، ومائة غيرهم من القصاصين استمدوا من معينها الفياض كثيراً من القصص المثيرة للدهشة .

وكانت نهضة الشعر الهجائى سبباً فى انحطاط منزلة الشعر الغنائى . واشتق الشعراء المغنون الجوالون اسمهم Minstrels الإنجليزى من لفظ Ministeriales ، وهم فى الأصل خدم فى حاشية البارونات ، اشتقوا اسمهم الفرنسى Jonglenurs من اللفظ اللاتينى ioculator أى صاحب النكات . وقد قام هؤلاء بوظيفة شعراء اليونان الدوارين والماجنين الرومان ، وشعراء اسكنديناوة القدماء ، والمغنين الأنجليسكسون ، وشعراء ويلز وأيرلندة المداحين . وكان المغنون حين بلغت الروايات الغنائية قمة مجدها فى القرن الثانى عشر يقومون مقام الطباعة فى هذه الأيام ؛ وقد احتفظوا بمكانتهم بما كانوا يروونه أحياناً من القصص الخليقة بأن

تسمى أدباً . فكان الواحد منهم يمسك بقيثارة أو الكمان الكبيرة وينشد الأغانى أو القصص القصيرة ، أو الملاحم ، أو قصص مريم أو القديسين ، وأغانى أعمال الأبطال ، والروايات الغرامية أو خرافات الحيوانات(*) . وإذا حل موسم الصوم الكبير ، وقل عليهم الطلب ، عقدوا إذا استطاعوا مؤتمراً للمغنين والماجنين كالمؤتمر الذى نعرف أنه عقد حوالى عام ١٠٠٠ ؛ وفيه يتعلم بعضهم ما عند البعض الآخر من حيل وأساليب ، وما عند شعراء الفروسية الغزلين والقصاصين من أغان وقصص جديدة . ومنهم من كان يرضى ، إذا تبين أن أقواله ذات طابع عقلى أقوى مما يطيقه المستمعون ، أن يسلوهم بالشعوذة ، والألعاب البهلوانية ، وثنى الأجسام ، والمشى على الحبال . ولما أخذ القصاصون يتنقلون فى المدن يروون أقاصيصهم ، ولما انتشرت عادة القراءة وقل الطلب على القصاصين ، تحول المغنى الجائل تدريجاً إلى ممثل للمهازل ذات الأغانى والرقص ، وأصبح المغنى فى واقع الأمر مشعوذاً ، يقذف بالسكاكين ، ويحرك الدمى ، ويعرض ألعاب الدببة المدربة ؛ والقردة ، والخيل ، والديكة ، والكلاب ، والجمال ، والآساد . ومن المغنين من حول خرافات الحيوانات إلى روايات هزلية ، ومثلها دون أن يمحو ما فيها من فحش . وقاومت الكنيسة شيئاً فشيئاً هذه الطائفة ، وحرمت على الصالحين الاستماع إلى أفرادها ، وعلى الملوك أن يطعموهم ، وكان هونوريوس أسقف أوتون Autun يرى أن أحداً من أولئك المغنين أو القصاصين لن يدخل الجنة .

وكان حب الشعوب لأولئك المغنين والقصاصين ورواة خرافات الحيوانات ، والترحيب الصاخب الذى لقيته ملحمة چان ده مونج عن الطبقة الوسطى

(*) ما أشبه هؤلاء « بالشعراء » الذين ينشدون على الربابة قصص أبى زيد الهلالى وغيره من الأبطال والذين أخذوا مع الأسف الشديد ينقرضون فى هذه الايام . (المترجم)

bourgoisie من الطبقات المتعلمة الجديدة وطلبة الجامعات المتمردين ؛ كان هذا خاتمة ذلك العصر . نعم إن الروايات الغرامية ظلت باقية ، ولكنها كانت تتحداها من كل ناحية القصائد الهجائية ، والفكاهات ، والمزاج الدنيوى الواقعى الذى يسخر من قصص الفروسية قبل أن يولد سرفنتير Cervantes بزمن طويل . وظل الهجاء قرناً كاملا من ذلك الوقت هو المسيطر على الميدان ، يقرض بأنيابه قلب الإيمان ، حتى تزعزت جميع دعائم صرح العصور الوسطى ، وتحطمت أضلاعه ، وتركت نفس الإنسان مزهوة تترنح على حافة العقل .

الباب التاسع والثلاثون

دانتي

١٢٦٥ – ١٣٢١

الفصل الأول

شعراء الفروسية الغزلون الإيطاليون

كان بلاط فردريك الثانى فى أپوليا هو المكان الذى ولد فيه الأدب الإيطالى . وربما كان لمن فى حاشيته من المسلمين نصيب فى الحافز الباعث على نشأة هذا الأدب لأن كل مسلم يعرف القراءة والكتابة فى ذلك الوقت كان يقرض الشعر . وشاهد ذلك أن سيلودالكامو Cillo d'Alcamo (حوالى عام ١٢٦٠) كتب « حواراً » جميلا « بين عاشق وسيدة » . وتكاد مدينة ألكامو إحدى مدن صقلية تكون مدينة إسلامية . ولكن أثراً أقوى من أثر المسلمين جاء إلى الجزيرة من شعراء الفروسية الغزلين فى پروڤانس . فقد كان هؤلاء يرسلون أشعارهم ، أو يأتون بأنفسهم ، إلى فردريك وأعوانه المثقفين ، وكان هو يجلهم ويقدر جهودهم . ولم يكن فردريك نفسه يناصر الشعر فحسب ، بل كان فوق ذلك يكتبه ، ويكتبه باللغة الإيطالية . وقد ألف كبير وزرائه پيرو دل ڤنى Piero delle Vigne أغانى ممتازة ، وربما كان هو الذى صاغها فى تلك الصيغة المجهدة . وكان رينلدو داكوينو Rinaldo d'Aquino (أخو القديس تومس) والذى كان يعيش فى بلاط فردريك ، وجيدودلى كولن

القاضى ، وياقوبو دالنتينو Iacopo da Lentino Guido delle Colonne أحد مسجلى الصكوك فى بلاط فردريك ، كان هؤلاء جميعاً من بين شعراء تلك « النهضة الأبولية » . وإنا لنجد فى أغنية ياقوبو (كتبت حوالى ١٢٣٣) أى قبل مولد دانتى بجيل من الزمان ، ما نجده فى قصائد الحياة الجديدة Vita Nuovo من رقة العاطفة وجمال الصقل :

أجد فى قلبى قوة تدفعنى إلى أن أخدم الله ،
لكى يكون مثواى الجنة
المكان المقدس الذى سمعت أن البهجة والنعيم
يفيضان فى كل مكان فيه .
غير أنى أكره الذهاب إليها من غير حبيبتى
ذات الوجه المتلألئ والشعر البراق ،
لأنى أعرف أنها إن غابت عنها وكنت أنا فيها
كان نعيمى أقل من لا شىء .
ولكن حذار أن تظن أنى أقول هذا
لأنى سأرتكب فيها الآثام ،
بل كل ما أبغيه أن أشاهد طلعتها البهية ،
وعينيها الناعستين الجميلتين ، ووجهها الصبوح
حتى تتم بذلك سعادتى
برؤية سيدتى مبتهجة فى مكانها !

ولما أن سافر فردريك وحاشيته فى بلاد إيطاليا أخذ معه شعراءه وحيواناته البرية ، ونشر هؤلاء الشعراء أثرهم فى لاتيوم ، وتسكانيا ، ولمباردية . وسار ابنه مانفرد Manfred على سنته فى مناصرة الشعر وكتب مقطوعات غنائية استحقت ثناء دانتى . وتُرجم كثير من الشعر « الصقلى » إلى لغة تسكانيا ، وكان

له نصيب فى تكوين مدرسة الشعراء التى انتهت إلى دانتى . وحدث فى ذلك الوقت عينه أن هجر شعراء الفروسية الغزلون الفرنسيون بلاد لانجويدك Languedoc التى مزقتها الحروب الدينية ، ولجأوا إلى بلاد الحكام الإيطاليين ، وعلموا شعراء تلك البلاد فنهم المرح ، كما علموا النساء الإيطاليات أن يرحبن بقصائد المديح ، وأقنعوا كبار الإيطاليين بأن يجزلوا العطاء للشعراء وإن توجهوا بشعرهم إلى زوجاتهم ، وقد بالغ بعض شعراء التسكان فى تقليد شعراء الفروسية فكتبوا شعرهم بلغة پروڤنسال نفسها للفرنسيين . ومن هؤلاء سردلو Sordello (حوالى ١٢٠٠ — ١٢٧٠) وهو شاعر ولد فى منتوا Mantua بلدة ڤرچيل ، وأتى ما أغضب إزلينو Ezzelino الرهيب ؛ ففر إلى پروڤانس ، وكتب بلغة تلك البلاد قصائد فى الحب الروحانى الأفلاطونى .

ونشأ من هذه العاطفة الأفلاطونية ، بمزيج عجيب من الميتافيزيقا والشعر ، « الأسلوب الحلو الجديد » التسكانى . ذلك أن الشعراء الإيطاليين خرجوا على الشهوانية الصريحة التى وجدوها عند المغنين من شعراء پروڤانس ، وآثروا أن يحبوا ، أو ادعوا أنهم يحبون ، النساء بوصف كونهن ممثلات للجمال النقى المجرد ، أو كونهن رموزاً للحكمة أو الفلسفة الإلهيتين . وكانت هذه نغمة جديدة فى إيطاليا التى عرفت مائة ألف من شعراء الغزل . وربما كان قلم القديس فرانسس هو الذى حرك هذه الأقلام العفيفة ، أو لعل كتاب **الخلاصة** لتومس أكوناس كان شديد الوطأة عليهم ، أو لعلهم شعروا بتأثير المتصوفة المسلمين الذين لم يكونوا يرون فى الجمال غير الله ، والذين كانوا يوجهون قصائد الحب للخالق جل وعلا .

وتكونت المدرسة الحديثة من سرب من المغنين العلماء ، فأخذ جونزلى Guinizelli (١٢٣٠ ؟ — ١٢٧٥) أحد مواطنى بولونيا ، الذى سماه دانتى والده فى الأدب[٢] ، يتغنى بفلسفة الحب الجديدة أغنية ذائعة الصيت سماها أغنية « القلب الرقيق » ، وطلب فيها أن يغفر له الله حبه معشوقته لأنها فى رأيه الألوهية

مجسدة ؛ ونشر لاپاجينى Lapa Gianni ، ودينو فرسكوبلدى Dino Frescobaldi ، وجيدو آرلندى Guido Olandi ، وسينودا پستويا Cino da Pastoia ، نشر هؤلاء الأسلوب الجديد فى شمالى إيطاليا ؛ وجاء به إلى فلورنس جيدو كفلكنتى Gnido Cavalcanti (حوالى ١٢٥٨ — ١٣٠٠) صديق دانتى وأظرف من عبر عن هذا الأسلوب قبل الشاعر الكبير. وكان جيدو من الأشراف ، ولهذا كان يختلف عن سائر هؤلاء الشعراء العلماء ، وكان زوج ابنة فاريناتا دجلى أبرتى Farinata degli Uberti الذى قاد حزب الجبلين Ghibelline فى فلورنس . وكان من أصحاب التفكير الحر فى الدين ومن المقتنعين بفلسفة ابن رشد ، متشككا فى الخلود وفى الله نفسه(٤) . واضطلع بدور إيجابى ، عنيف فى الشئون السياسية ، وأصدر دانتى ومن معه من الرؤساء فى عام ١٣٠٠ قراراً بنفيه ؛ فلما أصابه المرض عفى عنه ، ومات فى ذلك العام نفسه . وكان عقله الأرستقراطى المتكبر أليق ما يكون لصياغة الأغانى فاترة تماثل فى رقتها الأغانى القديمة :

جمال النساء ؛ وقرار الإرادة العليا ؛
والفرسان الأنجاد المسلحون لألعاب الرجولة ؛
وشدو الطير الجميل ؛ وإجابات الحب الحلوة ؛
وقوة السفن المسرعة فوق متن البحار ؛
والهواء الصافى حين يبدأ الضوء أن يكون ؛
والثلج الأبيض ، الذى يسقط ويستقر فى سكون الريح ؛
وحقول الأزهار ، والمكان الذى ينبع منه الماء ؛
والفضة والذهب ، وزرقة الجواهر :
إذا وزنت أمام مالى من قيمة
فى قلب سيدتى العزيزة علىّ

فإنها تبدو ضئيلة . وفى الحق أنى لأسمو فى نظرها
على هذه كلها وأعلو عنها علو السماء عن الأرضين
وكل خير سرعان ما يمتد للخلائق الأقربين(٥)

وأخذ دانتى الشىء الكثير عن جيدو وقلد أغانيه ، ولعله مدين له بعزمه على كتابة الملهاة المقدسة The Divine Comedy باللغة الإيطالية . وشاهد ذلك قول دانتى نفسه : « وقد رغب إلى فى أن أكتب له على الدوام بلغة البلاد لا باللغة اللاتينية »(٦) . وكن أسلاف دانتى هم الذين بدلوا فى القرن الثالث عشر فجاجة اللغة الجديدة وعجزها إلى نغمتها الحلوة ، وإلى العبارات المركزة الدقيقة التى لا تضارعها فيها لغة أخرى من اللغات الأوربية ، وهم الذين خلقوا لغة يستطيع دانتى أن يسميها : « فخمة ، أصيلة ، مهذبة ، عظيمة »(٧) — تليق لأن يكتب بها أعظم العظماء . وكانت أشعار البروفنساليين تبدو إذا قيست إلى أغانى الإيطاليين ناشزة غير متناغمة ، وقصص الأبطال الشعرية ، وغناء المغنين الجائلين تكاد تكون بالنسبة لها تافهة حقيرة . ولم يعد الشعر فى هذه الأغانى الإيطالية مصرفاً للثرثرة المرحة ، بل أصبح عملا من أعمال الفن القوية المحكمة يبذل فى صياغته من الجهد ما بذل نقولا لابيزانو وولده فى نحت تماثيل المنابر . وبعد فإن من أسباب عظمة الرجل العظيم أن رجالا أقل منه قد مهدوا له السبيل ، وهيئوا لعبقريته مزاج عصره ، وشكلوا له أداة يمسكها بيديه ، وأسلموه عملا أنجزوا نصفه .

الفصل الثاني

دانتي وبياتريس

فى شهر مايو عام ١٢٦٥ وَلدَتْ بلا ألچيرى Bella Alighieri لزوجها ألچيرو ألجيرى Alighiero Aligieri ولدا سموه دورانتى Duarante ألچيرى ، ولعلهما لم يفكرا فى ذلك الوقت أن معنى هذين اللفظين هو حامل الجناح الطويل البقاء . ويبدو أن الشاعر نفسه هو الذى اختصر اسمه الأول فجعله دانتى(٨) . وكان لأسرته سلسلة نسب طويلة فى فلورنس ، ولكنها حلت بها الفاقة ، وماتت والدة الطفل فى السنين الأولى من عمره ، وتزوج ألچيرى غيرها ، ونشأ دانتى مع زوجة أبيه ، وأخ له غير شقيق ، وأختين غير شقيقتين ، ولعله لم يكن سعيداً معهم(٩) . ومات والد دانتى حين كان ابنه فى الخامسة عشرة من عمره ، وخلف لهم عبئاً من الديون(١٠).

وكان دانتى يذكر من بين مدرسيه برونتو لاتينى Brunetto Latini ولا ينسى فضله عليه . وكان برونتو حين عاد من فرنسا قد اختصر موسوعته الفرنسية الكنز Tresor إلى موسوعة إيطالية صغرى سماها الكنيز Tesoretto وتعلم منه دانتى كيف يخلد الإنسان ذكره Come l'uom s'eterna(١١) . وما من شك فى أن دانتى قد درس ڤرچيل ، وأنه وجد فى دراسته لذة كبيرة ، فهو يحدثنا عن أسلوب شاعر مانتوا الجميل ، وهل يوجد طالب سواه أحب كتاباً من كتب القدماء حباً جعله يسير وراء مؤلفه فى الجحيم ؟ ويشير بوكاشيو إلى أن دانتى كان فى بولونيا عام ١٢٨٧ . وحصل الشاعر فى هذه البلدة أو فى مكان سواها قدراً يؤسف له من العلوم ومن فلسفة المعجزات التى كانت منتشرة فى زمانه

جعل قصيدته مثقلة بعلمه الواسع الغزير . وكان مما تعلمه فضلا عن هذا ركوب الخيل ، والصيد ، والمثاقفة ، والتصوير ، والغناء . ولسنا نعرف كيف كان يحصل على قوته ، وأيا كانت سبيله فى تحصيله فإنه كان يقبل فى الأوساط المثقفة ، لصداقته لكڤلكنتى إن لم يكن لأسباب أخرى مضافة إلى هذه الصداقة ، وقد وجد فى هذه الأوساط كثيراً من الشعراء .

وبدأت أشهر الحوادث الغرامية كلها حين كان دانتى وبياتريس كلاهما فى سن التاسعة . وكانت بدايتها كما يقول بوكاشيو فى حفلة من حفلات أول مايو أقيمت فى بيت فلكو برتنارى Folco Portinari أحد كبار المواطنين فى فلورنس . وكانت « بيس » الصغيرة ابنة فلكو ، والراجح أيضاً أنها هى التى يتحدث عنها دانتى باسم بياتريس[١٢] ، ولكن هذا الرجحان لا يقرب من التأكيد قرباً يزيل شكوك المتزمتين . ولسنا نعرف شيئاً عن هذا اللقاء الأول إلا من الوصف الذى كتبه عنه دانتى بعد تسع سنين من ذلك الوقت فى ڤيتا نيوڤو Vita nuovo وخلع عليها فيه من الصفات ما جعلها مثلا أعلى قال :

كان لباسها فى ذلك اليوم من أبدع الملابس ، فقد كان ذا لون قرمزى هادئ جميل ، وكانت ممنطقة ومزينة بما يناسب سنها الصغيرة . وإنى لأقول صادقاً كل الصدق إن روح الحياة المستكنة فى أعمق خبايا القلب أخذت من تلك اللحظة ترتجف ارتجافاً عنيفاً اهتزت معه جميع أجزاء جسمى ، وقالت وهى تهتز : « هاهى ذى إلهة أعظم منى قوة مقبلة لتسيطر على » وأصبحت من تلك اللحظة عبداً لهواها[١٣] .

إن فتى يقترب من سن البلوغ لفتى ناضج لهذا الارتجاف متأهب له ؛ ولقد عرف معظمنا هذه التجربة ، وفى وسعنا أن نعود بذاكرتنا إلى ذلك العشق السريع الزوال ، ونرى أنه من أكثر التجارب التى تعترض شبابنا روحانية ، وأنه يقظة عجيبة خفية من يقظات الجسم والروح ، ندرك بها الحياة ، والصلات

الجنسية ، والجمال ، ونقص الواحد منا بمفرده ، وإن كان الإنسان مع هذا لا يدرك وقتئذ رغبة الجسم فى الجسم ، بل كل ما فى الأمر أنه يتوق فى حياء لأن يكون قريباً من حبيبته ويخدمها ، ويستمع إلى حديثها ، ويراقب ظرفها ورشاقتها . وإذا ما وهبت نفس الشاب حساسية كحساسية دانتى — أى إذا كان ملتهب العاطفة قوى الخيال ، فقد يبقى هذا الإلهام وذاك النضوج فى ذاكرته مدى الحياة ، ويظل أبد الدهر حافزاً قوياً له . ويصف لنا دانتى كيف كان يتحين الفرص ليرى بياتريس ، وإن لم تتح له إلا نظرة لها دون أن تراه هى ؛ ثم يبدو أنه ظل لا يراها تسع سنين ، حين بلغا الثامنة عشرة من عمرهما ، وفى هذا يقول :

واتفق أن تبدت لى هذه الفتاة العجيبة فى أثواب ناصعة البياض بين سيدتين من كرائم العقائل أكبر منها سناً . وبينا كانت تجتاز الشارع التفتت إلى الناحية التى كنت واقفاً فيها يجللنى الحياء ، وحبتنى بفضل لا أستطيع وصفه . . . إذ سلمت على وهى مشرقة البهجة ، تحيط بها هالة من الفضيلة والروعة ، خيل إلى معها فى تلك اللحظة وتلك البقعة أننى قد نلت منتهى ما أصبو إليه من السعادة ... ثم غادرت ذلك المكان ثملا بنشوة من الفرحة ... وفى هذه اللحظة اعتزمت أن أؤلف أغنية ، فقد كنت أنزع إلى حدما أن أقول الحديث المقفى[١٤] .

وهكذا نشأت سلســلة أغانيه وتعليقاته المعروفة باسم **الحياة الجديدة** La vita nuovo ، إذا جاز لنا أن نصدق ما قاله هو عن نفسه . وأخذ فى فترات من التسع السنين التالية (١٢٨٣ — ٩٢) يؤلف مقطوعاته الغنائية ، ثم أضاف إليها النثر فيما بعد . وكان يرسل إلى كفلكانتى المقطوعة إثر المقطوعة ، وكان كفلكانتى يحتفظ بها ، وأصبح من ذلك الوقت صديقاً له . والقصة الغرامية التى تحدثنا عنها هذه الأغانى من المبتكرات الأدبية إلى حد ما ، وإن ذوقنا الذى تبدل فى هذه الأيام ليمج هذه القصائد لما فيها من تأليه للحب تأليها مسرفاً فى الخيال كما كان يفعل شعراء الفروسية الغزلون ، وللأحاديث المدرسية المملة التى

يفسدها بها ، وما تحتويه من البحوث الخفية الغامضة حول الثلاثات والتسعات .
لهذا كان من الواجب علينا أن نغض الطرف عن هذه العيوب التي هي في الحق عدوى زمانه :

يقول الحب فيها : « كيف يمكن أن يكون الجسم وهو من تراب
نقياً هذا النقاء ؟ » .
ثم يقسم وهو لا ينفك يحدق فيها : « حقاً إنها لمخلوق من خلق الله
لم يعرف من قبل » .
إن لها من شحوب الدرة القدر الخليق بالمرأة الجميلة لا أكثر منه
ولا أقل
ولقد سمت بالقدر الذى يمكن أن تسمو به الطبيعة وإبداع الخالق ،
بها يقاس الجمال ، وكل ما وقعت عليه نظراتها الحلوة
خرجت منه أرواح الحب ملتهبة . فإذا نظر الناس إلى هذه الأرواح
سرت فى عيونهم وأصابت سهام تلك العيون شغاف قلوبهم .
وفى بسماتها ترى الحب مجسما فلا يستطيع إنسان أن يطيل النظر
إليها(١٥)

وبعض النثر أبعث على السرور من الشعر :

فإذا ظهرت فى مكان ما ، خيل إلى وأنا أؤمل أن تحيينى تحيتها الجميلة ، أن لم يبق لى فى العالم كله عدو ، وغمرنى فى ذلك الوقت فيض من المحبة لا أشك معه فى أننى سأعفو عن كل من أساء إلىّ مهما تكن إساءته ... ومشت يجللها التواضع ، فلما أن غادرت المكان قال كثيرون ممن فيه : « ليست هذه امرأة ، وإنما هى ملك جميل هبط من السماء » . وإنى لأقول بحق إن فيها من الرقة والظرف ما يبعث فى نفس كل من ينظرون إليها هدوءا وسكينة يعجز البيان عن وصفهما(١٦) .

وليس فى هذا الافتتان ، الذى نحسبه متكلفاً ، إشارة إلى فكرة زواجه من

بياتريس . ولقد تزوجت بالفعل فى عام ١٢٨٩ من سيمون ده بارى Simone de, Bardi ، وهو عضو فى شركة مصرفية كبرى . ولم يهتم دانتى بهذا الحادث العرضى ، بل ظل يكتب فيها القصائد دون أن يذكر اسمها ، فلما ماتت بياتريس بعد عام من زواجها وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها ، رثاها الشاعر بقصيدة هادئة ذكر فيها اسمها لأول مرة ، وجاء فيها :

صعدت بياتريس إلى السموات العلى ،
إلى الملكوت الذى يتمتع فيه الملائكة بالسلام :
فهى تعيش معهم ، وإن فقدها الأصدقاء ،
ولم يدفعها إليه زمهرير الشتاء ، كما يدفع غيرها من الناس
لا ولا حر الصيف اللافح ،
وإنما اندفعت بغير هذا وذاك ، بلطفها الكامل ،
لأن هالة عظيمة خرجت من نور جبينها الوضاء ،
فأثارت الدهشة فى نفس الخلاق الأزلى ،
وسرت فيه رغبة حلوة فى ذلك الجمال البارع ،
فأمرها أن تتوق إليه فى علاه ،
لأنه رأى أن هذا المكان الممل الخبيث
غير جدير بكل هذا اللطف وتلك الرقة[١٧] .

ويصورها فى قصيدة أخرى يحيط بها فى الجنة من يقدمون لها فروض الولاء ، ثم يقول :

وبعد أن كتبت هذه المقطوعة ، قدر لى أن أرى رؤى عجيبة . إذ أبصرت أشياء اعتزمت بعدها ألا أقول شيئاً قط عن هذه السيدة المنعمة ، إلى أن يحين الوقت الذى أستطيع فيه أن أتحدث عنها حديثاً أجدر بها . وأنا أبذل ما وسعنى من جهد لبلوغ هذه الغاية ، كما تعرف هى بحق . ومن أجل هذا فإذا أراد الله

باعث الحياة فى كل شىء أن يطيل حياتى عدداً قليلا من السنين ، فإنى أرجو أن أكتب فيها ما لم يكتب من قبل فى أية امرأة سواها ؛ فإذا فعلت فقد يرى المنعم المتفضل أن تغادر روحى هذه الأرض لتتملى بمجد سيدتها ، أعنى مجد بياتريس السعيدة التى لا تنفك الآن تتطلع إلى وجه الله العلى القدير .

وهكذا ، أخذ كما يقول فى ختام كتابه الصغير يتطلع إلى وضع كتاب أكبر منه وأعظم ، « وأخذت مقطوعاتى تتابع بلا انقطاع من أول يوم رأيت فيه وجهها فى هذه الحياة ، حتى رأيت هذه الرؤى » التى يختتم بها أقواله فى الجنة[١٨] . وقلما عرفنا إنسانا رسم طريقاً واضح المنهج ، ولم يحد عنه مهما صادفه من صروف الدهر وطوارق الحدثان .

الفصل الثالث

الشاعر فى غمار السياسة

بيد أنه حاد فى بعض الأحيان عن صراطه المستقيم . فقد تورط دانتى بعد موت بياتريس بوقت ما فى حب خفيف بعد حب خفيف — أحبه « پيترا Pietra » ، « وبرجلتا Paragoletta » و « لبزتا Lisetta » وغيرهن من الأباطيل التى لم ينتفع بهن إلا زمناً قصيراً »[١٩] وقد وجه إلى سيدة واحدة — يسميها السيدة الظريفة قصائد غزلية — أقل روحانية من قصائده إلى بياتريس . ثم تزوج فى عام ١٢٩١ وهو فى السادسة والعشرين من عمره جمادوناتى Gemma Donati ، وهى فتاة من سلالة أقدم الأسر الشريفة فى فلورنس . وأنجبت له فى عشر سنين عدة أبناء يقدرهم البعض بثلاثة ، والبعض باربعة ، والبعض الآخر بسبعة[٢٠] . ويبلغ من إخلاصه لدستور شعراء الفروسية الغزلين أنه لم يذكر قط زوجته أو أبناءه فى شعره ، ولو فعل لكان هذا عملا غير لائق به ، لأن الزواج والحب الروائى ضدان لا يجتمعان .

ثم ألقى بنفسه فى بحر السياسة ،ولعل الذى ساعده على هذا هو كفلكانتى ؛ وانضم لأسباب لا نعرفها إلى حزب « البيض Bianchi وهو حزب الطبقة المتوسطة العليا . وما شك فى أنه كان ذا مواهب سياسية ، لأنه اختير فى عام ١٣٠٠ لا بعد عضواً فى المجلس البلدى ؛ وحدث فى أثناء اضطلاعه بهذا العبء القصير الأجل أن حاول السود Neir يقودهم كورسو دوناتى Corso Donati أن يحدثوا انقلاباً سياسياً مفاجئاً يعيدون به الأشراف الأقدمين إلى الحكم . ولكن المقدمين — أعضاء المجلس البلدى — قمعوا الفتنة وسعوا

. وافقة دانتي لنشر لواء السلام في المدينة بنفي زعماء الحزبين — ومنهم دوناتي — صهر دانتي ، وكفلكانتي صديقه . لكن دوناتي غزا فلورنس في عام ١٣٠١ بعصبة من السود المسلحين ، وخلع المقدمين ، واستولى على زمام الحكم ؛ ثم حوكم دانتي وخمسة عشر من المواطنين في أوائل عام ١٣٠٢ وأدينوا بعدة جرائم سياسية ، ونفوا من البلدة ، وحكم عليهم بأن يقتلوا حرقاً إذا عادوا إلى فلورنس مرة أخرى . ففر دانتي ولكنه ترك أسرته في المدينة لأنه كان يأمل في العودة إليها بعد قليل . واضطره هذا النفي وما صحبه من مصادرة أمواله إلى أن يقضي تسعة عشرة عاماً في فقر مدقع وتجوال البلاد ، ملأ قلبه غلا وحقداً ، وكانا من أسباب مزاجه النكد الذي يسود موضوع *الملهاة الإلهية* . أما شركاؤه في النفي فقد أقنعوا مدائن أرزُّو ، وبولونيا ، وپستويا بأن تسيِّر على فلورنس جيشاً مؤلفاً من ١٠٫٠٠٠ مقاتل ليعيدهم إلى السلطة أو في القليل يردهم إلى أوطانهم (١٣٠٤)، وقد فعلوا هذا على الرغم من نصيحة دانتي لهم ألا يقدموا على هذا العمل . وأخفقت هذه المحاولة ، واختط دانتي لنفسه من ذلك الوقت خطة خاصة ، وعاش مع أصدقائه في أرزو ، وبولونيا ، وپدوا .

وكانت السنون العشر الأولى من نفيه هي التي جمع فيها بعض القصائد التي كتبها إلى *السيدة الظريفة* ، وأضاف إليها تعليقات نثرية استحالت بها هذه السيدة إلى *السيدة الفلسفة* . ويحدثنا دانتي في قصيدة *المائدة* (Conviuio) (حوالي عام ١٣٠٨) كيف ولى وجهه ، بعد خيبته في الحب وفي الحياة ، نحو الفلسفة ليخفف بها من آلامه ؛ وكيف وجد في هذه الدراسة المغرية إلهاماً مقدساً ، وكيف اعتزم أن يشرك فيما كشفه من إلهام من لا يستطيعون قراءة اللغة اللاتينية بأن يكتب لهم بالإيطالية . ويبدو أنه كان يفكر في كتابة موجز أو كنز جديد يدعي فيه أن كل جزء من أجزائه تعليق على إحدى قصائده

عن السيدة الجميلة . وتلك بلا ريب خطة عجيبة أراد بها أن يستعيض عن الحب الشهوانى بالحب المجدب . والكتاب الصغير خليط مهوش من العلوم الغامضة العجيبة ، والاستعارات المتكلفة ، وشذرات فلسفية مستمدة من بؤيثيوس وشيشرون . ويحق لنا أن نشيد بعبقرية دانتى التى حملته على أن يتخلى عن إتمام هذا الكتاب ، ويراه عملا خاسراً كل الخسران ، بعد أن كتب ثلاثة من الشروح الأربعة عشر التى كان يعتزم كتابتها .

وشرع وقتئذ فى ذلك العمل المتواضع ألا وهو إعادة حكم أباطرة الدولة الرومانية المقدسة فى إيطاليا ؛ ذلك أن تجاربه قد أقنعته بأن منشأ ما فى المدن الإيطالية من فوضى وعنف هو فهمها الخاطئ المجزأ للحرية — فقد كان كل إقليم ، وكل مدينة ، وكل طبقة ، وكل فرد ، وكل ذى شهوة ، يطالب بالحرية الفوضوية . وكان هو يتوق إلى ما تاق إليه مكيفلى بعد مائتى عام من ذلك الوقت ، إلى قوة تنسق جهود الأفراد ، والطبقات ، والمدن فتجعل منها كلا منظما يستطيع الناس فى داخله أن يعملوا ويعيشوا فى سلم وأمان . وكان يرى أن هذه السلطة الموحدة إما أن تأتى من البابا أو من رئيس الدولة الرومانية الشرقية ، التى كان شمالى إيطاليا من زمن بعيد يخضع لها من الوجهة النظرية . غير أن دانتى كان قد نفى من زمن قصير بأمر حزب متحالف مع البابوية ؛ وتقول إحدى الروايات غير المؤكدة إنه اشترك فى بعثة سياسية غير موفقة أرسلت من فلورنس إلى بنيفاس الثامن ، وقد ظل البابوات زمناً طويلا يعارضون فى توحيد إيطاليا لأن هذا يعرض للخطر حريتهم الروحية وسلطتهم الزمنية . ولهذا بدا أن الأمل الوحيد فى عودة النظام إلى البلاد هو إعادة السلطة الإمبراطورية ، بالرجوع إلى **السلم الرومانية** التى بسطت لواءها رومة القديمة

وفى هذه الظروف كتب دانتى فى تاريخ غير معروف رسالته المثيرة **فى الملكية المطلقة** De monarchia ، كتبها باللغة اللاتينية ، وكانت لا تزال لغة

الفلسفة ؛ وقال إنه لما كان عمل الإنسان الذى يليق به هو النشاط الذهنى ، ولما كان عاجزاً عن ممارسة هذا النشاط إلا فى السلم ، فإن الحكم المثالى هو إقامة دولة عالمية تقر السلام الدائم وتبسط العدالة على جميع سكان الأرض . فإذا قامت هذه الدولة كانت الصورة الصحيحة المطابقة للنظام السماوى الذى وضعه الله فى الكون . وكانت روما الإمبراطورية أقرب الدول إلى هذه الدولة العالمية ، ولقد أظهر الله رضاءه عن هذه الدولة إذ اختار أن يكون إنساناً فى عهد أغسطس ، وإذ أمر المسيح نفسه الناس بأن يخضعوا لسلطان القياصرة السياسى . ولم يكن سلطان الإمبراطورية القديمة مستمداً بطبيعة الحال من الكنيسة المسيحية ، غير أن الدولة الرومانية المقدسة لم تكن إلا هذه الدولة القديمة عادت إلى الوجود . نعم إن البابا هو الذى توج شارلمان إمبراطوراً ؛ ولاح بهذا أن الإمبراطورية قد خضعت للبابوية ؛ ولكن « اغتصاب حق لا يخلق هذا الحق ؛ ولو أنه خلقه لدلت هذه الطريقة عينها على خضوع السلطة الكنسية للدولة المدنية بعد أن أعاد الإمبراطور أتو Otto البابا ليو Leo وخلع بنيفاس »[٢١] .

ولقد كان كتاب **الملكية المطلقة** دفاعاً قوياً عن قيام « عالم واحد » ، ذا حكومة واحدة ، وشرائع واحدة رغم ما فى هذا الكتاب من جدل مدرسى لم يعد يتمشى مع طرائق التفكير السائدة فى ذلك الوقت . ولم يكن مخطوط الكتاب معروفاً فى أثناء حياة مؤلفه إلا لعدد قليل من الناس ولكنه انتشر بعد وفاته ، واتخذه لويس الباڤارى Louis of Bavaria عدو البابوية وسيلة للدعاوة ، ثم أحرق الكتاب علناً بناء على مرسوم بابوى صدر فى عام ١٣٢٩ ، وأدرج فى القرن السادس عشر فى الثبت البابوى المحتوى أسماء الكتب المحرمة ، ثم رفعه من هذا الثبت ليو الثالث عشر فى عام ١٨٩٧ .

ويقول بوكاشيو إن دانتى ألف كتاب الملكية « حين جاء هنرى السادس » ذلك أن ملك ألمانيا غزا إيطاليا فى عام ١٣١٠ راجياً أن يبسط على شبه الجزيرة

كلها ، عدا الولايات البابوية ، الحكم الإمبراطورى الذى انقضى عهده بموت فردريك الثانى . ورحب به دانتى وجاشت فى صدره آمال كبار ؛ وأهاب بمدن لمبارديا ، فى « رسالة موجهة إلى أمراء إيطاليا وشعوبها » أن تفتح قلوبها وأبوابها إلى « القادم » اللكسمبرجى الذى سينجيها من الفوضى والبلبوات . ولما وصل هنرى إلى ميلان هرع دانتى إليها وألقى بنفسه وهو فى نشوة الحماسة عند قدمى الإمبراطور ، وخيل إليه أن كل ما كانت تصوره له أحلامه من قيام إيطاليا الموحدة يوشك أن يتحقق . لكن فلورنس لم تستجب لنداء الشاعر ، وأوصدت أبوابها فى وجه هنرى ؛ ووجه دانتى وهو فى سورة الغضب رسالة « إلى الفلورنسيين أشد الناس إجراماً Scelestissimis Florentinis (مارس ١٣١١) قال فيها :

ألا تعرفون أن الله قد أمر أن يخضع بنو الإنسان كلهم لحكم عاهل واحد ليدافع عن العدالة ، والسلم ، والحضارة ؟ وأن إيطاليا كانت على الدوام فريسة للحرب الأهلية كلما زال عنها سلطان الإمبراطورية ؟ يا من تعتدون على القوانين البشرية والإلهية ، ويا من يدفعكم النهم الرهيب إلى ارتكاب كل جريمة مهما بلغت من الشناعة — ألم تروعكم رهبة الميتة الثانية فخرجتم على مجد الأمير الرومانى ، ملك الأرض ومبعوث الله ؟ . . . يا أحمق الناس وأبلدهم إحساساً ! سوف تخضعون صاغرين إلى النسر الإمبراطورى ![٢٤] .

وساء دانتى وملأ قلبه هلعاً أن هنرى ترك فلورنس وشأنها ؛ ولهذا كتب الشاعر إلى الإمبراطور فى شهر إبريل كما كتب نبى من أنبياء بنى إسرائيل يحذر الملوك فقال :

لسنا ندرى أى خمول يقعدك عن العمل هذا الزمن الطويل ...إنك تضيع الربيع كما تضيع الشتاء فى ميلان ... (لعلك لا تعرف) أن فلورنس مصدر الشر المستطير ... وأنها هى الأفعى ... التى تنفث من أنفاسها الفاسدة الدخان الموبوء الذى يقضى على القطعان المجاورة لها... هُبَّ إذن يا ابن يسَّى Jesse النبيل ![٢٥]

وكان رد فلورنس أن أعلنت نفى دانتى ، وحرمانه أبد الدهر من كل عفو يصدر عن الخائنين . وترك هنرى فلورنس دون أن يمسها بسوء ، وانتقل عن طريق جنوى وبيزا إلى رومة حيث توفى (١٣١٣) .

وكان موته من أشد الفواجع التى حلت بدانتى ؛ ذلك أنه قد قامر بكل شىء على انتصار هنرى ، وحرق من ورائه كل الجسور الفلورنسية ولم ير أمامه إلا أن يفر إلى جبيو Gibbio وبلجأ إلى دير الصليب المقدس (سانتا كروس Santa Croce) . ويبدو أنه كتب فى هذا الدير جزءاً كبيراً من الملهاة المقدسة (٢٦) . غير أنه لم يكن قد شبع بعد من السياسة ، فقد كان فى أغلب الظن مع أجشيونى دلا فجيولو Uguccione della Fuggiulo فى لوكا Lucca عام ١٣١٦ ، وفى ذلك العام هزم فجيولو الفلورنسيين عند مونتى كاتنى Montecatini ؛ ثم استفاقت فلورنس من هذه الهزيمة وضمت ابنى دانتى إلى المحكوم عليهم بالإعدام — ولم ينفذ هذا الحكم قط . وخرجت لوكا على أجشيونى وألقى دانتى نفسه مرة أخرى بلا وطن . ورأت فلورنس فى نشوة النصر أن تكون كريمة ، وأن تنسى أحكامها الأبدية ، فعرضت أن تعفو عن جميع المنفيين وتؤمنهم على حياتهم إذا عادوا إليها ، على شرط أن يؤدوا لها غرامة مالية ، وأن يسيروا فى شوارع المدينة فى أثواب الندم ، وأن يزج بهم فى السجن وقتاً قصيراً . وتطوع أحد أصدقاء دانتى بإبلاغه هذا القرار ، فرد عليه برسالة ذائعة الصيت قال فيها :

إلى صديق فلورنسى : تلقيت رسالتك بما يليق بها من الإجلال والحب ، وأدركت منها بقلب مفعم بالشكر ... أن عودتى إلى بلدى عزيزة على نفسك . ولكن انظر إلى ما هو مفروض علىّ ... ذلك أننى إذا ما قبلت أن أؤدى قدراً من المال وأن أتحمل وصمة السجن ، فيسيعفى عنى فأستطيع العودة من فورى .

فهل هذه إذن هى الدعوة الكريمة التى توجه إلى دانتى الجيرى ليعود إلى

بلده بعد أن صبر على النفى ما يقرب من خمسة عشر عاماً ؟ . . . إن رجلا ينادى بالعدالة لا يطيق أن يؤدى ما له إلى من يرتكبون المظالم ، كأنهم يحسنون إليه . ألا إن هذه ليست الطريقة التى أعود بها إلى بلدى . . . فإذا كان ثمة طريقة أخرى . . . لا تزرى بكرامة دانتى . . . فإنى لن أتوانى قط عن اتباعها ؛ أما إذا لم يكن دخول فلورنس مستطاعاً بهذه الطريقة الأخرى ، فإنى لن أدخلها أبداً . . . ما هذا الذى تقول ! أليس وسعى أن أستمتع بنور الشمس وجمال النجوم فى كل مكان على ظهر الأرض ؟ أليس فى مقدورى أن أفكر فى أعظم الحقائق شاناً تحت كل سماء ؟[٢٧]

وأغلب الظن أنه قبل فى أواخر عام ١٣١٦ دعوة وجهها إليه كان جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala ، حاكم فيرونا لأن يجىء إليه ويعيش فى ضيافته . ويبدو أنه أتم فى هذه البلدة قسم الجنة فى الملهاة المقدسة (١٣١٨) — وفيها بلا ريب أهدى هذا القسم إلى كان جراندى . وفى وسعنا أن نصوره فى تلك الفترة من حياته — أى فى الحادية والخمسين من عمره — كما صوره بوكاشيو فى الحياة الجديدة عام ١٣٥٤ ؛ نصوره رجلا متوسط القامة « منحنى الظهر قليلا » يسير بخطى وقورة متزنة تنم عن المهابة والانقباض ، ذا شعر أسود وبشرة سمراء ، ووجه طويل ينم عن كثرة التفكير ، وجبهة بارزة مغضنة ، وعينين غائرتين ذواتى نظرات صامتة ، وأنف رفيع أقنى ، وشفتين منطبقتين ، وذقن بارز[٢٨] . ذلك وجه روح كانت من قبل وادعة ظريفة ، ولكن الآلام جعلتها نكدة مريرة ؛ وليس من السهل على دانتى صاحب الوصف الوارد فى الحياة الجديدة أن يتصنع كل ما وصفه به هذا الكتاب من شفقة ورقة عاطفة ؛ وإن شيئاً من هذه الصفات ليظهر فيما بدا عليه من حنان وهو يستمع إلى قصة فرانسسكا . وكان عبوساً صارماً شأن الرجل المغلوب على أمره المنفى من بلده ، وقد أكسبته الشدائد حدة فى اللسان ، وغطرسة يغطى بها ما فقده من قوة وسلطان .

فكان يفخر بنسبه لأنه كان فقيراً ، ويحتقر رجال الطبقة الوسطى من أهل فلورنس الذين يجرون وراء المال ؛ ولم يكن فى وسعه أن يغفر لبرتنارى زواج بياتريس من مصرفى ؛ وسلك طريق الانتقام الوحيدة التى وجدها أمامه فوضع المرابين فى الدرك الأسفل من النار . ولم يكن ينسى قط أذى أو إهانة ، وما أقل من سلم من أعدائه من سموم قلمه . وكان يرى أن الذين يبقون على الحياد فى الثورات أو الحروب أقل نفعاً فى نظره منهم فى نظر سولون . وكان منبع صفاته الخلقية كلها هو الشدة الملتهبة : « لم أكن ما أنا بفضل ثرائى بل بفضل الله علىّ ، وإن غيرتى على بيته لتشعل النار فى قلبى »[٢٩] .

وقد أفرغ فى قصيدته كل ما وهبه الله من قوة ، ولم يكن يستطيع أن يعيش بعد تمامها زمناً طويلا . ففى عام ١٣١٩ غادر ڤيرونا وسافر إلى راڤنا ليعيش فيها مع الكونت جيدو دا پولنتا Count Guido da Polenta ، ثم تلقى دعوة من بولونيا للقدوم إليها لكى يتوج فيها شاعراً لبلاطها ، ورفض الدعوة بأنشودة رعوية كتبها باللغة اللاتينية . وفى عام ١٣٢١ أرسله جيدو إلى مدينة البندقية فى بعثة سياسية كان نصيبها الإخفاق ، وعاد دانتى من هذه البعثة مريضاً بحمى أصابته من مستنقعات ڤينيتو Veneto . ولم يستطع جسمه الضعيف مقاومة المرض ، فقضى عليه فى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وهو فى السابعة والخمسين من عمره . واعتزم الكونت أن يقيم شاهداً على قبر الشاعر ، ولكن شيئاً من هذا لم يتم ، أما النقش القليل البروز القائم فوق التابوت الرخامى فى هذه الأيام فقد نحته پيترو لمباردو عام ١٤٨٣ ، والعالم كله يعرف أن بيرون جاء إليه وبكى ، والقبر فى هذه الأيام لا يكاد يبدو للناظر ، يجده الإنسان فى أحد الأركان وهو قادم من أكثر ميادين راڤنا ازدحاماً بالأعمال ، وإذا ما قدمت إلى حارسه المقعد الطاعن فى السن بضع لبرات أنشدك بعض قطع جميلة طنانة من القصيدة التى يمتدحها الناس جميعاً ولا يقرؤها منهم إلا القليلون .

الفصل الرابع

الملهاة المقدســة

١ — القصيدة

يقول بوكاشيو إن دانتى بدأها بالشعر اللاتينى السداسى الأوتاد — (ذى الستة التفاعيل) — ولكنه استبدل به اللغة الإيطالية ، لكى تصل قصيدته إلى عدد أكبر من القراء . ولعله تأثر فى اختياره بقوة عاطفته ؛ فقد بدا له أن التعبير عن الانفعال باللغة الإيطالية أيسر منه باللغة اللاتينية التى طال ارتباطها بالحياة المدنية والقيود القديمة . وكان فى شبابه قد قصر اللغة الإيطالية على شعر الحب ؛ أما الآن وقد جعل موضوعه أسمى فلسفة ، وهى افتداء البشرية عن طريق الحب ، فقد خطر بباله أن يقدم على التحدث بلغة بلاده . وكان فى وقت ماض غير معروف قد بدأ مقالا لاتينياً لم يتمه سماه **فى فصاحة اللغة الشعبية** De vulgari eloquentia ، أراد به أن يغرى الطبقة المتعلمة بالتوسع فى استخدام اللغة القومية . وقد امتدح فيه جزالة اللغة اللاتينية وإحكامها ، ولكنه عبر عن أمله فى أن تسمو اللغة الإيطالية فوق لهجاتها العامية بفضل أشعار دولة فردريك ، **والأسلوب الجديد** الذى ابتدعه شعراء التسكان واللمبارد القصاصون ، فتصبح (كما ورد فى **المأدبة** « غاصة بأروع التعابير وأجملها »)[٣٠] . ولم يكن دانتى نفسه — الذى نعلم عن كبريائه ما نعلم — يتصور أن ملحمته ستجعل اللغة الإيطالية صالحة للتعبير عن أى غرض من الأغراض الأدبية ، وأنها لن تكتفى بهذا بل ستسمو بهذه اللغة إلى درجة من العذوبة والرقة قلما عرف لها العالم مثيلا .

ولم يبذل فى إعداد قصيدة ما من الجهد مثل مابذل دانتى فى إعداد قصيدته .

وكانت نزعة إلى التثليث — تعبر عن الثالوث الدينى المقدس — وتنم عن ضعف الشاعر هى التى عينت شكل القصيدة فجعلتها مؤلفة من ثلاثة « أناشيد » ، فى كل نشيد ثلاث وثلاثون أغنية ، تقابل سنى حياة المسيح على هذه الأرض ، تضاف إليها أغنية أخرى فى النشيد الأول فتكون عدتها مائة كاملة . واعتزم أن يكتب كل أغنية فى مجموعات كل منها ثلاث أبيات ، يتفق البيت الثانى من كل مجموعة فى قافيته مع البيتين الأول والثالث من المجموعة التى بعدها . وليس ثمة ما هو أكثر تكلفاً من هذا ، ولكن ما من فن يخلو من التكلف ، وخير ما يمكن أن يصنعه الفنان أن يخفى تكلفه ؛ وهذه القافية الثلاثية terza rima تربط كل أغنية بالتى تليها ، وتؤلف منها كلها أغنية واحدة متصلة ، تنساب فى لغتها الأصلية انسياباً سهلا على اللسان ، ولكنها إذا ترجمت تعثرت وبدت كليلة . ولقد نجد دانتى مقدماً بكل ترجمة لقصيدته ، فما من شىء يسرى فيه توافق الاتصال الموسيقى يمكن أن ينقل من لغته الأصلية إلى لغة أخرى دون أن يفقد حلاوته وتوافقه(٣١)(*) .

وكما أن أبيات القصيدة هى التى عينت صورتها ، فإن الاستعارات هى التى عينت قصتها ، وقد شرح دانتى فى الرسالة التى أهدى بها القصيدة إلى كان جراندى(٣٢) ما تنطوى عليه أناشيده من رموز ، ولنا أن نظن أن شرحه هذا فكرة متأخرة لا حت لشاعر كان يريد أن يكون فيلسوفاً ، ولكن انهماك العصور الوسطى فى الرمزية ، وما كان فى الكنائس الكبرى من تماثيل رمزية ، ومظلمات جيتو وجادى Gaddy ورفائيل ، وكلها رمزية ، وتسامى دانتى الرمزى فى **الحياة الجديدة والمائدة** ، كل هذا يوحى بأن الشاعر كان يفكر فى النقط الرئيسية لمشروعه الذى وصفه وصفاً مفصلا قد يكون خيالياً . ويتوق دانتى إن

(*) ومن واجبنا أن نستثنى من هذا ترجمة دانتى جبريل روزتى للحياة الجديدة ومن جاءوا قبل دانتى .

القصيدة تتبع « جنس » الفلسفة ، وإن موضوعها هو الأخلاق . وهو يفعل ما يفعله عالم الدين الذى يفسر الكتاب المقدس فيجعل لكلماته ثلاثة معان : الحرفى ، والمجازى ، والصوفى .

« وموضوع هذه القصيدة حسب معانيها الحرفية . . . هو حال الأرواح بعد الموت . . . أما إذا نظرنا إليها نظرة مجازية فإن موضوعها هو الإنسان من حيث تعرضه للثواب والعقاب العادلين اللذين يستحقهما بسبب أعماله الطيبة أو الخبيثة . . والغرض المقصود منها فى مجموعها وأجزائها هو انتشال من يحيون هذه الحياة مما يعانونه من شقاء ، وإرشادهم إلى طريق السعادة » .

وإذا عبرنا عن هذه المعانى بطريقة أخرى قلنا إن الجحيم Inferno هى مرور الإنسان بالخطيئة ، والعذاب ، واليأس ؛ وإن المطهر هو تطهيره عن طريق الإيمان ؛ والفردوس هو نجاته عن طريق الوحى الإلهى والحب غير الأنانى . ويمثل ڤرچيل ، الذى يقود دانتى خلال الجحيم والمطهر ، المعرفة ، والعقل ، والحكمة . وهى التى تستطيع أن تقودنا إلى أبواب السعادة ؛ والإيمان ، والحب (بيتريس) وحدهما هما اللذان يدخلاننا فيها . وكان النفى فى ملحمة حياة دانتى هو جحيمه ، كما كانت دراساته وكتاباته هى مطهرة ، وكانت آماله وحبه هما نجاته وسعادته اللتين لم تكن له غيرهما نجاة أو سعادة . ولعل اتخاذ دانتى رمزيته فى الفردوس مأخذ الجد الشديد هو الذى يجعل هذا النشيد أكثر أناشيده استعصاء على الفهم ؛ ذلك بأن بيتريس التى كانت فى *الحياة الجديدة* رؤيى سماوية تصبح فى تصويره السماء تجريداً ذا أبهة وفخامة — ومثل هذه الجمال البرىء غير خليق بهذا المصير . ويشرح دانتى لكان جراندى فى آخر الرسالة سبب تسميته ملحمته ملهاة Commedia(*) — فيقول إن القصة انتقلت من الشقاء إلى السعادة ، و « إنها

(*) وقد أضاف إليها المعجبون بها صفة Divrina المقدسة فى القرن السابع عشر .

كتبت بأسلوب مهلهل وضيع ، باللغة العامية التى تتحدث بها ربات المنازل أنفسهن »(٣٢) .

وكانت هذه الملهاة الأليمة وهى « الكتاب الذى هزل فيه جسدى هذه السنين الطوال » شغله وسلوته فى منفاه ، ولم يفرغ منها إلا قبل موته بثلاث سنين . وقد لخص فيها حياته ، وتعليمه ، وآراءه الدينية ، وفلسفته ؛ ولو أنها احتوت فضلا عن هذا ما كان فى العصور الوسطى من فكاهة ، ورقة ، وشهوانية عارمة لجاز أن تكون من المؤلفات « الجامعة فى العصور الوسطى » . ذلك أن دانتى قد حشر فى هذه المائة من الأناشيد الموجزة كل ما أخذه من العلم عن برونتولاتينى ، ولعله حشر فيها أيضاً ما تعلمه فى بولونيا — حشر فيها كل ما كان هناك من فلك وعلم الكون ، وطبقات الأرض ، والتوقيت فى عصر تمنعه المشاغل من أن يكون عصر علم . ولم يكن يؤمن بالقوى الخفية ، وبالنتائج المحتومة التى يستقيها من التنجيم فحسب ، بل كان يؤمن فوق ذلك بجميع الأساطير المعماة الملغزة التى كانت تعزو معانى وقوة خفية للأعداد ولحروف الهجاء . فكان يقول مثلا إن العدد ٩ يميز بياتريس من غيرها لأن جزره التكعيبى هو ٣ الذى جعله الثالوث رقماً مقدساً . وفى الجحيم تسع دوائر ، وتسع طبقات فى المطهر ، وتسع طبقات كرية فى الفردوس . ويستمد دانتى فى رهبة واعتراف بالجميل قسطاً كبيراً من فلسفة تومس أكوناس وعلومه الدينية ، ولكنه لا يسير وراءه سيراً دقيقاً ولا يراعى الأمانة فى النقل عنه . وما من شك فى أن القديس تومس لم يكن يرتاح إلى الحجج الواردة فى كتاب الملكية أو إلى رؤية البابوات فى الجحيم ، وإن تصوير دانتى لله بأنه نور وحب « الحب الذى يحرك الشمس وسائر النجوم »(٣٣) لهو قول أرسطو انتقل إليه عن طريق الفلسفة العربية . وكان يعرف الشىء القليل عن الفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ؛ وابن رشد ؛ ويضع ابن رشد فى المحيط الخارجى للجحيم ، ولكنه يهز مشاعر المتدينين بوضعه

سيجر البرابنتى Siger de Brabant معتنق مذهب ابن رشد فى الفردوس[٣٦] . وفضلا عن هذا فهو ينطق توموس بالثناء على الرجل الذى أثار ثائرة هذا العالم الدينى الذى يكاد يصل إلى مرتبة الملائكة . غير أنه يبدو أن سيجر أنكر عقيدة الخلود الفردى الذى هو دعامة قصيدة دانتى ؛ ولهذا فإما أن يكون التاريخ قد تغالى فى وصف سيجر بالزيغ والضلال أو فى وصف دانتى بالاستمساك بالدين .

وتؤكد الدراسات الحديثة ما استمده دانتى من المصادر الشرقية وبخاصة المصادر الإسلامية كقصة أردا ڤيراف التى تصف الصعود إلى السماء ، ووصف الجحيم الوارد فى القرآن ، وقصة المعراج ، ووصف الجنة والنار فى **رسالة الغفران** لأبى العلاء المعرى ؛ وفتوحات ابن عربى . . . ففى رسالة الغفران يصور المعرى إبليس يعذب فى الجحيم وهو مقيد بالأغلال ، كما يصور الشعراء المسيحيين وغيرهم من « الكفرة » يعذبون فيها . وتستقبل صاحب القصة عند باب الجنة واحدة من الحور العين ، اختيرت لترشده[٣٨] .

وقد رسم ابن عربى فى **الفتوحات** الحياة الآخرة رسماً دقيقاً ، ووصف الجنة والنار بأنها فوق البيت المقدس وتحتها مباشرة ، وقسم النار والجنة إلى سبع طبقات ، وصور مكان الملائكة المسبحين حول النور القدسى — وصف ذلك كله كما ورد فى **الملهاة المقدسة** لا يفترق عنه فى شىء[٣٩] (ونقول هنا استطراداً إن ابن عربى كتب قصائد فى الحب يفسرها المفسرون تفسيراً مجازياً دينياً) ، ومبلغ علمنا أن شيئاً من هذه الكتابات العربية لم يكن قد ترجم من قبل زمان دانتى إلى أية لغة يستطيع قراءتها .

وقد وردت فى الآداب الدينية اليهودية والمسيحية غير المعترف بها أوصاف لرحلات أو رؤى فى الجنة والنار ؛ ولا حاجة بنا إلى ذكر ما ورد فى وصفهما فى الكتاب السادس من **إنيادة** ڤرچيل : وتقول قصة أيرلندية إن القديس پاتريك زار المطهر والجحيم ، ورأى فيهما أثواباً وأحزمة من نار ، والمذنبين معلقين فيها من أرجلهم ، أو تلتهمهم الأفاعى أو يغطيهم الجليد[٤٠] . ووصف قس إنجليزى

قصاص يدعى آدم ده رس Adam de Ros فى قصيدة طويلة طواف القديس بولس فى النار يقوده الملاك ميخائيل ؛ وينطق ميخائيل يوصف مراتب العقاب التى توقع على درجات الذنوب المختلفة ، ويظهر بولس وهو يرتجف من هذه الأهوال كما يرتجف منها دانتى(٤١) . وتحدث قبل هذا يواقيم الفلورى Jaockim of Floraعن هبوطه إلى الجحيم وصعوده إلى السماء . وجملة القول أنه قد وجدت مئات من هذه الرؤى والقصص ؛ وأمام هذا الحشد الكبير من الأوصاف المروعة نرى أنه لم يكن دانتى بحاجة إلى أن يتخطى الحواجز اللغوية إلى الآداب الإسلامية لكى يجد فيها نماذج لوصف الجحيم . ولقد فعل دانتى ما يفعله كل فنان فمزج ما لديه من مادة وبدل فوضاها نظاماً ، ووضعها فوق النار بعد أن أضاف إليها خياله القوى وإخلاصه الملتهب . ولقد أخذ عناصر وصفه أنى وجدها — من تومس ، ومن شعراء الفروسية الغزلين ، ومن مواعظ بطرس دميان النارية وما ورد فيها من وصف لعذاب الجحيم ، ومن تفكيره الطويل فى بياتريس فى حياتها وبعد موتها ، ومن صراعه مع السياسيين والبابوات ، ومن العلوم القليلة التى اعترضت طريقه ؛ ومن اللاهوت المسيحى وما ورد فيه عن سقوط آدم ، وعن التجسد ، والخطيئة ، والغفران ، ويوم الحساب ؛ ومن الفكرة الأفلوطينية — الأوغسطينية عن مدارج صعود الروح حتى تتحد مع الله . ومن توكيد تومس أن الرؤى الطوباوية هى الهدف الأخير الذى يغتبط به الأبرار ؛ من هذا كله صاغ القصيدة التى وجدت فيها روح العصور الوسطى وما يحيط بها من رعب ، وأمل ، واغتراب صوتاً ، ورمزاً ، وصورة تعبر بها وتصورها .

٢ — الجحيم

« وجدت نفسى وأنا فى منتصف طريق حياتنا فى غابة مظلمة كانت الجادة فيها غير واضحة ومفقودة »(٤٢) . وبينما كان دانتى يجول فى هذه الظلمة إذ التقى

بڤرچيل « أستاذى ومرشدى الذى أخذت عنه وحده الأسلوب الجميل الذى شرفت به »(٤٣) . ويخبره ڤرچيل أن السبيل السليمة الوحيدة للخروج من الغابة هى اجتياز الجحيم المطهر ؛ فإذا ما صحبه دانتى فيهما فسيقوده إلى أبواب الفردوس ، « حيث يتولى إرشادك من هو أجدر منى وأكرم » . ويضيف إلى هذا فى صراحة أنه جاء ليقدم العون إلى الشاعر بأمر بياتريس. ويمران خلال فتحة فى سطح الأرض إلى أبواب الجحيم ، نقشت عليها هذه الألفاظ المريرة : « من خلالى يدخل الإنسان المدينة المحزنة ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان الآلام السرمدية ؛ ومن خلالى يدخل الإنسان بين الأجناس الضالة . لقد حركت العدالة خالقى الأعلى ؛ وصنعتنى القوة الإلهية هى والحكمة العليا والحب الأزلى . ولم يخلق قبلى سوى الأشياء الأزلية ، وأنا باقية أبد الدهر ؛ فتخلوا عن كل آمالكم يا من تدخلون هذه الدار ! » .

والجحيم فتحة تحت الأرض تمتد إلى مركزها . ويصورها دانتى بخيال قوى يكاد يبلغ الغاية فى الاكتئاب : فهى هاوية سحيقة مظلمة مرعبة ، بين صخور ضخمة قاتمة ؛ تتصاعد من منافذها الأبخرة والروائح الكريهة ، وتجتاحها السيول الجارفة ، وبها بحيرات ومجار ؛ وعواصف من المطر ، والثلج ، والبرد ؛ ومشاعل من لهب ؛ وتزمجر فيها الرياح والزمهرير الذى يجمد الدم والجسد ؛ وبها أجسام معذبة ، ووجوه كالحة مقطبة ؛ ويشقها صراخ وأنين يقف لهما الدم فى العروق . وفى أعلى مكان فى هذه الفتحة الجهنمية يقيم من لم يكونوا أخياراً أو أشراراً ، ومن وقفوا على الحياد بين الخير والشر . أولئك يعاقبون بآلام خسيسة ؛ تلسعهم الزنابير ، ويأكلهم الدود ، ويحرق قلوبهم الحسد والندم ، وهؤلاء يزدريهم دانتى الذى لم يقف على الحياد فى يوم من الأيام :

« الرحمة والعدالة تزدريانهم ، ونحن لانتحدث عنهم ، بل نلقى نظرة عليهم ونمر بهم » . ويصل الجائلان إلى نهر أكرون **Acheron** فى باطن الأرض ،

ويعبره بها كارون Charon الذى يعمل فى ذلك المكان من أيام هومر . فإذا عبراه وجد دانتى نفسه فى المحيط الخارجى للجحيم حيث يقيم الصالحون الذين لم يعمدوا ، ومنهم فرچيل وجميع الصالحين من عبدة الأوثان ، وجميع اليهود الصالحين إلا عدداً قليلا من أبطال العهد القديم الذين أطلقهم المسيح حين زار هذا المحيط الخارجى ورفعهم إلى السماء . وكل ما يعذب به هؤلاء هو رغبتهم الأبدية فى مصير خير من مصيرهم ، وعلمهم بأنهم لن ينالوا هذا المصير . وفى هذا الموضع من الجحيم شعراء وثنيون يعظمهم كل المقيمين فيه — هومر ؛ وهوراس ، وأوفد ، ولو كان ؛ وهؤلاء يرحبون بفرچيل ويحلون دانتى المكان السادس بينهم ، ثم يقول دانتى : وأنظر إلى أعلى « فأرى سيد العارفين يجلس بين أسرة الفلاسفة » أى أرسطو يحيط به سقراط ، وأفلاطون ، ودمقريطس ، وديچين ، وهرقليطس وأنكسغوراس ، وأنبادقليس ، وطاليس ، وزينون ، وشيشرون ، وسنكا : وإقليدس ، وبطليموس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا ، وابن رشد « الذى ألف الشرح العظيم »(٤٨) . وما من شك فى أنه لو كان دانتى مطلق الحرية فى رأيه لوضع فى الجنة هذه الفئة النبيلة كلها ، ومن بينها فلاسفة المسلمين المخالفين له فى الدين .

ثم يقوده فرچيل إلى الدائرة الثانية ، حيث تتقاذف الرياح العاتية الذين ارتكبوا خطايا جسدية شهوانية لا يستريحون منها أبداً . وهنا يشاهد دانتى پاريس ، وهلين ، وديدو ، وسميراميس ، وكليوبطرة ، وترستان ، وپاولو ، وفرانسسكا ؛ وقصة فرانسسكا كما يرونها دانتى تتلخص فى أن فرانسسكا داپولنتا الجميلة أريد لها أن تتزوج چيان‌سيتو مالاتستا Gianciotto Malateste الشجاع المشوه لتقضى بزواجها على نزاع قام بين أسرة پولنتا سادة راڤنا ، وأسرة مالاتستا سادة ريمينى . هذا هو الجزء المؤكد فى القصة ، أما بقيتها فغير مؤكدة . فهناك رواية يقبلها الكثيرون تقول إن پاولو Paolo الوسيم أخا چيان سيتو يدعى

أنه هو الخطيب ، وأن فرانسسكا تعاهده على أن تتزوج به ، ولكنها تجد في يوم العرس أنها تزف على الرغم منها إلى چيان سيتو . ثم لا يمضى إلا القليل من الوقت حتى تستمتع بحب پاولو ؛ ويقبض عليها چيان سيتو ويقتلها فى تلك اللحظة (حوالى ١٢٦٥) . وتُقص فرانسسكا دار يمينى قصتها وهى تتأرجح فى الريح خيالا بلا جسد إلى جانب روح حبيبها غير المجسد :

إن أشد ما يحزن الإنسان أن يذكر أيام الهناءة حين يقترب منه الشقاء .. كنا فى يوم من الأيام نتسلى بقراءة لانسلت ، وكيف استبد به الهوى . وكنا فى تلك الساعة وحدنا ولا يوجد بالقرب منا ما نرتاب فيه . وكثيراً ما كانت أعيننا تتبادل النظرات فى أثناء هذه القراءة ، وذهب اللون من خدودنا وتبدلت صورتها . ثم وقعت أعيننا على نقطة فى الكتاب واحدة ، وذلك حين وصلنا إلى تلك القبلة المشتهاة التى طبعها فى هيامه ونشوته فتى برح به الوجد . وفى تلك اللحظة طبع وهو يرتجف قبلة على شفتى ، طبعها ذلك المحب الذى لن يفارقنى قط . لقد كان الكتاب وكاتبه كلاهما مبعوثين من عند الحب . ولم نقرأ شيئاً فى صحفه بعد ذلك اليوم»[٤٧]

ويتملك الأسى دانتى حين يسمع هذه القصة فيغمى عليه ، ثم يفيق فيجد نفسه فى الدائرة الثالثة من الجحيم ، حيث يستقر من كان ذنبهم النَّهم فى حمأة تحت عاصفة دائمة من الثلج ، والبرد ، والمياه القذرة ، وحيث ينبح فى وجوههم سربيروس Cerberus ويمزقهم إرباً بأنيابه الثلاثية. ثم يهبط ڤرچيل ودانتى إلى الدائرة الرابعة ، حيث يقيم أفلوطس Plutus ، وهنا يلتقى المبذرون والبخلاء ويقتتلون ، ويلقى بعضهم على بعض أثقالا ضخمة فى حرب سيسفية Sisyphean (*)

(*) نسبة إلى سيسفس ملك كورنثية الذى حكم عليه أن يرفع إلى أعلى تل حجراً ضخماً ، وكلما رفع الحجر إلى أعلى التل تدحرج إلى أسفله ، وبهذا أصبح عمله هذا أبدياً لا ينقطع وهذا هو المعنى المقصود بهذا اللفظ فى المتن . (المترجم)

ويسير الشاعران بإزاء نهر استيكس Styx المظلم الذى يغلى ماؤه ، حتى يصلا إلى الدائرة الخامسة ، حيث يقيم من كان ذنبهم الغضب ملطخين بالأقذار ، يضربون أنفسهم ويمزقون أجسادهم . والذين كان ذنبهم الكسل والتراخى يغمرون فى ماء البحيرة الأستيجية Stygian الآسن ، وتعلو سطحها الطينى فقاعات من زفيرهم . وينقل فلجياس Phlegyas الجاثلين على سطح البحيرة حتى يصلا فى الدائرة الثالثة إلى مدينة ديس Dis ، أو الشيطان Lucifer حيث يشوى الملحدون فى قبور ملتهبة ، ثم يهبطان إلى الدائرة السابعة وهناك يريان من ارتكبوا جرائم العنف تحت رياسة المنوتور Minotaur (*) يكادون على الدوام يغرقون فى نهر من الدماء مضطرب صاخب ، ويرميهم القنطورون(**) بالسهام كلما علت رءوسهم فوق ماء النهر . ويريان فى قسم من هذه الدائرة المنتحرين ومنهم بيرودل فنى Piero delle Vigne ، وفى قسم آخر يريان من ارتكبوا جرائم العنف ضد الله ، أو الطبيعة ، أو الفن يقفون حفاة فوق رمال حامية ، وتسقط على رءوسهم كسف من النار . ويلتى دانتى بين السدوميين بمعلمه القديم برونتو لاتينى — وهو لا يليق بشخص كان هاديا لدانتى وصديقاً له وفيلسوفاً .

وتظهر عند طرف الدائرة الثامنة هولة مروعة تحمل الشاعرين وتنحدر بهما إلى هاوية المرابين ، وفى أحد أغوار هـــذه الهاوية يشاهدان طائفة عجيبة من الآلام السرمدية يعذب بها من يغوون النساء ، والمتملقون والمتجرون بالوظائف الدينية . وهؤلاء المتجرون يعلقون من أرجلهم فى حفر لا تظهر منها إلا سيقانهم ، ويلحس اللهب أقدامهم تدليلا لهم . ومن بين هؤلاء المتجرين البـــابا نقولاس الثالث (١٢٧٧ — ١٢٨٠) ؛ ويندد دانتى أشد التنديد بسىء أعمال هذا البابا وغيره

(*) مخلوق خرافى له رأس ثور وجسم إنسان . (المترجم)

(**) القنطور أو السنطر مخلوق وهمى نصفه إنسان والنصف الآخر فرس . (المترجم)

من البابوات ؛ ويصور نقولاس هذا صورة فذة جريئة فيقول إن البابا يحسب أن دانتى هو بنيفاس الثامن (المتوفى عام ١٣٠٣) وأن قدومه إلى الجحيم متوقع فى أية لحظة من اللحظات[٤٨] . ويتنبأ نقولاس بأن كلمنت الرابع (المتوفى عام ١٣١٤) سينضم إليهم بعد زمن قليل . وفى الخور الرابع من الدائرة الثامنة يقيم من يدعون معرفة الغيب ، ورءوس أولئك الأقوام مثبتة فى أعناقهم ومتجهة نحو ظهورهم . ويطل الشاعران من جسر « ماليبلج Malebolge » — فوق الخور الرابع فيريان من تحتهما مختلسى الأموال العامة يسبحون إلى أبد الدهر فى فى بحيرة من القار فى درجة الغليان . أما المنافقون فلا ينقطع مرورهم حول الخور السادس فى أردية من الرصاص مطلية بالذهب . ويشاهد فى الممر الوحيد الذى يخترق هذا الخور قيافى مصلوباً و لمى على الأرض بحيث لا يستطيع أحد اجتياز الطريق إلا إذا وطئ جسده . وفى الخور الرابع يعذب اللصوص بأفاع سامة ؛ وهنا يتعرف دانتى على عدد من الفلورنسيين ، ويشاهد من عقد قائم فوق الخور الثامن لهيباً يحرق جلود مشيرى السوء ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ؛ ويرى من بين هؤلاء أديسيوس المخادع . وفى الخور التاسع يستقر النمامون والعاملون على الانشقاق تنتزع أطرافهم طرفاً بعد طرف .

وفى الخور العاشر من الدائرة الثامنة يرقد المزورون ، المزيفون ، والكيميائيون الكاذبون ، يئنون من أوجاع مختلفة ، وتملأ الهواء من حولهم رائحة كريهة هى رائحة العرق والصديد ، وأنين المعذبين يملأ الهواء بأصوات كقصف الرعد .

وينتهى مطاف الشاعرين بالدائرة التاسعة وهى الدرك الأسفل من الجحيم ، ومن عجب أن توصف بأنها هوة واسعة من الجليد ؛ وفيها يدفن الخونة فى الجليد إلى أذقانهم ، وتتجمد دموع الألم فتصبح قناعاً متبلوراً فوق وجوههم . ومن بين هؤلاء يرى كونت أجولينو دلا غراردسكا Count Ugolino della Gherardesca الذى خان ينزاً مشدوداً أبد الدهر إلى رجيرى Ruggieri كبير الأساقفة : الذى

سجنه هو وأبناءه وأحفاده وتركهم كلهم يموتون جوعاً . والآن يستند رأس أجولينو على رأس كبير الأساقفة ، ويظل رجيبرى إلى الأبد يمضع رأس أجولينو . وفى مركز الأرض أى فى قاع فتحة الجحيم الآخذة فى الضيق يرقد الشيطان (لوسفر) الجبار مدفوناً فى الجليد إلى وسطه يرفرف بجناحين ضخمين مثبتين فى كتفيه ، ويذرف من وجوهه الثلاثة التى تقسم رأسه دموعاً من الدم المتجمد من شدة الزمهرير ، ويمضغ فى كل فك من فكوكه الثلاثة أحد هؤلاء الخونة : بروتس ، وكاسيوس ، ويهوذا Judas .

وقصارى القول أن نصف الأهوال التى كانت تزعج الأنفس فى العصور الوسطى قد جمعت فى هذه القصة الدموية . وكلما أمعن الإنسان فى قراءة صحفها الرهيبة ازداد رعباً على رعب حتى تطغى عليه نتيجة هذا الرعب آخر الأمر فلا يعود يطيقها . وإن ذنوب الإنسان وجرائمه فى هذا العالم وفى جميع عوالم الكون وسلامه لأقل من غضب الإله وانتقامه بالصور التى يتخيلها الشاعر . وإن فكرة دانتى عن الجحيم لهى منتهى ما وصل إليه لاهوت العصور الوسطى من فظاعة . لقد كان اليونان القدامى يصورون جحيما يسمونها Hades أو Avenrus تتلقى جميع الموتى من الآدميين . وكان مقرها مكاناً مظلماً تحت الأرض لا يمكن تمييز شىء فيه ، ولكنهم لم يصوروا هذه الجحيم بأنها مكان للتعذيب ؛ وكان لا بد من أن تمر قرون طوال من الهمجية ، والاضطراب ، والحروب قبـل أن يتقول الإنسان على خالقه فيعزو إليه صفتى الانتقام السرمدى والقسوة التى لا ينضب لها معين :

ويخفف من روعنا أن نعلم أن دانتى وفرجيل قد مرا من خلال مركز الأرض ، وأنهما قلبا اتجاه رأسيهما وأقدامهما ، وأنهما يتحركان إلى أعلى نحو الجهة المقابلة لبلادنا من الأرض : ويجتاز الشاعران قطر الأرض كله فى سرعة الأحلام

التى تهزأ بمر الزمان ، ويخرجان إلى النصف الجنوبى منها فى صباح يوم عيد الفصح ، ويشربان فى وضح النهار ، ويقفان عند أسفل الجبل المدرج وهو المطهر .

٣ — المطهر

إذا قيست فكرة المطهر بفكرة الجحيم بدت فكرة رحيمة ؛ ذلك أن فى مقدور الإنسان بجهده وألمه ، وأمله ورؤياه ، أن يطهر نفسه من الذنوب والأثرة ، ويرقى خطوة خطوة فى مدارج الإدراك ، والحب ، والنعيم . والمطهر ، كما يصوره دانتى ، مخروط جبلى مقسم إلى سبع طبقات : ما قبل المطهر وهو سبعة أسطح — واحد للتطهير من الذنوب المميتة — وفى أعلاه يقوم الفردوس الأرضى . وينتقل المذنب من كل طبقة إلى التى تليها وتقل آلامه كلما انتقل إلى طبقة أعلى من التى كان فيها ، وفى أثناء هذا الانتقال ينشد ملك إحدى التطويبات . وتوجد فى المراحل السفلى من المطهر سبع عقوبات للذنوب التى اعترف بها وغفرت ، ولكنها لم يكفر عنها بما يكفى ن العقاب . بيد أن هناك فارقاً عظيما بين المطهر والجحيم من هذه الناحية ؛ فى الجحيم يعرف الإنسان هذه الحقيقة المريرة وهى أن العذاب سرمدى ، ما المطهر ففيه تلك الحقيقة التى تبعث القوة فى النفس وهى أن السعادة سرمدية ستعقب العقاب الذى له أجل ينتهى عنده . ويسرى فى هذه لقطوعات مزاج أرق وضياء أبهى مما يسرى فى المقطوعات السابقة ، وتكشف ن دانتى يتعلم الرأفة من فرچيل مرشده الوثنى . ويغسل فرچيل بالدهن الندى ما غطى وجه دانتى من عرق الجحيم وأقذارها . وتتلألأ فى ضوء شمس المشرقة مياه البحر الذى يحيط بالجبل حين تهتز النفس التى كدرتها لذنوب طرباً وهى تستقبل الرحمة الإلهية . وهنا فى الطبقة الأولى يلتقى دانتى كاتو اليوتكى Cato of Utica ، الرواقى الصارم العنيد ، الذى آثر أن يقتل سه على أن يتلقى عذاب رحمة قيصر . وقد وضعه دانتى فى هذه الطبقة تحقيقاً

لأمل تومس أكوناس فى أن ينجو بعض عبدة الأوثان من الهلاك . وفى هذه الطبقة نفسها يقيم مانفرد بن فردريك الذى قاتل بابا من البابوات ولكنه أحب الشعر . ويسرع ڤرچيل بدانتى وهو يتلو عليه تلك الأبيات التى تجرى على كثير من ألسنة الناس .

« دع الناس يتكلموا ، وقف أنت كالبرج المتين الذى لا تهتز قمته وإن هبت عليه كل الرياح »[٥٠] . وليس المطهر بالمكان الذى يوائم ڤرچيل ، فهو لا يستطيع أن يجيب عن أسئلة دانتى بالسرعة التى تعود أن يجيب بها عن أسئلته فى الجحيم . وهو يحس بنقص ذكائه ، ويظهر أحياناً حنيناً يؤلمه ، غير أن ألمه هذا يزول حين يلتقى الشاعران بسردلو Sordello . ويحتضن الشاعران ابنا مانتو أحدهما الآخر ، يؤلف بين قلبيهما حبهما للبلدة التى قضيا فيها عهد الشباب . وفى هذه اللحظة ينطلق لسان دانتى بهذا الخطاب المؤلم يوجهه إلى بلده ، ويلخص فيه مقاله عن الحاجة إلى الحكومة الملكية :

أى إيطاليا المستعبدة ! يا موطن الأحزان ! ياسفينة بغير دليل فى مهب العاصفة الهوجاء ! يا سيدة انتزعت منها ولاياتها الجميـــلة ، ولم تعد إلا ماخوراً دنساً ! إن هذا الروح الرقيق قد حفزه الصوت الجميل الصادر من بلده العزيز أن يحيى رجلا من أهل وطنه مرحباً به مبتهجاً بلقائه . وفيك يقيم الأحياء من أبنائك يقتتلون ؛ يأكل الواحد منهم لحم أخيه من الغل والحقد ؛ نعم ما أشد الضغن الذى يملأ قلوب من يحيط بهم جدار واحد وخندق واحد . ألا أيها البائس الحزين طف بشواطئ بحارك ، ثم عد إلى نفسك فاسألها هل يستمتع جزء منك بالسلم الحلوة ؟ وماذا يفيدك إذا كان چستنيان قد [أحيا القانون الرومانى] من أجلك ، وهل ينفعك أن يصلح العنان إذا كان السرج [بغير ممتطيك] ؟ أيها الخلائق ، يا من يجب عليكم أن تظلوا مخلصين أوفياء ، أجلسوا قيصر فى السرج إذا شئتم أن تستجيبوا لأمر الله[٥١] ! »

وكأنما أراد دانتى أن يظهر شوقه إلى الملوك الذين يستطيعون القبض على الأعنة الثابتة ، فيصف لنا كيف يقوده سردلو هو وزميله إلى واد مشمس جميل عند سفح جبل المطهر منثورة عليه الأزهار ، ويفوح منه شذى عطرها الذكى ، ويقيم فيه الإمبراطور رودلف ، وأتوكار Ottokar ، ملك بوهيميا ، وبطرس الثالث ملك أرغونة ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفليب الثالث ملك فرنسا .

وتقود لوشيا (التى ترمز إلى ضوء رحمة الله) دانتى وفرجيل ، ويدخلهما أحد الملائكة إلى الشرفة الأولى من شرفات المطهر . وهنا يعاقب المتكبرون بأن يحمل كل منهم فوق ظهره المقوس حجراً ضخماً ، وترى على الجدار والطوار نقوش بارزة تصور أعمال التواضع الذائعة الصيت وما للكبرياء من نتائج رهيبة . وفى الشرفة الثانية يرى الحاسدون فى أثواب من الخيش الغليظ ، تخاط عيونهم باستمرار بخيوط من حديد ؛ وعلى السطح الثالث يستقر الغضب ، وعلى الرابع الكسل ، وعلى الخامس البخل ، ويلقى كل واحد منهم ما يستحقه من العقاب . ويرى على هذا السطح الأخير البابا هدريان الخامس ، الذى كان فى وقت ما حريصاً على الثروة ، يكفر عن ذنبه وهو هادئ هدوء الواثق من النجاة فى آخر الأمر . وفى إحدى الحوادث الباهرة التى تضىء ختام قصة المطهر يظهر الشاعر الرومانى استاتيوس Statius ويحيى الشاعرين الجائلين ويظهر من السرور بلقائهما ما يندر أن يظهره شاعر يلتقى بشاعر آخر على ظهر الأرض . ويصعد الشعراء الثلاثة جميعاً إلى السطح السادس حيث يطهر النهمون من نهمهم . وهناك تهتز الفاكهة الذكية الرائحة على الأشجار أمام أولئك النادمين ، فإذا امتدت أيديهم إليها لتقطفها استرجعت الأشجار فاكهتها ؛ وتسمع أصوات فى الهواء تردد ما فى التاريخ من أعمال القناعة . وعلى السطح السابع والأخير يستقر الذين كان جرمهم أنهم لم يستعففوا ؛ ولكنهم اعترفوا بذنبهم قبل الموت ، وهؤلاء يمسهم اللهب مساً خفيفاً ليطهرهم من ذنبهم . وهكذا يظهر دانتى أنه يعطف عطف الشعراء على

آثام الجسد ، وخاصة إذا ارتكبها ذوو المزاج الفنى ممن هم لهذا السبب رقيقو الإحساس ، واسعو الخيال ، مندفعون فى أعمالهم . ومن بين هؤلاء جيدو جوينزلى Guido Guinuzelli ؛ الذى يحبه دانتى ويسميه أباه فى الأدب ، ويشكر له « الأغانى الحلوة ، التى ستوحى إلينا ما بقيت لغتنا بأن نحب المداد الذى خطت به »[٥٢] .

ويقودهما أحد الملائكة خلال نار فى صعودهما الأخير إلى جنة الأرض ، وهنا يودع ڤرچيل صاحبه بقوله :

« إن علمى لا يصل إلى أبعد من هذا ، لقد سرت بك بحذق وفنى إلى هذا الحد ، فاتخذ الآن مسرتك دليلا لك . . . انظر ! تر الشمس التى تسطع أشعتها على جبهتك ؛ انظر ! تر الأعشاب والشجيرات والأزهار التى تخرجها هذه الأرض موفورة من تلقاء نفسها . وإلى أن تأتيك هاتان العينان الوضاءتان [عينا بياتريس] تشع منهما البهجة ، وهما اللتان جعلتانى ببكائهما أسرع إلى معونتك — أقول إلى أن تأتيك هاتان العينان فأنت مخير بين الجلوس هنا أو التجوال حيث تشاء . ولا تنتظر أن تسمع منى بعد الآن صوتاً أو إشارة تحذرك . وإذ كنت الآن حراً تختار لنفسك ما تشاء ، حصيفاً ، حكيما . . . فإنى أخلع عليك التاج والعمامة وأجعلك سيد نفسك »[٥٣] .

ويجوس الآن دانتى خلال الغابات والحقول ، وعلى ضفاف الأنهار فى جنة الأرض ومن ورائه — لا من أمامه — ڤرچيل واستاتيوس ، يستنشق هواءها النقى ذا الرائحة الذكية ، ويستمع من خلال الأشجار شدو الطيور تغنى القسم الأول من النشيد الكهنوتى . وتمتنع سيدة تجمع الأزهار عن الغناء لتشرح لم خلت هذه الأرض الجميلة من الناس ، فتقول إنها كانت فيما مضى جنة عدن ، ولكن الإنسان عصى ربه ، فأخرج هو وذريته من مباهجها البريئة . وتنزل بياتريس من السماء إلى هذه الجنة المفقودة يحيط بها لألاء يذهب سناه بالأبصار ،

فلا يستطيع دانتى أن يراها بعينه ، بل كل ما يقدر عليه أن يحس بوجودها :

« ومع أن عينى لم ترياها فقد سرت منها قوة فضلى خفية لم أكد أمسها حتى استبدت بى قوة الحب القديم »(٥٤) .

ويلتفت ليحدث الشاعر الذى يرشده ، ولكن ڤرچيل كان قد عاد إلى المحيط الخارجى للجحيم وهو الموضع الذى جاء به منه استجابة لنداء بياتريس . ويبكى دانتى ولكن بياتريس تأمره أن يندب بدل البكاء شهواته التى دنس بها بعد موتها صورتها التى فى قلبه . وتؤكد له أن أن تلك الغابة المظلمة التى أنجته منها على يد ڤرچيل لم تكن إلا حياة الدعارة التى ضل فيها فى منتصف عمره وأظلم أمامه بسببها الصراط المستقيم . ويقع دانتى على الأرض من فرط الخجل ، ويقر بذنوبه ، فتقبل عذارى سماويات ويشفعن له عند بياتريس التى أساء إليها بفعله ، ويرجونها أن تكشف له عن جمالها الثانى الروحى . وليس هــذا لأن بياتريس قد نسيت جمالها الأول :

« فأنت لم تر فى حياتك ، لا فى الفن ولا فى الطبيعة شيئاً يبلــغ من الحلاوة ما بلغته تلك الأعضاء التى كانت تلفنى داخل إطارها الجميل ، والتى تناثرت الآن هباء »(٥٥) :

ويرق قلبها ، وتكشف له عن جمالها السماوى الجديد ، ولكن العذارى يحذرن دانتى من النظر إليها مباشرة ، ويطلبن إليه أن يكتفى بالنظر إلى قدميها وتقوده بياتريس هو واستاتيوس (الذى أتم أجله فى المطهر بعد أن قضى فيه اثنى عشر قرناً) إلى نبع يخرج منه نهران — أحدهما ليثى Lethe (النسيان) والآخر يونونى Eunoë (الفهم الصالح) . ويشرب دانتى من يونونى فيتطهر ، وتتجدد حياته ، و« يصلح للصعود إلى النجوم »(٥٦) .

وليس صحيحاً أن وصف الجحيم هو وحده الجزء الطريف الممتع فى الملهاة

المقدسة . نعم إن وصف المطهر كثيراً من الفقرات التعليمية المجدبة ، وإن فيه على الدوام قدراً كبيراً من اللاهوت الذى لا حاجة للقصيدة به ، ولكنها وقد خلت فى هذا النشيد من رهبة التعذيب ترقى فى مدارج الجمال والحنان خطوة بعد خطوة ، وتغمر هـذا الرقى بجو من جمال الطبيعة الذى عاد إليها من جديد فأكسبها بهجة وطلاوة ، وبذلك تتأهب القصيدة لأن تضطلع بشجاعة بذلك الواجب العظيم واجب إحاطة بياتريس المجردة من الجسد بالجمال الروحانى ، وبفضلها يدخل دانتى الجنة مرة أخرى ، كما دخلها أيام شبابه .

٤ — السموات

لقد كان تفقه دانتى فى علوم الدين مما زاد عمله مشقة ، فلو أنه أجاز لنفسه أن يصور الجنة فى صورة حديقة مليئة بالمباهج الجسمية كما هى مليئة بالمباهج الروحية ، لوجدت فطرته مجالا واسعاً لهذا التصوير . ولكن كيف يستطيع العقل البشرى وهو « المركب المادى » ، أن يتصور جنة ذات نعيم روحى خالص ؟ يضاف إلى هذا أن نشأة دانتى الفلسفية كانت تمنعه أن يصور الله أو ملائكة الجنة وقديسيها بصور مجسدة ؛ بل كان يتمثلهم جميعاً كأنهم صور ونقط من النور ، وكان تصويرهم بهذه الصورة تتبعه تجريدات تضيع فى الفراغ النورانى حياة الجسد المذنب وحرارته . غير أن العقيدة الكاثوليكية كانت تعترف ببعث الجسم بعد الموت ، ولهذا فإن دانتى وهو يحاول أن يكون روحانياً يخلع على بعض سكان الجنة ملامح جسدية وينطقهم بكلام بشرى ، ومما يسر له الإنسان أن يقرأ أن لبياتريس ؛ وهى فى الجنة ، قدمين جميلتين .

ولقد نفذ الصورة التى صورها الجنة فى خياله تنفيذاً متناسقا يدعو إلى الدهشة ، ونفذها بخيال رائع ، وتفاصيل دقيقة واضحة . واسترشد بفلك بطليموس فصور السماء كأنها سلسلة من تسع كرات مجوفة مطردة الاتساع تدور حول الأرض ،

وهذه الكرات هي « المساكن الكثيرة » التي فيها « بيت الأب » . وقد ثبت في كل كرة كوكب وعدد كبير من النجوم ، كما تثبت الجواهر في التاج . وكلما تحركت هذه الأجرام السماوية ، وقد وهبت كلها ذكاء ربانيا متفاوت الدرجات ، أخذت تتغنى ببهجة سعادتها وتسبح بحمد خالقها ، وتغمر السماوات بموسيقى تلك الكرات . ويقول دانتي إن النجوم هي أولياء السموات الصالحون ، وأرواح الناجين ، ويختلف ارتفاعها عن الأرض باختلاف ما كسبت من عمل صالح في حياتها على ظهر الأرض ، وبقدر هذا الارتفاع تكون سعادتها ، ويكون قربها من أعلى السموات التي يقوم عليها عرش الله .

وكأن النور الذي تشعه بياتريس قد جذب دانتي فارتفع من جنة الأرض إلى الدائرة الأولى من دوائر السماوات وهي دائرة القمر ؛ وفيها تستقر أرواح الذين اضطروا لغير ذنب ارتكبوه إلى الحنث بأيمانهم الدينية ، ومن هؤلاء شخص يدعى بكاردا دوناتي Piccarda Donati . ويقول لدانتي إنهم في أسفل دائرة من دوائر السموات ، وإنهم يستمتعون بقدر من النعيم أقل مما تستمتع به الأرواح التي فوقهم ؛ وقد أنجتهم الحكمة الإلهية من كل حسد ، وشوق ، وتذمر ؛ ذلك بأن جوهر السعادة هو الخضوع لإرادة الله خضوعاً مقروناً بالغبطة والسرور ، لأن « في إرادته راحتنا »(٥٧) . وهذا هو بيت القصيد في الملهاة المقدسة .

ويرقى دانتي مع بياتريس إلى السماء الثانية منجذباً إليها بقوة مغنطيسية سماوية تجذب كل شيء إلى الله . وهذه السماء الثانية هي التي يسيطر عليها الكوكب عطارد . وفيها يقيم الذين كانوا يقومون وهم على الأرض بنشاط عملي يبتغون به الخير ، ولكنهم كانوا أكثر إنهماكا في الشرف الدنيوي منهم في خدمة الله . ويظهر من بين هؤلاء جستنيان ، يصوغ في عبارات ملكية الوظائف التاريخية للإمبراطورية الرومانية والشريعة الرومانية . وعن طريقه يوجه دانتي ضربة أخرى يبغي بها قيام عالم واحد ، خاضع لشريعة واحدة ،

وملك واحد . ثم تقود بياتريس الشاعر إلى السماء الثالثة ، وهى دائرة الزهرة حيث يتنبأ فلك Folque الشاعر البروفنسالى بمأساة بنيفاس الثامن . وفى السماء الرابعة وهى دائرة الشمس يشاهد دانتى الفلاسفة المسيحين بوئيثيوس ، وإزدور الأشبيلى ، وبيد Bede ، وبطرس لمبارد ، وجراتيان ، وألبرتس مجنس ، وتومس أكوناس ، وبونا ڤنتورا ، وسيجر ده برابانت . ويتبادل كل من تومس الدمنيكى ، وبونا ڤنتورا الفرنسيسى حديثهما ، فيقص تومس على دانتى حياة القديس فرانسس ، كما يقص عليه بونا ڤنتورا قصة القديس دمنيك . وإذ كان تومس على الدوام رجلا واسع العقل إلى حد ما فإنه يقحم فى قصته أقوالا عن موضوعات دينية دقيقة ؛ وتشتد رغبة دانتى فى أن يكون فيلسوفاً فيمتنع فى عدة أغان عن أن يكون شاعراً .

وتقوده بياتريس إلى السماء الخامسة ، سماء المريخ ، حيث تقيم أرواح المحاربين الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة الدين الحق — يوشع ، ويهوذا مكابيوس ، وشارلمان ، وحتى ربرت جوسكاد Robert Guiscard الذى خرب رومة . وينتظم هؤلاء على شكل صليب متلألئ عليه المسيح المصلوب ؛ ويشترك كل نجم من النجوم فى هذا الرمز المضيء فى إيقاع موسيقى سماوى . ويصعد الشاعر وبياتريس إلى السماء الخامسة سماء المشترى فيجد فيها دانتى من كانوا وهم على ظهر الأرض يوزعون العدالة بالقسطاس المستقيم ؛ ففيها داود ، وحزقيال ، وقسطنطين ، وتراچان — وهاهو ذا وثنى آخر يقتحم السماء . وتنتظم هذه النجوم الحية فى صورة نسر ، وتتكلم بصوت واحد ، وتُحدث دانتى فى علوم الدين ، وتردد الثناء على الملوك العدول . ويصعد الشاعر وقائدته إلى ما تسميه بياتريس تسمية مجازية « سلم العصر الخالد » فيصلان إلى السماء السابعة سماء البهجة ، سماء زحل وحاشيته من النجوم . ويزداد جمال بياتريس بهاء كلما علت فى السموات ، كأن كل دائرة تعلو إليها تزيدها بهجة وجلالا ؛ وهى لا تجرؤ على

الابتسام لحبيبها لئلا يحترق ويستحيل رماداً بقوة إشعاعها . وهذه السماء هى دائرة الرهبان الذين عاشوا معيشة الصالحين ، وأخلصوا لأيمانهم ، ومن بينهم بطرس دميان ؛ ويسأله دانتى كيف يوفق بين حرية الإنسان وعلم الله بالغيب ، وما يؤدى إليه هذا العلم من الإيمان بالقضاء والقدر ؟ فيجيبه بطرس بأن أكثر الأرواح استنارة فى السماء تحت عرش الله لاتستطيع الإجابة عن هذا السؤال . وهنا يظهر القديس بندكت ، ويرثى للفساد الذى انحدر إليه رهبانه .

ويسبح الشاعر وقتئذ من دوائر الكواكب إلى السماء الثامنة ، منطقة النجوم الثوابت . ويطل إلى أسفل من كوكبة الجوزاء فيرى الأرض المتناهية فى الصغر « ذات منظر حقير لم أتمالك معه نفسى من الابتسام » . ولربما كان خليقاً بأن يسرى فيه وقتئذ إلى أمد قصير حنين إلى هذا الكوكب التعس ، ولكن نظرة من بياتريس تنبوءه أن هذه السماء ، سماء الضوء والحب ، لامكان الذنوب والنزاع . هى موطنه الحق .

وتبدأ الأغنية الثالثة والعشرون بتشبيه من التشبيهات التى يمتاز بها شعر دانتى :

كالطائر الذى جلس طوال الليل فى عشه المظلم بين أوراق الشجر ، ومعه صغاره الجميلة ، يتحرق شوقاً إلى رؤية نظراتها الحلوة . وإلى أن يسعى سعيه الحبيب ليأتى إليها بطعامها غير شاعر بما يلاقيه فى سبيلها من مشقة ، جلست تستبق الزمن على الغصن المعلق فوق عشها ، يقظة تترقب أن تطلع الشمس فتطرد من الشرق ستار الفجر .

وتحدق بياتريس بعينيها فى جهة من الجهات مترقبة ، فتنشق السماء فجاءة عن منظر رائع وضاء ، وتناديه قائلة « انظر ! إلى جيش المسيح المنتصر » — أرواح جديدة كسبتها الجنة . ويلتفت دانتى ولكنه لا يرى إلا ضوءاً ساطعاً قوياً يذهب سناه ببصره ، فلا يعرف ما يمر به . وتأمره بياتريس أن يفتح عينيه ،

وتقول له إنه يستطيع فى ذلك الوقت أن يطيق النظر إلى بهائها كاملا . وتبتسم له ، ويقسم أن هذا حادث لا يمحى من ذاكرته . وتسأله : « لم يأسرك جمال وجهى ؟ » وتأمره أن ينظر بدلا منه إلى المسيح ومريم والرسل . ويحاول هو أن يتبينهم ، ولكنه لا يبصر إلا « كتائب من البهاء ، تسقط عليها من فوقها بروق ترسلها أشعة محرقة » ، وتصل إلى أذنيه فى تلك اللحظة موسيقى الكتائب السماوية .

ويصعد المسيح ومريم ، ولكن الرسل يبقون خلفهما ، وتطلب بياتريس إليهم أن يتحدثوا إلى دانتى ، فيسأله بطرس عن دينه ، وتسره أجوبته ، ويوافقه على أن الكرسى الرسولى سيظل شاغراً أو مدنسا ما دام بنيفاس بابا[٥٨] . إن بنيفاس لا يجد فى قلب دانتى ذرة من الرحمة .

ويختفى الرسل فى الطباق العليا ، ويصعد دانتى أخيراً مع « التى أسكنت روحى الجنة » إلى السماء التاسعة ، أعلى السموات جميعا . وليس فى هذه السماء نجوم ، بل كل ما فيها نور صاف ، وفيها الله الروح الخالص ، المجرد من الجسد ، والذى لا علة له ، والأصل الثابت لجميع الأرواح ، والأجساد ، والأسباب ، والنور ، والحياة . ويحاول الشاعر وقتئذ أن يستمتع بنور النعيم الباهر ، ولكنه لا يرى إلا نقطة من الضوء تدور حولها تسع دوائر من الذكاء الخالص — ملائكة الطبقة الأولى ، وأرواح سماوية ، وعروش ، وأملاك ، وفضائل ، وسلطات ، وإمارات ، وملائكة كبار ، وملائكة غير كبار . وعن طريق هؤلاء — وهم عمال الله ومبعوثوه — يحكم الخالق جل جلاله العالم . ولا يستطيع دانتى أن يرى الجوهر الإلهى ، ولكنه يرى كل كتائب السماء تؤلف من نفسها وردة وضاءة ، هى أعجوبة من النور البراق والألوان المختلفة تتمدد ورقة بعد ورقة حتى تصبح زهرة ضخمة .

وحينئذ تترك بياتريس حبيبها ، وتحتل مكانها فى الوردة . ويراها تجلس

على عرشها ، ويظل يرجوها أن تساعده ، فتبتسم له ، وتحدق من ذلك الوقت بعينها فى مركز جميع الأضواء ؛ ولكنها ترسل القديس برنار ليساعده ويواسيه . ويوجه برنار دانتى نحو ملكة السماء ؛ ويتجه الشاعر نحوها ولكنه لا يرى إلا بريقاً وهاجاً يحيط به آلاف من الملائكة مسربلين بالنور . ويقول له برنار إذا شاء أن يكون له من القوة ما يستطيع به أن يشهد الرؤى السماوية واضحة ، فإن عليه أن ينضم إليه فى الصلاة لأم الإله ، وتبدأ الأغنية الأخيرة بتضرع برنار بنغمه الحلو :

« أيتها الأم العذراء ، يا ابنة ابنك ، يا من أنت أعظم تواضعاً ورفعة من كل الخلائق » . ويتوسل إليها برنار أن تمن على دانتى بأن يقدر على رؤية ذات الجلال القدسى ، فتنحنى بياتريس وينحنى كثير من القديسين نحو مريم ويرفعون أيديهم مقبوضة يتوسلون إليها بالدعوات . وتلقى مريم نظرة قصيرة رحيمة على دانتى ، ثم تحول عينيها نحو « النور السرمدى » . والآن ، كما يقول الشاعر : « تصفو نظراتى ، فيدخل فيها شيئاً فشيئاً ذلك النور الأعلى وهو الحق » . ويقول إن كل ما رآه بعدئذ تعجز اللغة عن وصفه ، ويعجز الخيال عن تصوره ؛ ولكن « فى هذه الهوة من البهاء المتألق ، الصافية الشامخة ، خيل إلى أنى أرى كرة ذات ثلاثة ألوان مجتمعة فى لون واحد » . وتختتم الملحمة الفخمة ونظرات دانتى لا تزال مثبتة على النور المتألق ، ويجذبها ويدفعها « حب الله الذى يحرك الشمس وجميع النجوم » .

وجملة القول أن **الملهاة المقدسة** أعجب القصائد كلها وأصعبها . فليس ثمة قصيدة غيرها تضن بكنوزها إلا على من يبذلون فى سبيلها جهوداً جبارة ؛ ولغتها أكثر اللغات إيجازاً وإحكاماً بعد لغة هوراس وتاستس ، فهى تجمع فى كلمة أو بضع كلمات معانى وأفكاراً دقيقة يتطلب فهمها كاملة معلومات سابقة غزيرة ، وعقلا مستيقظاً ، وذكاء ، وحتى بحوثها المملة فى علوم الدين ، والنفس ، والفلك ،

تتاز بدقة فى اللفظ وغزارة فى المادة ، لايستطيع أن يجاريها فيهما أو يستمتع بهما إلا الفيلسوف المدرسى . ذلك أن دانتى كان يحيا فى عصره حياة قوية عميقة تكاد قصيدته بسببها أن تتحطم تحت عبء الإشارات إلى الحوادث والمعانى المعاصرة التى لا يمكن فهمها إلا إذا أضيف إليها كثير من الشروح التى تعطل تتابع القصة .

وكان يحب أن يعلم الناس ، ولهذا أراد أن يفرغ قصيدة واحدة ما تعلمه كله تقريباً ، وكانت النتيجة أن البيت الحى من الشعر يرقد إلى جانب السخافات الميتة ، ويضعف جمال بياتريس وفتنتها بأن ينطقها بما يحبه ويكرهه فى الشئون السياسية . وهو يقطع قصته ليصب جام غضبه على مائة مدينة أو جماعة أو فرد ، ويغرق ملحمته أحياناً فى بحر من السباب ؛ وهو متيم بحب إيطاليا ؛ ولكن بولونيا مليئة بالقوادين[٥٩] ، وفلورنس هى الثمرة المحبوبة من ثمار الشيطان[٦٠] ، وپستونيا حظيرة للوحوش[٦١] ، وجنوى « استشرى فيها الفساد »[٦٢] ؛ وأما پيزا « ألا لعنة الله على پيزا ! ألا ليت نهر الآرنو يسد عند مصبه ، ويغرق پيزا كلها ، بما فيها من حرث ونسل ، تحت مياهه الصاخبة ! »[٦٣] . ويظن دانتى أن « الحكمة العليا ، والحب الأزلى » هما اللذان خلقا الجحيم . وهو يعد بأن يزيل الجليد لحظة من الزمان عن عينى ألبريجو Alberigo إذا ما أخبره هذا باسمه وقص عليه قصته . ويجيبه البريجو إلى ما طلب ويرجوه أن ينجز ما وعد — ويقول « مد إلىّ يدك ، وافتح عينى ! » — ويواصل دانتى حديثه قائلا : ولكننى « لم أفتحها له ؛ لأن الوقاحة معه هى المجاملة بعينها »[٦٤] . ألا إننا سننجو جميعاً من العذاب إذا كان رجل ملئ قلبه بهذا الغل يستطيع أن يطوف به طائف خلال الجنة .

ومع هذا كله فإن قصيدته أعظم كتب العصور الوسطى ، ومن أعظم كتب التاريخ بأجمعه . ذلك بأن تجمع قوتها وغزارة مادتها تدريجاً خلال أغانيها البالغ عددها مائة أغنية تجربة لايستطيع قارئ أكمل قراءتها أن ينساها ؛ وهى كما قال فيها كارليل Carlyle أعظم القصائد إخلاصاً ؛ فليس فيها شيء من الادعاء ،

أو الملق ، أو التواضع الكاذب ، أو الخنوع ، أو الجبن ؛ بل إن أقوى رجال ذلك العصر ، ومنهم البابا الذى يدعى أنه صاحب السلطان الأعلى ، يهاجَمون بقوة وحرارة ليس لهما فى الشعر كله مثيل . وفيها فضلا عن هذا كله خيال وثاب يسرى فيها كلها ويبعث فيها القوة ، ويغالب شيكسپير لينتزع منه لواء الشعر : فيها صور واضحة حية لأشياء لم يرها الأرباب أو البشر ؛ ووصف للطبيعة لا تستطيعه إلا روح يقظة قوية الملاحظة مرهفة الحس ؛ وقصص قصيرة ، كقصة فرانسسكا وأجلينو ، تجمع المآسى العظيمة فى حيز صغير دون أن تترك منها شيئاً ذا بال . نعم إن هذا الرجل خلو من الفكاهة ، ولكن فيه حُبًّا ظل حتى أحالته المصائب لاهوتا .

ويبلغ دانتى آخر الأمر بقصيدته مرتبة السمو . نعم إننا لا نجد فى ملحمته ما نجده فى الإلياذة من تيار الحياة الجارف أو تتابع الحوادث سراعا ، كما أننا لا نجد فيها ما فى شعر ڤرچيل من انسياب سهل هادئ ، أوما يمتاز به شيكسپير من إدراك شامل ، وتسامح ، وغفران للذنوب ؛ ولكن فيها عظمة ، وقوة معذبة نصف همجية تستبق ميكل أنچلو وتنبئ بقدومه ؛ وإذ كان دانتى ممن يحبون النظام كما يحبون الحرية ، فقد قيد عواطفه ورؤياه فخلع عليهما صورة محددة ، ولهذا أخرج قصيدة ذات قوة ماثلة أمام أعيننا لم يصل إلى مثلها إنسان آخر من بعده . وقد ظلت إيطاليا طوال القرون التى أعقبت عصره تجله وترى فيه الرجل الذى حرر لغتها الذهبية من القيود ؛ وتلقى پترارك وپوكاشيو ومائة غيرهما من الأدباء الإلهام من وقائعه وفنه ، وردت أوربا كلها أصداء قصة المنفىّ الفخور الذى سار إلى الجحيم ثم عاد منها ولم يبتسم قط بعد عودته .

الخـــاتمة

تراث العصور الوسطى

إن من الخير أن نختم بدانتى قصتنا الطويلة المتشعبة ، فقد ظهر فى القرن الذى توفى فيه أولئك الرجال الذين شرعوا بعدئذ فى تحطيم الصرح العظيم صرح الإيمان والأمل الذى عاش فيه : فمن هؤلاء ويكلف Wyclif ، وهوس Huss اللذان مهدا السبيل للإصلاح الدينى ؛ وچيتو Giotto وكريسلاراس Chrysolaras ، وپترارك ، وبوكاشيو الذين بشروا بالنهضة ، وقد يبقى إلى زمن طويل خلال تاريخ الإنسان — ذى العدد الكبير والطبائع المختلفة — مزاج من نوع ما فى نفوس وأماكن أخرى . ففى أوربا مثلا وصل عصر الإيمان إلى عنفوان مجده ، فى دانتى ، ثم أصابته طعنة نجلاء من يد أكام Occam فى القرن الرابع عشر ؛ ولكنه ظل يغالب المرض والضعف حتى أقبل برونو Bruno ، وجليلو وديكارت ، واسپنوزا ، وبيكن ، وهُبز Hobbs ؛ وقد يعود عصر الإيمان إذا ما حلت بعصر العقل كارثة(*) ؛ ولقد بقيت مساحات واسعة تحت شعار الإيمان وسلطانه بينا كانت أوربا الغربية تسير بسفينة العقل فى البحار الغير المطروقة . إن العصور الوسطى حال من أحوال الزمان كما هى فترة من فتراته : ومن واجبنا أن نختتمها فى أوربا الغربية بكولمبس ؛ ولكنها دامت فى الروسيا إلى زمن بطرس الأكبر (المتوفى عام ١٧٢٥) ؛ أما فى الهند فلا تزال باقية إلى اليوم .

ولقد نساق إلى التفكير فى العصور الوسطى على أنها فترة مجدبة محصورة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب (٤٧٦) وكشف أمريكا ؛ بيد

(*) يقصد بعصر العقل عصرنا الحاضر ، ولهذا يقول إنه سيسمى المجلد السابع من هذه سلسلة وهو المجلد الذى يروى حضارة هذا العصر « عصر العقل » . (المترجم)

أننا يجب ألا ننسى أن أتباع أبلار كانوا يسمون أنفسهم محدثين moderni .
وأن أسقف إكستر Exeter قد وصف فى عام ١٢٨٧ القرن الذى يعيش
فيه بأنه « الزمن الحديث moderni tempores »[1]. أضف إلى هذا أن الحد
الفاصل بين العصور « الوسطى » والعصور « الحديثة » يتقدم على الدوام ؛
وأن عصر الفحم والزيت والأحياء القذرة المليئة بالدخان والكتَن ، إذا
ما حل محله عصر أكثر منه نظاماً وأرحم منه حياة ، قد يعد من العصور
الوسطى . كذلك لم تكن العصور الوسطى مجرد فترة بين حضارة وحضارة .
ذلك أننا إذا أرخنا بداية هذه العصور بقبول رومة للمسيحية وبمؤتمر نيقية
عام ٣٢٥ ، رأيناها تشمل القرون الأخيرة من حياة الثقافة اليونانية —
الرومانية القديمة ، ونضوج المسيحية الكاثوليكية حتى أضحت حضارة كاملة
غنية فى القرن الثالث عشر ، وانقسام تلك الحضارة إلى الثقافتين المتعارضتين
وهما النهضة والإصلاح الدينى . وشىء آخر خليق بالذكر ، وهو أن رجال
العصور الوسطى كانوا ضحايا الهمجية ، ثم صاروا هم أنفسهم الغالبين
للهمجية ، وأمسوا بعدئذ المنشئين لمدنية جديدة . وليس من الحكمة أن ننظر
بعين الكبرياء إلى عصر أنجب هذا العدد الجم من عظماء الرجال وعظيمات
النساء ، ورفع منار البابوية فوق أنقاض العصور الوسطى ، وأقام الدول
الأوربية ، وجمع بالكدح الدائب تلك الثروة التى خلفتها لنا تلك العصور(*) .

وقد جمع هذا التراث بين الشر والخير . فأما عن الشر فنقول إننا لم نفق بعد
كل الإفاقة من العصور المظلمة : من اضطراب الأمن الذى يثير المطامع والشهوات ،
والخوف الذى يولد القساوة ، والفقر الذى يوجد القذارة والجهل ، والقذارة التى
تتفشى بسببها الأمراض ، والجهل الذى يؤدى إلى سرعة التصديق وإلى الإيمان
بالخرافات ، والسحر — كل هذا لا يزال باقيا بيننا ؛ وإن العقائد التحكمية القائمة

(*) قصرنا الجزء الأكبر من هذه الإعادة على الحديث عن المسيحية فى العصور الوسطى ،
ولن نعيد هنا الخلاصة التى كتبناها عن الحضارة الإسلامية فى ختام الكتاب الثانى من هذا المجلد .

على غير أساس من العقل ، والتى أدت إلى التعصب وإلى محاكم التفتيش لا تزال تنتهز الفرص أو الإذن لكى تظلم ، وتقتل ، وتدمر ، وتخرب . وليست « العصرية » بهذا المعنى إلا ستاراً يغشى مبادئ العصور الوسطى وعاداتها . ولا تزال هذه المبادئ والعادات باقية فى الخفاء ؛ وليست الحضارة فى أى جيل من الأجيال إلا ثمرة من ثمار الكدح الذى تقوم به قلة مزعزعة مغمورة ومبزة اضطرارية لهذه القلة . ولقد خلفت محاكم التفتيش آثارها السيئة فى المجتمع الأوربى : فقد جعلت التعذيب جزءاً مقرراً معترفاً به فى الإجراءات القضائية ، وردت الناس من مغامرات العقل إلى الاتفاق الراكد المنبعث من الخوف .

والدين أهم ما أورثنا إياه عصر الإيمان : أورثنا يهودية ظلت حتى القرن الثامن عشر يستوعبها التلمود ؛ وأورثنا الإسلام الذى هدأت عقول أصحابه بعد انتصار السُنّة على الفلسفة فى القرن الثانى عشر ، ومسيحية انقسمت بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ولكنها لا تزال رغم هذا الانقسام أقوى الأديان وأعظمها أثراً فى تاريخ الرجل الأبيض . فعقيدة كنيسة العصور الوسطى يدين بها الآن ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٣٠ من الرومان ، و ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢٨ من الأرثوذكس والكاثوليك ؛ ولا تزال شعائرها تحرك النفوس بعد أن أخفقت كل الحجج المنطقية . ولقد خلفت جهود الكنيسة فى ميادين التعليم ، والصدقات ، وبث الأخلاق الفاضلة فى نفوس الهمج من الناس ، خلفت هذه الجهود إلى العالم الحديث تراثاً ثميناً من النظام الاجتماعى ، والتأديب الخلقى . ولسنا ننكر أن ما كانت تحلم به البابوية من قيام دولة أوربا الموحدة قد قضى عليه النزاع الذى قام بين الإمبراطورية والبابوية ؛ ولكن ما من جيل من الأجيال لا تستثيره رؤى نظام أخلاقى دولى يسمو على النظم الأخلاقية المتضاربة السائدة فى الدول المستقلة ذات السيادة .

ولما أن قضى على ذلك الحلم البابوى اتخذت الأمم الأوربية الشكل الذى

لا تزال تحتفظ به فى جوهر حتى هذا القرن ، وتأهب مبدأ القومية لكتابة التاريخ السياسى للأزمنة الحديثة . وابتدع عقل العصور الوسطى فى هذه الأثناء أنظمة من القانون المدنى والكنسى ، ودساتير بحرية وتجارية ، وعهوداً لحرية المدن ، ونظام المحلفين ، وحتى القضاء فى إطلاق سراح المسجون بلا محاكمة . وفى العصور الوسطى وضع نبلاء الإنجليز العهد الأعظم ، وأعدَّت المحاكم والمجالس القضائية للدول والكنيسة أساليب الحكم ودواليب الإدارة الباقية إلى هذه الأيام . وظهر نظام الحكم النيابى فى الكورتيز Cortes مجلس أسبانيا النيابى ، والألثنج Althign مجلس أيسلندة : وجمعية الطبقات الفرنسية ، والبرلمان الإنجليزى .

وكان أعظم من هذا كله تراث العصور الوسطى الاقتصادى : فقد استغلت هذه العصور البرارى المقفرة ، وكان لها النصر فى مغالبة الغابات ، والحراج ، والمستنقعات ، والبحار ، وأخضعت تربة الأرض لإرادة الإنسان . وقضت العصور الوسطى على الاسترقاق فى معظم أجزاء أوربا الغربية ، وكادت تقضى أيضاً على نظام رقيق الأرض . ونظمت العمال المنتجين فى نقابات الحرف ، وهى النقابات التى لا تزال من المثل العليا عند رجال الاقتصاد الذين يسعون لإيجاد طريق وسط بين الأفراد غير المسئولين والدولة الأتوقراطية . ولقد ظل الخياطون ، والأساكفة ، وصناع الملابس إلى وقتنا هذا يقومون بأعمالهم اليدوية فى حوانيت خاصة كما كانوا يقومون بها فى العصور الوسطى ؛ وكان خضوعهم لنظام الإنتاج الكبير وللتنظيم الرأسمالى على مرأى ومسمع منا . وإن المواسم الكبرى التى تعقد فى المدن الحديثة ويجتمع فيها الناس والسلع لمن مخلفات تجارة العصور الوسطى ؛ كما أن من هذا التراث أيضاً ما نبذله من جهد لمنع الاحتكار ، وتحديد الأثمان والأجور ؛ ولقد ورثنا عمليات المصارف الحديثة كلها تقريباً من نظم العصور الوسطى المالية ؛ وحتى منظماتنا الأخوية ، وجمعياتنا السرية تمتد جذورها وشعائرها إلى العصور الوسطى نفسها .

وكانت مبادئ العصور الوسطى الخلقية وليدة الهمجية ومنشأ نظام الفروسية . وإن فكرتنا عن السيد الكامل (السميذع) لمن خلق تلك العصور ؛ ولا تزال مثل الفروسية العليا ؛ وإن بعدت عن أساليب الفرسان القدامى ، من أنبل الأفكار التى طافت بالعقل البشرى ؛ وربما كانت عبادة مريم العذراء قد جاءت بعناصر جديدة من الرقة والحنان إلى أخلاق الرجل الأوربى . وإذا كانت القرون المتأخرة قد ارتقت بأخلاق الناس عما كانت عليه فى العصور الوسطى ، فقد كان ذلك الرقى على أسس من وحدة الأسرة ، والتربية الخلقية ، والانتشار البطىء لعادات الشرف ، والأمانة ، والمجاملة ، وهى الأسس التى أرست دعائمها العصور الوسطى ، شأنها فى هذا شأن الحياة الأخلاقية للمتشككين المحدثين التى لا يبعد أن تكون صدى للمبادئ الأخلاقية المسيحية التى اعتنقها الناس فى شباب هذا الدين .

أما تراث العصور الوسطى الذهنى فهو أضعف مما ورثناه عن اليونان الأقدمين ، كما أنه يختلط به كثير من المعارف الخفية الفاسدة التى ترجع أصولها إلى الأزمنة القديمة . ولكنه على الرغم من هذا يشمل اللغات الحديثة ، والجامعات ، ومصطلحات الفلسفة والعلوم . وكانت الطريقة الجدلية المدرسية تدريبا فى المنطق لا فتحا فلسفيا دائما ، وإن كانت هذه الطريقة تسيطر على ألف كلية . ولسنا ننكر أن بعض العقائد الدينية فى العصور الوسطى قد عاقت كتابة التاريخ الصحيح ؛ فقد كان الناس فى تلك العصور يحسبون أنهم يعرفون منشأ العالم والإنسان ومصيرهما ، وحاكوا نسيجاً من الأساطير كاد يقصر التاريخ على مؤرخى الأديرة الإخباريين . ولكن ليس صحيحا أن مؤرخى العصور الوسطى لم يكونوا يعرفون شيئاً عن التطور والتقدم ؛ وكان القرن الثالث عشر ، كما كان القرن التاسع عشر ، متأثراً أشد التأثر بما تم فيه من جليل الأعمال . كذلك لم تكن العصور الوسطى زمن ركود وجمود كما كنا نظن ذلك مزهوين ؛ ذلك أن بعد ما بيننا وبين تلك

العصور يجعلنا نظن الحركة سكونا ، والفروق معدومة من الوجود ، ونحسب التغير جموداً ؛ ولكن الرغبة فى التغير كانت تلح وقتئذ ، كما تلح الآن ، فى تبديل العادات والثياب ، واللغة والأفكار ، والشرائع ونظم الحكم ، وأساليب التجارة والمال ، والأدب والفن . غير أن مفكرى العصور الوسطى لم يكونوا يعلقون أهمية كبرى على ارتقاء الوسائل غير المصحوبة بإصلاح الغايات كما يفعل المحدثون غير المفكرين أهل هذه الأيام .

وفى الحق أن تراث العصور الوسطى العلمى تراث متواضع ، ولكنه يشمل فيما يشمل الأرقام الهندية ، والطريقة العشرية ، وفكرة العلوم التجريبية ، وقسطاً كبيراً من العلوم الرياضية ، والجغرافيا ، والفلك ، والبصريات . وفى العصور الوسطى كشف البارود ، واخترعت النظارات ، والبوصلة البحرية ، والساعة ذات الرقاص(*) ، وتقطير الكحول — الذى يبدو أشد المخترعات لزوما للإنسان ! وفيها ارتقى أطباء العرب واليهود بالطب اليونانى ، وحرر الرواد المسيحيون الجراحة من فنون الحلاقين ؛ ونصف المستشفيات التى تقوم الآن فى أوربا إما أنها من منشئات العصور الوسطى وإما أنها مؤسسات باقية من ذلك العهد جددت فى العصور الحديثة ، ولقد ورث العلم الحديث من طريقة التفكير فى العصور الوسطى نزعته الدوّلية ، وقسطا غير قليل من لغته الدوّلية .

وأجل ما ورثه العالم من العصور الوسطى بعد التأديب الأخلاقى هو الفن . نعم إن بناء إمبير استيت Empire State Building لا يقل روعة وجلالا عن كتدرائية شارتر ، وإنه يدين بعظمته لهندسته وحدها — لثباته رغم ارتفاعه وعتوه ودقة تخطيطه . ولكن اجتماع فنون النحت ، والتصوير ، والشعر ، والموسيقى مع فن العمارة فى حياة الكتدرائية القوطية يكسب كتدرائيات أميان ،

(*) من حق العرب علينا أن نقول إن هذه المخترعات يكاد يرجع الفضل كله فيها إلى الحضارة الإسلامية . (المترجم) .

وريمس ، ونتردام سعة وعمقاً فى التوافق الروحى ، وثروة وتنوعاً فى الزخرف ، يملآن النفس غبطة أكثر مما تملؤها عظمة البناء الحديث ، ولا تفترُ معهما متعة الإنسان على مر السنين . وإن من واجب الإنسان أن يغفر الشىء الكثير لذلك العصر الذى أحب بملء قلبه رموز دينه ، وأعمال يديه — من أبواب ، وأبراج ومنارات مستدقة ، وقباب من حجارة تناطح السماء ، وتماثيل ومذابح للقربان ، وواجهات ، ومقابر عنى بنحتها أعظم عناية ، وشبابيك تنافس بألوانها قوس قزح ، وتتقى أشعة الشمس قبل أن تنفذ فيها . ومن أجل الكتدرائيات نشأت الموسيقى المتعددة النغمات ، ووضعت العلامات الموسيقية والسلم الموسيقى ؛ ومن الكنيسة نشأ فن التمثيل الحديث .

ولا يقل تراث العصور الوسطى فى الأدب عن تراث الرومان وإن لم يبلغ فى علو قدره ما بلغه الأدب اليونانى . فنى وسعنا أن نضع دانتى فى مرتبة فرچيل ، وپترارك إلى جانب هوراس ، وشعراء العرب والفروسية الغزلين إلى جانب أوڤد ، وتيبلس ، وپروپرتيوس ؛ وإن روايات آرثر الغرامية لأشد عمقاً وأكثر نبلاً من كل ما حواه كتابا التناسخ والهرويدات ، ولا يقل عنهما ظرفاً وجمالا ؛ وإن الترانيم الكبرى التى كانت تنشد فى العصور الوسطى لأرقى من أجمل الأغانى الشعرية الرومانية . ولا يقل القرن الثالث عشر رقيا عن عصر أغسطس أو ليو العاشر ؛ وقلما شهد قرن من القرون ما شهده ذلك القرن من ازدهار فنى أو ذهنى كامل متعدد الألوان ؛ وقد اتسع فيه نطاق التجارة اتساعا لا يقل عما وصل إليه فى أواخر القرن الخامس عشر ؛ وكانت هذه التجارة سبباً فى اتساع رقعة العالم المعروف وازدياد ثروته ويقظته . وكان فى القرن الثالث عشر بابوات أقوياء من طراز إنوسنت الثالث وبنيفاس الثامن ، رفعوا مقام الكنيسة مدى قرن كامل إلى أعلى درجات النظام والقانون فى جميع البلاد الأوربية . ولم يكن

القديس فرانسس يخشى أن يكون مسيحياً ؛ وأعاد الرهبان المتسولون المثل العليا للأديرة ، ورفع الحكام العظام أمثال فليب أغسطس ، والقديس لويس ، وفليب الرابع ، وإدورد الأول ، وفردريك الثانى ، وألفنسو العاشر ، رفع هؤلاء دولهم من بلاد تجرى على العادات والتقاليد إلى دول تتبع القوانين ، كما رفعوا شعوبهم إلى مستويات جديدة من الحضارة فى العصور الوسطى . وانبعثت فى القرن الثالث عشر فلسفة وعلوم جديدة تغلبت على النزعات الصوفية التى كانت سائدة فى القرن الثانى عشر ، وكان انبعاثها بحماسة وشجاعة لا يفوقهما ما كان منهما فى عصر النهضة . وفى الأدب خطا « القرن العجيب » من **بارزيفال** تأليف ولفرام ڤن إسشنباخ إلى فكرة **الملهاة المقدسة** ، ولاح أن عناصر حضارة العصور الوسطى وصلت فى خلال ذلك القرن إلى الوحدة والنضوج وإلى صورتها النهائية .

وبعد فإنا لن نستطيع تقدير العصور الوسطى حق قدرها إلا إذا نظرنا إلى النهضة الأوربية على أنها إتمام لما بدأته لا نقض له . فقد واصل كولمبس ومجلان Magellan مثلا رحلات الارتياد التى قام بها التجار والملاحون من أهل البندقية ، وچنوى ، ومرسيليا ، وبرشلونة ، ولشبونة ، وقادس ، والتى تقدمت على أيديهم تقدما عظيما ؛ وإن الروح التى كانت متأججة فى أثناء القرن الثانى عشر لهى نفسها التى أثارت روح الكبرياء والكفاح فى المدن الإيطالية خلال عصر النهضة ؛ كذلك كان النشاط والخلق القوى اللذان امتاز بهما إنريكو دندولو Enrico Dandolo ، وفردريك الثانى ، وجريجورى التاسع هما اللذين تلتهب بهما صدور رجال النهضة ؛ وكان منشأ زعماء عصابات المغامرين العسكريين الذين يبيعون خدماتهم لأى حزب فى كل نزاع من الخطة التى اتبعها ربرت جسكارد Robert Guiscard ؛ ومنشأ الحكام « الطغاة » مثل إزلينو Ezzelino وپلافشينو Pallavicino ؛ وسار المصورون فى الدرب الذى شقه لهم سيمابيو Cimabue ودوتشيو Duccio ؛ وكانت پلسترينا Palestrine همزة الوصل بين الترنيم

الجريجورى وباخ Bach . كذلك كان پترارك وارثا لدانتى وشعراء الفروسية الغزلين ، كما كان بوكاشيو قصاصا إيطاليا جوابا . وقد ظلت الروايات الغرامية مزدهرة فى أوربا أثناء النهضة على الرغم من كتاب دون كيشوت ، وبلغت أساليب كريتيان ده تروى Chrétien de Troyes حد الكمال على يد مالورى Malory . وكانت بداية « إحياء الآداب » فى مدارس العصور الوسطى ؛ وكل ما امتازت به النهضة فى هذه الناحية أنها وسعت دائرة هذا الإحياء حتى شملت الآداب اليونانية بعد أن كان مقصوراً على اللاتينية ، وأنها نبذت الفن القوطى لتنهض بالفن اليونانى . لكننا يجب ألا ننسى أن نقولو پيزانوا Niccolo Pisano اتخذ فن النحت اليونانى فى القرن الثالث عشر نموذجا له ينسج على منواله ، ولما أن جاء كريسلوراس Chrysoloras باللغة اليونانية وآدابها إلى إيطاليا (١٣٩٣) ، كان لا يزال باقيا من عمر العصور الوسطى مائة عام كاملة .

وكان الدين الذى شاد الكنائس الكبرى وألف الترانيم الجميلة هو الدين السائد فى إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا فى عصر النهضة مع فارق واحد ، وهو أن الكنيسة الإيطالية ، التى كان لها نصيب كبير فى ثقافة ذلك الوقت ، وهبت العقل الإيطالى حرية فى التفكير ولدت فى جامعات العصور الوسطى ، وظلت باقية ، بشرط أن يكون مفهوما فهماً ضمنياً أن يسير الفلاسفة والعلماء فى بحوثهم دون أن يحاولوا القضاء على دين الجماهير .

ومن أجل هذا لم تشترك إيطاليا ولا فرنسا فى حركة الإصلاح الدينى ، بل انتقلنا من ثقافة القرن الثالث عشر الكاثوليكية إلى ثقافة القرنين الخامس عشر والسادس عشر « الإنسانية » ، ثم انتقلنا من هذه الثقافة الأخيرة إلى عصر الاستنارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان هذا الاطراد المستمر مضافا إلى تجارة البحر المتوسط قبل كشوف كولمبس هى التى أكسبت الشعوب اللاتينية ميزة ثقافية مؤقتة على الأمم الشمالية التى اجتاحتها الحروب الدينية ، والتى كان لها فيها

من الآثار المدمرة أكثر مما كان فى البلاد اللاتينية . وتمتد أصول هذا الاطراد مجتازة العصور الوسطى إلى رومة القديمة ومجتازة جنوبى إيطاليا إلى بلاد اليونان القديمة . وكان تيار واحد عظيم من الثقافة يجرى خلال المستعمرات اليونانية فى صقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وخلال الفتح الرومانى لفرنسا وأسپانيا واصطباغهما بالصبغة اللاتينية مبتدئاً من ساپفو وأنكريون إلى ڤرچيل وهوراس ، وإلى دانتى وپترارك ، وإلى ربليه ومنتانى ، وإلى ڤلتير وأناتول فرانس . ونحن فى انتقالنا من عصر الإيمان إلى عصر النهضة إنما نتقدم من الطفولة المزعزعة غير الواثقة بنفسها إلى الشباب البهيج للثقافة التى قرنت ما كان عند الرومان واليونان الأقدمين من ظرف ورقة إلى ما كان عند البرابرة من قوة ؛ وهى ثقافة نقلت إلينا تراثاً متجدد الشباب موفور الغنى لحضارة من حقها علينا أن نعمل على الدوام لزيادتها وألا نتركها تموت .

شكراً لك مرة أخرى أيها القارئ الصديق

(انتهى المجلد الرابع ويليه المجلد الخامس فى حضارة عصر النهضة)

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAP XXXIV

1. In Ogg, 145.
2. Vossler, K., *Medieval Culture*, I, 5.
3. Dante, *La Vita Nouva*, xxv.
4. Munro and Sellery, 330.
5. Cf. Pollock and Maitland, I, 57.
6. Mumford, L., *Technics and Civilization*, 438 ; Encyclopaedia Britannica, XXI 1005a.
7. *Lyra Graeca*. III, 676, app. by J. M. Edmonds.
8. Munro and Sellery, 232 ; Haskins. *Renaissanee*, 16 ; id., *Normans*, 236.
9. Haskins, *Renaissance*, 72.
10. Thorndike in *Sppeculum*, Apr. 1937, 268.
11. Haskins, *Renaissance*, 72.
12. Coulton, *Panorama*, 683.
13. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 654.
14. Lacroix, *Arts*, 472.
15. Walsh, *Thirteenth Century*, 156.
16. Coulton. *Medieval Scence*, 124 ; *Panoramu*, 576 ; Haskins, *Renaissance*, 71.
17. Encyclopaedia Britannica, XIV,3.
18. Haskins, *Renaissance*, 43.
19. Calvert, *Moorish Remains in Spain*, 426.
20. Haskins, *Studies in Medieval Culture*, 100.
21. Bevna, *Legacy, of Israel*, 230.
22. Ibid., 211.
23. Sarton, II (I), 125.
24. Arnold, *Legacy of Islam*, 347.
25. Ibid., 244.
26. Wright, *Domestis Manners*, 271.
27. De Wulf. *Medieval Philosophy*, I, 61 ; West, *Alcuin*, 57.
28. John of Salisbury, *Metalogicus*, i, 24, in Poole, *Illustrations* 98.
29. Thorndike in *Specalum*, *Oct.* 1940, 401.
30. Walsh, *Thirteenth Century*, 28.
31. Thorndike, I.C. ; Rashdall, *Universities of Earope in the Middle Ages*, III, 350 ; Crnmp, *Legacy of the Middle Ages*, 262-3.
32. Abélard, *Historia. Calamitatam*, Introd. by R. A. Cram. p v.
33. Coulton, *Medival Village*, 254.
34. Jusserand, 279.
35. Coulton, *Panorama*, 388.
36. Thorndike, *Speculum*, Oct. 1940, 408.
37. Rashdall. *Universities*, III, 370.
38. Aristotle, *Politics*, viii, 1.
39. Crump, 266.
40. Rashpall, 1, 93.
41. Ibid., 113.
42. Lea, *Insquisition in the Middle Ages*, I, 69.

43. Walsh, *Thirteenth Century*, 38 ; Baedeker, K , *Northern Italy*, 471,
44. Rashdall, I. 149-67.
45. Ibid., 196.
46. 196-7.
47. Paetow, L.J., *Guide to the Study of Medieval History*, 448.
48 Haskins, *Renaissance*, 396,
49. Rashdall, I, 445.
50. Thorndike. *Magic*, II, 58.
51. *Cambridge Medieval History*,VI, 746.
52. Encyclopaedia Britannica,XI,995
53. Rashdall, III, 29n.
54. Ibid., 33.
55. 199.
56. 246n ; Saiton, II (2), 584.
57. Davis, *Medieval England*, 398.
58. Encyclopadia Britannica, X, 9006b.
59. Ashley I, 203.
60. Munro and SellerX, 350; Walsh, *Thirteenth Century*, 65.
61. Waddell, *Wandening Scholars*, 171.
62. Walsh, 65.
63. Rashdall, IV, 325-36.
64. Ibid.
65. Coulton, *Social Life*, 95.
66. Rashdall, III, 386.
67. Ibid., 439.
68. 441.
69. 440.
70. 96n.
71, 431.
72. 432; Coulton, *Life*, III, 73.
73. Rashdall, III, 439.
74. Castiglione, 328.
75. Munro and Sellery, 350.
76. Rashdall, I, 46?-70.

CHAPTER XXXV

1. V. Cousin in Abéiard. *Ouvrages inédits*, xcix.
2. Gilson, É , *La philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 238.
3. De Wulf, *Medieval Philosophy*, I, 103.
4. Ibid., 46.
5. Thomas Aquinas.*Summaa Theologica*, I, i, 1.
6. Ueberweg.*History of Philosophy*, I, 386.
7. Abélard, *Historia Calamitatum*, ch. 6.
8. Rémusat, C. de, *Abélard*, I, 39.
9. Abélard, *Calamitatum*, ch. 5.
10. Gilson, *La Philosophia au moyen âge*, ed. 1922, I, 89.
11. Abélard, *Calamitatum* ch. 5.
12. Rémusat, I, 30n.
13. Abélard, ch. 16.
14. Rémusat, I, 54.
15. Abélard, ch. 6. Headoes not say that he aceompanied her.
16. Ibid., ch. 7 ; Lea, *Celibacy*, 269.
17. Abélard, ch. 7.
18. Ibid.
19. Poole, *Illustrations*, 125.
20 Abélard. *Dialectiea*, Introd. to Part IV. in *Ouvrag,s inèdits*.
21. Ibid.
22. In Rémueat. II, 534-5.
23. Ouvrages *inédits*, *p*. clxxxvii.
24. Abélard,*Sic et non*, in *Ouvrages*, p. 16,
25. De Wuls *Medieval Philosophy*, I, 201,
26. Abélard *Calamitatum*, ch. 9.
27. Rémusat, I, 77.
28. Abélard, *Calamitatum*, Ch. 9.
29. Ch. 11.

30. Rémusat, II, 197.

31. Ibid., 196; Gilson, *La Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, p. 291.

32. Ueberweg, I, 387.

33. Rémusat, II, 203.

34. Ibid., 205.

35, Abérland, *Calamitutum*, ch. 12.

36. Ch. 13.

37. Ch. 15.

38. Ch. 14.

39. In Scott - Moncrieff, *Letters of Abélard* and *Bәloïse*, 53-6.

40. Ibid., p. 82.

41. P. 103.

42. Butler, *Women* 68.

43. Prof. Paetow considered the "letters of Héloïse ... the vain Imaginings of a very vain man"- *Speculum*, Apr. 1927, 227. Prof, Gilson concludes in favor of their general authenticity; cf. his *Héloïse et Abélard*, Paris, 1938, and *Speculum*. July 1939, 394.

44. Abélard, *Scito te ipsum*, xiii-xiv, ,-in Rémusat, II, 466.

45. Abélard. Ep, xiii, *Cambridge Medieval History*, V, 798.

46. St. Bernard, Eps. 191 and 338, in Talor, *Medieval Mind*, I, 417, aud II, 385; Adams, H., 313; Ueberweg, 396.

47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 321.

48. Rèémusat, I, 260.

CHAPTER XXXVI

1. Duhem *Système du monde*, III 88.

2. De Wulf. *History of medieval philosophy*, I. 154.

3. Foɔle, *Illustrations*. 151.

4. Ibid., 185.

5. 108.

6. Thorndike, *Magic*, II, 58.

7. Ibid., 50.

8. Ibid., 58.

9. Poole, 158.

10. Taylor, *Medieval Mind*. II, 402.

11. In Poole,*Illustrations*, 164.

12. In Adnms. H , 292.

13. John of Salisbery, *Polycraticus*, v, 16; vi, 24; vii, 17.

14. V, 16.

15. IV, 3.

16. V, 6; vi, 6, 12, 25; iii, 15.

17. VIII, 20.

18. VII, 11.

19. Munro and Sellery, 460; Sarton, II (2) 860; De Wulf, *History of Medieval philosophy*, I, 248.

20. Ibid.

21. Robertson, J M., *History of Free Thought*, I, 325.

22. Lea, *Inquisition in Middle Ages* I, 99.

23. Coulton. *Five Centuries* I, 345.

24. Id.. *Medievul Scene*, 111.

25. De wutf, I, 189.

26. Lea, ed, II, 319.

27. Gilson. *Lu Philosophie au moyen âge*, ed. 1947, 384.

28. Rashdall, I, 354.

29. Lea, II, 320-3.

30. Renan. *Averroés*, 288.

31. Coultoh, *Panorama*, 449.

32. Rashdall, I, 264.

33. De Wulf, II, 97.

34. Hernshaw, *Medieval Contributions to Modern Civilization*,145.

35. Lea. III, 440.

36, Castiglione, 330.

37. Coulton, *Panorama*, 461.
38. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1947, 564.
39. De Wulf, II, 103.
40. In Gilson, ed. 1947, 564.
41. Ibid., 565.
42. 562.
43. 558; Renan, *Averroès*, 268.
44. Ibid., 273-5 ; Gilson, ed. 1947, 559.
45. *Cambridge Medieval History*, V, 822.
46. De Wulf, I, 144.
47. Id., *Philosophy and Civilization in the Middle Ages*, 51.
48. Gilson, *Philosophy of St. Bonaventure*, 8.
49. Sabatier, 41.
50. Sarton, II (2), 938 ; Taylor, *Medieval Mind*, II, 451.
51. Sarton, II (2), 938 ; Taylor, *Medieval, Mind*, II. 451.
52. Maritan, J., *The Angelic Doctor*, 32.
53. Ibid., 29.
54. 31; D'Arcy, *Thomas Aquinas*, 35.
55. Ibid., 51.
56. 46.
57. Grabmann, M., *Thomas Aquinas*, 32.
58. Wicksteed. P. H., *Dante and Aquinas*, 93 ; D'Arcy, 47.
59. Maritain, 45.
60. D'Arcy, 52.
61. De Wnlf, *Philosophy and Civilization*, 186.
62. Maritain, 40.
63. Bevan, *Legacy of Israel*, 267.
64. Diesendruck, Z., *Maimonides and Thomas Aquinas*, 5.
65. Gilson, *La Philosophie*, ed. 1922, I, 114.
66. In Sarton, II (2), 915.
67. Thomas Aquinas, *De caelo et mundo*, lect.22, in Grabmann, 44.
68. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 2.
69. Ibid.
70. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 833.
71. Id., *Summa Theologica*, I, xvi, 8.
72. I., *Summa Contra Gentiles*, i,12.
73. Ibid., i, 3.
74. Id., *Summa Thiologica*, II IIae i, 5.
75. Ibid., II IIae, x, 7.
76. Id., *Quodlibeta*, II, *a*, 7, in Grabmann, 50.
77. Id., *Summa Theologica*, II IIae, i, 10.
78. Ibid., xxvi, 10.
79. Id., *De veritate*, ii, 10.
80. Id., *Summa contra Gentiles*, i, 11.
81. Id., *Summa Theologica*, I, ii, 3; *Summa Contra Gentiles*, i, 16.
82. Ibid., i, 3; i, 30.
83. Id., *Samma contra Gentiles*, ii, 38.
85. Ibid., 35.
86. Ibid., iii, 23.
87. Id., *Quodibeta*, xi 4.
88. Id., *Comm on II Sent.*, VIII, vi, 4, in Hopkins. C. E., *Share of Thomas Aqainas in ... the Witchcraft Delusion*, 78.
89. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, cxvit, 3.
90. Ibid., lcxv, 3 ; xcv, 5.
91. Ibid., 4.
62. Id., *Comm. on Aristotle's Metaphysics*, 146, 157.
93. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, I.
94. In Walsh, *Thirteenth Centary*, 444,
95. Thomas Aquinas, *Samma Theologica*, I, lxxv, 4.

96. Id., *Summe cantra Gentiles*, ii, 72.
97. D'Arcy, 147.
98. Thsmas Aquines, *Comm. on Aristotle's Metaphysics* 179.
99. Id., *Summa contra Gentiles*. ii, 49.
100. Id., *De auima*, iii, 7.
101. Id. *Summa Theolagica*, I, lxxviii, 1-4.
102. Ibid., I, v 6.
103. De Wulf, *History of Medieval Philosophy*, II, 25.
104. Thomas Aquinas, *De veritate*, xxiv, 1.
105. Id, *Summa coatra Gentiles*, i,
106. Id., *Summa Theologica*, I, lxxvi, 1.
107. Idid , IIae, iv, 6.
108. Id., *De veritate*, ii, 2.
109. Id., *Summa eontra Gentiles*, iii, 27-31.
110. Id., *Samma Theologica*, II IIae, xiv, 3 ; xxvii, I ; xxxi, 4.
111. Id., *Comm. on Aristotle's Meto physics* 207 ; *Summa Theologica*, I, xcii, 1; xcix, 2; cxv,2,
112. Ibid.
113. Ibid., I, xcii, 3.
114. Ibid., I, v, 3.
115. Ibid., II IIae, x, 11.
116. Ibid., II IIae, civ, 1 ; I IIae. xix, 5 ; *De veritate*, xvii, 5 ; *on IV Sent*, 38.
117. Id., *Samma Theologica*, II IIae x. 11.
118. Ibid. 10.
119. Ibid., 11,
120. Ibid., 8.
121. Ibid.
122. Ibid., II IIae, xi, 4.
123. Ibid., I iIae, xcvii, 3.
124. Ibid., I, clii 3.
125. Ibid., I IIae, cv, 1; cvii, 1.
126. Id., *De regimine principum*, i,6.
127. Id., *Suma Theologica*, II IIae, lxvi, 2.
128. Ibid.
129. Ibid., II IIae, cxviii, 1.
130. Ibid., II IIae, lxvi, 7.
131. Ibid., II IIae, lxxvii, 4.
132. Ibid., II IIae, lxxviii, 1-4.
133. Ibid., I IIae, xcii, 1 ; cv, 1 ; II IIae, lvii, 3 ; lxx, 3.
134. Ibid. I IIae, vii, If ; *Comm on II Sent.*, xliv ; *Snmma coptra Gentiles*. iv. 76 ; Hearnshaw, *Social and Political Ideas* 103.
135. Thomas Aqninas, *Summa Theologica*, I, vxiii, 5.
136. Ibid., I. xviii, 1, 3; *Summa contra Gentiles*, Iii, 163,quoting Paul, Ephesians, I, 4.
137. Wicksteed, 266.
138. Gilson, *Bonaventure*. 7.
139. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xii, I, 7-8.
140. Ibid., II IIae., cixxix-clxxvii.
141. Sarton. II (2), 916.
142. Tnomas Aquinas, *Summa contra Gentiles*, i, 1.
143. Sarten. II (2). 906.
144. Gilson, *Reason and Revelation* 30.
145. Id. *La philosophie*, ed. 1947. 606.
146. De Wulf, *Medieval Philosophy* II, 85,
147. Ibid., 84 ; Gilson, 603.
148. Quoted in Mill, J. S., *System of Logic*, pret.
149. Waddell, *Wanaering Scholars*, 113.
150. Gilson, *La philosophie*, ed 1922, I, 154.

CHAPTER XXXVII

1. James, *Women*, 120.
2. Thorndike, *Magic*, II, 8.
3, Ibid., 814.
4. Coulton. *Panorama*, 105,

5. Coulton *Five Centuries*. I, 251:
6. Himes, 1٨1.
7. Coulton, *Panorama*, 106.
8. Kantorowicz., 354.
9. Thorndike, *Magic*, II, 169.
10. Coulton, *Life*, I, 38.
11. Id., *Panoroma*, 115.
12. Milman, I, 542.
13. Les, *inquisition in Middle Ages*, III, 424.
14. Hastinge, *Encyclopedia of Religion and Ethres*, III, 42 la.
15. Pauphilet, A., *Jeux et sapience du moyen âge*, 317 n.
16. Coulton, *Social Life*, 526.
17. Singer, Chas., *Stadies in the History and Method af Science*, I, 165.
18. Castiglione, 385.
19. Thorndike, *Mogic*, 'II, 167.
20. Lacroix, *Science and Litterature*, 208.
21. Thorndike, II' 319.
22. Ibid., 328.
23. 689. 949.
24. Sarton II (2), 1082.
25. Walsh, *The Popes and Science*, 52.
26. Sarton, II (2), 1082.
27. Cf. text in Walsh, *Popes*, app.
28. Ibid, 31, 43.
29. Pliny, *Natural History*, xxxvi, 26, 67.
30. Thorndike, II, 237.
31. Sarton. II (2), 611.
32. Thorndike, if' 449.
33. Sarton, II (2), 617.
34. Singer, *Studies*, II' 105.
35. Ibid., I, 18.
36. Thorndike, I, 775.
37: Addison, *Arts*. 78.
38. Giraldus Cambrensis, *Itinerary*, 6
39. Augustine, *City of God*, xvi, 9.
40. Sarton, I, 516.
41. Joinville, 258.
42. Raby, *Chiristian Latih Portey*, 356.
43. Sarton II (2), 575.
44. Kantorowicz. 360.
45. Mumford, 22.
46. Sarton. II (1). 21.
47. *Speculum*, Apr. 1941, 242.
48. Sarton. II (2), 1024.
49. Ibid.; Singer, II, 398.
50. Arnold, *Legacy* of *Islam*, 97.
51. Kantorowicz 354.
52. Sarton. II (2), 1030.
53. Willoughby, W., *Social Jasice.*, 14.
54. Sarton, II (2), 1041.
55. Ibid., 1098.
56. 1037.
57. 1038.9.
58. Thorndike, 1, 740.
59. Garrison, 148.
60. Sarton. ii (1), 81. 242.
61. Garrison, 175.
62. Ibid., 181.
63. Castiglione, 381:
64. Bartholomaeus Anglibus, xiv, 4. in Coulton, *Social Life*, 502.
65. Castiglione, 384.
66. Kantorowicz, 356,
67. Lacroix, *Science*, 149.
68. Thorndike in *Speculum*, Apr. 1928, 194; Neuman, *Jews in Spain*, II, 110.
69. Garrison, 170.
70. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, III, 52.
71. Ibid., 52-7.
72. Carrison, 144, 172.
73. Lacroix, *Science*, 154.

74. Garrison, 144.
75. Coulton, *Panorama*, 448.
76. Sarton, II (I), 72.
77. In Castiglione, 337.
78. Carrison, 153.
79. Castiglione. 388.
80. Walsh *Thirteenth Century*, 345.
81. Sarton, II (I), 84.
82. Joyce, *Ireland*, 151.
83. Garrison, 186.
84. *Speculum*, Jan. 1937, 19.
85. Munro and Sellery, 266.
86. In Coulton, *Panorama*, 304.
87. Jackson, *Byzantine and Romanesque Architecture* I, 142; Barne, *Economic History*, 165.
88. Thorndike, II, 28f.
89. Ibid., 25.
90. 538.
91. Ibid.
92. 526, 566, 568, 583.
93. Walsh, *Thirteenth Century*, 48.
94. Albertus Magnus, *De animalibus*, iv, 3, in Sarton, II (2), 938.
95. Sarton, II (I), 72.
96. Bacon *Opus tertium*, ch. 17.
97. Id, *Opus Maias*, I. xi
98. Bridges, J. H., *Life and work of Roger Bacon*, 125.
99. Bacon, *Opus tertium* Brewer ed., p. 28.
100. Id., *Opus matus*, i, 10.
101. In Little. A. G., *Rogee Bacon Essays*. 10.
102. *Opus Mais*, i, 1.
103. *Compendium studii philosophiae*, ed. Brewer, p. 469.
104. *Opus matus*, ii, 12.
105. Ibid.
106. VII, 1.
107. Little, 117; Sarton, II (2), 805, 961.
108. *Opus tertium*, ch. 29.
109. *Opus maius*, iv, 16.
110. Ibid., iv, *4*; *De Coelestibus*, in Little 15.
111. *Opus maius*, vi, 1.
112. Throndike, II, 650.
113. *Opus manus*, iv, 4.
114. Brioges, 36; Little, 180.
115. Sloane MS., tolio 83b, 1-2, in
116. *De secreits operibus artis et naturae*, ch. iv, in Little, 178.
117. Little 321; En. Br., XI, 3.
118. In bridges, 93.
119. *Opus maius*. v. 4.
120. *De secreits operibus*, in Singer. II, 397.
121. Singer, II, 132.
122. *Opus maius*, vii, *at in'tium*.
123. Bridges, 387.
124. Ibid., 127.
125. 52.
126. De Wulf, *Med. Philosophy*, II, 139.
127. *Opus maius*. ii, 5.
128. *Combendium Philosophiae*, in Coulton, *Life*, II, 55f.
129. *Opus tertium*, in Taylor' *Medieval Mind*, II, 523.
130. Ibid in Coulton, *Five Centuries*, I, 135.
131. Taylor, II, 530.
132. Little, 26.
133. Ibid.
134. 28.
135. Taylor, II, 347.
136. Thorndike, II, 196.
137. Ibid., 208.

CHAPTER XXXVIII

1. Cf. Saxo Grammaticus, 89.
2. Joinville, 140.
3. Iacopo de Voragine *Golden Legend*. pp. 48-56.
4. Mâle, 320.

5. Raby, *Secular Latin Poetry*, II, 289.
6. Haskins, *Renaissance*, 177.
7. Waddell, *Wandering Scholars*, 188.
9. Tr. by Helen Waddell in *Medieval Latin Lyrics*, 171.
10. In Van Doren, M., *Anthology of World Poetry*, 454.
11. In Waddell, op. cit., 278.
12. Bieber, M., *History of the Greek and Roman Theater*, 423.
13. Chambers, *Medieval Stage, II*, 44; Mathews, B., *Development of the Drama*, 115.
14. Mantzius, *History of Theatrical Art*, II, 5.
15. Matthews, 114.
16. Symonds, J. A., *Studies of the Greek Poets*, 310.
17. Raby, *Christian Latin Poetry*, 219.
18. Mantzius, II, 1 of.
19. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II IIae, clxviii, 3.
20. *Chanson de Roland*, II. 1989-2009.
21. Sturinson, *Prose Edda*. # 72, in Sigfusson.
22. Dasent, G. *Story of Burnt Njat*, 237-58.
23. In Butler, *Women*, 101.
24. *Cambridge Medieval History*, III, 128.
25. Cf. an excellent fictionalized biography of Piere Vidal in Cronyon, G., *The Fool of Venus*.
26. Arnold, *Legacy of Islam*, 17.
27. Lecky, *Morals*, II, 232.
28. *Speculum*, Oct. 1938, 380-7.
29. Tr. by Ezra Pound in Van Doren, 660.
30. Rerse, *Medieval Music*, 232.
31. Fiedier, *Das Oxforder Buch Deutscher Dichtung*, 5.
32. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 41.
33. In Taylor, *Medievol Mind, II*, 56.
34. *Songs and Sayings*, 33.
35. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 16.
36. Taylor, II, 62.
37. Walther von der Vogelweide, *I saw the World*, 69.
38. Walther von der Vogelweide, *Songs and Sayings*, 22.
39. Taylor, II, 58.
40. Prestage, *Chivalry*, 100: Conlton, *Life*, III. 77: Francke, *German Literature*, 111.
41. Kroeger, A E., *The Minnesigger of Germany*, 4.
42. Schoenfeld. *Women of the Teutonic Nations*, 162.
43. Tr. by Arthur O'Shaughnessy in Van Doren, 663.
44. Chrétien de Troyes, *Arthurian Romances*, I.
45. Ibid., 318, 309.
46. 287.
47. Wolfram von Eschenbach, *Parzival*, I, 67.
48. In Taylor, II, 8.
49. Wolfram, I 188; vi, 937.
50. *Aucassin et Nicolette*, 6.
51. Ibid., 12. French text in Pauphilet, 444.
52. *Aucassin*, 13.
53. William of Lorris and Jean Clopinel deMeung, *Romance of the Rose*, II. 8767f. 8858.
54. Lines 8511f.
55. 7849.
56. 1685.
57. 9267,70 9725-47.

CHAPTER XXXIX

1. Tr. by D. G. Rossetti.

2. Asin y Palacios, *Islam and the Divine Comedy*. 271 f.
3. Dante, *Porgatorio*, xxxi, 91f.
4. Sedwick, *Italy* II, 277.
5. *Tr*, by D G. Rossctti.
6. Vossler, II, 152.
7. In Ledgwick. II. 291.
8. Cf. *Purgatorio*. xxx, 55.
9. Sedgwick II, 283.
10. Vossler, 1, 323.
11. Dante. *Inferno*, xv, 85.
12. Vossler, I, 164.
13. Dante, *La Vita Nuova*, ii, tr. Rossetti.
14. Ibid., iii.
15. xix.
16. xxvi.
17. xxxii.
18. *Paradiso*, xxx, 28.
19. Id., *Purgntorio*, xxxi, 60.
20. Symonds *Dante*, 55.
21. Dante, *De Monarehia*, iii, 11.
22. Ibid., 16.
23. *De Monarchia*, pref., xxxiii.
24. Dante, *Elveu Letters*, vi.
25. Ep. vii.
26. Symonds, *Dante*, 79.
27. Ep. x.
28. Symonds, *Daute*, 92.
29. Litter to the Italian Cardenals, (1314).
30. Dante, *Il Convito*, x, 5.
31. Ibid., vii, 4.
32. The authenticity of this letter has been unconvincingly questioned by Vossler, I, 76.
33. Dante, *Elevtu Letters*, p. 197.
34. In Coulton, *Panorama*, 208.
35. Dante, *Poradiso*, end.
36. Ibid., x. 1371.
37. Cf. Blschet. *Sources orientales de la Divine Comédie* Paris, 1901. and Asin y Palacios *La escatologia musulmana en la Divina Comedia*, Madrid, 1919, translated as *Islam and the Divina Comedy.*
38. Asin y Palacios. 55-61.
39. Ibid., 171-3, 276-7.
40. Ibid., 232.
41. Rowbotham, 130.
42. Dante, *Interno*, i, 1-3.
43. Ibid., i, 86.
44. Ibid., iil. 1-9.
45. Ibid., iii, 50.
46. Idid., iv, 131-43.
47. Ibid, v, 121-42 ; tr. Cary.
48. Ibid., xix, 53.
49. Ibid., xxviii, 22-42 ; tr. Cary.
50. Id., *Pargatorio*, v, 13.
51. Ibid., vi, 76-93.
52. Ibid., xxvi. 112.
53. Ibid., xxvii, end.
54. Ibid., xxx, 37-9.
55. Ibid, xxxi, 49-51.
56. Ibid., end.
57. Id., *Paradiso*, iit, 85.
58. Ibid., xxvii, 22-8.
59. Id , *Inferno*, xviii, 57-63.
60. Id., *Paradiso*, ix, 127.
61. Id., *Inferno*, xxiv, 125.
62. Ibid., xxxiii, 152.
63. Ibid., xxxiii, 80-4.
64. Ibid., xxxiii, 148.

EPILOGUE

1. Coulton, *Medieval Village*, 290.

قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

النهضة

ترجمة

محمد بدران

الجزء الأول من المجلد الخامس







تونس

بيروت

هذه الترجمة مرخص بها وقد حصلت الإدارة الثقافية
بجامعة الدول العربية عن طريق مؤسسة فرانكلين للطباعة
والنشر على حق الترجمة من صاحب الحق .

القاهرة
لجنة التأليف والترجمة والنشر



(شكل ١) البشارة

نحت على حجر الحرسان فى كنيسة الصليب المقدس بفلورنس — من عمل دوناتلو

(انظر ص ١٧١)

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقـدمة الترجمة	ز
إلى القارئ	ط

الكتـاب الأول

تمهيـد

الباب الأول – عصر بترارك وبوكاتشيو

الموضوع	الصفحة
الفصـل الأول : أبو النهضة	٣
الفصـل الثانى : نابلى وبوكاتشيو	١٤
الفصـل الثالث : شاعر البلاط	١٩
الفصـل الرابع : ثورة پيندسو	٢٧
الفصـل الخامس : العالم الجوال	٣٦
الفصـل السادس : چيتو	٤٠
الفصـل السابع : ديكمرون	٥٠
الفصـل الثامن : سينا	٦١
الفصـل التاسع : ميلان	٦٦
الفصـل العاشر : البندقية وجنوى	٧٠
الفصل الحادى عشر : خاتمة القرن الرابع عشر	٧٦
الفصل الثانى عشر : نظرة عامة	٨١

الباب الثانى – البابوات فى أفنيون

الموضوع	الصفحة
الفصـل الأول : الأسر البابلى	٨٩
الفصـل الثانى : الطريق إلى رومة	١٠٣
الفصـل الثالث : الحياة المسيحية	١١١

الكتاب الثاني : النهضة الفلورنسية

الباب الثالث — نهضة آل مديتشي

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : مسرح الحوادث	١٢٠
الفصل الثاني : الأساس المادي	١٢٤
الفصل الثالث : كوزيمو أبو البلاد	١٣١
الفصل الرابع : الإنسانيون	١٣٩
الفصل الخامس : العمارة — عصر برونيلسكو	١٥٦
الفصل السادس : النحت	١٦٣
١ — جبرتي	١٦٣
٢ — دوناتلو	١٦٦
٣ — لوكا دلا ربيا	١٧٢
الفصل السابع : التصوير الملون	١٧٧
١ — مساتشيو	١٧٧
٢ — فرا انجليكو	١٨٣
٣ — الأخ فلپو لپي	١٨٨
الفصل الثامن : متنوعات أشتات	١٩٣

الباب الرابع — العصر الذهبي

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : پيرو « إلجتوسو »	١٩٩
الفصل الثاني : تنشئة لورندسو	٢٠١
الفصل الثالث : لورندسو الأفخم	٢٠٩
الفصل الرابع : الأدب : عصر پوليتيان	٢١٦
الفصل الخامس : العمارة والنحت : عصر ڤيروتشيو	٢٣٢
الفصل السادس : الرسم	٢٤١
١ — چيرلنداپو	٢٤١
٢ — بتشيتشلي	٢٤٧
الفصل السابع : وفاة لورندسو	٢٥٥

الموضوع الصفحة

الباب الخامس – سفنرولا والجمهورية

الفصـــل الأول : النبى ٢٥٩
الفصـــل الثانى : الحاكم ٢٦٩
الفصـــل الثالث : الشهيد ٢٧٦
الفصـــل الرابع : الجمهورية والمديتشيون ٢٩٢
الفصـــل الخامس : الفن فى عهد الجمهورية ٢٩٥
المراجع ٣٠٦

فهرس الصور

رقم الصورة	موضوعها	مكانها
١	البشارة	أول الكتاب
٢	الهرب إلى مصر	أمام ص ٤٠
٣	لبشارة	« « ٤٠
٤	أبواب مكان التعميد بفلورنس	« « ١٦٤
٥	داود	« « ١٦٧
٦	الصلب	« « ١٦٧
٧	جتاميلاتا	« « ١٧٠
٨	العذراء والطفل	« « ١٧٠
٩	مآل الخراج	« « ١٨٢
١٠	البشارة	« « ١٨٢
١١	العذراء تعبد الطفل	« « ١٩٠
١٢	تعميد المسيح	« « ٢٣٧
١٣	الكونت ساستى	« « ٢٤١
١٤	مولد فينوس	« « ٢٤٧
١٥	مادنا دل آربى	« « ٣٠٢

فهرس الخرائط

١ – إيطاليا الحديثة ... ... أمام ص ١٠
٢ – إيطاليا الشمالية والوسطى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ... أمام ص ٦٠
٣ – جنوبى إيطاليا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ... ... أمام ص ٨٠

مقدمة الترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على عظيم نعمه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والرسل . وبعد ، فهذا هو الجزء الأول (رقم ١٨) من المجلد الخامس من « قصة الحضارة » ، وهو المجلد الذى يروى هذه القصة الطريفة فى إيطاليا . ولسنا مغالين إذا قلنا إن ذلك العصر أهم العصور كلها من حيث الحضارة . ففيه خرج العالم الغربى من ظلمات العصور الوسطى ، وبه بدأ العصر الحديث ؛ ومن أجل هذا خصه المؤلف بمجلدين كاملين ، هذا المجلد الذى يروى قصة الحضارة فى إيطاليا خاصة ، ومن حق إيطاليا أن تنفرد فى ذلك العصر بمجلد خاص ، لأنها كانت مهد النهضة الذى نشأت فيه وترعرعت ثم فاضت منه على سائر أوربا . أما قصة النهضة فى غير إيطاليا من العالم — فى أوربا وآسية — فقد رواها المؤلف فى المجلد السادس الذى ظهر فى أواخر العام الماضى والذى شرعنا فى ترجمته .

وسيجد القارئ فى هذا الجزء وفى الأجزاء الثلاثة الأخرى التى سيصدر فيها هذا المجلد الخامس وصفاً رائعاً لمظاهر النهضة الأدبية والفنية والعلمية والمعمارية ، وحديثاً شيقاً عن أعلام هذا العصر ، وإلى جانبه حديث آخر عن أحوال البلاد الإيطالية وحكامها ورجال العلم ، والدين ، والأدب ، والسياسة ، والحرب فيها ، كل ذلك فى لغة شيقة تتخللها بعض الدعابة التى تذهب بالملل فى كثير من الأحيان .

والترجمة صورة دقيقة من الأصل المترجم بلا زيادة ولا نقصان ؛ فلم نحذف من أقوال المؤلف شيئاً قط ولم نزد عليها إلا بعض تعليقات قليلة

فى هامش الكتاب تفسر عبارة أو تشرح إشارة تاريخية . وقد راعينا فى تعريب الأسماء ســواء منها أسماء المدن أو الأشخاص نطقها بالإيطالية قدر المستطاع بعد أن حققنا هذا النطق بقدر ما وصل إليه جهدنا . ولهذا قد يجد القارئ فيها بعض الخلاف عن الأجزاء السابقة ولكنه خلاف قليل سنتداركه فى تلك الأجزاء عند إعادة طبعها .

ونرجو أن يجد القراء فى هذا المجلد من غزارة العلم وطرافة البحث ما يعوضهم عن طول الوقت الذى يقضونه فى قراءته . فإن وجدوا فسيعوضنا نحن أيضاً ما عانينا من جهد فى ترجمة هذا المجلد الذى يحتوى موضوعات معظمها جديد علينا ، كفنون العمارة والنقش والتصوير والنحت وغيرها من الفنون والعلوم ، وفى البحث عن الاصطلاحات العلمية والفنية التى يزخر بها الكتاب ، ونرجو أن نكون قد وفقنا فى هذا بعض التوفيق إن لم يكن كله .

ولا يفوتنا أن نسجل شكرنا للإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية التى يرجع إليها الفضل فى إخراج هذا الكتاب وللجنة التأليف والترجمة والنشر عنايتها بطبعه ونشره ، وللقراء الكرام فى مصر وسائر البلاد العربية ، الذين كان تشجيعهم حافزاً قوياً لنا على مواصلة هذا الجهد المضنى الطويل .

وفقنا الله إلى أداء واجبنا فى خدمة لغتنا العربية عن طريق الترجمة ، وهو الطريق الذى اخترنا أن نسلكه لخدمتها ، وأعاننا على تذليل ما نلاقيه فيه من صعاب ؟

أكتوبر سنة ١٩٥٨

محمد بدران

إلى القارئ

هذا المجلد كامل بنفسه مستقل بذاته ، ولكنه هو الجزء الخامس من تاريخ الحضارة الذى كتب على أن يكمل بعضه بعضاً وأن يجمع فى قصة واحدة نواحى النشاط البشرى جميعها . ولقد بدأت هـذه السلسلة فى عام ١٩٣٥ وكان أولها **ما ورثناه من الشرق** – أى تاريخ مصر والشرقين الأدنى والأوسط حتى عام ٣٢٣ ق . م ، وتاريخ الهند والصين واليابان حتى عام ١٩٣٠ . وكان جزؤها الثانى **حياة اليونان** (١٩٣٩) وهو يسجل تاريخ اليونان وثقافتهم من أقدم العصور المعروفة ، وتاريخ الشرقين الأدنى والأوسط من ٣٢٥ ق . م حتى الفتح الرومانى فى عام ١٤٦ . وواصل الجزء الثالث **قيصر والمسيح** (١٩٤٤) رواية قصة الجنس الأبيض حتى عام ٣٢٥ م ، وكان محورها الذى تدور حوله هو نشأة رومة وسقوطها والقرون الأولى من المسيحية . وواصل الجزء الرابع **عصر الإيمان** (١٩٥٠) رواية هذه القصة حتى عام ١٣٠٠ ، ويضم بين طياته الحضارة البيزنطية وحضارات الإسلام واليهودية والعالم المسيحى اللاتينى .

ويهدف هـذا المجلد إلى رسم صورة شاملة موجزة لجميع مناحى الحياة البشرية فى إيطاليا على عهد النهضة – من مولد پترارك فى عام ١٣٠٤ إلى موت تيشيان Titian فى عام ١٥٧٦ . وتشير كلمة النهضة فى هذا المجلد إلى إيطاليا دون غيرها من البلاد ، ولن تستخدم للدلالة على ما حدث من تقدم ونضوج فى فرنسا ، وأسپانيا ، وإنجلترا والأراضى الوطيئة فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلا ما بعث بعثاً جديداً فى تلك البلاد وكانت أصوله أجنبية عنها ، وحتى فى إيطاليا نفسها تعنى هذه التسمية أكثر ما تعنى بعث الآداب القديمة التى لم يكن لها من الخطر فى إيطاليا

ما كان لتقدم اقتصادياتها وثقافتها حتى بلغت صورتها المميزة لها فى تلك البلاد .

ولقد أردت أن أجتنب التكرار السطحى لما نشر فى هذا الموضوع من كتب قيمة ، فوسعت نطاق البحث إلى أكثر مما ألفه القارئ فى المجلدات السابقة من هذه السلسلة . وكان مما اقتضى هذا التوسع غير هذا السبب أننا كلما اقتربنا من عصرنا الحاضر زاد اهتمامنا بموضوعنا ؛ ذلك أننا نشعر بما يجرى فى دمائنا من حيوية مستمدة من تلك القرون الخطيرة الأحداث التى نشأت فيها أوربا الحديثة ، وبذلك تصبح أفكار تلك القرون ، وحوادثها ، وأشخاصها ، لا غنى عنها لفهم عقولنا وأيامنا . ولقد درست بنفسى كل ما ورد ذكره فى هذا الكتاب من مؤلفات خاصة بالفن إلا القليل منها ، ولكننى تعوزنى الدربة الفنية التى تخولنى حق إصدار أحكام عليها قائمة على البحث والنقد . غير أننى قد أقدمت على التعبير عما أفضله منها وعما انطبع فى ذهنى بعد قراءتها . والآن نرى الفن الحديث يسير فى طريق مضاد للذى سار فيه فن النهضة ، ويحاول جاهداً أن يجد صوراً جديدة للجمال ، ومعانى جميلة للأشياء . وليس لدينا ما نأخذه على هذه النزعة ، لأنه مهما يكن تقديرنا لها ، فإن هذا التقدير يجب ألا يحول بيننا وبين الترحيب بكل محاولة صادقة منظمة يقصد بها محاكاة ما تمتاز به من قوة ابتكار لا ما أسفرت عنه من نتائج .

وفى عزمنا إذا واتتنا الظروف أن نصدر مجلداً سادساً سيكون عنوانه فى الأغلب الأعم عصر الإصلاح الدينى(*) بعد ثلاث سنين أو أربع من هذا الوقت ، يشتمل على تاريخ الحضارات المسيحية والإسلامية واليهودية فى خارج إيطاليا مبتدئاً من عام ١٣٠٠ ، وفى إيطاليا نفسها من ١٥٧٦ إلى ١٦٤٨ . ويحسن بنا بعد هذا التوسع فى البحث وما نشعر به من آثار الشيخوخة أن نفكر فى أن نختم هذه السلسلة بمجلد سابع نطلق عليه اسم

(*) لقد ظهر هذا المجلد فعلا وبدأنا نترجمه . (المترجم)

عصر العقل يواصل رواية القصة إلى بداية القرن التاسع عشر :

وأرى فرضاً على أن أشكر لمستر جوزف أوسلاندر Joseph Ouslander إذنه لى بأن أنقل هنا ترجمته الجميلة لإحدى أغانى پترارك ، ولمطبعة جامعة كيمبردج إذنها بأن أنقل فقرة بقلم رتشرد جارنت Richard Garnet ، فى المجلد الأول من *تاريخ كيمبردج الحديث* Cambridge Modern History ولزوجتى ما كان لها من اقتراحات وأحاديث أنارت لى السبيل ، وللدكتور إدورد هپكن Edward Hopkin ما قدم لى من معونة فى تصنيف مواد الكتاب ، وللآنسة مارى كوفمان Mary Kaufman والآنسة فلورا كوفمان Flora Kaufman ما قدمتا من معونة كتابية متعددة الأنواع ، والسيدة إدث ديجيت Edith Digate ما أظهرت من كفاية عظيمة فى كتابه المخطوط على الآلة الكاتبة رغم ما به من صعوبات جمة ، ولولاس بركواى Wallace Brockway خبرته العظيمة فى إخراج الكتاب وما قدم لى فى هـذه الناحية من نصائح سديدة .

وأشكر بعد هذا كله ناشرى هذا الكتاب ، فلقد دلت صلتى الطويلة بهم على أنهم من خير من يستطاع وجودهم من الناشرين ؛ ذلك أنهم لم يضنوا على بأى معونة ، فقد تحملوا معى نفقات البحث ؛ ولم يجعلوا لحساب المكسب أو الخسارة أى أثر فى علاقاتنا . وقد نشروا فى عام ١٩٢٦ كتابى **قصة الفلسفة** وكل ما كانوا يرجونه من وراء نشره ألا تصيبهم من هذا النشر خسارة ، وقد ظلت علاقتنا قائمة سبعة وعشرين عاماً كانت بالنسبة لى صلة موفقة سعيدة :

ملاحظات عن طريقة استخدام هذا الكتاب

١ ـ حذفنا من النص تواريخ مولد الأشخاص ووفاتهم ، ولكننا أثبتناها فى فهرس الأعلام والأماكن .

٢ — الفقرات المكتبوبة بالخط الصغير تعنى الدارسين المتخصصين وحدهم ، وفى وسع القارئ العادى أن يغفلها وهو آمن .

٣ — رأينا عند ذكر الأماكن التى توجد فيها التحف الفنية أن نذكر اسم المدينة للدلالة على أهم معرض للفنون بها مثال ذلك :

مدينة برجامو للدلالة على مجمع كرارا الفنى
بريستشيا للدلالة على پناكوتيكا مارتننجو
كليفلند للدلالة على متحف الفنون بها
لنينجراد « « الصومعة بها
لندن « « المعرض القومى
منتوا « « قصر الدوق
مودينا « « پيناكوتيكا إستنسى
نيويورك « « متحف الفن العاصمى
البندقية للدلالة على المجمع العلمى الفنى

برلين للدلالة على متحف قيصر فردريخ بها
تشكاجو للدلالة على معهد الفنون
دترويت للدلالة على معهد الفنون بها
مدريد « « البرادو
ميلان « « معرض بريرا الفنى
نابلى للدلالة على المتحف القومى
پارما « « المعرض الملكى
للفنون
واشنجتن للدلالة على المعرض القومى
للفنون

غير أنا قد ميزنا معرضى فلورنس الفنيين العظيمين باسميهما أفيزى Uffizi ، وپتى Pitti وكذلك المعرض البرغى Borghese فى رومة .

لوس أنجليز فى أول ديسمبر سنة ١٩٥٢

ول ديورانت

الكتاب الأول

تمهيد

١٣٠٠ – ١٣٧٧

الباب الاول

عصر پترارك وبوكاتشيو

١٣٠٤ – ١٣٧٥

الفصل الأول

أبو النهضة

فى عام ١٣٠٢ نفسه ، أى فى العام الذى انتزع فيه حزب الأشراف **السود** حكم مدينة فلورنس بالقوة ، ونفوا دانتى وغيره من حزب الطبقة الوسطى **البيض** اتهم الأشراف الظافرون محامياً من البيض هو السِّر Ser (أى السيد أو الرئيس) پتراتشيو Petracceo بأنه زور وثيقة قانونية . ووصف پتراتشيو التهمة بأنها حجة ماكرة للقضاء على حياته السياسية ، فأبى أن يمثل أمام القضاء ليحاكم عليها ، فحكم عليه فى غيابه ، وخير بين أن يؤدى غرامة باعظة أو تقطع يده اليمنى . وإذ كان قد ظل يرفض الحضور أمام المحكمة فقد صدر الأمر بنفيه من فلورنس ، وصودرت أملاكه . فما كان منه إلا أن فر إلى أريتسو Arezzo هو وزوجته . وفى هذه المدينة طلع فرانتسكو بتراركا Francesco Petrarca (كما سمى نفسه فيما بعد تظرفاً) على العالم على حين غفلة بعد عامين من نفيه .

وكانت بلدة أريتسو الصغيرة جيبلية Ghibeline عارمة (أى تدين بالولاء السياسى للإمبراطورية الرومانية المقدسة لا للبابوات) ، فكانت لذلك تعانى فى القرن الرابع عشر كل ما تعانيه المدن الإيطالية من المحن . وكانت

فلورنس الجلفية Guelfic — أى التى تناصر البابوات على الأباطرة فى النزاع القائم بينهما على السلطان السياسى فى إيطاليا ¹ — قد أوقعت بأريتسو هزيمة منكرة عند كمبلدينو Campaldino (١١٨٩) وهى المعركة التى حارب فيها دانتى ؛ فلما حل عام ١٣٤٠ نفى جميع الجبليين الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسبعين من بلدة أريتسو ، ثم خضعت تلك البلدة نفسها نهائياً لحكم فلورنس فى عام ١٣٨٤ . وكانت أريتسو هذه هى البلدة التى ولد فيها ماسناس Maccenas فى الزمن القديم ، وهى التى شهدت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر مولد چيورچيوڤاسارى Giorgio Vasari الذى أذاع شهرة النهضة ، وپيترو أريتينو Pietro Aretino الذى حط من شأنها وقتاً ما ؛ وأنجبت كل بلدة فى إيطاليا فى ذلك العهد عبقرياً من العباقرة ثم نفته منها .

وهرول السيد پتراتشيو نحو الشمال فى عام ١٣١٢ ليرحب بالإمبراطور هنرى السابع الذى كان يرجى فى ذلك الوقت أن ينقذ إيطاليا أو فى القليل من فيها من الجبليين . ولم يكن پتراتشيو فى ذلك العام يقل عن دانتى أملا وثقة فى المستقبل ، فنقل أسرته إلى پيزا Pisa وانتظر فيها القضاء على الجلفيين الفلورنسيين .

وكانت پيزا لا تزال حتى ذلك الوقت من بين مفاخر المدن الإيطالية ؛ نعم إن تدمير أسطولها على يد أهل چنوى فى عام ١٢٨٤ قد أفقدها بعض أملاكها ، وأنقص تجارتها ؛ وأن النزاع الذى قام بين الجبليين والجلفيين داخل أسوارها لم يترك لها من القوة ما تستطيع أن تفلت به من قبضة فلورنس التجارية صاحبة النزعة الاستعمارية ، والتى كانت تتوق إلى السيطرة على نهر الآرنو حتى مصبه . ولكن أهلها البواسل كانوا يزهون بكنائسها الرخامية الفخمة ، وأبراجها المزعزعة ، ومقابرها الشهيرة ، وذلك الحقل المقدس Campo Santo الذى ملئ مربعه الأوسط بثرى الأرض المقدسة ،

والذى زينت جدرانه بعد قليل من ذلك الوقت بمظلمات من صنع تلاميذ جيتو Giotto واللورندستى Lorenzetti ، والذى خلّدت قبوره المزدانة بالتماثيل ذكرى الموتى من الأبطال أو الأسخياء وإن لم يدم هذا التخليد إلا إلى حين . وفى جامعة پيزا عكف المشترع البارع بارتولوس Bartolus البساسوفرتووى of Sassoferratato بعد إنشائها بزمن وجيز على تعديل القانون الرومانى ليوائم حاجات العصر الذى كان يعيش فيه ، ولكنه صاغ علم القانون فى عبارات غريبة حمل عليه من أجلها پترارك وبوكاتشيو حملة شعواء . ولعل بارتولوس قد رأى من الحكمة أن تكون لغة القانون غامضة لأنه كان يبرر قتل الطغاة المستبدين ، وينكر على الحكومات مصادرة أملاك الناس إلا بعد الإجراءات القانونية الواجب اتباعها فى مثل هذه الأحوال[1] .

وتوفى هنرى السابع (١٣١٣) قبل أن يقرر هل يكون إمبراطوراً رومانياً أو لا يكون : وابتهج جلفيو إيطاليا بوفاته ؛ ورأى السيد پتراتشيو أنه غير آمن على نفسه فى پيزا فهاجر منها هو وزوجته وابنته إلى أڤنيون القائمة على ضفة نهر الرون حيث كان البلاط البابوى قد أقيم من عهد قريب ، وحيث كانت التجارة آخذة فى الاتساع السريع ، فأتاحا فرصاً ثمينة للمحامى البارع فى مهنته . وركبت الأسرة سفينة شراعية سارت بمحاذاة الساحل إلى جنوى ، ولم ينس پترارك قط ما كان يتجلى أمامه من مناظر ساحل الرڤييرا الإيطالى الرائعة — من مدن كأنها التيجان على هامات جبال تنحدر إلى بحار زرقاء مخضرة ، يقول فيها الشاعر الشاب : « إنها أشبه بالسماء منها إلى الأرض[2] » . ووجدت الأسرة بلدة أڤنيون مليئة بأصحاب المراتب العالية ، فانتقلت منها إلى كارپنتراس Carpentras التى تبعد عنها نحو خمسة عشر ميلا نحو الشمال (١٣١٥) ، وقضى فرانتسكو فى هذه البلدة الثانية أربع سنين سعيداً فى تواكله وعدم مبالاته بما يحيط به . وانتهت السعادة حين أرسل إلى منپلييه (١٣١٩ — ١٣٢٣) ، ومنها إلى بولونيا (١٣٢٣ — ١٣٢٦) لدراسة القانون .

وكان من شأن بولونيا أن تسره ؛ فقد كانت مدينة جامعية ، مليئة بمرح الطلاب ومجونهم ، يغمرها جو التعليم ، وتحمس التفكير الحر المستقل ؛ وفى هذه المدينة كانت تدرس فى هذا القرن الرابع عشر أولى مناهج التشريح الآدمى ، وكانت فيها أستاذات من النساء بلغت بعضهن — مثل نوڤيلا دندريا Novella d'Andrea (المتوفاة عام ١٣٦٦) — من الجاذبية حدا جعل الرواة يصفونها — وصفا خياليا بلا شك — بأنها كانت تحاضر من تحت قناع لئلا يشغل الطلاب بجمالها عن علمها . وكانت بلدية بولونيا من أوليات البلديات التى ألقت عن كاهلها نير الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأعلنت استقلالها بشئونها . وكانت منذ ذلك العهد البعيد وهو عام ١١٥٣ قد اختارت محافظها وظلت قرنين كاملين محافظة على حكومتها الدمقراطية ؛ ولكنها منيت فى عام ١٣٢٥ ، وپترارك مقيم فيها ، بهزيمة ساحقة على يد مودينا Modena لم يسعها معها إلا أن تضع نفسها تحت حماية البابوية ، فلما حل عام ١٣٢٧ ارتضت أن يكون قس معين من قبل البابا حاكما لها ، ونسجت حول هذه الفترة من تاريخها كثير من القصص المريرة .

وكان پترارك يحب الروح السائدة فى بولونيا ، ولكنه كان يبغض حرفية القانون : «وكان مما يتعارض مع ميولى ويؤلمنى أن أحصّل فنا لا أريد أن أمارسه ممارسة غير شريفة ، ولا أستطيع أن أمارسه بغير هذه الطريقة»[٢] . وكل ما كان يعنى به فى الرسائل القانونية هو «ما كان فيها من إشارات يخطئها الحصر للعصر الرومانى القديم» . ولهذا فإنه بدلا من أن يدرس القانون قرأ كل ما استطاع أن يجده من كتابات ڤرچيل ، وشيشرون ، وسنكا . وفتح هؤلاء أمامه عالما جديداً فى الفلسفة والفن الأدبى ، وشرع يفكر كما يفكرون ، ويتوق إلى أن يكتب كما يكتبون ؛ ولما توفى أبواه (١٣٢٦) هجر دراسة القانون ، وعاد إلى أڤنيون وألقى بنفسه فى غمار الشعر القديم وآداب الغرام .

ويقول إن يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذى وقعت فيه عيناه على المرأة التى كانت مفاتنها المتمنعة هى التى جعلته أشعر شعراء عصره . وقد وصّفها وصفا مفصلا يفتتن به قارئه ، ولكنه حرص على الاحتفاظ بسرية شخصيتها حرصا حمل أصدقاءه على الظن أنها من مبتكرات خياله الشعرى ، وأن كل ما يبثها من عاطفة إنما هو من قبيل التسامح الشعرى لا أكثر : ولكننا لا يزال فى وسعنا أن نرى على الصفحة الأولى من نسخته الخاصة من ديوان فرچيل ، التى تحرص مكتبة أمبروز بميلان على الاحتفاظ بها وتعدها من أثمن كنوزها ، لا نزال نرى الألفاظ التى كتبها بخطه فى عام ١٣٤٨ بنصها :

فى سنة ١٣٢٧ من ميلاد المسيح ، وفى اليوم السادس من شهر إبريل ، وفى الساعة الأولى ، وقعت عيناى فى كنيسة القديسة كلارا Santa Clara بأفنيون على لورا Laura التى تمتاز بفضائلها ، والتى ذاعت شهرتها فى أغانى . وفى تلك المدينة نفسها ، وفى الشهر نفسه ، وفى اليوم السادس بعينه ، وفى الساعة الأولى ذاتها ، من عام ١٣٤٨ احتجب هذا الضوء من نهارنا .

ترى من كانت لورا هذه ؟ لقد سُجِّلت فى أفنيون فى اليوم الثالث من أبريل عام ١٣٤٨ وصية أوصت بها سيدة تدعى لورا ده ساد Laura de Sade زوجة الكونت هيوج ده ساد Hugue de Sade التى ولدت له اثنى عشر طفلا . وأكبر الظن إن هذه هى السيدة التى كان يهيم بها الشاعر ، وكان زوجها من الأسلاف الأبعدين لأشهر رجل سادى فى التاريخ . وتصف الرواية المأثورة نقشا دقيقا يعزى إلى سيمون مرتينى Simone Martini محفوظ الآن بمكتبة فلورنس بأنه صورة لورا محبوبة پترارك ، والصورة ذات وجه رقيق ، وفم ظريف ، وأنف مستقيم ، وعينين ناعستين توحيان بالتواضع والتفكير . ولسنا نعرف أكانت لورا قد تزوجت أم كانت أما شابة حين وقعت عليها عين پترارك أول مرة ؟

ومهما يكن من أمرها فإنها تاقت هيامه بها فى هدوء ، وأبعدته عنها ، وشجعته فى هيامه بها بتمنعها وصدودها . ويدلنا على ما كان فى عاطفته نحوها من إخلاص فى بعض الأحيان تأنيب ضميره له لما كان فى هـــذه العاطفة من عنصر شهوانى ، وحمده الله على ما كان لعدم استجابتها لحبه من أثر فى تهذيب هذا الحب والسمو به .

وكان فى هذه الأثناء يعيش فى پروڤانس ، بلاد شعراء الفروسية الغزلين ، وكان صـــدى أغانيهم لا يزال يتردد فى أڤنيون ، وصار پترارك ، كما صار دانتى من قبله بجيل من الزمان من هؤلاء الشعراء الغزلين على غير علم منه ، يعبر عن عاطفته بألف حيلة وحيلة من الحيل الشعرية . وكان قرض الشعر وقتئذ من أسباب اللهو الشائعة . وقد بلغ من شيوعه أن شكا پترارك فى إحدى رسائله من أن المحامين ، ورجال الدين ، بل وخادمه الخاص نفسه قد عمدوا كلهم إلى قرض الشعر ، ويقول إنه يخشى ألا يمضى وقت طويل حتى « تشرع الماشية نفسها أن تخور شعرا »[٣] . وقد ورث عن بلاده بحر الأغانى ، وربط بينه وبين الشعر المقفى العسر الذى ظل مائة عام يشكل الشعر الإيطالى ويقف فى سبيله ؛ وألف فى خلال الإحدى والعشرين السنة التالية ، وهو سائر على ضفاف الجداول ، أو بين التلال ، أو راكع خاشع أثناء صلوات المساء أو القداس ، يتحسس طريقه بين صيغ الأفعال والصفات ، فى سكون حجرته ، نقول إنه ألف فى خلال هذه السنين سبع أغان ومائتى أغنية ، وقصائد أخرى متنوعة عن لورا الحية الولود . وجمعت هذه الأغنيات والقصائد فى نسخ مخطوطة وسميت الكنـدسنيير Canzoniere أو كتاب الأغانى ، فأثارت خيال شباب إيطاليا ، ورجالها ، ورجال الدين فيها . ولم ير أحد حرجا فى أن مؤلفها ، حين لم يجد طريقا للرقى إلا طريق الكنيسة ، قد تيفخ[*] .

( ) أى حلق شعر اليافوخ وهو كناية عن أنه انتظم فى سلك رجال الدين (المترجم)

وانتظم فى المراتب الصغرى من مراتب الكنيسة ، وأخذ يسعى للحصول على الرتب الكهنوتية . وأما لورا نفسها فلعلها قد اعتراها الخجل ، واهتزت مشاعرها — حين سمعت أن شعرها ، وأنفها ، وشفتيها . . . كانت يتغنى بها من البحر الأدرياوى إلى نهر الرون . ولم يحدث قط من قبل فيما أنقذ من الضياع من أدب العالم أن عبر إنسان عن عاطفة الحب هذا التعبير الكامل المختلف الأنواع أو بمثل هذه الأساليب الشعرية التى بذل فيها الكثير من الجهد والعناء ، ففيه نجد كل تلك الأوهام المتكلفة الظريفة المنبعثة عن الرغبات المصوغة شعرا ، ونجد شعلة الحب الملتهبة قد شذبت تشذيبا عجيبا حتى احتواها الوزن والقافية . وفى هذا يقول الشاعر نفسه :

« ما من صخرة ، مهما بردت ، إلا ستشتعل من هذه الساعة وتحترق تحسراً إذا مستها أغانى » .

ولكن الشعب الإيطالى قد تلقى هذه المعانى الحلوة مصوغة فى أروع ما عرفته لغته من الأنغام الموسيقية : رقيقة ، ظريفة ، منسجمة ، مزدانة بالخيال الساطع الوقاد ، الذى يبدو دانتى بإزائه فى بعض الأحيان خشناً فجاً ، فها هى ذى الآن تلك اللغة الفخمة الجيدة التى انتصرت فيها الحركات على الحروف الساكنة ، قد بلغت الآن درجة سامية من الجمال لم ترق إليها لغة ما إلى يومنا هذا . إن فى وسع الأجنبى الذى ليس من أهل هذه اللغة أن يترجم ما فيها من الأفكار ، ولكن منذا الذى يستطيع أن يترجم ما فيها من موسيقى ؟ :

فى أية مملكة ذات سناء ، بل فى أى ميدان من ميادين الفكر المتألق
عثرت الطبيعة على النموذج الذى صاغت على مثاله
هذه الصورة الرقيقة الباهرة التى تمثل هنا
على ظهر الأرض ما صنعته الطبيعة فى السماء ؟
وأية حورية من ساكنات عيون الماء ، وأية روح من أرواح الحراج

نشرت مثل هذه الذوائبات الذهبية
على متن الهواء ؟ وأى قلب عرف أمثال هذه الفضائل ؟
وإن كانت أكبر فضائلها قد انطوت على موتى ؛
إن من لا يتطلع إلى عينيها اللتين اكتمل فيهما الجمال
إنما يبحث عن الجمال السماوى بلا جدوى ؛
ومن لا يرى هاتين المقلتين النيرتين الزرقاوين تشعان الضياء
لا يعرف كيف يذعن الحب ويصد
وليس يعرف حلو أنفاسها إلا من عرف
حلو حديثها وضحكها

ولقد هيأت لبترارك قصائده ، وفكاهته المرحة ، وإحساسه المرهف بالجمال فى المرأة وفى الطبيعة ، وفى السلوك ، والآداب ، والفنون ، مكاناً فى المجتمع المثقف ؛ ولم يكن تنديده بأخلاق رجال الدين فى أفنيون يمنع عظماء هؤلاء الرجال من أمثال الأسقف جياكومو كولنا Giacomo Colonna أو أخاه الكردنال چيوڤنى كولنا أن يعرضا عليه ضيافتهما ومناصرتهما ؛ وقد فعل ما تفعله الكثرة الغالبة منا فاستمتع وغفر قبل أن يمل ويلعن ؛ فقد كان يلهو مع محظية له بين الفترات التى ينشد فيها أغانيه للورا ، وولد له طفلان غير شرعيين . ووجد متسعاً من الوقت للأسفار ، وجمع فيما يظهر مالا موفوراً ، فنحن نجده فى باريس عام ١٣٣١ ، ثم نجده بعدئذ فى فلاندرز وألمانيا ، ثم فى رومة عام ١٣٣٦ يحل ضيفا على آل كولنا Colonna . وقد تركت خرائب سوق رومة الكبرى أعمق الأثر فى نفسه ، فقد كشفت له عن قوة وفخامة قديمتين لا تتفقان مع ما كانت عليه تلك العاصمة المهجورة فى العصور الوسطى من فقر وقذارة ، وألح على خمسة من البابوات متعاقبين أن يتركوا أفنيون ويعودوا إلى رومة ؛ وإن كان هو نفسه قد غادر رومة وعاد إلى أفنيون .



(الخريطة رقم ١)

وعاش سبع سنين بين أسفاره فى قصر الكردنال كولنا فى هذه المدينة الثانية ، كان يجتمع فيها بأظرف العلماء ، ورجال الدين ، والمحامين ، وحكام إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، ويوحى إليهم ببعض تحمسه للآداب القديمة ، ولكنه كان يُغضبه ما فى أفنيون من فساد ورِشا وخصام رجال الدين ، وما يستمتعون به من فراغ منهك قتال ، واختلاط الكرادلة والسرارى ، والنزول بالمسيحية إلى الشئون الدنيوية . فلما كان عام ١٣٣٧ ابتاع له منزلا صغيراً فى فوكلوز **Vaucluse** « الوادى المغلق » — الذى يبعد عن أفنيون عشرين ميلا جهة الشرق . ويجتاز الإنسان مناظر فخمة ذات روعة ليصل إلى ذلك المكان المنعزل ، فلا يتمالك نفسه من الدهشة حين يشهد كوخاً صغيراً قائماً أمام صخرة تعلوها أجراف شامخة وعرة ، ولكنه يلاطفه انسياب نهر السورج **Sorgue** الهادئ الرجراج . ولم يستبق بترارك روسو إلى التسامى العاطفى بحبه فحسب ، بل استبقه فوق ذلك إلى المتعة التى كان يستمدها من المناظر الطبيعية . انظر مثلا إلى ما كتبه إلى صديق له يقول : « ألا ليتك تعرف ما أحس به من البهجة وأنا أجول ، حراً وحيداً ، بين الجبال والغابات ، ومجارى الماء » . وفى عام ١٣٣٦ ضرب المثل لغيره من السياح بأن تسلق قمة فنتو **Ventoux** (التى تعلو ٦٢١٤ قدماً) لا لشىء إلا الرياضة ، واجتلاء ما حولها من المناظر ، وما يشعر به المنتصر من زهو وخيلاء . وكان وهو فى فوكلوز فى ذلك الوقت يرتدى زى الفلاح العامل ، ويصيد السمك فى الغدير ، ويرتاض فى حديقتين ، ويقنع « بكلب واحد وخادمين لا أكثر » . ولم يكن يندم على شىء (لأن هيامه بلورا قد انصرف فى أشعار الصيد) إلا على شدة بعده عن إيطاليا وشدة قربه من أفنيون .

ومن هذه البقعة الصغيرة من الأرض أثار بترارك نصف العالم الأدبى . وكان يحب أن يكتب الرسائل الطوال لأصدقائه ، وإلى البابوات والملوك ، والأموات من المؤلفين ، وإلى الأبناء الذين لم يولدوا بعد . وكان يحتفظ

بصور من هذه الرسائل ؛ ولما تقدمت به السن كان يسلى كبرياءه بمراجعتها وإعدادها للنشر بعد وفاته . وتعد هذه الرسائل المصوغة فى لغة لاتينية جزلة ، ولكنها لاتضاهى لغة شيشرون ، أهم ما بقى من آثار قلمه . وقد وجه فى بعضها إلى الكنيسة نقداً بلغ من شدته أن أبقاها سراً فلم تنشر إلا بعد أن مات وأصبح آمنا على نفسه . ذلك أنه وإن قبل فى إخلاص ، كما يبدو للعيان ، عقائد الكنيسة الكاثوليكية كاملة ، كان يقيم بروحه مع الأقدمين : فكان يكتب إلى هومبروس ، وشيشرون ، وليڤى ، كأنهم رفاق له أحياء ، ويتحسر لأنه لم يولد فى أيام البطولة ، أيام الجمهورية الرومانية . وكان من عادته أن يطلق اسم ليليوس Laelius على واحد ممن يراسلهم ، واسم سقراط على واحد آخر . وقد أوحى إلى أصدقائه أن يبحثوا عن المخطوطات الضائعة فى الآداب اللاتينية واليونانية ، وأن ينقلوا النقوش القديمة ، ويجمعوا المسكوكات القديمة ، لأنها وثائق تاريخية قيمة . وحث ولاة الأمور على أن ينشئوا دور الكتب العامة . وكان يجعل نفسه قدوة فيعمل بما يدعو إليه : فكان فى أسفاره يبحث عن النصوص الأدبية القديمة ويبتاعها لأنها « تجارة أعظم قيمة من كل ما يعرضه العرب أو أهل الصين »[٦] ، وينقل بخط يده المخطوطات التى لا يستطيع شراءها ؛ ولما عاد إلى موطنه استأجر النساخين وأسكنهم معه فى داره . وكان يزدهى بنسخة من هومبروس أرسلت إليه من بلاد اليونان ، ورجا مرسلها أن يبعث إليه بنسخة من مؤلفات يوريپديز . وكان يصحب معه أينما رحل النسخة التى لديه من أشعار ڤرچيل ، ويسجل على الصفحة الأولى منها الحوادث البارزة فى حياة أصدقائه . ولسنا ننكر أن العصور الوسطى قد حافظت على كثير من الآداب الوثنية القديمة ، وأن بعض الدارسين فى تلك العصور قد أولعوا بهذه الآداب ؛ ولكن پترارك عرف من إشارات عثر عليها فى هذه المؤلفات أن روائع لاحصر لها قد نسيت أو وضعت فى غير المكان اللائق بها ، وجعل همه الكشف عنها .

ويسميه رينان Renan « أول الرجال المحدثين » لأنه « خلق فى العالم الغربى اللاتينى حنيناً رقيقاً إلى الثقافة القديمة »(٧) . على أن هذا الوصف لا يكفى لتحديد معنى « الحداثة » التى لم تكتف بإعادة الكشف عن أدب العالم القديم ، بل أحلت الأدب الطبيعى محل الأدب الخارق للطبيعة ، وجعلته مصدر اهتمام بنى الإنسان . وبهذا المعنى أيضاً يستحق بترارك أن يوصف بالرجل « الحديث » ، فهو وإن كان تقياً معتدلا فى تقواه يُحيره فى بعض الأحيان ما يحدث للإنسان فى الدار الآخرة . فإن ما بعثه من الاهتمام بالعالم القديم كان هو منشأ اهتمام عصر النهضة بحياة الإنسان على هذه الأرض ، وعدم تحريم الملاذ الحسية ، وتمجيد الحياة الدنيوية بدلا من الخلود الشخصى . على أن بترارك لم يكن يخلو قلبه من العطف على وجهة نظر العصور الوسطى ؛ وقد أنطلق فى محاوراته عن احتقار الدنيا De Contemptu Mundi القديس أوغسطين بشرح جيد لهذه النظرة . ولكنه وضع نفسه فى هذه الأحاديث الخيالية موضع المدافع عن الثقافة الزمنية والشهرة الدنيوية . وكانت هوة سحيقة تفصل بين مزاجى دانتى وبترارك وإن كان ثانيهما قد بلغ السابعة عشر من عمره حين توفى أولهما . والنقاد مجمعون على أنه أول الكتاب الإنسانيين ، وأول كاتب عبر فى وضوح وقوة عما للإنسان من حق فى الاهتمام بهذه الحياة الدنيا ، وفى الاستمتاع بما تحويه من جمال ، وبذل الجهد فى زيادته ، والعمل على أن يستحق الثناء من الأجيال المقبلة ؛ وقصارى القول أنه كان أبا للنهضة .

الفصل الثانى

نابلى وبوكاتشيو

وبدأ پترارك فى فوكلوز القصيدة التى كان يرجو بها أن ينافس ڤرچيل ؛ وهى ملحمة سماها أفريقا Africa ، وموضوعها تحرير إيطاليا بفضل انتصار اسكپيو الأفريقى على هنيبال . واختار اللغة اللاتينية واسطة لها كما اختارها الكتاب الإنسانيون بعد قرن من ذلك الوقت ، ولم يختر اللغة الإيطالية كما فعل دانتى ، لأنه كان يريد أن يفهمه كل العالم الغربى الذى يعرف القراءة والكتابة . وكان يزداد ارتياباً فى قيمة قصيدته كلما تقدم فى نظمها ، ولهذا فإنه لم يتمها ، ولم ينشرها . وبينا كان منهمكاً فى شعره السداسى الأوتاد ، كان كتاب أغانيه الإيطالية ينشر شهرته فى طول إيطاليا وعرضها ، وأذاعت ترجمة له شهرته فى فرنسا . ثم وصلته فى عام ١٣٤٠ دعوتان — كانت له هو يد فى توجيههما إليه — إحداهما من مجلس الشيوخ الرومانى والأخرى من جامعة پاريس — تطلبان إليه القدوم إليهما ليتوج فيهما أميراً للشعراء . فقبل دعوة مجلس الشيوخ كما قبل اقتراح ربرت الحكيم Robert the Wise أن يقيم بعض الوقت فى نابلى وهو فى طريقه إلى رومة .

وأعطيت مملكة فردريك الثانى بعد هزيمته هو وآل هوهنشتوفن بقوة جيوش البابوات ودهائهم السياسى ، وكانت تشمل جميع إيطاليا الممتدة جنوب الولايات البابوية — نقول أعطيت هذه المملكة إلى بيت أنجو الذى كان يمثلهم شارل كونت پروڤانس . وحكم شارل تلك البلاد بوصفه ملك نابلى وصقلية . ثم انتزع بيت أرغونة صقلية من ابنه شارل الثانى . وكسب

ابنه ربرت لقب **الحكيم** لكفايته وحسن تصريفه لشئون الحكم ، ومهارته الدبلوماسية ، ومناصرته للآداب والفنون الراقية ، وإن كان قد أخفق فى الحرب التى شنها لاستعادة صقلية . لقد كانت مملكته فقيرة فى الصناعة ، وكانت الزراعة يسيطر عليها ملاك قصيرو النظر يستغلون الزراع كما يستغلهم الملاك الآن استغلالا يكاد يدفعهم إلى الثورة . ولكن تجارة نابلى كانت تدر على بلاط الملك دخلا جعل القصر الجديد **Castel Nuovo** لاتنقطع منه حفلات المرح والطرب . وحذا أهل اليسار حذو البلاط الملكى ؛ فأصبحت حفلات الزواج سبيلا إلى الخراب ، كما أضحى سباق الزوارق الذى يقام من آن إلى آن مصدر البهجة فى خليج نابلى ذى الشهرة التاريخية العظيمة . وفى ميدان المدينة نفسها كان الشباب ذوو الجرأة يثاقفون فى ألعاب البرجاس الخطرة بينا كانت السيدات المتوجات يبتسمن لهم من الشرفات المزدانة بالأعلام . وكانت الحياة فى نابلى سارة طيبة ، والآداب والأخلاق العامة سهلة طليقة ، والنساء حساناً لا يصعب منالهن . وقد وجد الشعراء فى هذا الجو الملىء بالتبذل والغرام كثيراً من الموضوعات لشعرهم ومن الحوافز الدافعة لقرض الشعر . وكانت هذه البيئة هى التى كونت بوكاتشيو .

وكان بوكاتشيو قد بدأ حياته فى باريس : وكان مولده ثمرة غير مقصودة **لاتصال حبى** بين أبيه — وهو تاجر فلورنسى — وفتاة فرنسية لا يعرف اسمها على وجه التحقيق ، وأخلاقها موضع للريبة[٩] . ولعل مولده غير الشرعى ، وأصله النصف الفرنسى ، قد تعاونا على تكييف أخلاقه وتاريخ حياته . وجىء به وهو طفل إلى تشرتلدو **Certaldo** القريبة من فلورنس حيث قضى طفولة غير سعيدة مع زوجة أبيه ؛ ثم أرسل وهو فى العاشرة من عمره إلى نابلى (١٣٢٣) ، حيث أعد لحياة المال والتجارة ؛ وفيها سرى فى نفسه كره حياة المال والتجارة ، كما سرى فى نفس پترارك كره القانون ؛ وجهر بأنه يفضل عليها الفقر والشعر : وانهمك فى قراءة

أوڤد ؛ وأعجب أشد الإعجاب بـ **التحولات والهيروودات** ، وحفظ عن ظهر قلب الجزء الأكبر من **فنون الحب** الذى يقول فيه : « إن أعظم الشعراء جميعاً يكشف كيف يمكن أن تلتهب نار ڤينوس المقدسة فى أشد الصدور برودا »[١٠] . فلما عجز أبوه عن أن يرغمه على حب المال أكثر من الجمال أجاز له أن يترك الأعمال التجارية والمالية على شريطة أن يدرس القانون الكنسى ووافق بوكاتشيو على هذا الشرط ولكن عقله كان قد نضج للكتابة فى الغرام .

وكانت أكثر النساء مرحاً فى نابلى هى مارية داكوينو Maria d'Aquino ؛ وهى ابنة غير شرعية للملك الحكيم[١١] ، ولكن زوج أمها قبل أن تكون ابنته . وتعلمت الفتاة فى دير النساء ، ثم تزوجت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها بكونت أكوينو ولكنها لم تجد فيه ما يفى بحاجتها ، فشجعت عدداً من العشاق واحداً بعد واحد لكى يسدوا ما تجده من نقص ، وينفقوا مالهم فى ترفها وزينتها . وأبصرها بوكاتشيو أول مرة فى قداس سبت النور (١٣٣١) ، بعد أن مرت أربعة من أعياد الفصح على العيد الذى كشف فيه بترارك لورا فى ظروف مواتية مقدسة شبيهة بهذه الظروف[٣] . وبدت له أجمل من أفروديتى Aphrodite ، فلم يكن فى العالم كله أجمل من شعرها الأشقر ، ولا شىء أكثر إغراء من عينيها الخبيثتين » ؛ وأطلق عليها اسم فيامتا Fiammetta — اللهب الصغير — وكان يتوق لأن يحرق نفسه بنارها . ونسى فى هيامه بها القانون الكنسى ، وانمحى من ذاكرته كل ما حفظه فى حياته من الوصايا ، وقضى شهوراً طوالا لا يفكر إلا فى الطريقة التى تقربه منها . وكان يذهب إلى الكنيسة منفرداً لعله يراها فيها ، ويذرع الشارع المقابل لنافذتها غادياً رائحاً ، ورحل إلى بايى Baiae حين ترامى إليه أنها فيها . وظل يتتبع خطاها خمس سنين ؛ وجعلته ينتظر حتى فرغت من المال جيوب غيره ؛ ثم سمحت له أن يتغلب عليها . وقضت معه عاماً كلفه المال الكثير وأضعف من حدة

شهوته ؛ وشرعت هى تشكو من أنه يتطلع إلى غيرها من النساء ؛ هذا إلى أن موارده المالية قد نضب معينها فأخذت الشعلة الصغيرة تبحث عن موارد للمال جديدة ، وانزوى بوكاتشيو فى زوايا الفقر .

وأكبر الظن أنه كان قد قرأ لبترارك **كتاب الأغانى** ولدانتى كتاب **الحياة الجديدة** Vita Nuova ؛ وشاهد ذلك أن قصائده الأولى كانت كقصائدهما أغانى مفعمة بالحنين ، والحرقة . والهيام الشديد . وكانت كثرتها موجهة إلى فيامتا ، ومنها عدد قليل يصف هياماً أقل من هذا الهيام لوعة . وكتب فيها رواية نثرية مملة تدعى **فيلوكوبا** اقتبسها من إحدى روايات العصور الوسطى الغرامية وهى **الزهرة والزهرة البيضاء** . وكان أجمل منها قصة **فيلوستراتا** التى روى فيها شعر رائع متألق كيف أقسمت كريسيدا Criseda أن تكون وفية لترويلس Troilus طوال حياتها ، وكيف أسرها اليونان ، وكيف أسلمت نفسها بعد قليل من الوقت إلى ديوميد Diomed بحجة أنه « فارع الطول ، قوى ، جميل » وأنه سهل المنال . واختار بوكاتشيو أداة له الموشحات ذات الثمانية الأبيات Ottava Rima التى كانت مثالا احتذاه بلتشى Pulci وبوياردو Boiardo ، وأريستو Ariosto . وهى قصة شهوانية سافرة مؤلفة من ٥٫٤٠٠ بيت من الشعر . تصل إلى ذروتها حين « تطرح كريسيدا ثيابها وتلقى بنفسها وهى عارية فى أحضان حبيبها »(١٢) . ولكن القصة إلى هذا دراسة نفسانية رائعة لصنف من النساء — خائن فى قلة ، مغرور فى مرح ؛ وتختتم بعبارات أضحت الآن واسعة الانتشار فى التمثيليات الغنائية . « إن الفتاة الشابة طائشة . تشتهى كثيراً من العشاق ، تقدر جمالها أكثر مما تدبرها به مرآتها ، مختالة فخورة ... لا تعرف كنه الفضيلة ولا الذكاء ، قلقة على الدوام كالريشة فى مهب الريح » .

وكأنما أراد بوكاتشيو أن يقضى على تمنع فيامتا بوطأة الشعر لا غير ، فأهدى إليها بعد قليل من الوقت ملحمة شعرية يبلغ طولها طول الإنياذة تماماً . وتروى هذه الملحمة ما وقع من التنافس الدموى بين أخوين هما پاليمون Palemon وارتشيتى Arcite بسبب حبهما لإميليا Emilia ، ثم موت الذى انتصر منهما فى أحضان حبيبه ، ثم قبولها المهزوم بعد التريث الواجب . غير أن حب الأبطال نفسه يهن بعد نصف أبيات القصة البالغ عددها ٩٨٩٦ ، وفى وسع القارئ الإنجليزى أن يقنع بالموجز المحكم الذى وضعه تشوسر Chaucer لهذه القصيدة فى **قصة الفارس** .

وغادر بوكاتشيو نابلى إلى فلورنس فى أوائل عام ١٣٤١ . وبعد شهرين من ذلك الوقت قدم پترارك إلى بلاط الملك ربرت ، وتفيأ بعض الوقت ظلال هذا المليك ، ثم سار فى طريقه يبحث عن تاج أمير الشعراء فى رومة .

الفصل الثالث

شاعر البلاط

وكانت رومة عاصمة العالم بلداً خليقاً بالرثاء ؛ فقد غادرتها البابوية إلى أفنيون منذ عام ١٣٠٩ ، ولم يبق فيها من الموارد الاقتصادية ما يفي حتى بذلك المجد الوسط الذى عرفته تلك المدينة فى القرن الثالث عشر ، ولم تعد تتلقى تلك الثروة التى كانت تنساب من ألف أبرشية وأبرشية موزعة فى نحو اثنتى عشرة دولة . كذلك لم تكن للسفارات الأجنبية قصور فيها ، وقلما كان يظهر فيها وجه كردنال بين خربات الإمبراطورية والكنيسة . ولم يكن ما أصاب الأضرحة المسيحية من دمار ليقل عما أصاب الصروح القديمة المعمدة ؛ وكان الرعاة يسرحون بقطعان الماشية على سفوح التلال السبعة ، والمتسولون يجوبون شوارع المدينة . وقطاع الطرق واللصوص يكمنون الطرق العامة ، والزوجات يُختطفن من أزواجهن . والراهبات يُغتصبن ، والحجاج ينهبون ، وكل من فى المدينة يحمل السلاح[١٣] . وكانت أسر الأشراف القديمة — آل كولنا ، وأرسينى ، وسافلى ، وأنيبالدى ، وجيتانى ، وفرنچيپا — تتنازع فيما بينها ، وتلجأ إلى العنف تارة وإلى الدسائس والمكائد تارة أخرى ، للظفر بالسيادة السياسية فى مجلس الشيوخ الألجاركى الذى كان يحكم رومة . وكانت الطبقات الوسطى قليلة ضعيفة ، وجمهرة الشعب خليطا مهوشاً من عشرات الشعوب يعيشون على حال من الفقر المدقع يشل كل قواهم ولا يبعث فيهم أقل رغبة فى حكم أنفسهم بأنفسهم . وقد تدهورت قبضة البابوية الغائبة على المدينة فلم تعد أكثر من سلطة اسمية نظرية لمندوب بابوى لا يعنى أحد بشأنه ؛

وبين هذه الفوضى والفاقة كانت الآثار المحطمة لعصر قديم مجيد تغذى رؤى العلماء وأحلام الوطنيين . فكان الرومان يعتقدون أن ستعود رومة فى يوم من الأيام حاضرة العالم الروحية والسياسية ، وأن البرابرة المقيمين وراء الألب سيرسلون إليها الجزية والزكاة . وكان لايزال فى وسع رجال يقيمون فى مناطق متفرقة من المدينة أن يجدوا لديهم فضلة من المال يناصرون بها الفن : فقد زين پيترو كفلينى Pietro Cavallini كنيسة القديسة مارية فى تراستيفيرى Trastevere بالفسيفساء البديعة ، وأنشأ فى كنيسة القديسة تشيتشيليا مدرسة رومانية لرسوم المظلمات تكاد تضارع فى أهميتها مدرسة دتشيو Doccio فى سينيا أو مدرسة جيتو Giotto فى فلورنس . بل إن رومة فى شدة بؤسها وفقرها لم تخل من الشعراء الذين أنساهم ماضيها المجيد حاضرها البئيس . فبعد أن أعادت پدوا Padua وپراتو Prato سنة دومتيان التى كانت تقضى بوضع إكليل على جبهة شاعر محبوب ، رأى مجلس الشيوخ أن مما يتفق مع مكانة رومة التقليدية بوصفها أولى المدائن الإيطالية أن تتوج الرجل الذى أجمعت الآراء على أنه حامل لواء الشعر فى أمته وعصره .

وتنفيذاً لهذا العزم سار موكب بهيج من الشباب والشيوخ فى اليوم الثامن من إبريل عام ١٣٤١ يرافق پترارك وقد ارتدى المئزر الأرجوانى الذى خلعه عليه الملك ربرت حتى وصل إلى سلم الكپتول . وهناك وضع تاج من الغار على رأسه . وقام الشيخ استفانو كولنا الطاعن فى السن بإلقاء خطبة أثنى فيها عليه ثناء جماً . ومن ذلك اليوم كسب پترارك شهرة جديدة وأعداء جدداً ، فأخذ منافسوه ينتقصون تاجه بأقلامهم ، ولكن الملوك والبابوات رحبوا به فى بلاطهم ، وسرعان ما وضعه بوكاتشيو فى مصاف « الأقدمين النابهين » ، وأعلنت إيطاليا وهى مزهوة بما بلغه من الصيت أن فرجيل قد ولد مرة أخرى .

ترى أى رجل كان بترارك فى ذلك الوقت الذى بلغ فيه ذروة مجده ؟ لقد كان فى شبابه بهى الطلعة وسيماً ، يختال بجمال منظره وثيابه ؛ وكان حين كبر يسخر من حرصه الشديد على العناية بمظهره وملابسه وعقص شعره ، وضغط قدميه فى حذاءين جميلى المنظر . ولما بلغ سن الكهولة سمن وأطال الشعر على ذقنه ، ولكن وجهه ظل محتفظاً بسحر رقته وحيويته ؛ وبقى مزهواً بنفسه إلى آخر أيامه . وكان كل ما حدث فى هذه الناحية من تغيير أنه أخذ يزهو بجلائل أعماله بدل الازدهاء بمنظره ؛ لكن هذا عيب لا يسلم منه إلا أعاظم القديسين . ولولا مايظهر فى رسائله من تواضع متكلف وافتخار شريف لتضاعف ما فيها من فتنة وبهاء . وكان كسائر الناس يحب الثناء ، وتتوق نفسه للشهرة ، « وللخلود » الأدبى ، وبذلك كان فى مستهل عصر النهضة الضارب على وترها الحساس وهو التعطش إلى المجد . وكان يغار من منافسيه ، ونزل من عليائه ليرد على ما يصفونه به من عيوب ؛ وقد أثار البعض على ما بلغه دانتى من مكانة (وإن كان قد أنكر ذلك) ؛ وارتاع من شراسة دانتى ، كما ارتاع إرزمس فيما بعد من فجاجة لوثر ؛ ولكنه كان يحس أن فى عناد شاعر فلورنس وجرأته شيئاً أعمق مما يستطيع القلم الهين أن يسبر غوره . وكان وهو فى ذلك الوقت نصف فرنسى فى نزعته أكثر تحضراً من أن يسب نصف العالم ، وكانت تنقصه العاطفة المتأججة التى رفعت سمت بإيطاليا ثم أنهكت قواها .

وإذا كان قد وهب بعض المناصب الكهنوتية ، فقد كان له من الرخاء ما يحمله على ازدراء الثروة ، ومن الضعف ما يبعث فيه حب الحياة الأدبية ؛ ويقول فى هذا :

« ليس ثمة عبء أخف على النفس أو أحب إليها من حمل القلم . فأما غير ذلك من المتع فإنا نعجز عن نيله ، أو أنه يجرحنا فى الوقت الذى يسحر فيه لبنا ؛ وأما القلم فنمسك به مغتبطين ، ونلقيه راضين ، ذلك أن فيه من

القوة ما لا ينفع ربه وسيده وحده ، بل ينفع كذلك كثيرين غيره ، وإن لم يولدوا إلا بعد موت صاحبه بآلاف السنين . . . وكما أنه لا يوجد بين المناهج الدنيوية ما هو أسمى من الأدب ، فكذلك لا يوجد بينها ما هو أبقى على الزمن ، أو أرق ، أو أكثر وفاء ؛ أو ما يلازم صاحبه فى جميع صروف الحياة نعيمها وشقائها ، دون أن يكلفه إلا القليل من الجهد أو انشغال البال »[١٤] .

لكنه مع هذا يحدثنا عن « أمزجته المتقلبة التى قلما كانت تسعده ، والتى كانت عادة تنزع به إلى القنوط »[١٥] . وكان لا بد له ، إذا أراد أن يكون كاتباً عظيما ، أن يكون مرهف الإحساس بجمال الشكل والصوت ؛ فى الطبيعة ، وفى النساء والرجال على السواء ؛ أى أنه كان عليه أن يعانى أشد مما تعانيه الكثرة الغالبة منا من صخب العالم وما فيه من تشويه . وكان يحب الموسيقى ، ويجيد العزف على العود ، وكان يعجب بالتصوير الجميل ، ويعد سيمون مرتينى Simone Martini من بين أصدقائه . وما من شك فى أن النساء كن يجتذبنه ، وشاهد ذلك أنه يتحدث عنهن فى بعض الأحيان بخوف لا يقل عن خوف النساك الزاهدين ، ويؤكد لنا أنه لم يتصل قط بامرأة اتصالا جسمانياً بعد أن بلغ سن الأربعين ، ويقول فى هذا : « إن قوة الجسم والعقل التى تكفى النشاط الأدبى وتكفى معه الزوجة ، لا بد أن تبلغ درجة كبرى من العظم »[١٦] .

ولم يعرض بترارك على العالم فلسفة جديدة . فقد نبذ الفلسفة الكلامية المدرسية لأن كل ما رآه فيها هو بتر وتقطيع منطقى لا جدوى منه وبعيد كل البعد عن مطالب الحياة . وتحدى القائلين بعصمة أرسطو من الخطأ ، وجرؤ على تفضيل أفلاطون عنه . ورجع عن أكوناس ودانز اسكوتس إلى الكتاب المقدس وكتب آباء الكنيسة ، وأحب تقوى أوغسطين وأقواله المنغمة الجميلة ، كما أحب رواقية أمبروز المسيحية ؛ بيد أنه كان يقتبس من أقوال شيشرون وسنكا بإجلال لا يقل عن إجلاله ما يقتبسه من أقوال

القديسين ، ويأخذ حججه عن المسيحية أكثر مما يأخذها من النصوص الوثنية . وكان يسخر من انقسام الفلاسفة على أنفسهم ويقول إنه « لم يجد بينهم من الاتفاق أكثر مما يجده بين الساعات[١٧] . وكان من أسباب شكواه أن « الفلسفة لا تهدف إلا إلى التقسيم والتفتيت ، وإلى التنقيب عن الاختلافات والفروق ، والتلاعب بالألفاظ »[١٨] . وتلك طريقة يمكن أن تخلق أشخاصاً بارعين فى النقاش والجدل ، ولكنها قلما تخلق عقلاء . . وكان يسخر من درجة « الأستاذ » أو « الدكتور » التى تتوج هذه الدراسات ، وعجب كيف تستطيع الحفلات أن تبدل الأبله الأحمق عالماً نحريراً . ونبذ ، فى ألفاظ تكاد تكون هى بعينها ألفاظ أهل هذه الأيام ، التنجيم والكيمياء الكاذبة القديمة ، وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين ، والفأل والطيرة ، وزجر الطير ، ومعرفة الغيب عن طريق الأحلام ، وما كان يروى فى أيامه من المعجزات[١٩] وأوتى من الشجاعة ما استطاع به أن يثنى على أبيقور[٢٠] ، فى الوقت الذى كان اسمـــه مرادفاً للكفر بالله . وكان من حين إلى حين يتحدث حديث المتشككين ، ويجهر بهذا التشكك جهر ديكارت به ويقول : « إنى لارتيابى فى مواهبى . . . أتقبل الشك نفسه على أنه حقيقة . . . فلا أؤكد شيئاً ، وأرتاب فى كل شىء إلا حيث يكون الشك تجديفاً »[٢١] .

ويبدو أنه حين استثنى هذا كان مخلصاً فى استثنائه . ذلك أنه لم يكن يجهر بأى شك فى عقيدة ما من عقائد الكنيسة ، فقد كان ظرفه ودماثة خلقه وراحة باله مانعة له من الإلحاد . وقد وضع كثيراً من المؤلفات التى تنطق بتقواه وخشوعه ؛ وهو يسائل نفسه سؤال المتحير : ألم يكن خيراً له أن يشق طريقه سهلا إلى الجنة كما شقها أخوه فى ظل حياة الدير الهادئة . ولم يكن يرى نفعاً فى فلسفة ابن رشد الإلحادية التى كانت قريبة منه فى بولونيا وپدوا ، وكانت المسيحية فى نظره تقدماً لاشك فيه على الوثنية ، وكان يرجو أن يتبين الناس أن فى وسعهم أن يتعلموا دون أن يتخلوا عن مسيحيتهم .

ورأى پترارك أن من الخير له بعد انتخاب البابا الجديد ، كلمنت السادس (١٣٤٢) ، أن يعود إلى أڤنيون ليقدم له تحياته ويعرض عليه أمانيه . وجرى كلمنت على السنّة القديمة سنة منح هبة — هى عبارة عن إيراد بعض أملاك الكنيسة لمن يؤيدونها من الكتاب والفنانين ، فوهب الشاعر رياسة دير بالقرب من پيزا ، ثم عينه فى عام ١٣٤٦ أسقفاً فى پارما ؛ ثم أرساه عام ١٣٤٣ فى بعثة إلى ناپلى حيث التقى بحاكم من أصعب حكام زمانه مراساً وأقواهم شكيمة .

وكان ربرت الحكيم قد مات تواً ، وورثت ابنته چونا Joanna الأولى عرشه وأملاكه ومنها ولاية پروڤانس وأڤنيون تبعاً لذلك . وتزوجت چونا بابن عمها أندرو ابن ملك المجر إرضاء لوالدها ، وظن أندرو أن من حقه أن يكون ملكاً وزوجاً معاً ، فقتله لويس صاحب تارنتو عشيق چونا (١٣٤٥) . وتزوج الملكة . وخلف أندرو على عرش المجر أخوه لويس . فزحف بجيشه على إيطاليا ، واستولى على ناپلى (١٣٤٨) . وفرت چونا إلى أڤنيون ، وباعت المدينة إلى البابوية بثمانين ألف فلورين (نحو مليونى دولار) ؛ وأعلن كلمنت أنها بريئة ، ووافق على زواجها ، وأمر الغزاة بالعودة إلى بلاد المجر . ولم يأبه الملك لويس بأمره ، ولكن الموت الأسود (١٣٤٨) فشا فى جيشه ، وأهلك كثيراً من جنوده فاضطر إلى الانسحاب . واستعادت چونا عرشها (١٣٥٢) ، وظلت تحكم البلاد فى جو من الأبهة والرذيلة حتى خلعها البابا إربان السادس (١٣٨٠) ؛ ثم قبض عليها شارل دوق دورتسو Durazzo فى العام التالى ، وقتلت فى عام ١٣٨٢ .

ولم يتصل پترارك بهذه المهزلة الدموية إلا فى بدايتها أى فى السنة الأولى من حكم چونا ؛ ثم لم يلبث أن عاد إلى تجواله ، وأقام فترة من الوقت فى پارما ، ثم فى بولونيا ، ثم قضى جزءاً من عام ١٣٤٥ فى ڤيرونا . وفى هذه المدينة الأخيرة ، عثر فى مكتبة بإحدى الكنائس على مخطوط يحوى

رسائل شيشرون المفقودة لأتكس ، وبروتس ، وكونتس : وكان قبل ذلك قد كشف فى لييج Liége عام ١٣٣٣ عن خطبة شيشرون المسماة Pro Archia وهى أنشودة للشعر . وكان هذان الكشفان أجل ما كشفته النهضة من الأدب القديم وأعظمها ثمرة .

وفى مقدورنا أن نعد ڤرونا فى أيام بترارك من أعظم القرى فى إيطاليا ؛ فقد كانت هذه المدينة تزهو بقدم تاريخها ، وبملهاها الرومانى (حيث لا يزال فى وسع الإنسان أن يستمع فى ليالى الصيف إلى التمثيليات الغنائية فى الهواء الطلق) ؛ وزادت ثروتها بفضل التجارة التى تهبط من جبال الألب وتنقل فى نهر الأديج Adige . وارتقت المدينة رقياً عظيماً فى عهد أسرة اسكالا حتى كادت تنتزع السيادة التجارية من مدينة البندقية ، واختارت حكومة المدينة بعد موت إتسيلينو Ezzelino الرهيب (١٢٦٠) مستينو دلا اسكالا Mostino della Scala حاكماً عليها ، واغتيل مستينو (١٢٧٧) ولكن أخاه ألبرتو Alberto الذى خلفه فى الحكم ثبت دعائم حكم الاسكلچيرى Scaligeri (أى « حملة السلم » وهو رمز ملائم لهذه الأسرة المصَعِّدة) ، وبدأ هذا الحاكم عهد ڤرونا المجيد . وفى عهده بدأ الرهبان الدمنيك يشيدون الكنيسة الجميلة كنيسة القديسة أناستاسيا Anastasia ؛ وكشف نَسَّاخ غير ذى شأن القصائد المفقودة التى كتبها كاتلس Catullus أشهر أبناء ڤرونا ، وحاربت أسرة الكاپلتى الجلفيـــة Guelf ، أسرة المنتتشى Montechi ، ولم تكن هاتان الأسرتان تحلمان أنهما سوف تصبحان أسرتى الكاپيولت Gapulet والمنتجيو Montagues فى رواية شيكسپير ؛ وكان أقوى « الطغاة ، وإن لم يكن أقلهم نبلا ، من أسرة اسكالا هو كان جراندى دلا اسكالا Can Grande della Scala الذى جعل بلاطه ملجأ الجبليين المنفيين ومثابة للشعراء والعلماء ؛ وفيه ظل دانتى عدة سنين يتمتع بالعطف المزعزع المطرد الزيادة . ولكنَّ كان جراندى هذا أخضع فيتشنسا Vtcenza ، وپدوا ، وتريڤيزو Treviso ، وبلونو Belluno ،

وفلترى Feltre ، وتشفدالى Cividale لسلطانه . ووجدت مدينة البندقية نفسها يتهددها خطر الإحاطة الخانقة من جميع نواحيها . ولما أن خلف كان جراندى أخوه مستينو Mastino الثانى — وكان أقل منه قوة وحماسة — أعلنت البندقية الحرب على ڤيرونا ، وتحالفت مع فلورنس وميلان ، وارغمت ڤيرونا على أن تتخلى عن جميع ما فتحته من المدن عدا مدينة واحدة ، وشاد كان جراندى الثانى جسر اسكاليچيرو Scalegero الفخم على نهر الأديچ ، وجعل له قنطرة طولها ١٦٠ قدماً ، وكانت فى ذلك الوقت أكبر قنطرة فى العالم ، واغتاله أخوه كنسنيوريو Consignorio ، وحكم بعد هذا الاغتيال حكماً خيراً صالحاً ، وشاد أعظم قبر مزخرف من القبور الذائعة الصيت التى دفنت فيها أسرة اسكالا . واقتسم ابناه العرش وظلا يقتتلان إلى أن ماتا ؛ فلما كان عام ١٣٨٧ استولت دوقية ميلان على ڤيرونا وڤيتشنسا .

الفصل الرابع

ثورة بيندسو

وعاد بترارك إلى أفنيون وفوكلوز (١٣٤٥ – ١٣٤٧) ، وكان لا يزال ينعم بصداقة آل كولنا ، فسره أن يعلم أن الثورة قد اشتعل لهيبها فى رومة ، وأن ابن صاحب حانة وغسالة(٢٢) قد انتزع السلطة من آل كولنا وغيرهم من الأشراف ، وأعاد إلى الوجود الجمهورية المجيدة جمهورية آل اسكپيو ، وجراكس ، وآرنلد البريتشيائى Arnold of Brescia.

وكان نكولا دى ريندسو جبرينى Niccola di Rienzo Gabrini الذى اختصر العامة المقتصدون فى الأسماء اسمه فى ذلك الوقت فجعلوه كولا دى ريندسو Cola di Rinzo ثم اختصره الخلف المهملون فجعلوه ريندسى Rienzi ، كان هذا الرجل قد التقى ببترارك فى عام ١٣٤٣ ؛ وذلك حين قدم إلى أفنيون ، وهو شاب موثّق ، قبل ذلك الوقت بثلاثين عاماً ليطلع كلمنت السادس على ما آل إليه حال رومة من البؤس ، وليطالب إلى البابوية أن تمد يد المعونة للشعب الرومانى ضد النبلاء المتنازعين النهابين السلابين المسيطرين وقتئذ على العاصمة . وداخلت كلمنت الشكوك فى هذا الرجل ولكنه رده بعد أن نفحه بالفلورينات وشجعه بالأقوال لأنه كان يأمل فى أن يستخدم هذا القانونى المتحمس فى النزاع الكثير الحدوث بين البابوات والأشراف .

وأثارت خرائب رومة وآدابها القديمة خيال ريندسو كما أثارت خيال بترارك ، فارتدى الشملة الرومانية (Toga) البيضاء التى كان يلبسها أعضاء

مجلس الشيوخ القدامى ، وأخذ يتحدث إلى الرومان بحماسة لا تقل عن حماسة ابنى جراكس وبلاغة لا تكاد تقل على بلاغة شيشرون ، ويشير إلى بقايا السوق الرومانية الكبرى ذات الجلال والفخامة ، والحمامات الكبرى ، ويذكر الرومان بالأيام الخوالى حين كان الأباطرة أو القناصل يشرعون القوانين من فوق هذه التلال ويصدرون الأوامر للمدينة وللعالم أجمع ، ويدعوهم إلى الاستيلاء على زمام الحكم ، وإعادة الجمعيات الشعبية ، واختيار تربيون(*) له من القوة ما يستطيع به أن يحميهم من الأشراف الغاصبين : واستمع إليه الفقراء وهم فزعون مرتاعون ، وتساءل التجار هل يستطيع ذلك التربيون المرتقب أن يجعل مكاناً آمناً تقوم فيه الصناعة وتنشط التجارة ، وسخر منه الأشراف ، واتخذوا ريندسو هدفاً لمرحهم وفكاهاتهم على موائد العشاء ، وتوعدهم هو بأن يختار طائفة منهم يشنقهم حين يندلع لهيب الثورة .

وما كان أشد فزعهم حين اندلع لهيبها فعلا . فقد حدث فى ٢٠ مايو من عام ١٣٤٧ أن جاء حشد من الرومان وازدحموا فى الكپتول . وظهر ريندسو أمامهم يحف به أسقف أرڤينو نائباً عن البابا . وأعلن عودة الجمهورية ، وتوزيع الصدقات على المعوزين ، واختير الرجل حاكماً بأمره ، وأجازوا له فى اجتماع آخر عقد فيما بعد أن يتخذ لنفسه اللقب الشعبى القديم — لقب تربيون . واحتج على ذلك استفانوكولنا عضو الشيوخ الهرم ، فأمره كولا أن يخرج هو وغيره من النبلاء من المدينة . واستشاط هؤلاء الأشراف غضباً ولكنهم اضطروا إلى إطاعة الثوار المسلحين ، فانسحبوا إلى ضياعهم فى الريف . وأسكرت ريندسو خمرة النصر فأخذ يتحدث عن نفسه كأنه

(*) ورد هذا اللفظ بصيغة « أطربون » أى القائد أو الحاكم فى أقوال العرب :

فإن يكن أطربون الروم قطعها   فإن فيها بحمد الله منتفعا

وكذلك يترجمه البعض « حامى الشعب » ولكننا آثرنا بقاء الاسم الأجنبى لأنه أوضح (المترجم)

« المنقذ الأعظم للجمهورية الرومانية المقدسة » الملهم « بقوة . . . يسوع المسيح[٢٣] » :

وكانت إدارته لشئون البلدة أحسن ما تكون الإدارة ، فقد نظم أثمان المواد الغذائية ليمنع المكاسب غير المشروعة ؛ وحفظ ما زاد من الغلال فى أهراء ، وبدئ العمل فى تجفيف المستنقعات الموبوءة ببعوض الملاريا ، وزرعت أرض كمپانيا وأنشئت محاكم جديدة لتوزيع العدالة بإنصاف لا رحمة فيه ولا هوادة ، فكان يحكم على الراهب وعلى البارون بالإعدام إذا ارتكبا نفس الجرم ، وشنق عضو شيوخ قديم لأنه سرق مركبا تجاريا ؛ وقبض على القتلة الذين تستأجرهم الأحزاب المتنازعة ، وأنشئت محكمة للصلح وفضت فى بضعة أشهر بين المتخاصمين فى ١٨٠٠ نزاع . وارتاع الأشراف الذين اعتادوا أن يتصرفوا فى القوانين على هواهم إذ وجدوا أنهم قد ألقيت على عاتقهم تبعة الجرائم التى ترتكب فى ضياعهم ، وفرضت على بعضهم غرامات فادحة ، وسيق بيترو كولنا رغم مهابته وخيلائه إلى السجن حافى القدمين . وعرض القضاة المتهمون بالعبث بالعدالة مصلوبين فى الميادين العامة ، وفلح الزراع حقولهم فى أمن وسلام لم يعهدوا لهما مثيلا من قبل ، وكان التجار والحجاج القادمون إلى رومة يُقَبِّلون شعار الجمهورية التى بعثت من جديد والتى أمنت الطرق العامة بعد أن ظلت نصف قرن من الزمان مباءة لقطاع الطريق[٢٤] . وادهشت إيطاليا على بكرة أبيها مما حدث رومة من تغير وتحول ، ورفع بترارك إلى رينسو قصيدة تفيض بالثناء والاعتراف بالجميل .

واغتنم التربيون هذه الفرصة وأفاد منها كما يفيد السياسى المحنك الجرىء ، فأرسل الوفود إلى جميع أنحاء شبه الجزيرة ، ودعا المدن أن ترسل ممثليها ليتألف منهم برلمان عظيم يضم أشتات « إيطاليا المقدسة » ويحكمها على نظام البلديات المستقلة المتحدة ، وتكون رومة عاصمة العالم كما كانت من

قبل . وتمهيداً لهذه الغاية جمع مجلسا من القضاة دعاهم من كافة أنحاء إيطاليا ، وعرض عليهم السؤال الآتى : هل من حق الجمهورية الرومانية ، وقد بعثت إلى الوجود ، أن تستعيد جميع الامتيازات والسلطات التى عهدت بها فى أثناء ضعفها وانحلالها إلى غيرها من السلطات ؟ ولما أجاب المجلس عن هذا السؤال بأن ذلك من حقها ، عرض ريندسو على الجمعية الشعبية قانونا يعيد إلى الجمهورية كل هذه المنح والسلطات . ومحا هذا الإعلان الشامل مئات من الهبات ، وحوادث النزول عن العرش ، والتتويج ، وهدد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والمدن المستقلة ، وسلطة الكنيسة الزمنية جميعها . وبعثت خمس وعشرون من حكومات المدن المستقلة بممثليها إلى برلمان ريندسو ، ولكن المدن الكبرى — البندقية ، وفلورنس ، وميلان — ترددت فى النزول عن سيادتها العليا إلى دولة اتحادية . وسر كلمنت السادس من تقوى ريندسو ، ومن إشراك أسقف أرڤينو معه فى السلطة رسميا ، ومما أفاءه على الحجاج من حماية ، ومن مشروعه الذى يرمى إلى إقامة عيد عام فى سنة ١٣٥٠ ينتظر أن يدر على البلدة مالا جما ، ولكنه شرع يسائل نفسه : أليس هذا الجمهورى العظيم الآمال رجلا حالما مثاليا مندفعا اندفاعا سوف يؤدى به إلى الدمار ؟

ثم تحطم هذا الحلم النبيل ، وكان تحطمه مثاراً للعجب والأسى معاً . ذلك أن السلطة ، كالحرية ، امتحان لا يجتازه بنجاح إلا من اتصف بالذكاء والرزانة والهدوء . أما ريندسو فقد بلغت قوته الخطابية مبلغاً يمنعه أن يكون من رجال الحكم الواقعيين . وأصبح يؤمن بعباراته الخلابة ، ووعوده ، ومطالبه ، وسممت عقلَه أقوالُه المنمقة . ولما اجتمعت الجمعية الاتحادية (فى شهر أغسطس من عام ١٣٤٧) ، اتفق على أن تبدأ أعمالها بمنحه لقب فارس . واتخذ طريقه فى مساء ذلك اليوم يحف به حرسه إلى مكان التعميد فى كنيسة القديس چون لاتران ، وألقى بنفسه فى الحوض العظيم ، الذى تطهر فيه قسطنطين من وثنيته وذنوبه ، كما تقول القصة ، ثم ارتدى ثياباً

بيضاء ، وقضى الليل نائماً على أريكة عامة وضعت بين أعمدة الكنيسة . فلما أصبح الصباح أصدر إلى الجمعية وإلى العالم أجمع مرسوماً يعلن فيه حرية جميع المدن الإيطالية ، ويمنح أهلها جميعاً حق المواطنية الرومانية ، ويحتفظ لسكان رومة وإيطاليا دون سواهم بحق اختيار الإمبراطور . ثم استل سيفه ولوح به فى ثلاث جهات وقال بوصفه ممثل رومة : « ذلك ملكى ، وذاك لى ، وذاك » . واندفع من ذلك الحين فى الإسراف والمباهاة ، فكان يمتطى صهوة جواد أبيض ، ويخفق من فوق رأسه علم ملكى ، ويتقدمه ألف حارس مسلح ، ويرتدى ثوباً من الحرير الأبيض ذا أهداب من الذهب(٢٥) . ولما عاب عليه استفانو كولنا أهدابه الذهبية أعلن أن الأشراف يأتمرون به (وأكبر الظن أن هذا صحيح) ، وأمر بالقبض على عدد منهم . وأمر بهم فسيقوا مكبلين بالأغلال إلى الكپتول ، وعرض على الجمعية أن يعدموا ، ثم ندم على ذلك العرض ، وعفا عنهم ، وانتهى الأمر بأن عينهم فى بعض مناصب الدولة فى كمپانيا . وكان جزاؤه منهم أن حشدوا قوة من مرتزقة الجند معادية للجمهورية ؛ وخرج حرس المدينة الوطنى لملاقاتهم ، وهزمهم ؛ وقتل فى المعركة استفانو كولنا وولده (٢٠ نوفمبر سنة ١٣٤٧) .

وسكر رينسو بخمرة النصر فأخذ يغفل شيئاً فشيئاً شأن ممثلى البابا الذى أشركه معه من قبل فى منصبه وسلطانه . وأخذ كرادلة إيطاليا وفرنسا ينذرون كلمنت بأن إيطاليا الموحدة ستجعل الكنيسة أسيرة للدولة — وأن هذا الأسر يصبح أشد وأكثر توكيداً إذا قامت إمبراطورية تحكمها رومة . وعملا بهذا التحذير كلف كلمنت مندوبه فى رومة برتران ده دو Bertrand de Deux أن يعرض على رينسو واحدة من اثنتين : خلعه من منصبه أو تقييد سلطانه بحيث يقتصر على الشئون الدنيوية الخاصة بمدينة رومة . وخضع كولا بعد أن قاوم بعض المقاومة ، ووعد بإطاعة البابا ، واسترد المراسيم التى ألغى بها الامتيازات الإمبراطورية والبابوية . ولكن هذا الخضوع

لم يرض كلمنت فاعتزم أن يخلع التربيون المعاند ، وأصدر فى الثالث من ديسمبر مرسوماً بابوياً يصم فيه كولا بالإجرام والإلحاد ، ويهيب بالرومان أن يطردوه من البلاد . وأشار المندوب إلى أنهم إن لم يفعلوا هذا لن يقام عيد . وكان الأعيان فى هذه الأثناء قد حشدوا جيشاً آخر ، زحف على رومة . وأمر ريندسو أن تدق الأجراس تدعو الشعب إلى حمل السلاح . لكن هذه الدعوة لم يستجب لها إلا عدد قليل ، لأن كثيرين قد أغضبهم فدح الضرائب التى فرضها عليهم ؛ ومنهم من فضل ما ينالونه من المكاسب فى العيد عما تلقيه عليهم الحرية من تبعات . ولما اقتربت قوى الأشراف من الكبتول خارت قوى ريندسو ، وخلع شارة منصبة ، وودع أصدقاءه ، وأجهش بالبكاء ، وحبس نفسه فى كاستلو سانتا أنجليو Castello Sant' Angelo (١٥ ديسمبر سنة ١٣٤٧) ، وعاد الأشراف الظافرون فدخلوا قصورهم فى المدينة واختار المندوب البابوى اثنين منهم ليحكما رومة .

وفر ريندسو إلى نابلى ، وكان لا يزال مغضوباً عليه من الكنيسة وإن لم يصب بأذى من جانب الأعيان ؛ ثم فر من نابلى إلى غابات الجبال فى أبردسى Abruzzi القريبة من سلمونا Sulmona ، وهناك لبث أثواب التائبين ، وقضى عامين يعيش عيشة الزهاد المنقطعين للدين . وبعد أن مرت به عشرات المئات من المشاق والمحن اتخذ سبيله سراً متنكراً إلى براج مجتازاً إيطاليا وجبال الألب والنمسا ، ومثل فى تلك المدينة فى حضرة الإمبراطور شارل الرابع ، وأخذ وهو غاضب يندد بالبابوات ، ويقول إن ما تعانيه المدينة من فقر وما يسودها من فوضى إنما يرجعان إلى كثرة غيابهم عنها ، وإن سلطتهم الزمنية وسياستهم هما علة انقسام إيطاليا . وعنفه شارل على أقواله ودافع عن البابوات ؛ ولكنه أبى أن يجيب البابا كلمنت إلى ما طلبه من إرسال كولا ليزج فى سجن أفنيون ، وأبقاه معتقلا تحت الحراسة فى إحدى القلاع القائمة على نهر الإلب . وقضى كولا فى العزلة

وعدم النشاط عاماً كاملا لم يطق بعده صبراً عليهما فطلب أن يرسل إلى بلاط البابا . وهرع الناس إلى رؤيته وهو فى طريقه إلى أڤنيون ، وعرض عليه بعض الفرسان الأنجاد أن يحموه بسيوفهم . وبلغ أڤنيون فى اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة ١٣٥٢ منهوك القوى ممزق الثياب إلى حد استثار عطف كل من رآه . ثم سأل عن پترارك وكان وقتئـذ فى ڤوكوزب ورد الشاعر بأن أهاب بأهل رومة أن يحموا الرجل الذى أراد أن يهبهم الحرية . ومما جاء فى هذه الدعوة :

إلى أهل رومة ... البواسل الأنجاد ... الذين سادوا الأمم !

إن زعيمكم السابق أسير الآن فى أيدى الأجانب ؛ وكأنه — وياللهول حقاً ! — لص من لصوص الليل أو خائن لبلاده ، يعرض قضيته وهو مصفد فى الأغلال ، تأبى أعلى محكمة أرضية أن تمكنه من الدفاع المشروع عن نفسه .... إن رومة بلا ريب لا تستأهل هذه المعاملة . لقد كان أهلها من قبل غير خاضعين لقانون أجنبى ... أما الآن فيساء إليهم بلا تمييز بينهم ؛ ويلقون هذه المعاملة وهم برآء من إثم الجريمة بل وهم جديرون بالثناء العظيم الذى يستحقه أهل الفضيلة ... وليست التهمة الموجهة إليه هى خيانة الحرية ، بل هى الدفاع عنها ، وليس ذنبه أنه سلم الكبتول بل ذنبه أنه حماه . وإن أعظم التهم الموجهة إليه ، والتى يجب أن يكفر عنها فوق المشنقة هى أنه قد جرؤ على التوكيد بأن الإمبراطورية الرومانية لا تزال قائمة فى رومة ، وأنها لا تزال مسيطرة على الشعب الرومانى . ألا تباً لهذا الزمان ! وتبا لتلك الغيرة الشنيعة ، وذلك الحقد المنقطع النظير ! أين أنت أيها المسيح ! يا أعدل القضاة ويا أحكم الحاكمين ؟ أين عيناك اللتان تعودت أن تبدد بهما سحب شقاء البشرية ؟ ... لم لا تقضى ببرقك وصواعقك على هذه المحاكمة الدنسة ؟[٣٦] .

ولم يطالب كلمنت بإعدام كولا ، بل أمر بأن يوضع تحت الحراسة

فى برج القصر البابوى بأفنيون . وبينما كان ريندسو يدرس الكتاب المقدس وكتاب ليڤى فى سجنه ، استولى تريبون آخر يدعى فرانتشسكو برنتشلى Francesco Baroncelli على زمام السلطة فى رومة ، ونفى أعيان المدينة ، وأهان المندوب البابوى ، وتحالف هو والجبليون مؤيدو الأباطرة ضد البابوات ، وأطلق إنوسنت السادس ، الذى خلف كلمنت فى الكرسى البابوى ، كولا من سجنه ، وأرسله إلى إيطاليا مساعداً للكردنال ألبرنودس Albornoz الذى عهد إليه إعادة سلطة البابوية فى رومة . وبينما كان الكردنال الماكر والطاغية المستضعف يقتربان من العاصمة دبرت فتنة فى المدينة ، خلع على أثرها برنتشلى وقتل ، وأسلم الرومان المدينة لألبرنودس . ورحب العامة بريندسو ، وأقاموا له أقواس النصر ، وهتفوا باسمه وقد احتشدوا فى الشوارع إظهاراً لفرحهم . وعينه ألبرنودس عضواً فى مجلس الشيوخ ، وعهد إليه الأعمال غير الدينية فى حكومة رومة (١٣٥٣) .

ولكن السنين التى قضاها فى السجن قد سببت ترهل جسمه ، وحطمت شجاعته ، وفلت من حدة عقله ، وقد كان من قبل قوياً ساطعاً غير هياب ولا وجل . فكانت سياسته متمشية من أغراض البابا ، بتهيب المغامرات العظيمة التى كان يندفع إليها فى حكمه وهو شاب . وكان الأعيان لا يزالون يحقدون عليه ، وصعاليك المدينة يرون فيه الآن رجلا حذراً متحفظاً متجرداً من المثل العليا ، فانقلبوا عليه وعدوه خائناً لقضيتهم . ولما أعلن آل كولنا الحرب عليه وحاصروه فى بلسترينا ، أوشك جنوده الذين لم يتناولوا مرتباتهم أن يتمردوا عليه ، فاقترض المال ليؤدى منه مرتباتهم ، وفرض الضرائب ليفى بدينه ، وأغضب بذلك الطبقة الوسطى . ثم زحفت جموع الغوغاء الثائرة على الكبتول ، ولم يكد ينقضى شهران على عودته إلى الحكم ، وأخذت تنادى « ليحى الشعب ! الموت للخائن كولا دى ريندسو ! » . فخرج إليهم من قصره فى دروع الفرسان وحاول أن يسيطر على الجماهير

بفصاحته وزلاقة لسانه ، ولكن الثائرين علا صياحهم على صوته ، وألقوا عليه وابلا من القذائف ، فأصاب سهم منها رأسه وانسحب على أثر ذلك إلى القصر . وحينئذ أشعل الغوغاء النار فى الأبواب واقتحموها ، ونهبوا الحجرات . واختفى ريندسو فى إحداها ، وأسرع فحلق لحيته ، وارتدى ثياب حمال ، وكوم بعض قطع من الفرش على رأسه ، وخرج من القصر ، ومر ببعض الغوغاء دون أن يكشفوا أمره ولكن سواره الذهبى نم عليه ، وسيق أسيراً إلى سلم الكپتول ، حيث كان هو من قبل قد حكم على الناس بالإعدام . وطلب إلى الشعب أن يستمع له ، وحاول أن يستميل قلوب العامة بخطبته ، ولكن أحد الصناع خشى أن يتأثر هؤلاء بفصاحته ، فقطع عليه كلامه بضربة سيف فى بطنه . وتبعه مائة من أشباه الأبطال فأنفذوا خناجرهم فى جسده الميت . ثم سحبت جثته والدم يسيل منها فى شوارع المدينة وعلقت فى حانوت قصاب كما تعلق جيف البهائم . وبقيت على هذه الحال يومين تعرضت فى خلالهما لإهانات الشعب وحجارة الغلمان(٢٧) .

الفصل الخامس

العالم الجوال

أخفق ريندسو فى إعادة رومة القديمة التى مات فيها كل شىء إلا الشعر ، وقد أفلح پترارك فى إعادة الآداب الرومانية التى لم تكن قد ماتت ، وكان قد أيد ثورة كولا تأييداً بلغ من القوة حداً خسر معه عطف آل كولنا فى أڤنيون . وفكر وقتاً ما فى الانضمام إلى ريندسو فى رومة ، واتخذ طريقه فعلا إليها حتى وصل إلى چنوى ، وفيها سمع أن مقام التريبون ومسلكه آخذان فى الانحطاط ، فما كان منه إلا أن غير طريقه واتجه نحو پارما (١٣٤٧) . وكان فى إيطاليا حين فشا فيها الوباء الأسود ، وأودى بحياة كثيرين من أصدقائه ، وقضى على لورا فى أڤنيون . وقبل فى عام ١٣٤٨ دعوة ياقوبو Jacopo الثانى صاحب كرارا لأن ينزل ضيفاً عليه فى پدوا .

وكانت المدينة ذات جو عتيق ثقيل ممل . فقد كان عمرها مائة عام حين ولد فيها ليڤى عام ٥٩ ق . م ، وأصبحت تحكم نفسها بنفسها فى عام ١١٧٤ ورزحت تحت طغيان أنسيلينو Ezzelino (١٢٣٧ — ١٢٥٦) ، ثم استردت استقلالها ، وغنت أناشيد الحرية ، وأخضعت ڤيتشنتسا لسلطانها . ثم هاجمها كان جراندى دلا اسكالا صاحب ڤيرونا ، وكاد يغلبها على أمرها ، فتخلت عن حريتها واختارت ياقوبو الأول صاحب كرارا حاكماً بأمره عليها (١٣١٨) ، وكان رجلا قُدَّ قلبه من الرخام المسمى باسمه . وتولى سلطته من بعده بعض أعضاء أسرته إما بطريق الميراث أو بالاغتيال : واستولى مضيف پترارك على مقاليد الحكم فى عام ١٣٤٥ بعد أن اغتال سلفه . وحاول أن يكفر عن ذنبه بالحكم الصالح ، ولكنه اغتيل بعد أن

حكم أربع سنين وخلفه فرانتشسكو الأول صاحب كرارا (١٣٥٠–١٣٨٩) ، وحكم البلدة حكماً عجيباً دام نحو أربعين عاماً ، رفع فى خلالها مقام پدوا إلى مصاف المدن الكبرى أمثال ميلان ، وفلورنس ، والبندقية ، وإن كان هذا لم يدم إلا وقتاً قصيراً . وقد أخطأ فانضم إلى جنوى ضد البندقية فى الحرب العوان التى اتقدت نارها سنة ١٣٧٨ ، والتى انتصرت فيها مدينة البندقية وأخضعت پدوا لسلطانها (١٤٠٤) .

وقدمت المدينة فى هذه الأثناء أكثر من نصيبها لحياة إيطاليا الثقافية ، فأتمت فى عام ١٣٠٧ كنيسة القديس أنطونى المعروفة بذلك الاسم الحبيب إلسانتو El Santo ؛ ورمم فى عام ١٣٠٦ البهو الأعظم المعروف باسم سالا دلا رجيونى Sala della Ragione (بهو البرلمان) على يد المهندس المعمارى الراهب چيوڤنى إريمتانو Giovanni Eremitano ، ولا يزال هذا البهو قائماً إلى الآن ؛ وكان القصر الملكى (الرجيو Reggio فى ١٣٤٥ وما بعدها) يحتوى على أربعمائة حجرة فى كثير منها مظلمات يفخر بها آل كرارا ؛ ولم يبق من هذه المظلمات إلا برج دقت ساعته الشهيرة أولى دقاتها فى عام ١٣٦٤ . وابتاع تاجر طموح يدعى أنريكو اسكراڤنيى Enrico Scravegni فى بداية ذلك القرن قصراً فى المدرج الرومانى القديم يسمى « الحلبة » Arena ، واستدعى أشهر مثـالى فى إيطاليا وهو چيوڤنى پيزانو Giovanni Pisano ، وأشهر مصوريها وهو چيتو Giotto ، لينقشا له معبد بيته الجديد (١٣٠٣ — ١٣٠٥) . وكانت نتيجة جهودهما « معبد الحلبة » الصغير الذائع الصيت فى أنحاء العالم المتعلم كله . وفيه صوّر چيتو الظريف نحو خمسين صورة جدارية ، ونحتاً مستديراً ومدلاة تروى كلها القصة العجيبة قصة العذراء وابنها ، وأحاط المظلمات الرئيسية برءوس الأنبياء والقديسين ، وبأشكال نسوية ترمز إلى فضائل الجنس البشرى ورذائله . وصور تلاميذه على الباب الداخلى بجد فاتر صورة ليوم الحساب ذات أشكال غريبة مختلطة مهوشة كأنها الميازيب ؛ ونقش منتاجينا Montagena بعد

١٥٠ سنة من ذلك الوقت ضريح كنيسة الإرمتانى القريبة من هذا البيت . ولعله وهو يقوم بعمله قد سخر من التصميم الساذج ، وفن المنظور البدائى ، ومن تشابه الوجوه ، والمواقف ، والأشكال تشابهاً يبعث على الملل والسآمة ، ومن نقص فى العلم بالتشريح ، ومن الشقرة الثقيلة البادية فى الكثرة الغالبة من الأشكال ، كأنما اللمبارد أهل بدوا لا يزالون هم بعينهم اللنجيوبارد Longobards القادمين تواً من ألمانيا الموفورة الطعام . ولكن ملامح العذراء الجميلة فى صورة مولد المسيح ، ورأس المسيح الفخم النبيل فى صورة العازر ، والكاهن الأكبر البادى الجلال فى صورة الخطاب . والمسيح الهادئ ، ويهوذا الأسخربوطى فى صورة الخيانة ، واللطف الصافى ، والتأليف المتناسق ، والنمو المتدرج الذى يشاهد فى المنظر الفسيح من حيث اللون والشكل ، كل هذا يكسب المنظر جدة ورونقاً وصفاء لا زال يحتفظ بها بعد ستة قرون ، وتجعله أول نصر للتصوير فى القرن الرابع عشر .

ولعل بترارك قد وقعت عيناه على مظلات الحلبة ، وما من شك فى أنه كان يقدر چيتو أعظم التقدير . وشاهد ذلك أنه أوصى إلى فرانتشسكو داكرارا بصورة للعذراء بريشة « المصور الممتاز ، چيتو ، وهى صورة يدهش جمالها . . . سادة الفن »(٢٨) . . لكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه مولعاً بالأدب أكثر من ولعه بالفن . وما من شك فى أنه قد نبهه وشحذ همته ما سمعه من أن ألبرتينو مساتو Albertino Mussato ، وهو رجل من ذوى المشاعر الإنسانية سابقاً على بترارك نفسه قد توج شاعراً للبلاط فى بدوا عام ١٣١٤ لأنه كتب مسرحية باللغة اللاتينية تسمى إتشرينس Ecerinis نحا فيها نحو أسلوب سنكا . ومبلغ علمنا أن هذه كانت أول مسرحية كتبت فى عصر النهضة . وما من شك فى أن بترارك قد زار الجامعة التى كانت مفخرة المدينة والتى كانت فى ذلك الوقت أشهر مدارس إيطاليا بأجمعها ، وكانت تنافس جامعة بولونيا بوصفها مركزاً للتدريب على القانون ، كما كانت تنافس جامعة باريس بوصف كونها مركزاً

للفلسفة . ودهش بترارك حين شاهد فلسفة ابن رشد يعتنقها فى غير خفاء بعض أساتذة پدوا الذين كانوا يرتابون فى خلود نفوس الأفراد ، والذين كانوا يتحدثون عن المسيحية كأنها خرافة مفيدة ينبذها المتعاملون فى الخفاء :

وفى عام ١٣٤٨ نجد شاعرنا القلق فى مانتوا ، ثم نجده بعدئذ فى فيرّارا ، ثم انضم فى عام ١٣٥٠ إلى سيل الحجاج المتجهين إلى روما للاشتراك فى عيدها ؛ وعرج وهو فى الطريق على فلورنس فزارها للمرة الأولى وعقد أواصر الصداقة القوية بينه وبين بوكاتشيو . وقد وصف بترارك هذه الصداقة بقوله إنهما من ذلك الحين « كان لها قلب واحد »[٢٩] ، وحدث فى عام ١٣٥١ أن ألغى سيد فلورنس المرسوم القاضى بمصادرة أملاك بترارك ، ثم أرسل بوكاتشيو إلى پدوا ليعرض على بترارك تعويضاً مالياً وكرسى الأستاذية فى جامعة فلورنس ، فلما رفض بترارك هذا العرض رجعت فلورنس عن إلغاء المرسوم .

الفصل السادس

چـــيتو

إن من العسير أن نحب فلورنس كما كانت فى العصور الوسطى(*) . ذلك أنها كانت وقتئذ نكدة صارمة فى الصناعة والسياسة ؛ ولكننا لا يصعب علينا مع ذلك أن نعجب بها . لكنها خصصت ثروتها لخلق الجمال . ففيها أيام شباب پترارك كانت النهضة فى أوج مجدها .

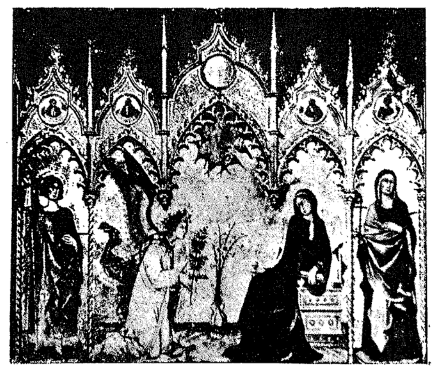
فقد علا شأنها فيما كان يكتنفها من جو حافز ملىء بالتنافس المالى والتجارى ، والنزاع العائلى ، والعنف الفردى ، لم يكن لشىء منها مثيل فى سائر أنحاء أوربا . لقد كان أهل المدينة منقسمين على أنفسهم تفرق بينهم حرب الطوائف ، وكانت كل طائفة فيها منقسمة هى الأخرى إلى أحزاب لاترحم إذا كتب لها النصر ، ولا تسكت عن الانتقام إذا منيت بالهزيمة ، وكان انتقال بعض الأسر من حزب إلى حزب فى أى وقت من الأوقات يخل بتوازن القوى بينها ، وكثيراً ما كان يحدث فى أية لحظة أن تنتضى السلاح بعض العناصر المتذمرة ، وتحاول إسقاط الحكومة ؛ فإذا أفلحت نفت زعماء الحزب المغلوب من المدينة ، وصادرت فى العادة أملاكهم ، وحرقت بيوتهم أحياناً . على أن هذا النزاع الاقتصادى وذاك الاضطراب السياسى لم يكونا كل ما فى فلورنس من حياة ، ذلك أن أهلها كانوا ذوى شعور وطنى قوى يعتزون به وإن كانوا أكثر إخلاصاً لحزبهم منهم لمدينتهم ، وكانوا ينفقون كثيراً من مالهم فى سبيل المصلحة العامة . وكان الموثرون من الأفراد ينفقون من أموالهم على رصف الشوارع وإنشاء

(*) يستعمل لفظ العصور الوسطى فى هذه المجلدات للدلالة على تاريخ أوربا وحضارتها بين عامى ٣٢٥ و١٤٩٢ بعد الميلاد — أى بين قسطنطين وكولمبس .



(شكل ٢) الهروب إلى مصر

تصوير چيتو ؛ منقولة عن معبد الحلبة في پدوا



(شكل ٣) البشارة

من تصوير سيمونى مرتينى — منقولة عن معرض افيرى بمدينة فلورنس

(انظر ص ٦٣)

المجارى ، وتحسين موارد ماء الشرب ، وإعداد مكان صالح للسوق العامة ، وتشييد الكنائس ، والمستشفيات ، والمدارس ، أو إصلاحها . وكذلك كانت تفعل نقابات الحرف . وكان الأهلون ذوى شعور بالجمال لا يقل فى قوته عن شعور اليونان الأقدمين أو الفرنسيين المحدثين ، وكان هذا الشعور يدفعهم لرصد الأموال العامة والخاصة لتزيين المدينة بالعمائر ، والتماثيل ، والصور ، وتجميل بيوتهم من الداخل بهذا كله وبعشرات من الفنون الصغرى .

وكان الخزف الفلورنسى أرقى أنواع الخزف الأوربى فى ذلك العهد ؛ كذلك كان الصياغ يحلون الأعناق والصدور ، والأيدى ، والمعاصم ، والمناطق ، ومذابح القرابين ، والنضد ، والأسلحة ، والنقود ، بالجواهر أو الخشب الملبس ، والنقوش المحفورة أو البارزة التى لا يفوقها شيء من نوعها فى عصر آخر من العصور .

وأخذ الفنان فى ذلك الوقت تنعكس عليه النزعة الجديدة نزعة اهتمام الفرد بكفايته الذاتية أو حبه للفن الجميل ، فبرز من الطائفة أو الجماعة ، ورسم ما ينتجه باسمه . وكان نقولو پيزانو **Niccolo Pisano** قد خلص قبلئذ فن النحت من تقليد الموضوعات الدينية ، وخضوعه لأساليب العمارة وذلك بجمعه بين النزعة الطبيعية القوية ومثل الإغريق العليا فى تصوير الجسم . وصب تلميذه أندريا پيزانو **Andrea Pisano** نصفى بابين من البرنز لمبنى التعميد فى فلورنس (١٣٠٠ — ١٣٠٦) صور عليهما فى اثنين وعشرين نقشا بارزاً تقدم الفنون والعلوم منذ حفر آدم وغزلت حواء ، وليس هذان الأثران الفنيان الباقيان من القرن الرابع عشر بأقل قيمة من « أبواب الجنة » التى نقشها جبرتى **Ghiberti** فى القرن الخامس عشر على هذا البناء نفسه . وفى عام ١٣٣٤ وافق أمير فلورنس على تخطيط جيتو لبرج يتحمل ثقل أجراس الكنيسة وينشر أصواتها ، وصدر بذلك

مرسوم تتمثل فيه روح العصر جاء فيه أن « برج الأجراس يجب أن يشاد بحيث يسمو فى فخامته ، وارتفاعه ، ودقة صنعه ، على كل شيء من نوعه أبدعه فى الزمن القديم اليونان والرومان فى أوج مجدهم[٣٠] » . وليس جمال البرج فى شكله المربع الذى لا يمتاز بشيء عن أمثاله (والذى كان چيتو يرغب فى أن تعلوه منارة مستدقة) ، بل فى نوافذه المزخرفة على الطراز القوطى ، وفى النقوش البارزة التى حفرها چيتو ، وأندريا بيزانو ، ولوكا دلا ربيا Luca della Robia فى الرخام الملون على الألواح السفلى . وواصل العمل ، بعد موت چيتو ، بيزانو ، ودوناتلو ، وفرنتشسكو تالنتى ، وإليهما يدين البرج بما حوته أعلى مقنطراته من جمال بالغ الأوج .

وكان چيتو دى بندونى Giolto di B^ondoni يحمل لواء المصورين فى القرن الرابع عشر كما كان بترارك يحمل لواء الشعراء فى ذلك القرن نفسه ، وكان الفنان يضارع الشاعر فى تعدد كفاياته ، فقد كان مصوراً ، ومثالا ، ومهندسا معماريا ، ورأسمالياً ، وخبيراً بأحوال العالم ، لا يقل حذقه للآراء الفنية ، عن مهارته فى الحيل العملية والأجوبة الفكهة المسكتة ، ولهذا كان چيتو يسير فى الحياة واثقا من نفسه ، ينثر روائع فنه فى فلورنس ، وروما ، وأسيسى ، وفرارا ، ورافنا ، وريمينى ، وفايندسا Faenza ، وپيزا ، ولوكا Lucca ، وأرتسو ، وپدوا ، وڤيرونا ، ونابلى ، وأربينو Orbino ، وميلان . ويبدو أنه لم يكن يهتم مطلقا بأن يكلف بالقيام بعمل من الأعمال ، ولما سافر إلى نابلى سافر إليها ضيفا على الملك فى قصره . وهناك تزوج وكان له أبناء قبيحو المنظر ، ولكن أعماله الفنية الجميلة الهادئة ، وحياته التى تسرى فيها روح البهجة ، لم تتأثرا قط بهذا القبح ، وكان يؤجر الأنوال للصناع بضعفى أجرها المعتاد[٣١] ، ومع هذا فإنه يقص لنا قصة القديس فرانسس رسول الفقر فى عمل من أعماله الفنية الرائعة الباقية من عصر النهضة .

وكان لا يزال فى شرخ الشباب حين استدعاه الكردنال استفانستشى

Stefaneschi إلى رومة ليصور له بالفسيفساء صوره « الفنية الصغرى navicella » التي تمثل المسيح ينقذ بطرس من الموج . ولا يزال هذا النقش باقياً إلى اليوم ، وإن كان قد أدخل عليه تغيير كبير ، في دهليز كنيسة القديس بطرس في مكان غير ظاهر فوق عمد المدخل ومن خلفها . وأكبر الظن أن هذا الكردنال نفسه هو الذى كلفه بعمل صورة الملاك المجنح المحفوظة في الفاتيكان : وتظهر هذه الأعمال كلها چيتو شخصاً غير ناضج ، قوى التفكير ، ضعيف التنفيذ . ولربما كانت دراسات چيتو لنقوش پيترو كفنليني Pietro Cavanelline الفسيفسائية الموجودة بكنيسة القديسة ماريا في ترتستيڤرى ، ومعلماته في كنيسة القديسة تشيتشيليا Cecilia قد ساعدت على تكوين چيتو في تلك السنين الرومانية ، ولعل النحت الطبيعى الذى قام به نقولو پيزانو قد جعله يحول عنايته من أعمال أسلافه إلى ملامح الأحياء من الرجال والنساء ومشاعرهم . وفي ذلك يقول ليوناردو دافنتشى : لقد ظهر چيتو وصور ما رآه »[٣٢] : واختفى الجمود البيزنطى من الفن الإيطالى .

ثم انتقل چيتو إلى پدوا وقضى ثلاث سنين يصور على الجص تلك الرسوم الذائعة الصيت التي تزدان بها كنيسة أرينا . ولعله قد التقى في پدوا بدانتي ، ولعله قد عرفه قبل ذلك في فلورنس ، فها هو ذا ڤاسارى Vasari ، الممتع على الدوام ، والدقيق الصادق في بعض الأحيان ، يصف دانتي بأنه « الرفيق والصديق الصدوق » لجيتو[٣٣] ، وها هو ذا يعزو لجيتو صورة لدانتي تكون جزءاً من نقش جصى في قصر الحاكم في فلورنس : وترى الشاعر يثنى على المصور ثناء رقيقا مستطابا في الملهاة الإلهية[٣٤] .

ولما كان عام ١٣١٨ كلفت أسرتان من رجال المصارف هما أسرة باردى Bardi وأسرة پيرتسى Peruzzi چيتو بأن يقص لهما على الجص قصص القديسين فرانسس ، ويوحنا المعمدان ويوحنا المبشر بالإنجيل ، وذلك في المزارين اللذين كانا يشيدانهما في كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقدس)

Sante Croce فى فلورنس . وقد غطيت هذه الرسوم بالجير فيما بعد ، ولكنه كشف عنها فى عام ١٨٥٣ وأعيد تلوينها ، وبذلك لم يبق فيها من عمل چيتو إلا الرسم والتأليف : وكان هذا بعينه مصير المظلات الذائعة الصيت فى كنيسة القديس فرانسس المزدوجة فى أسيسى . ويحج عدد كبير من الإيطاليين إلى هذا الضريح القائم فوق إحدى الروابى ، ويبدو أن عدد الذين يفدون منهم لمشاهدة الرسوم التى تعزى لتشيمابيو Cimabue وچيتو لا يقل عمن يفدون لتكريم هذا القديس أو للتبرك به : وأكبر الظن أن چيتو هو الذى وضع تصميم الموضوعات ورسم الخطوط الخارجية للمظلات السفلى فى الكنيسة العليا . أما ما بقى فيبدو أنه اكتفى فيه بالإشراف على عمل تلاميذه . وتقص هذه المظلات التى فى الكنيسة العليا حياة القديس فرانسس بتفصيل قلما حظى المسيح نفسه بسيرة مصورة له تماثل هذه القصــة فى دقائقها . وهى تمتاز بالبراعة فى التفكير والتأليف ، وباللطف والرقة والتناسق فى الإخراج والتنفيذ ، وتقضى قضاء لا رجعة بعده على الجمود الكهنوتى الذى كان يلازم الأشكال البيزنطية ، ولكنها مع ذلك يعوزها العمق والقوة والنزعة الانفرادية ، فهى فى حقيقة الأمر لوحات مصورة رشيقة خالية من تأثير العاطفة أو دم الحياة : أما مظلات الكنيسة السفلى فقد كانت أقل من مثيلاتها فى الكنيسة العليا تعرضاً لعوادى الأيام ، وهى تشهد بما طرأ على قدرة چيتو من تقدم . ويبدو أنه هو نفسه الذى قام برسم الصور التى فى مُصَلّى مجدلين ، وأن تلاميذه هم الذين صوروا الرسوم الرمزية التى تشرح الإيمان التى يقسمها الرهبان الفرنسيس بأن يلتزموا حياة الفقر والطاعة والطهر . ولقد كانت قصة فرانسس المصورة فى هذه الكنيسة المزدوجة حافزاً قويا ، بل تكاد تكون مولداً جديداً ، لفن التصوير الإيطالى ، ونشأت منها تقاليد بلغت المثل الأعلى من الكمال فى أعمال الراهب الدمنيكى « الأخ انجلكو Fra Angelico » .

وفى وسعنا أن نقول إن أعمال جيتو كانت فى مجموعها ثورة على الأوضاع الفنية القائمة وقتئذ . ونحن نشعر بأخطائه لأننا نعرف مقدار ما أحدثته الحركة التى بدأها هو من إتقان وبراعة . نحس بأن رسمه ، وصياغته ، ومراعاته لفن المنظور ، وعلمه بالتشريح ، كل هذا ناقص معيب . لقد كان الفن ، كما كان الطب فى عهد جيتو ، قد بدأ تواً فى تشريح الجسم البشرى ، وفى أن يبين موضع كل عضلة ، وعظم ، ووتر ، وعصب ، وتركيبه ووظيفته . وقد أتقن معرفة هذه العناصر رجال من أمثال منتيذيا Mantegena ومساتشيو Masaccio ، وبرع فى هذه المعرفة ميكل أنجلو وبلغ فيها درجة الكمال ، بل كاد يجعل منها معبوداً له ولأمثاله من رجال الفن . أما فى أيام جيتو فقد كان لا يزال من غير المألوف أن يدرس الناس الجسم البشرى عارياً . وكان تصويره يجلل من يقدم عليه بالعار . فإذا كان هذا فا الذى يجعل أعمال جيتو فى پدوا وأسيسى من معالم تاريخ الفن ؟ إن الذى يجعلها هكذا هو التأليف المتزن ، ورسم العين من كل زاوية إلى مركز الاهتمام ، والمهابة المستمدة من الحركة الهادئة ، والتلوين الرقيق المتألق ، وانسياب القصة فى عظمة وجلال ، والاعتدال فى التعبير ولو كان عن المشاعر العميقة ، وعظمة الهدوء الذى يغمر تلك المناظر المضطربة ، وما نشاهده بين الفينة والفينة من نزعة طبيعية فى تصوير الرجال ، والنساء ، والأطفال كما شاهدهم وأحس بهم ، وهم يتحركون فى الحياة لا كما درسهم الفنانون فى ماضى الأيام . تلك هى العناصر التى تألف منها انتصار جيتو على الجمود البيزنطى والكآبة البيزنطية ، وتلك هى أسرار نفوذه الخالد . لقد ظل فن فلورنس مائة عام بعد وفاته يستمد من أعماله حياته وإلهامه .

وجاء فى أعقابه جيلان من الفنانين الذين ساروا على نهجه ، فحذوا حذوه فى موضوعاته وفى طرازه ، ولكنهم قلما كانوا يبلغون ما بلغه من براعة وإتقان ؛ فقد كان تديو جدى Taddeo Gaddi تلميذه وابنه فى

العماد يرث عنه فنه ، وكان والد تديو وثلاثة من أبناء تديو الخمسة رسامين ؛ ذلك أن النهضة الإيطالية ، كالموسيقى الألمانية ، كانت تنزع إلى الانتقال فى الأسر من الآباء إلى الأبناء ، وقد ارتقت فيها بانتقال أصولها الفنية وتجمعها فى البيوت والمفاقه(*) والمدارس . وقد بدأ باديو حياته صبياً محترفاً عند جيتو ، وما وافى عام ١٣٤٧ حتى كان هو حامل لواء المصورين الفلورنسيين ؛ وكان حتى بعد أن بلغ تلك المكانة يوقع بإمضاء « تلميذ جيتو الأستاذ الجليل » تكريماً لذكرى أستاذه(٣٥) ؛ وقد أثرى بجده فى فنى التصوير والعمارة ثراء استطاع به بنوه أن يكونوا من أنصار الفن .

ولدينا تحفة فنية ظلت زمناً طويلا تعزى إليه ، ولكنها الآن تعزى إلى أندريا دا فرينزى Andrea da Firenze وهى تبدل على أن إيطاليا فى هذا القرن الأول من عصر النهضة لم تكن قد خرجت بعد من العصور الوسطى . فقد أقام الرهبان الدمنيك حوالى عام ١٣٧٠ فى « كابلادجلى اسپنيولى Copella degli Spagnuoli أو معبد الأسبانيين فى كنيسة سانتا ماريا نوفلا صورة يمجدون بها فيلسوفهم الشهير يُرى فيها تومس أكوناس فى وضع راسخ مريح ولكنه بلغ من الخشوع حداً يحول بينه وبين الكهرباء ، ويقف وقفة الظافر والزنديقان أريوس ، وسابيوس . والفيلسوف ابن رشد يتمرغون تحت قدميه ، ومن حوله موسى ، ويوحنا المبشر الإنجيلى وغيرهم من القديسين ، وقد بدوا كأنهم أتباع له . ومن تحتهم أربع عشرة صورة ترمز إلى سبعة علوم مطهرة وسبعة دنسة ، منها نحو دوناتوس Donatus وبلاغة شيشرون ، وقانون چستنيان . وهندسة إقليدس وما إليها . والفكرة التى أوحت بهذه الصورة لا تزال كلها من أفكار العصور الوسطى ؛ أما الفن وحده فى تصميمه ولونه فيدل على بزوغ فجر عهد جديد من ظلمات العهد القديم . ولقد كان الانتقال تدريجياً إلى حد لم يشعر

(*) جمع مفقه وهو المشغل والمرسم Studio . (المترجم)

الناس معه بأنهم فى عالم جديد إلا بعد مائة عام من ذلك الوقت .

ويبدو التقدم فى التنفيذ الفنى أوضح وأكثر جلاء فى أعمال أركانيا Arcagna الذى لا يسمو عليه أحد من الفنانين الإيطاليين فى العصور الوسطى إلا چيتو وحده . وكان اسمه الأصلى أندريا دى تشيونى Andrca di Cioni ، لكن معاصريه المعجبين به سموه أركانيولو Arcagnolo أى الملاك الأعظم ، ثم اختصرت الألسنة الكسولة هذا الاسم فجعلته أركانيا . وكثيراً ما يعد هذا الفنان من بين أتباع چيتو ، ولكنه كان فى واقع الأمر من تلاميذ المثال أندريا بيزانو Andrea Pisano . وكان أركانيولا بارعاً فى فنون كثيرة شأنه فى هذا شأن أعظم العباقرة فى عصر النهضة . وهو بوصفة "رساماً قد صور لمعبد استرتشى Strozzi فى سانتا ماريا نوڤلا غطاء ملوناً للمحراب مثل عليه المسيح جالساً على عرشه ، كما أنشأ أخوه الأكبر ناردو Nardo على الجدران مظلمات واضحة تمثل الجنة والنار (١٣٥٤ — ١٣٥٧) . وخطط بوصفه مهندساً معماريا التشرتودسا Certoza أو الدير الكرثوذى Carthusian بالقرب من فلورنس . وهو الدير الذى اشتهر بطرقه المسقوفة الجميلة وما احتواه من مقابر أتشيايولى (Aceiaiuoli) . ونفذ هو ووالده بوصفهما مهندسين ومثالين الهيكل المزخرف فى « أورسان متشيلى Or San Micchele فى فلورنس . وفى هذا الهيكل صورة العذراء كان الناس يعتقدون أنها تفعل المعجزات . ولهذا فإنه لما زال وباء الموت الأسود الذى اجتاح أوربا عام ١٣٤٨ بلغت النذور التى قدمها لها الذين نجوا من الوباء من الكثرة درجة اغتنى منها الرهبان القائمون على خدمة البناء ، وتقرر بعدئذ أن يضم هذه الصورة ضريح مقام من الرخام والذهب . واختطه تشيونى على شكل كنيسة قوطية مصغرة ذات عمد ، وأبراج مستدقة ، وتماثيل ، ونقوش بارزة ، ومعادن ثمينة ، وأحجار غالية ، فهى والحالة هذه درة من زخرف القرن الرابع عشر . وذاعت بفضلها شهرة أندريا فعين كبير الفنانين فى أرڤيتو Orvieto واشترك فى تخطيط واجهة كنيستها . ثم عاد

إلى فلورنس فى عام ١٣٦٢ وأخذ يعمل فى الكنيسة العظيمة إلى يوم وفاته .

وكانت شهرة سانتا ماريا دل فيورى Santa Maria del Fiori — أكبر الكنائس التى بنيت فى إيطاليا حتى ذلك الوقت — قد بدأت من عهد أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى عام ١٢٩٦ ، وتتابع عليها عدد من كبار الفنانين بعضهم فى إثر بعض ظلوا يعملون فيها حتى هذا اليوم ، ونذكر من هؤلاء چيتو ، وأندريا بيزانو ، وفرانتشسكو تالنتى وغيرهم ؛ ويرجع تاريخ واجهتها الحالية إلى عام ١٨٨٧ ، ولا تزال الكنيسة الكبرى ناقصة إلى هذا اليوم ، ولا بد أن يعاد بناء جزء كبير منها فى كل قرن . وسبب ذلك أن العمارة كانت أقل الفنون نجاحاً فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، لأنها أخذت فى غير حماسة أو اهتمام من الشمال بعض عناصر العمارة القوطية كالعقد المستدق ، وجمعت بينها وبين العمد المأخوذة من العمارة القديمة ، ثم شادت فوق هذه كلها فى بعض الأحيان القبة ذات الطراز البيزنطى . فكان هذا خليطاً غير متناسق العناصر ، إذا استثنينا منه بعض الكنائس الصغرى من عمل برامنتى Bramante حكمنا بأنه تعوزه الوحدة والرشاقة . وكانت واجهة أرفيتو وسينا Siena مظهراً فخماً لفن النحت والفسيفساء أكثر منها مظهراً لفن العمارة الصحيح ؛ وإن العناية الشديدة بإبراز الخطوط المستقيمة والناشئة من وجود طبقات متتالية من الرخام الأسود والأبيض فى جدرانها ، لما يسبب الانقباض للعين والنفس ، مع أن معنى الكنيسة نفسه يجب أن يكون هو الضراعة أو الابتهال الصادرين إلى السموات العلى . وإن من العسير أن نعد كنيسة سانتا ماريا دل فيورى — وهو الإسم الذى أطلق على كنيسة فلورنس بعد عام ١٤١٢ ، وقد اشتق اللفظ الأخير — فيورى) من الزنبقة المرسومة على شعار المدينة — زهرة من الأزهار . ولولا القبة الشهيرة التى أنشأها برونلسكو Brunellesco لعدت كهفاً قد يكون فراغه المظلم هو فم جحيم دانتى بدل أن يكون بيتاً لله .

وكان أرنلفو دى كمبيو ، الرجل المجد الذى لا تنفد قواه ، هو الذى بدأ كنيسة الرهبان الفرنسيس المسماة سانتا كروتشى أو الصليب المقدس فى عام ١٢٩٤ ، والذى بدأ أيضاً فى عام ١٢٩٨ أجمل بناء فى فلورنس كلها ، وهو پلاتسا دلا سـنيورا Palazz della Signora الذى تعرفه الأجيال المتأخرة باسم پلاتساڤيتشيو . وتم بناء الكنيسة فى عام ١٤٤٢ ما عدا واجهتها التى تمت فى عام ١٨٦٣ ؛ أما الپلاتسا دلا سنيورا المعروفة أيضاً باسم القصر القديم فقد تمت أجزاؤها الرئيسية فى عام ١٣١٤ . وكانت هذه هى السنين التى شهدت نفى دانتى ووالد پترارك ؛ ذلك بأن النزاع الحربى كان وقتئذ على أشده ، ولهذا شاد أرنلفو لحاكم المدينة حصناً لا قصراً وجعل من سقفه معاقل ذات مزاغل ، وكان برج الجرس الفريد فى نوعه يدعو برنين جرسه أهل المدينة إلى الاجتماع فى مجلسها النيابى أو إلى حمل السلاح . ولم يكن كبراء المدينة Priori, Signori يحكمون من هذا المكان فحسب ، بل كانوا أيضاً يعيشون فيه ؛ وتظهر روح ذلك العصر فى القانون الذى ينص على أن أولئك الكبراء لم يكن يجوز لهم أن يغادروا البناء لأى سبب كان . وأقام نيرى دى فيوراڤنتى Neri di Fioravante فوق نهر الآرنو جسرا من أشهر جسور العالم هو جسر ڤيتشيو Ponte Vecchio الذى تصدع الآن بفعل الأيام والحروب ، ولكنه لا يزال ينوء بحمل حركة المرور واثنين وعشرين حانوتا . وكانت تقوم حول هذه الصروح الضخمة ، التى أنشأها أهل فلورنس مدفوعين بروحهم الوطنية ، فى الشوارع الضيقة المؤدية من الكنيسة وميادين سنيوريا Signoria كانت تقوم حولها بيوت الأغنياء المعذبين ، وكانت لا تزال وقتئذ بيوتاً متواضعة ، والكنائس الفخمة التى استحال فيها ذهب التجار فنا . وحوانيت التجار والصناع الصاخبة والمساكن المزدحمة التى تقيم فيها جمهرة الشعب المجـد ، الثائر ، السريع الاهتياج ، الذكى . وفى جنون هذه العناصر ولدت النهضة .

الفصل السابع

ديكمرون

كانت فلورنس هى المدينة التى أحرزت فيها الآداب الإيطالية أعظم انتصاراتها ، ففيها خلع جوندسيلى Guenzlli وكفلكنتى Cavalcanti فى أواخر القرن الثالث عشر على الأغنية صورتها المصقولة ؛ وأرسل دانتى الشاعر الفلورنسى أولى نغمات شعر الملاحم الإيطالى وآخرها فى الحنين إلى فلورنس وإن لم ينشد هذه النغمات فيها نفسها ، وفيها ألف بوكاتشيو أعظم كتاب فى النثر الإيطالى ، وكتب چيوڤنى ڤلانى Giovanni Villani أكثر تواريخ العصور الوسطى الإخبارية اتفاقاً مع النزعة التاريخية الحديثة . . ذلك أن ڤلانى زار رومة أيام الاحتفال بعيد عام ١٣٠٠ وتأثر كما تأثر جبن Gibbon فيما بعـــد بما خلفه ماضيها العظيم من أطلال خربة فخطر له فى تلك اللحظة أن يسجل تاريخ المدينة ؛ ثم رأى أن رومة قد نالت كفايتها من تخليد ذكراها ، فحول فكره إلى موطنه الأصلى وقرر أن « يحشد فى هذا المجلد . . . جميع ما وقع فى مدينة فلورنس من أحداث . . . وأن يقص أعمال أهل فلورنس كاملة ، وأن يورد فى إيجاز الشئون الهامة فى سائر العالم »(٢٦) .

وبدأ تاريخه ببرج بابل وختمه بالأحداث التى وقعت قبيل الموت الأسود الذى مات هو فيه ؛ وأتم القصة أخوه ماتيو Matteo وفليو Philippo ابن أخيه حتى بلغا بها عام ١٣٦٥ . وكان چيوڤنى حسن الاستعداد للعمل الذى اضطلع به . فقد كان ينتسب إلى أسرة ثرية من التجار ، وكان متمكناً من اللغة التسكانية الخالصة ، وقد طاف بأنحاء إيطاليا ، وفلاندرز ، وفرنسا ، وعمل ثلاث مرات مختلفة رئيسا لدير ،

ومرة مديراً لدار سك النقود ؛ وكان لديه إحساس غير عادى ، بالنسبة لتلك الأيام ، بالأسس والعوامل الاقتصادية التى تعمل فى التاريخ ؛ وكان هو أول من أدخل فى قصته إحصاءات عن أحوال البلاد الاجتماعية فجعلها بذلك طريقة ممتعـــة . ومعظم ما فى الثلاثة الكتب الأولى من « تاريخ فلورنس الإخبارى » قصص خيالية ، أما ما تلاها من الكتب فتحدثنا أن فلورنس وما وراءها من الأرضين كان يسكنها فى عام ١٣٣٨ مائة ألف وخمسة آلاف من السكان ، سبعة عشر ألفاً منهم متسولون ، وأربعة آلاف يعيشون من الإعانات العامة ، وأنه كان بالمدينة ست مدارس ابتدائية يؤمها عشرة آلاف ولد وبنت ، وأربع مدارس ثانوية يتعلم فيها ستمائة ولد وقليل من البنات « النحو » (أى الأدب) . و « المنطق » (الفلسفة) . وقد فعل ڤلانى ما لم يفعله غيره من المؤرخين فضمن كتابه ملاحظات عما هنالك من كتب ، وصور ، ومبان ، جديدة ، حتى ليصح القول بأننا قلما نعرف أن مدينة أخرى قد وصفت جميع مظاهر حياتها وصفاً مباشراً كما وصفت فلورنس ؛ ولو أن ڤلانى قد سلك كل هذه المناحى والتفاصيل فى قصة موحدة من العلل ، والمظاهر ، والشخصيات ، والنتائج لجعل من كتابه الإخبارى تاريخاً حقيقياً .

واستقر بوكاتشيو فى فلورنس عام ١٣٤٠ وظل يطارد المرأة فى الحياة والشعر والنثر . فقد أهدى امورازا فزيونى Amorasa Visioni إلى فيامتا Fiametta واسترجع فى ٤٤٠٠ بيت أيام صلتهما السعيدة . وينطق بوكاتشيو فيامتا الأميرة غير الشرعية المولد فى رواية نفسانية بقصة انحرافها مع بوكاتشيو .وتحلل نشوات الحب القوية ، وآلام العاطفة ، والغيرة ، والهجران بتفصيلات وافية ، وحين يؤنبها ضميرها على عدم وفائها تتمثل أفروديتى تؤنبها على جبنها وتقول : « لا تجبنى وتقولى إن لى زوجا وإن القوانين المقدسة والوعود تحرم هذه الأشياء علىّ لأن هذا

كله غرور كاذب واعتراضات حمقاء طائشة على قوة الحب : ذلك أن الحب يفرض قوانينه الأبدية كأنه أمير قوى عظيم ، ولا يبالى بغيرها من القوانين التى هى أقل منها شأنا . والتى يراها قواعد منحطة دنيئة(٣٧) . ويسىء بوكاتشيو استخدام قلمه فيختم كتابه بأن ينطق فيامتا تمجيداً له وتعظيما بأنه هو الذى هجرها وليست هى التى هجرته . ويعود بوكاتشيو إلى الشعر فينشد فى *نيفالى فيزولانو* حب أحد الرعاة لكاهنة من كاهنات ديانا ؛ ويصف فى دقة العاشق الواله ظفره بها بحماسة احتفظ بها للمناظر الطبيعية . وتكاد هذه القصـــة تكون هى الأساس الذى بنى عليه *ديكمرون* .

وقد بدأ بوكاتشيو يكتب هذه السلسلة الذائعة الصيت والمتصلة الحلقات من قصص الإغواء بعد طاعون عام ١٣٤٨ بزمن قليل . وكان وقتئذ فى الخامسة والثلاثين من عمره وكانت حرارة الشهوة قد نزلت من الشعر إلى النثر ، وشرع يدرك ما فى مطاردة النساء الجنونية من فكاهة . ويبدو أن فيامتا نفسها قد ماتت بالطاعون ، وأن بوكاتشيو قد هدأ هدوءاً يكفى لأن يستخدم الاسم الذى أطلقه عليها ليسمى به واحدة من أقل الفتيات الراويات فى كتابه . ولم ينشر الكتاب كله إلا فى عام ١٣٥٣ وإن كان بعضه قد نشر من غير شك على أجزاء متقطعة ؛ وشاهد ذلك أن المؤلف يجيب وهو يمهد لليوم الرابع عما وجه إلى القصص السابقة من نقد . والكتاب فى صورته التى لدينا الآن مؤلف من مائة قصة ، مائة قصة كاملة . ولم يكن يقصد بها أن يقرأ عدد كبير منها دفعة واحدة ؛ وما من شك فى أنها وقد نشرت متتابعة قد اتخذت موضوعات للسمر فى كثير من الأماسى النشوى .

وتصف المقدمة ما كان للموت الأسود الذى اجتاح أوربا بأكملها فى عام ١٣٤٨ وما بعدها من آثار فى مدينة فلورنس . ويبدو أن المرض قد

نشأ من خصب السكان الأسيوين وقذارتهم وما انتابهم من الفقر بسبب الحرب ، والضعف بسبب المجاعة ، فامتد الوباء من بلاد العرب إلى مصر ، ومن البحر الأسود إلى الروسيا وبلاد بيزنطية ؛ ثم نقله تجار البندقية ، وسرقوسة ، وبيزا ، وجنوى ، ومرسيليا وسفنها من القسطنطينية والإسكندرية وغيرهما من ثغور الشرق الأدنى بمساعدة البراغيث والفئران إلى إيطاليا وفرنسا . وأكبر الظن أن سنى القحط المتعاقبة التى حلت بأوربا الغربية — ١٣٣٣ — ١٣٣٤ ، ١٣٣٧ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٥ — ١٣٤٧ — قد أوهنت ما كان للفقراء من قوة المقاومة ، ثم نقل الوباء إلى سائر الطبقات[٣٩] . وانتشر الوباء فى صورتين : طاعون رئوى مصحوب بحمى عالية وبصاق دموى ويؤدى إلى الموت فى خلال ثلاثة أيام من بدء الإصابة ، ودملى مصحوب بحمى وخراجات وجمرات ويؤدى إلى الموت فى خلال خمسة أيام . وقضى الطاعون فى هجماته المتعاقبة على نصف سكان إيطاليا بين عامى ١٣٤٨ و ١٣٦٥[٤٠] وكتب مؤرخ إخبارى حوالى عام ٣٥٤ يصفه فقال :

لم يكن يصحب الجثث إلى قبورها أحد من أهل المتوفى أو أصدقائه القساوسة أو الرهبان ، ولم تكن تتلى عليها صلاة الجنازة .... وحفرت فى كثير من أنحاء المدينة خنادق ألقيت فيها الجثث ، وغطيت بطبقة رقيقة من التراب ؛ وتلتها طبقة بعد طبقة حتى امتلأ الخندق ثم بدئ بحفر خندق جديد . وقد دَفَنْتُ أنا أنيولو دى تورا Agnolo di Tura ... بيدى خمسة من أبنائى فى خندق واحد ، وفعل هذا بعينه كثيرون غيرى . وكانت الطبقة التى غطيت بها جثث بعض الموتى رقيقة إلى حد جعل الكلاب تخرجها وتنهشها وتنشر أعضاءها فى جميع أنحاء المدينة . ولم تدق أجراس ، ولم يبك الموتى مهما فدح الخطب لأن كل إنسان تقريبا كان يترقب الموت .... وكان الناس يقولون إن « هذه هى آخر العالم » ويؤمنون بما يقولون[٤١] .

ويقول ماثيو فلانى إن ثلاثة من كل خمسة من سكان فلورنس ماتوا بين شهرى إبريل وسبتمبر من عام ١٣٤٨ ؛ وقدر بوكاتشيو عدد من مات من أهل فلورنس بستة وتسعين ألفاً(٤٢) . وتلك بلا ريب مغالاة واضحة لأن سكان المدينة لا يكادون يزيدون وقتئذ على مائة ألف . ويبدأ بوكاتشيو كتاب ديكمرون بوصف مروع للطاعون يقول فيه :

ولم يكن الاتصال بالمرضى أو التحدث إليهم وحدهما ينقلان العدوى إلى الأصحاء . بل يبدو أن مجرد لمس ثياب أولئك المرضى أو أى شىء آخر مسوه أو استعملوه كان يكفى لنقل المرض . . . وكان أى شىء مما يملكه الموتى أو المصابون بهذا الوباء إذا أمسه حيوان . . . مات بعد وقت قليل . . . وتلك أمور شاهدتها بعينى رأسى . وقذفت هذه المحنة الرعب فى قلوب الناس جميعاً . . . فتخلى الأخ عن أخيه . والعم عن ابن أخيه ، . . . وكثيراً ما تخلت الزوجة عن زوجها . بل حدث ما هو أعجب من هذا وما لا يكاد يصدقه العقل ، وهو أن بعض الآباء والأمهات رفضوا أن يزوروا أبناءهم أنفسهم أو يعنوا بهم كأنهم ليسوا منهم . . . وافترس المرض فى كل يوم آلافا من عامة الشعب لأنهم لم يجدوا من يرعاهم أو يعمل لإنقاذهم ، وماتوا وهم لا يكادون يجدون ملجأ أو معونة . ولفظ الكثيرون منهم آخر أنفاسهم فى الطرقات ، ومات كثيرون غيرهم فى بيوتهم ولم يعرف جيرانهم خبر موتهم إلا من رائحة أجسامهم المتعفنة لا من أية وسيلة أخرى ؛ وامتلأت المدينة بهؤلاء وأولئك وغيرهم من الأموات . وأخرج الجيران جثث الموتى من منازل أصحابها ووضعوها أمام أبوابها مدفوعين إلى ذلك بخوفهم أن يتعرضوا هم للخطر بسبب تعفن هذه الجثث لا بأى شعور بالرحمة نحو هؤلاء الأموات ؛ ولهذا كان المارة وبخاصة فى الصباح يرون من الجثث ما يخطئه الحصر . وكانوا حينئذ يجيئون بالتوابيت فإذا أعوزتهم جاءوا بألواح من الخشب وحملوهم عليها ؛ ولم يكن الأمر مقصوراً على أن يحمل التابوت الواحد جثتين أو ثلاث

جثث مجتمعة ، أو أن يحدث هذا مرة واحدة ، بل إنك لتستطيع أن تجد توابيت كثيرة وقد وضع فيها الزوج وزوجته ، وأخوان أو ثلاثة إخوة ، وأب وابنه ، وما إلى هذا وأمثاله ... ووصل الأمر إلى حد لم يكن الناس معه يحصون من مات من الخلائق إلا كما يحصى الناس عدد الماعز فى هذه الأيام(٤٣) .

ويرسم بوكاتشيو صورة كتابه ديكمرون من مناظر الخراب السالفة الذكر ، وقد وضعت خطة إخراجه فى « كنيسة سانتا ماريا نوڤلا المعظمة » على أيدى « سبع فتيات ترتبط كل واحدة منهن بالأخريات برباط الصداقة أو الجيرة أو القرابة ، وقد استمعن تواً إلى القداس . وتتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة والثامنة والعشرين من العمر » . وكلهن ذوات فطنة ، ونبل ، وجمال ، وآداب عالية ، مرحات مرحاً يزينه الشرف : « وتقترح إحداهن أن يقللن من خطر عدوى الطاعون بالرجوع إلى بيوتهن الريفية مجتمعات لا فرادى ، وأن يأخذن معهن خدمهن ، وأن ينتقلن من بيت ريفى إلى آخر وأن « يستمتعن بالمرح واللهو الذى يتيحه ذلك الفصل من فصول السنة ... فهناك نستطيع أن نستمع إلى تغريد الطير ، ونرى التلال والسهول وقد اكتست بحلة سندسية ، والحقول وقد امتلأت بالقمح يتماوج فيها تماوج ماء البحر ، وفيها نرى آلافاً من أنواع الثمر ، ونشاهد وجه السماء مبسوطاً للناظرين ، لا يحجب عنا جماله ، وإن كان مغضباً علينا »(٤٤) . وتوافق الفتيات على هذا الاقتراح ، ولكن فلومينا **Filomena** تدخل عليه بعض التحسين فتقول : « إننا نحن النساء متقلبات ، عنيدات ، شديدات الريبة ، خوارات العود » ولهذا فقد يكون من الخير أن يكون معنا بعض الرجال . وساقت إليهن الأقدار فى تلك اللحظة ثلاثة رجال « ثلاثة شبان دخلوا عليهن الكنيسة ... لم تقو صروف الزمان ، أو فقد الأهل والأصدقاء . . . أن تنال منهم فنطفئ . . . نار الحب الملتهبة فى قلوبهم . . . وكانوا جميعاً ذوى لطف وأدب جم وتربية عالية ، وقد

خرجوا جميعا يبحثون عن أعظم سلوى لهم ... وهى رؤية عشيقاتهم : واتفق أن كانت أولئك العشيقات الثلاث من بين السبع الفتيات السالفات الذكر » . وتشير بمبينيا على صاحباتها أن يدعى أولئك الشبان للانضمام إلى جماعتهن فيخرجوا معهن إلى الريف ، وتخشى نيفيلى Neifile أن يؤدى هذا إلى القيل والقال ، فترد عليها فلومينا بقولها : « ما دمت أحافظ على شرفى ، ولا أفعل ما يؤنبنى عليه ضميرى ، فلست أبالى بما يقول الناس غير هذا » .

ويتم الاتفاق وتبدأ الرحلة فى يوم الأربعاء التالى يتقدمهم الخدم يحملون الطعام ميممين شطر بيت ريفى على مسيرة يومين من فلورنس « يتوسطه فناء جميل رحب ، وأبهاء ، وحجرات للاستقبال ، وأخرى للنوم ، كل واحدة منها ذات جمال ، مزدانة بصور تسر النفس ، وتحيط بها خمائل وأرض ذات كلأ ، وحدائق عجيبة غناء ، وعيون ماء بارد زلال ، وسراديب ملأى بالخمر الغالى الثمن »(٤٤) . وتنام الفتيات والشبان بعد أن يمضى من الليل معظمه ، ويفطرون على مهل ، ويتنزهون فى الحدائق ، حتى إذا تعشوا آخر الأمر أخذوا يسلون أنفسهم بالقصص التى تتفق مع هذا الأسلوب من الحياة . وتتفق الجماعة على أن يقص كل فرد من أفرادها العشرة قصة فى كل يوم من أيام النزهة . ويقضون فى الريف عشرة أيام (ومن ثم اشتق اسم الكتاب من الكلمتين اليونانيتين ديكا همرأى Deka hemerai أى عشرة أيام) وتكون النتيجة أنك تجد فى مجموعة بوكاتشيو المرحة قصة تعارض كل مقطوعة من مقطوعات دانتى المكتئبة المحزنة . وتضع الجماعة قاعدة تحرم على أى عضو من أعضائها « أن ينقل من الخارج أى خبر غير سار » .

ويندر أن تكون القصص التى يبلغ متوسط طول الواحدة منها ست صفحات من ابتكار بوكاتشيو نفسه ؛ بل إنه جمعها من المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، ومن كتاب الشرق ومن أقاصيص العصور الوسطى ؛

والقصص والخرافات الفرنسية ، والأقاصيص الشعبية المنتشرة فى إيطاليا نفسها : وآخر قصص الكتاب وأوسعها شهرة قصة جريزلدا Griselda الصابرة التى بنى عليها تشوسر Chaucer واحدة من أحسن وأسخف قصص كنتربرى Canterbury Tales . أما أجمل قصص بوكاتشيو فهى القصة التاسعة التى تروى فى اليوم الخامس — قصة فدريجو Federigo ، وصقره وحبه ، والتى تحوى من التضحية ما لا يكاد يقل عن تضحية جريزلدا ؛ أما أكثرها فلسفة فهى قصة الخواتم الثلاثة (الكتاب الأول — القصة الثالثة) ومضمونها أن صلاح الدين « سلطان بابل » يحتاج إلى المال فيدعو ملشيزدك Melchisedek اليهودى الثرى إلى العشاء معه ويسأله أى الأديان الثلاثة أحسنها — اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ؟ ويخشى الشيخ اليهودى الحكيم أن يقول ما يعتقد فيجيب عن هذا السؤال بقصة رمزية :

كان يعيش فى الأيام الخالية رجل عظيم الشأن كثير المال ، وكان من بين ما عنده من الجواهر الثمينة فى كنوزه خاتم عظيم غالى الثمن . . . وأراد أن يورث هذا الخاتم أبناءه من بعده وأن يبقى عندهم إلى أبد الدهر ، فأعلن أن الذى يوجد منهم عند وفاته ممتلكا للخاتم تنفيذاً لوصيته يجب أن يعترف به وارثا له ، وأن يقر له سائر الأبناء بالزعامة والرياسة ، وأن يعظموه ويوقروه . وأتبع من أوصى له بالخاتم هذه الخطة نفسها مع أبنائه هو ، ففعل مثل ما فعل والده . وقصارى القول أن الخاتم أخذ يتنقل من يد إلى يد أجيالا طوالا حتى وصل آخر الأمر إلى يد رجل له ثلاثة أبناء صالحين فاضلين كلهم مطيعون لأبيهم أحسن إطاعة ، ومن أجل هذا كان الأب يسوى بينهم جميعاً فى حبه . وكان الأبناء يعرفون قيمة الخاتم وفائدته ، ويريد كل منهم أن يكون هو أعظم الثلاثة قدرا بين قومه . . . ولهذا أخذ كل واحد منهم يرجو أباه — وكان قد بلغ الشيخوخة — أن يوصى له بالخاتم . . . ولم يكن ذلك الرجل الصالح يدرى كيف يختار من بين أبنائه من يفضله على أخويه فيوصى له بالخاتم ،

ففكر . . فى أن يرضيهم هم الثلاثة وعهد فى السر إلى صانع ماهر أن يصنع له خاتمين آخرين يشبهان الخاتم الأول شبها يكاد يعجز معه هو نفسه عن أن يعرف أيها الحقيقى وأيها المقلد . فلما قربت منيته أعطى كل واحد من أبنائه خاتمة سراً ؛ فلما مات الأب وأراد كل واحد من الأبناء أن يرث المال والشرف دون غيره من أخويه أظهر خاتمه يؤيد به حقه . وإذ كانت الخواتم الثلاثة متشابهة كل الشبه فقد كان من غير المستطاع معرفة الخاتم الأصيل . وتأجل من ثم الفصل فى أى الثلاثة يرث أباه ، ولا يزال ذلك مؤجلا حتى الآن . وكذلك أقول لك يا مولاى . إن كل شعب من الشعوب الثلاثة يرى أنه هو الذى يرث من الله شريعته الحقة ووصاياه من بين الشرائع الثلاثة التى أنزلها الله أبو الخلق على هذه الشعوب : أما أى شعب منها هو صاحب هذه الشريعة وتلك الوصايا فإن هذا لم يعرف بعد ، وشأن ذلك شأن الخاتم سواء بسواء .

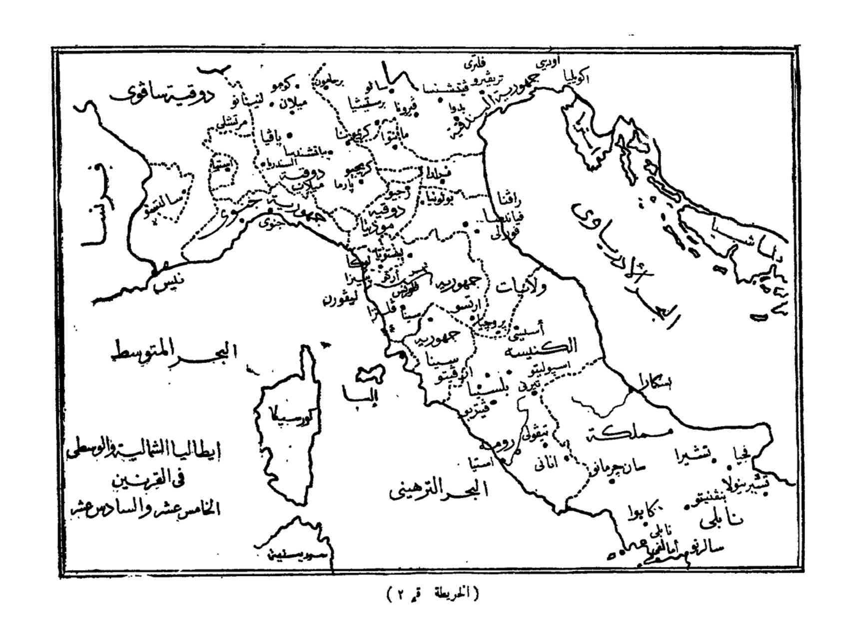
وتوحى هذه القصة بأن بوكاتشيو وهو فى السابعة والثلاثين من عمره لم يكن مسيحيا متعصبا لمسيحيته . وخليق بنا أن نوازن بينه وبين تعصب دانتى وما قاله عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)(٤٦) . وفى القصة الثانية من قصص ديكمرون نرى اليهودى يحنات يعتنق الدين المسيحى بعد اقتناعه بالحجة التى أوردها ڤلتير وهى أن المسيحية دين منزل من عند الله ما فى ذلك شك ، لأنها قد بقيت بعد ما فشا بين رجال الدين من فساد فى الأخلاق ، وارتشاء ، وبيع للمناصب الدينية ، ويسخر بوكاتشيو بالنسك : والطهارة ، والاعتراف الدينى ، والمخلفات المقدسة ، والقساوسة ، والرهبان ، وجماعات الإخوان ، والراهبات ؛ وإضفاء صفة القداسة على الصالحين . ويرى أن الكثرة الغالبة من الرهبان قوم مراءون منافقون ، ويسخر من « البلهاء » الذين يقدمون لهم الصدقات (الكتاب السادس : القصة العاشرة) . وتحدثنا واحدة من أكثر قصصه مرحا عن الراهب تشيپلا Cipalla وكيف أراد أن يجمع مبلغاً كبيراً من المال فوعد مستمعيه

أن يعرض عليهم « أثرا مقدسا أعظم التقديس ، وهو ريشة من ريش الملاك جبريل بقيت فى حجرة مريم العذراء بعد أن بشرها بمولد المسيح (الكتاب السادس القصة العاشرة) . أما أكثر هذه القصص بذاءة وفحشا فهى التى تروى كيف أشبع الشاب ماستو Masetto الشَّبِق شهوة دير للنساء بأكمله (الكتاب الثالث — القصة الأولى) . وفى قصة أخرى يروى بوكاتشيو كيف زنى الراهب رينلدو Rinaldo بزوجة رجل ، ثم يسأل راوى القصة : « ومَن مِن الرهبان لا يفعل هذا » (الكتاب السابع القصة الثالثة) .

وتظهر السيدات فى كتاب **ديكمرون** شيئاً من الحياء حين يستمعن إلى هذه القصص ، ولكنهن يستمتعن بما تحويه من فكاهة شبيهة بفكاهة ربليه Rabelais وتشوسر . وتقص فلومينا ، وهى فتاة ذات آداب راقية ، قصة رينالدو ، ويقول بوكاتشو فى أسوأ صورة من صوره إن « السيدات كن فى بعض الأحيان يواصلن الضحك زمنا يكفى لخلع أسنانهن جميعها »(٤٧) . ويرجع هذا النحو الذى نحاه بوكاتشيو فى قصصه إلى أنه قد نشأ وسط مرح نابلى الطليق ، وإنه إذا ما فكر فى الحب كان فى أغلب الأحيان يفكر فى معناه الشهوانى ؛ أما حب الفروسية والشهامة فكان يسخر منه ، وكان موقفه من دانتى كموقف سانكوپانزا من دون كيشوت ؛ ويبدو أنه كان يؤمن بالحب الطليق مع أنه قد تزوج مرتين(٤٨) . وتراه بعد أن يقص نحو عشرين قصة لا يصح أن يتحدث بها اليوم بين جماعة من الذكور ينطق أحد الرجال بعبارة يقولها للسيدات : « لم ألاحظ قط أى عمل ، أو لفظ ، أو كلمة ، أو أى شىء ناب صدر منكن أو من الرجال » . ويعترف المؤلف فى ختام كتابه بصحة بعض ما يوجه من النقد إلى ما فى الكتاب من فحش وخاصة « لأنى قلت الحق عن الرهبان فى مواضع كثيرة » . وهو فى الوقت ذاته يهنئ نفسه على ما بذله من « جهد طويل أتم فيه عمله على أكمل وجه بمعونة الله » .

ولا يزال **ديكمرون** من روائع الأدب العالمى ؛ ويرجع سبب شهرته

إلى أخلاقه أكثر مما يرجع إلى فنــه ، ولكنه حتى لو خلا من كل ما يجافى الخلق الكريم لكان مع ذلك خليقا بالبقاء : وليس فى بناء الكتاب شىء من النقص — وهو يسمو من هذه الناحية على كتاب **قصص كنتربرى** . وقد ارتفع نثره بالأدب الإيطالى إلى مستوى لم يسم عليه قط ، وهو نثر قد يكون فى بعض الأحيان معقدا أو مزخرفا ، ولكنه فى معظمها بليغ ، جذل ، لاذع ، مطرب ، صاف صفاء النبع الجبلى . إنه كتاب فى حب الحياة ، وقد استطاع بوكاتشيو فى غمرة أكبر كارثة حلت بإيطاليا فى مدى ثمانين عاما أن يجد فى نفسه من الشجاعة ما يستطيع به أن يرى الجمال ، والفكاهة ، والطيبة ، والمرح لا تزال تمشى على الأرض ؛ وتراه فى بعض الأحيان ساخرا كما تتبين ذلك فى هجوه الخالى من الشهامة للنساء فى الكرباتشيو Corbaccio : لكنه كان فى **ديكمرون** شبيها بربليه فى ضحكه العالى ومرحه ، يتقبل ما تعطيه الحياة إياه وما تأخذه منه ، ويرضى منها ومن الحب بمتاعهما وسقطاتهما : ولقد شهد العالم نفسه مصورا فى الكتاب رغم ما فيه من مغالاة ومن صور هزلية : ولقد ترجم إلى جميع اللغات الأوربية ، ونقل هانز ساكس Hans Sachs ولسنج Lessing ، ومليير Molière ولافنتين La Fontaine ، وتشوسر Chaucer ، وشيكسپير نقل هؤلاء كلهم صحفا منه أعجبوا بها كل الإعجاب : وسيظل الكتاب متعة للقراء بعد أن يكون جميع شعر پترارك قد انطوى فى عالم الكتب التى يمدحها الناس ولا يقبلون على قراءتها .



(الخريطة رقم ٢)

الفصل الثامن

سـيـنا

وكانت سينا خليقة بأن تتحدى ادعاء فلورنس بأنها مهد النهضة . ففيها أيضاً رفعت حدة الانقسامات الحزبية من حرارة التفكير ، وغذى زهو المدينة باستقلالها شجرة الفن ، وأمدت صناعة الصوف وصادرات المدينة إلى البلاد الواقعة فى شرق البحر المتوسط ، والتجارة المتبادلة بين فلورنس وروما مارة بطريق فلامينا Via Flamina ، بقدر لا بأس به من الثراء ؛ فلم يحل عام ١٤٠٠ حتى كانت ميادينها وشوارعها الرئيسية مرصوفة بالآجر أو الحجارة ، وحتى بلغ فقراؤها من الثراء درجة شجعتهم على القيام بثورة ، ذلك أن العمال فى صناعة الخشب حاصروا القصر العام Palazza Pubblico فى عام ١٣٧١ ، وحطموا أبوابه ، وطردوا منه حكومة رجال الأعمال ، وأنشأوا **حكومة الفقراء** ؛ . ولم تمض على قيام هذه الحكومة إلا بضعة أيام حتى قام جيش مؤلف من ألفى رجل جهزه ذوو المصالح التجارية فى المدينة ، فهاجم أحياء العمال ، وذبح من فيها من الرجال ، والنساء ، والأطفال ، دون تمييز أو رحمة ، فمنهم من أنفذت فى أجسادهم الحراب ، ومنهم من مزقت بالسيوف . وخف الأشراف ورجال الطبقة الوسطى — الدنيا لإنقاذ العامة ، وقضى على الثورة المضادة ، وتولت حكومة الإصلاح مقاليد الأمور ، فوهبت المدينة أشرف نوع من الإدارة يستطيع أهلها أن يتذكروه . ثم ثار التجار الأغنياء مرة أخرى فى عام ١٣٨٥ ، وأسقطوا حكومة **الفقراء** ، وطردوا أربعة آلاف من

العمال العاصين من المدينة . وضعف شأن الصناعة والفن فى سينا من ذلك التاريخ(*) .

وبلغ الفن فى سينا ذروة مجده فى القرن الرابع عشر الملىء بالاضطراب ، فقد قام فيها على الجانب الغربى من الكامبو الفسيح — وهو الميدان الرئيسى فى المدينة — القصر العام ، البلاتسوببليكو (١٢٨٨ — ١٣٠٩) ، يجاوره برج الأجراس Torre de Magnia الذى يعلو رفيعاً فى الجو إلى ٣٣٤ قدما ، والذى هو أجمل برج فى إيطاليا حتى اليوم . وفى عام ١٣١٠ انتقل لورندسو ميتانى Lorenzo Maitani أعظم المهندسين المعماريين والمثالين فى سينا إلى أرڤينو وخطط الواجهة الفخمة لكنيستها الكبرى ، ثم أخذ هو وغيره من الفنانين من أهل سينا ومعهم أندريا پيزانو يعملون فى شبه حمى جنونية لتزيين المداخل ، والعمد المربوعة ، والقواصر ، حتى أخرجوا معجزة فنية من الرخام ليخلدوا بها ذكرى معجزة بلسينا Bolsena . وأنشئت لقصر سينا العظيم فى عام ١٣٧٧ واجهة مماثلة للواجهة السالفة الذكر على أساس التخطيط الذى تركه چيوڤنى پيزانو ، ولعلهم قد بالغوا فى زخرفته . ولكنه مع هذا لايزال من عجائب الفن فى إيطاليا التى لا تحصى عجائبها الفنية .

وكانت طائفة ممتازة من المصورين فى سينا قد واصلت العمل من النقطة التى وقف عندها دتشيو دى بيونتسنيا Duccio di Buoninsegna ؛ ذلك أن سيمون مارتينى قد عهد إليه فى عام ١٣١٥ أن يزين بهو المجلس العظيم فى البلاتسوببليكو بصورة تمثل **تتويج العذراء** (المائستا (Maesta) ،

(*) إن ثورة عمال سينا فى عام ١٣٧١ ، وثورة التشيمبى Ciompi فى فلورنس عام ١٣٧٨ ، وثورة وات تيلر Wat Tyler التى قامت معها فى نفس الوقت تقريبا فى إنجلترا ، والثورة التى قامت فى فرنسا حوالى عام ١٣٨٠ توحى كلها بوجود موجة من الثورات اجتاحت أوربا ، كما توحى بوجود قسط من الاتصال والتأثير المتبادل بين الطبقات العامة فى أوربا الغربية أكبر مما يظن الناس عادة أنه كان موجودا فى ذلك الوقت .

وذلك لأن العذراء كانت من الوجهة القانونية كما كانت من الوجهة الدينية ملكة المدينة المتوجة ، وكان من حقها أن ترأس اجتماعات الحكومة البلدية . ولم تكن الصورة تقل روعة عن مثيلتها التي رسمها دتشيو لتوضع في الكنيسة قبل خمس سنين من ذلك الوقت . نعم إنها لم تضارعها في حجمها ، أو فيما أثقلت به من الذهب ، وهي شبيهة بأختها « ذات الجلال » تكشف عما استمده فن التصوير في سينا من فن بيزنطة ، وذلك بما تظهره من جمود وعدم حركة في الملامح ، ومن وقوف أشخاص الصورة المزدحمين فيها وقفة خالية من الحياة ، ولعلها قد تقدمت على الصورة الأولى في اللون وفي التصميم . ولكن سيمون ذهب في عام ١٢٢٦ إلى أسيسى حيث درس مظلمات چيتو ، فلما دعى ليصور في معبد بالكنيسة السفلى حياة القديس مارتن ، خرج على الوجوه ذات الطابع الراسخ التي مثلها في صوره السابقة ، وصور وجه أسقف تور تصويرا أبرز فيه نزعة انفرادية ذائعة الصيت . والتقى بپترارك في أڤنيون ورسم صوراً للشاعر ولورا Laura ، ومجد من أجل ذلك الكندسونيير Canzoniére . ويقول ڤاسارى Vasari إن هذه السطور الموجود « قد أذاعت شهرة سيمون أكثر مما أذاعتها أعماله هو مجتمعة . . . ذلك أن أعماله سيأتي عليها وقت لا يكون لها فيه وجود ، أما ما يكتبه رجل مثل پترارك فسيبقى أبد الدهر » ؛ وذلك تفاؤل لا نجده عند علماء طبقات الأرض أنفسهم . وعين بندكت الثاني عشر سيمون مصوراً رسمياً للبلاط البابوي (١٣٣٩) ؛ وأوضح بحكم منصبه حياة المعمدان في معبد البابا وحياة العذراء والمنقذ على مدخل الكنيسة . ومات في أڤنيون عام ١٣٤٤ .

وواصل پيترو Pietro وأخوه أمبروجيو Ambrogio ابنا لورندستى Lorenzetti ما حاوله سيمون من إخراج الفن من طابعه الديني إلى طابعه الدنيوي وتوسع فيه . ولعل پيترو قد هجر التقاليد العاطفية المسرفة التي اتسم بها فن التصوير في سينا ، وأخرج طائفة من الصور لتزدان بها

محاريب الكنائس ليس لها فيما سبق مثيل فى قوتها ، وليس لها فى بعض الأحيان مثيل فى واقعيتها الوحشية . فقد صور أمبروجيو فى بهو العصبة (التسعة) فى البلانسوبيليكو أربعة مظلمات (١٣٣٧ — ١٣٤٣) : الحكومة الخبيثة ، وعواقب الحكومة الخبيثة ، والحكومة الصالحة ، وعواقب الحكومة الصالحة . وقد استبقى فيها الرمزية المضادة فى العصور الوسطى والتى تخلى عنها چيتو ؛ فنرى صوراً فخمة لأشخاص يمثلون سينا ، والعدالة ، والحكمة ، والاتفاق ، والفضائل السبع ، والسلم — وتنحنى الشخصية التى تمثل السلم فى رشاقة كما تنحنى آلهة فدياس . ونشاهد فى صورة الحكومة الخبيثة الاستبداد جالساً على العرش ، ووزيره الرعب ؛ ونرى التجار تنهب بضائعهم فى الطريق ، والتحزب والعنف يخضبان المدينة بالدماء . وتظهر صورة الحكومة الصالحة المرسومة على جدران هذا البهو نفسه الأهلين السعداء يعملون مغتبطين فى صناعاتهم اليدوية ، وفى مسراتهم وتجاراتهم ؛ ونرى الزراع والتجار يقودون إلى المدينة بغالا محملة بالطعام والسلع ، الأطفال يلعبون ، والفتيات يرقصن ، والآلات الموسيقية تصدر عنها نغمات صامتة ؛ وترفرف فوق المنظر كله روح مجنحة ترمز إلى الأمن . وربما كان هذان الأخوان النشيطان هما اللذين صورا المظلم الضخم الذى يمثل انتصار الموت فى الكامبو سانتو Campo Santo (الميدان المقدس) فى پيزا Pisa . وتمثل هذه الصورة جماعة من الصيادين مؤلفة من الأعيان والسيدات يرتدون ثياباً غالية الثمن ، ويعثرون على ثلاثة توابيت تحتوى جثثا متعفنة لملوك . ويمسك أحد الصيادين بأنفه اشمئزازاً من رائحتها . ويحوم ملك الموت فوق هذا المنظر ، وهو يلوح بمنجل ضخم ؛ وفى الهواء ملائكة الرحمة يحرسون الأرواح الناجية فى طريقها إلى الجنة ،

ثم نرى الشياطين المجنحة تجر معظم الموتى إلى الجحيم ، ونرى الأفاعي تطوق أجسام الرجال والنساء العارية والنسور تنهشها . وتلتهمها ، ومن تحتها الملوك ، والملكات ، والأمراء ، والأميرات ، والأساقفة ، والكرادلة يتلوون في الهاوية التي تضم الملعونين : وقد صور هذان الفنانان نفسهما على جدار مجاور لهذا في مظلم آخر ضخم صورة يوم الحساب إلى اليسار ومنظراً آخر من مناظر الجحيم إلى اليمين . وتتجسم في هذين المنظرين جميع الأهوال التي يتصورها أهل العصور الوسطى . فهي شبيهة بمنظر جحيم دانتي ترى رأى العين خالية من الرحمة وذاهبة إلى أبعد حد .

ولم تخرج سينا يوماً من العصور الوسطى : بل بقيت هي وجبيو Gobbio ، وسان جمنيانو San Gimignano ، وصقلية على حالها إلى ما بعد النهضة : لم تمت هذه المدن أبداً ولكنها تتربص وقتها صابرة مستورة حتى تظهر من جديد .

الفصل التاسع

ميـــلان

عاد بترارك إلى أفنيون فى عام ١٣٥١ ؛ وأكبر الظن أنه كتب فى فوكلوز Vaucluse مقالا لطيفا **فى حياة الوحدة** De vita solitaria يمتدح فيه الوحدة التى يستطيع أن يتخيلها على أنها علاج شاف ولكنه لا يطيقها إذا كانت طعاماً يقيم به الأود . وبعد قليل من عودته إلى أفنيون أثار عليه غضب جماعة الأطباء حين حذر البابا كلمنت السادس ، وكان وقتئذ يعانى آلام المرض ، من الأدوية التى يصفها له الأطباء : « لقد كنت على الدوام أرجو أصدقائى وآمر خدمى ، ألا يسمحوا أبداً بأن تجرب أية حيلة من حيل الأطباء هذه فى جسمى ، وأن يفعلوا عكس ما يشير به هؤلاء تماماً »[٤٩] . واستشاط غضبا من إخفاق بعض العلاج فكتب فى عام ١٣٥٥ **تنديدا بطبيب** . ولم يكن أكثر من ذلك ميلا إلى المحامين « الذين يقضون وقتهم كله فى النزاع . . . على أتفه المسائل » : « استمع إلى حكمى على جماعتهم كلها . إن شهرتهم ستفنى بفناء أجسادهم ، وإن قبراً واحداً ليكفى أسماءهم وعظامهم »[٥٠] وأراد البابا إنوسنت السادس أن يجعل أفنيون بغيضة أشد البغض لبترارك فاقترح أن يحرمه بحجة أنه متنبئ روحانى ساحر اعتماداً على أن الشاعر دارس لفرجيل . وخف الكردنال تليران Talleyrand لإنقاذ بترارك ، ولكن نفس الشاعر عافت جو أفنيون المعطر بالجهالة القدسية فزار أخاه الراهب جراردو Gherardo وكتب رسالة شيقة **فى فراغ الرهبان** داعب فيها فكرة دخول الدير . ولكنه جاءته دعوة

لأن ينزل ضيفا على طاغية ميلان فى قصره (١٣٥٣) فبادر إلى قبولها مبادرة صدمت مشاعر أصدقائه الجمهوريين .

وكانت الأسرة الحاكمة فى ميلان يطلق عليها اسم الفيكونتى لأن أفرادها كثيراً ما كانوا يشغلون منصب الفيسكوميت vicecomites أى كبار قضاة الأبرشية . وعين الأمبراطور هنرى السابع فى عام ١٣١١ ماتيوفيكونتى قسا له فى ميلان ، وكانت هذه المدينة كما كانت الكثرة الغالبة من مدائن شمالى إيطاليا ، تعترف على نحوما بأنها جزء من الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وأظهر ماتيو فى حكمه من البراعة والحزم ما مكن بنيه من أن يحتفظوا بالسلطة حتى عام ١٤٤٧ وإن كان قد ارتكب هو فى أثناء حكمه أغلاطا شنيعة . وقلما كان خلفاؤه هؤلاء يراعون فى حكمهم ذمة أو ضميراً ، وكثيراً ما كانوا قساة غلاظا ، كما كانوا أحياناً مسرفين ، ولكنهم لم يكونوا أبداً أغبياء . وقد فرضوا الضرائب الفادحة على الشعب ليحصلوا بذلك على الأموال اللازمة لحروبهم الكثيرة التى أخضعت الشمال الغربى من إيطاليا لحكمهم ، ولكن مهارتهم فى اختيار الحكام وقواد الحرب الماهرين أكسبت جيوشهم النصر وعادت بالرخاء على ميلان . وقد أضافوا إلى صناعة الصوف التى اشتهرت بها ميلان صناعة الحرير ، وزادوا من عدد القنوات التى ضاعفت تجارتها ، وأمنوا رعاياهم على أنفسهم وأموالهم إلى حد أنساهم حريتهم ، فأضحت ميلان تحت حكمهم الاستبدادى من أغنى مدائن أوربا ، فكانت قصورها ذات الوجهات الرخامية تطل على الشوارع المرصوفة بالحجارة . ووصلت ميلان بفضل جيوفنى فيكونتى الوسيم ، المجد ، الذى يستطيع أن يكون قاسيا أو كريما إذا دعته إلى ذلك الحاجة أو طافت به نزوة من النزوات ، إلى ذروة مجدها ، واعترفت لودى Lodi ، وپارما ، وكريمه Crema ، وپيا تشندسا ، وبريشيا ، وبرجامو ، ونوفارا Novara ، وكومو ، وفرتشلى Vercelli ، وألسندريا Alessandria ، وتورتونا Tortona ، وپنتريمولى Pontremoli ،

وأستيا Astia ، وبولونيا ، اعترفت هذه كلها بحكمه وسلطانه ؛ ولما أن نازعه بابوات أڤنيون دعواه فى تملك بولونيا ، وأصدروا عليه قرار الحرمان ، حارب كلمنت السادس بالشجاعة والرشا ، وظفر ببولونيا ، وبالغفران ، والسلم نظير مائتى ألف فلورين (١٣٥٢) . وأصيب من جراء جرائمه بالنقرس ، وزان استبداده بمناصرة الشعر ، والعلم ، والفن ؛ ولما وفد پترارك على بلاطه ، وسأله أى الواجبات يطلب إليه أن يؤديها ، رد عليه چيوڤنى ذلك الرد الجميل : « لا شىء أكثر من وجودك الذى يشرفنى ويشرف حكمى »(٥١) .

وأقام پترارك فى بلاط الڤيكونتى فى پاڤيا أو ميلان ثمانى سنين ، وألف فى أثناء هذا الخضوع المريح سلسلة من القصائد بالشعر الإيطالى الرباعى الأوتاد سماها **الانتصار** أى انتصار الشهوة على الإنسان ، والعفة على الشهوة ، والموت على العفة ، والشهرة على الموت ، والزمان على الشهرة ، والخلود على الزمان . وهنا أنشد آخر أغانيه إلى لورا Laura ، وطلبت أن تغفر له شهوانية حبه ، وتحدث إلى روحها الطاهرة وحلم أنه اجتمع بها فى الجنة — ولعل زوجها قد ذهب إلى مكان آخر . ولا تقل هذه القصائد شأنا عن قصائد دانتى ، وهى تمثل انتصار الغرور على الفن .

وتوفى چيوڤنى ڤيكونتى فى عام ١٣٤٥ وأوصى بملكه إلى ثلاثة من أبناء أخيه ، وكان ماتيو الثانى ، عاجزا منهمكا فى ملذاته ، فقتله أخواه ليحفظا بذلك شرف أسرتهما (١٣٥٥) . وحكم برنابو من ميلان جزءاً من الدوقية ، وحكم جليتسو الثانى Galezzo II من بدوا ما بقى منها . وكان جليتسو هذا حاكما قديرا يرسل شعره الذهبى فى غدائر ، وزوج بناته من أبناء الملوك . ولما أن تزوجت ابنته ڤيولنتى Violante دوق كلارنس Clarence ابن إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، أعطاها بائنة قدرها مائتا ألف فلورين ذهبى (أى خمسة ملايين دولار) ، ونفح كل واحد

من حاشية الزوج الإنجليزية المؤلفة من مائتى ألف تابع بهدية ترفع مقامه فى الكرم فوق مقام أغنى معاصريه من الملوك . ويؤكد لنا الرواة أن بقايا مائدة العرس كانت تكفى عشرة آلاف رجل . لقد بلغت إيطاليا فى القرن الرابع عشر هذه الدرجة العليا من الثراء فى الوقت الذى كانت فيه إنجلترا تتردى فى هاوية الإفلاس ، وكانت فرنسا تستنزف دماؤها فى حرب المائة السنين .

الفصل العاشر

البندقية وجنوى

بعث الدوق جيوفنى ڤيكونتى فى عام ١٣٥٤ پترارك إلى البندقية ليفاوضها فى عقد الصلح مع جنوى :

وكتب الشاعر فى ذلك يقول : « إنك لتشهد فى جنوى مدينة حاكمة ، مستقرة على سفح تل أجرد ذات أسوار شاهقة ورجال عظام »(٥٢) . وكان أهلها من أشد الناس حرصا على الكسب يتحدون البحار بإقدامهم وبسالتهم ؛ شقوا لتجارة جنوى طرائق فى البحر المتوسط إلى تونس ، ورودس ، وعكا ، وصور ؛ وإلى ساموس ، ولسبوس ، والقسطنطينية ؛ واخترقوا البحر الأسود إلى بلاد القرم وطربزون ؛ واجتازوا مضيق جبل طارق والمحيط الأطلنطى إلى رون وبروج . وهؤلاء المغامرون من رجال الأعمال هم الذين ابتدعوا قبيل عام ١٣٤٠ طريقة القيد المزدوج (حساب الدوبيا) فى إمساك الدفاتر ، كما ابتدعوا التأمين البحرى على السفن قبيل عام ١٣٧٠(٥٣) . وكانوا يقترضون المال من الأفراد المستثمرين بفائدة تتراوح بين سبعة وعشرة فى المائة ، فى حين أن سعر الفائدة فى معظم المدن الإيطالية كان يتراوح بين اثنى عشرة وثلاثين . وظلت ثمار التجارة ردحا طويلا من الزمن يتقاسمها بغير طريقة حبية عدد قليل من الأسر الغنية — أسرة دوريا Doria ، واسپنولا ، وجريملدى ، والفيسكى Fieschi . وقاد سيمون بكانيرا Simone Boccanera البحارة وغيرهم من العمال فى ثورة موفقة ، وأسس أول أسرة من الأدواج Doge حكموا جنوى حتى عام ١٧٩٧ . وخلد ڤيردى Verdi اسمه فى تمثيلية غنائية . ثم انقسم الغالبون بدورهم إلى عدة جماعات متعادية ونشروا الاضطراب فى

المدينة بمنازعاتهم التى كلفتهم أموالا طائلة ، فى الوقت الذى كانت فيه البندقية منافسة جنوى العظيمة يعمها الثراء والرخاء بفضل ما تستمتع به من النظام والوحدة .

وكانت البندقية أغنى دول إيطاليا وأقواها بعد ميلان ، وكانت حكومتها أقدر الحكومات وأكثرها حزماً بلا استثناء . واشتهر صناعها اليدويون بجمال مصنوعاتهم ، وكانت كثرتها خاصة بتجارة مواد الترف . وكانت دار صنعتها البحرية تضم ١٦,٠٠٠ رجل ، و٣٦,٠٠٠ بحار يسيرون ٣٣٠٠ سفينة حربية وتجارية . وكان الذين يسيرون سفائنها بالمجاذيف رجالا من الأحرار لا من العبيد كما جرت بذلك العادة فى القرن السادس عشر . وكان تجار البندقية يغزون جميع الأسواق من بيت المقدس إلى أنتويرپ ، ويتجرون مع المسيحيين والمسلمين على السواء ، لايميزون بين أولئك وهؤلاء ، وجروا على أنفسهم اللعنات البابوية التى كانت تتساقط عليهم كما يتساقط الظل على الأرض . وكان پترارك الذى جاب الآفاق من ناپلى إلى فلاندرز ليشبع « حبه وتحمسه لرؤية كثير من الأشياء » يعجب أشد العجب من كثرة ما يرى من السفن فى أمواه البندقية .

« أرى سفناً . . . لاتقل حجماً عن قصرى ، وسارياتها أعلى من ستة أبراج ، كأنها جبال تسبح فوق الماء ، تخرج لتواجه ما لا يحصى من الأخطار فى كل صقع من أصقاع العالم ، تحمل النبيذ إلى إنجلترا ، والشهد إلى روسيا ، والزعفران والزيت ونسيج الكتان إلى أشور ، وأرمينية ، وبلاد الفرس والعرب ، والخشب إلى مصر وبلاد اليونان ، ثم تعود مثقلة بالحاصلات على اختلاف أنواعها فترسلها إلى جميع أنحاء العالم (٥٤) » .

وكانت هذه التجارة العظيمة الواسعة تعتمد على الأموال الخاصة يجمعها ويستثمرها المرابون الذين أطلق عليهم فى القرن الرابع عشر لقب المصرفيين « Bancherii » ؛ وهذا الاسم الإيطالى مشتق من لفظ Banco أى المقعد الذى

كانوا يجلسون عليه أمام نضدهم لمبادلة النقود . وكانت أهم وحدات النقد هي، الليرا (واسمها مختصر من ليبرا ، أي رطل) والدوقات (من دوقا ، أي دون أودوج) ، والثانية قطعة من النقد الذهبي زنتها ٣٥٦٠ جراماً(*)، وكانت هذه القطعة النقدية هي والفلورين والفلورنسي أكثر أنواع العملة ثباتاً وأعظمها تقديراً في العالم المسيحي(**) .

وكانت الحياة هنا تكاد تبلغ من المرح ما بلغته مدينة نابلي في عهد بوكاتشيو . فكان البنادقة يحتفلون بأعيادهم وأيام نصرهم احتفالات فخمة ، ويصنعون ويلونون سفنهم الخاصة بالنزهة وسفنهم الحربية ، ويرتدون الحرائر الشرقية ، وتتلألأ على موائدهم آنية الزجاج البندقية ، وتعزف لهم الموسيقى في البيوت وعلى صفحة الماء .

ورأس الدوج لورندسو تشيلسي Lorenzo Celsi يصاحبه بترارك مباراة بين أمهر الموسيقيين في إيطاليا ، وأنشدت الأغاني على نغمات مختلف الآلات الموسيقية ، وغنت فرق المغنين ، وكانت الجائزة الأولى من نصيب فرانتشيسكو لنديني Francesco Londini الفلورنسي وهو مؤلف ضرير للقصص الشعرية والقصائد الغزلية . وكان لورندسو ڤينيدسيانو Lorenzo Veneziano وغيره ينتقلون وقتئذ بالمظلمات من صرامة العصور الوسطى إلى رشاقة النهضة ويبشرون ببهاء فن التصوير البندقي وزهاء ألوانه .

(*) هذا ما يقوله المؤلف . على أن معجم ويستر (المطبوع في عام ١٩٥٤) يقول إن قيمة الدوقة الإيطالية تبلغ هي ٢٫٢٥ دولار أمريكي . (المترجم)

(**) وستقدر هذه القطع الثلاث جميعها في هذا المجلد تقديرا غير دقيق قبل عام ١٤٩٠ بالقوة الشرائية المعادلة لخمسة وعشرين دولارا من عملة الولايات المتحدة في عام ١٩٥٢ . أما فيما بعد ١٤٩٠ فستقدر بالقوة الشرائية لاثني عشر دولارا ونصف دولار . وقد حدث تضخم بطيء أنقص قيمة العملة الإيطالية بين عامي ١٤٠٠ و١٥٨٠ إلى ما يقرب من نصف قيمتها.

فكانت البيوت ، والقصور ، والكنائس ترتفع فوق البحر كالمرجان . ولم يكن في البندقية قصور كالقلاع أو مساكن محصنة ، أو أسوار ضخمة منيعة ، لأن خصام الأفراد فيها سرعان ما كان يخضع لسلطان القانون ؛ هذا إلى أنه يكاد يكون لكل بيت خندق من صنع الطبيعة . وظل التخطيط المعماري قوطياً كما كان ، ولكنه كان يحوي من الرشاقة والخفة ما لا تجرؤ العمارة القوطية الشمالية أن تكونه . وشيدت في ذلك العهد الكنيسة الفخمة التي تحمل اسم القديسة ماريا جلوريوزا دي فراري Santa Maria gloriza dei Frari ؛ وظلت كنيسة القديس مرقس بين الفينة والفينة ترفع وجهها القديم مزداناً بالجديد من التماثيل ، والفسيفساء ، والنقوش العربية ، وتعلوها أقواس قوطية فوق عقود مستديرة من الطراز البيزنطي القديم . ولا يكاد يتردد يصدق أن ميدان القديس مرقس Piazza San Marco « كان له مثيل في أية بقعة من بقاع العالم(٥٥) » وإن لم يكن قد أحيط في ذلك الوقت بكل ما أحيط به من العمائر الفخمة .

ووجهت في عام ١٣٧٨ ضربة مهلكة إلى هذا الجمال كله الذي كان ظله يتماوج منعكساً على مياه القناة العظمى ، وهذا الصرح الموحد من نظامي الحكم والاقتصاد الذي كان يسيطر على إمبراطورية تشمل البحر الأدرياوي وبحر إيجه ، وهو نفسه قائم في بقعة مائية صغيرة على سطح الأرض ، وذلك حين بلغ النزاع القديم أوجه بين البندقية وجنوى . وسار لوتشيانو دوريا Luciano Doria على رأس أسطول حربي من جنوى إلى پولا Pola ، ووجد الأسطول البندقي قد أضعفه وباء تفشى بين بحارته ، وأوقع به هزيمة ساحقة استولى فيها على خمس عشرة من سفنه . وأسر نحو ألفين من رجاله . وقتل لوتشيانو في المعركة ، ولكن أخاه أمبر رجيو خلفه في إمارة الأسطول ، واستولى على بلدة كيوجيا Chiogia — الواقعة على رأس ضيق في البحر

على بعد خمسة عشر ميلا أو نحوها جنوب البندقية نفسها . ثم عقد حلفاً مع پدوا وسد الطريق على جميع سفن البندقية ، واستعد لغزو المدينة نفسها ببحارة من چنوى وجنود مرتزقة من پدوا . وظنت المدينة المزهوة بنفسها أنها عاجزة عن الدفاع فطلبت الصلح ، ولكن الشروط التي فرضها المنتصرون كانت من الوقاحة والشدة بحيث رفضها المجلس الكبير ، وصمم على الدفاع عن كل شبر من المياه الضحلة المتصلة بالبحر . وأخرج الأغنياء ما كانوا يخبئونه من المال وصبوه صبا فى خزائن الدولة ، وأخذ الأهلون يكدون ليلا ونهاراً لبناء أسطول جديد ، وأنشئت قلاع سابحة حول الجزائر ، وجهزت بالمدافع التي ظهرت وقتئذ لأول مرة فى إيطاليا (١٣٧٩) . ولكن أهل چنوى وپدوا كانوا قد حاصروا البندقية من ناحية البحر ثم مدوا حصاراً آخر من الجند على مداخلها البرية وقطعوا الطعام عن المدينة . وبينا كان بعض أهلها يموتون جوعاً كان ڤيتورى پيزانى **Vittore Pisani** يدرب المجندين للأسطول الجديد ، حتى إذا كان شهر ديسمبر من عام ١٣٧٩ قاد پيزانى والدوج أندريا كنتاريني **Andrea Contarini** هذا الأسطول المجدد — وكان مؤلفاً من أربع وثلاثين سفينة واطئة ذات سطح واحد ، وستين مركباً كبيراً ، وأربعمائة قارب صغير — ليحاصر به الغزاة الجنويين وسفائنهم عند كيوچيا . وكان أسطول چنوى أصغر من أن يواجه أسطول البندقية الجديد ، وكانت مدافع البنادقة تصب على مراكب چنوى ومعاقل جنودها ومعسكراتهم حجارة زنة الواحد منها مائة وخمسون رطلا ، وقتلت فيمن قتلت وهم كثيرون أمير البحر پيترو دوريا . ولم يجد الغزاة من أهل چنوى حاجتهم من الطعام ، فطلبوا أن يؤذن لهم أن يخرجوا النساء والأطفال من كيوجيا ؛ وأجابهم البنادقة إلى ما طلبوا ؛ ولما أن طلب الجنويون أن يخضعوا إذا سمح لأسطولهم أن يعود إلى بلدهم ، جاء دور

البنادقة فطلبوا التسليم بلا شرط . ودام حصار البنادقة لكيوجيا ستة أشهر حتى فت الموت والمرض فى عضد الجنويين فاستسلموا ، وعاملتهم البندقية معاملة كريمة رحيمة ، ولما أن عرض أمديوس السادس Amadeus VI كونت سافوى أن يتوسط لحسم النزاع وافق الطرفان المنهوكا القوى . ونزل كلاهما عن بعض مطالبه . وتبادلا الأسرى ، وجنحا إلى السلم (١٣٨١) .

الفصل الحادى عشر

خاتمة القرن الرابع عشر

خبر بترارك كل مدينة وكل مضيف ، ثم اتخذ مقامه فى البندقية عام ١٣٦١ ، وعاش فيها سبع سنين ، وجاء معه بمكتبته ، وكادت تحتوى كل الآداب اللاتينية القديمة ما عدا كتب لكريشيوس . وأوصى فى رسالة بليغة بمجموعته القيمة إلى البندقية ، ولكنه احتفظ لنفسه بحق استعماله حتى مماته وأرادت حكومة البندقية أن تظهر تقديرها لعمله ، فوهبته قصر مولينا Palazzo Molina وأثثته له بأثاث مريح ؛ ولكن بترارك حمل كتبه معه فى آخر أسفاره ، ووقعت عند وفاته فى يد آخر مضيفيه فرانتشسكو الأول صاحب كرارا Carrara وكان من أعداء البندقية ؛ واحتفظ ببعض هذه الكتب فى بدوا ، وبيع بعضها الآخر ، ثم تشتت بغير هذه وتلك من الوسائل .

وأكبر الظن أنه كتب فى البندقية مقالا فى **واجبات الإمبراطور وفضائله** وسلسلة طويلة من الحوار عن **علاج [الحظ] الحسن والسيئ** . وينصح فى هذا الكتاب الأخير بالتواضع وقت الرخاء ، والشجاعة وقت المحنة ، ويحذر الإنسان من أن يربط سعادته بانتصاره على ظهر الأرض أو بالحصول عن طيباتها ، ويعلم الإنسان كيف يصبر على آلام الأسنان ، والبدانة ، وفقد الزوجة ، وتقلبات السمعة ؛ وهذه كلها نصائح سديدة ، ولكنها كلها موجودة فى أقوال سنكا . كذلك ألف فى هذا الوقت عينه أعظم كتبه النثرية وهو كتاب « **الرجال النابهون** De vfris illustribus » وهو يضم سيرة واحد وثلاثين من عظماء الرومان من رميولوس إلى قيصر ،

وقد خص قيصر بثلثمائة وخمسين صفحة من قطع الثمن ظلت حتى القرن التاسع عشر أكمل سيرة لهذا الحاكم .

وغادر بترارك البندقية إلى پادوا فى عام ١٣٦٨ يرجو أن يتوسط فى الصلح بين جليتسو الثانى ڤيكونتى والبابا إربان الخامس ، وكان كل ما وجده أن البلاغة إذا لم تصحبها المدافع لا تجد من السياسيين إلا آذاناً صماء . وفى عام ١٣٧٠ قبل دعوة فرانتشسكو الأول صاحب كرارا لينزل ضيفاً عليه مرة أخرى فى بلاطه الملكى فى پدوا . لكن أعصابه التى أوهنتها الشيخوخة عافت صخب المدينة وزحامها ، وما لبث أن آوى إلى بيت ريفى متواضع فى أركوا Arqua بين التلال الأوجانية Euganean فى الجنوب الغربى من پدوا وعلى مسيرة اثنى عشر ميلا منها ، وقضى فى هذا البيت الأربع السنين الباقية من حياته ، جمع فيها رسائله وأعدها لتنشر بعد وفاته ، وكتب لنفسه ترجمة صغيرة فاتنة سماها **رسالة للمستقبل** Epistola ad Posteros (١٣٧١) . ثم استسلم مرة أخرى لضعف الفلاسفة القديم ، فأخذ يسدى النصح إلى الحكام فى كيفية تصريف شئون الدول : وكتب إلى أمير پدوا فى رســالته التى أسماها **خير الوسائل لإدارة شئون الدولة** (١٣٧٢) يقول « لا تكن سيد رعاياك بل أباهم ، وأحبهم كما تحب أبناءك » : ونصحه بأن يجفف المناقع ، ويضمن لرعاياه الطعام ، ويحافظ على الكنائس ، ويعين المرضى والمحتاجين ، ويبسط حمايته ورعايته على رجال الأدب — الذين تعتمد على أقلامهم كل أسباب السمعة الطيبة ، ثم عمد إلى كتاب **ديكمرون** فترجم قصة جريزلدا إلى اللغة اللاتينية لكى تكون فى متناول القراء فى أوربا .

وكان بوكاتشيو وقتئذ فى حالة نفسية تجعله يندم على كتابة ديكمرون أو القصائد الشهوانية التى قالها فى أيام شبابه . وكان أحد الرهبان قد بعث وهو يحتضر إلى بوكاتشيو رسالة يؤنبه فيها على حياته الآثمة وعلى

قصصه المرحة ، وينذره ، إذا لم يعجل بالتوبة ويصلح حاله ، بالموت العاجل والعذاب المقيم فى نار جهنم . ولم يكن بوكاتشيو فى وقت من الأوقات يصبر على التفكير الطويل ، وكان يقبل أوهام زمانه وما يؤمن به أهله من معرفة الطالع والتنبؤ بالمستقبل عن طريق الأحلام ، ويؤمن بوجود آلاف الشياطين ، ويعتقد أن إينياس Aeneas قد زار الجحيم بحق[٥٦] .

وأخذ يجمع بتحريض پترارك المخطوطات القديمة ؛ وأنقذ من النسيان الكتب من ١١-١٠ إلى ١٦ من الحوليات والكتب من ١ إلى ٥ من التواريخ لتاستس وكانت وقتئذ فى مكتبة مونتى كاتشيو ؛ وأعاد نصوص ماريتالى وأوسنيوس ، وحاول أن يقدم هوميروس إلى العالم الغربى . وكان بعض العلماء فى أثناء عصر الإيمان قد ظلوا على علم باللغة اليونانية ، أما فى أيام بوكاتشيو فقد كادت هذه اللغة تختفى اختفاء تاما من غربى أوربا ما عدا جنوبى إيطاليا الذى كان وقتئذ نصف يونانى . ثم شرع پترارك فى عام ١٣٤٢ يدرس اللغة اليونانية على راهب من كابريا Calabria يدعى بارلام Barlaam . ولما خلت إحدى أسقفيات كلابريا من راع أوصى پترارك بأن يختار لها بارلام ، وأخذ بوصيته ؛ فلما سافر الراهب إلى مقر عمله انقطع پترارك عن دراسة اللغة اليونانية لأنه لم يجد لها مدرسا ، أو كتاباً فى النحو ، أو معجما ؛ ذلك بأن هذه الكتب لم يكن لها وجود باللغة اللاتينية أو الإيطالية . ثم التقى بوكاتشيو فى عام ١٣٥٩ بتلميذ لبارلام فى ميلان يدعى ليون پيلاتس Leon Pilatus ، فدعاه للمجىء إلى فلورنس ، وأقنع جامعتها — وكانت قد أسست قبل أحد عشر عاما من ذلك الوقت ، بأن تنشئ فيها لپيلاتس كرسيا للغة اليونانية . وتبرع پترارك بجزء من مرتب الأستاذ ؛ وبعث بنسخ من الإلياذة والأوديسية إلى بوكاتشيو ، وكلف پيلاتس بترجمتها إلى اللغة اللاتينية . وتعطل العمل مرة بعد مرة وورط پترارك فى مراسلات متعبة ؛ وكان يشكو من أن رسائل پيلاتس أطول وأجف من ذقنه نفسها على طولها وجفافها[٥٧] ، ولم يتحرك پيلاتس لإنجاز العمل

إلا بمساعى بوكاتشيو . وكانت هذه الترجمة النثرية الحالية من الدقة هى الترجمة اللاتينية الوحيدة التى تعرفها أوربا للملحمتى هوميروس فى القرن الرابع عشر .

وكان پيلاتس فى خلال هذا الوقت قد علم بوكاتشيو من اللغة اليونانية ما يكفيه لقراءة الآداب اليونانية القديمة قراءة عاجزة . وكان بوكاتشيو نفسه يعترف بأنه لا يستطيع أن يقرأ النص إلا قراءة ضعيفة . ولكنه وصف ما قرأه بأنه يبلغ من الجمال حداً لا يستطيع وصفه . وألهمته هذه الكتب كما ألهمه پترارك نفسه ، فخصص ما بقى من جهوده الأدبية كلها تقريباً لأن يعرف أوربا اللاتينية بأدب اليونان ، وأساطيرهم ، وتاريخهم . فنشر سلسلة من التراجم القصيرة سماها **فى مظوظ مشهورى الرجال** من آدم إلى جون ملك فرنسا ، وروى **فى النساء النابهات** قصص شهيرات النساء من حواء إلى چوانا الأولى Joanna I ملكة ناپلى ، وفى كتاب **الجبال والغابات والعيون** ، إلخ ثبتاً مرتباً حسب الحروف الهجائية بأسماء الجبال ، والغابات ، والعيون ، والأنهار ، والبحيرات التى ورد ذكرها فى الأدب اليونانى ، ثم وضع كتيباً فى الأساطير اليونانية سماه **فى تسلسل الأنساب** . وقد بلغ من انهماكه فى موضوعه أن كان يسمى إله المسيحيين چوف ، والشيطان پلوتو ، ويتحدث عن الزهرة (ڤينوس) والمريخ كأنهما شخصان حقيقيان كمريم والمسيح . وتبدو هذه الكتب فى هذه الأيام مملة ثقيلة لا تطاق ، كتبت بلغة لاتينية رديئة وليس فيها كثير من العلم ، ولكنها كانت فى زمانها كتباً دراسية قيمة لطلاب اللغة اليونانية ، وكان لها شأن أيما شأن فى تهيئة أسباب النهضة .

وهكذا خرج بوكاتشيو من نزق الشباب إلى وقار الشيوخ ، واستخدمته البندقية بين الفينة والفينة فى بعض شئونها الدبلوماسية ، فأرسلته فى مهمات

سياسية إلى فورلى Forli ، وأفنيون ، وراقنا . والبندقية . وضعف جسمه حين بلغ سن الستين وأصيب بالقوباء الجافة و « أمراض لا أعرف كيف أحصيها » (٥٨) . وعاش فى تشرتلدو Certaldo إحدى أرباض فلورنس عيشة ضنكا يشكو آلام الفاقة . ولعل رغبة بعض أصدقاء بوكاتشيو فى أن يقدموا له بعض المعونة المالية هى التى حدت بهم إلى أن يقنعوا أمير فلورنس بأن ينشئ فى عام ١٣٧٣ كرسيا لدراسة دانتى ، وأن يوظف لبوكاتشيو مائة فلورين (٢٥٠٠ دولار) ليلقى سلسلة من المحاضرات عن دانتى فى البادية Badia . لكن صحته وهنت قبل أن يتم المنهج المقرر ، فعاد إلى تشرتلدو وقد وطن نفسه على ملاقاة الموت

وكان بترارك قد كتب عن نفسه يقول : « أحب أن يجدنى الموت مستعدا للقائه أكتب أو ، إذا شاء المسيح ، أصلى وأبكى » (٥٩) . وقد أجاب الله دعاءه فوجد فى يوم عيد ميلاده المتمم للسبعين وهو اليوم العشرون من شهر يولية عام ١٣٧٤ مكبا بوجهه على كتاب يبدو كأنه نائم ولكنه فى الحقيقة ميت . وقد ترك فى وصيته خمسين فلورينا يشترى بهـا رداء لبوكاتشيو يتقى به البرد فى ليالى الشتاء الطويلة . ومات بوكاتشيو أيضاً فى اليوم الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٣٧٥ وهو فى الحادية والستين من عمره . وأقفرت إيطاليا بعد وفاته من كبار الأدباء حتى نبتت البذور التى زرعوها وأينعت وآتت أكلها .

جنوبي ايطاليا
في القرنين
الخامس عشر والسادس عشر

البحر الادرياوي
مملكة
نابلي
صقلية
البحر الترهيني
ولايات الكنيسة
تيفولى
تلشيتي
تريمولى
لارينو
لوتشيرا
كمبوبسو
فجيا
مانفرنيا
تراني
باري
كونترزا
بنيفنتو
كابوا
نابلى
ملفى
سالرنو
كبري
أملفى
بوتنذسا
ماتيرا
تارنتو
پوليكاسترو
شمال
كورجليانو
كوسنذسا
كتزوني
تروبيا
مسينا
جراتشي
ريجيو
پالرم
تشيفالو
پاتي
تورمينا
قطانية
لنتيني
سرقوسة
نوتو
رجوسا
إنا
اجريجنتو

(الخريطة رقم ٣)

الفصل الثانى عشر

نظرة عامة

تتبعنا تنقل بترارك وبوكاتشيو فى أنحاء إيطاليا ، لكن إيطاليا من لوجهة السياسية لم يكن لها وجود ، بل الذى كان موجوداً هو دول — المدن ، وهى قطع ممزقة حرة فى أن تهلك نفسها فى الأحقاد والحروب ؛ فقد دمرت بيزا منافستها التجارية أملفى ، ودمرت ميلان بياتشنوسا ؛ ودمرت جنوى وفلورنس بيزا ، ودمرت البندقية جنوى ، وانضمت بعد هذا العهد نصف أوربا إلى الجزء الأكبر من إيطاليا لتدمر البندقية . وأدى انهيار الحكومة المركزية على أثر غزوات البرابرة ، و « الحروب القوطية » التى ثار عجاجها فى القرن السادس ، وانقسام شبه الجزيرة بين لمبارديا وبيزنطية ، وتهدم الطرق التجارية الرومانية ، والنزاع بين اللمبارد والبابوات ، وبين البابوات والإمبراطورية ، وخوف البابا أنه إذا قامت سلطة عليا فى إيطاليا تمتد من الألب إلى صقلية ، فإن قيامها يجعل البابا أسيراً ويخضع رئيس أوربا الروحى إلى رئيس الدولة السياسى ، كل هذا فكك وحدة إيطاليا ومزقها كل ممزق . ولم يقتصر أشياع البابوات وأشياع الأباطرة على تقسيم إيطاليا شيعاً ، بل قسموا فضلا عن ذلك كل مدينة تقريباً إلى جلف وجبلين Guelf & Ghibelline ؛ ولما أن خبت نار النزاع بين الطائفتين استخدم الشعارين القديمين منافسون جدد ، وظلت نيران الأحقاد مشتعلة فى جميع مناحى الحياة ، فكان إذا وضع الجبلين الريش فى ناحية من قبعاتهم وضعها الجلف فى الناحية الأخرى ؛ وإذا قطع الجبلين الفاكهة بالعرض قطعها الجلف بالطول ، وإذا اتخذ الجبلين وردة بيضاء شارة لهم اتخذ الجلف شارة حمراء . وانتزع الجبلين فى ميلان تمثالا للمسيح

من محراب في كنيسة وأحرقوه لأن وجهه كان متجهاً إلى ما ظنوه ناحية الخلف ، وفى برجامو الجبلينية اغتال مضيفون بعض ضيوفهم من الكلبريين لأنهم تبينوا من أسلوب أكلهم الثوم أنهم من الخلف[٦٠] . وبعث ضعف الأفراد وخور عزيمتهم ، واضطراب الأمن بين الجماعات ، وخداع الغرور ، بعث هذا فى النفوس دوام الخوف ، والارتياب ، والكراهية ، واحتقار المخالفين ، والأجانب ، والأغراب .

ونشأت دولة — المدينة الإيطالية من هذه العقبات القائمة فى سبيل الوحدة فلم يكن الناس يفكرون إلا فى مدينتهم ، ولم يكن أحد يفكر فى إيطاليا بوصفها وحدة وكُلاً إلا قليل من الفلاسفة أمثال مكيڤلى **Machiavelli** أو شاعر مثل پترارك ، وكان تشليني فى القرن السادس عشر نفسه يشير إلى أهل فلورنس بقوله إنهم « رجال من أمتنا » وإلى فلورنس بأنها : « وطنى » . وكان پترارك ، الذى تحرر بفضل إقامته بالبلدان الأجنبية من الوطنية المحلية الضيقة يأسف لهذه الحروب التافهة ، والانقسام المتفشى فى بلده ، وتوسل فى أنشودة بليغة عنوانها : **بلادى إيطاليا** إلى أمراء إيطاليا أن يهبوها السلم والوحدة :

أى بلادى إيطاليا ! — وإن كانت الألفاظ لا تجدى
فى اندمال الجروح المتنسرة
التى لايحصى عديدها ، والتى تمزق صدرى ،
بيد أنه قد يخفف من آلامى
أن أتغنى بأحزان التيبر
وبالمظالم التى حلت بالآرنو حين أطوف وأنوح
بشواطى البو المحزنة أترنم فيها بقصائدى ...
ويلاه ! أليست هذه هى الأرض التى وطئتها قدمى أول ما وطئت ؟
أليس هذا هو المكان الذى دُلِّلت فيه برفق

وأنا مستريح فى المهد ، وربيت به فى عز وحنان ؟
ويلاه ! أليست هذه بلادى — التى أعزها
لما بينى وبينها من روابط البنوة ؛
والتى يثوى فى ثراها أبواى ؟
فهلا بعثت هذه الفكرة الحنونة
بعض الأسى فى قلوبكم القاسية
فنظرتم إلى أحزان الشعب ،
الذى يرجو منكم ، بعد الله ، أن تنقذوه ؟
فإذا ما عطفتم وأذعنتم ،
فإن الفضيلة سترفع رأسها عالية ،
وتتأهب للحرب العوان
ضد قوى الغضب العمياء
ولن يطول الزمن الذى تحترب فيه القوتان غير المتكافئتين
لا ! لا ! إن اللهب القديم
الذى رفع اسم إيطاليا إلى السماكين لم ينطفئ بعد

وكان پترارك يحلم أن يستطيع ريندسو **Rienzo** توحيد إيطاليا ، فلما أن خاب أمله فيه اتجه كما اتجه دانتى إلى عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان هذا العاهل من الوجهة النظرية الوارث من غير رجال الدين لجميع السلطات الزمنية التى كانت للإمبراطورية الرومانية الوثنية فى بلاد الغرب . ومن أجل هذا فإنه لم يمض إلا قليل من الوقت على انسحاب ريندسو من ميدان العمل (١٣٤٧) حتى وجه پترارك رسالة شعرة إلى شارل السادس ملك بوهيميا ، الذى كان بوصفه « ملك الرومان » الوارث لعرش الإمبراطورية . وقال الشاعر فى هذه الرسالة : « فليأت الملك إلى ررمة ليتوج فيها إمبراطوراً ، وليتخذ رومة لابراج عاصمة

لملكه ، وليرجع إلى إيطاليا « حديقة الإمبراطورية » الوحدة ، والنظام ، والسلم(٦١) . ولما اجتاز شارل جبال الألب فى عام ١٣٥٤ دعا پترارك لمقابلته فى مانتوا Mantua واستمع فى رقة وبشاشة إلى ما وجهه إليه من دعوات تردد أصداء نداء دانتى الحار إلى جده هنرى السابع : ولكن شارل لم يكن لديه من القوة ما يكفى لهزيمة جميع طغـــاة لمبارديا ، وجميع أهل فلورنس والبندقية ؛ فأسرع إلى رومة ، ولم يكن البابا فيها وقتئذ ، فعمل على أن يتوجه نائبه ، ثم قفل راجعاً إلى بوهيميا ، وجد فى بيع المناصب الدينية وهو عائد إلى بلاده . وسافر إليه پترارك فى پراج بعد عامين من ذلك الحادث ، فى سفارة من ميلان ، ولكن هذا اللقاء لم تجن منه إيطاليا ثمرة تستحق الذكر .

ولعل نهضة ما لم تكن قد وجدت إذا ما تحقق أمل پترارك . ذلك أن تقطيع أوصال إيطاليا كان مما ساعد على قيام النهضة ، فالدول الواسعة الرقعة توطد النظام وتدعم السلطان أكثر مـــا تنشر لواء الحرية وترعى الفنون . أضف إلى هذا أن التنافس التجارى بين المدن الإيطالية كان هو الذى بدأ وأتم عمل الحروب الصليبية فى تنمية اقتصاد إيطاليا وثروتها . ولسنا ننكر أن تعدد المراكز السياسية قد ضاعف من عدد المنازعات بين المدن ، ولكن هذه المنازعات الصغرى فى مجموعها لم تسبب من هلاك فى الأنفس وخراب فى البلاد قدر ما سببته حروب مائة السنين فى فرنسا ، ولسنا ننكر كذلك أن استقلال المدن قد أضعف من قدرة إيطاليا على صد غارات الأجانب عليها ، ولكنه ولد منافسة نبيلة بين المدن والأمراء لرعاية الثقافة ، والحرص على التفوق فى فنون العمارة ، والنحت ، والتصوير ، والتعليم ، والمنح التعليمية ، والشعر . لقد كان فى إيطالية النهضة ، كما كان فى ألمانيا القوطية ، مراكز كثيرة مثل باريس .

ولسنا فى حاجة إلى المبالغة لكى نقدر ما كان لپترارك وبوكاتشيو من

فضل فى التمهيد إلى النهضة : لقد كان كلاهما لايزال أسيراً لأفكار العصور الوسطى . وكان القصَّاص العظيم فى عنفوان شبابه يسخر من فساد أخلاق رجال الدين واتجارهم بمخلفات القديسين ، ولكن آلاف الآلاف من رجال العصور الوسطى ونسائها كانوا يفعلون فعله ، وقد أصبح أكثر استمساكاً بالدين واصطباغاً بصبغة العصور الوسطى فى الأيام التى أخذ يدرس فيها اللغة اليونانية . وكان پترارك يصف نفسه بحق بأنه واقف بين عهدين(٦٣) ، وكأنه بهذا كان يتنبأ بما سوف يكون . فقد كان يقبـل قواعد الكنيسة التحكمية فى الوقت الذى كان يشن فيه حرباً شعواء على أخلاق بابوات أفنيون ، وكان يحب الآداب القديمة فى أواخر عصر الإيمان ، كما كان چيروم Jerome يحبها فى بدايته ، وكان فى قرارة نفسه غير راض عن هذا الحب . وكتب فى العصور الوسطى مقالات ممتازة فى احتقار العالم الدنيوى وفى السلم المقدسة التى تنبعث من الحياة الدينية . لكنه رغم هذا كان أكثر وفاء للآداب القديمة منه للورا Laura ، وكان يبحث عن المخطوطات القديمة ويعتز بها ، ويلهم غيره بأن يحذو فى ذلك حذوه ، وقد بز جميع المؤلفين فى العصور الوسطى تقريباً عدا أوغسطين فى العمل على عدم انقطاع الصلة بالأدب اللاتينى ، وصاغ عباراته وأسلوبه على مثـال ڤرچيل وشيشرون ، وكان يفكر فى ذيوع شهرته أكثر مما يفكر فى خلود نفسه . وقد أثمرت قصائده مائة عام من الأغانى المصطنعة المتكلفة فى إيطاليا ، ولكنها أعانت على تشكيل أغانى شيكسبير . وانتقلت روحه الحماسية من بعده إلى پيكو Pico كما انتقل أسلوبه المصقول إلى پولتيان ، وكانت رسائله ومقالاته بمثـابة قنطرة من الدماثة والرشاقة بين سنكا ومنتانى ، واكتمل توفيقه بين العهود القـديمة والمسيحية فى البابا نقولاس الخامس والبابا ليو العاشر . وملاك القول أنه كان بحق أبا النهضة فى تلك الأيام .

لكننا نقول مرة أخرى : إن من الخطأ أن نبالغ فى حظ الأقدمين من هذا المجد الذى بلغته إيطاليا ، ذلك أنه كان تتمة لا انقلاباً ، وكان لنضوج العصور الوسطى فى هذه التتمة شأن أعظم من الكشف الثانى للمخطوطات القديمة والفن القديم . وكان كثير من علماء العصور الوسطى يعرفون الآداب الوثنية ويحبونها ، وكان الرهبان هم الذين حافظوا عليها ، ورجال الدين هم الذين ترجموها ونشروها ، وكانت الجامعات الكبرى هى التى أخذت منذ عام ١١٠٠ تنقل إلى شباب أوربا قدراً من التراث العقلى والأدبى للجنس البشرى . وكانت نشأة الفلسفة الانتقادية عند إرچينا Erigena وأبلار ، وإدخال دراسة أرسطو وابن رشد فى مناهج الجامعات ودعوة أكويناس الجريئة إلى إثبات كل العقائد المسيحية تقريباً على أساس العقل ، وما تلاها بعد قليل من اعتراف دنزاسكوتس Duns Scotus بأن الكثرة الغالبة من هذه العقائد خارجة عن نطاق العقل ، كان هذا كله سبباً فى نشأة صرح الفلسفة المدرسية العقلى ثم تحطيمه بعدئذ ، وفى ترك المسيحيين المتعلمين أحراراً يحاولون التأليف من جديد بين الفلسفة الوثنية ولاهوت العصور الوسطى من جهة ؛ وتجارب الحياة من جهة أخرى . وكان تحرر المدن من عوائق الإقطاع ، واتساع نطاق التجارة ، وانتشار الاقتصاد القائم على النقود ، — كانت كل هذه قد سبقت مولد پترارك . وعلم روچر ملك صقلية ؛ وفردريك الثانى ؛ دع عنك خلفاء المسلمين وسلاطينهم ، علم هؤلاء كلهم حكام البلاد أن يضيفوا سنا المجد إلى السلطان بمناصرة الفن ، والشعر ، والعلوم ، والفلسفة . وقد احتفظ رجال العصور الوسطى ونساؤها ، رغم قلة منهم كانت منهمكة فى شئون الدار الآخرة ، دون حياء بما طبع عليه الإنسان من سرور بملاذ الحياة الحسية البسيطة ، وكان للرجال الذين صوروا ، وشادوا ، ونحتوا تماثيل الكنائس الكبرى

إدراكهم الخاص للجمال ، فسموا بالتفكير وبالشكل سمواً لم نر له نظيراً قط ».

لهذا نقول دون أن نخشى الزلل إن جميع قواعد النهضة قد وضعت قبل أن يموت بترارك . وكان النماء العجيب في تجارة إيطاليا وصناعتها ، واستئثارهما بجانب كبير من نشاط أهلها ، قد كدسا الثروة التي أمدت الحركة بالمال ، كما كان الانتقال من سلم الريف وركوده إلى حيوية المدن ونشاطها سبباً في خلق المزاج الذي غذى هذه الحركة . أما الأساس السياسي فقد قام على حرية المدن وتنافسها ، والقضاء على الأرستقراطية المتعطلة ، وقيام الأمراء المتعلمين ، والطبقة الوسطى القوية . وأما الأساس الأدبي فقد مهد له تحسن اللغات القومية ، والتحمس إلى الكشف عن الآداب اليونانية والرومانية القديمة ودراستها . وكان الأساس الأخلاقي قد وضع هو الآخر : فقد أخذ ازدياد الثروة يحطم القيود الأخلاقية القديمة ، وشجع الاتصال بالبلاد الإسلامية عن طريق التجارة والحروب الصليبية نزعة التسامح في الانحراف بالقواعد الدينية والأخلاقية عن المعتقدات والأساليب التقليدية . وكان لإعادة الكشف عن العالم الوثني ذي الحرية النسبية في التفكير والسلوك نصيب في تحطيم عقائد العصور الوسطى ومبادئها الأخلاقية ؛ ولهذا كله تقهقر الاهتمام بالحياة الآخرة أمام المشاغل الزمنية ، البشرية ، الدنيوية . ونما الإحساس بالجمال نماء مطرداً ، فقد خلفت ترانيم العصور الوسطى ، والقصص الغرامية المتتالية ، وأناشيد شعراء الفروسية الغزلين ، وأغاني دانتي ومن سبقه من الشعراء الإيطاليين ، والتصوير المنسجم الذي يطالع الإنسان في المسلاة الإلهية ، كل هذا خلف وراءه تراثا من الفن الأدبي ؛ كما أن النماذج الأدبية اليونانية واللاتينية القديمة قد نقلت إلى بترارك رقة من الذوق والتفكير ، وصقلا وتأدبا في الحديث وفي الأسلوب ،

أورثهما بترارك من بعده أسرة تجمع أفرادها من دول مختلفة كلهم عباقرة الحضر جاءوا فى سلسلة متصلة الحلقات من إرزمس إلى أناتول فرانس . وكانت ثورة فى الفن قد بدأت حين هجر چيتو الصرامة الصوفية التى انطبعت بها الفسيفساء البيزنطية لكى يدرس الرجال والنساء فى مجرى حياتهم الحقة وظرفهم الفطرى .

لقد كانت كل الطرق فى إيطاليا تؤدى إلى النهضة .

الباب الثانى

البابوات فى أفنيون

١٣٠٩ – ١٣٧٧

الفصل الأول

الأسر البابلى

نقل البابا كلمنت الخامس فى عام ١٣٠٩ مقر البابوية من رومة إلى أفنيون . وكان كلمنت هذا رجلا فرنسيا ، وكان قبل أن يجلس على كرسى البابوية أسقفا لبوردو ، وكان الفضل فى اختياره لمنصبه عائدا إلى فليب الرابع ملك فرنسا الذى أثار دهشة العالم المسيحى بهزيمة البابا بنيفاس الثامن ، وبعد اكتفائه بهذه الهزيمة بل أضاف إليها القبض عليه ، وإذلاله ، ومنع الطعام عنه حتى كاد يميته جوعا . ولم يكن كلمنت ليأمن على حياته فى رومة التى كانت تحتفظ لنفسها دون غيرها بالحق فى إساءة معاملة البابا ، والتى اغتاظت من وقاحة الملك البادية فى عدم احترامه إياه ؛ يضاف إلى هذا أن الكرادلة الفرنسيين كانوا يؤلفون وقتئذ أغلبية كبيرة فى المجمع المقدس ويأبون أن يضعوا أنفسهم تحت سلطان إيطاليا . ولهذا كله أقام كلمنت بعض الوقت فى ليون وپواتييه ؛ ثم اتخذ مقامه فى أفنيون القائمة على الضفة الأخرى لنهر الرون المقابلة لأرض فرنسا كما كانت فى القرن الرابع عشر ، وكان يرجو بذلك أن يكون أقل خضوعا لفليپ فى إقليم يمتلكه ملك ناپلى بوصفه كونت پروڤانس .

وكانت الجهود الجبارة التى بذلتها البابوية من أيام جريجورى السابع

(١٠٧٣ – ١٠٨٥) إلى أيام بنيفاس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣) لإنشاء دولة عالمية أوربية بإخضاع الملوك للبابوات – كانت هذه الجهود قد أخفقت ، وانتصرت القومية على النزعة الاتحادية النظرية ، وحتى فى إيطاليا نفسها رفضت جمهوريات فلورنس والبندقية ، ودول المدن فى لمبارديا ومملكة نابلى سيطرة الكنيسة عليها ، وأطلت برأسها مرتين جمهورية فى رومة ؛ وأخذ مغامرون من العسكريين أو السادة الإقطاعيين – من أسر بجليون Baglioni ، وبينتيفجل Bentivogli ، وملاتيستا Malatestas ، ومنفريد Manfredi ، واسفورادسا Sforaza ، أخذ هؤلاء وأولئك يستبدلون فى الولايات البابوية الأخرى(*) عجرفتهم العسكرية بنواب الكنيسة . وكانت البابوية أثناء مقامها فى رومة تستخدم مكانتها العظيمة التى استحوذت عليها قرونا طوالا ، وكانت الأمم قد اعتادت أن تعظمها وتخضع لسلطانها ، وتبعث لها بالأموال ؛ أما بابوية يختار لها باستمرار أحبار فرنسيون (١٣٠٥ – ١٣٧٨) ، يكادون يكونون سجناء عند ملوك فرنسا ، ويقرضون هؤلاء الملوك أموالا طائلة ليشنوا بها حروبهم ، أما بابوية من هذا الطراز فقد بدت لألمانيا ، وبوهيميا ، وإيطاليا ، وإنجلترا أنها قوة

(*) يمكن جمع الولايات البابوات فى أقسام أربعة :

١ – لاتيوم وتشمل مدائن تيڤولى Tivoli وتشڤيتا كستلانا Civita Castellana ، وسبياكو Sabiaco ، وفيتيربو Viterbo ، وأنانيى Anagni ، وأستيا ، ورومة .

٢ – أمبريا وتضم نارنى Narni ، وأسپوليتو Spoleto ، وأسيسى Assisi ، وبتروجيا perugia ، وجبيو Gobbio .

٣ – ولايات الحدود وتضم أسكولى Ascoli ، واوريتو Loreto ، وأنكونا ، وسنجليا Senigallia ، وأربينو Urrbino وكمرينو Camerino ، وفبريانو Fabriano ، وپيزارو pesaro .

٤ – الرومانيا Romagna وتشمل ريميني ، وكازينا Casena ، وفورلى Forli وفانتزا Faenza ، ورافنا ، وإمولا Imola ، ويولونيا ، وفرارا .

معادية لها ، وأنها سلاح نفسانى فى يد الملكية الفرنسية . وأخذت تلك الأمم تغفل ما تصدره هذه البابوية من أوامر الحرمان ومن اللعنات وتزداد جرأة على هذا كلما مضت الأيام ، ولا تهبها إلا شيئاً من التبجيل الآخذ فى النقصان على كره منها متزايد باستمرار .

وأخذ كلمنت الخامس يعمل فى صبر وأناة للتغلب على تلك الصعاب ، ولم يخضع لفليپ الرابع إلا أقل ما يستطيع من الخضوع ، وكان فليپ هذا يصلت فوق رأس كلمنت سيف التهديد ، بأن يكشف للعالم عن سلوك بنيفاس الثامن ومعتقداته الدينية بعد أن توفى هذا البابا . واشتدت حاجة البابا إلى المال فأخذ يبيع الرتب الكهنوتية إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ، ولكنه كان يوافق موافقة ضمنية على التقارير القاسية التى يقدمها عمدة أنجير **Angers** وأسقف مندى **Mende** لمجلس ڤينا (١٣١١) عن أخلاق رجال الدين وإصلاح الكنيسة . وكان هو نفسه يحيا حياة مقتصدة طاهرة ، ويلتزم أسباب التقوى فى غير تظاهر ولا مباهاة ، وحمى أرنلد القلانوڤى **Arnolod of Villanova** الطبيب العظيم من الاضطهاد لخروجه على أصول الدين القويم ، وأعاد تنظيم الدراسات الدينية فى جامعة منلييه على أساس النصوص اليونانية والعربية ، وحاول أن ينشئ كراسى للغات العبرية ، والسريانية ، والعربية فى الجامعات — وإن لم يفلح فى هذه المحاولة ؛ وكان مما ضاعف متاعبه أن أصيب بمرض شديد الألم — يظن أنه ناسور — اضطره إلى تجنب الاختلاط بالناس ، وقضى عليه فى عام ١٣١٤ . ولو أنه عاش فى بيئة خير من بيئته لكان ممن ازدانت بهم الكنيسة ؛

وأعقبت موته فترة خلا فيها كرسى البابوية من شاغله ضربت فيها الفوضى أطنابها ، وكشفت عن طبيعة ذلك العصر ومزاجه . وكتب دانتى إلى الكرادلة الطليان يحرضهم على أن يصروا على اختيار بابا إيطالى وعلى إعادة مقره إلى رومة ، ولكن عدد الكرادلة الإيطاليين لم يكن يتجاوز ستة ،

فلما انعقد المجمع المقدس فى حجرة مقفلة(*) فى كربنتراس Carpentras القريبة من أفنيون احتاط به الغوغاء من أهل غسقونية Gascony وأخذوا يصيحون : « الموت للكرادلة الإيطاليين ! » وهوجمت بيوت أولئك الكرادلة ، وأشعل المتجمهرون النار فى البناء الذى انعقد فيه المجمع المقدس ، وفتح الكرادلة لأنفسهم ممراً فى الجـــدار الخلفى ، وفروا من الغوغاء والنيران . ولم تبذل أية محاولة أخرى لانتخاب البابا مدة سنتين ، ثم رفع الكرادلة آخر الأمر فى اجتماع لهم عقد فى ليون بحماية الجنود الفرنسيين إلى كرسى البابوية رجلا كان وقتئذ فى الثانية والسبعين من عمره ، لا يكاد يخطئ من يظن أنه لن يطول به الأجل ، ولكنه قدر له أن يحكم الكنيسة ثمانية عشر عاماً بحماسة ، وفظاظة ، ونهم لا يشبع ، وإرادة حديدية . وكان يوحنا الثانى والعشرون قد ولد فى كوهور Cohors من أعمـــال جنوبى فرنسا ، وكان أبوه إسكافا ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يختار فيها ابن إسكاف إلى أعلى منصب فى العالم المسيحى بفضل الدمقراطية العجيبة القائمة فى كنيسة مطلقة فى تصرفاتها . وكان إربان الثانى ١٢٦١ — ١٢٦٤) ، قد مهد الطريق لهذا الاختيار ؛ فقد كان معلماً لأبناء ملك نابلى الفرنسى . وكان يوحنا قد درس القانون المدنى والكنسى بحماسة قربته من قلب الملك ؛ واختاره بنيفاس الثامن بناء على توصية الملك اسقفا لفريجو Fréjus ورفعه كلمنت السابع إلى كرسي أفنيون ؛ وأسكت ذهب ربرت ملك نابلى وطنية الكرادلة الطليان ، وأصبح ابن الإســـكاف من أعظم البابوات قوة وأمضاهم عزيمة ؛

وأظهر يوحنا من الكفايات ما يندر اجتماعه فى إنسان : أظهر جداً فى الدراسة ، ومهارة فى الإدارة ، وأقامت بابوية أفنيون بزعامته نظاماً

(*) جرت العادة منذ عام ١٢٧٤ أن تغلق على الكرادلة الحجرة التى يعقدون فيها المجمع المقدس لاختيار البابا واشتق من هذه العادة اسم المجمع نفسه (Con-clave ومعناه بمفتاح) .

بيروقراطياً قديراً ، وإن كان فاسداً مرتشياً ، وجمعت طائفة من الموظفين الملمين بالشئون الماليـــة أدهشت القائمين على وزارات المالية فى أوربا ، وحسدوها على كفايتها فى جمع الإيرادات . واشتبك يوحنا فى نحو اثنى عشر نزاعاً كبيراً تطلبك منـــه الأموال ، فحذا حذو سلفه فى بيع المناصب الكهنوتية ، ولكنه كان يبيعها دون حياء . واستطاع ابن بلدة كوهور المصرفية بعدة أساليب مختلفة أن يملأ خزانة البابوية بالمال حتى كان فيها حين وفاته ١٨,٠٠٠,٠٠٠ فلورين ذهبا (٤٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) وما قيمته سبعة ملايين من صفائح الذهب والجواهر[٣] . وكانت حجته فى جمع هذه الأموال أن البابوية قد فقدت كثيراً من أموالها المستمدة من إيطاليا ، وأن عليها أن تنشئ وظائفها ، وموظفيها ، وخدامها ، من جديد ؛ ويبدو أن يوحنا كان يشعر أن خير طريقة يخدم بها الله هى أن يضم إله المال إلى جانبه ، وكانت عاداته الشخصية تنزع إلى التقشف والزهد فى الطعام والشراب .

وكان مع هذا كله يناصر العلوم ، وأسهم فى إنشاء مدارس للطب فى پروچيا وكوهور ، وأعان الجامعات ، وأنشأ كلية لدراسة اللغة اللاتينية فى أرمينية ، وشجع دراسة اللغات الشرقية ، وحارب الكيمياء القديمة الزائفة والسحر ، وكان يقضى الأيام والليالى فى الدراسات العلمية ، وختم حياته رجل دين متهماً بالخروج عليه . ولعل الذى دعا يوحنا أن ينشر على الناس أن إنساناً ما — حتى أم الله نفسها — لايستطيع أن يرقى إلى مرتبة « الرؤى السعيدة » إلا فى يوم الحساب ، لعل الذى دعاه إلى هذا هو رغبته فى أن يقاوم انتشار نوع من التصوف يدّعى الآخذون به الاتصال المباشر بالله ؛ وقامت عليه ثورة بين من يدعون العلم بشئون الدار الآخرة ، ونددت جامعة باريس بآراء البابا ، وأعلن مجلس مقدس اجتمع فى ڤنسن **Vincenne** أنها مخالفة للدين ، وأمره فليپ السادس ملك فرنسا أن يعود فى آرائه الدينية إلى الصراط المستقيم[٤] ، ولكن المعمر الداهية الذى كان وقتئذ قد

بلغ سن التسعين أفسد عليهم جميعاً أمرهم بأن مات فى عام ١٣٣٤ ؛

وكان الذى خلف يوحنا رجلا لطيف المزاج . كان بندكت الثانى عشر ابن خباز ، حاول أن يكون مسيحياً وبابا معاً ، وقاوم إغراء توزيع المناصب الكنسية على أقاربه ، ونال شرف عداء الناس له بأن اختار لهذه المناصب الأكفاء الجديرين بها ، لا من يشترونها بالمال ، وقطع دابر الرشوة والفساد فى جميع فروع الإدارة الكنسية ؛ وكسب عداء الرهبان المتسولين بدعوتهم إلى إصلاح طوائفهم ، ولم تعرف عنه القسوة أو إراقة الدماء فى حرب ، ولهذا ابتهجت جميع قوى الفســاد لموته المبكر فى عام ١٣٤٢ .

وانحدر كلمنت السادس من بيت شريف فى ليموزن **Limousin** ؛ وقد ألف الترف ، والمرح ، والفنون ، ولم يكن يستطيع أن يفهم لم يكون البابا جادا صارما إذا كانت خزائن البابوية عامرة بالمال ، وكاد كل من جاءه يطلب وظيفة أن ينالها ، لأنه كان يقول إن أحدا يجب ألا يخرج من عنده غير راض ، وأعلن فى وقت ما أن كل رجل من رجال الدين يفد إليه فى خلال شهرين سينال نصيبا من رفده ، ويقدر شاهد عيان عدد من وفدوا عليه بمائة ألف(٥) . وأجزل العطاء للفنانين والشعراء ، واحتفظ باسطبل من الجياد الكريمة يضارع أكبر اسطبل آخر فى العالم المسيحى ، وأجاز للنساء أن يدخلن البلاط البابوى واستمتع بمفاتنهن واختلط بهن اختلاط العشاق الفرنسيين وبلغ من اتصال كونتة تورن **Turenne** به أن كانت تبيع المناصب الكنسية جهارا لاتخشى فى ذلك لومة لائم(٦) . وترامت طيبة كلمنت إلى أهل رومة فبعثوا إليه يرجونه أن يقيم فى بلدهم ، ولم ير الخير فى هذا ولكنه ترضاهم بأن أعلن أن العيد الذى قرر بنيفاس الثامن فى عام ١٣٠٠ أن يقام فى كل مائة عام يجب أن يقام كل خمسين عاما . وابتهجت رومة حين سمعت هذا الخبر ،

وخلعت ريندسو ، وأعادت خضوعها السياسى للبابوية .

وأصبحت أفنيون فى عهد كلمنت السادس الحاضرة الدينية للعالم اللاتينى ، وكذلك حاضرة سياسته ، وثقافته ، وملذاته ، وفساده . واتخذت الأداة الإدارية للكنيسة وقتئذ صورتها الواضحة المحددة ، فكان لها مجلس رسولى (Camera apostolica) يشرف على شئونها المالية ، يرأسه حاجب بابوى (Camerarius) لا يعلو عليه فى المنزلة إلا البابا نفسه ؛ ثم ديوان التوقيعات (Cancelleria) وله سبعة دوائر يديرها كردنال نائب عن البابا ويشرف على مراسلات الكرسى البابوى الكثيرة المعقدة ، ثم مجلس القضاء البابوى المكون من رجال الدين وغير رجال الدين المتضلعين فى قانون الكنيسة ، ويشمل أيضاً مجمع الكرادلة — المكون من البابا وكرادلته والذى كان بمثابة محكمة استئناف ؛ ثم مجلس التوبة الرسولى — وهو هيئة من رجال الدين تنظر فى شئون الزواج ، والحرمان من خطيرة الدين . واللعنة ، ويستمع إلى اعترافات من يطلبون الغفران البابوى .

وأراد بندكت الثانى عشر أن يوجد مسكنا للبابا وأعوانه ، ولتلك الوزارات ، والهيئات ، والموظفين ، والخـــدم ، فبدأ بتشييد قصر البابوات ، وطائفة من الأبنية القوطية الطراز — تشمل حجرات للنوم ، وأبهاء للمجالس ، وأماكن للصلاة ، ومكاتب — وتضم فناءين كبيرين ، وتحيط بها أسوار قوية منيعة ، يوحى ارتفاعها ، وسمكها ، وضخامة أبراجها ، بأن البابوات إذا حوصروا لا يعتمدون فى الدفاع عن أنفسهم على معجزة من السماء ، وأتم إربان الخامس هذا البناء الضخم . ودعا بندكت الثانى عشر چيتو إلى القدوم لتزيين القصر والكنيسة الملاصقة له . واعتزم چيتو أن يجيب طلبه ، ولكن المنية عاجلته ؛ فاستدعى سيمون مارتينى من سينا ، وأنشأ فيهما المظلمات التى محيت الآن والتى بلغ بها فن التصوير فى أفنيون ذروة مجده . واجتمع حول هذا القصر ، فى قصور أخرى أقل منه شأنه ، وبيوت كبيرة وصغيرة ، وأكواخ حقيرة ، عدد

كبير من رجال الدين ، والمبعوثين ، والمحامين ، والتجار ، والفنانين ، والشعراء ، والخدم ، والجنود والمتسولين ، والعاهرات على اختلاف طبقاتهن من المحظيات المثقفات إلى عاهرات الحانات : وسكن هنا لأول مرة أساقفة الطائفة غير المؤمنة الذين عينوا فى المراكز التى آلت إلى غير المسيحيين .

وفى وسعنا نحن الذين اعتدنا الضخامة فى كل شىء أن نتصور مقدار المال الذى لابد منه لإقامة هذا الصرح الضخم وكل ما يحيط به : لقد كاد عدد من موارد الثروة ينضب معينه : فكانت إيطاليا بعد أن غادرها البابوات لاتكاد ترسل إليهم شيئاً ؛ واقتصرت ألمانيا التى شجر النزاع بينها وبين يوحنا الثانى والعشرين على إرسال نصف الخراج الذى اعتادت أن ترسله ، وأما فرنسا التى كادت البابوية تصبح أسيرة لها تحت رحمتها فقد خصصت جزءا كبيراً من إيراد الكنيسة الفرنسية بالأغراض الدنيوية ، واستدانت المبالغ الطائلة من البابوية لتمول بها حرب مائة السنين ، وفرضت إنجلترا أشد القيود على تسرب الأموال إلى كنيسة كانت فى واقع الأمر حليفة لفرنسا ؛ واضطر بابوات أفنيون كى يواجهوا هذا الموقف إلى أن يستغلوا كل مورد من موارد الثروة مهما يكن ضئيلا ، ففرضت على كل أسقف أو رئيس دير ، سواء كان معينا من قبل البابا أو أى أمير زمنى ، أن ينزل لمحكمة الكرسى البابوى عن ثلث إيراده لمدة سنة نظير تعيينه فى منصبه ، وأن يقدم هبات أخرى باهظة إلى الوسطاء الذين أيدوا ترشيحه لمنصبه ، فإذا ما أصبح رئيس أساقفة كان عليه أن يؤدى مبلغا كبيراً من المال ثمنا لصلبان الأسقفية — وهى منطقة من الصوف الأبيض يلبسها فوق الملحفة لتكون شعاراً لمنصبه ؛ فإذا ما اختير بابا جديد أرسل أصحاب كل مرتبة ، وكل منصب من مراتب الكنيسة ومناصبها دخلهم كله مدة عام ، ثم تابعوا بعد ذلك إرسال عشر إيرادهم كل عام ؛ وكان ينتظر منهم فوق ذلك أن يرسلوا له تبرعات أخرى من آن إلى آن . وإذا ما مات كردنال ،

أو كبير أساقفة ، أو أسقف ، أو رئيس دير عادت أملاكه الشخصية وأمواله المنقولة إلى البابوية ، وفى الفترة التى يظل فيها المنصب شاغرا بين موت شاغله القديم وتعيين صاحبه الجديد كان البابوات يستولون على المرتب المقرر لهذا المنصب ؛ ويؤدون نفقاته ، وكان البابوات يتهمون بأنهم يتعمدون إطالة هذه الفترة . وكان كل من يعين فى منصب من مناصب الكنيسة يعد مسئولا عن الرسوم التى لم يؤدها سلفه . ولما كان الأساقفة ورؤساء الأديرة فى كثير من الأحيان سادة إقطاعيين يمتلكون ضياعا أقطعها إياهم الملوك ، فقد كان عليهم أن يؤدوا لهم الخراج ، ويمدوهم بالجنود ، ولهذا كان الكثيرون منهم يواجهون صعابا جمة فى الوفاء بالتزاماتهم الدنيوية والدينية ، وإذ كانت مطالب البابوية أشد صرامة من مطالب الدولة ، فإنا نجد رجال الدين فى بعض الأحيان يؤيدون الملوك ضد البابوات ؛ وكان بابوات أفنيون يتجاهلون تجاهلا تاما ما كان لمجالس الكنائس والأديرة من حقوق قديمة فى اختيار الأساقفة ورؤساء الأديرة ؛ وكانت هذه النصوص القديمة سببا آخر من أسباب غضب رجال الدين . وكانت القضايا التى تنظر فيها جهات القضاء البابوية تتطلب فى العادة الاستعانة بالمحامين ، وهى استعانة كبيرة النفقة ، وكان على هؤلاء المحامين أن يؤدوا أجرا باهظا فى كل عام نظير حصولهم على ترخيص بالمرافعة أمام المحاكم البابوية . وإذا ما أصدر المجلس البابوى حكما أيا كان نوعه أو أدى خدمة ما لأى إنسان ، فقد ينتظر ممن يفيد من هذا الحكم أو تلك الخدمة أن يقدم هدية للبابوية اعترافا منه بما عاد عليه من نفع ، وحتى الإذن لشخص ما بأن يرسم قسا كان يبتاع بالمال . وكانت الحكومات الزمنية فى أوربا تنظر بعين الخوف والسخط إلى أداة البابوات المالية(٧) .

وثار الاحتجاج من كل ناحية ، ولم يكن أقلها عنفا ما جاء من رجال الكنيسة أنفسهم . من ذلك ما كتبه الحبر الأسبانى ألفارو پلايو Alvaro Pelayo

هو من أنصار البابوية الموالين لها فى رسالة فى رثاء الكنيسة يظهر فيها أسفه ويقول « كلما دخلت حجرات رجال الدين فى البلاط البابوى ، رأيت السماسرة والقساوسة منهمكين فى وزن المال وعده وهو مكدس أكداساً أمامهم . . . . إن الذئاب هى المسيطرة على الكنيسة ، وهى تطعم من دماء » القطعان المسيحية[٨] . وهال الكردنال نابليونى أرسينى Nopoleone Orsini أن يجد جميع أسقفيات إيطاليا موضعا للمبادلة أو دسائس الأسر فى أيام كلمنت الخامس . وكتب إدورد الثالث ملك إنجلترا ، وكان هو نفسه بارعا فى فرض الضرائب — كتب يذكر كلمنت السادس أن « خليفة الرسل إنما جاء ليقود خراف الرب إلى المرعى لا ليجزها »[٩] ، وسن البرلمان الإنجليزى عدة قوانين يحد بها من حق البابوات فى فرض الضرائب فى إنجلترا . وكان الجباة البابويون فى ألمانيا يطاردون ، ويقبض عليهم ، ويسجنون ، وتبتر أطرافهم ويشنقون فى بعض الأحيان . وأقسم قساوسة كولونى ، وبُن ، وأكسانتن Xanten ، وميتز فى عام ١٣٧٢ ألا يؤدوا العشور التى طلبها إليهم جريجورى الحادى عشر . وفى فرنسا حل الخراب بكثير من أملاك الكنيسة بسبب ما أصابها من كوارث الحرب ، والموت الأسود ، ونهب اللصوص وقطاع الطريق ، وما كان يفرضه عليها جباة البابا ، وهجر كثير من الأساقفة أبرشياتهم .

ورد البابوات على هذه الشكاوى بقولهم إن الإدارة الكنسية تتطلب هذه الأموال كلها ، وإن العمال الصالحين الذين لا يرتشون يندر وجودهم ، وإنهم هم أنفسهم يخوضون بحارا من المتاعب . وأكبر الظن أن كلمنت السادس حين أقرض فليب السادس ملك فرنسا ٥٩٢٫٠٠٠ فلورين ذهبى ، (١٤٫٨٠٠٫٠٠٠ دولار) والملك چون الثانى ٣٫٥١٧٫٠٠٠ فلورين أخرى (أى ٨٧٫٩٢٥٫٠٠٠ دولار) إنما فعل ذلك مرغما[١٠] .

واحتاج البابوات نفقات طائلة لاسترداد الولايات البابوية التى فقدوها

فى إيطاليا ، ولذلك كانت الخزانة البابوية تعانى عجزا دائما فى إيرادها على الرغم من جميع ما فرضته من الضرائب . وأنقذ البابا يوحنا الثانى عشر تلك الخزانة بأن أدى إليها ٤٤٠٫٠٠٠ فلورين من أمواله الخاصة ، وباع إنوسنت السادس صحافه الفضية ، وجواهره ، وتحفه الفنية ، واضطر إربان الخامس أن يقترض ٣٠٫٠٠٠ فلورين من كرادلته ، وكان جريجورى الحادى عشر عند موته مدينا بمائة وعشرين ألف فرنك .

ويقول الناقدون إن عجز مالية البابوات لايرجع إلى النفقات المشروعة بل يرجع إلى ضروب البذخ التى كانت سائدة فى بلاط البابوات وصنائعهم فقد كان كلمنت السادس مثلا محوطا بأقاربه من الذكور والإناث يرتدون أثمن الثياب والفراء ؛ وبطائفة من الفرسان والأتباع والجنود المسلحين ، والقساوسة ، والحجاب ، ورجال التشريفات ، والموسيقيين ، والشعراء ، والفنانين ، والأطباء ، والعلماء . والخياطين ، والفلاسفة ، والطباخين ممن كانوا موضع حسد الملوك . وكان هؤلاء جميعا البالغ عددهم قرابة أوبعمائة شخص يطعمون ، ويكتسون ، ويسكنون ، ويتقاضون مرتبات من بابا مولع بالإسراف لم يعرف فى يوم من الأيام ماذا يتطلبه جمع المال ؛ وكان كلمنت يرى نفسه حاكما من واجبه أن يقذف الرعب فى قلوب رعاياه ، وأن يؤثر فى نفوس السفراء بضروب « الاستهلاك البادى للعيان » كما يفعل الملوك . وكان لابد للكرادلة أيضاً ، وهم مجلس الدولة الملكى وأمراء الكنيسة فى الوقت عينه ، أن يكون لهم ما يليق بمكانهم وسلطانهم من مظاهر ، فكانت حاشيتهم ، وبطانتهم ، ومآدبهم حديث أهل المدينة . ولعل الكردنال برنار الجرفيزى Bernard of Garves قد جاوز فى التنعم والأبهة الحد المعقول حين استأجر واحدا وخمسين مسكنا تقيم فيها حاشيته ، وفعل فعله الكردنال بطرس البنهاكى Peter of Banhac الذى كان فى خمسة من اسطبلاته العشرة تسعة وثلاثون حصانا من أحسن

طراز منعمة مستريحة : ونهج هذا النهج عينه الأساقفة أنفسهم ، وكانت لهم هم أيضاً قصور فخمة مليئة بالمهرجين ، والبزاة ، والكلاب ، على الرغم من احتجاج المجالس المقدسة فى الأقاليم .

وتخلقت أفنيون وقتئـذ بأخلاق حاشية الملوك وآدابها . فانتشرت فيها ضروب الخسة والسفالة ، يشهد بذلك ماكتبه جويوم دوران Guillaume Durand أسقف مندى Mende إلى مجلس ڤينا يقول :

قد يكون إصلاح الكنيسة كلها مستطاعا إذا بدأت كنيسة رومة تطهر نفسها مما فيها من قدوة سيئة ... تصم رجالها أشنع وصمة وتتسرب عدواها إلى الناس كلهم . . . ذلك أن كنيسة الله المقدسة ، وخاصة كنيسة رومة أقدسها جميعا ، قد ساءت سمعتها . . . فى كل مكان ، وأخذ الناس جميعا يصيحون ويذيعون فى الخارج أن كل من تضمهم إلى صدرها من أعلاهم إلى أقلهم شأنا قد امتلأت قلوبهم طمعا . . . ومن الأمور الواضحة التى تلوكها الألسنة أن جميع المسيحيين يتخذون رجال الدين أسوأ قدوة لهم فى الجشع ، لأن هؤلاء الرجال يأكلون من موائد أشد ترفا وأعظم فخامة ، وأكثر صحافا من موائد الأمراء والملوك (١١) .

واستنفد پترارك ، وهو من دانت له أساليب البلاغة ، كل ما فى معاجم اللغة من ألفاظ السباب التى وصم بها أفنيون فقال عنها إنها :

بابل العاصية ، جحيم الأرض ، بالوعة الرذيلة ، ومستودع أقذار العالم . لا تجد فيها إيماناً ، ولا إحساناً ، ولا ديناً ، ولا خوفاً من الله . . . لقد تجمعت فيها جميع أقذار العالم وخبائثه . . . ترى كبار السن من رجالها يندفعون غير مبالين إلى أحضان ڤينوس ؛ لا يبالون بكبر سنهم أو كرامتهم ، أو مالهم من سلطان ، بل يرتكبون كل عار ، كأن مجدهم كله لا يعتمد على صليب المسيح ، بل يقـوم على المأكل المشرب ، والسكر ، والدعارة . . . . فالفسق ، ومضاجعة المحارم ، وهتك الأعراض ، والزنا هى أعظم المباهج الشهوانية لمهازل رؤساء الكنيسة (١٢) .

وليس فى مقدورنا أن نغض الطرف عن هذه الشهادة الصادرة من شاهد عيان لم يحد طوال حياته عن طريق الدين ، وإن لم تخل من المبالغة والحقد الشخصى . ومن واجبنا فوق ذلك أن ننقص منها بعض الشيء لصدورها من رجل يبغض أفنيون لأنها اختطفت البابوية من إيطاليا ، وكان يطلب الهبات من بابوات أفنيون ، وينال منها الكثير ، ويطلب المزيد ، رجل رضى أن يعيش مع السفاح فيسكونتى عدو البابوية ، وكان له هو نفسه ولدان غير شرعيين . ولم تكن الأخلاق فى رومة ، التى كان پترارك يلح على البابوات فى أن يعودوا إليها ، خيراً مما كانت فى أفنيون وقتئذ ، إلا أن الفقر كان معواناً على العفة . ولم تصف القديسة كترين السينائية أفنيون بالوضوح الذى وصفها به پترارك ، ولكنها أخبرت جريجورى الحادى عشر أنها إذا جاءت إلى البلاط البابوى كانت « خياشيمها تقتحمها روائح الجحيم »(١٣) .

ووجد فى هذا الانحلال الأخلاقى بابوات كثيرون خليقون بمنصبهم الرفيع ، يفضلون آداب المسيح على آداب زمانهم . وإذا ذكرنا أنه لم يوجد بين بابوات أفنيون السبعة إلا واحد عاش معيشة اللذة الدنيوية ، وواحد آخر هو يوحنا الثانى والعشرون ، أخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف مهما يكن من شراهته وقسوته ، وآخر هو جريجورى الحادى عشر كان فى السلم مضرب المثل فى التقوى وسمو الأخلاق وإن كان فى الحرب قاسياً لا يرحم ، وأن ثلاثة — بندكت الثانى عشر ، وإنوسنت السادس ، وإربان الخامس يكادون يكونون فى حياتهم قديسين أطهاراً — إذا ذكرنا هـذا لم يكن من حقنا أن نلقى تبعة جميع الرذائل التى تجمعت فى أفنيون البابوية على كاهل البابوات . لقد كانت الثروة سبب هذه الرذائل ، وقد كانت لها هى هذه النتائج بعينها فى أماكن أخرى — فى رومة أيام نيرون ، وروما أيام ليو العاشر ، وباريس فى عهد لويس الرابع عشر ، ونيويورك وتشكاجو فى هذه الأيام ؛ وكما أننا نجد الكثرة الغالبة من رجال هاتين المدينتين الأخيرتين

ونسائهما تعيش عيشة صالحة طيبة ، أو ترتكب ما ترتكبه من الآثام فى اعتدال ، فإن من حقنا أن نفترض أن المحامى المعوج ، والقاضى غير النزيه ، والكردنال الذى يريد الدنيا ، والقس الذى لا يراعى واجبات مهنته ، كانوا شواذاً يبرزون فى وضوح أكثر مما يبرز أمثالهم فى أى مكان آخر ، لأنه كان يشرف عليهم ويصفح عنهم فى بعض الأحيان كرسى الرسول .

غير أن هذه الفضائح كان فيها من الحقيقة ما يكفى إذا ضم إلى فرار البابوات من رومة للقضاء على منزلة الكنيسة وسلطانها : وكأنما أراد بابوات أفنيون أن يحققوا ظن الناس فيهم ، بأنهم لم يعودوا كما كانوا قوة عالمية ، بل أضحوا آلات طيعة فى يد فرنسا ، فاختاروا ١١٣ كردنالا فرنسياً لمجمع الكرادلة المؤلف من ١٣٤ كردنالا(١٤) . وكان هذا من أسباب تغاضى الحكومة الإنجليزية عن هجمات ويكلف Wyclif القاسية على البابوية . كذلك رفض الناخبون الألمان بعد ذلك الوقت كل تدخل من جانب البابوات فى انتخاب ملوكهم وأباطرتهم ، ولما أن رفض رؤساء الأديرة فى أسقفية كولونى عام ١٣٧٢ أن يؤدوا العشور إلى البابا جريجورى الحادى عشر ، أعلنوا جهرة أن الكرسى الرسولى قد انحط إلى الدرك الأسفل من الاحتقار ، حتى بدا أن المذهب الكاثوليكى فى تلك الديار مهدد بأشد الأخطار . أما غير رجال الدين فهم فى حديثهم عن الكنيسة يظهرون لها ضروب الاحتقار ، لأنها تخلت عما تعودته فى الأيام الماضية ، فلا تكاد تختار رسلها من الواعظين أو المصلحين ، بل تختارهم من الرجال المتباهين ، الماكرين ، الأنانيين ؛ الشرهين . وقد بلغت الحال من السوء درجة يندر معها أن تجد مسيحيين إلا بالاسم »(١٥) .

لقد كان الأسر البابلى للبابوات فى أفنيون ، وما تلاه من انقسام فى البابوية ، هو الذى مهد السبيل إلى الإصلاح الدينى ، وكانت عودة البابوات إلى إيطاليا هى التى أرجعت لهم مكانتهم وأجلت الكارثة التى حلت بهم قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

الطريق إلى رومة

وكانت منزلة الكنيسة فى إيطاليا أقل منها فى أى بلد آخر. وكان من أسباب ذلك أن بندكت الثانى عشر أراد أن يخضد شوكة لويس صاحب باڤاريا الثائر فأيد فى عام ١٣٤٢ جميع السلطات التى انتحلها طغاة المدن اللمباردية متحديا بذلك دعاوى الإمبراطورية ؛ وثار لويس لهذا العمل فأيد من قبل الإمبراطورية الطغاة الذين اغتصبوا الولايات البابوية[١٦] ؛ وسخرت ميلان من البابوات علانية ، ولما أن أرسل إليها إربان الخامس فى عام ١٣٦٢ مندوبين يحملان قرارات الحرمان للفسكونتى أرغمهم برنابو Bernabo على أن يأكلوا القرارات بما فيها من رقوق ، وخيوط حريرية ، وأختام من الرصاص[١٧] ، وكانت صقلية منذ عام ١٢٨٢ قد ظلت تعادى البابوات جهرة.

وجهز كلمنت السادس جيشاً ليسترد به الولايات البابوية ، ولكن خليفته إنوسنت السادس هو الذى ردها إلى طاعته موقتاً : ويكاد إنوسنت هذا أن يكون نموذجاً طيباً للبابوات. ذلك أنه بعد أن حبا عددا قليلا من أهله ببعض المناصب اعتزم أن يقف سيل المحسوبية الكهنوتية والفساد ، وقضى على مظاهر الترف والفخفخة والإسراف فى البلاط البابوى ، وأقصى الجيش العرمرم من الخدم الذين كانوا يحيطون بكلمنت السادس ، وطرد العدد الجم من طلاب المناصب ، وأمر كل قس أن يقيم فى مقر عمله ، وعاش هو نفسه معيشة الاستقامة والاعتدال. وكان يعتقد أن السبيل الوحيد لإعادة سلطان الكنيسة هى تحريرها من سلطان فرنسا ؛ وعودة البابوية إلى إيطاليا ؛ ولكن الكنيسة إذا خرجت من فرنسا يتعذر عليها

الاحتفاظ بكيانها بغير الإيراد الذى كان يصل إليها من الولايات البابوية ؛ ومع أن إنوسنت نفسه رجل سلم فقد رأى أن لاسبيل لاستعادة تلك الولايات إلا الحرب .

وعهد بهذه المهمة إلى رجل أوتى إيمان الأسبان وحماستهم ، ونشاط الدمنيك ، وفروسية عظماء قشتالة . ذلك هو جيل ألفارز كارلو ده ألبرنوز Gil Alvarezo Carillo de Albernoz . وكان جيل هذا جندياً فى جيش ألفنسو الحادى عشر صاحب قشتالة ، ولم ينقطع عن الحرب بعد أن صار كبير أساقفة طليطلة ؛ والآن وقد أصبح الكردنال إجديو دالبرنوز Egidio d'Albornoz فقد صار قائداً بارعاً . وقد أقنع جمهورية فلورنس — وكانت وقتئذ تخشى الطغاة وقطاع الطريق الذين كانوا يحيطون بها — أقنعها بأن تمده بما يلزمه من المال لتنظيم جيش . وأفلح بالمفاوضات البارعة ، الشريفة رغم براعتها ، لا بالقوة ، أن يخلع الطغاة الصغار الذين اغتصبوا الولايات البابوية طاغية بعد طاغية ، ووضع لهذه الولايات « الدساتير الإجيدية » (١٣٥٧) التى ظلت قانونها الأساسى حتى القرن التاسع عشر ، والتى كانت حلا وسطا عمليا بين الحكم الذاتى والولاء للبابوية . وتغلب على چون هوكوود John Hawkwood المغامر الإنجليزى الذائع الصيت ، وأسره ، وقذف فى قلوب زعماء عصابات المغامرين الخوف من مندوب البابا إن لم يكن من الله ؛ واستعاد بولونيا من رئيس أساقفتها المتمرد ، وأقنع أمراء ميلان أن يعقدوا الصلح مع الكنيسة ، وتهيأت بذلك السبيل لعودة البابوات إلى إيطاليا .

وواصل إربان الخامس سياسة إنوسنت السادس الصارمة الإصلاحية ؛ وبذل كل ما فى وسعه لإعادة النظام والأمانة إلى رجال الدين وإلى البلاط البابوى ، وقاوم شرف الكرادلة ، وقضى على خداع المحامين ، وجشع المرابين ، وابتزازهم أموال المدنيين ، وعاقب من يتجرون بالمقدسات

وبالمناصب الكهنوتية ، وضم إلى خدمته رجالا من ذوى الأخلاق الممتازة والعقول الراجحة ، وأنفق من ماله الخاص على ألف طالب فى الجامعات ، وأنشأ كلية جديدة فى منپلييه ، وأمد بالمال كثيرين من العلماء ، وأراد أن يتوج أعماله البابوية فاعتزم أن يعيد مقرها إلى رومة . وارتاع الكرادلة حين علموا بهذه النية ، لأن الكثيرين منهم كانت أصولهم ومواضع حبهم فى فرنسا ، وكانوا مكروهين فى إيطاليا ، وتوسلوا إليه ألا يلقى بالا إلى مطالب القديسة كترين أو إلى بلاغة پترارك . وشرح لهم إربان الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى فرنسا — التى كان مليكها أسيراً فى إنجلترا ، وجيوشها محطمة ، والإنجليز يستولون على أقاليمها الشمالية ، ويقتربون يوماً بعد يوم من أفنيون ؛ ترى ماذا تعمل إنجلترا إذا انتصرت البابوية التى كانت تخدم فرنسا وتمدها بالمال ؟

ونفذ البابا ما اعتزمه فأبحر من مرسيليا فى اليوم الثلاثين من إبريل عام ١٣٦٧ تحرسه عدة سفن شراعية إيطالية مفعمة قلوب من فيها بهجة ؛ ودخل رومة فى السادس عشر من شهر إكتوبر وسط مظاهر الترحيب الذى وصل إلى عنان السماء ، من العامة ، ورجال الدين ، والأشراف ؛ وأمسك الأمراء الإيطاليون بزمام البغل الأبيض الذى كان يمتطيه ، وانطلق لسان پترارك بالشكر للبابا الفرنسى الذى جرؤ على الإقامة فى إيطاليا . وكانت رومة وقتئذ مقفرة وإن كانت سعيدة : أفقرها انفصالها الطويل الأمد عن البابوية ، وهجر المصلون نصف كنائسها وتهدمت ، وتخربت كنيسة القديس بولس ، وكانت كنيسة القديس بطرس توشك أن تنهار فى أية لحظة ، وقصر لاتران قد دمرته النار منذ عهد قريب ، والقصور لا تقل تهدماً عن المساكن الصغيرة ، وانتشرت المستنقعات فحلت محل البيوت ، وتكدست الأقذار فى الشوارع والميادين[١٨] . وأصدر إربان الأوامر ببناء القصور البابوية ورصد لها الأموال . ولم يطق صبراً على منظر رومة ،

فاتخذ مسكنه فى مونتى فياسكونى Montefiascone ولكن ذكريات أفنيون وترفها وفرنسا المحبوبة أقضت مضجعه ونغصت عليه حياته . وترامت أنباء تردده إلى بترارك ، فأخذ يحثه على أن يصر على ما عقد عليه نيته ، وتنبأ القديس بردجت St Bridget السويدى بأن البابا سيموت من فوره إذا غادر إيطاليا ، وعمل الإمبراطور شارل الرابع على تقوية عزيمته ، فأيد استعادة البابا لإيطاليا الوسطى ، وجاء خاشعا إلى رومة (١٣٦٨) ، ليقود جواد البابا من كنيسة القديس إنجيلو إلى كنيسة الرسول بطرس ، ووقف على خدمته أثناء القداس . وتوجه البابا فى حفل خيل إلى الجمع المحتشد المبتهج أنه يحسم النزاع القديم بين الإمبراطورية والبابوية . فلما كان اليوم الخامس من سبتمبر عام ١٣٧٠ أقلع إربان إلى مرسيليا ، ولعله بعمله هذا قد خضع إلى رغبة كرادلته الفرنسيين ، وادعى أنه يريد إعادة السلام بين إنجلترا وفرنسا . ووصل فى السابع والعشرين من هذا الشهر نفسه إلى أفنيون حيث وافته المنية فى التاسع عشر من ديسمبر ، وهو يرتدى ثياب راهب بندكتى ، ويرقد على أريكة حقيرة ، وكان قد أمر بأن يسمح لكل من شاء بالدخول عليه ، حتى يستطيع الناس جميعاً أن يروا أن عظمة أجل الناس مقاما ليست إلا بهرجا كاذبا قصير الأمد .

وكان كلمنت السادس البابا الظريف قد عين جريجورى الحادى عشر ابن أخيه كردنالا وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، ورسم قسا فى التاسع والعشرين من ديسمبر عام ١٣٧٠ ، ثم اختير بابا فى الثلاثين من ديسمبر فى سن التاسعة والثلاثين . وكان غزير العلم ، مولعا بشيشرون ؛ وقد جعلته الأقدار رجل حرب وكفاح ، وقضى مدة بابويته فى إخماد الثورات العنيفة . ذلك أن إربان الخامس كان يخشى ألا يثق البابا الفرنسى بالإيطاليين ، فاختار عدداً كبيراً من الفرنسيين مندوبين عنه لحكم الولايات البابوية . ووجد هؤلاء الحكام أنفسهم فى بيئة معادية لهم فشادوا الحصون لمقاومة الشعب ، وجاءوا بأعون لهم كثيرين من الفرنسيين ، وفرضوا

ضرائب باهظة ، وآثروا الغطرسة على الكياسة والدهاء . وحدث أن أخذ ابن أخ للمندوب البابوى فى پروچيا يطارد امرأة متزوجة مطاردة بلغ من عنفها أن سقطت المرأة من نافذة وقضت نحبها وهى تحاول الفرار منه . ولما جاء وفد إلى المندوب البابوى يطلب إليه عقاب ابن أخيه رد عليه بقوله : « علام هذه الجلبة كلها ؟ هل تظنون أن الفرنسى خصى ؟ »(٢٠) وأثار مندوبو البابا بوسائل كثيرة متنوعة كراهية الشعب إلى حد دفع كثيراً من الولايات إلى الانتقاض عليهم فى عام ١٣٧٥ واحدة بعد واحدة . ورفعت القديسة كترين صوتها نائبة عن إيطاليا فألحت على جريجورى أن يعزل أولئك « الرعاة الأشرار الذين يسممون حـــديقة الكنيسة ويعيثون فيها فسادا »(٢١) : وتزعمت فلورنس هذه الحركة وهى التى كانت فى العادة حليفة البابوية ، ونشرت راية حمراء كتبت عليها بأحرف ذهبية كلمة الحرية ، فلم يحل عام ١٣٧٦ حتى لم يبق مواليا للبابا من مدن إيطاليا إلا واحدة بعد أن كان عدد المدن التى تعترف للبابا بزعامته المدنية والروحية أربعا وستين مدينة فى عام ١٣٧٥ ، وخيل إلى العالم أن جميع ما عمله ألبرنوز قد ذهب أدراج الرياح ، وأن البابوية قد خسرت مرة أخرى جميع إيطاليا الوسطى :

واتهم جريجورى ، بإيعاز الكرادلة الفرنسيين ، أهل فلورنس بأنهم يتزعمون الثورة عليه ، وأمرهم بالخضوع إلى المندوب البابوى ، فلما عصوا أمره حرمهم من الدين ، ومنع إقامة الخدمات الدينية فى مدينتهم ، وأصدر مرسوما يعلن فيه أن جميع الفلورنسيين خارجون على القانون ، وأحل لأى إنسان فى أى مكان أن يستولى على أملاكهم ويتخذهم أرقاء . وحاق خطر الانهيار بصرح التجارة والمال الفلورنسى كله ، واعتقلت إنجلترا وفرنسا من فورهما من فيهما من الفلورنسيين واســتولتا على أملاكهم : وكان رد فلورنس على هذا أن صادرت جميع أملاك الكنيسة

الموجودة فى أراضيها ، وهدمت مبانى محكمة التفتيش ، وأغلقت أبواب المحاكم البابوية ، وزجت فى السجن ، وشنقت فى بعض الأحيان ، القساوسة المعاندين ، وبعثت بنداء إلى أهل رومة تدعوهم فيه أن ينضموا إلى الثورة ، ويقضوا على جميع ما للكنيسة فى إيطاليا من سلطة زمنية . وبينا كانت رومة لا تزال تتردد فى الأمر ، إذ قطع جريجورى لزعمائها وعدا صريحا بأن يعيد البابوية إلى رومة إذا ظلت موالية له . وقبل أهل رومة هذا الوعد واعتصموا بالسلم .

وكان البابا فى خلال ذلك قد سير إلى إيطاليا قوة من الجنود البريطانيين المرتزقين الجفاة بقيادة « الكردنال المندوب البابوى ربرت من أهل جنيفا »[٢٢] . وخاض ربرت غمار الحرب بوحشية لا يكاد يصدقها عاقل ، من ذلك أنه لما استولى على كازينا Casena بعد أن قطع على نفسه عهدا بالعفو عن أهلها قتل بالسيف كل من كان فيها من رجال ونساء وأطفال[٢٣] . وكان جون هوكودك يقود جنود المرتزقة فى خدمة الكنيسة ، فذبح هو الآخر فى فائنسا Faenza أربعة آلاف من أهلها لارتيابه فى أن البلدة تريد الانضمام إلى الثورة . وارتاعت القديسة كاترين السينائية من هذه الأعمال الوحشية ، ومن مصادرة الأملاك من الجانبين ، ومن انقطاع الخدمات الدينية فى جزء كبير من إيطاليا ، فكتبت إلى جريجورى تقول :

نعم إن عليك أن تسترد الأملاك التى خسرتها الكنيسة ، ولكن عليك أكثر من هذا أن تسترد جميع الخراف التى هى كنز الكنيسة الحقيقى والتى تحل بها الفاقة بحق إذا خسرتها . . . عليك أن تضرب الناس بسلاح الصلاح ، والحب ، والسلم ؛ فإن فعلت كسبت به أكثر مما تكسب بسلاح الحرب . وأنا حين أسأل الله عن خير الطرق لنجاتك ، وإعادة الكنيسة إلى حالها الأولى ، وعودة العالم أجمع ، لا أجد جوابا غير كلمة السلم ! السلم ! فبحق المنقذ المصلوب عد إلى السلم[٣٤] !

ودعتها فلورنس إلى أن تكون مع وفدها المرسل إلى جريجورى ؛ فقبلت الدعوة ، وسافرت ، وانتهزت هذه الفرصة لتندد بأخلاق أفنيون ، وبلغ من صرامتها فى هذا التنديد أن طالب الكثيرون بالقبض عليها ، ولكن جريجورى بسط عليها حمايته ، ولم يكن لسفر البعثة نتيجة عاجلة ، ولكن جريجورى حين ترامى إليه أن رومة تنضم إلى الثورة إذا لم يعجل بالمجىء إليها أقلع من مرسيليا ووصل إلى رومة فى السابع عشر من يناير سنة ١٣٧٧ ، وربما كان من أسباب سفره أنه تأثر بدعوة كترين ؛ ولم يرحب بعودته جميع الأهلين لأن نداء فلورنس آثار فى هذه المدينة المنحلة ذكريات للجمهورية قديمة ، وجاءت النُّذر إلى جريجورى أن حياته غير آمنة فى عاصمة العالم المسيحى القديمة . فانتقل منها إلى أنانى فى شهر مايو ؛

وكأنه الآن قد خضع آخر الأمر إلى رجاء كترين ، فتحول من الحرب إلى الدبلوماسية . وأخذ عماله يشجعون الجماهير فى المدن على أن يقيلوا حكوماتهم المتمردة . وكانت تلك الجماهير تتوق إلى مصالحة الكنيسة ، ووعد جميع المدن التى تعود إلى الولاء له بأن تكون لها حكومة ذاتية تحت رياسة نائب عن البابا تختاره هى بنفسها . وقبلت المدن هذه الشروط واحدة فى إثر واحدة ؛ واتفقت فلورنس مع جريجورى فى عام ١٣٧٧ على أن يحكم برنابو ڤيكونتى فى النزاع القائم بينهما . وأقنع برنابو البابا بأن يهبه نصف الغرامة التى قد يفرضها على فلورنس ، فلما وافق على ذلك أمر المدينة بأن تؤدى للكرسى المقدس غرامة قدرها ٨٠٠,٠٠٠ فلورين (٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار) . ورأيت فلورنس أن حلفاءها قد تخلوا عنها فخضعت لهذا الأمر وهى كارهة مغضبة ، ولكن البابا إربان السادس خفض الغرامة إلى ٢٥٠,٠٠٠ فلورين .

ولم يعش جريجورى حتى يشهد نصره ، فقد عاد إلى رومة فى السابع

من نوفمبر عام ١٣٧٧ ، وكان يعانى آلام المرض حتى وهو فى أفنيون ، وتأثر بالشتاء الذى قضاه فى إيطاليا الوسطى ، وأحس بدنو أجله ، وخشى أن يقطع النزاع القائم بين فرنسا وإيطاليا للسيطرة على البابوية أوصال الكنيسة ؛ فأعد العدة فى التاسع عشر من مارس عام ١٣٧٨ لاختيار خلفه على الفور ، وتوفى بعد ثمانية أيام من ذلك الوقت وهو يحن إلى أرض فرنسا الجميلة .

الفصل الثالث

الحياة المسيحية

١٣٠٠ — ١٤٢٤

سنرجئ إلى باب آخر بحثنا فى دين الشعب وأخلاق رجال الدين ، ولكننا نلاحظ فى هذا الفصل ظاهرتين مختلفتين من ظواهر الحياة المسيحية فى إيطاليا خلال القرن الرابع عشر هما محكمة التفتيش والقديسون . والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن الكثرة الغالبة من المسيحيين كانت تعتقد وقتئذ أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وأنه هو الذى وضع عقائدها الأساسية ؛ ومن ثم فإن أية حركة تقوم للقضاء عليها — أيا كانت الأخطاء التى يرتكبها الآدميون الذين يصرفون شئونها — إنما هى خروج على السلطة القدسية وخيانه للدولة الزمنية التى كانت الكنيسة درعها الأخلاقى الواقى . وإذا لم تثبت هذه الفكرة الأساسية فى عقولنا لم نستطع فهم تلك الوحشية التى دفعت رجال الدين وغير رجال الدين إلى الاشتراك معا فى القضاء على دعوة الإلحاد التى أثار عجاجها (حوالى عام ١٣٠٣) دلتشينو النوفارى Dolcino of Novara وأخته الحسناء مرجريتا Margherita .

وقد قسم دلتشينو التاريخ ، كما قسمه يواقيم الفلورى Joachim of Flora إلى فترات شهدت الفترة الثالثة منه الممتدة من عهد البابا سلفستر الأول (٣١٤ — ٣٣٥) إلى ١٢٨٠ فساد الكنيسة بسبب ما كان لها من ثراء دنيوى . ويقول دلتشينو إن البابوات جميعا من أيام سلفستر كانوا غير مخلصين للمسيح إذا استثنينا منهم سلستين الخامس Celestine V وكان الرهبان بندكت ، وفرانسس ، ودمنيك قد بذلوا محاولات نبيلة لتخليص الكنيسة من عبادة المال وإعادتها إلى عبادة الله ، ولكنهم أخفقوا فى هذه

المحاولات ، وأضحت البابوية فى عهد بنيفاس الثامن هى العاهر التى وصفها سفر الرؤيا . وتزعم دلتشينو طائفة جديدة من الإخوان تدعى « إخوان پارما الرسوليين » رفضت سلطان البابوات ، وورثت خليطا من العقائد عن الباتاريِنيين Patarines ، والولدنسيين Weldenses ، والفرنسيس الروحيين . وكانوا يدعون أنهم يلتزمون العفة المطلقة ، ولكن كل واحد منهم كان يعيش مع امرأة يسميها أخته . وأمر كلمنت الخامس محكمة التفتيش أن تحاكمهم ، ولكنهم رفضوا المثول أمامها ، وسلحوا أنفسهم ، واتخذوا موقفهم فى أسفل جبال الألب البيدمنتية . وسيرت محكمة التفتيش عليهم جيشا ، ونشبت بين الجانبين معارك حامية الوطيس ، وانسحب الإخوان إلى ممرات فى الجبال حوصروا فيها حتى نفد طعامهم ؛ فأخذوا يأكلون الفئران والكلاب ، والأرانب البرية ، والكلأ ، ثم هوجم معقلهم الجبلى أخيراً ، وخر ألف منهم قتلى وهم يحاربون ، وحرق منهم عدة آلاف (١٢٠٤) ؛ ولما سيقت مرجريتا إلى مكان الحرق ، كانت لا تزال رائعة الجمال على الرغم من ذبول جسمها ، وبلغ من جمالها أن عرض عليها رجال من ذوى المكانة أن يتزوجوها إذا تخلت عن إلحادها ، ولكنها رفضت تلك العروض وأكلتها النار على مهل . واستبقى دلتشينو وزميل له يدعى لنجينو ليحاكما محاكمة خاصة ، وأركبا عربة طافت بهما ڤرتشلى Vercelli ، وقطع لحمهم جزءاً فجزءا بالكلاليب أثناء هـذا الموكب ، وانتزعت أطرافهما وأعضاء تناسلهما من جسميهما ثم تركا آخر الأمر ليموتا(٣٦) .

ويلذ لنا أن نتحول عن هذه الوحشية إلى ما عكفت عليه المسيحية من بث روح التقوى والصلاح فى نفوس الرجال والنساء . ذلك أن القرن الذى شهد ما حل بأڤنيون من ضروب المحن والفساد أخرج أيضاً مبشرين أمثال چيوڤنى دا مونتى كرڤينو Giovanni da Monte Corvino وأودريك

للبر دينونى Oderic of Pordenene اللذين حاولا أن يهديا الهنود والصينيين إلى الدين المسيحى ؛ ولكن الصينيين كما يقول إخبارى فرنسيسى أصروا على اعتقادهم « الخاطئ بأن فى وسع أى إنسان أن ينجو وهو فى مذهبه(٢٧) » ؛ وكان ما أفاده العالم من هذين المبشرين فى علم الجغرافية أكبر مما أفاده منهما فى شئون الدين » .

وولدت القديسة كترين السينائية ، وعاشت ، وماتت فى غرفة وضيعة لا يزال يؤخذ إليها الزائرون . وساعدت من هـــذه البقعة الصغيرة من الأرض على تحريك البابوية وعلى أن تبث فى أهل إيطاليا من التقوى ما بقى بعد ريناشيتا Rinascita وريزرجمنتو Risorgimento . وانضمت وهى فى الخامسة عشرة من عمرها إلى طائفة التوبة التابعة للقديس دمنيك ؛ وكانت هذه الطائفة منظمة « ثلاثية » لا تتألف من رهبان أو زاهبات ، بل تتألف من رجال ونساء يعيشون كما يعيش أهل الدنيا ، ولكنهم يخصصون حياتهم قدر استطاعتهم لأعمال الدين والبر . وكانت كترين تعيش مع أبويها ، ولكنها جعلت حجرتها أقرب ما تكون إلى خلوة الزهاد ، وانهمكت فى الصلوات والتأملات الصوفية لا تكاد تترك حجرتها إلا للذهاب إلى الكنيسة . وقلق أبواها واضطربا لتفكيرها المتصل فى شئون الدين وخشيا أن يؤثر ذلك فى صحتها ، فكانا يعهدان إليها بأشق أعمال البيت ، ولكنها كانت تؤديها بلا ملل ولا شكوى وتقول : « إنى أخصص فى قلبى ركناً صغيراً ليسوع » (٢٨) . وظلت محتفظة بصفاء كصفاء الأطفال . وبينا كان غيرها من البنات يبحثن عن جميع المباهج ، والشكوك ، والنشوة فى الحب « الدنس » ، كانت هى تبحث عنها وتجدها فى الخشوع للمسيح ؛ وكانت وهى فى عنفوان هذه التأملات المتزايدة أثناء عزلتها تفكر فى المسيح وتتحدث إليه كأنه حبيبها السماوى ، وتتبادل القلب معه ، وترى نفسها فى الرؤى كأنها قد تزوجته ، وأطالت التفكير فى جراح المصلوب

الخمسة ، كما أطال التفكير فيها القديس فرانسس ، حتى كانت تشعر بهذه الجراح في يديها وقدميها وجنبيها . ونبذت كل شهوات البدن ، وكانت ترى فيها وسوسة من الشيطان ، وأساليب خبيثة لحرمانها من ذلك الحب الذي تنهمك فيه وحده .

وقفت ثلاث سنين لا تكاد تنصرف فيها عن وحدتها ونجواها ، أحست بعدها أن في مقدورها أن تخرج آمنة إلى حياة المدينة ، وكما أنها كرست أنوثتها للمسيح ، فقد خصت ما انطوت عليه من حنان الأمهات إلى العناية بالمرضى ، والمعوزين من أهل سينا ؛ فكانت تبقى إلى آخر لحظة مع ضحايا الطاعون ، وتواسي بروحها المحكوم عليهم بالإعدام من المجرمين حتى ينفذ فيهم حكم الإعدام(٢٩) . ولما توفى والداها وتركا لها ميراثاً صغيراً ، وزعته على الفقراء ؛ وكان وجهها ، وإن شوهه الجدري ، نعمة وبركة لكل من شاهدها . وكان الشبان ينبذون ، بكلمة تصدر منها ، ما اعتادوه من تجديف ، كما كان الكبار يستمعون إلى فلسفتها الساذجة الصادقة فتذوب منها شكوكهم . وكان من رأيها أن جميع شرور الحياة إنما هي نتيجة لخبث الإنسان ، ولكن جميع خطايا البشر ستمحى وتزول في بحر حب الله ؛ وستزول شرور العالم كله إذا رضى الناس أن يعتادوا حب المسيح . وآمن كثيرون من الناس بها ؛ وبعثت إليها مونتي بلشيانو Montepulciano تدعوها لتزيل الخصام بين أسرتيها المتعاديتين ؛ وكانت مدينتا بيزا ولوكا تستنصحانها ، ودعتها فلورنس لأن تنضم إلى وفد ترسله إلى أفنيون ، وهكذا استدرجت شيئاً فشيئاً إلى شئون العالم .

وهالها ما شهدته في إيطاليا وفرنسا : فقد رأت رومة قذرة مهجورة ، ورأت إيطاليا وقد انفصلت عن كنيسة هجرتها إلى فرنسا ؛ ورأت رجال الدين وقد فقدوا بحبهم الدنيا احترام غير رجال الدين ؛ ووجدت فرنسا وقد خربت نصفها الحروب ، وحملتها ثقتها برسالتها القدسية على

أن تندد بالمطارنة والأحبار فى وجوههم ، وتقول لهم إن عودتهم إلى رومة وإلى الحياة الصالحة هى وحدها التى يمكن أن تنقذ الكنيسة مما هى فيه ؛ وإذ كانت هى نفسها عاجزة عن الكتابة ، فقد أخذت وهى فتاة فى السادسة والعشرين من عمرها تملى بلغتها الإيطالية البسيطة الرنانة رسائل صارمة ولكنها يسرى فيها الحب تبعث بها إلى البابوات ، والأمراء ، والحكام ، وتكاد تظهر فى كل صفحة من صفحاتها تلك الكلمة التى كانت تنبئ بما سيكون وهى كلمة **الإصلاح** ؛ وأخفقت فى مسعاها مع رجال الحكم ، ولكنها أفلحت مع الشعب . وابتهجت حين جاء إربان الخامس إلى رومة ، وحزنت حين غادرها ، ثم عادت إلى الحياة النشيطة حين جاء إليها جريجورى الحادى عشر ؛ وأسدت النصح الرشيد إلى إربان السادس ، ولكنها روعت من وحشيته ؛ ولما أن مزق انقسام البابوية العالم المسيحى وفرقه شيعتين ، كانت بين الضحايا الأولى لهذا النزاع الذى لامبرر له ؛ ذلك أنها قللت طعامها حتى لم يكن يزيد على بضع لقيمات ، وأوغلت فى النسك إيغالا بلغ من شدته ، كما تقول القصة ، أن كان غذاؤها الوحيد هو الخبز المقدس الذى تتناوله أثناء العشاء الربانى . وكان من أثر هذا أن فقدت قدرتها على مقاومة المرض ، كما أن الانقسام الدينى أفقدها إرادة الحياة ، فانتقلت إلى الدار الآخرة بعد عامين من هذا الانشقاق ، وكانت وقتئذ فى الثالثة والثلاثين من عمرها (١٣٨٠) . ولا تزال حتى اليوم قوة تعمل للخير فى إيطاليا التى كانت تحبها لا تزيد عليها فى ذلك إلا قوة المسيح والكنيسة .

وولد فى ذلك العام نفسه وفى المدينة التى توفيت فيها كثرين القديس برنردينو St. Bernerdino وصاغته وشكلته التقاليد التى خلفتها ، فكان يقضى أيامه ولياليه أثناء الطاعون الذى فشا فى عام ١٤٠٠ فى العناية بالمرضى ؛ ولما انضم إلى طائفة الرهبان الفرنسيس ضرب لهم المثل فى العمل بقوانين الطائفة والتقيد الشديد بها . وحذا كثيرون من الرهبان حذوه ،

وأنشأ من هؤلاء (١٤٠٥) طائفة الفرنسيس الممتثلين Obeervàntine Franciscans أى الإخوان الذين يتقيدون تقيداً صارماً بقوانين تلك الطائفة ؛ وخضعت له قبل موته ثلثمائة من الأديرة .

وخلعت طهارة حياته ونبلها على مواعظه بلاغة لا تستطاع مقاومتها . وكان فى رومة نفسها ، التى كان أهلها أشد خروجاً على القانون من أهل أية مدينة أخرى فى أوربا ، يستدرج المجرمين إلى الاعتراف بجرائمهم ، والخاطئين إلى التوبة من خطاياهم ، والمتخاصمين الذين اعتادوا الخصام إلى أن يجنحوا للسلم . وأقنع برنردينو رجال رومة ونساءها ، قبل أن يحرق سفنرولا الأباطيل فى فلورنس بسبعين عاماً ، أن يلقوا بورق اللعب ، والنرد ، وتذاكر اليانصيب ، والشعر المستعار ، والصور والكتب البذيئة ، وآلاتهم الموسيقية نفسها ، فى كومة كبيرة جنازية على الكبتول حيث أشعلت فيها النار (١٤٢٤) . وأحرقت بعد ثلاثة أيام من ذلك العمل وفى الميدان نفسه فتاة اتهمت بالسحر ، واحتشدت رومة على بكرة أبيها لتشاهد المنظر[٣١] . وكان القديس برنردينو نفسه « من أشد الناس اضطهاداً للإلحاد إرضاء لضميره » .

وهكذا اختلط الطيب والخبيث ، والجميل والمروع القبيح ، فى تيار الحياة المسيحية وفوضاها . وظلت الجماهير الساذجة من أهل إيطاليا قانعة بحالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى راضية عنها ؛ أما الطبقتان الوسطى والعليا ، وقد كادت تسكرهما خمرة الثقافة القديمة التى طال اختزانها فى البلاد ، فقد كان أفرادهما يغدون ويروحون تملأ أعطافهم الروح المتحمسة النبيلة لخلق النهضة والإنسان الحديث .

الكتاب الثانى

النهضة الفلورنسية

١٣٧٨ — ١٥٣٤

الباب الثالث

نشأة آل ميديتشى

١٣٧٨ – ١٤٦٤

الفصل الأول

مسرح الحوادث

أطلق الإيطاليون على هذا النضوج اسم الرناشيتا **la Rinascita** أى المولد الجديد لأنه بدا لهم بعثا مظفرا للروح القديمة بعد أن وقفت البربرية فى سبيلها مدى ألف عام(*) . ذلك أن الإيطاليين كانوا يشعرون بأن العالم الرومانى القديم قد قضت عليه غارات الألمان والهون فى خلال القرن الثالث ، والرابع ، والخامس حين قضت يد القوط الثقيلة على زهرة الفن الرومانى والحياة الرومانية ، وهى الزهرة التى كانت لاتزال جميلة وإن كانت آخذة فى الذبول . وكان الفن « القوطى » قد كرر هذا الغزو فى صورة فن من فنون العمارة مزعزع غير مستقر ، غريب الزخرف ، وفى صورة نحت خشن ، فج ، مكتئب ، يمثل الأنبياء الصارمين ، والقديسين والمزيلى الأجسام . أما الآن فقد كان من نعم الزمان أن امتص الدم الإيطالى

(*) كان ڤاسارى **Vasari** « فى كتابه الحياة النشيطة لفنون العمارة والتصوير والنحت الممتازة » (١٥٥٠) هو الذى ثبت استعمال لفظ **Rinascita** ؛ وكانت الموسوعة الفرنسية التى صدرت بين عامى ١٧٥١ و١٧٧٢ هى التى استعملت لأول مرة وبصفة قاطعة واضحة لفظ **Renaissance** للدلالة على ازدهار الآداب والفنون فى القرن الرابع عشر ، والقرن الخامس عشر ، والقرن السادس عشر .

الغالب القوى ، أولئك القوط الملتحين واللمبارد « الطوال اللحى » ؛ وبفضل ڤتروڤيوس Vitruvius وخرائب السوق الرومانية ، أقيمت من العمد القديمة ، وطيلاتها أضرحة وقصور مهيبة وقورة ، وبفضل پترارك ومائة غيره من العلماء الطليان أخذت الآداب القديمة التى كشفت كشفه جديداً تعبر الأدب الإيطالى مصطلحات نثر شيشرون النقى الخالص ودقته ، وموسيقى شعر فرچيل الرخيمة المطربة . وقدر لشمس الروح الإيطالى أن يخترق ضياؤها ضباب الشمال ، وأن يفر الرجال والنساء من الخوف الذى سجنت فيه أرواحهم أثناء العصور الوسطى ، وأن يعبدوا الجمال على اختلاف أشكاله ، وأن يملأوا الجو ببهجة البعث الجديد ، وأن تعود إيطاليا فتية مرة أخرى .

ولقد كان الرجال الذين يتحدثون هذا الحديث قريبين من ذلك الحادث الجلل قربا لا يستطيعون معه أن يبصروا « المولد الجديد » فى ملابساته التاريخية أو يتبينوا عناصره المختلفة المحيرة . ولكن النهضة كانت تتطلب أكثر من إحياء القديم ، كانت تتطلب أولا وقبل كل شيء المال — مال الطبقات الوسطى الرأسمالية العطن المتجمع من مكاسب المديرين الماهرين ، والعمال المنخفضى الأجور ؛ وكانت تتطلب رحلات تكتنفها الأخطار إلى بلاد الشرق ، وجهودا مضنية لعبور جبال الألب لشراء السلع رخيصة وبيعها غالية ؛ وتتطلب دقة وعناية فى الحساب ، والاستثمار ، والقروض ؛ وفوائد للأموال وأرباحاً للمساهمين فى المشروعات تتراكم حتى يتبقى منها بعد النفقات الخاصة ، وبعد شراء أعضاء مجالس الشيوخ والأمراء ، والعشيقات ، ما يكفى لأن يحول ميكل أنچيلو ، وتيشيان المال إلى جمال ، ويعطرا الثراء بشذى أنفاس الفن . ذلك أن المال أصل كل حضارة . وفى هذه النهضة بالذات كانت أموال التجارة ، ورجال المصارف ، والكنيسة ، تؤدى منها أثمان المخطوطات التى أحيت العهد القديم : على أن هذه المخطوطات لم تكن هى التى حررت عقل النهضة وحواسها ،

بل كان الذى حررهما هو النزعة الزمنية غير الدينية التى انبعثت من نشأة الطبقات الوسطى ؛ وقيام الجامعات ، وانتشار العلم والفلسفة ، وما أثمرته دراسة القانون من تقوية الأذهان وتوجيهها وجهة واقعية ، وما أدى إليه ازدياد العلم بالعالم من اتساع أفق العقل ومجاله . وارتاب الإيطالى المتعلم فى قواعد الكنيسة التعسفية ، ولم يعد يرهبه الخوف من نار الجحيم ، ورأى رجال الدين منهمكين فى ملاذ الدنيا انهماك غيرهم من الناس ، فحطم ذلك الإيطالى المتعلم الأغلال العقلية والخلقية ؛ وتحررت حواسه من تلك القيود ، فابتهجت فى غير حياء بكل ما يمثل الجمال فى المرأة ، والرجل ، والفن ؛ وجعلته هذه الحرية الجديدة مبدعا خلاقا خلال قرن من الزمان عجيب (١٤٣٤ — ١٥٣٤) . قبل أن يقضى عليه بما انتشر فيه من فوضى أخلاقية ، ونزعة فردية انحلالية ، واسترقاق قومى ؛ وكانت الفترة الواقعة بين العهدين هى **النهضة** .

ترى لم كان شمالى إيطاليا أول الأقاليم التى شهدت هذه اليقظة المزدهرة ؟ الجواب عن هذا أن العالم الرومانى لم يكن قد قضى عليه فى هذا الجزء قضاء تاما ، بل ظلت البلدان محتفظة فيه بكيانها القديم وذكرياتها القديمة ، وأخذت وقتئذ تجدد قانونها الرومانى . وكان الفن القديم قد بقى حيا فى رومة ، وفيرونا ، ومانتوا ، وبدوا ؛ وكان مجمع الآلهة الذى أقامه أجربا Agrippa لايزال يتخذ مكانا للعبادة ، وإن كان قد مضى عليه أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفى السوق العامة يكاد الإنسان يسمع شيشرون وقيصر يتناقشان فى مصير كاتلين Catiline : كذلك كانت اللغة اللاتينية لاتزال لغة حيـــة ، ليست اللغة الطليانية إلا لهجة منها مرخمة ؛ وبقيت الأرباب ، والأساطير ، والطقوس الوثنية ، ماثلة فى ذاكرة الجماهير ، أو قائمة فى صور مســيحية وإيطالية تعترض البحر المتوسط ، وتشرف على حوضه الذى قامت فيه الحضارة والتجارة القديمتان . كذلك كان

شمالى إيطاليا أكثر مدنا وحواضر واشتغالا بالصناعة من أى إقليم آخر فى أوربا إذا استثنينا إقليم فلاندرز ، ولم يعان هذا الإقليم من النظام الإقطاعى الكامل ما عاناه غيره من الأقاليم الأوربية ، بل إنه أخضع أشرافه إلى مدنه وإلى طبقة التجار فيه . وكان هو الطريق الذى تنتقل فيه التجارة بين بقية إيطاليا وأوربا الواقعة وراء جبال الألب ، وبين أوربا الغربية وشرق البحر المتوسط ؛ وقد جعلته تجارته وصناعته أغنى إقليم فى العالم المسيحى قاطبة . وكان تجاره المخاطرون يشاهدون كل مكان من أسواق فرنسا إلى أبعد ثغور البحر الأسود ؛ وقد اعتادوا معاملة اليونان ، والعرب ، واليهود ، والمصريين ، والفرس ، والهنود ، والصينيين والاختلاط بهم ، ففقدوا حدة عقائدهم التحكمية ، ونقلوا إلى الطبقات المتعلمة فى إيطاليا ذلك التهاون فى العقائد ، الذى نشأ بعدئذ فى أوربا خلال القرن التاسع عشر من الاتصال المتزايد بالأديان الأجنبية . بيد أن حكمة التجار قد اجتمعت مع التقاليد القومية والمزاج والكبرياء القوميين لإبقاء إيطاليا كاثوليكية حتى فى الوقت الذى كانت فيه وثنية . وأخذت الأموال البابوية تنساب إلى رومة من ألف سبيل واردة من عشرات الضياع المسيحية ، وفاضت أموال البابا على جميع أنحاء إيطاليا ؛ وكافأت الكنيسة ولاء إيطاليا بالتسامح الكريم عن خطايا الجسد والتسامح الطيب (قبل مجلس ترنت الذى عقد فى عام ١٥٤٥) مع الفلاسفة الملحدين الذين يمتنعون عن تقويض تقى الشعب . ولهذه الأسباب كلها سبقت إيطاليا فى الثروة والفن ، والتفكير ، بقية أوربا بمائة عام ، ولم تزدهر النهضة فى فرنسا ، وألمانيا ، وهولندة وإنجلترا ، وأسبانيا إلا فى القرن السادس عشر حين أخذت النهضة تزول من إيطاليا . ذلك أن النهضة لم تكن فترة من الزمان ، بل أسلوبا من أساليب الحياة والفكر يسير من إيطاليا إلى سائر أوربا متبعا طرق التجارة ، والحرب ، والأفكار .

واتخذت النهضة موطنها الأول فى فلونس لنفس الأسباب التى جعلت

مولدها فى شمالى إيطاليا . ذلك أن فيورنسا Fiorenza — أى مدينة الأزهار — كانت فى القرن الرابع عشر أغنى مدائن شبه الجزيرة الإيطالية ما عدا البندقية ، وذلك بفضل تنظيم صناعتها ، واتساع نطاق تجارتها ، وأعمال رجال المـــال فيها . غير أنه بينا كان البنادقة فى ذلك الوقت . يبددون جهودهم كلها تقريبا فى الجرى وراء اللذة والثروة ، كان الفرنسيون يزدادون حدة فى العقل ، وقوة فى الذكاء ، وحذقا فى كل فن ، فجعلوا بذلك مدينتهم باعتراف الناس جميعا عاصمة إيطاليا الثقافية . ولعل نظامها الشبه الدمقراطى المضطرب كان من بواعث هذا الرقى . ذلك أن النزاع القائم بين الأحزاب المختلفة قد رفع حرارة الحياة والتفكير ، فأخذت الأسر المتنافسة ينازع بعضها بعضا فى رعاية الأدب كما كانت تتنازع على السلطان . وحدث آخر بواعث هذا الرقى — لا أولها — حين عرض كوزيمو ده ميديتشى Cosimo de, Medici مصادر ثروته وغيرها من الأموال والقصور لإيواء مندوبى مجلس فلورنس واستضافتهم (١٤٣٩) . وكان الأحبار والعلماء اليونان الذين جاءوا إلى هذا المجلس ليبحثوا فى إعادة الوحدة بين المسيحية الشرقية والغربية يعرفون من الأدب اليونانى أكثر مما يعرفه أى رجل فى فلورنس فى ذلك الوقت . وأخذ بعضهم يحاضر فى فلورنس ، وهرعت الصفوة الممتازة من أهل المدينة للاستماع إليهم . ولما أن سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك غادرها كثيرون من اليونان ليتخذوا مقامهم فى المدينة التى وجدوا فيها حسن الضيافة قبل أربعة عشر عاما من ذلك الوقت . وحمل كثيرون معهم المخطوطات القديمة ، وأخذ بعضهم يلقى المحاضرات فى اللغة اليونانية أو فى شعر اليونان وفلسفتهم . وهكذا نشأت النهضة فى فلورنس بعد أن تجمعت فيها أسبابها من ســبل كثيرة عظيمة الأثر ، وأضحت هذه المدينة بذلك أثينة إيطاليا .

الفصل الثانى

الأساس المادى

كانت فلورنس فى القرن الخامس عشر دولة — مدينة لا تحكم مدينة فلورنس وحدها ، بل تحكم معها (إلا فى فترات قليلة) مدن پراتو Prato ، وپستويا Pistoia ، وپيزا وفلتيرا Volterra ، وكرتونا Cortona وأردسو Arezzo والأراضى الزراعية الواقعة خلف هذه المدن : ولم يكن الفلاحون أرقاء أرض ، بل كان بعضهم من صغار الملاك ، وكانت كثرتهم من المستأجرين ، يسكنون بيوتا من الحجارة الملتصقة بالأسمنت بطريقة خشنة ولا تفترق كثيراً عن بيوتهم فى هـــذه الأيام ، وكانوا يختارون بأنفسهم موظفى قراهم ليصرفوا شئونهم المحلية . ولم يكن مكيفلى يرى حطة فى التحدث إلى هؤلاء « الفرسان » الشداد ، فرسان الحقل ، والبستان ، والكرمة ؛ ولكن كبار الحكام فى المدن كانوا ينظمون شئون البيع والشراء ، ويعملون على استرضاء العمال بخفض أثمان الطعام إلى الحد الذى يسبب البؤس للفلاحين ؛ ومن أجل ذلك زاد النزاع القائم بين الريف والمدينة من حـــدة الأحقاد القائمة بين الطبقات المتعادية التى تضمها أسوار المدينة .

ويقول ڤلانى إن مدينة فلورنس نفسها كانت تضم فى عام ١٣٤٣ حوالى ٩١,٥٠٠ من الأنفس ؛ وليس لدينا تقدير لسكانها فى سنى النهضة المتأخرة نستطيع أن نثق به كما نثق بتقدير ڤلانى ، ولكن فى مقدورنا أن نفترض أن سكانها قد ازدادوا بسبب اتساع نطاق التجارة وازدهار الصناعة . وكان نصف سكان المدينة من المشتغلين بالصناعات ، وكانت صناعات النسيج وحدها تضم فى القرن الثالث عشر ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء يعملون فى مائتى

مصنع[١] ، ونال فردريجو أريتشيلارى Frederigo Oricellarii لقبه هذا لأنه جاء معه من بلاد الشرق بصبغة بنفسجية (أركيلا Orchella) . وقد أحدث استخدامها انقلاباً فى صناعة الصباغة ، وكسب من ورائها بعض صناع الأقمشة الصوفية مكاسب لو كانت لهم فى هذه الأيام لعدوا من أصحاب الملايين . وكانت فلورنس قبل أن يحل عام ١٣٠٠ قد وصلت إلى مرحلة الاستثمار الكبير الرأسمالى ، وإيجاد مراكز لإمدادها بالمواد الخام والآلات ، وتوزيع العمل توزيعاً منظما ، والإشراف على الإنتاج من قبل أصحاب رءوس الأموال . وكان الثوب الصوفى فى عام ١٤٠٧ يمر بثلاثين عملية يقوم بكل منها صانع تخصص فيها[٢] .

وكانت فلورنس تعمل لترويج منتجاتها بتشجيع تجارها على إنشاء علاقات تجارية مع جميع ثغور البحر المتوسط والثغور القائمة على شاطئ البحر الأدرياوى حتى مدينة بروج . وكان لها قناصل فى إيطاليا ، وجزائر البليار ، ومصر ، وقبرص ، والقسطنطينية ، وبلاد الفرس ، والهند ، والصين لحماية تجارتها وتوسيع نطاقها . وكان لا بد لها من الاستيلاء على بيزا لتكون مخرجاً لا غنى عنه لبضائع فلورنس المتجهة إلى البحر ، وكانت تستأجر لنقلها سفن جنوى . وكانت المنتجات الأجنبية المنافسة لمصنوعات فلورنس تمنع من دخول أسواق هذه المدينة بفرض الضرائب الحامية عليها من حكومة يديرها التجار وأصحاب المال .

وكانت بيوت فلورنس المصرفية البالغ عددها ثمانين بيتاً — وأشهرها بيوت باردى Bardi ، واستر تسى Strozzi ، وبتى Pitti ، وبنديتشى — كانت هذه البيوت تستثمر مدخرات عملائها المودعين أموالهم فيها . وكانت تقبض الصكوك (Polizze)[٣] ، وتصدر خطابات الائتمان (Lettere di pogamenti)[٤] وتتبادل المتاجر كما تتبادل الائتمان[٥] ، وتمد الحكومات الأموال التى تحتاجها لشئون السلم والحرب : وقد أقرضت بعض البيوت

المالية الفلورنسـية إدورد الثالث ملك إنجلترا ١,٣٦٥,٠٠٠ فلورين (٣٤,١٢٥,٠٠٠ ؟ دولار أمريكى) فلما عجز عن الوفاء أفلست هذه البيوت (١٣٤٥) . إلا أن فلورنس أضحت من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر العاصمة المالية لأوربا على الرغم من هذه الكارثة ، فيها تحدد أسعار تبادل النقد بين مختلف الدول الأوربية[٧] . ونشأ منذ ذلك الزمن البعيد وهو عام ١٣٠٠ نظام للتأمين يهدف إلى حماية بضائع إيطاليا أثناء نقلها بحراً — وذلك احتياط لم تتبعه إنجلترا حتى عام ١٥٤٣[٨] . وتظهر طريقة القيد المزدوج فى إمساك الدفاتر (طريقة الدوبيا) فى سجل حسابات فلورنسى يرجع إلى عام ١٣٨٢ ؛ وأكبر الظن أن هذه الطريقة كان قد مضى على وجودها فى فلورنس ، والبندقية ، وجنوى فى ذلك العام قرن كامل من الزمان[٩] ؛ وأصدرت حكومة فلورنس فى عام ١٣٤٥ قراطيس مالية قابلة للتحويل ، ويمكن تبديلها ذهباً ، وكانت هذه القراطيس ذات سعر منخفض لا يزيد على خمسة فى المائة ، وهذا الانخفاض فى حد ذاته دليل على ما كانت تستمتع به المدينة من سمعة طيبة خاصة برخائها وسلامتها التجارية . وليس أدل على هذا من أن إيراد الحكومة فى عام ١٤٠٠ كان أعظم من إيراد حكومة إنجلترا فى عهد الملكة إلزبث الزاهر .

وكان رجال المصارف ، والتجار ، والصناع ، وأصحاب المهن ، والعمال الماهرون ينتظمون فى سبع طوائف ، وكان فى فلورنس سبع من هذا النوع تعرف بالطـوائف الكبرى (Arti Maggiori) وهى طوائف صانعى الملابس ، وصانعى الصوف ، وصانعى المنسوجات الحريرية ، وتجار الفراء ، ورجال المال ، والأطباء ، والصيادلة . أما الطوائف الأربع عشرة الباقية من طوائف فلورنس أو الطوائف الصغرى Arti Minori فكانت طوائف بائعى الملابس ، والجوارب ، والقصابين ، والخبازين ، وبائعى الخمور ، والأساكفة ، وصانعى السروج ، وصانعى الدروع ، والحدادين ، وصانعى

الأقفال ، والنجارين ، وأصحاب الفنادق ، والبنائين ، وقاطعى الأحجار ، وخليط مجتمع من بائعى الزيوت ، ولحم الخنزير ، وصانعى الحبال . وكان من واجب كل ناخب أن يكون عضواً فى إحدى هذه الطوائف ، وانضم إليها النبلاء الذين حرمتهم ثورة الطبقة الوسطى فى عام ١٢٨٢ من حقوقهم الانتخابية ، وكان الباعث على انضمامهم إليها أن يكون لهم من جديد صوت فى الانتخابات . وكان يلى هذه الطوائف الواحدة والعشرين اثنان وسبعون اتحاداً من العمال الذين لا أصوات لهم ، ومن تحت هذه الاتحادات آلاف من عمال المياومة الذين حرم عليهم الانتظام فى جماعات ، والذين كانوا يعيشون فى فقر مدقع ؛ ومن تحت هؤلاء أيضاً — أو قل من فوقهم لأنهم كانوا يلقون من أسيادهم عناية أكبر — عدد قليل من الأرقاء . وكان أعضاء الطوائف الكبرى يكونون من الناحية السياسية من يسمونهم « البُدن » أو « ذوى الطعام الجيد » ، أما من بقى من الأهلين فكانوا يكونون « صغار الناس » (Popolo minuto) . وكان تاريخ فلورنس السياسى ، كتاريخ الدول الحديثة ، يتألف أولا من انتصار طبقة رجال الأعمال على طبقة الأشراف القدماء (١٢٩٣) ، ثم يليه كفاح « طبقة العمال » للفوز بالسلطان السياسى .

وأعدم تشنتو برنديني Cinto Bradini وتسعة رجال آخرون فى عام ١٣٤٥ لأنهم نظموا فقراء العمال فى صناعة الصوف ، وجىء بعمال أجانب لتحطيم هذه الاتحادات[١٠] وحاول « صغار الناس » فى عام ١٣٦٨ أن يقوموا بثورة ، ولكن ثورتهم أخمدت ؛ وبعد عشر سنين من ذلك الوقت حدثت فتنة **مشطى الصوف** التى جعلت لطبقات العمال السيطرة على البلدية فترة قصيرة عصيبة . وتفصيل ذلك أن عاملا حافى القدمين يدعى ميتشيلى دى لاندو Michele di Lando قاد هؤلاء المشطين واندفع بهم إلى البلاتسو فيتشيو Palazzo Vecchio وطردوا كبار الموظفين ، وأقاموا مكانهم دكتاتورية العمال (١٣٧٨) . وألغيت حينئذ القوانين التى تحرم

إنشاء الاتحادات ، ومنحت الاتحادات الصغرى حق الانتخاب . وأجل أداء ما على الأجراء من ديون مدة اثنتى عشرة سنة ، وخفضت فوائد هذه الديون ليخفف بذلك العبء على الطبقات المدينة . ورد زعماء العمال على هذا بأن أغلقوا حوانيتهم ، وأغروا ملاك الأراضى بقطع الطعام عن المدينة . وضايق ذلك الثوار فانقسموا حزبين أحدهما يتألف من أرستقراطية العمال وقوامه الصناع الحاذقون ، وثانيهما « جناح يسارى » تدفعه إلى العمل آراء شيوعية ، وانتهى الأمر بأن جاء المحافظون برجال أشداء من الريف ، وسلحوهم ، وقلبوا الحكومة المنقسمة على نفسها ، وأعادوا السلطة إلى طبقة أصحاب الأعمال (١٣٨٢) .

وعدل أصحاب الأعمال المنتصرون الدستور ليقووا بذلك مركزهم ويجنوا ثمار نصرهم . فألفوا السنيوريا Signoria (أو المجلس البلدى المكون من السنيورى Signori أو السادة) من ثمانية من زعماء الطوائف priori delle arti يختارون بالقرعة بسحب أوراق من أكياس توضع فيها بعد أن تكتب عليها أسماء الصالحين لأن يختاروا إلى تلك المناصب . فإذا تم اختيار أولئك الثمانية ، انتخبوا هم واحداً من بينهم ليكون رئيساً للسلطة التنفيذية ويسمى **حامل لواء العدالة** gonfaloniere di giustizia أو منفذ القانون ؛ وكان لا بد أن يختار أربعة من الزعماء الثمانية من أعضاء الطوائف الكبرى مع أن هذه الطوائف لم تكن تضم إلا أقلية صغيرة من الذكور البالغين . كذلك كان لا بد من وجود هذه النسبة بعينها فى **مجلس الشعب الاستشارى** Consiglio del Popolo . على أننا يجب أن نذكر هنا أن كلمة Popolo لم يكن يقصد بها إلا أعضاء الطوائف الواحدة والعشرين . أما أعضاء **مجلس البلدية** Consiglio del Comune فكانوا يختارون من بين أعضاء النقابات على اختلاف أنواعها ، ولكن اختصاصه لم يكن يزيد على أن يجتمع حين

يدعوه مجلس الحكام ، وأن يقترع بالإيجاب أو النفى على ما يعرضه عليه الزعماء من اقتراحات . وكان الزعماء يدعون فى أحوال نادرة برلمانا Parlamento يجتمع فى ميدان الرياسة بأن يقرعوا الناقوس الكبير المعلق فى برج قصر ڤيتشيو . وكانت هذه الجمعية العامة تختار فى العادة لجنة من المصلحين Balia وتمنحها السلطة العليا فترة محددة من الوقت ، ثم ينفض اجتماعها .

ولقد وقع أحد المؤرخين من رجال القرن التاسع عشر فى غلطة كريمة حين خلع فى كتابه على فلورنس درجة من الحكم الدمقراطى لم يكن لها قط وجود فى هذه الجنة البلوتوقراطية . ونقول إن هذه الدرجة من الدمقراطية لم يكن لها وجود لأن المدن الخاضعة لفلورنس لم يكن لها رأى فى اختيار السادة الذين يحكمون المدينة وإن كانت هذه المدن غنية بالعباقرة ، وإن كانت تفخر بتراثها الماضى المجيد . وكان حق الاقتراع فى فلورنس مقصوراً على ٣٢٠٠ من الذكور ، وكان ممثلو رجال الأعمال فى المجلسين أقلية يندر أن يتحداها أحد[11] . ذلك أن الطبقات العليا لم يكن يخالجها شك فى أن الجماهير الأمية الجاهلة ، عاجزة عن أن تصدر حكماً صحيحاً سليما يتفق مع مصلحة الجماعة فى الأزمات الداخلية أو الشئون الخارجة . لقد كان الفلورنسيون يحبون الحرية ، ولكن كان معنى الحرية عند الفقراء حرية السادة الفلورنسيين فى أن يحكموهم ، وكان معناها عند الأغنياء حريتهم فى أن يحكموا المدينة والبلدان التابعة لها دون أن تقف فى سبيلهم عوائق من قبل الإمبراطورية ، أو البابوية ، أو الإقطاع .

وكان من عيوب هذا الدستور التى لا يستطيع أن ينكرها أو يجادل فيها قصر المدة التى يحتفظ فيها الحكام بمناصبهم ، وما يحدث فى هذا الدستور نفسه على الدوام من تغيرات . وقد ترتب على هذين العيبين قيام الأحزاب ، وتدبير المؤامرات ، وأعمال العنف ، والاضطراب ،

ونقص الكفاية ، وعجز الجمهورية عن أن تضع وتنفذ السياسة الثابتة الطويلة الأجل الشبيهة بتلك السياسة التى أدت الى استقرار الأمور فى البندقية وإلى زيادة قوتها . أما النتيجة الطيبة فكانت خلق جو مكهرب من النزاع والنقاش ، زاد من حيوية الأهلين ، وقوة إحساسهم ، وعقلهم ، وذكائهم وأثار خيالهم ، وجعل فلورنس مدى قرن من الزمان الزعامة الثقافية للعالم الغربى .

الفصل الثالث

كوزيمو « أبو البلاد »

كانت السياسة فى فلورنس هى الصراع بين الأسر الغنية بعضها وبعض — الريتشى Ricci ، والألبـــدسى Albizzi ، والـ[illegible] ، والريدلفى Ridolfi ، والبتسى Pazzi ، والبتى Pitti ، والاســـترتسى Strozzi ، والروتشيلاى Rucellai ، والڤالورى Valori ، والكبونى Capponi ، والسودرينى Soderini — للسيطرة على الحكم . وقد احتفظت أسرة الألبتسى بسلطانها الأعلى فى الدولة فيما بين عامى ١٣٨١ و ١٤٣٤ ، إذا استثنينا بعض فترات مختلفة ، وحمت بشجاعتها أغنياء المدينة من فقرائها .

وفى وسعنا أن نتتبع تاريخ آل ميديتشى من عام ١٢٠١ ، حين كان كيارسيمو ده ميديتشى Chiarissimo de'Medici عضواً فى المجلس البلدى(*) للمدينة المستقلة . وكان أڤرار دوده ميدتشى Averado de'Medici جدّ جدّ كوزيمو هو الذى أفاء على الأسرة ثراءها العظيم بأعماله التجارية الجريئة والمالية الحكيمة ، ولذلك اختير حامل شعار المدينة فى عام ١٣١٤ . واختير سلڤسترو د ميديتشى Salvestro de'Mepici ابنُ ابن أخى أڤراردو حاملا لشعار المدينة فى عام ١٣٧٨ ، وهو الذى جمع قلوب أهلها على حب

(*) ولا يزال أصل اسم هذه الأسرة يكتنفه الغموض ؛ وليس ثمة ما يثبت أنهم كانوا أطباء ؛ وإن لم يكن بعيداً أنهم انضموا فى يوم من الأيام إلى إحدى الطوائف الطبية حسب الطريقة غير الدقيقة التى كانت متبعة فى تحديد أنواع الطوائف بمدينة فلورنس . ولسنا نعرف كذلك معنى شعار الأسرة الذائع الصيت المكون من ست كرات حمراء مرسومة على أرضية من الذهب . ولقد أصبحت هذه الكرات بعد أن خفض عددها إلى ثلاث رمز مقرضى النقود على رهون بعد ذلك الوقت .

تلك الأسرة بمناصرته قضية الفقراء الثائرين . وعمل چيوڤني دي بتشي ده ميديتشي Csiovanni di Bicci de' Medic ابن ابن أخي سلفسترو ، وحامل شعار المدينة في عام ١٤٢١ على زيادة تعلق أهل المدينة بالأسرة بتأييده فرض ضريبة سنوية قدرها ½٪ على الدخل قدرت بسبعة في المائة من رأس مال الممول (١٤٢٧) ، وإن كانت هذه الضريبة عبئاً باهظاً عليه . فلما فعل ذلك أقسم الأغنياء ، الذين كانوا يؤدون فرضة الرءوس بالقدر الذي يؤديه الفقراء ، أن يثأروا لأنفسهم من آل ميديتشي .

وتوفي چيوڤني دي ميديتشي في عام ١٤٢٨ وترك لابنه كوزيمو اسماً رفيعاً وأكبر ثروة في بلاد تسكانيا — ١٧٩,٢٢١ فلورينا (٤,٤٨٠,٥٢٥ ؟ دولاراً)(١٣) . وكان كوزيمو قد بلغ وقتئذ التاسعة والثلاثين من عمره ، وأصبح خليقاً بأن يواصل مغامرات المؤسسة الواسعة النطاق . ولم تكن هذه الأعمال مقصورة على الشئون المصرفية ، بل كانت تشمل إدارة ضياع واسعة ، ونسج الحرير والصوف ، والقيام بتجارة متنوعة تربط الروسيا بأسپانيا واسكتلندة ببلاد الشام ، والإسلام والمسيحية . ولم يكن كوزيمو وهو يشيد الكنائس في فلورنس يرى شيئاً من الإثم في عقد الاتفاقات التجارية ، وتبادل الهدايا الغالية ، مع سلاطين الأتراك . وكانت الشركة تحرص بنوع خاص على أن تستورد من بلاد الشرق السلع الصغيرة الحجم الكبيرة القيمة كالتوابل ، واللوز ، والسكر ، وتبيعها هي وغيرها من الغلات في عشرات من الثغور الأوربية .

وكان كوزيمو يدير هــذه الأعمال بمهارة وهدوء ، ويجد بعد ذلك متسعاً من الوقت للاشتغال بالسياسة ، فكان عضواً في الريتشي أو مجلس العشرة الحربي ، وقاد فلورنس من نصر إلى نصر ضد لوكا Lucca ، وكان بوصفه من رجال المصارف المالية يقرض الحكومة الأموال الطائلة لتمويل الحرب . وأثار التفاف قلوب الشعب حوله حسد غيره من كبراء فلورنس

له ، فاتهمه رينلدو دجلى ألبيتسى Rinaldo degli Albizzi فى عام ١٤٣٣ بأنه يعمل لقب حكومة الجمهورية والانفراد بحكمها حكماً دكتاتورياً ، وأقنع رينلدو برناردو جوادينى Bernardo Guadagni ، وكان وقتئذ حامل شعار المدينة ، أن يأمر بالقبض على كوزيمو ؛ فأسلم كوزيمو نفسه واعتقل فى قصر ڤيتشيو . ولما كان رينلدو يسيطر بأتباعه المسلحين على البارلمنتو المنعقد فى ميدان دلاسفيورى ، فقد بدا أن حكم الإعدام وشيك الصدور من هذه الهيئة . ولكن كوزيمو استطاع أن ينفح برناردو بألف دوقة من المال (٥,٠٠٠ دولار ؟) أصبح بعدها على حين غفلة أكثر رحمة وإنسانية ، ورضى أن يكتفى بنفى كوزيمو ، وأولاده ، وكبار أنصاره من المدينة مدة عشر سنين(١٤) . وأقام كوزيمو فى مدينة البندقة واكتسب فيها بفضل تواضعه وثرائه كثيرين من الأصدقاء ، وسرعان ما أخذت حكومة البندقية تستخدم نفوذها للعمل على عودته إلى بلده . وكان مجلس حكام فلورنس الذى انتخب فى عام ١٤٣٤ يميل إلى استدعائه ، فأصدر حكمه بإلغاء قرار النفى ، وعاد كوزيمو ظافراً ، وفر رينلدو وأبناؤه من المدينة .

واختار المجلس حكومة جديدة ومنحها السلطة العليا فى المدينة . وخدم كوزيمو ثلاث دورات قصيرة ثم تخلى بعدها عن جميع المناصب السياسية . وقال فى ذلك : « إن اختيار الإنسان للمناصب كثيراً ما يضر بالجسم وبالنفس معاً »(١٥) ، وإذ كان أعداؤه قد غادروا المدينة فإن أصدقاءه لم يجدوا أية صعوبة فى السيطرة على الحكومة ، وأفلح هو بقوة الحجة أو بالمال أن يستبقى أصدقاءه فى مناصبهم إلى آخر حياته دون أن تتزعزع أشكال الحكم الجمهورى ، ذلك أنه نال تأييد الأسر ذات النفوذ القوى ، أو أرغمها على تأييده بما كان يمنحها من القروض ، وأن عطاياه السخية لرجال الدين ضمنت له تحمسهم فى مساعدته ، وأعماله الخيرية العامة التى لم يكن لها من قبل مثيل فى اتساع نطاقها وسخائها جمعت قلوب المواطنين فى غير صعوبة على الرضا بحكمه . وكان من أسباب رضاهم ما تبينوه من أن

دستور الجمهورية لا يحميهم من أهل الثراء ، وقد انطبع هذا الدرس انطباعاً قوياً فى ذاكرة الشعب بعــد هزيمة الكيومبى . فإذا كان لا بد للجماهير من أن تختار بين آل ألبتسى الذين يناصرون الأغنياء وآل ميديتشى المناصرين للطبقات الوسطى والفقراء ، فإنه لم يطل ترددها فى هذا الاختيار . ومن أجل هذا فإن الشعب الذى أرهقه سادته الأغنياء ، وذاق الأمرين من التحزب والانقسام ، رحب بالدكتاتورية فى فلورنس عام ١٤٣٤ ، وفى بروچيا عام ١٣٨٩ ، وفى بولونيا عام ١٤٠١ ، وفى سينا عام ١٤٧٧ ، وفى رومة عامى ١٣٤٧ و ١٩٢٢ . ويقول ڤلافى إن « آل ميديتشى استطاعوا أن يحرزوا السيطرة على المدينة باسم الحرية ، وبتأييد أعضاء طوائف الحرف والجماهير »[١٦] .

واستخدم كوزيمو سلطانه باعتدال ودهاء يمتزج بهما العنف فى بعض الأحيان . ومن أمثلة هذا العنف أنه لما ارتاب أصدقاؤه فى أن بلداتشيو دنجيارى Baldaccio d' Anghiari كان يحبك مؤامرة للقضاء على سلطان كوزيمو ، ألقى هؤلاء الأصدقاء ببلداتشيو من نافذة عالية علوا يكفى للقضاء عليه ، ولم يجد كوزيمو فى هذا العمل سبباً للشكاية ، فقد كان من أقواله الساخرة أن « الدول لا تحكم بالأدعية والصلوات » . وقد استبدل بضريبة الدخل الموحدة ضريبة تصاعدية على رأس المال ، واتهم بأنه قد حدد مقادير هذه الضريبة ليميز بذلك أصدقاءه ، ويلقى العبء على أعدائه . وقد بلغ مجموع هذه الأعباء ٤٫٨٧٥٫٠٠٠ فلورين (١٢١٫٨٧٥٫٠٠٠ دولار) فى السنين العشرين الأولى من سيطرة كوزيمو . وكان الذين يحاولون التملص منها يزجون فى السجون على الفور . وغادر المدينة كثيرون من الأشراف ، وعاشوا فى الريف معيشة نبلاء العصور الوسطى ، وقبل كوزيمو خروجهم منها بهدوء واطمئنان ، وقال إن أشرافا جدداً يمكن خلقهم ببضعة أشبار من القماش الأرجوانى[١٧] .

وتبسم الناس من قوله هذا ووافقوا عليه لأنهم أدركوا أن هذه الأعباء

قد خصصت لإدارة فلورنسا وتزيينها ، وأن كوزيمو نفسه قد اعتمد من ماله ٤٠٠٫٠٠٠ فلورين (١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ؟ دولار) للأعمال العامة والصدقات الخاصة[١٨]، ويكاد هذا يعادل ضعفي المبلغ الذى تركه لورثته[١٩]. وظل كوزيمو يعمل بلا انقطاع إلى آخر سني حياته البالغة سبعا وخمسين سنة في إدارة أملاكه الخاصة وشئون الدولة ؛ ولما أن طلب إليه إدورد الرابع ملك إنجلترا قرضا كبيراً ، أجابه كوزيمو إلى ما طلب وغض النظر عن غدر إدورد الثالث ، ورد إليه الملك هذا القرض نقدا وعونا سياسيا ؛ ولما أن احتاج بارنتوتشيلى Parentucelli أسقف بولونيا إلى المال وسأل كوزيمو العون بادر إلى معونته ، ولما أن جلس بارنتوتشيلى على كرسى البابوية باسم نقولاس الخامس ، عهد إلى كوزيمو بالإشراف على جميع شئون البابوية المالية . وكان يحرص على أن تظل نواحى نشاطه المختلفة منتظمة لا يتسرب إليها الارتباك ، فلذلك كان يستيقظ مبكراً ، ويذهب فى كل يوم تقريبا إلى مكتبه ، كما يفعل الأمريكى صاحب الملايين ؛ وكان حين يعود إلى منزله يشذب أشجار حديقته ، ويعنى بكرومه . وكان بسيطا فى ثيابه ، معتدلا فى طعامه وشرابه : وعاش (بعد أن ولد له ابن غير شرعى من أمة) عيشة هادئة عائلية منتظمة . وكان الذين يسمح لهم بالدخول إلى بيته يدهشون من الفرق الكبير بين طعامه البسيط على مائدته الخاصة والمآدب الفخمة التى يقيمها للكبراء الأجانب استجلابا لصداقتهم ورغبة فى توطيد السلم بينه وبينهم . وكان فى الأحوال العادية رحيما ، حليما ، غفورا للذنب ، قليل الكلام وإن اشتهر بنكاته اللاذعة ؛ وكان جواداً بالمال على الفقراء ، يؤدى ديون أصدقائه المعوزين ، ويخفى صدقاته فيمنحها دون أن يعرف مانحها ، كما كان يستخدم سلطانه دون أن يعرف الناس أنه يستخدمه . ولقد أجاد بتيتشلى Botticelli ، وبنتورمو Pontormo ، وبندسو الجتسولى Benozzo Gsozzoli تصويره لنا فعرفنا أنه متوسط طول القامة ، زيتونى لون الوجه ، ذا شعر أشمط مرتد عن

بمقدم رأسه ، وأنف حاد طويل ، ووجه وقور ينم عن الرأفة والحنان ، وينطق بالحكمة والقوة الهادئة .

وكانت سياسته الخارجية كلها تهدف إلى تنظيم السلم ، ذلك أنه وقد استحوذ على السلطة بعد أن خاض فى سبيلها سلسلة من المعارك المخربة عرف أن الحرب ، أو خطر قيام الحرب ، تعوق سير التجارة . ومن أعماله فى هذه السبيل أنه لما انهار حكم الفيكونتى فى ميلان وسادتها الفوضى بعد موت فلپوماريا Filippo Maria وهددت البندقية بالاستيلاء على الدوقية والسيطرة على شمالى إيطاليا بأجمعه حتى أبواب فلورنس نفسها ، بعث كوزيمو فرانتشسكو سفوردسا Francesco Sforza بما يلزمه من المال لتوطيد سلطته فى ميلان ووقف تقدم البنادقة . ولما أن تحالفت البندقية ونابلى على فلورنس ، طالب كوزيمو بكثير من القروض التى كانت له عند أهل المدينتين ، فاضطرت حكومتاهما إلى عقد الصلح [٢٠] . ووقفت ميلان وفلورنس من ذلك الوقت ضد البندقية ونابلى ، وأصبحت القوتان بعدئذ متوازنتين توازنا لم تجرؤ معه إحداهما بأن تخاطر بالتورط فى حرب لا تعلم عاقبتها . وكانت هذه السياسة — سياسة توازن القوى — التى ابتكرها كوزيمو وسار عليها لورندسو وهى التى أفاءت على إيطاليا عشرات السنين من السلم والنظام امتدت من ١٤٥٠ إلى ١٤٩٢ ، أثرت فى خلالها مدائنها إثراء أمكنها من أن تمد بالمال بداية عصر النهضة .

وكان من حسن حظ إيطاليا والإنسانية جمعاء أن كوزيمو كان يعنى بالأدب ، والعلم ، والفلسفة ، والفن بقدر ما يعنى بالثروة والسلطان . ولقد كان هو نفسه ذا تربية عالية وذوق راق ، وكان يتقن اللغة اللاتينية ، ويعرف قليلا من اليونانية والعبرية ، والعربية : وقد أوتى من سعة الأفق ما جعله يقدر تقوى الراهب أنجلكو وتصويره ، وخسة فلپولپى الجذابة الممتعة ، والطراز القديم لنقوش جيبرتى Gheberti البازة ، والابتكار

الجرىء الذى عهد إليه دوناتلو Donatello فى نحته ، والكنائس الفخمة التى خططها برونيلسكو Brunellesco ، والقوة غير الجامحة التى تشاهد فى عمائر متشيلتسو Michelozzo والأفلاطونية الوثنية التى تتصف بها أعمال جمستوس پيثو Gemitus Petho ، والأفلاطونية الصوفية التى ينطبع بها تفكير پيكو Pico وفيتشينو Ficino ، ورقة ألبرتى ، وفظاعة پجيو Poggio المتعمدة ، وإسراف نيقولو ده نيقولى فى تعظيم الكتاب المقدس ؛ وكان هؤلاء جميعاً ينالون رفده . وقد اسـتدعى جوانس أرچيروبولوس Joannes Argyroboulos إلى فلورنس ليعلم شبابها لغتى اليونان وروما وآدابهما ، وظل اثنتى عشرة سنة يدرس مع فيتشينو آداب بلاد اليونان وروما . واتفق قدراً كبيراً من ماله فى جمع النصوص الأدبية القديمة حتى كان أثمن ما تحمله سفائنه فى كثير من الأحيان المخطوطات التى تأتى بها من بلاد اليونان أو الإسكندرية . ولما أن أفلس نيقولو ده نقولى لكثرة ما أنفقه فى ابتياع المخطوطات القديمة ، فتح له كوزيمو اعتماداً لا حد له فى مصرف آل ميديتشى ، ومده بالعون حتى مماته . وكان يستخدم خمسة وأربعين نساخاً يشرف عليهم الكتبى المتحمس ڤسبازيا نو دا بستتشى Vespasiaeo da Bisticci لكى ينسخوا له ما لا يسـتطيع شراءه من المخطوطات . وكان يضع كل هذه « القطرات الثمينة » فى حجرات بدير القديس ماركو ، أو بدير فيسولى Fiesole أو فى مكتبته هو . ولمـا توفى نيقولى (١٤٣٧) وترك وراءه ثمانمائة مخطوط تقدر قيمتها بستة آلاف فلورين (١٥٠,٠٠٠ دولار) وكان مثقلاً بالديون ، واختار ستة عشر وصياً يعهد إليهم التصرف فى كتبه ، عرض كوزيمو أن يتحمل هو الديون كلها إذا ما سمح له أن يعين الأمكنة التى توضع فيها هذه المجلدات . فلما اتفق على هذا قسم كوزيمو مجموعة الكتب بين مكتبة دير القديس ماركو ومكتبته . وكانت هذه المجموعات كلها فى متناول المدرسين والطلاب من

غير أجر : وفى ذلك يقول ڤاركى Varchi المؤرخ الفلورنسى مع المغالاة التى تدفعه إليها وطنيته :

إذا كانت الآداب اليونانية لم يجر عليها النسيان التام ذيله فتصاب الإنسانية من جراء هـذا النسيان بخسارة فادحة ، وإذا كانت الآداب اللاتينية قد بعثت بعثا جديداً فجنى الناس من وراء ذلك فوائد لا حد لها ولا تقدر قيمتها ، فإن إيطاليا كلها ، بل والعالم بأجمعه ، مدينان بذلك إلى حكمة آل ميديتشى ، وعطفهم ، وحبهم ، لا لأحد سواهم(٢١) .

وما من شك فى أن عملية البعث العظيمة كانت بدايتها أعمال المترجمين العظماء فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وأعمال الشراح العرب ، وكتابات پترارك وبوكاتشيو . ثم واصل هـذا العمل العلماء وجامعو المخطوطات أمثال سالوتارى Salutari ، وترافرسارى Traversari ، وبرونى Bruni ، وڤلا Valla ؛ وكان هذا كله قبل كوزيمو . كذلك واصل هذه الأعمال نقولى وپجيو ، وفيليلفو Filelfo ، وألفنسو الأفخم ملك نابلى ، ومائة غيرهم من معاصرى كوزيمو ، بل واصلها أيضاً منافسه پلا استرتسى فى منفاه وواصلوها كلهم مستقلين عن كوزيمو . ولكننا إذا لم نقصر حكمنا على كوزيمو أبى البلاد بل مددناه حتى شمل أبناءه لورندسو الأفخم ، وليو العاشر ، وكلمنت السابع لم يسعنا إلا أن نعترف بأن آل ميديتشى لم تضارعهم فى مناصرة العلم والفن أية أسرة فى تاريخ البشرية المعروف بأجمعه .

الفصل الرابع

الإنسانيون

لقد كان حكم آل مديتشى أو كان زمانهم هو العهد الذى استحوذ فيه الإنسانيون على عقل إيطاليا واستأثروا به ، وحولوه من الدين إلى الفلسفة ، ومن السماء إلى الأرض ، وكشفوا فيه للجيل المندهش المنذهل عن ثراء الفكر الوثنى والفن الوثنى ؛ ولقد أطلق على هؤلاء الناس الذين جنوا بالعلم جنوناً منذ أيام أريستو Ariosto[٢٢] البعيدة اسم الإنسانيين umanisti . لأنهم كانوا يسمون دراسة الثقافة القديمة الإنسانيات umanita أو الآداب الأكثر إنسانية Litera humaniores (لا الأكثر رحمة) . وأضحت الدراسة الصحيحة الخليقة بالبشر فى أيامهم هى الإنسان نفسه بكل ما يكمن فى جسمه من قوة وجمال . وما فى حواسه ومشاعره من بهجة وألم ، وما فى عقله من جلال واهن ؛ دراسته من هذه النواحى كلها كما تظهر موفورة كاملة إلى أبعد حد فى آداب اليونان والرومان وفنونهم القديمة . هذه هى الإنسانيات .

لقد كانت الكتب اللاتينية كلها تقريباً ، وكثير من الكتب اليونانية الموجودة عندنا فى هذه الأيام ، معروفة عند علماء العصور الوسطى المنتشرين فى بقاع مختلفة من أوربا ، وكان أهل القرن الثالث عشر يعرفون أكابر الفلاسفة الوثنيين . ولكن ذلك القرن قد غفل أوكاد عن الشعر اليونانى ، وكانت طائفة كبيرة من الكتب القديمة القيمة التى نجلها الآن مهملة فى مكتبات الأديرة أو الكنائس الكبرى . وكانت هذه الأركان المنسية أكثر الأماكن التى عثر فيها پترارك ومن جاءوا بعده على الكتب القديمة « المفقودة » ، التى يسميها « السجينة الظريفة الأسيرة فى أيدى السجانين الهمج » . وارتاع

بوكاتشيو حين زار مونتى كسينو Monte Cossino ووجد المخطوطات الثمينة تبلى فى التراب . أو تقطع لتكتب عليها المزامير أو تتخذ تمائم . ولما زار بچيو Poggio دير القديس جول St. Gall فى سويسرا وجد كتاب «الأنظمة» لكونتليان Quntilian فى جب قذر مظلم ، وأحس وهو يستنقذ هذا الملف كأن المعلم القديم يمد يديه متوسلا إليه أن ينقذه من « البرابرة » ؛ فقد كان هذا هو الاسم الذى يطلقه الإيطاليون المعتزون بثقافتهم على الفاتحين الغلاظ المقيمين وراء جبال الألب ، كما كان يطلقه عليهم اليونان والرومان من قبل . وكان بچيو وحده هو الذى أخرج من هذه القبور نصوص لكريشيوس ، وكولوملا Columella ، وفرنتينوس Frontinus ، وڤتروڤيوس Vritruviue ، وڤلريوس فلاكس Valerius Flaccus ، وترتليان ، وپلوتوس ، وپترونيوس وأميانس مرسلينس ، وعدد غير قليل من خطب شيشرون الكبرى . واستخرج كولوتشيو سليوتاتى Coluecio Salutati فى ڤرتشيلى Vercelli كثيراً من رسائل شيشرون إلى أسرته (١٣٨٩) . وعثر چرلدو لندريانى Gheraldo Landriani على رسائل شيشرون فى علم البيان موضوعة فى صندوق قديم فى لدفى Lodfi (١٤٢٢) ، وأنقذ أمبروچيو ترافرسارى Ambrogio Traversari كرنليوس نيپوس من النسيان فى پدوا (١٤٣٤) ، وكشفت كتب تاستس Taecitus وهى Agricola ، Germania ، و Dialogi (الزارع والألمانية ، والحوار) فى ألمانيا (١٤٥٥) ، واستردت الكتب الستة الأولى من حوليات تاستس ومخطوط كامل من رسائل پلنى الأصغر من دير كورڤى Corvey (١٥٠٨) وأضحت من أكثر ممتلكات لبو العاشر قيمة .

وكان أكثر من عشرة من الإنسانيين يدرسون أو يطوفون ببلاد اليونان فى نصف القرن السابق على فتح الأتراك للقسطنطينية ، وأعاد واحد منهم هو چيوڤنى أورسپا Giovanni Aurispa إلى إيطاليا ٢٣٨ مخطوطا تشمل

فيما تشمله مسرحيات إيسكلس Aeschylus وسفكليز ؛ واستنقذ رجل آخر يدعى فرانتشسكو فيليلفو Francesco Filelfo من القسطنطينية (١٤٢٧) نصوص هيرودوت ، وتوكيديدس ، وپولبيوس ، ودمستين ، وايسكنيس Aeschines ، وأرسطو ، وسبعا من مسرحيات يورپديز . ولما عاد هؤلاء الرواد وأمثالهم إلى إيطاليا بما كشفوه من الذخائر ، كانوا يقابلون كما يقابل قواد الحرب المنتصرون ، وكان الأمراء ورجال الدين يؤدون أغلى الأثمان لبعض هذا الشيء . وأدى سقوط القسطنطينية إلى ضياع كثير من الكتب القديمة التي أثبت الكتاب البيزنطيون وجودها في مكتبات تلك المدينة ؛ غير أن آلافاً مؤلفة منها قد أنقذت ، وجيء بمعظمها إلى إيطاليا ، ولا تزال خير المخطوطات اليونانية القديمة موجودة فيها حتى الآن . وظل الناس ثلاثة قرون من أيام پترارك إلى تاسو Tasso يجمعون المخطوطات بحماسة وحب كحب الآباء للأبناء ، وقد انفق نيقولو دي نقولى أكثر من ثروته في هذا العمل ؛ وكان أندريولو دى أوكيس Andreolo de Ochis على استعداد لأن يضحي ببيته ، وزوجته ، وحياته نفسها لكي يضيف شيئاً إلى مكتبته ، وكان بجيو يألم أشد الألم حين يرى شيئاً من المال ينفق على غير الكتب .

وأعقبت ذلك ثورة في نشر الكتب ، فقد شرع الناس يدرسون هذه النصوص المكتشفة ، ويفاضلون بينها ، ويصححونها ، ويشرحونها ؛ وقامت من أجل ذلك حملة امتدت من لورندسو ڤلا Lorenzo Valla في ناپلي إلى سير تومس مور Sir Thomas More في لندن ؛ وإذ كانت هذه الجهود تتطلب في كثير من الأحيان علماً باللغة اليونانية ، فقد أرسلت إيطاليا — ونهجت نهجها فيما بعد فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا — تستدعى مدرسين للغة اليونانية ، وتعلم أورسپا ، وفيليلفو تلك اللغة في بلاد اليونان نفسها ؛ ولما جاء مانيول كريسلوراس Manuel Chrysoloras إلى إيطاليا (١٣٩٧) مبعوثاً إليها من بيزنطية . وأقنعته جامعة فلورنس بالانضمام إلى أساتذتها

ليكون أستاذاً للغة اليونانية وآدابها ؛ وكان من بين تلاميذه فى هذه الجامعة بجيو ، وبلا استروتسى ، ومرسوبينى Marsupini ومانتى Manetti . وبدأ ليوناردو برونى Leonardo Bruni بدراسة القانون ولكنه تركه بتأثير كريسلوراس وشرع يدرس اللغة اليونانية ؛ ويحدثنا هو عن ذلك فيقول : « وألقيت بنفسى فى تيار تدريسه بحماسة بلغ منها أن امتلأت أحلامى بالليل بما كنت أتلقاه منه بالنهار »(٢٣) . ترى هل يتصور أحد فى هذه الأيام أن النحو اليونانى كان فى وقت ما يستحوذ على الألباب استحواذ قصص المغامرات والروايات الغرامية فى هذه الأيام ؟

والتقى اليونان والإيطاليون عام ١٤٣٩ فى مجلس فلورنس ، وكانت الدروس التى يبادلونها معاً فى اللغة أبلغ أثراً من نقاشهم المجهد فى شئون الدين . وهناك ألقى جمستس بليثو Gemistus Pletho محاضراته الذائعة الصيت التى كانت ختام سيادة أرسطو على الفلسفة الأوربية وجلوس أفلاطون على عرش هذه الفلسفة جلوس الآلهة . ولما انفض اجتماع المجلس بقى فى إيطاليا يوأنس بساريون Joannes Bessarion وكان قد جاء إليها بوصفه أسقف نيقية ؛ وقضى جزءاً من وقته يعلم اللغة اليونانية . وامتدت حمى الدرس إلى غير فلورنس من المدن ، فجاء بها بساريون إلى رومة ؛ وعلم ثيودورس جازا Theodorus Gaza اللغة اليونانية فى پروجيا (١٤٥٠) ، وپدوا ، وفلورنس ، وميلان (١٤٩٢ — ١٥١١ أو نحو ذلك الوقت) ويوأنس أرجيروپولس فى پدوا (١٤٤١) وفلورنس (١٤٥٦ — ١٤٧١) ، وروما (١٤٧١ — ١٤٨٦) ؛ وقد جاء هؤلاء كلهم إلى إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) ؛ ولهذا فإن هذه الحادثة لم يكن لها إلا شأن قليل فى انتقال اللغة اليونانية من بيزنطية إلى إيطاليا . غير أن استيلاء الأتراك على الأراضى المحيطة بالقسطنطينية شيئاً فشيئاً بعد عام ١٣٥٦ كان من العوامل التى حملت العلماء اليونان على الانتقال نحو الغرب . وكان من الذين فروا من العاصمة

الشرقية عند سقوطها قسطنطين لسكارس Constantine Lascaris ، وقد جاء ليعلم اللغة اليونانية فى ميلان (١٤٦٠ — ١٤٦٥) ، ونابلى ، ومسينا (١٤٦٦ — ١٥٠١) ، وكان كتابه فى النحو أول كتاب يونانى طبع فى إيطاليا فى عهد النهضة .

ولم يمض إلا وقت قليل على وجود هؤلاء العلماء جميعاً ، وتلاميذهم ، ونشاطهم الحماسى فى إيطاليا ، حتى ترجمت كتب الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ترجمة أكمل ، وأدق ، وأبلغ مما ترجم منها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وترجم جوارينو Guarino أجزاء من كتب استرابون وأفلوطرخس ؛ وترجم ترافرسارى ديوچين لرتيوس ؛ وترجم ڤلا هيرودوت وتوكيديدس ، والإلياذة ؛ وترجم پيرتى Perotti پولبيوس ؛ وترجم فيتشينو أفلاطون وأفلوطين ؛ وكان أفلاطون بنوع خاص أعظم من أدهش الإنسانيين وأمتعهم . ذلك أنهم كانوا يبتهجون بجمال أسلوبه وسلاسته ، ويجدون فى المحاورات مسرحية أكثر وضوحاً وحيوية ومواءمة لروح العصر الذى يعيشون فيه مما يجدونه فى جميع مسرحيات إيسكلس ، أو سفكليز أو يورپديز . وكانوا يحسدون اليونان فى عصر سفكليز على ما كان لهم من حرية واسعة فى مناقشة أهم مشاكل الدين والسياسة وأكثرها دقة ، ويدهشون من هذه الحرية ؛ وكانوا يظنون أنهم واجدون فى آراء أفلاطون — التى جعلها صاحبها معماة غامضة — فلسفة صوفية خفية تمكنهم من الاحتفاظ بمسيحية لم يعودوا يؤمنون بها ، ولكنهم لم ينقطعوا عن حبها . وتأثر كوزيمو ببلاغة چمستس بليثو Gemistus Pletho وتحمس تلاميذه فى فلورنس فأنشأ فى المدينة مجمعاً علمياً أفلاطونياً (١٤٤٥) لدراسة أفلاطون ، وأمد مرسيليو فيتشينو Marsilio Ficino بالكثير من المال الذى أمكنه من أن يخصص نصف حياته لترجمة مؤلفات أفلاطون وشرحها . ومن ذلك الحين فقدت الفلسفة المدرسية (الكلامية) سيطرتها

فى الغرب بعد أن دامت لها هذه السيطرة أربعمائة عام ؛ وحل الحوار والمقالة محل الجدل المدرسى فأصبحا هما الصورة التى اتخذها العرض الفلسفى ؛ ودخلت روح أفلاطون المطربة المبهجة فى جسم التفكير الأوربى الناشئ دخول الخميرة المنعشة فى العجين .

لكن هذه الصورة قد أعقبها شىء من رد الفعل . ذلك أنه كلما زاد ما كشفته إيطاليا من تراثها الأدبى القديم غلب على إعجاب الإنسانيين ببلاد اليونان فخرهم بأدب رومة القديمة وفنها ، ولهذا أحبوا اللغة اللاتينية واتخذوها أداة لأدب حى ، فجعلوا أسماءهم لاتينية ، وجعلوا مصطلحات عباداتهم وحياتهم المسيحيتين رومانية : فصار اسم الله يوپتر Iuppiter ، واسم العناية الإلهية فاتوم Fatum ، والقديسين ديڤى Divi ، والراهبات vestales والبابا پنتفكس مكسيموس (الحبر الأعظم Pontifex maximus) ؛ وصاغوا أسلوب نثرهم على غرار أساوب شيشرون ، وشعرهم على غرار شعر ڤرچيل وهوراس ، وبلغ بعضهم مثل فيليلفو ، وڤلا ، وپوليتيان بأسلوبهم درجة من الرشاقة تكاد تعادل رشاقة الأقدمين . وهكذا أخذت النهضة تعود أدراجها من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية ، ومن أثينة إلى رومة ؛ وبدا كأن خمسة عشر قرنا من الزمان قد أخذت تطوى طيا ، وكأن عصر شيشرون ، وهوراس ، وأوڤد ، وسنكا ، قد ولد من جديد . وأصبح الأسلوب وقتئذ أعظم شأنا من المعنى ، وغلبت الصورة على المادة ، وترددت أصداء خطب العصر الماضى المجيد مرة أخرى فى أبهاء الأمراء والمعلمين . ولعله كان من الخير لو أن الإنسانيين استخدموا اللغة الإيطالية بدل اللاتينية ، ولكنهم كانوا يحتقرون لغة المسالى والمغانى ويرونها لاتينية فاسدة منحطة (وفى الحق أنها تكاد تكون كذلك) ، ويأسفون لأن دانتى آثر اللغة الدارجة . وقد جوزى الإنسانيون على فعلتهم هذه بأن فقدوا اتصالهم بمصادر الأدب الحية ؛ وترك الشعب مؤلفات

الإنسانيين إلى الأشراف وآثر عليها القصص المرحة التى كان يكتبها له ساكتى Sacchetti ، وبنديلو Bandello ، أو الروايات الغرامية التى تمزج الحرب بالحب والتى كانت تترجم أو تقتبس باللغة الإيطالية من الفرنسية . بيد أن هذا الافتتان العابر بلغة ميتة وأدب « خالد » قد أعان المؤلفين الإيطاليين على أن يستردوا ماكان لهم من شغف بفنون العمارة ، والنحت وموسيقى الأسلوب ؛ وأن يضعوا قواعد الذوق والنطق التى رفعت اللغة القومية إلى صورتها الأدبية ووضعت للفن هدفا ومستوى . وإذا انتقلنا إلى مجال التاريخ وجدنا أن الإنسانيين هم الذين أنهوا عهد الإخباريين المتعاقبين من كتاب العصور الوسطى ، وهم الكتاب الحالية كتبهم من النقد السليم والمليئة بالفوضى ، وأحلوا محل طريقتهم تمحيص المصادر والتوفيق بينها ، وعرض مادتها عرضا منتظما واضحا ، وبعث الحيوية والإنسانية فى الماضى بمزج السير بالتاريخ ، والارتفاع بقصتهم إلى مستوى فلسفى بتمحيص علل الحوادث ، وتياراتها ، ونتائجها ، ودراسة ما فى دروس التاريخ من انتظام واتساق .

وانتشرت الحركة الإنسانية فى جميع أنحاء إيطاليا ، ولكن زعماءها كلهم تقريباً من مواطنى فلورنس أو خريجيها إلى أن جلس رجل من آل ميديتشى على كرسى البابوية . وكان كولوتشيو سالوتاى Coluccio Salutari الذى أصبح الأمين الإدارى لمجلس الحكام فى عام ١٣٧٥ حلقة الاتصال بين بترارك وبوكاتشيو من جهة وكوزيمو من جهة أخرى ، وكان يعرف ثلاثتهم ويحبهم جميعاً . وكانت الوثائق العامة التى كتبها نماذج عالية من اللغة اللاتينية الفصحى ، وكانت هى المثل الذى حاول الموظفون العموميون فى البندقية ، وميلان ، ونابلى ، وروما أن يحتذوه ؛ وقال جيانجليتسو Giangaleaxzo أمير ميلان إن سالوتارى قد أضر أسلوبه الممتاز أكثر مما يستطيع أن يضره جيش من الجنود المرتزقين[٢٤] . وكان اشتهار فيقولو ده نيقولى بأسلوبه اللاتينى يعادل اشتهاره بجمع المخطوطات ؛ وكان

برونى يسميه «رقيب اللسان اللاتينى» ؛ وكان يفعل ما يفعله غيره من المؤلفين فيعرض ما يكتبه على نقولى ليصححه قبل أن ينشره . وكان نقولى يملأ بيته بالقديم من كتب الأدب ، والتماثيل ، والنقوش ، والمزهريات ، وقطع النقد ، والجواهر ؛ وقد امتنع عن الزواج خشية أن يلهيه زواجه عن كتبه ، ولكنه وجد لديه متسعاً من الوقت يقضيه مع حظية سرقها من فراش أخيه(٢٥) . وقد فتح أبواب مكتبته لكل معنى بالدراسة فيها ، وحث شبان فلورنس على أن يهجروا الترف ويستبدلوا به الأدب . وأبصر مرة شابا ثرياً يقضى يومه بلا عمل فسأله : «ما هى غايتك فى الحياة ؟» فأجابه فى صراحة : «غايتى أن أستمتع بوقتى» ، فسأله نيقولى مرة أخرى : «فإذا انقضى عهد شبابك فماذا يكون شأنك ؟»(٢٦) وأدرك الشاب ما ينطوى عليه هذا القول من معنى ، ووضع نفسه من ذلك الوقت تحت سلطات نيقولى وإرشاده .

وترجم ليوناردو برونى ، الذى كان أميناً لأربعة بابوات ثم صار فيما بين عامى ١٤٢٧ و ١٤٤٤ أميناً لمجلس السيادة فى فلورنس ، طائفة من محاورات أفلاطون إلى لغة لاتينية ممتازة كشفت لإيطاليا لأول مرة عن روعة أسلوب أفلاطون . وألف ليوناردو باللغة اللاتينية تاريخاً لمدينة فلورنس كان سبباً فى أن أعفته الجمهورية هو وأبناءه من الضرائب : وكانوا يوازنون بين خطبه وخطب پركليز . ولما توفى أقام له كبار المدينة جنازة عامة كما كان يقام للأقدمين ، ودفن فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقدس santa Croce ووضعوا كتابه التاريخ فوق صدره ، وخطط له برناردو روسلينو قبراً عظيما فخما يستريح فيه .

وولد كارلو مارسپينى Corlo Marsuppini فى أرتسو كما ولد فيها برونى وخلفه فى أمانة مجلس السيادة ، وقد روع أهل زمانه بأن كان يحفظ نصف الآداب اليونانية والرومانية عن ظهر قلب . ولم يكد يترك مؤلفاً

قديماً لم يقتبس من أقواله فى خطابه الأول حين عين أستاذاً للآدب فى جامعة فلورنس . وقد بلغ من إعجابه بالوثنية القديمة أن كان يشعر بأن من واجبه أن ينبذ الدين المسيحى[٢٧] ؛ ولكنه رغم هذا كان وقتاً ما أميناً رسولياً للكرسى البابوى فى رومة ؛ وقد دفن هو أيضاً فى كنيسة سانتا كرتشى ورثاه جيانتسو مانتى Giannozzo Manetti بمرثية رائعة ، واختط له دزديريو دا ستنيانو Desiderio de Settgnano (١٤٥٣) قبراً مزخرفاً ؛ وإن قيل إنه مات دون أن يعنى بتلقى القربان المقدس[٢٨] . وكان مانتى الذى رثى هذا الملحد رجلا لا تقل قواه عن علمه ، وقد ظل تسع سنين لا يكاد يغادر فى أثنائها بيته وحديقته ، مكباً على دراسة الآداب القديمة ، وتعلم اللغة العبرية واللغتين اليونانية واللاتينية . ولما عين سفيراً لدى رومة ، ونابلى ، والبندقية ، وجنوى افتتن به كل من رآه ، وكسب فى هذه المدن كلها صداقة أهلها لحكومة بفضل ثقافته ، وسخائه ، واستقامته .

وكان هؤلاء الرجال على بكرة أبيهم ما عدا سالوتارى من أعضاء الندوة التى تجتمع فى بيت كوزيمو بالمدينة أو فى بيته الريفى ، وكانوا يتزعمون الحركة العلمية أثناء سلطانه . وكان لكوزيمو صديق آخر لا يكاد يقل عنه سخاء على العلم والعلماء ، ذلك هو أمبروجيو ترافرسارى Ambrogio Traversari القائد فى طائفة الرهبان الكملدولية Camaldulit ، والذى كان يعيش فى صومعة فى دير سانتا ماريا دجلى أنجيلى القريب من فلورنس . وكان يتقن اللغة اليونانية ، وتنتابه نوبات من وخز الضمير لحبه الآداب القديمة ؛ وكان يأبى أن يقتبس شيئاً منها فى كتاباته ، ولكنه كشف عن أثرها فيه بأسلوبه اللاتينى الذى كانت عباراته الإصلاحية النقية مما يرتاع له الجريجوريون المشهورون جميعاً لو أنهم أطلعوا عليها . وكان كوزيمو ، الذى يعرف كيف يوفق بين الآداب القديمة وأساليب المالية العليا من جهة والدين المسيحى من جهة أخرى ، ويحب أن يزور ترافرسارى ؛ كما كان نقولى ، ومارسپينى ، وبرونى ، وغيرهم يتخذون صومعته ندوة أدبية لهم .

وكان أعظم الكتاب الإنسانيين نشاطاً وأكثرهم سبباً للمتاعب هو پجيو براتشيوليني Poggio Bracciolini . وقد ولد لأبوين فقيرين بالقرب من أرتسو (١٣٨٠) ، وتلقى تعليمه فى فلورنس ، ودرس اللغة اليونانية على مانيول كريسلوراس Manuel Chrysoloras ، وكان يكسب عيشه بنسخ المخطوطات ، وصادقه سالوتاري وعطف عليه ، وعين فى الرابعة والعشرين من عمره كاتباً فى المحكمة البابوية فى رومة ؛ وقضى السنين الخمسين التالية يعمل فى البلاط البابوى ، ولم ينل فى خلال هذه المدة كلها شيئاً من الرتب الدينية حتى أصغرها ، ولكنه كان يرتدى الثياب الكهنوتية . وقدر له القائمون على البلاط نشاطه فأرسلوه فى أكثر من عشر بعثات ؛ وكثيراً ما كان يحيد عن عمله فيها ليبحث عن المخطوطات القديمة ، وقد يسر له منصبه فى الأمانة البابوية الوصول إلى الكنوز المخبوءة فى المكتبات التى كان يحرص عليها أشد الحرص أو كانت تهمل أشد الإهمال فى أديرة القديس جول St. Gall ولانجر Langers ، وڤينجارتن Weingarten وريتشنو Reichenau وقد بلغت غنائمه من هذه المكتبة حداً من الثراء جعل برونى وغيره من الكتاب الإنسانيين يحيونه أعظم تحية ويرون أن أعماله كانت من المعالم البارزة فى تاريخ ذلك العصر . ولما عاد پجيو إلى رومة كتب لمارتن الخامس Martin V دفاعاً مجيداً عن عقائد الكنيسة ، مع أنه كان فى المجتمعات الخاصة يسخر مع غيره من موظفى البلاط البابوى من العقائد المسيحية(٢٩) . وقد كتب عدة محاورات ورسائل بلغة لاتينية غير مصقولة ولكنها منعشة مطربة ، يندد فيها برذائل رجال الدين ، بينا كان هو يرتكب تلك الرذائل إلى أقصى حد تمكنه منه موارده . ولما أن عاب عليه الكردنال سانتا أنجيلو وجود أبناء له ، وهو ما لا يليق برجل يرتدى الثياب الكهنوتية ، وأن له عشيقة ، وهو أمر لا يليق حتى برجل من غير رجال الدين ، رد پجيو على ذلك بقحته المعهودة : « إن لى أبناء وذلك أمر يليق بغير رجال الدين ،

وإن لى عشيقة وتلك إحدى عادات رجال الدين القديمة(٣٠) . ولمـا بلغ الخامسة والخمسين من عمره هجر عشيقته التى ولدت له أربعة عشر طفلا ، وتزوج بفتاة فى سن الرابعة عشرة . وكاد فى هذه الأثناء أن يكون هو مؤسس علم الآثار الحديث ، لأنه جد فى جمع القديم من النقود ، والنقوش ، والتماثيل ، وعنى بوصف ما كان باقياً من الآثار الرومانية القديمة بدقة العلماء المبرزين . وقد صحب البابا أوجنيوس الرابع Eugenius V إلى مجلس فلورنس وتنازع مع فرانتشسكو فيللفو ، وتبادل معه السباب بأقبح الألفاظ ، ولم يتورع عن أن يتهمه بالسرقة ، والكفر بالله ، واللواط . ولقد سره كل السرور وهو فى روما أن يعمل لنقولا الخامس البابا الإنسانى ؛ وكتب وهو فى سن السبعين كتاب الفكاهات الذائع للصيت ، وهو مجموعة من القصص ، والهجاء ، والبذاءات . ولمـا انضم لورندسو ڤلا إلى هيئة الأمناء البابوية هاجمه بجيو بسلسلة جديدة من المطاعن اتهمه فيها باللصوصية والتزوير ، والخيانة ، والإلحاد ، والسكر ، وفساد الأخلاق . ورد ڤلا على هذا بأن سخر من لغة بجيو اللاتينية ، وذكر أخطاءه فى النحو والتراكيب ، وقال إنه لا يعنى به لأنه أبله يهذى ذهبت سنه بعقله(٣١) . ولم يعبأ أحد بهذا الاتهام الأدبى غير الضحية التى وجه إليها ، ذلك أن هذه المطاعن كانت مباريات فى الكتابة اللاتينية ؛ ولقد أعلن بجيو فعلا فى إحدى هذه المقالات أنه سوف يثبت أن فى مقدور اللغة اللاتينية الفصحى أنه تعبر عن أحدث الآراء وأخص الشئون ؛ وقد برع فى فن اختيار الألفاظ البذيئة ببراعة جعلت « العالم كله يخشاه » على حد قول ڤسپازيانو(٣٢) . وقد كان قلمه ، كما كان قلم أرتينى Aretine من بعده ، أداة لابتزاز أموال الناس . من ذلك أنه لما توانى ألفنسو ملك نابلى عن الكتابة إلى بجيو معترفاً بوصول الترجمة اللاتينية لكتاب فيروبيديا تأليف أكسانوفون Xanophon كتب الإنسانى الحانق يقول : إن فى مقدور القلم الطيب أن يطعن أى ملك من الملوك ؛

فما كان من ألفنسو إلا أن بادر بإرسال ٥٠٠ دوقة ليقطع بها لسانه . وألف بجيو بعد أن استمتع بكل شهوة وغريزة رسالة فى **شقاء أحوال البشر** قال فيها إن شرور الحياة ترجح مباهجها ، واختتمها بقول صولون Solon إن أسعد النـــاس حظاً من لا يولدون[٣٣] . وعاد إلى فلورنس حين بلغ الثانية والسبعين من عمره وعين أميناً للحاكم العام ، ثم اختير فى آخر الأمر حاكماً للمدينة . وقد عبر عن تقديره لهذا الاختيار بكتابة تاريخ لفلورنس على طريقة الأقدمين — جمع فيه بين أخبار السياسة والحرب والخطب الخيالية ، ولما أن وافته المنية أخيراً وهو فى سن التاسعة والسبعين تنفس غيره من الإنسانيين الصعداء (١٤٥٩) . ودفن هو أيضاً فى كنيسة الصليب المقدس Santa Croce وأقيم له تمثال من صنع دوناتلو عند واجهة الكنيسة ؛ وحدث فى أثناء الارتباك الناشئ من بعض التغييرات أن وضع ذلك التمثال فى داخل الكنيسة نفسها بوصفه تمثالا لأحد الرسل الاثنى عشر .

ولا جدال فى أن المسيحية قد فقدت قبل ذلك الوقت من الناحيتين الفقهية والأخلاقية سلطانها على طائفة كبيرة من الإنسانيين الإيطاليين ربما كانت هى الكثرة الغالبة منهم . نعم إن طائفة منهم أمثال ترافرا ساري ، وبروني ، ومانتي فى فلورنس ، وڤتورينو دا فلترى Vittorino da Felter فى مانتوا ، وجوارينو دا ڤرونا Guarino da Verona فى فرارا ، وفلاڤيو بيوندو Flavio Biondo فى رومة قد بقوا أوفياء مخلصين لدينهم ؛ إلا أن الثقافة اليونانية التى تكشفت للكثيرين غيرهم والتى دامت ألف عام كاملة ، وبلغت الذروة العليا فى الأدب ، والفلسفة ، والفن مستقلة تمام الاستقلال عن اليهودية والمسيحية ، نقول إلا أن هذه الثقافة كانت ضربة قاضية على إيمانهم بالعقيدة الدينية التى علمها القديس بولس ، وبالعقيدة القائلة أن « لا نجاة خارج الكنيسة » . وأصبح سقراط وأفلاطون فى نظر هؤلاء قديسين من غير رجال الدين ؛ وبدت لهم أسرة الفلاسفة اليونان أعلى درجة

من آباء الكنيسة اليونان واللاتين ، كما أن نثر سقراط وشيشرون كان يبعث الخجل فى نفس الكرادلة أنفسهم من اللغة اليونانية التى كتب بها العهد الجديد ومن اللغة اللاتينية التى ترجمه بها چيروم . كذلك خيل إلى هؤلاء أن رومة الإمبراطورية أعظم نبلا وكرامة من انزواء المسيحيين المؤمنين فى صوامع الأديرة ، كما أن الحرية التى اتسم بها تفكير اليونان فى أيام بركليز والرومان فى عهد أغسطس قد أفعمت عقول كثيرين من الإنسانيين بالحسد الذى حطم فى قلوبهم العقائد المسيحية التى تحث على التذلل ، والإيمان بالدار الآخرة ، والعفة ؛ وأخذوا يتساءلون عما يدعوهم إلى إخضاع أجسامهم ، وعقولهم ، وأرواحهم إلى قواعد رجال الكنيسة الذين انقلبوا وقتئذ رجالا دنيويين ، وأخذوا هم أنفسهم يمرحون ويطربون . وكانت العشرة القرون التى انقضت بين قسطنطين ودانتى فى نظر هؤلاء الإنسانيين ، غلطة يؤسف لها أشد الأسف ، وخروجاً ، كالخروج الذى يصفه دانتى نفسه ، عن الصراط المستقيم . ولقد عفت من ذاكرة هؤلاء الكتاب ما كان فى عقول من قبلهم من الأقاصيص المحببة عن العذراء والقديسين ، لتفسح مكانها إلى *تحولات* أوفد Ovid's Metamorphoses وأغانى هوراس الفاسقة الفاجرة ؛ وبدت الكنائس الكبرى وقتئذ دليلا على الهمجية ، وفقدت تماثيلها الهزيلة روعتها فى الأعين التى رأت تمثال أپلو بلفدير Apollo Belvedere والأصابع التى لمسته .

وهكذا كان مسلك الكثرة الغالبة من الإنسانيين مسلك من يرون أن المسيحية أسطورة تفى بحاجات خيال العامة وأخلاقهم ، ولكنها يجب ألا تأخذها العقول المتحررة مأخذ الجد ؛ ولهذا كانوا يؤيدونها فيما ينطقون به أمام الجماهير ، ويقولون إنهم يستمسكون بأصول الدين التى تنجيهم من العذاب ، ويبذلون غاية جهدهم للتوفيق بين العقائد المسيحية والفلسفة اليونانية . لكن هذه الجهود نفسها قد كشفت عما يضمرون ، فقد كانوا

يعترفون اعترافا ضمنيا بأن العقل هو الحكم الأعلى فى كل شىء ، وكانوا يعظمون محاورات أفلاطون بالقدر الذى يعظمون به العهد الجديد ، وبهذا عملوا ما عمله السوفسطائيون السابقون على عهد سقراط فى بلاد اليونان. فحطموا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة العقائد الدينية عند من كانوا يستمعون لهم ، سواء كان ذلك عن قصد أو غير قصد . وكانت حياتهم تنم عن عقيدتهم الحقيقية ، فقد كان الكثيرون يتخلقون بالأخلاق الوثنية فى ناحيتها الشهوانية لا فى ناحيتها الرواقية ، ولم يكونوا يؤمنون بالخلود إلا إذا كان هو الخلود الناشئ عن تسجيل الأعمال العظيمة ، وهو الخلود الذى لايهبه الله بل تهبه أقلامهم ، والذى يؤدى بالناس إما إلى المجد السرمدى أو العار الأبدى . وقد ارتضوا بعد جيل من أيام كوزيمو أن يقتسموا هذه القوة السحرية مع الفنانين الذين نحتوا أو رسموا صور أنصار الفن والأدب ، أو شادوا الصروح الفخمة التى تخلد أسماء الأسخياء الواهبين . وكانت رغبة هؤلاء الأنصار فى أن ينالوا هذا الخلود الدنيوى إحدى القوى الخلاقة فن النهضة وأدبها .

وظل تأثير الكتاب الإنسانيين القوة المسيطرة على الحياة العقلية فى أوربا الغربية نحو مائة عام . فقد كانوا هم الذين قووا إدراك الكتاب لجمال الشكل والتركيب ، وعلموهم أساليب البـــلاغة ، وزخرف القول ، وما للأساطير القديمة من سحر وفتنة ، وما للاقتباس من الكتاب الأقدمين من قوة ؛ وعلموهم التضحية بالمعنى فى سبيل سلامة العبارة وجمال الأسلوب . وكان افتتانهم باللغة اللاتينية هو الذي عاق تطور الشعر والنثر الإيطاليين مدى قرن كامل (١٤٠٠ — ١٥٠٠) ؛ وهم الذين حرروا العلم من سلطان الدين ، ولكنهم أخروا تقدمه بعبادتهم الماضى ، وباهتمامهم الشديد بالكم فى العلم بدل الملاحظة الموضوعية والتفكير الابتكارى . ومن أغرب الأشياء أن أقل ما لهؤلاء الكتاب من نفوذ هو الذى كان فى الجامعات ؛

وسبب ذلك أن هذه الجامعات كانت فى أيامهم قد تقادم عهدها فى إيطاليا ، وأن كليات الحقوق ، والطب ، والدين ، « والفنون » — أى اللغة ، والأدب ، والبيان والفلسفة — القائمة فى بولونيا ، وپدوا ، وپيزا ، وپياتشندسا ، وپاڤيا ، ونابلى ، وسينا ، وأرتسو ، ولوكا ، نقول كانت الكليات القائمة فى هذه المدن قد استحوذت عليها عادات العصور الوسطى استحواذا يرد عنها كل توكيد جديد للثقافات القديمة . وكان أكثر ما فعلته أنها أنشأت فى أماكن متفرقة كرسيا للبيان عينت فيه أحد هؤلاء الإنسانيين . أما ما كان « لإحياء الآداب » من أثر فقد جاء أكثره عن طريق المجامع العلمية التى أنشأها أنصار الأدب من الأمراء فى فلورنس ، ونابلى ، والبندقية . وفرارا ، ومانتوا . وميلان وروما . فقد كان الإنسانيون فى تلك المدن يملون ما يريدون مناقشته من النصوص القديمة باللغة اليونانية أو اللاتينية ؛ وكانوا فى خلال هـذا النقاش يعلقون باللغة اللاتينية على ما يتصل بهذه النصوص من مظاهر النحو ، والصرف ، والبيان ، والسير ، والجغرافية ، والأدب . وكان طلابهم يدونون ما يملونه عليهم من النصوص ويثبتون فى هوامش الصفحات كثيراً من الحواشى والتعليقات ؛ وبهذه الطريقة تضاعفت نسخ الآداب القديمة كما تضاعفت شروحها وانتشرت فى أنحاء العالم . ومن أجل ذلك كان عهد كوزيمو عهد الانهماك فى التعلم لا الانهماك فى الأدب المبتكر الخلاق ، فانحصرت أمجاد ذلك العصر الأدبية فى النحو ، والمعاجم اللغوية ، وعلم الآثار القديمة ، والبيان ، والمراجعة الانتقادية للنصوص القديمة . وهكذا استقرت طريقة التبحر الحديث فى العلم ، وأداته ، ومادته ، ومهد الطريق الذى سار فيه تراث اليونان وروما حتى وصل إلى عقول المحدثين .

ولم يبلغ العلماء منذ عهد السوفسطائيين مثل ما بلغوه وقتئذ من المنزلة العالية فى المجتمع وفى الشئون السياسية ؛ ذلك أن الكتاب الإنسانيين صاروا أمناء ومستشارين لمجالس الشيوخ ، والأمراء ، والأدواق ، والبابوات ؛

وكانوا يردون هذا العطف بالمديح المصوغ باللغة اللاتينية الفصيحة ، كما يردون على الصد عنهم والاستهزاء بهم بالهجاء اللاذع القاتل ؛ وقد بدلوا المثل الأعلى القديم للرجل الكامل المهذب من رجل شاكي السلاح لابس الزرد إلى إنسان كامل النماء بلغ أعلى درجات الحكمة والمنزلة الأدبية باستيعاب التراث الثقافى للجنس البشرى . وقد غزت شهرتهم العلمية وبلاغتهم الساحرة ما وراء جبال الألب من أوربا حين كانت جيوش فرنسا ، وألمانيا ، وأسپانيا تحتشد للاستيلاء على إيطاليا ؛ فأخذت هذه الثقافة تتسرب إليها قطرا بعد قطر ، وتنتقل بها من صبغة العصور الوسطى إلى الصبغة الحديثة ، فكان القرن الذى شهد كشف أمريكا هو بعينه الذى شهد إعادة كشف بلاد اليونان ورومة ، وكان التحول الأدبى والفلسفى الذى تم فى ذلك الوقت أبلغ أثراً فى الروح البشرية من الطواف حول الكرة الأرضية وارتياد مجاهلها . ذلك أن الإنسانيين لا الملاحين هم الذين حرروا عقول البشر من العقائد التعسفية ، وعلموهم أن يحبوا الحياة بدلا من التفكير النكد فى الموت ، وأطلقوا العقل الأوربى من عقاله .

وكان الفن آخر ما تأثر بالنزعة الإنسانية ، لأن هذه النزعة كانت أكثر تجاوبا مع العقل منها إلى الحواس . ولذلك ظلت الكنيسة حتى ذلك الوقت أكبر نصير للفنون ، كما كان أهم أغراض الفن هو نقل قصة المسيحية إلى غير المتعلمين وتجميل بيوت الله ؛ ولهــذا بقيت العذراء والطفل ، وآلام المسيح وصلبه ؛ وبقى الرسل ، وآباء الكنيسة ، والقديسون ، الموضوعات التى لا غنى عنها لفنى النحت والتصوير ، بل والفنون الصغرى كذلك . بيد أن الإنسانيين أخذوا يعلمون الإيطاليين شيئاً فشيئاً معنى للجمال أكثر شهوانية من ذى قبل ، علموهم الإعجاب الصريح بجمال الجسم الآدمى — ذكراً كان أو أنثى وخاصة إذا كان عاريا — وتغلغل هذا الإعجاب فى نفوس الطبقات المتعلمة ؛ وكان اهتمام أدب النهضة بالحياة وتوكيدها ، بدل التفكير فى الدار الآخرة مما أكسب الفن نزعة

دنيوية خفية ؛ وأدخل مصورو عصر لورندسو وما تلاه من العصور عناصر وثنية فى الفن المسيحى ، وذلك حين جاءوا بالحسان الإيطاليات يتخذونهن نماذج لتصوير العذراء ، وبالشبان الوسيمين الأقوياء ليكونوا نماذج للقديسين . ولما أخذ الأمراء الزمنيون ينافسون رجال الكنيسة فى السخاء على الفنيين وإمدادهم بالمال أثناء القرن السادس عشر تحدت ڤينوس (الزهرة) وأدريانى ، ودافنى ، وديانا ، وربات الشعر والأقدار ، تحدت هذه سلطان العذراء ؛ لكن مريم الأم ظلت محتفظة بسيطرتها الطيبة الصالحة إلى آخر أيام فن النهضة .

الفصل الخامس

العمارة : عصر برونيلسكو

نادى أنطونيو فيلاريتى Antonio Filarete فى عام ١٤٥٠ يقول : « لعن الرجل الذى ابتدع العمارة القوطية التعسة ! ولم يكن فى وسع أحد أن يدخلها إلى إيطاليا إلا شعب همجى » (٣٥) ؛ ذلك أن هذه الجدران المقامة من الزجاج لا توائم شمس إيطاليا الساطعة ، وبدت الدعامات الأفقية العالية (وإن كانت قد اتخذت فى كنيسة نوتردام ده پارى صورة جميلة فكانت كأنها ماء فى نافورة تجمد أثناء مسيله) فى أعين أهل الجنوب كأنها محالات قبيحة المنظر تركها وراءهم البناءون الذين عجزوا عن أن يكسبوا بناءهم استقرارا من تلقاء نفسه . لقد كان الطراز القوطى ذو العقد المستدق والقبة العالية يعبر أحسن تعبير عن آمال الأرواح الرقيقة العائدة من العمل المجهد فى الحقول إلى سلوى السماء ؛ غير أن الرجال الذين وهبوا من عهد قريب الثراء والراحة أضحوا يرغبون فى تجميل الحياة لا أن يفروا منها ويقدحوا فيها ؛ فكانوا يريدون أن يحيلوا الأرض جنة ، وأن يحيلوا أنفسهم أربابا .

ولم تكن عمارة النهضة الإيطالية فى أساسها ثورة على العمارة القوطية ، لأن هذه العمارة القوطية لم تكن لها الغلبة على إيطاليا فى يوم من الأيام ؛ فقد كان كل طراز وكل تأثير ممثلين بشىء ما فى تجارب القرنين الرابع عشر والخامس عشر : كانت فيها العمد الثقيلة ، والعقود المستديرة المأخوذة من الطراز الرومانسى اللمباردى ، والصليب اليونانى الذى كانت تخطط على صورته المبانى السفلى ، والقبة والعارضة المثلثة بين عقودها المتعامدة ، وأبراج النواقيس فى الكنائس التى أقيمت على منوالها مآذن المساجد الإسلامية .

والعمد الرفيعة فى الأديرة التسكانية التى تذكر الناظر إليها بعمد المساجد أو الأروقة الرومانية واليونانية القديمة ، والسقف ذات الكتل الخشبية فى إنجلترا وألمانيا ، والقبة المضلعة والعقد القوطى والشبابيك القوطية ؛ والفخامة المتناسقة فى الواجهات الرومانية ، وفوق هذا كله المتانة البسيطة فى صحن الباسلقا الذى يكتنفه من الجانبين جناحان يدعمانه . لقد كانت هذه العناصر كلها تمتزج فى إيطاليا امتزاجاً مثمراً حين أخذ الكتاب الإنسانيون يوجهون العمارة نحو خرائب رومة . وبدت وقتئذ العمد المحطمة فى السوق الرومانية ، التى كانت تتراءى من خلال ضباب العصور الوسطى لأعين الإيطاليين أعظم جمالا من طرز البندقية الغريبة ، أو فخامة تشارتر الكئيبة ، أو جسارة بوڤيه الهشة ، أو امتدادات قبة أمين الخفية الغامضة ؛ وأضحت الرغبة فى العودة من جديد إلى استخدام العمد الملتفة الجميلة ، الغائرة فى قواعد ضخمة ، والمتوجة بتيجان جميلة فى صورة الأزهار ، والمرتبطة بطيلات رصينة مهيبة المنظر ، نقول أضحت الرغبة فى استخدام هذه العمد ، حين أخذ الماضى القديم المدفون الحى يتلمس طريقه إلى الظهور ، هى الحلم الذى يراود خيال رجال من طراز برونلسكو ، وألبرتى ، وميكلتسو Michelozzo ، وميكل أنجيلو ، ورفائيل .

وكتب ڤاسارى الوطنى الصميم عن برونلسكو يقول : « أما فلپو برونلسكو فيمكننا أن نقول عنه إن الله قد وهبه القدرة على أن يكسب العمارة أشكالا جديدة بعد أن ضلت السبيل قروناً كثيرة »[٣٦] . وقد بدأ عمله صائغا شأن كثيرين من فنانى عصر النهضة الإيطاليين ، ثم درس فن النحت وظل وقتاً ما ينافس دوناتلو منافسة الصديق لصديقه ، ونازعه هو وجبرتى مهمة نقش الأبواب البرنزية لمكان التعميد فى فلورنس . ولما أبصر الرسوم التى وضعها دوناتلو غادر فلورنس ليدرس فن المنظور والتخطيط فى رومة ؛ فلما جاءها افتتن بما رآه فيها من العمائر القديمة وعمائر العصور الوسطى ، وشرع يقيس المبانى الكبرى بجميع عناصرها ، وكان أعظم ما أثار دهشته

قبة هيكل مجمع الآلهة الذى أقامه أجريا ، البالغ عرضها ١٤٢ قدماً ؛ ولاح له أن يتوج بقبة مثلها كتدرائية سانتا ماريا دل فيورى التى لم تكن قد تم بناؤها ، فى مسقط رأسه . وعاد إلى فلورنس فى الوقت الذى أمكنه فيه أن يشترك فى مؤتمر من المهندسين معماريين وغير معماريين ليبحثوا مشكلة سقف موضع المرتمين المثمن الأضلاع فى هذه الكتدرائية والبالغ عرضه مائة وثمانى وثلاثين قدماً ونصف قدم . واقترح فلبو أن تقام فوقه قبة ؛ ولكن الضغط إلى الخارج الذى سوف تحدثه هذه القبة الضخمة على الجدران التى لا تسندها دعامات من خارجها أو كتل خشبية من الداخل بدا لهؤلاء المهندسين عقبة لا يمكن التغلب عليها . والعالم كله يعلم قصة البيضة التى نطق بها برونلسكو : وكيف تحدى الفنانين المجتمعين أن يجعلوا البيضة تقف على أحد طرفيها ، فلما عجزوا جميعاً نجح هو فى هذا العمل بأن ضغط الطرف الغليظ الفارغ على المنضدة . ولما احتجوا عليه بقولهم إنه كان فى وسعهم أن يفعلوا ما فعله هو ، قال إنهم سوف يدعون مثل هـــذه الدعوى بعد أن تتم إقامة قبة الكتدرائية . وكلف هو بالعمل ، وظل أربعة عشر عاماً (١٤٢٠ — ١٤٣٤) بلا انقطاع يكدح فى القيام بهذا الواجب ، ويقاوم ألف محنة ومحنة حتى رفع القبة المزعومة بمقدار ١٣٣ قدماً فوق حافة الجدران التى تســتند إليها ؛ وانتهى من العمل آخر الأمر ، وقامت القبة ثابتة قوية . وابتهجت المدينة كلها لتمامها وعدته أول الأعمال المعمارية الكبرى فى عصر النهضة ، وأجرأ هذه الأعمال كلها عدا عملا واحداً لا غير . ولما صمم ميكل أنچيلو بعد قرن من الزمان قبة كنيسة الرسول بطرس ، وقيل له إنه قد أتيحت له الفرصة للتفوق على برونلسكو رد على ذلك بقوله : « سأقيم قبة مثلها وأختا لها ، أكبر منها ، ولكنها لا تفوقها فى الجمال »[٣٧] . ولا تزال هذه القبة الفخمة الزاهية تشرف على ما حولها من مناظر تمتد عدة فراسخ من مدينة فلورنس ذات السقف الحمراء التى ترقد كأنها حوض من الورد فى أحضان تلال تسكانيا .

وقد أخذ فليبو فكرته عن هيكل مجمع الآلهة ، ولكنه وفق أحسن التوفيق بينها وبين الطراز القوطى التسكانى الذى يتمثل فى كتدرائية فلورنس ، وذلك بأن جعل استدارة قبته على طراز العقد المستدق القوطى . لكنه حين سمح له بتخطيط مبان فى الطابق الأرضى جعل الانقلاب إلى الطراز القديم أتم وأوضح . وكان فى عام ١٤١٩ قد بدأ يشيد لوالد كوزيمو كنيسة سان لورنسو ؛ ولم يتم منها إلا « غرفة المقدسات » ؛ لكنه اختار لها طراز الباسلقا ، والبواكى ؛ والرواق المعمد ، والعقد الرومانسكى ، فجعلها هى العناصر التى بنى عليها تصميمه ؛ وبنى لأسرة پاتسى Pazzi فى أديرة سانتاكروتشى (الصليب المقدس) معبدا جميلا يعيد إلى الذاكرة قبة هيكل مجمع الآلهة فى أثينه ورواقه المعمد ، ثم اختط فى هذه الأديرة نفسها مدخلا مستطيل الشكل — من عمد ذات حزوز ؛ وتيجان على شكل أزهار ، وطيلات ذات تماثيل ، وحليات هلالية منقوشة — كان هو الطراز الذى صنع على نمطه مائة ألف باب والذى بقى حتى الآن فى كل مكان فى أوربا الغربية وأمريكا . ثم بدأ ينشئ على الطراز القديم كنيسة سانتو اسبريتو Santo Spirito ، ثم مات ولما يكد البناء يعلو على الأرض . ففى عام ١٤٤٦ كان جثمان هذا الفنان المولع بفنه سجى فى الكتدرائية محوطا بمظاهر العظمة وتحت القبة التى أقامها ، وأقبل عليه سكان فلورنس من كوزيمو إلى أصغر عامل كان يكدح فى ذلك المكان ، أقبلوا عليه جميعا ، وقد امتلأت قلوبهم أسى وحسرة على أن يكون الموت مآل العباقرة العظام . ويقول فيه ڤاسارى : لقد عاش كما يعيش المسيحى الصالح ، وخلف فى العالم آثار صلاحه وتقواه . . . . ولم يجد الزمان من عهد اليونان والرومان القدامى إلى يومنا هذا برجل أعظم منه ، لقد كان بحق منقطع النظير[٣٨] » .

وكان برونلسكو فى أيام حماسته المعمارية قد وضع لكوزيمو تصميم قصر بالغ من السعة والزخرف مبلغاً حمل هذا الحاكم المطلق المتواضع على أن يرفض الاستمتاع بمنظره حين يقوم لأنه يخشى حسد الناس له . ولهذا

كلف ميكلتسو دى بارتلميو Michelezzo di Baptolmmeo (١٤٤٤) ، أن يشيد له ولأسرته ومكاتبه بدل هذا القصر قصر آل ميديتشى Palazzo Medici أو الريكاردى Riecardil القائم اليوم ، ذا الجدران الحجرية السميكة الخالية من الزخرف ، والتى تنم عما كان فى ذلك الوقت من اضطراب اجتماعى ، ومنازعات عائلية ، وخوف دائم من العنف والثورة ، وهى العوامل التى كانت تبعث النشاط والحياة فى السياسة الفلونسة . وكان لهذا القصر أبواب ضخمة من الحديد يدخل منها الأصدقاء والدبلوماسيون ، والفنانون ، والشعراء إلى فناء مزدان بتماثيل من صنع دوناتلو ، ويؤدى إلى حجرات متوسطة الروعة ، ومعبد مزدان بمظلات فخمة زاهية من صنع بنتسوجوتسولى Benozzo Gozzoli . وأقام آل ميديتشى فى هذا القصر إلى عام ١٥٣٨ ، عدا الفترات التى نفوا فيها من المدينة ، ولكنهم كانوا بلا ريب يخرجون من هذه الجدران المكتئبة ليستمتعوا بأشعة الشلمس فى البيوت الريفية التى شادها كوزيمو خارج المدينة فى كاريجى Careggi ، وكفاجيولو Cafaggiolo ، وعلى منحدرات فيسولى Fiesole : وكانت هذه الملاجئ الريفية هى التى يأوى إليها كوزيمو ولورندسو ، وأصدقاؤهما ، وصنائعهما فراراً من عناء السياسة إلى الاستمتاع بالشعر ، والفلسفة ، والفن ؛ وإلى كاريجى أوى الأب والحفيد ليستقبلا الموت . وكان كوزيمو من حين إلى حين يفكر فيها بعد الموت فتبرع بكثير من المال لإقامة دير فى فيسولى Fiesole ، وليعيد بناء الدير القديم فى سان ماركو ويجعله أوسع رقعة وأكثر متعة . . وخطط ميكلتسو فى هذا الدير بواكى مسقوفة رشيقة ، ومكتبة تضم كتب نقولى ، وصومعة ينفرد فيها كوزيمو من حين إلى حين معتزلا أصدقاءه أنفسهم ليقضى يومه فى التأمل والصلاة .

وكان ميكلتسو أحب المهندسين إليه فى هذه المشروعات ، كما كان هو الصديق الوفى الذى صاحبه فى منفاه ، وعاد معه بعد النفى . وعهد إليه

الأمير بعد عودته بزمن قليل بذلك الواجب الدقيق واجب تقوية قصر ڤيتشيو لمقاومة ماكان يتهدده من خطر الانهيار . وقد جدد بناء كنيسة سانتسيما أننسياتا Santissima Annunziata ، وأنشأ لها معبداً جميلا ، وأثبت أله مثال ماهر حين زينها بتمثال للقديس يوحنا المعمدان . وشاد لپيرو Piero ابن كوزيمو معبداً فخما فى كنيسة سان منياتو San Miniato القائمة على سفح أحد التلال ، وعاون بمهارته دوناتلو فى تصميم « منبر النطاق » الجميل وحفره فى واجهة كتدرائية پراتو Prato ؛ ولو أن ميكلنسو كان وقتئذ يعيش فى غير بلده لكان هو بلا جدال حامل لواء فن العمارة .

وكان أثرياء التجار فى ذلك الوقت يشيدون أبهاء مدينة فخمة وقصوراً رائعة . وفى عام ١٣٧٦ عهد مجلس المدينة إلى بنتشى دى تشيونى Benci di Cione وسيمون دى فرانتشسكو تالنتى Simone di Francesco Talenti أن يشيدا رواقاً ذا عمد فى مواجهة قصر ڤيتشيو ليكون مكاناً يخطب فيه الحكام ، وأطلق على هذا الرواق فى القرن السادس عشر اسم « بهو حاملى الرماح » Loggia dei Lanzi لأن الدوق كوزيمو الأول أقام فيه الرماحة الألمان . وكان أفخم قصر خاص فى فلورنس هو الذى شاده (١٤٥٩) لوكا فانتيشلى Luca Fancelli للمصرفى لوكا پتى Luca Pitti من تصميم قام به برونلسكو قبل أن يشرع فى بنائه بتسعة عشر عاماً . وكان پتى يضارع كوزيمو فى الثراء أو يكاد يضارعه ؛ ولكنه لم يكن مثله حكيما فى تواضعه ، وكان ينازع كوزيمو السلطان ، وقد وجه إليه كوزيمو نصيحة لاذعة قال فيها :

إنك تسعى إلى غير غاية ، أما أنا فأسعى إلى غاية محددة ؛ وأنت تنصب سلالمك فى الهواء ، أما أنا فأنصبه على الأرض . . . ويبدو لى أن من العدل ومن الطبيعى أن أرغب فى أن يفوق مجد بيتى وشهرته شرف بيتك أنت وسمعته ، فلنفعل إذن ما يفعله كلبان كبيران يشم أحدهما الآخر

حين يلتقيان ، ويكشران عن أنيابهما ، ثم يسير كلاهما فى طريقه ، فتعنى أنت بشئونك ، وأعنى أنا بشئونى(٣٩) .

وواصل پتى مؤامراته ودسائسه ، ولم ينقطع عنها بعد موت كوزيمو ، بل أخذ يعمل على انتزاع السلطة من پيرو ده ميديتشى Piero de' Medici ، واقترف فى عمله هذا الجريمة الوحيدة التى لا يعفو عنها أحد فى عصر النهضة — وهى جريمة الإخفاق ، وأعقبها نفيه من بلده ، وخرابه ، وبقى قصره ناقصاً مدى قرن من الزمان .

الفصل السادس

النحت

١ — جبرتى

لقد كانت محاكاة الأشكال اليونانية والرومانية القديمة فى النحت أتم منها فى العمارة : ذلك أن رؤية الخرائب الرومانية ودراستها ، والكشف من حين إلى حين عن آية فنية رومانية كانا يبعثان فى المثالين الطليان رغبة قوية فى محاكاة هذه المخلفات . وقد يدل على ذلك ما كتبه جبرتى عن تمثال هرم أفروديتى Hermaphrodite الملقى على وجهه الآن فى البهو البرغى Borghese Gallery مستديراً بظهره إلى النظارة كأنه غير عابئ بهم ، وذلك حين وجد هذا التمثال فى كروم سان تشاسو San Celso : إن البيان ليعجز عن أن يصف ما يكشف عنه هذا التمثال من علم وفن أو يوفى طرازه الرائع حقه من الثناء » ؛ ويضيف إلى هذا قوله إن ما بلغته هذه الأعمال من الكمال لأعظم من أن تدركه العين ، ولا يستطاع تقديره إلا بمرور اليد على سطحه ومنحنياته الرخامية(٤٠) . ولما زاد عدد هذه المخلفات المستخرجة من باطن الأرض وألف الناس رؤيتها ، اعتاد العقل الإيطالى على مهل مشاهدة التماثيل والصور الفنية العارية ، وأضحت دراسة التشريح مما يعنى به فى مراسم الفنانين كما يعنى به فى قاعات الطب ، وسرعان ما أخذت النماذج العارية تستخدم بلا خوف ولا حياء . وكان من أثر هذا الحافز القوى أن خرج فن النحت من سيطرة العمارة ومن النقوش على الحجر أو الجص إلى تماثيل البرنز أو الرخام المجسمة .

لكن النقش البارز هو الذى ظفر فيه فن النحت بأشهر انتصاراته

فى فلورنس على عهد كوزيمو . ذلك أن بناء التعميد القبيح المنظر المخطط الذى كان يواجه الكتدرائية لم يكن يزيل قبحه إلا الزخارف التى تضاف إليه . وكان ياقوبو توريتى Iacopo Torriti قد زخرف قبلئذ المنصة ، كما زخرف أندريا تافى Andrea Tafi السقف المقبب بنقوش فسيفسائية متزاحمة ؛ كذلك كان أندريا پزانو Andrea Pisano قد صنع للواجهة الجنوبية باباً مزدوجاً من البرنز (١٣٣٠ — ١٣٣٦) . حدث هذا كله من قبل ، أما الآن (١٤٠١) فإن مجلس السيادة فى فلورنس قد اعتمد بالاشتراك مع طائفة تجار الصوف مبلغاً كبيراً من المال ينفق فى صنع باب من البرنز للواجهة الشمالية ، لعل هذا العمل يرضى عنهم الله فيقضى على وباء الطاعون المنتشر وقتئذ . وأجريت لذلك مباراة ، ودعى جميع الفنانين فى إيطاليا لتقديم الرسوم ، وكان أعظمهم توفيقاً هم برنلسكو ، وياقوبو دلا كويرتشيا Jacopo della Quercia ، ولورندسو جبرتى ، وعدد قليل آخر من الفنانين ، فعهد إليهم أن يصبوا لوحة نموذجية من البرنز تمثل تضحية إبراهيم بإسحق(*) . وعرضت الألواح كاملة بعد عام من ذلك الوقت على القضاة الأربعة والثلاثين — من مثالين ، ومصورين ، وصياغ . وأجمع المحكمون على أن اللوحة التى صنعها جبرتى كانت أحسنها كلها ، وشرع الشاب الذى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره من ذلك الوقت يصنع البابين الأولين من أبوابه البرنزية الذائعة الصيت .

وليس فى وسع إنسان أن يعرف لماذا استغرق العمل فى تصميم هذا الباب الشمالى وصبه الجزء الأكبر من السنين الإحدى والعشرين التالية ، إلا من درس هذا الباب دراسة دقيقة عن كثب . وكان يساعد جبرتى عمله مساعدة كريمة دوناتلو ، وميكلتسو ، وطائفة كبيرة من الأعوان

(*) الذى يقول به المسلمون والذى جاء به القرآن أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحق . (المترجم)



(شكل ٤) أبواب مكان التعميد بفلورنس

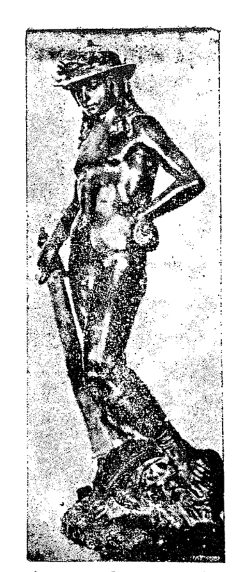
تصوير اوزسو جبرتي

كأنهم جميعاً قد عقدوا العزم على أن تكون النقوش المطلوبة أجمل النقوش البرنزية فى تاريخ الفن كله ، وأن فلورنس تتطلع إليهم ليجعلوها كذلك ، وقسم جبرتى البابين إلى ثمان وعشرين لوحة : منها عشرون تروى حياة المسيح ، وأربع تصور الرسل ، وأربع تمثل علماء القوانين الكنسية ؛ ولما أن صممت هـذه الألواح كلها ؛ وانتقدت ، ثم أعيد تصميمها ، وصبت ، ووضعت فى أماكنها على الباب ، لم يستكثر واهبو المال ما أنفقوه عليها وهو ٢٢٫٠٠٠ فلورين (٥٥٠٫٠٠٠ دولار) ، بل عهدوا إلى جبرتى أن يصنع باباً مزدوجاً آخر للناحيـة الشرقية من بناء التعميد (١٤٢٥) . وكان يساعد جبرتى فى هذا العمل الثانى الذى استغرق سبعة وعشرين عاماً رجال ذاع صيتهم من قبل ، أو بعد قليل من ذلك الوقت : برونلسكو ، وأنطونيو فيلاريتى ، وباولو أتشلو Paolo Uccello وأنطونيو دل پولايولو Antonio del Pollaiuolo وغيرهم . وأصبح مشغله على مر الزمن مدرسة للفن أنجبت أكثر من عشرة من العباقرة . وكان البابان الأولان يشرحان أجزاء من العهد الجديد ، أما هذان البابان فقد مثل فيهما جبرتى على عشر لوحات مناظر من العهد القديم ، تبدأ من خلق الإنسان وتنتهى عند مجيء ملكة سبأ إلى سليمان ، وأضاف على جوانبهما عشرين شكلا من النقش الكامل أو القريب من الكمال وزخارف متنوعة — من حيوان ونبات — ذات جمال فائق رائع . وهنا تلاقت العصور الوسطى وعصر النهضة تلاقياً منسجماً أتم انسجام : فمثلت فى اللوحة الأولى قصص العصور الوسطى عن خلق آدم ، وإغواء حواء له ، وخروجهما من الجنة ، وقد عولجت هذه الموضوعات وكانت شخصياتها إما مكتسية بأثواب مسترسلة كأثواب اليونان والرومان الأقدمين أو عارية وكثير منها عار كل العرى . وكانت الصورة التى تمثل حواء وهى خارجة من جسم آدم تضارع النقش الهلنستى الذى يمثل أفروديتى خارجة من البحر . وقد دهش الناس حين وجدوا فى خلفية النقش مناظر تكاد تضارع فى دقة مراعاتها لفن المنظور ،

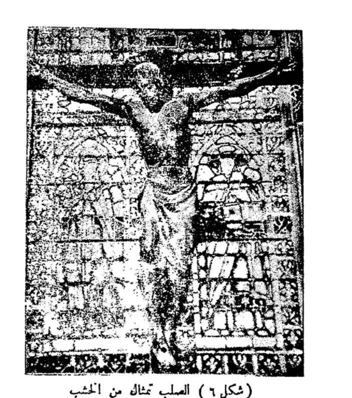
وفى وفرة التفاصيل ما يجدونه فى أحسن الصور الملونة التى رسمت فى ذلك الوقت . ومنهم من كان يشكو من أن هذه النقوش تعتدى على فن التصوير أكثر مما يجب ، وتتخطى التقاليد الموضوعة لفن النقش اليونانى الرومانى القديم . ولسنا ننكر أن هذه الشكوى صادقة من الوجهة العلمية النظرية البحتة ، ولكن الأثر الذى تحدثه كان أثراً حياً واضحاً سامياً . وكان هذا الباب المزدوج الثانى بإجماع الآراء أجمل من الباب الأول ، وكان ميكل أنچيلو يرى أنه « بلغ من الجمال حداً يجعله خليقاً بأن يزدان به مدخل الجنة » ، وكذلك يقول عنه ڤاسارى ، وهو بلا ريب لا يفكر إلا فى النقوش ، إنه « يبلغ حد الكمال فى جميع دقائقه وتفاصيله ، وإنه أجمل آية فنية فى العالم كله عند الأقدمين والمحدثين على السواء[٤١] » . وسرت فلورنس من هذا العمل سروراً دفعها إلى أن تختار جبرتى لمجلس السيادة فى المدينة ، ووهبته من المال ما يستعين به على الحياة فى شيخوخته .

٢ — دوناتلو

يظن ڤاسارى أن دوناتلو كان من بين الفنانين الذين اختيروا لكى يعدوا لوحات تجريبية لأبواب بناء التعميد ، ولكن الحقيقة أن دوناتلو كان وقتئذ غلاماً لا يتجاوز السادسة عشرة من العمر . وقد أطلق عليه أصدقاؤه ذلك الاسم المصغر المحبب الذى يعرفه به الخلف ؛ أما اسمه الحقيقى فهو دوناتو دى نقولو دى بتوباردى Donato di Niccolò di Betto Bardi'. ولم يتعلم فى مشغل جبرتى إلا بعض فنه ، ولكنه سرعان ما شق طريقه لنفسه وانتقل من رشاقة نقوش جبرتى التسوية إلى تماثيل الرجولة المجسمة ، وأحدث فى فن النحت انقلاباً يقوم على إخلاصه للطبيعة وتمسكه بأصولها وقوة شخصيته المبتكرة وطرازه المبدع الخالى من الزخرف والتجميل ، أكثر مما يقوم على الأساليب والأهداف اليونانية



(شكل ٥) داود — تمثال من البرنز فى بارجلو بفلورنس — من صنع دوناتلو



(شكل ٦) الصلب تمثال من الخشب فى كنيسة الصليب المقدس فى فلورنس

(انظر ص ١٧١)

والرومانية القديمة . لقد كان دوناتلو ذا روح مستقلة لا تقل قوة عن تمثاله **لداود** أو جرأة عن تمثاله **للقديس جورج** .

ولم تنضج عبقريته بالسرعة التى نضجت بها عبقرية جبرتى ، ولكنها كانت أسمى منها وأوسع مجالا . ولما أن تم نضوجها أخذت تنثر الآيات الفنية الرائعة بلا حساب حتى امتلأت فلورنس بتماثيل من صنعه ، ورددت أصداء شهرته أصقاع ما وراء جبال الألب . ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره نافس جبرتى بأن صنع لأورسان ميتشيل Or San Michele ، تمثالا القديس بطرس ، ثم فاقه وهو فى السابعة والعشرين حين أضاف لهذا الصرح تمثالا للقديس مرقس بلغ من القوة ، والبساطة ، والإخلاص درجة « يستحيل معها أن يرفض الإنسان الإنجيل الذى يبشر به مثل هذا الرجل الصريح » على حد قول ميكل أنچيلو (*) (٤٢) وكان دوناتلو وهو فى الثالثة والعشرين قد كلف بنحت تمثال **داود** ليوضع فى الكتدرائية ، ولم يكن هذا إلا واحداً من عدة تماثيل لداود قام بصنعها ؛ ذلك أن موضوعها كان لا ينفك يطرب خياله . ولعل أجمل أعماله كلها هو تمثال **داود** المصنوع من البرنز ، والذى كلفه به كوزيمو وصبه فى عام ١٤٣٠ وأقيم فى فناء قصر آل ميديتشى وهو الآن فى بارجلو Bargello . وكان هذا التمثال أول تمثال عار مجسم من تماثيل النهضة ظهر فى غير حياء أمام الجماهير : كان له جسم أملس متين البناء يطالعك لحمه بنضرة الشباب وقوته ، ووجه لعله أسرف فى جعل صورته الجانبية يونانية الملامح ، وخوذة ، لا شك

(*) أورسان ميتشيل هو المزار الدينى الذى أقامه فرانتشسكو ، وسيمون تالنتى ، وبنسى سيوفى (١٣٣٧ – ١٤٠٤) للطوائف الكبرى لأرباب الحرف . وكانت كل طائفة من هذه الطوائف يمثلها فيه تمثال وضع فى كوة فى الجدران الخارجية . وقد قام بصنع هذه التماثيل من الفنانين جبرتى ، وفروتشيو ، ونانى دى بانكو ، وجيان بولونيا .

أنها أكثر يونانية من الحد الواجب . ولقد نبذ دوناتلو الواقعية فى هذه المرة ، واستسلم الفنان لخياله ، وكان يبلغ فى هذا التمثال ما بلغه فيما بعد تمثال ميكل أنجيلو الأكثر منه شهرة للملك العبرانى .

ولكنه لم يلق فى تمثال المعمدان ما لقيه من النجاح ؛ ذلك أن هذا الموضوع موضوع شاق غريب على روحه الدنيوية ؛ ولهذا كان تمثالا يوحنا القائمان فى بارجلو سخيفين ليس فيهما حياة . وأجمل منهما كثيراً رأس طفل سمى لغير سبب معقول سان جيوفانينو — رأى القديس يوحنا الصغير . ومن التماثيل التى تشاهد فى معرض دوناتلو أيضاً تمثال القديس جورج الذى يجمع بين واقعية المسيحية المجاهدة وخطوط الفن اليونانى المقيدة غير الطليقة . ووقفة التمثال قوية تنم عن الثقة بالنفس ، والجسم قوى ناضج ، والرأس بيضى قوطى ولكنه يستبقى رأس برونس الرومانى الطراز الذى نحته بوانارتى Buonarotti . وضع لواجهة كتدرائية فلورنس تمثالين قويين لإرميا وحبقوق ، وكان ثانيهما أصلع إلى حد جعل دوناتلو يطلق عليه اسم « القرعة الكبيرة » . ولا يزال تمثال يوديث القائم فوق « بواكى الرماحة » والذى صنعه دوناتلو تنفيذاً لأمر كوزيمو ، ولا يزال هذا التمثال يلوح بسيفه فوق هولوفرنير Holofernes . ويرى القائد الذى دس له المخدر فى النبيذ نائماً فى هدوء قبل أن يقطع رأسه ؛ والفكرة التى أوحت به وطريقة تنفيذها غاية فى البراعة ، ولكن الفتاة التى قتلت الطاغية تقبل على عملها مرتدية كامل ثيابها فى هدوء لا يتفق مع رهبة الموقف .

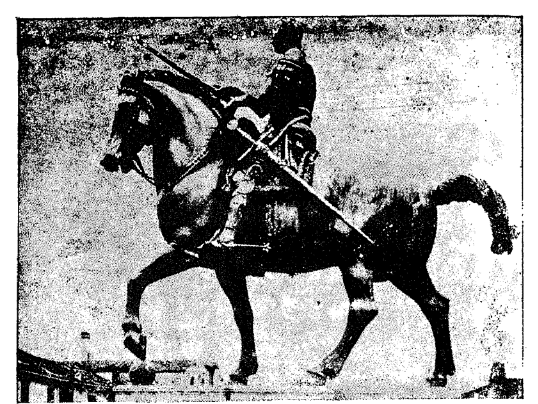
ووضع دوناتلو أثناء رحلة قصيرة إلى رومة (١٤٣٢) تصميم معبد من الرخام قديم الطراز لكنيسة القديس بطرس القديمة . وأكبر الظن أنه درس وهو فى رومة التماثيل النصفية الباقية من عهد الإمبراطورية ؛ وسواء كان ذلك أو لم يكن فقد كان هو الذى عمل أول تمثال نصفى ذى شأن فى عصر النهضة . وكانت خير صوره الفنية كلها تمثاله النصفى الذى صنعه من الطين

المحروق الملون والذى يصور السياسى نقولو دا أتساتو Niccoò de Uzzno .
وقد سلى نفسه وعبر عنها فى هذا التمثال بنزعة واقعية تكشف الرجولة الحقة وإن كانت لا تضفى على صاحبها شيئاً من التمجيد والثناء . وفيه كشف دوناتلو لنفسه عن الحقيقة القديمة القائلة إن الفن ليس فى حاجة دائمة إلى الجرى وراء الجمال ، بل إن عليه أن يختار الأشكال ذات القيمة ويبرزها الناظرين . وكان كثير من الكبراء يعلنون أن تماثيله المنحوتة لاتظهر الأشكال على حقيقتها ، ولم تكن نتيجة عملهم هذا أحياناً فى مصاحتهم . ومن ذلك أن تاجراً من أهل جنوى ، لم يرض عن نفسه كما صوره دوناتلو فأخذ يساوم فى ثمن التمثال ، فلما عرض الأمر على كوزيمو حكم بأن الثمن الذى يطلبه دوناتلو أقل من الواجب أداؤه . وشكا التاجر من أن الفنان لم يقض فى العمل إلا شهراً واحداً ، ومعنى هذا أن الأجر الذى يطلبه يصل إلى نصف فلورين (١٢,٥ دولار) فى اليوم وهو أكثر مما يجب أن يتقاضاه إنسان ليس إلا فناناً . فما كان من دوناتلو إلا أن حطم التمثال إلى ألف قطعة ، وقال إن هذا الرجل لم يؤت من الذكاء إلا القدر الذى يستطيع أن يساوم به على حبات الفول(٤٣) .

لكن مدائن إيطاليا كانت تقدره تقديراً أحسن من هذا وتتنافس فى الانتفاع بخدماته ، وأغرته كل من سينا ؛ ورومة ، والبندقية بالإقامة فيها وقتاً ما ، ولكن پدوا هى التى صنع فيها روائعه ، فقد نحت لمذبح كنيسة القديس إنثونى St. Anthony ستاراً من الرخام غطيت به عظام الراهب الفرانسيسى العظيم ، ووضع فوقه نقوشاً متحركة وتمثالا برنزياً لصلب المسيح تنم فكرته عن حنان ورقة منقطعى النظير . وأقام فى الميدان الذى أمام الكنيسة (١٤٥٣) أول تمثال عظيم لفارس فى الزمن الحديث ؛ وما من شك فى أنه استمد وحى هذا التمثال من تمثال أورليوس الراكب القائم فى رومة ، ولكن وجهه ومزاجه يستوحيان عصر النهضة دون غيره من العصور . ولم يجعله

المثال مثلاً أعلى للملك الفيلسوف ، بل صوره رجلا تتمثل فيه طبيعة عصره ، قاسياً ، غير هياب ، وقوياً . ذلك هو تمثال جتاميلاتا **Gattammelata** قائد مدينة البندقية المشهور باسم (القط المعسول) . ولسنا ننكر أن جسم الجواد الغاضب ، الذى يقذف بالزبد من فيه أكبر من أن يتناسب مع ساقى راكبه ، وأن الحمام يلوث فى كل يوم الرأس الأصلع للزعيم الفاتح المغامر ؛ ولكن وقفة التمثال تدل على الزهو والقوة كأن ما كان يتوق إليه مكيفلى من حب الناس للفن قد امتزج هنا مع البرنز المصهور ليكسب تمثال دوناتلو القوة والصلابة . وكانت پدوا تنظر فى دهشة وتمجيد إلى تمثال هذا البطل الذى أنقذه دوناتلو من النسيان والفناء ؛ ووهبت الفنان ١٦٥٠ دوقة ذهبية (٤١٫٢٥٠ دولاراً) فى نظير الست السنين التى قضاها فى الكدح المتواصل ، وطلب إليه أهلها أن يتخذ مدينتهم وطناً له ، ولكنه رفض ذلك العرض فى نزوة من نزواته ؛ فقد رأى أن فنه لا يمكن أن يرقى فى پدوا حيث يثنى جمع الناس عليه ، ولهذا فإن من واجبه لخير الفن نفسه أن يعود إلى فلورنس حيث ينتقده جميع أهلها .

والحق أنه عاد إلى فلورنس لأن كوزيمو كان فى حاجة إليه ، ولأنه كان يحب كوزيمو ، يحبه لأن كوزيمو كان يفهم الفن . ويعهد إليه بأعمال تدل على الفطنة ، ويجزيه عليها الجزاء الأوفى ؛ وقد بلغ الوفاق بينهما حداً يستطيع معه دوناتلو أن « يدرك ما يرغب فيه كوزيمو من أقل إشارة تبدر منه »(٤٤) . وقد أخذ دوناتلو بإيحاء كوزيمو يجمع القديم من التماثيل ، والتوابيت ، والعقود المعمارية ، والعمد ، وتيجانها ، ويضعها كلها فى حديقة آل ميديتشى لكى يدرسها الناشئون من الفنانين . وأنشأ دوناتلو بمعاونة ميكلتسو استجابة لرغبة كوزيمو قبراً فى مكان التعميد للبابا المطرود يوحنا الثالث والعشرين اللاجئ إليه . ونحت لكنيسة سان لورنسو كنيسة كوزيمو المحبوبة منبرين زينهما بنقوش برنزية ، ومن هذين المنبرين وغيرهما كان سفنرولا فيما بعد



(شكل ٧) جاميلاتا فى بدوا
من صنع دوناتلو



(شكل ٨) العذراء والطفل من الطين المحروق
نقش بارز فوق مدخل الباديا بفلورنس — من صنع لوكا دلا روبيا
(انظر ص ١٧٥)

يصب صواعقه على آل ميديتشى المتأخرين . وأنشأ للمذبح تمثالا نصفياً جميلا من الطين المحروق للقديس لورنس ، ثم صنع لغرفة المقدسات القديمة زوجين من الأبواب البرنزية وتابوتاً يتسم بالبساطة والجمال لأبوى كوزيمو .
وتوالت أعماله الأخرى كأنها عبث أطفال : منها نقش بديع على الحجر يمثل الصعود لكنيسة الصليب المقدس ، وصنع للكتدرائية تماثيل للغلمان المغنين وهم جماعة من الغلمان المكتنزين يرتلون الترانيم فى حماسة عظيمة (١٤٣٣ — ١٤٣٨) ، ومنها تمثال نصفى من البرنز لشاب كأنه صحة الشباب مجسمة (وهو الآن فى المتحف الفنى بنيويورك) ، وتمثال لسانتا تشيتشيليا Santa Cicilia (وقد يكون من صنع دزيدريو دا سنتيانو) بلغ من الجمال حداً يكفى لأن يجعله ربة للغناء مسيحية ، ونقش برنزى يمثل صلب المسيح (فى برجلو) لا يسع الناظر إليه إلا أن يعجب بتفاصيله الواقعية ؛ ومنها فى كنيسة الصليب المقدس تمثال منفرد ضامر من الخشب يعد من أكثر صور هذا المنظر تأثيراً فى النفس رغم ما وجهه إليه برونلسكو من نقد ووصفه إياه بأنه « فلاح مصلوب » .

وتقدمت السن بالفنان ونصيره معاً ، وعنى كوزيمو بالمثال عناية قلما كان دوناتلو معها يفكر فى المال . ويقول ڤاسارى فى هذا إنه كان يحتفظ بماله فى سلة معلقة فى سقف مشغله ، وكان يأمر معاونيه وأصدقاءه أن يأخذوا منها ما يشاءون كل بقدر حاجته دون أن يرجعوا إليه فى ذلك . ولما حضرت كوزيمو الوفاة (١٤٦٤) ، أوصى ابنه پيرو بأن يرعى دوناتلو ؛ ووهب پيرو الفنان الشيخ بيتا فى الريف ، ولكن دوناتلو لم يلبث أن عاد إلى فلورنس ، لأنه كان يفضل مشغله المعتاد عن شمس الريف وحشراته . وعاش الفنان معيشة بسيطة قانعاً بها حتى بلغ الثمانين من عمره . واشترك جميع الفنانين فى فلورنس ، بل اشترك أهلها كلهم تقريباً ، فى جنازته حتى ووري فى مقره الأخير فى قبو سان لورندسو بجوار قبر كوزيمو نفسه (١٤٦٦) كما طلب هو فى حياته .

وقد ارتقى دوناتلو بفن النحت رقيا لا حد له ، ولسنا ننكر أنه كان من حين إلى حين يصب فى مواقف شخصياته أكثر مما يجب من القوة ومن دقة التصميم ، وكثيراً ما كان يعجز عن أن يبلغ الشكل المصقول الحد الذى يعلى من قدر أبواب جبرتى . ولكن أخطاءه كان مردها إلى تصميمه على أن يعبر عن الحياة أكثر مما يعبر عن الجمال ، وعن الخُلُق المعقد أو المزاج العقلى لا عن الجسم القوى الصحيح فحسب . كذلك ارتقى دوناتلو بفن النحت الملون وذلك بتوسيع مداه ، فلم يجعله مقصوراً على الأغراض الدينية بل جعله يشمل كذلك الأغراض الدنيوية ، وبما حبا به موضوعاته من تنويع ، وانفرادية ، وقوة لم يسبق لها مثيل ؛ وهو الذى أنشأ أول تمثال للفارس بقى إلينا من عهد النهضة ، وتغلب فى هذا العمل على مائة من الصعاب الفنية ؛ ولم يتفوق عليه من المثالين غير واحد منهم ، وحتى هذا التفوق كان مرده إلى أن صاحبه قد ورث ما تعلمه دوناتلو ، وأبدعه ، وعلمه غيره . ذلك هو برتلدو Bertolda تلميذ دوناتلو ومعلم ميكل أنچيلو

٣ — لوكا دلا ربيا

إن الصورة التى ترتسم فى عقولنا ، حين نقرأ ترجمتى ڤاسارى لحياة جبرتى ودوناتلو ؛ لتظهر مشغل المثال فى عصر النهضة فى صورة مشروع تعاونى تعمل فيه كثير من الأيدى ، ويوجهه عقل واحد ، ولكنه ينقل الفن يوماً بعد يوم من الأستاذ إلى الطلاب المتعلمين جيلا بعد جيل . وتخرج من المشاغل مثالون صغار خلفوا فى التاريخ أسماء لا تضارع فى شهرتها أسماء أساتذتهم الكبار ، ولكنها ساعدت بالحد الذى وصلت إليه على أن تشكل الجمال الزائل فى صورة خالدة . ومن هؤلاء المثالين الصغار نانى دى بانكو Nanni di Banco الذى ورث ثروة كبيرة ، أمكنته من أن يصبح إنساناً عديم القيمة ؛ ولكنه أحب النحت ودوناتلو ، وتتلمذ عليه وكان وفيا له

حتى استطاع أن ينشئ لنفسه مشغلا مستقلا . وقد نحت تمثالا لسانت فليب يوضع فى كوة فى مركز طائفة الحدائين فى أورسان ميشيل كما صنع للكنيسة تمثالا للقديس لوقا جالسا وممسكا الإنجيل بيده ، وينظر بالثقة الكاملة التى يبعثها فى النفس الإيمان الجديد بإيطاليا فى عهد النهضة التى بدأت وقتئذ فقط تداخلها الريبة فى الدين .

وجمع الأخوان برناردو وانطونيو رسلينو Bernardo & Antonio Resselino حذقهما فى العمارة والنحت فى مشغل آخر ؛ فوضع برناردو تصميما لقبر من الطراز الرومانى القديم لليوناردو برونى Leonardo Bruni فى كنيسة الصليب المقدس ، ثم انتقل إلى رومة حين جلس نقولاس الخامس على كرسى البابوية ، وانهمك فى الثورة المعمارية التى أحدثها البابا العظيم . وبلغ أنطونيو ذروة مجده فى سن الرابعة والثلاثين (١٤٦١) حين أنشأ قبرا رخاميا فى سان منياتو San Miniato بفلورنس لدون چايمى Don Jlayme كردنال البرتغال . ويتمثل فى هذا القبر انتصار الطراز الرومانى القديم فى كل شيء ما عدا جناحى الملاك ، وملابس الكردنال ، وتاج حفته — لأن دون أذهل العالم بطهارته . وفى أمريكا الآن مثلان جميلان من أعمال أنطونيو — هما التمثال النصفى الرخامى الذى يمثل المسيح الطفل والقائم فى مكتبة مورجان Morgan وتمثال الشاب يوحنا المعمدان المحفوظ فى المعرض القومى ، وهل يوجد فى أى مكان مثل للنحت الملون الواقعى أنبل من الرأس القوى المموج بالأوعية الدموية والأخاديد التى أوجدها فيها التفكير العميق ، والذى يمثل رأس الطبيب چيوڤنى دى سان منياتو Giovanni di San Miniato والمحفوظ فى متحف فكتوريا وألبرت ؟

وجاء دزدريو دا ستنيانو Desiderio da Settignano إلى فلورنس من مدينة ستنيانو القريبة منها والتى ينتسب إليها . وانضم إلى من كانوا يعملون

مع دوناتلو ، ورأى أن عمل أستاذه لاينقصه إلا الصقل الذى يتطلب الصبر الطويل ، وامتازت أعماله بالظرف والبساطة ، والرشاقة . ولم يبلغ القبر الذى صنعه لمرسيينى القبر الذى أقامه رسلينو لبرونى ، ولكن المعبد الذى وضع تصميمه لكنيسة سان لورندسو (١٤٦٤) ، قد سر له كل من وقعت عليه عيناه ، وقد زاد من شهرته ما صـــنعه من تماثيل ملونة ونقوش محفورة ، وإن لم تكن هذه هى أعماله الجوهرية(*) وتوفى فى سن السادسة والثلاثين ، ترى ماذا كان يستطيع أن يفعل لو أنه عاش كما عاش أستاذه حتى بلغ سن الثمانين ؟

ووهب لوكا دلاربيا من العمر اثنتين وثمانين سنة ، استخدمها على خير وجه ؛ فرفع العمل فى الطين المحروق إلى مستوى يكاد يضعه فى مصاف الفنون الكبرى ، وذاعت شهرته أكثر مما ذاعت شهرة دوناتلو نفسه ، وما من متحف فى أوربا لا تعرض فيه الآن تماثيل من صنعه للعذراء ، ونماذج من أعماله فى الصلصال الملون الأزرق والأبيض . وقد بدأ لوكا عمله صائغا ، كما بدأه كثيرون من فنانى النهضة ، فلما تعلم فى ميدان التصوير الصغير جميع دقائق التصميم ، انتقل إلى نقش التماثيل ونحت خمساً من الأوانى الرخامية لمعبد چيتو . ولعل خزَنة الكنيسة لم يخبروا لوكا أن هذه التحف تفوق أعمال چيتو نفسها ، ولكنهم سرعان ما عهدوا إليه أن يزين شرفة الأرغن بنقش يصور الغلمان والفتيات المرنمين والمرتمات فى أثناء نشوة الترنيم . ونحت دوناتلو بعد عامين من ذلك الوقت نقشا يماثله ، ولايزال هذان النقشان يواجه أحدهما الآخر فى معرض *تحف الكنيسة* ، ويبرز كلاهما فى قوة عظيمة حيوية الطفولة ، وقد أعاد عصر النهضة فى هذين النقشين استخدام الأطفال فى الفن . ثم عهد إليه سدنة الكنيسة فى

(*) أضف إلى هذه الأعمال تماثيله النصفية التى صنعها لماريتا أسترتسى Marietta Strozzi والمحفوظة فى مكتبة مرجان بنيويورك وبالمعرض القومى بواشنجتن .

عام ١٤٤٦ أن يعد نقوشا لأبواب من البرنز خاصة بمكان المقدسات فى إحدى الكنائس الكبرى . ولم تبلغ هذه النقوش ما بلغته نقوش جبرتى ، ولكنها كانت هى التى أنقذت حياة لوندسو ده ميديتشى أثناء مؤامرة پاتسيا Pazzia ، ونادت فلونس كلها وقتئذ بأن لوكا من الفنانين العظام .

وكان حتى ذلك الوقت قد اتبع الأساليب التقليدية التى يجرى عليها فن المثال ، إلا أنه كان فى هذه الأثناء يقوم ببعض التجارب على الصلصال ، ويبحث عن طريقة يستطيع بها أن يجعل هــذه المادة المطواعة جميلة فى نسيجها جمال الرخام نفسه . فكان يشكل الصلصال بالصورة التى يرسمها فى ذهنه ، ثم يغطيه بطبقة زجاجية براقة يستخدم فيها مواد كيميائية مختلفة ، ثم يحرقه فى أتون بنى لهذا الغرض خاصة . وأعجب سدنة الكنيسة بنتيجة هذه التجارب ، وعهدوا إليه أن يصنع صوراً من الصلصال المحروق تمثل البعث والصعود فوق أبواب أماكن المقدسات فى الكنائس الكبرى (١٤٤٣ — ١٤٤٦) . وكانت هذه الألواح ذات لون أبيض منفرد ، ولكنها كان لها تأثير عظيم بفضل مادتها الجديدة ورقة صقلها وجمال تصميمها . وطلب كوزيمو وابنه پيرو أن تصنع نقوش شبيهة بها من الصلصال المحروق يزدان بها قصر آل ميديتشى ومعبد پيرو فى سان ميناتو San Minato . وقد أضاف لوكا فى هذه النقوش اللون الأزرق إلى اللون الأبيض الغالب عليها . وتوالت عليه وقتئذ الطلبات بكثرة أغرته على الإسراع فى عمله والتساهل فيه ، فزين مدخل كنيسة الانيسانتى Ognissanti ، بصورة من الصلصال المحروق تمثل تتويج العذراء ، كما زين مدخل كنيسة باديا Badia بصورة رقيقة من النوع نفسه تمثل العذراء والطفل يحف بهما ملائكة تغرينا بأن نؤمن بخلود السماوات . ثم شرع يعمل صورة كبرى

من الصلصال المحروق تمثل **الزيارة** (*) لتوضع فى كنيسة سان چيوفنى فى پستويا Pistoia ، وقد خرج فى هذا النقش على التقليد المألوف الذى يمثل ملامح اليصابات العجوز ، وسذاجة الفتاة مريم وطهرها وحيائها . وقصارى القول أن لوكا أنشأ بعمله مملكة جديدة للفن ، وأوجد أسرة من آل دلا ربيا ظلت مزدهرة حتى آخر ذلك القرن .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات ، وتحتفل الكنيستان الرومانية واليونانية بذكرى هذه الزيارة فى اليوم الثانى من شهر يوليه فى كل عام . (المترجم)

الفصل السابع

التصوير الملون

١ — مساتشيو

كان للرسم الملون الغلبة على النحت فى إيطاليا أثناء القرن الرابع عشر ، وكان للنحت الغلبة على الرسم الملون فى القرن الخامس عشر ، ثم عادت الزعامة مرة أخرى للرسم فى أثناء القرن السادس عشر ؛ ولعل لعبقرية چيتو فى القرن الثالث عشر ، ودوناتلو فى القرن الرابع عشر ، وعبقرية ليوناردو ، ورفائيل ، وتيشيان فى القرن الخامس عشر ، نقول لعل لعبقرية هؤلاء فى تلك القرون المختلفة بعض الأثر فى هذا التغيير . بيد أننا نقرر هنا أن العبقرية قوة من قوى روح عصر من العصور أكثر منها سبباً من أسبابها . ولعل الكشف عن النحت القديم وما بعثه هذا الفن من وحى وإلهام لم يكونا قد أصبحا فى أيام چيتو حافزاً وموجهاً للمثالين والمصورين كما كان لجبرتى ودوناتلو . لكن هذا الحافز قد بلغ ذروة قوته فى القرن السادس عشر ؛ فلماذا إذن لم يرفع سانسوفينو Sansovino وتشيليني Cellini وأمثالهما ، ولم يرفع ميكل أنچيلو ، فوق منزلة المصورين فى ذلك العصر — ولماذا كان ميكل أنچيلو مثالا قبل كل شىء اضطر شيئاً فشيئاً إلى أن يكون مصوراً ؟

فهل كان ذلك لأنه كان على فن النهضة واجبات ، وكانت له حاجات ، أوسع وأعمق مما كان لفن النحت ؟ ذلك أن الفن ، بعد أن تحرر بفضل ما نال من مناصرة مصدرها الذكاء والثراء كان يرغب فى أن يشمل جميع ميادين العرض والزخرف ، فإذا شاء أن يفعل هذا عن طريق التماثيل تطلب منه ذلك وقتاً ، وجهداً مضنياً ، وكلها عقبات لا يستطاع التغلب عليها ؛

أما التصوير فكان أيسر عليه أن يعبر عن جميع الأفكار المسيحية والوثنية فى أوسع نطاقها ، فى هذا العصر الذى يتسم بالسرعة والخصب . وهل كان فى وسع مثال أن يصور حياة القديس فرانسس بالسرعة والإتقان اللذين صورها بهما چيتو ؟ يضاف إلى هذا أن الكثرة الغالبة من أهل إيطاليا فى عهد النهضة كانت مشاعرها وأفكارها لا تزال مصطبغة بصبغة العصور الوسطى ، وحتى الأقلية التى تحررت من هذه الصبغة كانت لا تزال جوانحها تنطوى على أصداء وذكريات من الدين القديم ، بآماله ، ومخاوفه ، ورؤاه الغامضة الخفية ، وما ينطوى عليه من رقة ، وخشوع ، ونزعات روحية ، وقوى تسرى فى نفوسها ؛ وكان لا بد لهذه كلها ، ولما يعبر عنه فن النحت اليونانى والرومانى من جمال متعدد الأنواع ، ومثل عليا مختلفة ، أن تجد لها فى الفن الإيطالى متنفساً وشكلا ؛ وكان فى وسع التصوير أن يؤدى هذه المهمة أداء إن لم يكن أكثر من النحت إخلاصاً ودقة ، فلا أقل من أن يكون أكثر منه يسراً . وكان النحت قد درس قبلئذ جسم الإنسان دراسة بلغت من الطول والحب مدى يقلل من قدرته على تمثيل الروح ، وإن كان المثالون القوط قد أفلحوا من حين إلى حين فى تمثيل الروح فى الحجارة أحسن تمثيل . وكان لابد لفن النهضة أن يصور الجسم والروح والوجه والشعور ؛ وكان عليه أن يكون قوى الإحساس بالمدى الذى تستطيع أن تبلغه التقوى ، والحب ، والانفعال ، والألم ، والتشكك ، والشهوانية ، والكبرياء ، بضروبها المختلفة ، وأن يتأثر بهذا المدى وتلك الضروب وتنطبع فيه . والعبقرية المجدة الكادحة وحدها هى التى تستطيع أن تمثل هذا فى الرخام ، أو البرنز ، أو الصلصال ؛ ولما حاول جبرتى ودوناتلو أن يفعلا هذا كان عليهما أن ينقلا إلى فن النحت أساليب الرسم الملون بما يتطلبه من فن المنظور والتدرج غير المُحَسّ ؛ وقد ضحيا من أجل وضوح التعبير ما كان يطلب إلى التماثيل اليونانية فى العصر الذهبى أن تلتزمه من مثل أعلى فى الشكل ، ومن هدوء واطمئنان فى الوقفة والوضع . ونضيف إلى ذلك أخيراً

أن الرسام يتحدث إلى الناس بلغة أقرب إلى أذهانهم من لغة النحت ، فهو يتحدث إليهم بالألوان التى تجتذب العين ، وبالمناظر التى تروى قصصاً محببة . ولقد وجدت الكنيسة أن التصوير أسرع تأثيراً فى الشعب ، وأقرب إلى قلوبه من كل نحت فى الرخام البارد أو صب فى البرنز القاتم الكئيب . ولهذا فإنه لما تقدم عهد النهضة واتسع أفق الفن وهدفه ، ارتد النحت إلى الوراء ، وخطا التصوير إلى الأمام ، وأصبح بعد أن اتسع مداه ، وتنوعت أشكاله ، وأثبت ما يستطيع أن يبلغه من حذق ومهارة ، هو الفن الأعلى الذى يبرز خصائص ذلك العصر ، وصار هو وجه النهضة وروحها كما كان النحت أسمى التعبير الفنى عند اليونان .

لكنه فى الفترة التى نتحدث عنها كان لا يزال غير ناضج يتحسس طريقه إلى هذا النضوج . فأخذ پاولو أتشيلو Paolo Uccello يدرس فن المنظور حتى لم يعد يهتم بشىء آخر غير هذه الدراسة ، وكان الراهب أنجيلكو Fra Angelico هو المثل الأعلى الكامل للعصور الوسطى فى الحياة والفن ، ولكن مساتشيو وحده هو الذى أحس بالروح الجديدة التى انتصرت فيما بعد على يد بتيتشيلى Botticelli وليوناردو ورفائيل :

وكان بعض ذوى المواهب الأصغر من هؤلاء شأناً قد نقلوا أصول هذا الفن وتقاليده . فقد تتلمذ جدو جدى Gaddo Gaddi على جيتو ، وتتلمذ تديو جدى Taddeo Gaddi على جدو جدى ، وتتلمذ أنجولو جدى Angoloo Gaddi على تديو جدى ؛ وزين أنجولو هذا فى ذلك العام المتأخر عام ١٣٨٠ كنيسة سانتا كروتشى بمظلمات من طراز مظلمات جيتو . وجمع تشينينو تشينينى Cennino Cennini تلميذ أنجولو فى كتاب الفن Libro dell Arte (١٤٣٧) كل ما كان لدى عصره من معلومات فى الرسم ، والتركيب ، والفسيفساء ، والصبغات ، والزيوت ، والورنيش ، وغيرها من مستلزمات أعمال المصور . وإلى القارئ ما ورد فى الصفحة الأولى من هذا الكتاب :

« هنا يبدأ كتاب الفن ، وهو الكتاب الذى وضع وألف دليلا على تعظيمنا لله ولمريم العذراء . . . وبجميع القديسين . . . وإجلالا لجيتو ، وتديو ، وأنجولو »[٤٥] ؛ لقد بدأ الفن يأخذ طريقه لأن يكون ديناً . وكان أعظم تلاميذ أنجولو راهب كلدوليسى Camaldulese يدعى لورندسو موناكو Lorenzo Monaco . ولقد ظهرت قوة جديدة فى التصوير والتنفيذ فى صورة تتويج العذراء التى صورها الراهب لورنتشى Lawrence (١٤١٣) على ستار المحراب الفخم فى ديره المعروف بدير « الملائكة » . فقد كانت الوجوه فى هذه الصورة فردية لا تجرى على النمط التقليدى ، وكانت الألوان براقة قوية . لكن تلك الألواح المتنوعة لم يُراع فيها فن المنظور ، فقد كانت الصورة التى فى المؤخرة أطول من التى فى المقدمة ، كأنها رءوس النظارة حين يطل عليها الإنسان من فوق المسرح . ومنذا الذى علم المصورين الإيطاليين فيما بعد علم المنظور ؟

لقد أخذ برونلسكو ، وجبرتى ، ودوناتلو قبل هذا الوقت يحاولونه ويقتربون منه ، وكاد پاولو أتشيلو ينفق فيه حياته كلها ، فكان يقضى الليلة بعد الليلة مكباً عليه انكباباً جعل زوجته تستشيط منه غضباً . وحدث أن قال لها مرة : « ألا ما أجمل هذا المنظور وما أعظم فتنته ! آه ليتنى أستطيع أن أجعلك تفهمينه ! »[٤٦] ولم يكن شىء يبدو لپاولو أجمل من تقارب الخطين المتوازيين تقارباً مطرداً ثم امتزاجهما آخر الأمر فى صورة حقل محروث . وأخذ پاولو يصوغ قوانين المنظور مستعيناً على ذلك بأنطونيو مانتى وهو عالم رياضى من أهل فلورنس ؛ فشرع يدرس الطريقة التى يمثل بها تمثيلا دقيقاً عقود القبوة المرتدة عن البصر ، وازدياد حجم الأجسام ازدياداً يشوه منظرها حين تقترب من جزء الصورة الأمامى ، وما يحدث من التواء فى العمد على شكل قوس . وشعر أخيراً بأنه قد وصل إلى القواعد المسيطرة على هذه الأمور الغامضة العجيبة . وعرف أنه بفضل هذه القواعد يستطيع ،

بُعْدٌ واحد أن يخدع العين فتظنه ثلاثة أبعاد ، وأن التصوير يمكن أن يظهر الفضاء والعمق ؛ وخيل إلى پاولو أن هذه ثورة لا تقل فى عظمتها عن أية ثورة أخرى فى تاريخ الفن : وشرح مبادئه هذه فيما أخرجه من صور ، ثم زين مقنطرات سانتا ماريا نوڤلا بمظليات أدهشت معاصريه ، ولكنها عدت عليها عوامل التعرية . غير أنه لا يزال باقيا من صوره صورة حية واضحة المعالم لسير جون هوكود Sir John Hawkwood على أحد جدران الكنيسة (١٤٣٦) ؛ ذلك أن الزعيم المغامر الفخور قد تحول من هجومه على فلورنس إلى الدفاع عنها ، فاستحق بذلك أن ينضم فى الكنيسة إلى جماعة العلماء والقديسين .

وكان نمط آخر من أنماط التطور قد بدأ فى هذه الأثناء من البداية نفسها ووصل إلى الغاية عينها . فقد كان أنطونيو ڤينيد سيانو Antonio Veneziano من أتباع چيتو ، وكان چيراردو استارنينا Gerado Starnina تلميذا لڤينيد سيانو ، وتتلمذ ماسولينو دا پنيكالى Masolino de Panicale على استارنينا ثم تتلمذ عليه هو مسانشيو . وأخذ ماسولينو ومساتشيو يدرسان فن المنظور مستقلين عن پاولو : وكان ماسولينو من الرعيل الأول من الإيطاليين الذين صوروا الأجسام العارية ، كما كان مساتشيو أول من طبق مبادئ علم المنظور الجديدة بنجاح استرعى أنظار أهل جيله وبدأ بذلك عهداً جديداً فى فن التصوير .

وكان اسمه الحقيقى هو توماسو جيدى دى سان چيوڤنى Tommaso Guidi di San Giovanni ، أما مساتشيو فقد لقب به من قبيل السخرية ومعناه تومس الكبير . كما أن ماسولينو يعنى تومس الصغير ، ذلك أن إيطاليا كانت مولعة بأن أبناءها تلقب بهذه الألقاب المميزة لهم . وعمد مساتشيو إلى الفرشاة فى سن مبكرة ، وانهمك فى التصوير انهماكا أهمل معه كل شىء سواه — ملابسه ، وجسمه ، ودخله ، وديونه . وعمل

فى وقت ما مع جبرتى ، ولعله مال فى هذه الدار العلمية إلى تلك الدقة فى التشريح التى أضحت فيما بعد من مميزات صوره ، ودرس كذلك المظلات التى كان يصورها ماسولينو فى معبد برانكاتشى Brancacci بكنيسة سانتا ماريا دل كارمينى Santa Maria del Carmine ، ولاحظ فى بهجة عظيمة تجاربها فى المنظور وتمثيل الصور أو أجزائها إذا ما اقتربت من الناظر اليها ، ثم مثل على عمود فى كنيسة الدير المعروفة باسم باديا Badia القديس أيڤو Jvo شفيع بريطانى ورسم قدميه كما تبدوان إذا نظر إليهما من أسفل . لكن النظارة أبوا أن يعتقدوا أن قديسا يمكن أن تكون له قدمان بهذه الفخامة . وصور فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا قبواً ذا سقف نصف أسطوانى ضمن مظلم يمثل الثالوث الأقدس ، وأتقن فى هذه الصورة قواعد المنظور وتناقص أجزائها إلى حد خيل إلى العين معه أنها ترى السقف كأنه غائر فى جدار الكنيسة .

أما الآية الفنية الرائعة التى كانت من أهم معالم ذلك العهد ، والتى جعلته معلم أجيال ثلاثة ، فهى الأجزاء التى أضافها إلى مظلمات ماسولينو برانكاتشى والتى تمثل حياة القديس بطرس (١٤٢٣) . وقد مثل الفنان الشاب حادثة مال الخراج بقوة جديدة فى التفكير ، وصدق فى التخطيط : فظهر المسيح فى نبل صارم ، وبطرس فى جلال غاضب ، والجابى فى جسم الرياضى الرومانى اللدن ، وظهرت ملامح كل واحد من الرسل وثيابه ووقفته مميزة عن غيرها فى سائر الرسل . وكانت المبانى ، والتلال التى فى خلف الصورة تمثل فن المنظور الناشئ ؛ وأضحى تاماسو نفسه وقد عكس صورته بمرآه رسولا ملتحياً فى هذا الجمع الحاشد . ودشن المعبد بينا كان هو يعمل فى هذه المجموعة ، وأقيم فيه حفل وسار فيه موكب جليل ؛ وراقب ماساتشيو هذه المراسم بعين نافذة احتفظت بصورته ، ثم مثله فى مظلم بأحد المقنطرات . إذا كان برونلسكو ، ودوناتلو ، وماسولينو ،



(شكل ٩) مال الخراج ، منقولة عن معبد براتكاشيو بفلورنس – تصوير مساتشيو



(شكل ١٠) البشارة

منقولة عن كنيسة سان ماركو بفلورنس – من صنع الراهب انجاليكو

(انظر ص ١٨٦)

وچيوڤنى دى بيتشى ده ميديتشى ، وأنطونيو برنكاتشيو القائم على المعبد قد اشتركوا جميعاً فى هذا الموكب ، فقد وجدوا أنفسهم فى الصورة .

وحدث لأسباب لا نعرفها أن ترك مساتشيو العمل دون أن يتمه وسافر إلى رومة فى عام ١٤٢٥ . ولم نعد نسمع عنه شيئاً بعد ذلك الوقت ، وليس لنا إلا أن نظن مجرد ظن أن حادثاً ما أو مرضاً قد قضى على حياته قبل الأوان . غير أن المعاصرين قد اعترفوا من فورهم بأن مظلات برنكاتشيو هذه كانت خطوة كبيرة فى تقدم فن التصوير . ذلك أن هذه الأجسام العارية الجريئة والثياب الرشيقة ، وفن المنظور المدهش ، والتمثيل الواقعى للقرب والبعد ، والتفاصيل الدقيقة فى تشريح الجسم ، واستخدام تدرج الضوء والظل لتمثيل العمق ، كل هذا ينبئ بتحول فنى جديد يسميه ڤاسارى الطراز « الحديث » . وأقبل كل مصور طموح يستطيع الوصول إلى فلورنس لدراسة هـذه المجموعة : أقبل الراهب أنچيلكو ، والراهب ليپولپى Fra Lippo Lippi ، وأندريا دل چستانيو Andrea del Gastagno ، وڤيروتشيو Verrocehio ، وجرلنداير Ghirlandaio وبتشيلى ، وپيروجينو Perugino ، وپيرو دلا فرانتشسكا ، وليونارد ، والراهب برتولوميو ، وأندريا دل سارتو ، وميكل أنچيلو ، ورفائيل ، ولم يكن لأحد من الأموات تلاميذ ممتازون كما كان لمساتشيو ؛ ولم يكن لأحد من الفنانين منذ أيام چيتو من التفوق مثل ما كان له ، وإن لم يكن هو عارفاً بنفوذه ؛ ويقول ليوناردو إن « مساتشيو أظهر بأعماله التى وصلت إلى حد الكمال أن الذين يسترشدون فى عملهم بهدى غير هدى الطبيعة ، وهى السيدة العليا ، يدفنون فى الثرى الفقر المجدب »(٤٧) .

٢ – فرا أنچيلكو

وظل فرا أنچيلكو وسط هذه الأساليب الجديدة المثيرة يسير فى هدوء على طريقته هو طريقة العصور الوسطى . وكان مولده فى قرية تسكانية

وسمى جيدو دى بيترو ، ثم وفد إلى فلورس وهو شاب ، ودرس فن التصوير ، وأكبر الظن أنه درســه مع اورندسو وموناكو . وسرعان ما نضجت موهبته الفنية ، وهيئت له جميع السبل التى تمكنه من أن يشغل مكاناً طيباً مريحاً فى العالم ؛ ولكن حب السلام وأمله فى النجاة حملاه على أن يلتحق بطائفة الرهبان الدمنيك (١٤٠٧) . وظل فراچيوفنى (الأخ چوفنى) وهو الاسم الذى أطلق عليه فى هذه الفترة — يتدرب على نظام الرهبنة زمناً طويلا فى عدة مدن مختلفة ، استقر بعدها فى ديرسان دمنيكو San Dominico ببلدة فيسولى Fiesole (١٤١٨) ، حيث شرع وسط سعادته التى حباه بها احتجابه وخمول ذكره يزين المخطوطات ويرسم صور الكنائس وجماعات الإخوان الدينية . وحدث فى عام ١٤٣٦ أن نقل رهبان سان دمنيكو إلى دير سان ماركو الجديد الذى شاده ميكلتسو بأمر كوزيمو ومن ماله . ورسم چيوفنى فى التسع السنين التالية نحو خمسين صورة بالجص على جدران كنيسة الدير — تشمل بيت القسيسين ، ومكان نومهم ، ومطعمهم ، وموضع راحتهم ، وطرقات الدير المقنطرة المسقوفة ، وصوامع الرهبان . وكان فى خلال هذه المدة يقوم بالشعائر الدينية فى تواضع وخشوع حملا زملاءه الرهبان على أن يسموه « الأخ الملاك » فرا أنچيلكو Fra Angelico . وقد بلغ من حلمه أن أحداً من الناس لم يره غاضباً قط ، وأن أحداً لم يفلح فى أن يغضبه . وكان فى وســع تومس أكمپس Thomas à Kempis أن يجد الصورة التى رسمها لتمثيل **محاكاة المسيح** قد تحققت إلى أكمل حد فيه إذا استثنينا من ذلك التعميم زلة واحدة لا يستطيع الإنسان معها أن يحاجز نفسه عن الابتسام : ذلك أن الراهب الملاك الدمنيكى لم يستطع أن يقاوم نزعة من نزعاته فوضع فى صورة من صور **يوم الحساب** عدداً قليلا من الرهبان الفرنسيس فى الجحيم(٤٨) .

وكان التصوير عند الأخ چيوفنى عملا دينياً كما كان متعة وانطلاقاً

لحاسة الجمال . كان مزاجه وهو يصور نفسه مزاجه وهو يصلى ، ولم يبدأ قط تصويره دون أن يصلى قبل بدئه . وإذ كان قد تحرر من منافسات الحياة القاسية ، فقد كان ينظر إلى هذه الحياة كأنها ترنيمة من الحب الإلهى والتوبة الإلهية . وكانت الصور التى يرسمها دينية على الدوام — حياة مريم والمسيح ؛ والمنعمين فى الجنة ، وحياة القديسين ورؤساء طائفته . وكان غرضه هو أن يبث التقى أكثر مما يخلق الجمال ؛ وجريا على هذه القاعدة رسم فى البيت الذى يعقد فيه الرهبان اجتماعاتهم الصورة التى يظن أنها يجب أن تكون فى ذهنهم على الدوام — صورة صلب المسيح ، وهى تعبير قوى أظهر فيها أنجيلكو دراسته للأجسام العارية كما أظهر فيها فى الوقت عينه الصفة العامة الشاملة للمسيحية . وقد صور فيها عند أسفل الصليب مع القديس دمنيك مؤسسى طوائف الرهبنة المنافسة لطائفته وهم — أوغسطين ، وبندكت ، وفرانسس ، وچون جولبرتو John Gualberto مؤسس طائفة القلمبروزان Vallombosans ، وأكبرت مؤسس طائفة رهبان الكرمل ؛ كذلك قص أنجيلكو ، فى الكوة التى فوق مدخل حجرة الاستقبال التى يطلب إلى الرهبان أن يقدموا فيها واجب الضيافة لكل عابر سبيل ، قص فى هذه الكوة قصة الحاج الذى تبين أنه هو المسيح نفسه ، وكان يهدف بتصويره إلى أن كل حاج يجب أن يعامل على أنه قد يكون هو المسيح . وقد جمعت الآن فى حجرة الاستقبال هذه بعض الموضوعات التى صورها أنجيلكو لمختلف الكنائس والحرف الطائفية : منها **عذراء عمال الكتان** وفيها جعل للملائكة المرنمين أجسام النساء اللدنة ، ووجوه الأطفال الطاهرة الصريحة ، ولا تقل صورة **النزول عن الصليب** جمالا ورقة عن أية واحدة من ألف الصورة التى تمثل هذا المنظر فى فن النهضة . أما صورة **يوم الحساب** فهى مسرفة بعض الإسراف فى تناسب أجزائها ، كما أنها مزدحمة بالخيالات المرعبة المنفرة كأنما العفو من صفات البشر والكره من صفات الله . أما أروع

صور أنچيلكو فتقوم فى أعلى الدرج المؤدية إلى خلوات الرهبان ، تلك هى صورة البشارة — وهى تصور ملكا فى منتهى الظرف والرشاقة يظهر الإجلال والتعظيم لمن ستكون أم المسيح ، وتصور مريم تنحنى ، وتمسك كلتا يديها بالأخرى مظهرة بذلك خشوعها وعدم تصديقها . وقد وجد الراهب المحب من الوقت ما استطاع به أن يصــور فى الصوامع الخمسين بمساعدة تلاميذه الرهبان صوراً على الجص تذكر الرائى بمنظر ملهم من مظاهر الإنجيل كالتجلى ، واجتماع الرسل حول العشاء الربانى ، ومريم المجدلية تمسح قدمى المسيح . وصور أنچيلكو فى الصومعة المزدوجة التى ترهب فيها كوزيمو صورة لصلب المسيح ، وأخرى لعبادة الملوك ، تظهر فيها الثياب الشرقية الفخمة التى يحتمل أن الفنان قد شاهدها فى مجلس مدينة فلورنس . ورسم فى صومعته هو صورة تتويج العذراء ، وكان موضوعها هو الموضوع المحبب له الذى صوره المرة بعد المرة ، ويحتوى معرض أفيزى Uffizi على واحدة منقولة عنها كما يحتوى مجمع فلورنس العلمى على واحدة أخرى ، ومتحف اللوفر على ثالثة ، وأحسنها كلها هى التى رسمها أنچيلكو لقاعة النوم فى دير سان ماركو ، لأن صورة المسيح ومريم فى هذه الصورة من أبدع الصور فى تاريخ الفن كله .

وذاعت شهرة هذه الصور الدالة على التقى والخشوع وتوالت بسببها على چيوفنى مئات الطلبات ، وكان كلما جاء طلب منها رد على صاحبه بقوله إن عليه أولا أن يحصل على موافقة رئيس الدير ، فإذا حصل على هذه الموافقة أجابه إلى ما طلب على الدوام ؛ ولما طلب إليه نقولاس الخامس أن يحضر إلى رومة غادر صومعته فى فلورنس وذهب ليزين معبد البابا بمناظر من حياة القديسين استيفن ولورنس ، ولاتزال هذه الصور من أجمل ما تقع عليه العين فى الفاتيكان ؛ وبلغ من إعجاب نقولاس بالفنان أن عرض عليه منصب كبير أساقفة فلورنس ؛ ولكن أنچيلكو اعتذر وأوصى بأن يعين

فى هذا المنصب رئيسه المحبوب ؛ وقبل نقولاس هذا العرض ، وبقى الراهب أنطونينو من القديسين حتى بعد أن لبس ثياب كبير الأساقفة .

وليس من بين المصورين جميعاً — إذا استثنينا إلجريكو El Greco (الإغريقى) — من ابتكر له طرازاً فى التصوير خاصاً به كما ابتكر الأخ أنچيلكو ؛ وفى وسع كل إنسان حتى المبتدئ أن يتبين هذا الطراز فلا يخطئ فيه . وهو يمتاز ببساطة الخط والشكل وهى البساطة التى ترجع إلى عهد چيتو ، وقلة فى مجموع الألوان ولكنها قلة أثيرية سماوية — تشمل الألوان الذهبى والزنجفرى ، والقرمزى ، والأزرق ، والأخضر — وهى تكشف عن روح نيرة ، وإيمان هانئ ؛ وصور رسمت فى بساطة متناهية ، تكاد تغفل علم التشريح ، ووجوه جميلة ، ظريفة ، ولكنها شاحبة شحوباً يبعدها عن الحياة متشابهة تشابهاً يبعث الملل فى الرهبان ، والملائكة ، والقديسين ، كأنها فى الفكرة التى قامت عليها أزهار فى جنات النعيم : وكلها قد سمت بها روح بلغت المثل الأعلى فى الحنان والخشوع ، ونقاء المزاج والتفكير الذى يعيد إلى الذاكرة أجمل لحظات العصور الوسطى ، ولا تستطيع النهضة أن تردها . لقد كانت هذه آخر صرخة تبعثها العصور الوسطى فى الفن .

وظل الأخ چيوڤنى يعمل سنة فى رومة ، ثم عمل بعض الوقت فى أرڤيتو Orvreto ، ثم كان مدة ثلاث سنين رئيساً لدير الدمنيك فى فيسولى ؛ ودعى مرة أخرى إلى رومة ، حيث توفى فى سن الثامنة والستين . وربما كان قلم لورندسو ڤلا الفصيح هو الذى كتب قبريته .

لست أريد أن يكون ما أمدح به أننى كنت أپليز آخر ، بل أريد أن يكون سبب مديحى أننى خرجت عن جميع مكاسبى إلى المؤمنين بك أيها المسيح ؛ لأن بعض الأعمال يتوجه بها إلى الأرض وبعضها إلى السماء . لقد كنت ، أنا چيوڤنى ، من أبناء فلورنس المدينة التسكانية :

٣ – الأخ فلپولپي

ولد من اقتران فن أنجيلكو الظريف بفن مساتشيو الشهوانى فن آخر أخرجه رجل يفضل الحياة عن الخلود . كان فلپو ابن قصاب يدعى توماسو لپي Tommaso Lippi . وكان مولده فى شارع من حى فقير بمدينة فلورنس خلف دير رهبان الكرمل . وتيتم الطفل وهو فى الثامنة من عمره ، فكفلته عمة له وهى كارهة حتى بلغ سن الثامنة ، ثم تخلصت منـــه بأن سلكته فى طائفة رهبان الكرمل ؛ وأخذ الطفل الصغير يملأ هوامش صفحات الكتب التى طلب إليه أن يدرسها برسوم هزلية . ولاحظ رئيس الدير براعته فى هذه الرسوم فعهد إليه أن يرسم المظلمات التى فرغ مساتشيو توا من تصويرها فى كنيسة رهبان الكرمل . ومالبث الصبى أن أخذ يرسم صوراً من عنده فى تلك الكنيسة نفسها . ولم يبق لنا الآن شىء من هذه الصور ، ولكن ڤاسارى يظن أنها لا تقل جودة عن صور مساتشيو نفسه . ولما بلغ فلپو السادسة والعشرين من عمره (١٤٣٢) غادر الدير ، وظل يسمى نفسه « فرا Fra أى الأخ أو الراهب » ، ولكنه كان يعيش فى هذا « العالم » ويكسب عيشه من فنه . ويروى ڤاسارى قصة تصدقها الرواية المتواترة ، وإن لم يكن فى وسعنا أن نتبين صدقها :

« يقولون إن فلپو كان عاشقا متيما ، بلغ من حبه النساء أنه كان إذا رأى امرأة أعجبته ، لم يكن يتردد فى أن يخرج عن كل ما يملك لكى ينالها ؛ فإذا لم يفلح فى هذا أطفأ لهيب حبه برسم صورتها . وغلبت عليه هذه النزعة حتى كان إذا انتابته نوبة الهيام لم يلتفت ، طالما كانت مستحوذة عليه ، إلى شىء من عمله : وحدث مرة ، حين كان كوزيمو يستخدمه فى عمل ما ، أن أغلق عليه باب البيت الذى كان يعمل فيه حتى لا يخرج منه ويضيع وقته : وظل فلپو على هذا النحو يومين ، ولكن شهوة الحب الحيوانية

خلبته ؛ فمزق اللوحة التى كان يعمل فيهـا بمقص ، وتدلى من النافذة ؛ وقضى يومين كاملين فى ملذاته . ولما بحث كوزيمو عنه ولم يجده ، أمر بأن يبحث عنه فى كل مكان ، وظل البحث جارياً حتى عاد فلپو إلى عمله من تلقاء نفسه ؛ وكان كوزيمو من ذلك الوقت يسمح له بالخروج والعودة متى شاء بكامل حريته ، وندم على حبسه السابق فى البيت . . . لأن العباقرة ، على حد قوله ، أجسام نورانية سماوية وليست حمير حمل . . . وجعل همه من ذلك الوقت أن يربط فلپو برباط الحب ، وبذلك كان الفنان أكثر استعداداً لخدمته من ذى قبل .

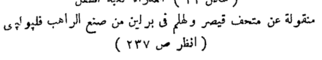
ووصف « الأخ فلپو » نفسه فى رسالة بعث بها إلى پيرو ده ميديتشى بأنه أفقر راهب فى فلورانس ، يكفل بنات أخيه اللاتى يتقن إلى الزواج ويعيش معهن[٥٠] . وكان الطلب كثيراً على أعماله ، ولكن يلوح أن ما يتقاضاه عليه كان أقل مما ترغب فيه بنات أخيه . ولسنا نظن أن أخلاقه الشخصية قد بلغت حداً كبيراً من السوء ، لأنا نجده قد كلف بأن يرسم صوراً لمختلف أديرة النساء . وبينا كان يعمل فى دير سانتا مرجريتا ببلدة پراتو Prato إذ وقع فى حب لكريتسيا بوتى Lucrezia Boti (إلا إذا كان ڤاسارى مخطئاً ، وكانت الرواية المتواترة خاطئة أيضاً) . وكانت لكريتسيا هذه راهبة أو حارسة للراهبات . وأقنع رئيسة الدير بأن تجعلها تقف أمامه ليرسم على مثالها صورة العذراء ، وسرعان ما فرا معاً . وظلت تعيش مع الفنان على الرغم من تأنيب والدها إياها وإلحاحه عليها بالعودة ؛ وظل يتخذها نموذجاً لصور العذراء على الرغم من غضب والدها وإلحاحه عليها بأن تعود ، وولدت له ابنه فلپينو لپى Filippino Lippi الذى ذاع صيته فيما بعد . ولم ير سدنة كنيسة پراتو فى هذه المغامرات منقصة كبيرة لفلپو ؛ ولهذا عهدوا إليه فى عام ١٤٥٦ أن يزين موضع المرنمين فى الكنيسة بمظلمات تصور حياة يوحنا المعمدان والقديس استيفن . وكانت هذه الصور ، التى

عدا عليها الزمان ، تعد فى ذلك الوقت من الآيات الفنية الرائعة : وتبلغ حد الكمال فى تركيبها ، غنية بألوانها ، حية فى قصصها ، وتصل إلى ذورة الفن على أحد جانبى موضع المرنمين حيث نشاهد رقص سالومة ، وعلى الجانب الثانى حيث نشاهد رجم استيفن . ووجد فلپو أن هـــذا العمل ممل أكثر مما يتفق مع حركته ونشاطه ، ففر منه مرتين ؛ ثم أقنع كوزيمو البابا پيوس الثانى فى عام ١٤٦١ أن يحل الفنان من الأيمان التى أقسمها عند دخول الدير ؛ ويبدو أن فلپو ظن أنه قد أحل أيضاً من وفائه للكريتسيا ، التى لم تعد تليق لأن تقف أمامه ليتخذها نموذجاً لصور العذراء . وبذل سدنة كنيسة پراتو كل ما فى وسعهم ليغروه بالعودة لإتمام مظلماته ؛ وبعد عشر سنين من بدئه فيها أفلح كارلو ده ميديتشى ابن كوزيمو غير الشرعى الذى كان وقتئذ المبلغ لأوامر البابا ، فى حمله على إتمامها . وبذل فلپو فى تصوير منظر دفن استيفن كل ما لديه من قوة — بذله فى فن المنظور الخداع الذى يتمثل فى البناء القائم فى خلفية الصورة ، وفى الصور الانفرادية للأشخاص المحيطين بالجثة ، وفى التناسب القوى بين أجزاء الصورة وفى وجه النغل ابن كوزيمو الهادئ المستدير وهو يقرأ الصلوات على الموتى .

والقد كانت أجمل الصور التى رسمها فلبو هى صور العذراء(*) ، وذلك

(*) ومن أمثلة هذه الصور صورة البشارة فى كنيسة سان لورندسو فى فلورنس ففيها ترى فتاة فلاحة فى موقف استرحام وتواضع ، وترى العذراء تعبد الطفل (فى برلين الآن) ، تتلألأ فى جلباب العذراء الأزرق وفى فراش الأزهار الذى تحت الطفل ، والعذراء المحفوظة فى أفيزى ذات الوجه الأشقر الوقور ، والنقاب المهفهف ، والرداء المسدول بطريقة تكسبه جمالا فوق جماله ، والعذراء التى فى معرض بتى ، والعذراء والطفل فى قصر آل ميديتشى ، والعذراء والطفل بين القديسين فرديانو وأوغسطين المحفوظة فى متحف اللوفر ، وتتويج العذراء المحفوظة فى الفاتيكان ، وتتويج العذراء وما بجانبها من صور لأشخاص ثانويين ذوى ظرف ورشاقة ، ومنهم فلبو نفسه راكع للصلاة ، وقد تاب آخر الأمر . وهذه الصورة توجد الآن فى أفيزى .





(شكل ١١) العذراء تعبد الطفل
منقولة عن متحف قيصر وِلهلم فى برلين من صنع الراهب فلپولپى
(انظر ص ٢٣٧)



(شكل ١٢) تعميد المسيح
منقولة عن معرض أفيزى فى فلورنس من عمل اندريا دل ڤيروكيو

بالرغم من مغامراته الجنسية الشاذة ، ولعله كان بسبب حساسيته القوية وعشقه لجمال المرأة . وإن هذه الصورة لتنقصها روحانية صور أنچيلكو للعذراء وما فيها من روحانية أثيرية ، ولكنها مع ذلك تنقل إلى الناظر إحساساً قوياً بالجمال الجثمانى الهادئ ، والحنان الذى لا حنان بعده . ولقد أصبحت الأسرة المقدسة فى صور الراهب ليو أسرة إيطالية ، تحيط بها حوادث عادية ، وقد خلع فيها على العذراء جمالا جثمانياً ينبئ باقتراب عهد النهضة الوثنى . وقد أضاف فليو إلى هـــذه المفاتن النسوية فيما أخرجه من صور للعذراء رشاقة وخفة انتقلتا منه إلى تلميذه بتيتشلى .

ودعته مدينة اسپليتو فى عام ١٤٦٦ ليصور قصة العذراء مرة أخرى فى قبا كنيستها . وأخذ يعمل فيها بذمة وأمانة بعد أن سكنت حمى عاطفته النسائية ؛ غير أن قواه كانت هى الأخرى قد ضعفت مع ضعف عاطفته ، ولم يكن فى وسعه أن يكرر فى هذه الكنيسة الصور الجدارية التى صورها فى كنيسة پراتو . وبينا كان يبذل هذه الجهود إذ مات مسموماً ، ويظن ڤاسارى أن الذين دسوا له السم هم أقارب فتاة أغواها . وهذه القصة بعيدة الاحتمال ، لأن فليو دفن فى كنيسة أسپليتو ، حيث شاد له ابنه بعد سنين قلائل من ذلك الوقت قبراً فخماً عهد إليه به لورندسو ده مبيديتشى .

إن كل إنسان يخلق الجمال جدير بأن تحيا ذكراه ، ولكن من واجبنا أن نمر بسرعة وفى خجل بدمنيكو ڤنيدسيانو Dominico Veneziano وقاتله المزعوم أندريا دل كستانيو Andrea del Castagno . فأما دمنيكو فقد استدعى من پروجيا (١٤٣٩) ليرسم صـــوراً على جدران كنيسة سانتا ماريا نوڤا (القديسة مارية الجديدة Santa Maria Nuova) ؛ وكان من مساعديه شاب تلوح عليه أمارات النجابة من أهل برجو سان سپاكرو Borgo San Sepolcro يدعى پيرو دلا فرانتشسكا . وقد قام فى هذه الصور التى لم يبق منها شىء الآن بتجربة من أولى التجارب التى أجريت فى

فلورنس بالألوان الممزوجة في الزيت ، وخلف لنا وراءه آية واحدة فنية هي **صورة امرأة** (في متحف برلين) ذات شعر منسدل إلى أعلى ، وعينين تنمان عن القلق ، وأنف بارز وصدر منتفخ . ويقول ڤاساري إن دمنيكو علم أندريا دل كستانيو قواعد الفن الجديدة ، وكان هو أيضاً وقتئذ يرسم صوراً جدارية في كنيسة سانتا ماريا نوڤا . وربما كان تنافسهما قد أفسد ما بينهما من صداقة لأن أندريا كان رجلا عنيداً سريع الانفعال . ويصف لنا ڤاساري كيف قتل أندريا دمنيكو ، ولكن الروايات الأخرى تقول إن دمنيكو عاش بعد موت أندريا أربع سنين . وكان الذي أذاع شهرة أندريا هو صورة جلد المسيح التي رسمها في إحدى بواكي كنيسة سانتا كروتشي حيث أدهشت أفانين المنظور كل من رآها حتى زملاءه الفنانين . وتوجد في ديرسانت أبولونيا القديم في فلورنس مختفية فيه صوره الخيالية لدانتي ، وپترارك ، وبوكاتشيو ، وفاريناتا دجلي أوبرتي Farinata Degli Uberti ، وصورة حية واضحة لپپو اسپانا Pippo Spana الجندي المتعجرف ، وصورة **العشاء الأخير** (١٤٥٠) تبدو تافهة خالية من الحياة ، ولكنها رغم ذلك ربما أوحت إلى ليوناردو بفكرة أو فكرتين

الفصل الثامن

متنوعات أشتات

إذا شئنا أن نشعر بحياة الفن فى فلورنس أيام كوزيمو شعوراً حياً واضحاً فإن علينا ألا نقتصر على درس حياة أولئك العباقرة الذين مررنا بهم ، بل إن علينا فوق ذلك أن ندخل الشوارع الجانبية والأزقة الضيقة من شوارع الفن وأزقته ، وأن تزور مئات الحوانيت ومشاغل الفنانين حيث كان صناع الفخار يشكلون الطين ويلونونه ، أو صناع الزجاج ينفخون الزجاج أو يقطعونه إلى أشكال من الآنية الهشة الجميلة ، أو الصياغ يشكلون المعادن النفيسة أو الحجارة الكريمة ، ويصنعون منها الحلى ، والمدليات ، والأختام ، وقطع النقود ، وألف قطعة وقطعة من زينة الثياب أو الأشخاص ، أو البيت أو الكنيسة : وعلينا أن نسمع إلى ضجيج الصناع المنكبين على أعمالهم يطرقون الحديد ، أو النحاس ، أو البرنز أو ينقشونها ، ويصنعون منها أسلحة ودروعاً ، وأوعية وآنية وأدوات للعمل والصناعة . وعلينا فوق ذلك أن نلاحظ النجارين صناع الأثاث وهم يصممون ، أو ينحتون الخشب ، أو يرصعونه أو يمسحونه ؛ والحفارين ينقشون المعادن ، وغيرهم من العمال ينقشون أثاث المعبد ، أو يرسمون على الجلد ، أو ينحتون العاج ، أو يخرجون المنسوجات الرقيقة ليجعلوا بها الأجسام مغرية ، أو يزينوا بها البيوت . وعلينا كذلك أن ندخل الأديرة ، ونشاهد الرهبان يزينون المخطوطات فى صبر وأناة ، والراهبات الهادئات يطرزن الأقمشة تروى القصص وتزدان بها الجدران . وعلينا قبل هذا كله أن نتخيل أهل البلاد وقد بلغوا درجة من الرقى تكفى لفهم الجمال ، ومن الحكمة ما يكفى لأن يغمروا أولئك الذين يهبون أنفسهم للفن بأسباب الشرف والعيش ، ويمدوهم بالحوافز القوية لمواصلة هذه الجهود .

وكان حفر المعادن من مخترعات فلورنس ، ومات مبتدع هذا الفن فى نفس العام الذى مات فيـــه كوزيمو . كان توماسو فنجورا Tommaso Finiguerra من صناع النّل أى أنه كان يحفر أشكالا مختلفة على المعدن أو الخشب ، ثم يملأ الفراغ الحادث بمركب أسود مصنوع من الفضـــة والرصاص . وتقول إحدى القصص اللطيفة إن قطعة من الورق أو القماش سقطت مصادفة على سطح معدنى فرغ هوتوا من تطعيمه ، فلما رفعها وجد صورة السطح المعدنى مطبوعة عليها . إن فى هذه القصة شواهد على أنها وضعت بعد أن تم اختراع هذا الفن ، على أنه مهما يكن من أمرها فإن فنجورا وغيره من الفنانين قد عمدوا إلى أخذ بصمات على الورق ليحكموا منها على أثر الرسوم المحفورة . ويلوح أن باتشيو بلدينى Baccio Baldini (حوالى ١٤٥٠) وهو صائغ فلورنسى هو أول من أخذ هذه الطوابع من سطوح المعادن المحفورة ، ليتخذها وسيلة لحفظ رسوم للفنانين وتكثيرها . وكان بتيتشلى ، ومنتنيا Mantegna وغيرهم يمدونه بالرسوم . وبعد جيل من ذلك الوقت ارتقى ماركنتنيو زيمندى Marcantonio Raimondi بالأصول الجديدة لفن النحت ، واتخذها وسيلة ينشر بها فى العالم فن التصوير فى عهد النهضة بجميع مظاهره ما عدا ألوانه .

ولقد استبقينا إلى آخر هذا الباب رجلا لا نعرف أى صنف نضعه فيه ؛ وخير طريقة لفهمه أن تقول إنه جمع كل خصائص زمانه وتجسمت فيه . لقد جمع ليون باتستا ألبرتى Leon Battista Alberti كل خصائص القرن الذى عاش فيه عدا ناحيته السياسية . فقد ولد فى مدينة البندقية لأب منفى من فلورنس ، ثم عاد إلى فلورنس ، حين أعيد إليها كوزيمو ، وشغف حبا بفنها ، وموسيقاها ، وندواتها الأدبية والفلسفية . واستجابت فلورنس لحبه هذا بأن خلعت عليه لقب الرجل الكامل الذى ليس بعد كماله كمال . فقد كان وسيم الوجه ، قوى البنية ، بارعاً فى جميع أنواع الرياضة الجسمية ،

ويستطيع وقدماه موثوقتان أن يقفز من فوق رجل واقف ، كما يستطيع وهو واقف فى الكتدرائية الكبرى أن يقذف بقطعة من النقود إلى داخل حلقة فى القبوة ، وكان يسلى نفسه بترويض الحيوان البرى وتسلق الجبال ، وكان إلى هذا مغنياً بارعاً ، وعازفاً قديراً على الأرغن ، ومحدثاً ساحراً ، وخطيباً مفوهاً ، يقظ الذهن هادئه ، سيداً رقيقاً مجاملا ، شهماً كريماً فى معاملة جميع الناس عدا النساء ، فكان لا ينفك يهجوهن هجاء لاذعاً ، وبغضب قد يكون متكلفاً ، وقلما كان يعنى بالمال ، ولهـذا فقد عهد إلى أصدقائه أن يعنوا بأملاكه ، وكان يقتسم معهم ما تدره عليه من دخل ؛ وكان يقول إن « فى وسع الناس أن يفعلوا كل شىء إذا أرادوا » ، والحق إنا قلما نجد من كبار الفنانين فى النهضة الإيطالية من لم يبرعوا فى كثير من الفنون . وكان ألبرتى ، كما كان ليوناردو بعد نصف قرن من أيامه ، أستاذاً أو فى القليل ممارساً ماهراً ، فى أكثر من عشرة ميادين — فى الرياضة والميكانيكا ، والعمارة ، والتصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والتمثيل ، والفلسفة ، والشرائع المدنية والكنسية . وكان يكتب فى هذه الموضاعات كلها تقريباً ، وكان مما كتبه رسالة فى التصوير تأثر بها پيرو دلا فرانتشسكو ، ولعلها أثرت أيضاً فى ليوناردو وأضاف إلى كتاباته حوارين عن النساء وعن فن الحب ، ومقالا ذائع الصيت عن « العناية بالأسرة » . وكان إذا انتهى من رسم صورة دعا الأطفال وسألهم عما يفهمون منها ، فإذا عجزوا وتحيروا فى الإجابة حكم عليها بالإخفاق(٥١) . وكان من أوائل المصورين الذين أدركوا الفائدة التى ترجى من آلة التصوير المظلمة الصندوق . وإذ كان الرجل مهندساً معمارياً قبل كل شىء ، فقد أخذ يتنقل من مدينة إلى مدينة ليبنى واجهات للمبانى أو معابد على الطراز الرومانى . واشترك وهو فى رومة فى تخطيط المبانى التى كان نقولاس الخامس « يقلب بها العاصمة ظهراً لبطن » كما يقول فاسارى ؛ وحول فى رمينى Rimini كنيسة سان فرانتشسكو القديمة إلى معبد لايكاد يفترق فى شىء عن الهياكل الوثنية . وأقام فى

فلورنس واجهة من الرخام لكنيسة سانتا ماريا نوفلا ، وشاد لأسرة روتشيلاى Rucellai معبداً كنيسة سان پانكرادسيا San Pancrazia ، وقصرين فخمين ذوى تخطيط بسيط ؛ وزين فى مانتوا Mantua كتدرائية إنكوروناتا Incoronata ومعبدها وأنشأ لكنيسة سانت أندريا واجهة على صـــورة قوس نصر رومانى .

وألف مَسْلاةً تدعى **فيلودكسوس** بلغة لاتينية مثقلة بالتراكيب الاصطلاحية إلى حد لم يشك أحـــد معه فى أنها من تألف كاتب قديم حين قال لهم هو هذا من قبيل السخرية بالجيل الذى كان يعيش فيه . وكان يكتب رسالاته فى صورة حوار مهلهل وبلغة إيطالية سهلة خالية من الزخرف يستطيع أن يقرأها رجل الأعمال الكثير المشاغل نفسه . وكان دينه رومانياً أكثر منه مسيحياً ، ولكنه كان يصبح على الدوام مسيحياً حين يسمع الترانيم الكنسية . ونظر بعين بصيرته إلى الأمام ، فعبر عن خوفه من أن ضعف العقائد المسيحية سيلقى بالعالم فى غمار الفوضى الأخلاقية والفكرية . وكان يحب الريف المحيط بفلورنس ، ويأوى إليه كلما استطاع ؛ وأنطق تيوجنيو Teogenio ، وهو الشخصية التى سمى بها حواره ، بقوله :

فى وسعى أن أستمتع فى هذا المكان على مهل بصحبة الأموات العظماء ؛ فإذا ما آثرت أن أتحدث إلى الحكماء ، أو رجال الحكم ، أو الشعراء العظام ، فما على إلا أن ألجأ إلى أرفف كتبى ، فأجد فيها من الصحاب خيراً ممن تستطيع قصوركم أن تحبونى بهم على ما فيها من موال ومتملقين .

وكان كوزيمو يتفق معه فى رأيه ولا يجد فى شيخوخته سلوى أكثر من بيوته الريفية ، وأصدقائه الأخصاء ، ومجموعاته الفنية ، وكتبه . وكان يعانى آلاماً مبرحة من داء الرثية ، وترك فى آخر أيامه مهام الدولة الداخلية إلى لوكا پتى ، فأساء هذا استخدام تلك الفرصة ليزيد بها ثورته . ولم تكن ثروة كوزيمو نفسه قد نقصت بسبب ما كان ينفقه فى الصدقات ، وكان

يشكو تلك الشكوى الوهمية الفكهة وهى أن الله كان دائماً يسبقه فيعيد إليه ما ينفقه فى أوجه الخير ، مضافاً إليه ربحه[٥٢] . وكان حين يذهب للإقامة فى الريف يدرس كتب أفلاطون ، وتتلمذ فى هـــذه الدراسة على محسوبه فتشينو Ficino . ولما حضرته الوفاة وعده فتشينو بالحياة فى دار الأخيار معتمداً فى ذلك على ما نقله أفلاطون عن سقراط لا على أقوال المسيح . ولما مات (١٤٦٤) حزن على موته أصدقاؤه وأعداؤه على السواء ، فقد كانوا يخشون أن تضرب الفوضى أطنابها فى الحكومة ؛ وخرجت المدينة كلها تقريباً تشيع جثته إلى قبره الذى كلف دزيديريو دا ســـتنيانو Desiderio da Settignano أن يعده له فى كنيسة سان لورندسو .

وكان الوطنيون من أمثال جوتشياردينى Guicciardini ، الذين أغضبهم مسلك آل ميديتشى المتأخرين ، يرون فيه ما يرى بروتس Brutus فى قيصر[٥٣] ؛ وكان مكيفلى يعظمه كما يعظم قيصر[٥٤] . لقد قضى كوزيمو على الدمقراطية ، ولكن الحرية التى وقف فى سبيلها لم تكن إلا حرية الأغنياء فى أن يحكموا الدولة حكماً قائماً على العنف والتحزب . ولسنا ننكر أنه قد لوث حكمه بأفعال القسوة التى كان يرتكبها فى بعض الأحيان ، ولكن حكمه كان فى معظمه من أكثر العهود ليناً ، وسلاماً ، ونظاماً فى تاريخ فلورنس ، وكان العهد الآخر الذى يضارعه هو عهد الحفيد الذى دربه آباؤه . وقلما عرف التاريخ أميراً أوتى ما أوتيه من حكمة فى الكرم ، واهتمام حق بتقدم الإنسانية ؛ ويقول فتشينو فى هذا : « إنى مدين لأفلاطون بالشىء الكثير ، ولكنى لست أقل من ذلك ديناً لكوزيمو ، فهو الذى حقق لى الفضائل التى أخذت فكرتها عن أفلاطون »[٥٥]. وقد ازدهرت فى عهده الحركة الإنسانية الأدبية ، وفى عهده نالت العبقريات المتعددة التى وهبها دوناتلو ، والراهب أنجلكو ، ولپولپى من السخاء ما كان أكبر مشجع لهـــا ، وفى أيامه عاد أفلاطون إلى تيار الإنسانية الفكرى ، بعد أن ظل يطمس معالمه عهوداً طوالا . ولما انقضى على موت كوزيمو عام ، وسنحت للزمان الفرصة لأن

يطمس مجده ويكشف عن أخطائه قرر المجلس الأعلى فى فلورنس أن ينقش على قبره أنبل ما يستطيع أن يمنحه من الألقــاب وهو « **أبو وطنه** pater patriae » . والحق أنه كان خليقاً بهذا اللقب ، فقد رفعت النهضة بفضله رأسها عالياً ، ووصلت فى عهد حفيده إلى أنقى ذروتها ، وفى عهد ابن حفيده فتحت رومة . ألا إن فى وسع المرء أن يغفر لأمثال هذه الأسرة كثيراً من الذنوب .

الباب الرابع

العصر الذهبي

١٤٦٤ — ١٤٩٢

الفصل الأول

بيرو « إلجتوسو »

ورث بيرو بن كوزيمو وهو فى سن الخمسين ثروة أبيه ، وسلطانه ، وداء مفاصله . وقد حل به هذا المرض ذوى اليسار منذ أيام صباه ، ولهذا كان معاصروه يميزونه من غيره ممن يشبهونه فى اسمه بأن يلقبوه إلجتوسو It Gottoso . وكان رجلا على درجة لا بأس بها من الكفاية ، رضى الأخلاق ، أحسن القيام بعدة مهام دبلوماسية عهد بها إليه والده ؛ وكان مكرماً لأصدقائه ، مناصراً للآداب ، والدين ، والفن ؛ ولكنه كان يعوزه ذكاء كوزيمو ، وظرفه ، وبشاشته ، وكياسته . وكان كوزيمو قد ضمن لنفسه العون السياسى بأن أقرض ذوى النفوذ من مواطنيه مبالغ طائلة ، ولكن بيرو لم يكد يخلف أباه حتى طالب فجاءة بهذه القروض ؛ فما كان من بعض المدينين الذين كانوا يخشون الإفلاس إلا أن نادوا بالثورة « باسم الحرية التى اتخذوها شعاراً لهم » كما يقول مكيفلى Machiavelli « وستاراً يخفون بها غرضهم »(1) . واستطاعوا أن يسيطروا على الحكومة وقتاً ما ، ولكن حزب آل ميديتشى استردها منهم ، وظل بيرو يحكم المدينة حكماً مضطرباً حتى توفى فى عام ١٤٦٩ .

وخلف پيرو ولدين لورندسو ودست سنه عشرين عاماً وجوليانو Giuliano وكان فى السادسة عشرة من عمره .. ولم تكن فلورنس تصدق بأن هذين الغلامين يصلحان لإدارة أعمال أسرتهما دع عنك شئون الدولة عامة ، وأخذ بعض الأهلين يطالبون بإعادة الحكم الجمهورى فى حقيقته وفى مظهره ، وكان كثيرون يخشون أن تضرب الفوضى أطنابها فى المدينة وتتقد فيها نار الحروب الداخلية ، ولكن لورندسو أدهشهم بأن أزال هذا الخداع فجاءة عن عيونهم .

الفصل الثاني

تنشئة لورندسو

لم يكن ضعف صحة پيرو خافيا على كوزيمو ، ولهذا بذل كل ما فى وسعه ليعد لورندسو للاضطلاع بواجبات الحكم . وكان الغلام قد درس اللغة اليونانية على جوانس أرچيروپولس Joannes Argyropoulos ، والفلسفة على فتشينو ، وتعلم وتربى عن غير قصد بالاستماع إلى حديث الحكام ، والشعراء ، والفنانين ، والكتاب الإنسانيين . وتعلم كذلك فنون الحرب ، ونال وهو فى التاسعة عشرة من عمره الجائزة الأولى فى مباراة للفروسة قامت بين أبناء الأسر الكبيرة فى فلورنس « بفضل شجاعته لا محاباة » لأسرته[٢] . وكان منقوشاً على درعه فى تلك المباراة شعار فرنسى معناه « سيعود الزمان Le temps revient » ؛ وهو شعار يصح أن يكون شعار النهضة . وكان قد عمد فى هذه الأثناء إلى كتابة المقطوعات الغنائية بأسلوب دانتى وپترارك ، وإذ كان لا بد له أن يتبع التقاليد السائدة فى أيامه فيكتب فى الحب ، فقد أخذ يبحث فى الأسر الشريفة عن سيدة يتصبب فيها بشعره ، حتى وقع اختياره على لكريديسيا دوناتى Lucrezia Donati وأخذ يتغنى بجميع فضائلها ما عدا عفتها التى كانت موضع أسفه فقد يبدو أنها لم تسمح له بأكثر من عواطف قلمه . ورأى پيرو أن الزواج هو العلاج الشافى من داء العشق ، فأقنع الشاب بأن يتزوج كلارتشى أرسينى Clarice Orsini (١٤٦٩) ، وبهذا استطاع أن يعقد حلفاً بين آل ميديتشى وبين واحدة من أقوى أسرتين فى رومة . وأقام آل ميديتشى بهذه المناسبة ولائم لأهل المدينة كلهم دامت ثلاثة أيام متوالية ، واستهلك فيها خمسة آلاف رطل من الحلوى .

وكان كوزيمو قد درب الصبى على ممارسة الشئون العامة بعض التدريب ، فلما تولى پيرو الأمر وسع دائرة تبعاته المالية والحكومية ، ولما توفى پيرو ، ألفى لورندسو نفسه أغنى رجل فى فلورنس ، بل ربما كان أغنى رجل فى إيطاليا كلها . ولقد كان تصريف شئون ماله وأعماله عبئاً ينوء به كاهله الغض ويتيح الفرصة لأن تعود الجمهورية فتفرض عليه سلطانها ؛ ولكن عملاء آل ميدتشى ، ومدينيهم ، وأصدقاءهم ، ومن ولوهم هم مناصبهم قد بلغوا وقتئذ درجة عظيمة من الكثرة ومن الحرص على أن يدوم سلطان الأسرة ، فلم يمض على وفاة پيرو غير يومين حتى مثل بين يدى لورندسو فى بيته وفد من ذوى المكانة فى المدينة ، وطلبوا إليه أن يتولى قيادة سفينة الدولة . ولم يجد الوفد صعوبة فى إقناعه بالنزول على مطلبه ؛ ذلك أن مصالح أسرة ميديتشى المالية كانت متصلة بشئون المدينة اتصالا يخشى معه أن تنهار إذا استطاع أعداء هذه الأسرة أو منافسوها أن يستحوذوا على السلطة السياسية . وأراد أن يكم أفواه من يوجهون النقد لصغر سنه ، فعين مجلساً من المواطنين المجربين يستشيرهم فى جميع الأمور ذات البال ، وظل طول حياته يستشير هذا المجلس ، ولكنه سرعان ما أظهر من الحصافة وأصالة الرأى ما جعل المجلس يسلم بزعامته فلا يعارض آراءه إلا فى القليل النادر . وقد عرض على أخيه الأصغر قسطاً كبيراً من السلطة ، ولكن جوليانوا كان يؤثر عليها الموسيقى ، والشعر ، والمثاقفة ، والعشق ؛ وكان شديد الإعجاب بلورندسو وسره أن يتخلى له عن مشاغل الحكم وما يضفيه على صاحبه من الشرف . ونهج لورندسو فى الحكم منهج كوزيمو وپيرو من قبله ، فظل (حتى عام ١٤٩٠) مواطناً عادياً ، ولكنه كان يشير بالخطط السياسية على البالِيا Balia التى كان لأنصار أسرته فيها أغلبية مضمونة موثوق بها . وكان لمجلس البالِيا بنص الدستور سلطة مطلقة وإن كانت موقتة ؛ وقد أصبح فى عهد الميديتشيين مجلساً دائماً من سبعين عضواً .

وارتضى أهل المدينة حكمه لأن الرخاء ظل كما كان ؛ ولما زار جاليتسو ماريا اسفوردسا Galeazzo Maria Sforza دوق ميلان مدينة فلورنس فى عام ١٤٧١ ذهل حين شهد ما تتمتع به المدينة من ثراء ، وذهل أكثر من هذا مما جمعه كوزيمو ، وبيرو ، ولورندسو من روائع الفن فى قصر آل ميديتشى وحدائقهم . فقد كانت المدينة حتى فى ذلك الوقت متحفاً حقاً من التماثيل ، والمزهريات ، والجواهر ، والصور ، والمخطوطات المزدانة بالنقوش ، والآثار المعمارية . وأكد جاليتسو أنه شاهد فى هذه المجموعة وحدها من الصور الجميلة أكثر مما شاهده منها فى سائر إيطاليا ؛ ذلك أن فلورنس قد سبقت غيرها بمراحل طويلة فى هذا الفن الذى يمتاز به عصر النهضة . وزاد آل ميديتشى ثراء على ثرائهم حين رأس لورندسو (١٤٧١) وفداً من أهل فلورنس قدم إلى رومة ليهنئ سكتس Sixtus الرابع بارتقائه عرش البابوية ؛ ورد سكتس على هذه التهنئة بأن جدد تعيين ممثل بيت ميديتشى مديراً للأموال البابوية ؛ وكان بيرو قد حصل قبل خمس سنين من ذلك الوقت على حق استغلال المناجم البابوية القريبة من سفيتا فيتشيا وكانت تخرج حجر الشب الثمين المستعمل فى صباغة الأقمشة وصقلها ؛ وكان استغلال هذه المناجم يدر عليه أموالا طائلة .

وواجه لورندسو بعد قليل من عودته من رومة أولى أزماته الكبرى التى لم يفلح كل الفلاح فى معالجتها . وتفصيل ذلك أن منجماً من مناجم الشب فى ناحية ڤلتيرا Volterra — وهى جزء من أملاك فلورنس — قد أجر إلى بعض المتعهدين أكبر الظن أنهم كانوا ذوى صلة بآل ميديتشى . فلما تبين لأهل ڤلتيرا أن المنجم يدر ربحاً موفوراً طالبوا بأن يكون للبلدية قسط من هذا الربح . فاحتج المتعهدون على هذا الطلب ، ورفعوا أمرهم إلى مجلس فلورنس الأعلى . وزاد المجلس المشكلة تعقيداً حين أمر بأن يذهب الربح بأجمعه إلى بيت مال دولة فلورنس كلها . واعترضت ڤلتيرا على هذا الأمر ؛

وأعلنت استقلالها ، وقتلت عدداً من الأهلين الذين عارضوا فى انفصالها عن فلورنس . وأشار توماسو سوديرينى Tommaso Soderini بتسوية الخلاف بالتوفيق بين الطرفين ، ولكن لورندسو رفض ما عرض عليه من وسائل التوفيق ، وكانت حجته أن ذلك يشجع الفتن وحركات الانفصال فى أنحاء أخرى من الدولة ، وأخذ بهـذا الرأى ، وأخمدت الفتنة بالقوة القاهرة ، وأفلت زمام جنود فلورنس المرتزقين ، ونهبوا المدينة الثائرة . فلم يسع لورندسو إلا أن يعجل بالذهاب إلى ڤلتيرا ، ويبذل جهده لإعادة النظام وإصلاح ما فسد من الأمور ؛ ولكن ذلك العمل بقى وصمة فى سجل حكمه .

ولم يتردد الفلورنسيون فى ان يغفروا له قسوته على ڤلتيرا ، وامتدحوا نشاطه حين أنقذ المدينة من المجاعة فى عام ١٤٧٢ باستيراد مقادير موفورة من الحبوب . وسرهم فوق ذلك حين عقد حلفاً ثلاثياً مع البندقية وميلان لكى يحتفظ بالسلم فى شمالى إيطاليا . غير أن البابا سكتس لم يرض كل الرضا عن هذا العمل ؛ ذلك أن البابوية لا يمكن أن تعيش مطمئنة على سلطتها الزمنية الضعيفة إذا كانت على أحد جانبى الولايات البابوية دولة قوية موحدة فى شمالى إيطاليا ، ومملكة نابلى القوية تحف بها من الجانب الآخر . ولما عرف سكتس أن فلورنس تحاول ابتياع مدينة إيمولا وإقليمها (وهى الواقعة بين بولونيا ورافنا) ارتاب فى أن لورندسو يعمل لبسط أملاك فلورنس حتى تصل إلى البحر الأدرياوى . فما كان من سكتس نفسه إلا أن عجل بشراء إيمولا Imola ليجعل منها الحلقة التى لاغنى عنها فى سلسلة المدن الخاضعة لسلطان البابوات من الناحية القانونية ، وإن كانت قلما خضعت لهم فعلا . وقد استعان فى هذا العمل بخدمات شركة پاتسى Pazzi المصرفية وبأموالها ، وكانت هـذه الشركة وقتئذ أقوى منافس لآل ميديتشى . ثم نقل من فلورنس إلى پاتسى الامتيازات التى تدر الربح الموفور والخاصة

بتصريف شئون المالية البابوية ، ولم يكتف بذلك بل عين رجلين من أعداء الميديتشيين — جيرولامو رياريو Girolamo Riaro حاكماً لإيمولا وفرانتشسكو سلفياتى Francesco Sailviati كبيراً لأساقفة پيزا ، وكانت وقتئذ من أملاك فلورنس . ورد لورندسو على ذلك فى ساعة غضبه بعمل عاجل طائش لم يكن كوزيمو ليرضى به : ذلك أنه أتخذ الوسائل المؤدية إلى انهيار شركة پاتسى ، وأمر پيزا أن تمنع سلفياتى من الجلوس على كرسى الأسقفية . واستشاط البابا غضباً من هـذا العمل ، ووافق على مؤامرة دبرها آل پاتسى ، ورياريو ، وسلفياتى يبغون بها إسقاط لورندسو ؛ وقد أبى أن يوافق على اغتيال عدوه الشاب ، ولكن المتآمرين لم يجدوا فى هذا التأنق عقبة تحول بينهم وبين غرضهم ، فدبروا أمر قتل لورندسو وجوليانو أثناء القداس الذى سيقام فى الكنيسة الكبرى فى يوم عيد الفصح (٢٦ أبريل من عام ١٤٧٨) ، فى اللحظة التى يرفع فيها القس القربان المقدس غير مبالين بمخالفة ذلك العمل للأصول الدينية المرعبة . واتفق على أن يستولى سلفياتى وجماعة آخرون على الپلاتسو ڤيتشيو ويطردوا مجلس فلورنس الأعلى .

وجاء لورندسو إلى الكنيسة فى اليوم المحدد لا يحمل سلاحاً وليس معه حرس جريا على سنته ، وتأخر جوليانو عن الموعد المضروب ، فذهب إليه فرانتشسكو ده پاتسى وبرناردو بنديني ، وكانا قد تعهدا باغتياله ، وأخذا يمزحان معه ، وأقنعاه بالذهاب إلى الكنيسة ، وفيها وبينا كان القس يرفع يده بالقربان المقدس طعنه بنديني جوليانو فى صـدره ، فسقط على الأرض مدرجاً بدمه ، وانقض عليه فرانتشسكو وأخذ يكيل له الطعنات بعنف أدى إلى جرح ساقه هو . وهاجم أنطونيو دا ڤلتيرا Antonio da Volterra وقسيس يدعى استفانو لورندسو بخنجريهما ، فاتقى الضربات بذراعيه ؛ ولم يصب إلا بجرح خفيف ، ثم أحاط به أصدقاؤه وساروا به إلى إحدى غرف المقدسات فى الكنيسة ، وفر المعتديان من الجمهور الغاضب ، وحمل جوليانو بعد موته إلى قصر آل ميديتشى .

وبينا كانت هذه الأحداث تقع فى الكنيسة زحف سلڤياتى كبير الأساقفة ، وياقوپو ده پاتسى ومائة من أتباعهما المسلحين نحو البيلاتسا (قصر) ڤيتشيو ، وحاولوا أن يثيروا الشعب ويضموه لهم بصياحهم **الشعب ! الحرية !** ولكن الشعب التف حول آل ميديتشى فى هذه الأزمة ورد عليهم بندائه **لتحيى السكرات !** وهى شارة آل ميديتشى ، ولما دخل سلڤياتى القصر طعنه سيزارى پتروتشى حامل الشعار ؛ وشُنق ياقوپو ده پجيو Iacopo di Poggio ابن الكاتب الإنسانى المعروف فى إحدى نوافذ القصر ، وقبض كبار الحكام فى عزم وشجاعة على عدد آخر من المتآمرين الذين ارتقوا الدرج ، وألقوا بهم من النوافذ ، فنهم من مات من شدة الاصطدام بالأرض ومنهم من أجهز عليه الشعب رجماً بالحجارة . ولما ظهر أمامهم لورندسو ومن حوله عدد كبير من الحراس عبر الشعب عن فرحته بنجاته بغضبه العنيف على كل من ارتاب فى أنه كانت له يد فى هذه المؤامرة ، واختطف فرنتشسكو ده پاتسى من فراشه ، وكان قد خارت قواه من كثرة ما نزف من دمه ، وشنق إلى جانب كبير الأساقفة ، الذى أخذ يعض كتف فرانتشسكو وهو يعالج سكرات الموت . . وجرت جثة ياقوپو ده پاتسى كبير الأسرة المبجل عارية فى شوارع المدينة وألقيت فى نهر الآرنو Arno . وبذل لورندسو كل ما يستطيع أن يبذله لتخفيف حنق العامة وتعطشهم للدماء ، وأنقذ حياة عدد من الذين اتهموا ظلماً بالاشتراك فى المؤامرة ؛ ولكن الغرائز الكامنة حتى فى المتحضرين لا تستطيع أن تترك هـذه الفرصة السانحة لها لتعبر عن نفسها وهى آمنة وخافية عن الأعين فى زحمة الجماهير .

وهال سكستس الرابع أن يشنق كبير الأساقفة على هذا النحو ، فأصدر قراراً بحرمان لورندسو ، وحامل الشعار ، وكبار الحكام فى فلورنس ، ووقف جميع الخدمات الدينية فى كافة أملاك المدينة ، واحتج عدد من رجال الدين على قرار الحرمان ، وأصدروا وثيقة يندون فيها بالبابا وملاوها بأشنع

ألفاظ السباب[٣] ؛ وبعث فرانتى Ferrante أى فرديناند الأول ملك نابلى بناء على طلب البابا وفداً إلى فلورنس يدعو مجلسها الأعلى وأهلها إلى أن يسلموا لرونديو إلى البابا أو ينفوه من المدينة على الأقل . ونصح لورندسو المجلس بإجابة طلب فرديناند ، ولكن المجلس رد عليه بأن فلونس مستعدة لأن تتحمل أية محنة تنزل بها وألا تغدر بزعيمها فتسلمه إلى الأعداء . فما كان من سكتس وفرانتى إلا أن أعلنا الحرب على فلورنس (١٤٧٩) . وهزم ألفنسو ابن الملك جيش فلورنس بالقرب من بجيوبنسى Poggiobonsi وأخذ يعيث فى الريف فساداً .

وما لبث أهل فلورنس أن أخذوا يتذمرون من فدح الضرائب التى فرضت عليهم لأداء نفقات الحرب ، وأدرك لورندسو أنه ما من جماعة تطول تضحيتها بنفسها من أجل فرد واحد . فاستقر رأيه فى هذه الأزمة الخطيرة من تاريخ حياته على قرار لا يستقر عليه سواه ولم يسبق أن اتخذ مثله من قبل . ذلك أنه ركب البحر من پيزا إلى نابلى ، وطلب أن يؤخذ إلى الملك . وأعجب فرانتى بشجاعته ، فقد كان الرجلان يحتربان ، ولم يحصل لورندسو على تصريح بضمان حياته فى سيره ، ولم يكن معه سلاح ولا حرس . وأكثر من هذا أن فرانتشسكو پسينيو الزعيم الحربى المغامر الذى دعى إلى نابلى لينزل ضيفاً على مليكها قد اغتيل غدراً وخيانة من وقت قريب بأمر من الملك نفسه . واعترف لورندسو بصراحة بالصعاب التى كانت فلونس تواجهها ، ولكنه أوضح شدة الخطر الذى يحيق بنابلى إذا قوى سلطان البابوية بتمزيق أملاك فلورنس ، لأن البابوية إذا تم لها هذا استطاعت أن تصر على طلبها القديم وهو أن تكون نابلى إقطاعية بابوية تعطى الجزية عن يد وهى صاغرة . يضاف إلى هذا أن الأتراك كانوا يزحفون على الغرب براً وبحراً ، وأنهم قد يغزون إيطاليا فى أى وقت من الأوقات ، ويهاجمون أملاك فرانتى الواقعة على البحر الأدرياوى ، وليس

من مسمحه إيطاليا فى تلك الأزمة أن تنقسم على نفسها وأن تمزقها الأحقاد والحروب الداخلية . ولم يرتبط فرانتى مع لورندسو بشىء ، ولكنه أمر بأن يحجز لورندسو كما يحجز الأسير والضيف الكريم .

وزادت الانتصارات المستمرة التى نالها ألفنسو على جيوش فلورنس وإلحاح سكتس المستمر بأن يرسل لورندسو إلى رومة أسيراً بابوياً ، زادت هذه وتلك مهمة لورندسو صعوبة على صعوبتها . وبقى أمر زعيم فلورنس ثلاثة أشهر طوال معلقاً لا يبت فيه ، وكان يدرك أن إخفاقه مهمته سيؤدى فى أكبر الظن إلى قتله وإلى القضاء على استقلال فلونس . وكان فى هذه الأثناء قد كسب صداقة الكثيرين بكرمه وسخائه ، ودماثة أخلاقه ، وبشاشته ؛ وكان ممن كسب صداقتهم الكونت كارفا Count Çaraffa وزير الدولة ، فأخذ هذا يدافع عن قضيته . وقدر فرانتى أعظم التقدير ثقافة أسيره ، ونبل خصاله ؛ فها هو ذا كما يلوح رجل مهذب كريم ، فإذا عقد الصلح مع رجل على شاكلته فإن ذلك سيضمن لنابلى صداقة فلورنس طوال حياة لورندسو على أقل تقدير . ولهذا وقع معه معاهدة ، وأهداه جواداً كريماً ، وسمح له بأن يركب البحر من نابلى . ولما علمت فلورنس أن لورندسو جاء بالصلح رحبت به ترحيباً فخماً اعترافاً منها بجميله . واستشاط سكتس غضباً ، وأراد أن يواصل الحرب بمفرده ؛ ولكن محمداً الثانى فاتح القسطنطينيه أنزل جيشاً له فى أترانتو Otranto (١٤٨٠) ؛ وهدد باجتياح إيطاليا ، والاستيلاء على حصن المسيحية اللاتينية نفسه . فما كان من سكتس إلا أن دعا أهل فلورنس للمفاوضة فى شروط الصلح . وقدمت وفودهم إلى البابا ما يجب له من فروض الطاعة ، وأخذ هو يؤنبهم أشد التأنيب ، ثم عفا عنهم . وأقنعهم بأن يجهزوا خمس عشرة سفينة لمحاربة الأتراك ، وعقد الصلح معهم وأصبح لورندسو من ذلك الحين سيد تسكانيا لا ينازعه فى ذلك منازع .

الفصل الثالث

لورنلسـو الأفخم

وشرع الآن يحكم حكماً رحيماً أكثر مما كان يحكم فى أيام شبابه ؛ وكان وقتئذ قد بدأ العقد الرابع من عمره ، ولكن الناس كانوا سريعى النضوج فى أيام النهضة ذات الأحداث التى تعجل النضوج ؛ ولم يكن لورندسو وسيما ؛ فقد كان أنفه الكبير الأفطس يشرف على شفته العليا ، ثم يعود فيتجه نحو الخارج اتجاهاً عجيباً . وكان أدكن اللون ، وكانت جبهته الصارمة وفكه الثقيل ينمان عن غير ما يبدو من دماثة أخلاقه ، ورقة أدبه ومجاملته ، وحلو فكاهته ، وعقله المرهف الشاعرى . وكان طويل القامة ؛ عريض المنكبين ، قوى البنية ، أشبه برجال الرياضة منه برجال السياسة والحكم ، والحق أنه قلما كان يفوقه أحد فى ألعاب القوة . وكان فى سيره وجلوسه مهيباً إلى الحد الذى لا غنى له عنه فى منصبه السامى ، أما فى حياته الخاصة فإنه سرعان ما يجعل أصدقاءه ينسون سلطانه وثراءه . وكان كابنه ليو العاشر يستمتع بأعظم الفنون دقة ، وأكثر المهرجين سـذاجة ؛ وكان فكهاً مع بلتشى **Pulci** ، شاعراً مع بولتيان **Politian** عالمـاً مع لنديتو **Landino** فيلسوفاً مع فيتشينو **Ficino** ، يتذوق جمال الفن مع بتيتشلى **Botticelli** ، موسيقياً مع اسكوار تشيالوبى **Squarcialupi** ، مرحاً مع أشد الناس مرحاً فى أيام الأعياد . كتب مرة إلى فيتشينو يقول : « إذا ما اضطرب عقلى بكثرة الأعمـال العامة وصخبها ، واستكت مسامعى بصراخ المواطنين المشاكسين ، فكيف أطيق ذلك الخصام والنزاع إذا لم أجد الراحة فى العلم » ؟ — ويقصد بالعلم طلب المعرفة على اختلاف أنواعها(٤) .

بيد أن أخلاقه لم تكن مضرب المثل فى الكمال كما كان عقله ، ذلك أنه

كان ، مثل الكثيرين من معاصريه ، لا يدع عقيدته الدينية تحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة . فكان يكتب ترانيم دينية بإخلاص ظاهر ، ولكنه كان ينتقل منها دون تأنيب من ضمير إلى القصائد التى تتغنى بالحب الشهوانى : ويبدو أنه لم يعرف الندم قط إلا على ما فاته من الملاذ ؛ ولما أن قبل مكرهاً ولأسباب سياسية زوجة كان يجلها أكثر مما يحبها ، أخذ يستمتع بالزنا كعادة أهل زمانه ، ولكنه لم يكن له أبناء غير شرعيين ، وكانوا يرون فى ذلك ميزة له على غيره من أمثاله . ولا يزال الجدل حامياً حول خلقه التجارى . لكن أحداً لم يشك قط فى سخائه ؛ والحق أنه كان متلافاً للمال مثل كوزيمو ، لا يستريح له بال حتى يجزى على كل عطية بعطية أكبر منها ؛ وقد أمد بالمال أكثر من عشر منشآت دينية ؛ وأعان عدداً لا يحصى من الفنانين ، والعلماء ، والشعراء ؛ وأقرض الدولة أموالا طائلة . وكان من نتيجة ذلك أنه وجد بعد مؤامرة پاتسى أن ما أنفقه من الأموال على الشئون العامة والخاصة قد تركه غير قادر على أن يوفى بالتزاماته ، فما كان من المجلس ، الحريص على استرضائه ، إلا أن يقرر الوفاء بديونه من مال الدولة (١٤٨٠) . وليس من الواضح كل الوضوح أكان هذا العمل جزاء عادلا له على خدماته التى أداها لبلاده ، وأمواله الخاصة التى أنفقها فى الأغراض العامة(٥) ، أم كان اختلاساً سافراً للأموال العامة(٦) . فإذا عرفنا أن هذا العمل لم يقلل من حب الشعب للورندسو مع أنه كان معروفاً له غير خاف عليه ، فإن هذا فى حد ذاته يوحى بأن التفسير الهين الرقيق أدنى التفسيرين إلى الصواب . ولقد كان جوده ، وثراؤه ، وترفه فى منزله كل ما كان يفكر فيه الناس حين لقبوه بالأفخم Il Magnifico .

وكان من أثر نشاطه الثقافى المتعدد النواحى أن اضطره إلى إهمال مؤسساته المالية المترامية الأطراف بعض الإهمال . وقد استغل عماله انشغاله بهذه الشئون فاندفعوا فى الإسراف والتدليس . ولكنه أنقذ ثروة أسرته بأن

سحبها شيئاً فشيئاً من الأعمال التجارية واستثمرها فى الأملاك العقارية بالمدينة ، وفى الزراعة الواسعة النطاق ؛ وكان يجد لذة كبرى فى الإشراف بنفسه على مزارعه وبساتينه ، ولم يكن علمه بالمخصبات يقل عن علمه بالفلسفة . حتى أضحت أرضه القريبة من قصره الريفى فى كاريجى Careggi وبجيو أكابانو Poggio a Caiano مضرب المثل فى الاقتصاد الزراعى .

وانتعشت حياة فلورنس الاقتصادية تحت حكمه(٧) . فنقصت فوائد الديون فيها إلى خمسة فى المائة ، وسرعان ما ازدهرت المشروعات التجارية التى كانت تجد المال موفوراً ، ودام هذا الازدهار حتى صارت إنجلترا منافساً لها يخشى بأسه فى صادراتها من المنسوجات . وكانت سياسة السلم التى انتهجها فى حكمه وسياسة توازن القوى التى استمسك بها فى إيطاليا فى العشر السنين الثانية من هذا الحكم أقوى أثراً من العوامل السابقة نفسها . ذلك أن فلورنس اشتركت مع غيرها من الدول الإيطالية فى طرد الأتراك من إيطاليا ، فلما تم لها ذلك أقنع لورندسو فرنتى ملك نابلى ، وجاليتسو اسفوردسا Galsazzo Sforza صاحب ميلان أن يعقدا مع فلورنس حلفاً للدفاع المتبادل ، ولما أن انضم البابا إنوسنت الثامن إلى هذا الحلف ، بادرت كثير من الدول الصغرى إلى الانضمام أيضاً إليه . وتنحت عنه مدينة البندقية ، ولكن خوفها من الحلفاء أرغمها على أن تسلك بإزائه مسلكاً طيباً ؛ ودامت السلم فى إيطاليا بفضل هذه الوسيلة حتى توفى لورندسو إذا استثنينا فترات قصيرة قليلة . . وقد بذل فى هذه الأثناء كل ماكان لديه من كياسة وماله من نفوذ لحماية الدول الضعيفة من القوية ؛ ولتسوية المصالح المتضاربة والمنازعات ، والتوفيق بينها ، والقضاء على كل سبب من أسباب الحرب قبل استفحاله(٨) . وبلغت فلورنس فى هذه العشر السنين السعيدة (١٤٨٠ — ١٤٩٠) ذروة مجدها فى الشئون السياسية والأعمال الفنية والأدبية .

وكان لورندسو من حيث الشئون الداخلية يحكم عن طريق **مجلس السبعين** Consiglio di Settante ؛ وكان هذا المجلس يتألف بنص دستور سنة ١٤٨٠ من ثلاثين عضواً يختارهم مجلس سيادة المدينة القائم فى ذلك العام ، ومن أربعين عضواً آخرين يختارهم هؤلاء الثلاثون . . وكانت عضويته تدوم مدى الحياة ، وكان ما يحدث فيه من فراغ يملأ باختيار هؤلاء الأعضاء أنفسهم ؛ وبفضل هذا النظام لم يكن مجلس السيادة وحامل العلم أكثر من عمال منفذين لسياسة مجلس السبعين ، واستغنى بهذا عن البرلمان الشعبى وعن الانتخابات العامة . ولم تكن معارضة هذه السياسة بالأمر الهين ، لأن لورندسو كان يستخدم الجواسيس للوقوف عليها ، وكانت لديه الوسائل الكافية لمضايقة معارضيه من الناحية المالية . وبذلك اختفت الأحزاب القديمة إلى حين ، وقضى على الجرائم ، وساد النظام وإن ضعفت الحرية ؛ وفى ذلك يقول أحد الكتاب المعاصرين : « ليس لدينا هنا تلصص ، ولا اضطرابات ومشاغبات ليلية ، ولا اغتيالات ؛ بل إن فى مقدور كل إنسان أن يصرف شئونه ليلا أو نهاراً وهو آمن كل الأمان »(٩) . ويقول جوتشياردينى Guiceiardini : « إذا كان لابد لفلورنس أن يكون لها حاكم مستبد ، فإنها لم يكن فى مقدورها أن تجد مستبدا خيرا منه أو أكثر منه بهجة » . وكان التجار يفضلون الرخاء الاقتصادى على الحرية السياسية ؛ أما صعاليك المدينة فقد شغلوا على الدوام بالأشغال العامة الواسعة النطاق ، وغفروا للورندسو سلطانه المطلق ما دام يمدهم بالخبز والألعاب . وأما الأغنياء فكان يغريهم بألعاب الفروسية ، ويثير مشاعر الطبقات الوسطى بسباق الخيل ، والعامة بالحفلات والمواكب .

وكان من عادة أهل فلورنس فى أيام المواكب التنكرية أن يطوفوا بشوارع المدينة فى أقنعة زاهية مخيفة ، ينشدون أغانى هجائية أو غرامية ، وأن ينظموا مواكب نصر — ما يسمونه **الترينفى** Trionfi — وهى استعراض

من جموح تسير فى أزياء منقوشة أو تيجان من أزهار تمثل شخصيات أو أحداثاً أسطورية أو تاريخية . وكان لورندسو يحب هذه السنة ولكنه يخشى ما تنزع إليه من اضطراب ، ولهذا اعتزم أن يخضعها لسيطرته ، وذلك بأن يمنحها موافقة الحكومة وتنظيمها ؛ وبهذا أضحت هذه المواكب فى عهده أحب مظاهر الحياة إلى نفوس الفلورنسيين . وقد استخدم الفنانين لتصميم المركبات ، والأعلام ، والأزياء ، ووضع هو وأصدقاؤه الأغانى التى يتغنى بها من فوق المركبات ، وكانت هذه الأغانى تمثل ما فى الأعياد التنكرية من تحلل فى الأخلاق . وكان أشهر مواكب لورندسو هذه موكب « انتصار باخوس » وفيه كان يسير موكب من العربات يحمل فتيات حساناً وجماعة من الشبان ذوى الثياب الغالية الجميلة يمتطون جياداً وثابة مختالة ، يجتازون جسر ڤيتشيو **Ponte Vecchio** حتى يصلوا إلى الميدان الفسيح القائم أمام الكنيسة الكبرى ؛ وكانت أصوات متناسقة متعددة النغمات تملأ الجو مصاحبة لدق الصنوج ، والعزف على العود ، تغنى قصيدة من نظم لورندسو نفسه لا تتفق بأى حال مع الموضع الذى تغنى فيه أمام كنيسة .

١ — ما أحلى الشباب وما أخلاه من الهموم !
ولكنه يسرع بالفرار فى كل ساعة .
أيها الفتيان والفتيات استمتعوا بهذا اليوم
لأنكم لا تعرفون شيئاً مما يأتى به الغد .

٢ — هذا هو باخوس وهذه أدريانى المبتهجة
المحبان الصادقان !
وهما ، على الرغم من سرعة مر الزمان
يجد كلاهما فى صاحبه متعاً جديدة على الدوام

٣ — أولئك الحور العين وأتباعهن جميعاً

يستمتعن بأعياد متواصلة .
أيها الفتيات والفتيان استمتعوا بهذا اليوم
لأنكم لا تعرفون شيئاً مما يأتى به الغد .
١٤ — أيتها السيدات وأيها العشاق من الشبان !
ليعش باخوس ، ولتحى الشهوات
ارقصوا ، والعبوا ، وغنوا ،
وليملأ الحب الحلو صدوركم ناراً .
١٥ — ومهما يكن ما يأتى به المستقبل
فاستمتعوا أيها الشبان وأيتها الفتيات بيومكم هذا
لأنكم لا تعرفون شيئاً مما يأتى به الغد(١١).

وتؤيد أمثال هذه القصائد والمواكب بعض التأييد ما اتهم به لورندسو من أنه أفسد شباب فلورنس ؛ وأكبر الظن أن هذا الشباب كان « يفسد من تلقاء نفسه وإن لم يعمل هو على فساده ؛ ذلك أن الآداب العامة فى البندقية ، وفرارا ، وميلان لم تكن خيرا منها فى فلورنس ، بل إن هذه الآداب كانت فى فلورنس على عهد آل ميديتشى المصرفيين خيرا منها فى رومة أيام البابوات الميديتشيين .

لقد كانت حاسة الجمال المرهفة فى لورندسو أقوى من أن تكبح جماحها آدابه العامة ، وكان الشعر من أهم ما يصبو إليه وينفق فيه ساعات فراغه ، وكانت قصائده تضارع خير ما قيل من الشعر فى أيامه ؛ وبينا كان بوليتان الذى يفوقه فى هذا الميدان لا يزال يتردد بين اللغتين اللاتينية والإيطالية ، كانت أشعار لورندسو قد أعادت إلى اللغة الإيطالية القومية الأسبقية الأدبية التى جاء بها دانتى ونبذها الكتاب الإنسانيون ؛ وكان يفضل مقطوعات بترارك الغنائية على أشعار الحب التى جاءت فى الآداب اللاتينية القديمة ، وإن كان يسهل عليه أن يقرأ هذه الأشعار فى لغتها الأصلية ؛ وكم من أغنية

أنشأها كانت خليقة بأن تزدان بها أغانى يترارك نفسه . ولكنه لم يأخذ الحب الشعرى مأخذ الجد فوق ما يجب أن يأخذه . وكان يكتب بإخلاص أكثر وأجمل عن المناظر الريفية ، التى يمرن فيها أطرافه ويستمتع فيها بهدوء عقله : وكانت خير قصائده هى التى يتغنى فيها بما فى الريف من الغابات ومجارى المياه ، والأشجار والأزهار ، وقطعان الماشية والرعاة . وكان فى بعض الأحيان يكتب قطعاً شعرية فكهة سمت بلغة الفلاحين الساذجة ، فأوجدت فيها شعراً حياً بهيجاً ، وكتب فى بعض الأوقات هزليات هجائية متحررة من المبادئ الخلقية تحرر هزليات رابلية Rabelais ، ثم كتب مسرحية دينية لأبنائه ، وترانيم نجد فى مواضع متفرقة منها نغمة من التقى الذى تسرى فيه روح الإخلاص ، غير أن أكثر ما يميزه من القصائد عن غيره من الشعراء هى **أغانى التنكر** التى كتبت ليتغنى بها فى أوقات الأعياد وفى ساعات اللهو والانشراح ، والتى تعبر عن مشروعية اللذة ، وتسخر من احتشام العذارى . وليس ثمة ما نستبين منه أخلاق النهضة الإيطالية وآدابها . وتعقدها ، واختلاف مناحيها ، من صورة أعظم شخصياتها ومحور قطبها يحكم دولة ، ويصرف شئون ثروة ، ويثاقف فى أعمال الفروسية ، ويكتب شعراً ممتازاً . ويشمل برعايته النقادة المميزة الفنانين والمؤلفين ، ويختلط فى غير تكلف أو تباعد بالعلماء والفلاسفة ، والفلاحين ؛ والمهرجين ، ويمشى فى المواكب ويترنم بالأغانى الفاجرة الخليعة ، ويؤلف الأناشيد الرقيقة ، ويداعب العشيقات ، ويلد أحد البابوات ، وتجله أوربا بأجمعها وتعده أعظم الإيطاليين فى زمانه وأكثرهم نبلا .

الفصل الرابع

الأدب : عصر پوليتيان

وأفاد أدباء فلورنس من عونه ومثله فأخذوا يزيدون فى كل يوم ما يكتبونه باللغة الإيطالية ؛ وأخرجوا على مهل اللغة التسكانية الأدبية التى أضحت نموذجاً ومثلا تحتذيه شبه الجزيرة كلها . ويصفها ڤاركى Varchi المتحمس لوطنيته : « بأنها ليست أحلى وأغنى لغات إيطاليا وأكثرها ثقافة فحسب ، بل إنها تفوق فى هذا كله جميع اللغات المعروفة فى هذه الأيام[١٢] » .

وبينما كان لورندسو يحيى الأدب الإيطالى ، كان فى الوقت عينه يواصل فى جد وحماسة مشروعات جده فيجمع كل ما يستطيع من الكتب الأدبية اليونانية والرومانية القديمة ليفيد منها العلماء فى فلورنس . من ذلك أنه بعث پوليتيان Politian وجون لاسكارس John Lascaris إلى كثير من المدن فى إيطاليا وخارجها لشراء المخطوطات القديمة ، وقد جاء لاسكارس من دير واحد عند جبل آثوس Mt. Athos بمائتى مخطوط ، منها عشرون لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت فى أوربا الغربية . ويقول . پوليتيان إن لورندسو كان يود لو سمح له بأن ينفق كل ثروته ، بل ويرهن أثاث بيته ليبتاع الكتب . وكان يستأجر النساخين لينسخوا له ما لا يستطيع شراءه من المخطوطات ؛ ويجيز فى نظير ذلك لغيره من المولعين بجمع الكتب أمثال ماثياس كورڤينوس Matthias Corvinus ملك المجر وفدريجو Federigo دوق أربينو أن يرسلوا نساخين من عندهم ليعيدوا نسخ ما فى مكتبة آل ميدتشى من مخطوطات . وقد ضمت هذه المجموعة بعد موت لورندسو إلى المجموعة الأخرى التى

وضعها كوزيمو من قبل فى دير سان ماركو ، وكانت المجموعتان تضمان فى عام ١٤٩٥ تسعة وثلاثين وألف مجلد منها ستون وأربعمائة باللغة اليونانية . وخطط ميكل أنجيلو فيما بعد داراً فخمة لهذه الكتب ، وأطلق عليها الخلف اسم لورندسو فسماها المكتبة اللورنتيانية Bibliotheca Laurentiana .
ولما أنشأ برناردو تشينينى Bernardo Cennini مطبعة فى فلورنس (١٤٧١) ، لم يسخر لورندسو من الفن الجديد ، كما سخر منه صديقه پوليتيان أو فدريجو دوق أربينو ؛ بل يبدو أنه أدرك ما سوف يتمحض عنه نظام الحروف المتنقلة من إمكانيات ، واستخدم العلماء لمقابلة النصوص المختلفة حتى تطبع الكتب القديمة بأعظم الدقة المستطاعة فى ذلك الوقت وشجع ذلك بارتولوميو دى لبرى Bartolommeo di Libri فطبع النسخة الأصلية من مؤلفات هومر (١٤٨٨) برعاية العالم المدقق دمتريوس كلكنديلس Demetrius Chalcondyles ؛ وكذلك أصدر جون لاسكارس النسخة الأصلية من مؤلفات يوريپديز (١٤٩٤) ، والمختارات الشعرية اليونانية ، ومؤلفات لوتشيان Lucian ، وطبع كرستوفورو لنديو Cristoforo Landino أشعار هوراس (١٤٨٢) ، وڤرچيل ، وپلنى الأكبر ، ودانتى ، وكانت لغة هؤلاء الثلاثة وإشاراتهم تحتاج حتى فى هذا الوقت إلى شىء من الإيضاح . وفى وسعنا أن نستشف روح ذلك العصر إذا عرفنا أن فلورنس كافأت كرستوفورو على أعماله العلمية بأن أهدت إليه بيتاً فخماً .

وهرع العلماء إلى فلورنس بعد أن أغراهم بذلك اشتهار آل ميديتشى وغيرهم من أهل فلورنس بما يغدقون عليهم من الهبات ، واتخذوا هذه المدينة عاصمة الثقافة الأدبية . وكان من هؤلاء العلماء ڤسپازيانو دا بستتشى Vespasiano da Bisticci الذى كان يعمل بائعاً للكتب وأميناً للمكتبات فى فلورنس ، وإربينو ، ورمة ، ثم ألف سلسلة بليغة محكمة فى سير أعيان الرجال خلد فيها أسماء كتاب ذلك العصر وأنصار العلم فيه . وأراد لورندسو أن

ينمى التراث الذهنى للنوع البشرى وينقله إلى الأجيال القادمة فأعاد إلى الوجود الجامعة القديمة فى بيزا والمجمع العلمى الأفلاطونى فى فلورنس ووسع نطاقهما . ولم يكن مجمع فلورنس العلمى كلية رسمية بل كان هيئة من العلماء المولعين بفلسفة أفلاطون ، يجتمعون فى فترات غير منتظمة فى قصر لورندسو بمدينـــة فلورنس أو فى قصر فتشينو الريفى فى كاريجى Careggi ، ويطعمون معاً ، ويقرأون بصوت عال محاورة من محاورات أفلاطون أو أجزاء منها ، ثم يتناقشون فيما تحتويه من آراء فلسفية . وكان المجمع يحتفل باليوم السابع من نوفمبر ، وهو الذى يزعمون أن أفلاطون ولد ومات فيه ، احتفالا لايكاد يقل روعة ومهابة عن الاحتفالات الدينية ، فكانوا يتوجون بالأزهار تمثالا نصـــفياً يعتقدون أنه تمثال أفلاطون ، ويوقدون أمامه مصباحاً كما توقد المصابيح أمام صور الآلهة . وقد اتخذ كرستوفورو من هذه الاجتماعات أساساً للحديث الخيالى الذى سماه جدل الكملدوليين Disputationes Camaldulense (١٤٦٨) وذكرى فيه كيف زار هو وأخوه دير الرهبان الكملدوليين ، والتقى فيه بالشابين لورندسو وجوليانوده ميديتشى ، وليون باتستا ألبرتى وستة آخرين من علية أهل فلورنس ، وكيف كانوا يضطجعون على الكلأ قرب عين ماء جارية ، ويوازنون بين حياة المدينة المسرعة القلقة ، وسكنى الريف الصحى الجميل وبين حياة النشاط وحياة التأمل والتفكير ؛ وكيف كان ألبرتى يمتدح حياة التفكير الريفى ، بينا كان نورندسو يقول إن العقل الناضج يؤدى أكمل وظيفته ويجد أعظم ما يرضيه فى خدمة الدوولة وفى تجارة العالم[١٣] .

وكان بين من يحضرون مناقشات المجمع العلمى الأفلاطونى پوليتيان ، وپيكو دلا ميرندولا Picco della Mirandola ومرسيليو فيتشينو Marsilio Ficino وقد بلغ من إخلاص مرسيليو للمهمة التى ندبه لها كوزيمو أن

خصص حياته كلها تقريباً لترجمة أفلاطون إلى اللغة اللاتينية ، وللدراسة الأفلاطونية ، وتعليمها ، والكتابة عنها . وكان فى شبابه وسيم الخلق إلى درجة جعلت عذارى فلورنس يشغفن به حباً ، ولكن عنايته بهن كانت أقل من عنايته بكتبه ؛ وقد ضل عن دينه وقتاً ما ، وخيل إليه أن الأفلاطونية أسمى من الدين قدراً ، وكان يلقب طلابه « بأحبائه فى أفلاطون » بدل « أحبائه فى المسيح »(١٤) ، وكان يحرق الشموع أمام تمثال نصفى لهذا الفيلسوف ، ويمجده كما يمجد القديسين(١٥) ؛ ولم تكن المسيحية وهو فى هذه النشوة تبدو له إلا أنها أحد الأديان الكثيرة التى تخفى كثيراً من عناصر الحق فى طيات عقائدها المجازية وطقوسها الرمزية ؛ وظل كذلك حتى ردته كتابات القديس أوغسطين ، وشكره لله على شفائه من مرض خطير ، إلى الإيمان بالدين المسيحى ؛ وبلغ من شدة إيمانه أن أصبح قسيساً حين بلغ سن الأربعين . ولكنه ظل مع ذلك متحمساً للأفلاطونية . يقول إن سقراط وأفلاطون قد جاءا بعقيدة للتوحيد لا تقل نبلا عما جاء به أنبياء بنى إسرائيل ، وأنهما هما أيضاً قد نزل عليهما الوحى نزولا مصغراً ، كما نزل فى الواقع على جميع الناس الذين يخضعون لحكم العقل . وحذا لورندسو وبعض الكتاب الإنسانيين حذوه فسعوا إلى تفسير الدين المسيحى تفسيراً يقبله الفيلسوف دون أن يعملوا على استبدال دين جديد بهذا الدين . وظلت الكنيسة جيلا من الزمان أو جيلين (١٤٤٧ — ١٥٣٤) تبتسم لهذه المخاطرة وتتسامح مع القائمين بها حتى جاء سفنرولا وشنع بها وقال إنها خداع وتضليل ؛

وكانت الشخصية الساحرة الجذابة التى لا يعلو عليها إلا لورندسو نفسه هى شخصية الكونت چيوفنى پيكو دلا ميرندولا ؛ وكان مولده فى البلدة (القريبة من مُيدونا) التى أذاع اسمه شهرتها ، ثم تلقى العلم فى بولونيا وباريس ، وكان يستقبل بأعظم مظاهر التكريم فى بلاط الملوك والأمراء فى أوربا كلها تقريباً ، حتى أقنعه لورندسو آخر الأمر أن يتخذ فلورنس موطناً له ؛ وكان عقله الحريص على العلم المتحمس له ينتقل من فرع منه

إلى فرع — من الشعر ، إلى الفلسفة ، إلى العمارة ، إلى الموسيقى ، — وقد وصل فى كل فرع منها إلى درجة غير قليلة من البراعة . حتى قال عنه بوليتيان إن الطبيعة قد كملته فجمعت فيه كل مواهبها : «كان طويل القامة ، متناسب الأعضاء ، يشع وجهه بشىء من النورانية الإلهية » ؛ نافذ النظرات ، لا يمل الدرس ، قوى الذاكرة إلى حد الإعجاز ، غزير المعرفة فى كل فرع من فروع العلم ، فصيح اللسان يجيد عدة لغات ، تعجب به النساء ويحبه الفلاسفة ، لا يقل جمال خُلقه عن وسامة خَلْقه ، بلغ الدرجة العليا فى جميع الصفات الذهنية . وكان عقله مفتوحاً لجميع الفلسفات والأديان ؛ لا يسعه ولا يوائمه أن يرفض أى نظام أو أى إنسان ؛ ومع أنه نبذ التنجيم فى السنين الأخيرة من حياته ، فإنه رحب بالتصوف وبالسحر ولقيا منه من القبول ما لقيه أفلاطون والمسيح . ولم يضن بكلمة طيبة على الفلاسفة المدرسيين ، الذين رماهم معظم من عداه من الكتاب الإنسانيين بأنهم قوم همج ينطقون بالسخافات والأباطيل . وكان يجد فى التفكير العربى(*) واليهودى كثيراً مما يدعو إلى الإعجاب . وكان من بين أساتذته وأصدقائه المكرمين عدد كبير من اليهود(١٦) . وكان من بين ما درسه أسرار القبلة اليهودية ، واعترف فى غير مماحكة ولا تكلف بما يعزى إليها من قدم ، وجهر بأنه وجد فيها أدلة تقطع بألوهية المسيح . وإذ كان من ألقابه الإقطاعية أنه « كونت كنكورديا(**) **Count of Concordia** فقد أخذ على عاتقه ذلك الواجب السامى واجب التوفيق بين ديانات الغرب العظمى — اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام — ثم التوفيق بينها وبين أفلاطون ، ثم بين أفلاطون وأرسطو . وكان كل من عرفه يتودد إليه ويتملقه ، ولكنه ظل إلى آخر حياته القصيرة يحتفظ بتواضعه

(*) يريد التفكير الإسلامى بطبيعة الحال . (المترجم)

(**) يشير المؤلف إلى أن جيوفنى يريد أن يحقق ما يدل عليه لقبه وهو « الاتفاق أو التحاب » . (المترجم)

الساحر الفنان الذى لا تضارعه إلا ثقته القوية الخلصة بدقة علمه وبقوة العقل الإنسانى .

ولما قدم إلى رومة فى الرابعة والعشرين من عمره (١٤٨٦) ، أذهل القساوسة . والعلماء بأن نشر مجموعة مكونة من تسعمائة قضية تشمل المنطق ، وما بعد الطبيعة ، واللاهوت ، وعلم الأخلاق ، والرياضيات ، والطبيعة ، والسحر ، والقبلة ، ونضم فرق ذلك البدعة الدينية السمحة القائلة بأنه ما دامت أعظم خطيئة ارتكبها الإنسان محدودة غير أبدية ، فإنها لا يمكن أن تستحق العقاب الأبدى » وجهر پيكو باستعداده للدفاع عن أية قضية من هذه القضايا وعنها جميعاً فى أية مناقشة عامة ضد أى إنسان ، وعرض أن يقوم بأداء جميع نفقات السفر لمن يريد أن يتحداه أيا كان البلد الذى يأتى منه . وقد مهد لهذه المباراة الفلسفية المقترحة بإعداد رسالة ذائعة الصيت عرفت فيما بعد باسم : *فى كرامة الإنسان* De hominis dignitate عبر فيها بحماسة الشباب عن آراء الكتاب الإنسانيين فى النوع الإنسانى وهى الآراء التى تناقض معظم ما يراه أهل العصور الوسطى . وقد كتب پيكو فى ذلك يقول : « من الأقوال المألوفة فى المدارس أن الإنسان عالم صغير نتبين فيه جسما امتزجت فيه العناصر الأرضية ، بالروح السماوية ، والنفس النباتية بحواس الحيوانات الدنيا والعقل الإنسانى ، وعقل الملائكة ، وصورة الإله »[١٧] ؛ ثم قال على لسان الله نفسه تلك العبارة التى قالها لآدم وعدها دليلا من قبل الله على ما للإنسان من إمكانيات لا حد لها : « لقد خلقتك كائناً لست سماوياً ولا أرضياً . . . لكى تكون حراً فى أن تشكل نفسك وتتغلب عليها . . . . فى مقدورك أن تنحط فتكون حيواناً ، أو أن تولد من جديد فى صورة الله » وأضاف پيكو إلى هذا عبارة تنم عن الروح العليا الممثلة فى النهضة الفنية :

« تلك هى العطية الإلهية لا تعلو عليها عطية ما ، تلك هى سعادة

الإنسان العظمى ليس بعدها سعادة . . . وهى أنه يستطيع أن يكون ما يريد أن يكون . إن الحيوانات لتحمل معها من أجسام أمهاتها من اللحظة التى تولد فيها كل ما هو مقدر لها أن تكونه ؛ والأرواح العليا (الملائكة) هى منذ البداية . . . ما سوف تكونه إلى أبد الدهر ، ولكن الله أبا الكون قد وهب الإنسان منذ مولده أصول كل الإمكانيات وكل نوع من أنواع الحياة (١٨) .

ولم يجرؤ أحد على أن يقبل تحدى پيكو فيناقشه فى قضاياه المتعددة الأنواع ، ولكن البابا إنوسنت الثامن وسم ثلاثا من هذه القضايا بالإلحاد ؛ وإذ لم تكن هذه القضايا الثلاث إلا جزءاً صغيراً من مجموع قضاياه ، فإن پيكو كان يسعه أن ينتظر من البابا الرأفة به ، وفى الحق أن إنوسنت لم يقف من هذه المسألة موقف الإصرار والمعاندة ؛ ولكن پيكو أصدر تصريحاً رجع فيه عن أقواله فيها وإن يكن رجوعاً تكتنفه الحيطة والحذر ؛ وسافر إلى باريس حيث عرضت عليه جامعتها أن تحميه من البابا ، فلما كان عام ١٤٩٦ أبلغ البابا إسكندر السادس المعروف بظرفه ودماثة خلقه پيكو أنه قد نسى كل شىء ، فعاد پيكو من فوره إلى فلورنس ، وأصبح من أخلص أتباع سفنرولا ، وتخلى عن سعيه وراء التبحر فى العلوم عامة ، وأحرق مجلداته الخمسة فى الغزل ، وخرج عن ماله لأداء بائنات الفتيات الفقيرات ، وعاش هو نفسه كما يعيش الرهبان . وفكر يوماً ما فى الانضمام إلى طائفة الرهبان الدمنيكيين ، ولكنه مات قبل أن يكون رأيه فى هذا الموضوع — وكان عند وفاته لا يزال شاباً فى الحادية والثلاثين من عمره . ولم ينمح نفوذه بعد انقضاء حياته القصيرة ؛ وكان هو الملهم ارتشلن Reuchlin أن يواصل فى ألمانيا تلك الدراسات العبرية التى كان يشغف بها پيكو طوال حياته .

وكان پوليتيان يعجب بپيكو إعجاباً نبيلا كريماً ، ويصحح شعره بعد

أن يقدم لذلك أجمل اعتذار . على أن نجمه لم يلمع بالقوة والسرعة اللتين لمع بهما نجم پيكو ، وإن كان أكثر منه نفاذاً إلى بواطن الأمور ، وأعظم منه ثقافة وتهذيباً . واتخذ أنجيلس باسوس Angélus Bassus كما كان يسمى نفسه أول الأمر — أو أنجيلو أمبروجينى Angelo Ambrogini كما كان يسميه بعضهم — اتخذ اسمه الذى اشتهر به أكثر من غيره من الأسماء من مونتى پولدسيانو Monte Poliziano فى مؤخرة مدينة فلورنس . ودرس اللاتينية بعد أن قدم إلى فلورنس على كرستوفورو لنديتو Cristoforo Landino كما درس اللغة اليونانية على أندرونكوس سالونيكا Andronicus Salonica ، والأفلاطونية على فتشينو ، وفلسفة أرســطو على أرچيروپولوس Argyropoulos . وبدأ وهو فى السادسة عشرة من عمره يترجم هوميروس إلى لغة يونانية قوية مليئة بالمصطلحات اللغوية إلى حد بدت معه وكأنها من أعمال العهد النضى للشعر الرومانى إن لم تكن من عهده الذهبى . ولما أتم ترجمة الكتابين الأولين بعث بالترجمة إلى لورندسو ، فشجعه هذا الأمير — أمير أنصار الأدب والفن ، اليقظ لكل ما يجده من جودة وامتياز — على الاستمرار فى عمله ، وأقامه فى بيته واتخذه معلماً خاصاً لابنه پيرو ، وأمده بكل ما يحتاجه . ولما تحرر بوليتيان بفضل هذا العون من كل عوز أخذ ينشر النصوص القديمة ومن بينها **قوانين جستنيان** وأظهر فيها من غزارة العلم وأصالة الحكم ما أكسبه ثناء العالم الأدبى كله . ولما نشر لنديتو أشعار هوراس قدم لها پوليتيان بقصيدة تضارع فى لغتها اللاتينية ، وتركيب جملها ، وأوزانها الشعرية المعقدة قصائد هوراس نفسه . وكان يستمع إلى محاضراته فى الأدب القديم آل ميديتشى ، وپيكو دلا ميرندولا ، وطلبة من الأجانب — روتشلن ، وجروسين Grocyn وغيرهما — بعد أن ترددت فيها وراء الألب أصداء شهرته فى العلم ، والشعر ، والخطابة بلغات ثلاث . وكان من عادته فى كثير من الأحيان أن يبدأ محاضرته بقصيدة لاتينية طويلة يقرضها لتلك المناسبة.

خاصة ؛ وكان من هذه القصائد قصيدة جزلة جميلة النغم سداسية الأوتاد تروى تاريخ الشعر من هوميروس إلى بوكاتشيو ؛ وكشفت هذه القصيدة هى وغيرها من القصائد التى نشرها پوليتيان بعنوان **السلفيات** عن أسـلوب لاتينى سهل ، سلس ، فياض ، قوى الخيال إلى حد جعل الكتاب الإنسانيين ينادون به أميراً عليهم على الرغم من صغر سنه ، وسرهم أن اللغة النبيلة التى كانوا يأملون إعادتها قد علمها پوليتيان تعلما بعث فيها الحياة من جديد .

وقد جعل پوليتيان من نفسه كاتباً لاتينياً من طراز الكتاب اللاتين الأقدمين ، غير أنه مع ذلك أصدر فى يسر وخصب إنتاج طائفة متتابعة من القصائد باللغة الإيطالية لا تجد لها نظيراً فى كل ما كتب بين پترارك وأريستو ، فلما أن فاز جوليانو أخو لورنسو فى مثاقفة أقيمت عام ١٤٧٥ وصف پوليتيان هذه المثاقفة فى قصيدة مثمنة الأوتاد ، رخيمة النغم ، رشيقة العبارة ؛ ثم امتدح فى قصيدته **سيمونتا الحسناء** جمال حبيبة جوليانو الأرستقراطى بشعر بليغ عـذب جعل شعر الغزل الإيطالى من ذلك الوقت ينمو نمواً جديداً فى رقة اللفظ وقوة الشعور . ويصف پوليتيان على لسان جوليانو خروجه إلى الصيد والتقاءه بسيمونتا وغيرها من الفتيات يرقصن فى الحقل فيقول :

وجدت الحورية الحسناء التى ألهبت قلبى بنار الحب
ذات مزاج لطيف ، نقى ، فطين تقف وقفة رشيقة ،
يشع منها الحب والأدب ، والقداسة ، والحكمة ، والظرف ،
وجهها القدسى حلو رقيق .
تفيض منه البهجة وتتمثل فى عينيها السماويتين جنات الخلد ؛
وكل ما نتمناه نحن الخلائق الفانين المساكين من نعيم ؛
وقد أرسلت من رأسها الملكى وجبينها الوضاء
غدائر ذهبية تساقط مسترسلة فى بهجة وحبور ؛

وأخذت الحسناء تسير بين المغنين ،
وقد انتظمت خطاها ونسقت على وقع الأنغام الشجية ،
وأوسلت إلىّ من عينها خلسة ،
وهما لا تكادان ترتفعان عن بساط الحقل ،
شعاعاً قدسياً مختلساً .
وكأن شعرها قد دبت فيه الغيرة منى ،
فسد طريق هذا الشعاع وحجبه عن ناظرى .

ولكنها ، وهى التى ولدت ونشأت فى السموات العلى لتثنى عليها الملائكة الكرام ،

لم تكد ترى هذا الظلم حتى رفعت بأنق يد وأنصعها
غدائرها العاصية ، وتبدت لى بطلعتها الرقيقة الحلوة ،
ثم أرسلت من عينها نظرة حادة ملتهبة
من نظرات الحب القوية ، وقعت على عينى فألهبتها ،
حتى لم أدر كيف نجوت من الاحتراق بذاك اللهيب(١٩)

وأنشأ پوليتيان فى حب معشوقته إپوليتا ليونتشينا Ippolita Leoncina أغانى غرامية أوفت على الغاية فى الرقة والحنان ؛ ثم أطلق العنان للأنغام التى كان يفيض بها قلبه فأنشأ أغانى مثلها يتخذ منها أصدقاؤه رقى يتخلصون بها من حياتهم . ولم يفته حفظ أقاصيص الفلاحين الشعرية ، فلما حفظها صاغها من جديد فى صورة أدبية مصقولة ، ثم انتقلت فى صورتها الجديدة إلى الشعب وذاعت بين أفراده ، ولا تزال لها أصداء تتردد فى تسكانيا إلى يومنا هذا . وقد وصف فى قصيدته حبيبتى السمراء فتاة ريفية حسناء تغسل وجهها وصدرها عند عين ماء ، وتتوج شعرها بالأزهار « وكان ثدياها كورد الربيع ، وشفتاها حمراوين كالورد » ؛ وذلك وصف قديم لا يمل الإنسان سماعه . وأراد پوليتيان أن يؤلف من جديد بين التمثيل

والشعر ، والموسيقى ، والغناء ، كما حدث فى مسرح اليونان الديونيسى .
فوضع فى يومين اثنين ، كما يؤكد هو ويقسم ، مسرحية غنائية فى ٤٣٤
بيتاً غنيت للكردنال فرانتشسكو جنزاجا Francesco Gonzaga فى منتوا ،
(١٤٧٢) . وقد سماها قصة أورفيوس وتحدث فيها عن موت
يوريديس Eurydice زوج أورفيوس ، وكيف ماتت من عضة ثعبان ، حين
كانت تحاول الهرب من راع هام بحبها وكيف اتخذ أورفيوس البائس
المسكين طريقه إلى الجحيم ؛ وسحر پلوتر بقيثارته فلم يسع إله العالم السفلى
إلا أن يعيد له يوريديس على شريطة ألا ينظر إليها حتى يخرج من الجحيم
كله ؛ ولكنه لم يكد يسير بها بضع خطوات حتى غلبته نشوة الحب فالتفت
ليراها ، فاختطفت منه وأعيدت من فورها إلى الجحيم ، وحيل بينه وبين
تعقب خطاها . وأثر ذلك فى أورفيوس وتملكه نوبة من الجنون فكره
النساء كلهن ، وأوصى الرجال بأن يغفلوا النساء ، ويشبعوا أنفسهم بالغلمان
كما أشبعها زيوس بجانيميد . واستشاطت مينادات (أرواح) الغاب غضباً
من احتقاره النساء ، فانهلن عليه ضرباً حتى فارق الحياة ، وسلخن جلده ،
ومزقن أطرافه عن جسمه ، وأخذن يغنين وهن مبتهجات لانتقامهن منه .
وقد ضاعت الموسيقى التى كانت تصاحب الشعر ، ولكن فى وسعنا أن نضع
ونحن آمنون مسرحية أورفيوس بين أولى المسرحيات التى تبشر بظهور
المسرحيات الغنائية الإيطالية .

وكاد پوليتيان أن يصبح من الشعراء العظام ، ولكنه لم يبلغ هذه المرتبة
لأنه تجنب مساقط العواطف الثائرة ، ولم يتعمق أغوار الحياة أو الحب ،
فهو ساحر على الدوام غير عميق على الإطلاق ؛ وكان حبه لرورندسو أقوى
ما عرف من المشاعر ، وكان يقف إلى جانب راعيه ونصيره عند مقتل
جوليانو فى الكنيسة ، وكان هو الذى أنقذ حياة لورندسو بإغلاق أبواب
غرفة المقدسات وإحكام مزاليجها فى وجه المتآمرين ؛ ولما عاد لورندسو

من رحلته الخطرة إلى نابلى حياه پوليتيان بأبيات من الشعر تشف عن حب يكاد يزرى به ويبيده ؛ ولما مات لورندسو حزن عليه پوليتيان حزناً يجل عن العزاء ، ثم أخذ غصنه يذبل شيئاً فشيئاً حتى مات بعد عامين من وفاته فى ذلك العام المشئوم الذى مات فيه پيكو عام ١٤٩٤ عندما كشف الفرنسيون إيطاليا .

ولم يكن لورندسو ليبلغ ما بلغه من مرتبة الرجل المكمل ، لو لم يكن له بعض الهوى بالفلسفة ، وبعض الشك فى الدين ، وبعض الانطلاق فى الحب ؛ وكان أمير فلورنس المصرفى يدعو إلى صحبته ومائدته لويجى پلتشى Luigi Pulci ويلذ له سماع الهجاء الفظ فى قصيدة مرجنتى الأعظم Morgante maggiore . فقد كانت هذه القصيدة الشهيرة التى يعجب بها بيرون تقرأ للورندسو وضيوف بيته بصوت عال فقرة فقرة . وكان لويجى رجلا قوى الفكاهة منطلقاً فيها ، هز مشاعر القصر والأمة كلها باستخدام لغة الطبقات الوسطى ، ومصطلحاتها ، وأفكارها ، فى قصص الفروسية الغرامية . وكانت القصص الخيالية التى تصف مغامرات شارلمان فى فرنسا ، وأسپانيا ، وفلسطين قد دخلت إيطاليا فى القرن الثانى عشر أو قبله ، ونشرها فى شبه الجزيرة المغنون الجوالون ، والشعراء المرتجلون ، فتدخل البهجة والسرور على كافة الطبقات . ولكن الذكور العاديين من بنى الإنسان كان يوجد فيهم على الدوام نزعة من الواقعية المخادعة ، الفتية ، الساخرة من نفسها ، تصاحب وتكبح جماح الروح الغرامية التى يحبو بها النساء والشباب الأدب والفن . وقد جمع پلتشى هذه الصفات كلها وألف من القصص الشعبية الخرافية ، ومن المخطوطات المحفوظة فى مكتبة لورندسو ، ومما كان يدور من الحديث حول مائدة لورندسو نفسه — ألف من هذا كله ملحمة تسخر من المردة ، والشياطين ، والوقائع الحربية التى تفعم قصص الفروسية ، وتقص من جديد فى شعر جدى تارة ، وساخر تارة أخرى ، مغامرات الفارس المسيحى

أورلندو والمارد العربى الجبار الذى يكون اسمه نصف اسم القصيدة(*) .

وخلاصتها أن أورلندو يهاجم مورجنتى ، فينقذ هذا حياته بأن يعلن فجاءة اعتناقه الدين المسيحى ، ويعلمه أورلندو اللاهوت ويقول له إن أخويه اللذين قتلا توا يقيمان وقتئذ فى الجحيم لأنهما من الكفار ، ويبشره بالجنة إذا أخلص لدين المسيح ، ولكنه ينذره بأن لا بد له وهو فى الجنة أن ينظر إلى أهله الذين يحترقون بشىء من الرحمة . ويقول له الفارس المسيحى : « إن علماء ديننا مجمعون على أنه إذا شعر المنعمون فى السماء بالرحمة على الأشقياء من أقاربهم ، فإن سعادتهم تنتهى إلى لا شىء » . ولا يضطرب مورجنتى لهذا ، بل يقول لأورلندو مؤكداً : « سنرى هل أحزن على أبنائى ، وهل أرضى بحكم الله ، وأسلك مسلك الملائكة ، أو لا أرضى بحكمه ولا أسلك مسلكهم . . . . سأقطع أيدى أخوى وآخذها إلى أولئك الرهبان الصالحين حتى يوقنوا بأن عدويهم قد هلكا » .

ويدخل بلتشى فى المقطوعة الثامنة عشرة مارداً جديداً يدعى مرجوتى Margute ، وهو لص مرح ، وقاتل رقيق ، يعزو إلى نفسه كل رذيلة إلا الغدر بالصديق . ويسأله مورجنتى هل يؤمن بالمسيح أو يؤثر عليه محمداً فيجيبه مرجوت بقوله :

إنى لا أومن بالأسود أكثر مما أومن بالأزرق
وكل ما أومن به هو الديكة السمينة مسلوقة أو قد تكون محمرة ؛
وأومن أحياناً بالزبد أيضاً ،

وبالجعة وبالخمر الفطير الذى يطفو على وجهه قطع التفاح الحميص ؛ ...
أما الذى أومن به أشد الإيمان فهو النبيذ المعتق ،

(*) نشر بلتشى أولا المقطوعات التى تشير إلى مورجنتى : وسميت القصيدة بعد أن كملت مورجنتى يورى **Morgante Maggiore** أى مورجنتى الأعظم .

واعتقد أن الذى يثق به أشد الثقة هو الذى تكتب له النجاة . . . .
إن الإيمان كالحرب معد ؛ . . .

والإيمان يتشكل بالصورة التى يدركه بها الإنسان — هذه أوتلك ، أو غيرها من الصور .

فإذا شئت إذن أن تعلم أى نوع من العقائد أنا مرغم على اعتناقه !
فاعلم أن أمى كانت راهبة يونانية ،
وأن أبى كان بين الأتراك فى بروصه ملا[٢١]

ويموت مرجوتى من الضحك بعد أن يظل يختال ويستهتر فى مقطوعتين ؛ ولا يضيع بلتشى دمعة واحدة يذرفها عليه ، بل يجتذب من خياله السحرى شيطاناً من الطراز الأول يدعى عشتروت هو الذى اشترك العصيان مع إبليس ؛ يستدعيه الساحر ملاجيجى Malagigi ليأتى برينلدو بسرعة من مصر إلى رنتشسفالبز Rancesvalles ، فيقوم بهذه المهمة فى مهارة ويكسب من حزق رينلدو مايجعل هذا الفارس المسيحى يقترح أن يرجو الله أن يطلق عشتروت من الجحيم . ولكن الشيطان الظريف شديد التفقة فى الدين ، ومن أجل ذلك يقول إن التمرد على العدالة اللانهائية جريمة لانهائية تستحق عقاباً سرمدياً . ويعجب ملاجيجى من أن الله الذى سبق كل شىء فى علمه بما فى ذلك عصيان إبليس واللعنة الأبدية قد خلقه ؛ فيعترف عشتروت بأن هذا من الأسرار الخفية التى لايعرف أحد حتى الحكماء أنفسهم كنهها[٢٢] ؛

والقد كان فى الحقيقة شيطاناً عاقلا ، لأن بلتشى وهو يكتب فى عام ١٤٨٣ ينطقه بأقوال مدهشة يستبق بها كولمبس ، فيقول عشتروت لرينلدو وهو يشير إلى التحذير القديم القائم عند أعمدة هرقل (جبل طارق) والذى يقال فيه « لاتسر إلى ما بعد هذا ne plus ultra :

اعلم أن هذه النظرية خاطئة ؛ وأن سفينة
الملاح الجرىء ستخوض عباب الأمواج الغربية

وتتوغل فيها إلى مدى بعيد .
والأرض ، وإن بدت سهلا أملس منبسطا ،
قد خلقت فى صورة عجلة مستديرة
ولقد كان الإنسان فى الأيام الحالية أفظع صورة مما هو ،
وإن كان من شأن هرقل نفسه أن يعتريه الخجل إذا عرف
إلى أى مدى سينطلق بعد قليل أضعف قالب بحرى
وراء الحدود التى حاول عبثاً أن يضعها له .
سوف يكشف الإنسان بلاشك عن نصف عالم آخر
لأن الأشياء جميعها تنزع نحو مركز مشترك عام
والأرض المتزنة اتزاناً عجيباً بقدرة الله العجيبة الخفية
معلقة بين أبراج النجوم .
وفى الجهات المقابلة لنا من الأرض مدن ودول
أقطار غاصة بالسكان لم تعرف حقيقتها قبل الآن .
وهاهى ذى الشمس تشق طريقها الغربى مسرعة
لتدخل البهجة على قلوب الأمم بما تتوقعه من ضياء(٢٢) .

وقد سار بلتشى على سنة ابتداء كل مقطوعة ، مهما يكن فيها من السخرية والتهريج ، بتضرع وابتهال إلى الله وإلى الأولياء الصالحين . وكلما زاد ما فى مادته من دنس زادت المقدمة جداً ووقاراً . وتختم القصيدة بالجهر بإيمانه بأن الأديان كلها خير وبركة — وهو تصريح يغضب بلا شك كل مؤمن حق . ويجيز بلتشى لنفسه بين الفينة والفينة شيئاً من الهرطقة القليلة ، كالذى فعله وهو يقتبس بعض عبارات من الكتاب المقدس ليؤيد بها قوله إن علم المسيح السابق لم يكن يعدل علم الله الأب ، وحين يجيز لنفسه أن يأمل بأن تنجو جميع الأرواح فى آخر الأمر بما فيها روح إبليس نفسه ؛ ولكنه بقى كما بقى كل فلورنسى صالح ، وكما بقى غيره من أفراد الدائرة الملتفة حول لورندســو ، مؤمناً فى ظاهر الأمر بكنيسة مرتبطة ارتباطا

لا انفصام له بالحياة الإيطالية . ولم ينخدع رجال الدين بخضوعه هذا وولائه ؛ ولما توفى (١٤٨٤) لم يسمحوا بأن تدفن جثته فى أرض مكرسة .

وإذا كانت جماعة لورندسو قد استطاعت أن تنتج هذه الآداب المتنوعة فى جيل واحد ، فإن من حقنا أن نظن — وسنجد فى واقع الأمر — أن يقظة مثل هذه اليقظة قد وجدت فى مدن أخرى غير فلورنس — فى ميلان ، وفرارا ، ونابلى ، وروما . والحق أن إيطاليا كانت قد أتمت المرحلة الأولى من نهضتها وتجاوزتها إلى المرحلة التالية ؛ فقد أعادت كشف بلاد اليونان القديمة ؛ ووضعت المبادئ الأساسية للدراسات القديمة ، وجعلت اللاتينية مرة أخرى لغة ذات بهاء وجلال ، وقوة وعنفوان . ثم فعلت أكثر من هذا : فقد كشفت إيطاليا من جديد فى الجيل الذى بين موت كوزيمو ولورندسو لغتها هى وروحها ، وطبقت مقاييس اللفظ والأسلوب على اللغة القومية ، وأنشأت شعراً قديماً فى رومة ، ولكنه أصيل و« حديث » فى لغته وتفكيره ، متأصل فى شئونها ومشاكلها اليومية أو فى مناظر الريف وأشخاصه . يضاف إلى هذا أن إيطاليا قد نهضت فى جيل واحد ، وبفضل بلتشى ، بالمسلاة الفكهة فجعلتها أدباً راقياً ، ومهدت الطريق إلى بورادو Borardo وأريستو Ariosto ، بل إنها قد استبقت بسمات سرفنتير Cervantes من خيلاء الفروسية وتنطعها وادعاءاتها ؛ وأخذ عهد الدراسة يختفى تدريجاً ، وحل الخلق والإبداع محل المحاكاة ؛ وبعث الأدب الإيطالى بعثاً جديداً بعد أن ذبل على أثر اختيار بترارك اللغة اللاتينية ليكتب بها ملحمته . ولم يمض بعد هذا الوقت الذى نتحدث عنه زمن طويل حتى كاد إحياء الأدب القديم أن ينسى فى نضرة الثقافة الإيطالية وغزارتها ، وهى الثقافة التى تزعمت العالم فى الأدب وغمرته بفيض من الفن .

الفصل الخامس

العمارة والنحت : عصر ڤيروتشيو

وواصل لورندسو فى حماسة بالغة تقاليد آل ميديتشى القديمة القاضية بمناصرة الفن ، يشهد بذلك ماكتبه معاصره ڤالورى يقول : « لقد بلغ من شدة إعجابه بآثار العهود القديمة أنه لم يكن شىء أحب إليه من هذه الآثار وإن كان من يريدون التقرب إليه وإدخال السرور عليه يجمعون من كل أنحاء العالم مدليات ، ونقوداً ؛ . . . وتماثيل كاملة ونصفية ، وكل ما طبع بطابع اليونان أو رومة القديمة(٢٤) . وأضاف لورندسو ما جمعه من مخلفات العمارة والنحت إلى ما خلفه كوزيمو وپيرو ، ووضعها فى حديقة قائمة بين قصر آل ميديتشى ودير سان ماركو ، وأجاز لكبار الزوار والعلماء الموثوق بهم أن يدخلوها ، وعين راتباً لمن كان يظهر الجد أو تلوح عليه سمات النجابة من الطلاب — وكان من بينهم الشاب ميكل أنچيلو — ليعيشوا منه ، كما كان يمنح الجوائز لمن يظهر منهم كفاية ممتازة . وفى ذلك يقول ڤاسارى : « ومن أهم ما يستلفت النظر أن جميع من كانوا يدرسون فى حديقة آل ميديتشى ، وكانوا من المقربين للورندسو ، قد أصبحوا من رجال الفن الممتازين ، ويرجع الفضل كل الفضل فى هذا إلى عظم حكمة هذا الرجل العظيم المناصر للفنون . . . الذى لم يكن صادق الحكم على العباقرة فحسب ، بل أوتى فوق ذلك من الإرادة والقوة ما استطاع به أن يكافئهم على نبوغهم(٢٥) » .

وكانت أهم الحوادث ذات الشأن العظيم فى تاريخ الفن فى عهد لورندسو هى نشر رسالة ڤتروڤيوس Vitruvius (١٤٨٦) المسماة **فى العمارة** De Architectura (التى كتبت فى القرن الأول قبل الميلاد) والتى كان

بجيو قد استخرجها من أرض دير سانت جول قبل ذلك الوقت بنحو سبعين عاماً . واستحوذت هذه الرسالة القديمة الجامدة على مشاعر لورندسو ، واستخدم نفوذه فى نشر طراز رومة الإمبراطورية فى العمارة ، ولعله فى هذه المسألة بالذات قد أساء أكثر مما أحسن ، لأنه أعاق فى فن العمارة ما كان يمارسه بنجاح مثمر فى ناحية الأدب — نعنى تنمية الأشكال الوطنية . لكن الروح التى حفزته إلى هذا العمل كانت روحاً كريمة بحق ، فقد ازدانت رومة بفضل تشجيعه ، وبفضل أمواله فى كثير من الأحوال ، بطائفة كبيرة من المبانى الرشيقة كانت ملكاً للمدينة أو للأفراد . وكان من هذه الأعمال إتمامه كنيسة سان لورندسو والدير القائم فى فيسولى ، واستخدامه جوليانو ده سنجلو Giuliano de Sangallo لتخطيط دير خارج باب سان جلو San Gallo هو للذى خلع على هذا المهندس اسمه . وبنى له جليانو قصراً ريفياً فخماً فى بوجيو أكايانو Poggio a Caiano وبلغ من جماله أن أوصى به لورندسو فرديناند ملك نابلى حين طلب إليه هذا مهندساً يعمل عنده ؛ ويدلنا على مقدار حب أولئك الفنانين للورندسو ما أظهره جوليانو من الكرم بعدئذ ، فقد أرسل إليه هدايا كل ما منحته إياه فلورنس من هبات — وهى تمثال نصفى للإمبراطور هدريان وتمثال كيوبد النائم وغيره من التماثيل القديمة ؛ وضم لورندسو هذه الهبة إلى مجموعاته التى فى حديقته ، والتى تكون منها فيما بعد نواة مجموعة التماثيل القائمة فى معرض أفيزى Uffizi ؛

وكان غيره من ذوى المال يضارعونه — ومنهم من بزه — فى فخامة مسكنه . من ذلك أن بينيديتو ده ميانو Benedetto de Maiono شاد لفلپو استرتزى الأكبر Filippo Strozzi the Elder قصراً يتجلى فيه بأكمل صورة ذلك الطراز التسكانى من العمارة الذى أبرزه فى قصر پتى Pitti — والذى يتمثل فيه الفخامة والنعيم من الداخل تحجبهما عن العين واجهة ضخمة من الكتل الحجرية « الريفية » غير المصقولة ؛ وقد بدأ المهندس بناءه بعد أن

رصد له طالعه بأكبر عناية ، وبعد أن أقيمت لذلك صلوات دينية فى عدة كنائس ، وبعد أن وزعت الصدقات زلفى واستدراراً للبركة . وأتم سيمونى پولايولو Simone Pollaiuolo(*) هذا البناء بعد أن توفى بينيديتو (١٤٩٧) وأضاف إليه طنفاً جميلا على مثال طنف آخر شاهده فى رومة . وفى وسعنا أن نتصور ما كان ثمة من جمال فى داخل هذه الأسوار التى يخيل إلى من يراها أنها سجون ، بالنظر إلى مواقدها الفخمة ، وهى أروقة ضخمة تستند إلى عمد منحوتة على شكل أزهار تعلوها نقوش بارزة . وظل مجلس السيادة فى هذه الأثناء يزيد داره الفذة الجميلة وهى قصر ڤيتشيو جمالا على جمالها .

وكان معظم المهندسين المعماريين مثالين أيضاً ، لأن المثالين كانوا أصحاب الشأن الأكبر فى زخرفة الأبنية ، ونحت أطنافها ، وقوالبها ، وعمدها المربوعة ، وتيجانها ، وعمد الأبواب وأثاث المصطلى ، والنقوش البارزة على الجدران ، وأماكن القربان ، ومواقف المرتمين ، والمنابر ، وأجران التعميد . وكان جوليانو دا مايانوا هو الذى نحت مواضع المقدسات فى الكتدرائية وفى دير فيسولى . وكان أخو بينيديتو هو الذى أتقن فن تلبيس الخشب ؛ واشتهر به إلى حد جعل ماتيوس كورڤينوس Matthius Corvinus ملك المجر يطالب إليه صنع صندوقين من الخشب الملبس ويدعوه إلى بلاطه : ولبى بينيديتو الدعوة ، وعمل على أن يرسل الصندوقان بعد ذهابه ؛ فلما وصل الصندوقان وأخرجا من غلافهما أمام الملك سقطت منهما القطع الخشبية المطعمة لأن الهواء الرطب قد حلل الغراء الذى يمسكها ؛ ونجح بينيديتو فى إعادة القطع إلى أماكنها ، ولكنه كره صناعة التلبيس ، واتجه من ذلك الوقت إلى فن النحت فنبغ فيه أعظم نبوغ ؛ حتى لا نكاد نجد من تماثيل العذراء ما هو أجمل من تمثال **مادونا الجالسة على العرش** ، ولا من

(*) وقد لقب الكرونا كا Il Cronaca نسبة إلى السجل الحى الذى كتبه عن أسفاره ودراساته

التماثيل النصفية ما يفوق تمثال فلبو استرتسى الذى التزم فيه أمانة التصوير وكشف فيه عن خصائص صاحبه ، وقل أن نجد فى المقابر ما يضارع فى جماله قبر استرتسى هذا الذى أنشأه له فى سانتا ماريا نوفلا ، ولا فى المنابر ما هو أعظم رشاقة فى نحته من المنبر الذى صنعه بينيديتو لكنيسة الصليب المقدس Santa Cioce ، وقل أن نجد فى المحاريب ما هو أقرب إلى الكمال من محراب ســانتا فينا Santa Fina القائم فى كنيسة سان جمنيانو San Gimignano المعهدية(*) .

وكان النحت والعمارة يوجدان عادة فى أسر بعينها — كأسر دلا ربيا della Robias ، وسنجالو Sangalli ، وروسلينو Rosslini ، وبولايولو . وقد تعلم أنطونيو بولايولو عم سيمونى دقة التصميم ورقته حين كان صائغاً فى مشغل والد ياقوبو . وقد رفعته منتجاته من الفضة والذهب إلى مكانة جعلته تشيليني Cellini زمانه ، والصديق المفضل للورندسو ، وللكنائس ، ومجلس السيادة فى فلورنس ، وطوائف الحرف . ولاحظ أنطونيو أن هذه التحف الصغيرة قلما تحتفظ باسم صانعها ، وكان يتوق كما يتوق رجال النهضة إلى تخليد شهرته ، فاتجه نحو النحت وصب من البرنز تمثالين فخمين لهرقول Hercules يقلان فى قوتهما عن تمثال الأسرى لميكل أنچيلو وعن تمثال لأوكوون الذى يرمز إلى العاطفة المعذبة . ولما انتقل بعدئذ إلى الرسم روى قصة هرقول فى ثلاثة رسوم جدارية لقصر آل ميديتشى ، وتحلى بتيتشلى فى صورة أبلو ودافنى وضارع سخف مائة من الفنانين بأن أظهر كيف يستطيع القديس سبستيان أن يتلقى وهو هادئ السهام التى يرميه بها الرماة من أقواسهم على مهل ، فلا تؤثر فى جسمه قط . وعاد أنطونيو فى سنيه الأخيرة إلى صنع التماثيل ، وصب لكنيسة القديس بطرس القديمة فى رومة

(*) الكنيسة المعهدية هى التى تقام على بعد قليل من كتدرائية والتى يقيم فيها طائفة من القساوسة يعيشون فيها جماعة . (المترجم)

نصبين فخمين لقبرى سكتس الرابع وإنوسنت الثامن أظهر فيهما من قوة النحت ودقة العلم با لتشريح ما يبشر مرة أخرى ببراعة ميكل أنجيلو المقبلة .

ولم يكن مينو دا فيسولى Mino da Fisole يضارع أنطونيو هذا فى تعدد كفاياته أو فى شدة انفعاله ؛ فقد قنع بأخذ فن النحت عن دزيدريو دا سنتيانو Desiderio da Settigonano ، ولما مات أستاذه اكتفى بالسير على ما كان له من تقاليد فى الرشاقة السهلة اللينة . ولقد بلغ من تأثر مينو بموت دز يديريو ، إذا جاز لنا أن نصدق ڤاسارى ، أنه لم يجد بعدئذ شيئاً من السعادة فى فلورنس ، وأخذ يطلب مناظر جديدة فى رومة . وفيها أذاعت شهرته ثلاث تحف فنية هى : قبرا فرنتشسكو ترنابوؤنى Francesco Tornabuoni والبابا بولس الثانى ، ورواق من الرخام للكردنال ده استوت ڤيل Cardinal d'Stouteville ، فلما عادت إليه الثقة ونجا من الإفلاس عاد إلى فلورنس وزين بمحاريب بديعة كنائس سانت أمبروجيو Sant Ambrogio وسانتا كروتشى (الصليب المقدس) ، ومكان التعميد ، وأنشأ فى كتدرائية فيسولى موطنه الأول قبراً مزخرفاً على الطراز الرومانى القديم للأسقف سالوتاتى Salutati وصنع لدير فيسولى نصبا آخر شبيها به ، أقل منه إمعاناً فى الزخرف ليخلد به ذكرى الكونت أوجو Count Ugo مؤسس الدير . ومما تفخر به كتدرائية پراتو Prato منبر من صنعه ، وثمة اثنا عشر متحفاً يعرض فيها تمثال نصفى أو أكثر من تمثال نصفى حفظ فيها صورة أنصاره أكثر مما تملقهم : صـــورة وجه نقولو استرتسى منتفخاً كأنه مصاب بالنكاف (*) ، وصور ملامح پيرو المصاب بالنقرس وما يبدو فيها من هزال ، ورأس ديتيلسڤى نيرونى Dietisalbvi Neroni الجميل ، وعمل نقشاً بارزاً جميلا الماركس أورليوس فى شبابه ، وتمثالا نصفياً رائعاً للقديس يوحنا المعمدان فى طفولته ، ونقوشاً بارزة بديعة للعذراء والطفل . وتبدو فى هذه

(*) التهاب الغدة النكفية وهو مرض معد حاد . (المترجم)

التحف كلها الرشاقة النسوية التى أخذها مينو عن دزيديريو ؛ فهى تبعث السرور ولكنها لا تسترعى الانتباه ، وليس فيها عمق ؛ فهى لاتثير اهتمامنا كما تثيره تماثيل أنطونيو پولايولو ، أو أنطونيو روسلينو ؛ وكان منشأ هذا أن مينو قد أفرط فى حب ديزيديرو حتى لم يستطع إغفال النماذج التى وضعها هذا الأستاذ ، ليبحث فى الطبيعة الحرة الصارمة غير الرحيمة عن حقائق الحياة وما تكشف عنه من معان خفية .

أما ڤيروتشيو Verroechio فقد كانت له « عين حقة » وأوتى من الشجاعة ما أمكنه به أن يفعل هذا الذى عجز عنه مينو ، وأخرج أعظم آيتين من آيات النحت فى عصره . كان أندريا دى ميكيلى تشيونى Andrea di Michele Cioni (لأن هذا هو اسمه الحقيقى) صائغاً ، ومثالا ، وصانع أجراس ؛ ورساماً ، وعالماً بالهندسة النظرية ، وموسيقياً . ويرجع أكبر أسباب شهرته فى الرسم إلى أنه علم ليوناردو ، ورندسو دى كريدى ، وپروجينو Perugino وكان له فيهم أثر كبير . أما رسومه هو فأكثرها جامدة ، ميتة ؛ وقل أن يوجد فى صور عهد النهضة ما هو أبعث على النفور من صورة **تعميد المسيح** الذائعة الصيت ؛ فالمعمد فيها متطهر متزمت ، عنيد ؛ والمسيح وهو على ما يظن فى الثلاثين من عمره يبدو كأنه شيخ مسن ؛ والملكان اللذان إلى يساره قدمَان فدامة نسوية ، ومن هذه الصور صورة المَلَك التى كان من العادة أن تعزى إلى ليوناردو ؛ غير أن صورة **طوبياس والملائكة الثلاثة** صورة ممتازة ؛ وفى صورة الملك الوسطى ما يستبق رشاقة صور بتيتشلى ومزاجه ، كما أن صورة الشاب طوبياس تبلغ من الجمال حداً لا يسعنا معه إلا أن نقول إنها هى صورة لورندسو أو أن نقر أن دا ڤنتشى قد أخذ من طراز ڤيروتشيو فى التصوير أكثر مما كنا نظن . وثمة رسم لرأس امرأة محفوظ فى كنيسة المسيح Christ Church بأكسفورد يوحى مرة أخرى بالتفكير السماوى الغامض الذى يطالعنا فى صور نساء ليوناردو ،

كما أن صور مناظر ڤيروتشيو الطبيعية القاتمة تنبىء مقدماً بالصخور القاتمة والمجارى الخفية الغامضة التى نشاهدها فى آيات ليوناردو الخيالية الحالمة .

وأكبر الظن أن ثمة كثيراً من الخيال فى القصة التى يرويها ڤاسارى عن ڤيروتشيو ويقول فيها إنه لما رأى صورة الملاك التى رسمها ليوناردو فى تعميد المسيح « اعتزم ألا يمسك الفرشاة مرة أخرى ، لأن ليوناردو وهو لا يزال فى شرخ الشباب قد بزه فى هذه الصورة »[٢٦] . ولكنا نعلم أن ڤيروتشيو ، وإن ظل يشتغل بالتصوير بعد ظهور صورة التعميد فقضى فى الواقع معظم سنى حياته بعد نضوجه فى الاشتغال بالنحت ، فعمل بعض الوقت مع دوناتلو وأنطونيو پولايولو ، وتعلم من كل منهما شيئاً ، ثم نمَّى هو طرازه الخاص الذى يمتاز بالصرامة وبالزوايا ، وأخذ يشق طريقه بنفسه فصب من الصلصال المحروق تمثالا نصفياً مبرءاً من الملق للورندسو — أظهر فيه أنفه ، وقُصّته(*) ، وجبهته التى تنم عن كثرة القلق . ومهما يكن من أمره فإن المانيفيكو (الأفخم) قد سره كثيراً نقشان فى البرنز للإسكندر ودارا نقشهما له ڤيروتشيو ؛ فبعث بهما إلى ماثياس كورڤينوس ملك المجر ، وعهد إلى المثال (١٤٧٢) أن يخطط فى كنيسة سان لورندسو قبراً لأبيه پيرو وعمه چيوڤنى . ونحت ڤيروتشيو الناووس فى الحجر السماق وزينه بقوائم من البرنز ، وأكاليل فى صورة بديعة من الأزهار . وصب بعد أربع سنين من ذلك الوقت تمثالا لداود الغلام وهو واقف فى خيلاء وهدوء أمام رأس جالوت المقطوع ؛ وأعجب به مجلس سيادة فلورنس إعجاباً لم يسعه معه إلا أن يضع التمثال على رأس الدرج الرئيسية فى قصر ڤيتشيو ، وقبل هذا المجلس فى ذلك العام نفسه تمثالا من البرنز يصور غلاما يمسك الدلفين ويتخذه بزبزاً لعين ماء فى فسقية قائمة فى فناء القصر ، وصمم ڤيروتشيو وهو فى عنفوان مجده وصب

(*) القصة ، بالضم : شعر الناصية . (المترجم)

من البرنز فجوة فى جدار أور سان ميتشيل من الخارج ومجموعة من تماثيل المسيح وتومس الثالث (١٤٨٣) . وصورة المسيح تنم عن النبالة القدسية ، كما أن تومس قد صور بعطف وإدراك ، وقد صقلت بداه صقلا بلغ من الكمال حداً قلما يرى له نظير فى التماثيل ؛ وتمثل الأثواب انتصار فن النحت ، والمجموعة كلها تطالعك بواقعية حية يخيل إليك أنها تتحرك .

وقد بلغ تفوق ڤيروتشيو فى صناعة التماثيل والنقوش البرنزية من الوضوح حدا لم يسع مجلس شيوخ البندقية معه إلا أن يدعوه (١٤٧٩) إلى تلك المدينة ليصب لها تمثالا لبرتولوميو كليونى Bartolomeo Colleoni ، المحارب المغامر الذى كسب النصر للدولة الجزيرة فى عدة وقائع . ولبى أندريا الدعوة ، وعمل نموذجاً للجواد ، وكان يتأهب لصبه من البرنز حين علم أن مجلس الشيوخ يفكر فى أن من الخير أن يقصر عمله على صنع تمثال الجواد وحده ، وأن يترك تمثـال راكبه إلى ڤيلانو Vellano من أهل پدوا . فما كان من أندريا ، كما يقول ڤاسارى إلا أن حطم رأس النموذج وسيقانه وعاد إلى فلورنس مغضباً حانقاً . وأنذره مجلس الشيوخ أنه إذا وطئت قدماه أرض البندقية بعدئذ حطم رأسه تحطيما حقيقياً لا مجازياً ، فأجابه بأن ليس له أن يتوقع عودته إلى المدينة لأن الشيوخ لم يؤتوا كما أوتى المثالون من المهارة ما يستطيعون به أن يعيدوا الرءوس المحطمة إلى أصحابها . ثم عاد مجلس الشيوخ ففكر فى الأمر تفكيراً خيراً من تفكيره الأول ، وعهد إلى ڤيروتشيو بالمهمة كلها مرة أخرى ، وأقنعه بأن يعود إلى عمله نظير أجر يعادل ضعفى الأجر الأول ؛ فعاد وأصلح رأس نموذج الجواد وأفلح فى صبه ، ولكن المكان الذى كان يعمل فيه ارتفعت حرارته أثناء العمل ارتفاعاً كبيراً ، وأصيب ڤيروتشيو ببرد وقشعريرة ، ومات بعد بضعة أيام وهو فى السادسة والخمسين من عمره (١٤٨٨) . ولما وضع أمامه فى ساعاته الأخيرة صليب خشن الصنع ، طلب إلى من حوله أن يبعدوه عنه وأن يأتوا

إليه بصليب آخر من صنع دوناللو ؛ حتى يموت ، كما كان يعيش ، فى حضرة الأشياء الجميلة

وأتم المثال البندقى السندرو ليوپاردى Alessandro Leopardi التمثال العظيم . وأخرجه فى طراز حى ، وأبرز فيه على خير وجه من الحركة والسيطرة ما نفى عن هذا التمثال أية خسارة بموت ڤيروتشيو . وأقيم التمثال فى كامپو دى سان دسانيوپولو Campo di San Zaniopolo — ميدان القديسين يوحنا وبولس ؛ ولا يزال يزهو فيه إلى اليوم ، وهو أجمل ما بقى من عصر النهضة من تماثيل الفوارس وأعظمها خيلاء .

الفصل السادس

الرسم

١ — جير لندايو

وكان مرسم ڤيروتشيو جامعاً لخصائص النهضة ؛ ذلك أن الفنون جميعها قد وجدت فيه فى مشغل واحد ، وكثيراً ما اجتمعت كلها فى رجل واحد ؛ فكان فى وسعك أن تجد فى مكان واحد فناناً يصمم بناء كنيسة أو قصر ، وآخر يحفر أو يصب تمثالا ، وثالثاً يخطط صورة أو يرسمها بالألوان ، ورابعاً يقطع جوهرة أو يرصع بها ، وآخر يحضر أو يطعم العاج أو الخشب ، أو يصهر المعدن أو يطرقه ، أو يصنع الأعلام لموكب فى عيد ؛ وكان فى وسع رجل مثل ڤيروتشيو ، أو ليوناردو ، أو ميكل أنچيلو ، أن يقوم بهذه الأعمال كلها . وكانت فلورنس تضم كثيراً من هذه المدارس ، وكان طلاب الفن يسيرون فى الشوارع فى غير احتشام(٢٧) ، أو يعيشون عيشة بوهيمية يسكنون فى الطوابق السفلى المستأجرة ، أو يصبحون أثرياء يجلهم البابوات والأمراء كأنهم أرواح ملهمة لا تقدر بثمن ، ويعلون على القانون — كما كان شأن تشيليني ؛ وكانت فلورنس تجل الفن والفنانين أكثر مما تجلهما أية مدينة أخرى عدا أثينة وحدها ، وتتحدث عنهم وتقتتل من أجلهم ، وتروى عنهم القصص(٢٨) كما نروى نحن قصص الممثلين والممثلات . وكانت فلورنس فى عهد النهضة هى التى أوجدت الفكرة الوجدانية للعبقرية — أى للرجل الملهم بروح قدسية مستكنة فيه .

وخليق بالذكر أن مدرس ڤيروتشيو لم يترك وراءه مثالا عظيما عدا ليوناردو (الذى لم يكن مثالا خالصاً بل جمع إلى عظمته فى فن النحت

عظمة أخرى فى غيره من الفنون) يستطيع أن يواصل العمل الممتاز الذى بلغه هذا الأستاذ ؛ ولكنه علم رسامين نابغين — هما ليوناردو وپروچينو. وآخر أقل منهما كفاية وإن كان أيضاً من ذوى الكفايات الملحوظة ، ونعنى به لورندسو دى كريدى Lorenzo di Credi . وكان سبب ذلك أن الرسم أخذ يحل تدريجاً محل النحت بوصفه الفن المحبب إلى قلوب الناس ؛ وأكبر ظننا أنه قد كان من الخير أن الرسامين لم يفيدوا من الرسوم الجدارية القديمة المفقودة ، ولم يخضعوا لها ويتقيدوا بها . لقد كانوا يعرفون أن قد وجد من قبل رجال مثل أپلز Apelles وپروتچنيز Protogenes ، ولكن قل منهم من شاهد بقايا الرسوم القديمة فى الإسكندرية أو پمبى ؛ لهذا لم يكن ثمة إحياء للقديم فى هذا الفن ؛ وكان الاتصال بين العصور الوسطى والنهضة فى هذه الناحية واضحاً لا خفاء فيه : فقد كان خط السير من الرسامين البيزنطيين لدوتشيو Duccio ثم إلى چيتو فالراهب أنچليكو فليوناردو . فرفائيل فتيشيان ، نقول إن هذا الخط كان منحرفاً معوجاً ، ولكنه كان واضحاً لا خفاء فيه : ومن أجل هذا كان على الرسامين ، أن يضعوا بتجاربهم وأخطائهم قواعد فنهم وطرازه ، ولم يكن هذا شأن المثالين. لقد فرض عليهم الابتكار وفرضت عليهم التجارب فرضاً ، فكانوا يكدحون لإظهار دقائق تشريح الإنسان ، والحيوان ، والنبات ؛ وجربوا أنواعاً من التوليف الدائرى ، والمثلثى وغيرهما من الأشكال ؛ وكشفوا عن حيل المنظور ، وخداع التظليل لكى يعطوا لخلفيات الصور أعماقاً ؛ ولأشكالهم أجساماً ؛ وكانوا يجوبون الشوارع بحثاً عن الرسل والعذارى ، ورسموا من نماذج عارية أو مكسوة ، وانتقلوا من التصوير على الجص إلى التصوير الزلالى ، ثم انتقلوا مرة أخرى من هذا إلى ذلك ، واستخدموا القواعد الجديدة للرسم بالزيت التى جاء بها إلى شمالى إيطاليا روچير ثان درڤيـــدن Rogier van der Weyden وأنطونيو دا ميستينا Antonio da Méssina ، وكانوا كلما ازدادوا مهارة وشجاعة ، وكثر عدد مناصريهم،

من غير رجال الدين ، أضافوا إلى الموضوعات الدينية القديمة قصصاً من الأساطير اليونانية والرومانية ، وأنماطاً من التمجيد الوثنى للجسم . وجاءوا بالطبيعة إلى مَرْسَمِهم ، رائد مجواهم فى الطبيعة ، فلم يكن شىء فى بنى الإنسان أو فى الطبيعة يبدو فى نظرهم غريباً على الفن ، ولم يكن ثمة وجه مهما بلغ من القبح لايستطيع الفن أن يكشف عما فيه من معنى خفى وضاء . لقد كانوا يسجلون العالم ؛ ولما أن جعلت الحرب والسياسة إيطاليا سجنا ويبابا ، ترك الرسامون وراءهم خطوط النهضة وألوانها وحياتها وعواطفها الجائشة ، وأخذ الرجال الموهوبون الذين كونتهم هذه الدراسات والذين ورثوا تقاليد مطردة الثراء من الأساليب ، والمواد ، والأفكار — أخذ هؤلاء الرجال يرسمون خيرا مما كان يرسمة العباقرة منذ قرن من الزمان . ويقول ڤاسارى فى لحظة من لحظات فظاظته إن بينتسو جتسولى Benozzo Gozzoli « لم يكن من الأفذاذ الممتازين . . . ولكنه بز كل من كان فى مثل سنه بمثابرته ، لأن بين أعماله الجمة عدداً منها لا يسع الإنسان إلا أن يقول إنها طيبة »(٢٩) . وقد بدأ الرجل حياته الفنية تلميذاً من تلاميذ الراهب أنجلكو ، وتبعه إلى رومة وأرڤيتو ليكون مساعداً له فى عمله ؛ ثم استدعاه پيرو المريض بالنقرس إلى فلورنس ، وطلب إليه أن يصور على جدران المعبد فى قصر آل ميديتشى رحلة المجوس من الشرق إلى بيت لحم . وهذه الصور هى أروع آيات بينتسو التى صورها فى الجص ، وهى تتكون من موكب فخم ولكنه موكب حى من الملوك والفرسان فى ثياب فخمة ، ومن الأتباع والخدم ، والملائكة ، والصائدين ، والعلماء ، والأرقاء ، والخيل ، والفهود ، والكلاب ، ومن نخوستة من آل ميديتشى — ومن بينتسو نفسه ، وقد أدخل بحيلة ماكرة إلى هذا الاستعراض ؛ ومن وراء كل هذا فى الصورة خلفيات ومناظر طبيعية جميلة تثير الدهشة . وامتلأ قلب بينتسو زهواً بهذا الظفر العظيم فسافر إلى سان جمنيانو San Gimignano وزين مكان المرنمين فى سانت أجستينو Sant' Agostino بسبعة عشر منظراً

مستمدة من حياة القديس شفيعها . وظل بعدئذ سبعة عشر عاماً يكدح فى كمپو سانتو Campo Santo فى پيزا يغطى مساحات كبيرة من جدرانها بواحد وعشرين منظراً من أسفار العهد القديم تبدأ من آدم إلى عهد ملكة سبأ ، كان بعضها مثل منظر **برج بابل** من أكبر مظلمات عهد النهضة . وكانت العجلة التى اتسمت بها أعمال بينتسو سبباً فى الحط بعض الشىء من جودة أعماله ، فقد كان قليل العناية برسومه ، وجعل كثيراً من صوره على وتيرة واحدة باعثة على السآمة ، وحشد فيها طائفة جمة مربكة من الأشخاص والتفاصيل ، ولكنها كان يسرى فيها دم الحياة وبهجتها ، وكان يحب ما فيها من مناظر قوية ومن تمجيد العظماء ؛ وإن ما فى ألوانه من روعة ، وفى خصب إنتاجه من حماسة ليكاد ينسينا ما فى خطوطه من نقص وعيوب .

وانتقل ما كان للراهب أنجلكو من أثرحميد إلى أليسو بلدوڤينتى Alesso Baldvenetti وإلى كوزيمو روسيلى Cosimo Roselli ثم انتقل عن طريق إلسو إلى رسام من كبار الرسامين فى عهد النهضة ألا وهو دمنيكو جرلندايو Domenico Ghcrlandaio . وكان والد دمنيكو صائغاً أطلق عليه من قبيل التهكم لقب جرلنداي أخذاً من الأكاليل المصنوعة من الذهب والفضة التى صاغها للعرس النطيفة فى فلورنس . ودرس دمنيكو على هذا الأب وعلى بلدوڤينتى ، وأظهر فى دراسته كثيراً من الغيرة والحماسة ، وكان يقضى الساعات الطوال يتأمل مظلمات مساتشيو Masaccio فى الكرمينى Carmine وتعلم بعد مران طويل ، لم يعرف فيه الكلل سبيلا إلى نفسه ، فنون المنظور ، وتمثيل الأشكال البارزة أمام الناظر بحيث يتمثل فيها هذا البروز ، وعمل النماذج ، وتأليف الأجزاء ، و « كان يرسم كل إنسان يمر أمام مشغله » كما يقول ڤاسارى « بحيث تبدو صورته مشابهة شبهاً قوياً عجيباً لشخصه بعد نظرة خاطفة سريعة يلقيها عليه . ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى عُهِد إليه أن يصور قصة سانتا فينا

Santa Fina فى معبدها بكتدرائية سان جمنيانو . ولما بلغ الحادية والثلاثين (١٤٨٠) فاز بلقب أستاذ بفضل أربعة مُظَلَّمات صورها فى كنيسة آل أنيسانتو The Ognissanti ومطعمها فى فلورنس — وتمثل هذه المظلمات القديس جيروم ، والنزول عن الصليب ، ومادونا دلا مزركورديا Madonna della Misericoxdia (وتشمل هــذه صورة مهديها أمريجو فسپيوتشي Amerigo Vespucchi) والعشاء الأخير وهى الصورة التى استمد منها ليوناردو بعض الإيحاء

واستدعاه سكتس الرابع إلى رومة فصور له فى معبد سستينى Sistine المسيح ينادى بطرس وأندرو من خيمتيهما وهى الصورة التى تكتسب جمالها بنوع خاص من خلفيتها المكونة من الجبال ، والبحر ، والسماء . وكان فى أثناء إقامته هذه فى رومة يدرس ويرسم العقود ، والحمامات ، والعمد ، ومجارى المياه العذبة ، والمدرجات الموجودة فى المدينة القديمة ، وكان يدرسها ويرسمها بعين اليقظ المدرب ، فكان فى وسعه أن يقدر بلا مسطرة أوفرجار نسب كل الأجزاء كلها بمنتهى الدقة . وعهد تاجر من أهل فلورنس مقيم فى رومة يدعى فرانتشسكو تورنبيونى Francesco Tornabuoni توفيت زوجته إلى جرلندايو أن يرسم مظلمات يخلد بها ذكراها فى سانتا ماريا تعلو على صورة منيرڤا ؛ ونجح دمنيكو فيما عهد إليه نجاحاً حمل تورنبونى على أن يعيده إلى رومة مزوداً بالمال وبخطاب يشهد بمهارته . وسرعان ما عهد إليه مجلس السادة فى فلورنس بزخرفة صالا دل أوروليجيو (بهوا ورولجيو) Sala del Orologio فى قصره . وأخذ فى السنين الأربع التالية (١٤٨١ — ١٤٨٥) يصور فى مصلى ساستى Sassetti فى سانتا ترنتا Santa Trinita مناظر مستمدة من حياة القديس فرانسس ؛ وقد استعان فى هذه المظلمات بكل ما صل إليه فن الرسم من تقدم ما عدا استخدام الزيت : فقد حوى تناسق التأليف ، ودقة الخطوط ، وتدرج الضوء ، والأمانة فى مراعاة فن المنظور ،

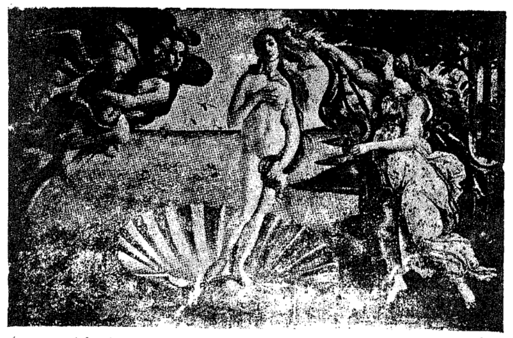
والواقعية فى التصوير (تصوير لورنسو ، ويوليتيان ، وپلتشى ، وبلا ، واسترتسى ، وفرانتشسكوساستى) ، وراعى فى الوقت نفسه التقاليد الأنجليه فى المثالية والنقى ؛ وليس بين صورة صلوات الرعاة التى ترى خلف المحراب والتى تقرب من الكمال وبين صور ليوناردو ورفائيل إلا خطوة واحدة فى الخيال الأكثر عمقاً والرشاقة الأكثر دقة .

وعرض چيوڤنى ترنبيونى رئيس مصرف آل ميديتشى بروما على جرلندايو فى عام ١٤٨٥ ١٢٠٠ دوقة (٣٠ ألف دولار أمريكى) نظير طلاء معبد فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا ، ووعده بمائتى دوقة أخرى إذا حاز عمله رضاه التام . واستعان جرلنداپو بعدد من تلاميذه من بينهم ميكل أنچيلو وقضى الجزء الأكبر من الخمس السنين التالية فى هذا العمل العظيم من أعمال حياته . وقد رسم فى السقف صورة المبشرين الأربعة بالإنجيل ، كما صور على الجدران القديس فرانسس ، وبطرس الشهيد ، ويوحنا المعمدان ومشاهد من حياة مريم والمسيح مبتدئة من البشارة إلى تتويج العذراء الفخمة . وهنا أيضاً وجد لذة كبيرة فى تصوير المعاصرين : لودوڤيكا تورنبيونى ذات الجلال الخليقة بأن تكون ملكة وچنڤرا ده بنتشى Ginevra di Benci الوقحة الحسناء ، وڤيتشينو ، ويولنيان ، ولنديتو العلماء وبلدوفنتى ، وميناردى Mainardi وجرلنداپو نفسه من رجال التصوير : ولما فتح المعبد للجمهور فى عام ١٤٩٠ هرع إليه جميع العظماء ورجال الأدب فى فلورنس ليفحصوا هذه الرسوم ؛ وأصبحت الصورة الواقعية التى شاهدوها حديث المدينة كلها ، وأعلن تورنبيونى رضاءه التام عنها . غير أنه كان فى أزمة مالية وقتئذ ، فرجا دمنيكو أن ينزل له عن المائتى دوقة الإضافية ، فرد عليه الفنان قائلا إن رضاء نصيره أعز عنده من الذهب مهما عظم .

وكان دمنيكو محبباً إلى القلوب . وقد بلغ من حب إخوانه إياه أن



(شكل ١٣) صورة الكونت ساسى (؟) وحفيده
فى متحف اللوڤر بباريس من تصوير جولنديالو



(شكل ١٤) مولد ڤينوس فى معرض ٱفيزى بفلورنس — تصوير ساندور بتيتشلى (انظر ص ٢٤٩)

واحد منهم هو داڤد كاد يذبح رئيس دير برغيف جاف قديم لأنه جاء إلى دمنيكو ومساعديه فى مرسمه بطعام رآه داڤد غير لائق بعبقرية أخيه ؛ وكان جرلندايو يفتح مرسمه لكل من يعنى بالعمل أو الدرس فيه ، واتخذ منه مدرسة للفن حقة . وكان يقبل جميع ما يكلف به من الأعمال الفنية كبيرة كانت أو صغيرة ، ويقول فى ذلك إنه يجب ألا يحرم أحداً من رغبته ، وقد ترك العناية بشئون بيته وبماله إلى داڤد . وقال إنه لا يكفيه إلا أن يملأ بالصور جميع جدران فلورنس . وقد أخرج كثيراً من الصور التى لا ترقى إلى ما فوق الدرجة الوسطى ، ولكنه أخرج أحياناً بعض الصور الرائعة التى تأسر القلوب وتخلب الألباب ، كصورة الجد ذى الأنف البصلى وهى الصورة الخلابة المحفوظة فى متحف اللوفر ، والصورة الأخرى الجميلة **صورة المرأة** إحدى صور مجموعة مورجان فى نيويورك ، وهما صورتان تكشفان عن الصفات الخلقية التى ترسم عاماً بعد عام على وجه الإنسان . غير أن عظماء النقاد الذين يضعهم علمهم وتضعهم سمعتهم فوق الشبهات لا ينزلونه إلا منزلة دنيا[٣٠] ، وفى الحق أنه برع فى الخطوط لا فى الألوان ، وأنه كان يسرع فى التصوير أكثر مما يجب ، وأنه زحم صوره بالتفاصيل التى لا علاقة لها بتلك الصور ، ولعله خطا خطوة إلى الوراء فى تفضيل الدهان الزلالى بعد أن قام بالدوڤنتى بتجاربه فى الرسم بالزيت . غير أنه مع هذا سما بما تجمع من أصول فنه إلى الذروة التى استطاع أن يصل إليها فى بلده وفى القرن الذى يعيش فيه ؛ وترك لفلورنس وللعالم كنوزاً يحنى النقاد هاماتهم من أجلها شكراً له واعترافاً بفضله .

٢ — بتيتشـيلى

ولم يعل عليه فى عبقريته من أهل فلورنس فى جيله إلا رجل واحد ، ذلك هو سندرو بتيتشيلى Sandro Botticelli الذى كان يختلف عن جرلندايو كما يختلف الخيال الأثيرى عن الحقائق المجسدة . وقد عجز مريانا فليبيى

Mariana Filipepè والد ألسندريو عن أن يقنع ولده أن حياته تكون مستحيلة إذا لم يعرف القراءة والكتابة و الحساب ، فاضطر أن يعهد به إلى صائغ ليتدرب عنده على صناعته . وكان هذا الصائغ يسمى بتيتشيلى ، ولصق هذا الاسم بسندرو نفسه ، إما بسبب حب التلميذ معلمه أو بسبب نزوة من نزوات التاريخ . وانتقل الغلام فى السادسة عشرة من عمره من حانوت الصائغ إلى الراهب فلپولى Filippo Lippi الذى أحب هذا الغلام القلق الوثاب . وصور ڤلپينو تلميذ فلپو فيما بعد سندرو هذا فى صورة شخص متبرم نكد ، ذى عينين غائرتين ، وأنف بارز ، وفم لحيم شهوانى ، وغدائر مسترسلة ، وقلنسوة أرجوانية ، وميدعة حمراء ، وجورب أخضر (٣١) ؛ ترى منذا الذى كان يستطيع أن يظن أن هذا هو شكل الرجل إذا ما شاهد الصور الخيالية الرقيقة التى خلفها بتيتشيلى فى المتاحف ؟ ولعل كل فنان لا بد أن يكون شهوانياً قبل أن يستطيع بلوغ المثل الأعلى فى التصوير ، أى أنه لا بد أن يعرف الجسم ، ويحبه ، ويرى أنه المصور النهائى لحاسة الجمال والمقياس الذى يقاس به سمو هذه الحاسة . ويصف ڤاسارى سندرو بأنه « شخص مرح ، يدبر الحيل لزملائه الفنانين وبلداء الذهن من المواطنين ؛ وما من شك فى أنه قد جمع فى شخصه كثيرا من الرجال ، شأنه فى ذلك شأننا جميعاً ، وأنه كان يتقمص هذه الشخصية أو تلك حسبما تتطلبه الظروف » أما نفسه الحقيقية فقد استبقاها سراً رهيباً خافية عن العالم .

وأنشأ بتيتشيلى مرسمه الخاص حوالى عام ١٤٦٥ ، وسرعان ما عهد إليه آل ميديتشى ببعض الأعمال ، ويلوح أن لكريدسيا ترنبيونى أم لورندسو هى التى كلفته بتصوير **يوديث** Judith ، ورسم بعدئذ لزوجها پيرو چتسو Piero Gottosso ***صورة مادنا ذات التسبيحات*** Madonna of the Magnificat ورسم كذلك ترنيمات **عبادة المجوس** بالألوان لثلاثة أجيال من آل ميديتشى ؟ ورسم بتيتشيلى فى صورة **مادنا** لورندسو وجوليانو كأنهما غلامان أولهما فى

السادسة عشرة من عمره والثانى فى الثانية عشرة ممسكان كتاباً تسطر فيه العذراء أغنيتها التسبيحية الذائعة الصيت — وقد استعار هذه الفكرة من الراهب ليو . وفى الصورة الثانية **عبادة المجوس** نرى كوزيمو راكعاً عند قدمى مريم ، وبيرو راكعاً أمامهما فى مستوى أوطأ ، ولورنتسو — وقد بلغ الآن السابعة عشرة ممسكاً بسيف رمزاً إلى أنه قد بلغ وقتئذ السن التى يجيز له فيها القانون أن يقتل .

وسار لورنتسو وجوليانو على سنة بيرو فظلا يرعيان بتيتشيلى ويناظرانه ، وأجمل صوره هما صورة جوليانو ، وصورة محبوبته سيمونيتا فسبيوتشى Simonetta Vespucci . على أنه لم ينقطع عن رسم الصور الدينية كصورة **القديس أوغسطين** القوية فى كنيسة آل أنيسنتى ، ولكنه أخذ يتجه تدريجاً فى هذه الفترة — ولعله فى ذلك كان متأثراً بنفوذ دائرة آل ميديتشى — نحو موضوعات وثنية ، مستمدة فى العادة من الأساطير القديمة ، ويفضل الأجسام العارية ، وشاهد ذلك ما يقوله فاسارى من أن « بتيتشيلى صور فى كثير من البيوت . . . عدداً كبيراً من النســـاء العاريات » ، ويتهمه « بالانحرافات الخطيرة فى معيشته »(٣٢) ، ذلك أن الكتاب الإنسانيين ، والأرواح الحيوانية كانوا قد جذبوا سندروا إلى حين نحو الفلسفة الأبيقورية .

ويبدو أن لورنتسو وجوليانو هما اللذان رسم لهما صورة **مولد فينوس** (١٤٨٠) . وتبدو فى هذه الصورة فتاة عارية تتظاهر بالاحتشام تخرج من محارة ذهبية فى البحر ، ولا تجد فى متناول يدها غير غدائرها الطويلة الشقراء تستخدمها استخدام ورقة التين ، وترى عن يمينها هبات النسيم المجنحة تدفعها نحو ساحل الأرض ، وعن يسارها فتاة جميلة (لعلها سيمونتا) ترتدى جلباباً أبيض منقوشة عليه الأزهار ، تقدم للإلهة ميدعة تزيدها جمالا على جمالها . والصورة آية فى الرقة والتصميم ، والتأليف فيها هو كل شىء ، واللون فى منزلة ثانوية ، والواقعية متغاضى عنها ، وكل شىء فيها موجه

نحو استثارة الخيال الأثيرى عن طريق ائتلاف الخطوط المنساب المتدفق . وقد استمد بتيتشيلى فكرته من فقرة فى قصيدة پوليتيان لاجيوسترا La Giostra ؛ واستمد بعد ذلك من وصف هذا الكاتب فى القصيدة نفسها انتصارات جوليانو فى المثاقفة والحب موضوع صورته الوثنية الثانية **المريخ والزهرة** . وترى الزهرة (ڤينوس) فى هذه الصورة مكسوة غير عارية ، وقد تكون فى هـــذه المرة أيضاً هى سيمونتا ؛ ويرى المريخ منهوكا ونائماً ، وليس هو المحارب الفظ بل هو شاب ذو جسم لا عيب فيه ، قد يخطئه المرء فيحسبه أفروديتى أخرى . وعبر بتيتشيلى أخيراً فى صورة **الربيع** (پريماڤيرا Primavera) عن طبيعة ترنيمة لورندسو لباخوس Bacchus (« من شاء أن يكون سعيداً فليسعد ») : ففيها تعود القابلة للظهور ساعة **المولد** بردائها المسبل وقدميها اللطيفتين ؛ ويرى إلى اليسار جوليانو (؟) يقتطف تفاحة من شجرة ليقدمها إلى واحدة من ربات الجمال الواقفات إلى جانبه نصف عاريات . وإلى اليسار رجل شبق يمسك بفتاة تكتسى غلالة من الضباب ؛ وتشرف سيمونتا فى تواضع على المنظر كله ، ومن فوقها كيوپد فى الهواء يرسل سهامه التى لم يعد لها نفع . وترمز هذه الصور الثلاث إلى أشياء كثيرة ، لأن بتيتشيلى كان مولعاً بالرمزية ، ولكنها كانت تمثل — وقد يكون ذلك على غير علم منه — انتصار الإنسانيين فى الفن ؛ وقضت الكنيسة من ذلك الحين نصف قرن (١٤٨٠ — ١٥٣٤) تكافح لاستعادة سيطرتها على موضوعات التصوير .

وكأنما أراد سكستس أن يكافح فى هذا الأمر كفاح الأشراف ، فدعا بتيتشيلى إلى رومة (١٤٨١) ، وعهد إليه أن يصور ثلاثة مظلمات فى معبد سستينى . ولم تكن هذه المظلمات من خير آياته الفنية ، لأن مزاجه وقتئذ كان بعيداً عن التقى والصلاح ؛ ولكنه لما عاد إلى فلورنس (١٤٨٥) وجد المدينة على بكرة أبيها تضطرب بعظات سفنرولا ، وذهب هو ليستمع

إليها ، وأحدثت فيه أثراً عميقاً . ذلك أنه كان على الدوام يضم جوانحه على شيء من الجد والصرامة ، وكان قد فقد ما عسى أن يكون قد أخذه من التشكك عن لورندسو ، وبلتشى ، وبوليتيان فى الأعماق الخفية من إيمان شبابه ؛ فلما سمع هذا الخطيب الملتهب حماسة يعظ فى كنيسة سان ماركو (القديس مرقس) بعث فيه وفى فلورنس كلها ما ينطوى عليه هذا الإيمان من تبعات رهيبة جسام : فالله قد قبل لنفسه أن يهان ، ويجلد ، ويصلب لينقذ البشرية من خطيئة آدام وحواء ؛ ولا شيء غير حياة الفضيلة والتوبة الصادقة يمكن أن تستدر بعض الرحمة من تلك التضحية التى قدمها الله لله ، وبذلك ينجو المرء من عذاب الجحيم الأبدى . وحوالى هذا الوقت وضح بتيتشيلى بالرسم مناظر **الملهاة الإلهية** لدانتى فقد وجه فنه من جديد لخدمة الدين ، وأخذ يقص مرة أخرى تلك القصة الرائعة قصة مريم والمسيح ، فرسم لكنيسة القديس برنابا مجموعة رائعة تصور العذراء على عرشها ويحف بها عدد من القديسين ؛ وهى فى هذه المجموعة لا تزال العذراء الرقيقة الجميلة التى صورها فى مرسم الراهب لپو . ثم رسم بعد قليل من ذلك الوقت **سيدة الرمان** The Madonna of the Pomegranate وهى تمثل العذراء يحيط بها الملائكة المنشدون ، والمسيح الطفل يمسك بيده الفاكهة التى ترمز بذورها الكثيرة إلى انتشار الدين المسيحى . وأعاد فى عام ١٤٩٠ ملحمة أم المسيح فى صورتين هما صورتا **البشارة والتتويج** ، ولكنه كان وقتئذ قد عمر طويلا وفقد ما كان لفنه من جدة ووضوح وظرف .

وحدث فى عام ١٤٩٨ أن شنق سفنرولا وأحرق ، وارتاح بتيتشيلى من هذا الاغتيال الذى لا يماثله اغتيال آخر فى عصر النهضة ، ولعله قد صور بعد قليل من حدوث تلك المأساة صورته الرمزية المعقدة وهى صورة **البهتان** Calumny . وترى فى هذه الصورة خلفية من طريق ذى عقود من الطراز القديم ، وبحر بعيد ، وثلاث نساء يمثلن الزور ، والخداع ،

والبهتان — يقودهن رجل رث ممزق الثياب (الحسد ، يسحبن ضحية عارية من شعرها إلى محكمة يجلس فيها قاض ركبت فى رأسه أذنا حمار طويلتان ، تقدم له النصح امرأتان تمثلان الريبة والجهل ، ويتأهب للانصياع إلى غضب الجمهور المتعطش لسفك الدماء ، فيحكم بإعدام الرجل الآثم . وإلى اليسار يُرى الندم متشحا بالسواد وينظر فى أسى وحسرة إلى الحقيقة العارية — وهى هنا ڤينوس بتيتشيلى مرة أخرى مكتسية بشعرها المتلاوى نفسه . ترى هل قصد بالضحية أن تمثل سفنرولا ؟ وبما كان ذلك ، وإن كانت النساء العرايا يروعن الراهب لو أنه رآهن .

وكانت آخر آيات بتيتشيلى الفنية هى صورة **الميلاد** المحفوظة بالمعرض الأهلى بلندن ، وهى صورة مضطربة ولكنها جميلة الألوان تظهر مرة أخرى ما طبع عليه من رشاقة منسقة موئتلفة . ويبدو كل شىء فى هذه الصورة وكأنه يستنشق السعادة السماوية ، فتعود فيها سيدات **الربيع** فى صورة ملائكة ذات أجنحة ترحب بهذا الميلاد المعجز المنقذ ، ويرقصن على فنن معاق فى الفضاء معرضات أنفسهن للخطر . ولكن بتيتشيلى كتب على الصورة باللغة اليونانية هذه العبارة التى تشم منها رائحة سفنرولا وتعيد فى أوج النهضة ذكرى العصور الوسطى :

« رسمت ، أنا ألسندرو ، هذه الصورة فى آخر عام ١٥٠٠ وقت اضطراب إيطاليا . . . حين وقعت الأحداث التى وردت فى (الأصحاح) الحادى عشر من إنجيل يوحنا ، فى الجزء الثانى من أجزاء الرؤيى ، حين انطلق الشيطان ثلاث سنين ونصف سنة . وسوف يصفد فيما بعد ، كما ورد فى (الأصحاح) الثانى عشر من إنجيل يوحنا ، وسنراه يداس بالأقدام فى هذه الصورة » .

وليس لدينا شىء من تصويره بعد عام ١٥٠٠ ، ولم يكن وقتئذ قد تجاوز السادسة والخمسين ، ولعله كان لا يزال فيه شىء من القدرة الفنية ؛

ولكنه أخلى مكانه ليوناردو وميكل أنجيلو وانزوى فى ظلمات الفقر النكيد . وقد أعانه آل ميديتشى ، الذين كانوا عماده من قبل ، ببعض الصدقات ، ولكنهم هم أنفسهم كانوا قد ذهبت ريحهم ؛ ومات الرجل وحيداً ، ضعيفاً ، فى السادسة والستين من عمره بينا كان العالم السريع النسيان يجرى فى مجراه المعتاد .

وكان من بين تلاميذه فلبينولي ابن معلمه . وكان « ابن العشق هذا »(*) محبوباً من كل من عرفه : فقد كان رجلا ظريفاً ، دمث الأخلاق ، متواضعاً ، مجاملا مؤدباً ، بلغت « صفاته الممتازة درجة محت وصمة مولده ، إذا كان فى مولده وصمة » كما يقول ڤاساری . وقد تعلم على أبيه وعلى ساندرو فن التصوير بسرعة بلغ منها أن أخرج وهو فى الثالثة والعشرين **رؤيا القديس برنار** The Vision of St Bernard وهى صورة « لا ينقصها إلا النطق » كما يصفها ڤاساری . ولما قرر رهبان الكرمل أن يكملوا المظلمات التى بدئ بها قبل ستين عاماً من ذلك الوقت فى معبد برانكاتشى Brancacci عهدوا بهذه المهمة إلى فلبينو وهو لا يزال فى السابعة والعشرين . ولم تبلغ النتيجة المستوى الذى بلغه ماساتشيو Masaccio ولكن ملبينو أبرز فى صورة **القديس بولس يخاطب القديس بطرس فى السجن** شخصية ذات مهابة بسيطة وقوة هادئة لا تنسى على مر الدهور .

واستدعاه الكردنال كارفا Caraffa فى عام ١٤٨٩ إلى رومة بإيحاء من لورندسو ليزخرف كنيسة سانتا ماريا بمناظر من حياة القديس تومس الأكوينى (أكويناس) . وأبرز الفنان فى المظلم الرئيسى هذا الفيلسوف فى نشو الظفر ، وتحت قدميه أريوس ، وابن رشد ، وغيرهما من « غير المؤمنين » ، ولعله وهو يرسم تلك الصورة قد استعاد فى خياله صورة مماثلة

(*) بذل كرو Crowe وكفل كاسلى Cavalcaselle جهداً كبيرا فى أن يثبتا أن فلبينو ابن شرعى ، ولكن حججهما لا تتمخض إلا عن أمنية شريفة .

لها من عمل أندريا دا فرينسا Andrea da Firenza ، هذا بينا كانت آراء ابن رشد أثناء هذا تتغلب على العقائد الدينية المسيحية فى جامعتى بولونيا ، وپدوا . ثم عاد فلپينو بعدئذ إلى فلورنس ، وسجل فى معبد فلپو استرتسى فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا سيرة الرسولين فليب ويوحنا فى مظلمات بلغ من واقعيتها أن حاول غلام ، كما تقول إحدى القصص ، أن يخبئ كنزاً سرياً فى ثقب مثله فلپينو فى صورة جدار . ثم انقطع عن عمله فى هذه المجموعة إلى حين ، وحل محل ليوناردو المرجئ المسوف فى عمله ، قصور ستار محراب لرهبان اسكوپيتو Scopeto ؛ واختار للزخرفة الموضوع القديم موضوع المجوس يعبدون الطفل ، ولكنه بعث فيها الحياة بتصوير المغاربة ، والهنود ؛ وكثيرين من آل ميديتشى ؛ ومن آل ميديتشى هؤلاء رجل يعمل منجما وبيديه آلة « الربع » . وتعد صورة هذا المنجم من أعظم الصور الإنسانية وأكثرها فكاهة فى عصر النهضة . ودعى فلپينو آخر الأمر (١٤٩٨) إلى پراتو Praio ليرسم صورة للعذراء ، وكأنما أراد الداعون بهذا أن يقولوا إن خطايا أبيه قد غفرت . وأثنى ڤاسارى على هذه الصورة ، ولكن الحرب العالمية الثانية أتلفتها . وعمد وهو فى سن الأربعين إلى حياة الاستقرار وتزوج ، وعرف بضع سنين قليلة مسرات الأبوة ومضايقاتها . ووافته المنية فجأة فى السابعة والأربعين من عمره على أثر مرض بسيط هو التهاب اللوزتين والحلق ؛ وكان ذلك فى عام ١٥٠٥ .

الفصل السابع

وفاة اورندسو

لم يكن اورندسو نفسه من أفراد تلك القلة التى بلغت فى تلك القرون سن الشيخوخة ؛ وقد كان كأبيه يعانى آلام الرثية والنقرس مع اضطراب فى المعدة كثيراً ما كان يسبب له آلاماً مبرحة توهنه وتهد قواه ، وقد جرب كثيراً من وسائل العلاج ، فلم يجد خيراً مما كان يتيحه الاستحمام بالمياه المعدنية من تخفيف لآلامه لم يكن يلبث أن يزول ؛ ولقد أدرك قبل وفاته بوقت ما أنه وهو الذى كان يبشر بإنجيل المرح والبهجة لن يطول به العمر ؛

وتوفيت زوجته فى عام ١٤٨٨ وحزن على فقـدها حزناً صادقاً وشعر بما فقده من معونتها وإن لم يكن فى أثناء حياتها وفيا لها . وكانت قد ولدت له أبناء كثيرين بقى منهم سبعة بعد وفاتها . وكان يعنى على الدوام بالإشراف على تعليمهم وتربيتهم ، وبذل ما فى وسعه فى السنين الأخيرة من حياته كى يهديهم إلى زيجات تعود بالسعادة على فلورنس وعليهم هم أيضاً ؛ فخطب لبيرو أكبر أولاده فتاة أورسينية ليكسب بذلك أصدقاء له فى رومة ، وتزوج جوليانو أصغرهم إحدى أخوات دوق سافوى ، وخلع عليه فرانسس الأول لقب دوق نمور Nemours ، وأعانه ذلك على أن ينشئ جسراً بين فلورنس وفرنسا . أما چيوفنى ، ابنه الثانى ، فقـد وجهه نحو المناصب الكنسية ، وقبل الشاب هذا قبولا حسناً ، وسر الناس جميعاً بجمال طبعه ، وحسن خلقه ، وإتقانه اللغة اللاتينية . وأقنع اورندسو البابا إنوسنت الثامن بأن يخرج على كل السوابق فيرسمه كردنالا وهو فى سن الرابعة عشرة ؛ وخضع البابا لرأيه لنفس الأسباب التى خضعت من أجلها معظم الزيجات الملكية وهى ربط حكومة بأخرى برباط الود الناشئ من صلات الدم ،

وتنحى لورنزو عن الاشتراك الفعلى فى حكم فلورنس ، وأخذ يعهد بقسط متزايد من أعماله العامة والخاصة لابنه پيرو ، وطلب الراحة لنفسه فى هدوء الريف وحديث الأصدقاء ؛ ودافع عن مسلكه هذا برسالة تفصح عن طبيعته المميزة له قال فيها :

وهل شيء أحب لذى العقل المنظم من الاستمتاع بالفراغ مع الكرامة ؟ إن هذا هو الذى يرغب فى الحصول عليه كل الخيرين من الرجال ، ولكنه لا يناله إلا العظماء منهم . نعم إننا ونحن فى خضم الشئون العامة قد يتاح لنا أن نتطلع إلى يوم نستريح فيه من عناء العمل ؛ ولكن الراحة أيا كانت يجب ألا تحول بيننا حيلولة تامة عن العناية بما يهم بلدنا . ولست بمستطيع أن أنكر أن الطريق الذى قدر على أن أسلكه كان طريقاً مجهداً وعراً ، مليئاً بالأخطار ، محوطاً بالغدر من كل جانب ؛ ولكنى يعزينى عن هذا أننى قد أسهمت فى العمل على رفاهية بلدى ، الذى يضارع الآن فى رخائه أية دولة أخرى مهما بلغ ازدهارها . كذلك لم أهمل قط مصالح أسرتى والعمل على تقدمها ، فقد وضعت نصب عينى على الدوام أن أحذو حذو جدى كوزيمو الذى كان يشرف على شئونه العامة والخاصة بيقظة لا تقل فى هذه عنها فى تلك . وإذا كنت قد وصلت الآن إلى الهدف الذى كنت أعمل له وأعنى به ، فإنى أعتقد أن من حقى أن أستمتع بلذة الراحة ، وأنال نصيبى من حسن سمعة مواطنى ، وأعتز بالمجد الذى ناله وطنى .

ولكنه لم يتح له إلا قليل من الوقت للاستمتاع بالهدوء الذى لم يعتده ؛ ذلك أنه لم يكد ينتقل إلى قصره الريفى فى كرِيجى Careggi (٢١ مارس سنة ١٤٢٩) حتى اشتدت عليه آلام المعدة اشتداداً مروعاً . واستدعى الإخصائيون من الأطباء ، فسقوه مزيجاً من الجواهر فساءت حاله على الفور ، واستسلم للموت . وقد أفصح لپيرو وپوليتيان قبل وفاته عن حزنه لأنه لم يطل أجله حتى يتم مجموعة المخطوطات ليستعينا هما بها ويفيدا منها

الطلاب . ولما دنت منيته بعث فى طلب قسيس ، وأصر وهو فى آخر مق أن يغادر سريره لكى يتلقى القربان المقدس وهو جاث على ركبتية . وطافت بذاكرته فى تلك اللحظة صورة ذلك الواعظ العنيد الذى ندد به ورماه بأنه قضى على الحرية ، وأفسد الشباب ، وتاقت نفسه لأن ينال عفو هذا الرجل قبل أن يموت . ولذلك بعث بصديق يرجو سفنرولا أن يحضر إليه ليستمع إلى اعترافه ويغفر له ذنوبه غفراناً أعظم قدراً مما ناله قبل . . وجاء سفنرولا وعرض عليه الغفران بثلاثة شروط ، كما يقول پوليتيان : أن يؤمن لورندسو إيماناً صادقاً برحمة الله ، وأن يعد بأن يستقيم فى ناحياته إذا شفى من مرضه ، وأن يلقى الموت صابرا . وقبل لورندسو هذه الشروط وغُفر له ؛ ويقول ج . ف . پيكو (وهو غير پيكو الكاتب الإنسانى) أحد الكتاب الأولين الذين كتبوا سيرة سفنرولا إن الشرط الثالث كان أن يعد لورندسو « بأن يعيد الحرية إلى فلورنس » ، وتقول القصة حسب رواية پيكو إن لورندسو لم يرد على هذا الطلب وإن الراهب تركه دون أن يغفر له(٣٤) . وتوفى لورندسو فى اليوم التاسع من شهر إبريل من عام ١٤٩٢ وهو فى سن الثالثة والأربعين .

ولما ترامى نبأ احتضاره إلى فلورنس لم يبق فى المدينة كلها تقريباً أحد إلا حزن عليه ، وحتى خصوم لورندسو نفسه لم يعرفوا كيف يستطاع حفظ النظام الاجتماعى فى فلورنس ، أو السلم فى إيطاليا ، من غير يده الصناع الهادية(٣٥) . واعترفت أوربا بمقدرته الفائقة فى شئون الحكم ، وأدركت ما فيه من خصائص الوقت الذى كان يعيش فيه ؛ فقد كان هو « رجل النهضة » فى كل شىء سوى كرهه العنف . ولقد استطاع بفطنته فى السياسة وهى الفطنة التى كسبها على مهل ، وبلاغته فى الجدل وهى البلاغة السهلة المقنعة رغم سهولتها ، وصلابته وشجاعته فى الإقدام والعمل ، استطاع بهذه المزايا أن يجعل جميع أهل فلونس إلا القليلين منهم ، ينسون الحرية التى

قضت عليها أسرته ؛ ومن لم ينسوها من أهلها كانوا يذكرون أنها هي حرية العشائر الغنية فى أن تستخدم القوة والخداع فى تنافسها على السيطرة الاستغلالية فى « دمقراطية » لا يستطيع الإدلاء بأصواتهم فيها إلا جزء من ثلاثين جزءاً من الأهلين. وكان لورندسو يستخدم سلطته فى اعتدال ، ويستخدمها لخير الدولة ، وإن أدى ذلك إلى إهمال ثروته الخاصة ؛ ولقد كان فاسد الخلق من الناحية الجنسية وضرب بذلك أسوأ الأمثلة لشباب فلورنس ؛ لكنه ضرب أحسن الأمثلة فى الأدب ، وأعاد إلى اللغة الإيطالية مكانتها الأدبية الراقية ، وكان ينافس محاسبيه فى قرض الشعر ؛ ويناصر الفنون بذوق راق نقاد ووضع بذلك مستوى له تسعى أوربا لبلوغه ؛ وإذا ما عُدَّ المستبدون كان هو خيرهم وأرقهم أخلاقاً ، وقد قال عنه فرديناند ملك نابلى : « لقد طال أجل هذا الرجل حتى بلغ مجده ، ولكنه لم يطل أجله بالقدر الذى تتطلبه إيطاليا »[٣٦] ، واضمحلت فلورنس من بعده ولم تذق إيطاليا طعم السلم بعد وفاته .

الباب الخامس

سفنرولا والجمهورية

١٤٩٢ – ١٥٣٤

الفصل الأول

النبي

إن الذى يمتاز به الحكم الوراثى هو الاستمرار ، أما نقمته فهى أنه يؤول إلى من لا يعلون على المستوى الأوسط من الحكام . ومصداق ذلك أن پيرو دى لورندسو Piero di Lorenzo خلف أباه فى سلطانه دون عناء ، ولكن سوء خلقه وخطأ أحكامه أفقداه حب الشعب وهو الحب الذى كان يقوم عليه حكم آل ميديتشى . فقد كان الرجل حاد الطبع سريع الغضب ، متوسط الذكاء ، مزعزع الإرادة ، حسن النية إلى درجة تدعو إلى الإعجاب . وقد جرى على سنة آل ميديتشى من السخاء على الفنانين ورجال الأدب ، ولكنه كان فى ذلك أقل بصيرة وكياسة من أبيه . وكان قوى البنية ؛ بارعاً فى الرياضة ، اشترك فى المباريات الرياضية وظهر فيها أكثر مما ترى فلورنس أنه يليق برئيس دولة معرضة للأخطار . وكان من المحن الكثيرة التى لازمته أن مشروعات لورندسو وإسرافه قد أفقرا خزانة المدينة ، وأن منافسة المنسوجات البريطانية كانت تنشر الكساد الاقتصادى فى فلونس ، وأن زوجة پيرو الأرسينية كانت تشمخ بأنفها الرومانى على الفلورنسيين وترميهم بأنهم أمة من أرباب الحوانيت ، وأن الفرع الآخر من أسرة ميديتشى

المنحدر من لورندسو « الأكبر » بدأ يتحدى أبناء كوزيمو وأحفاده ، وتزعم حزباً تولى المعارضة باسم الحرية . وكان شر ما منى به پيرو من تعاسة أنه معاصراً لشارل الثامن ملك فرنسا الذى غزا إيطاليا ، ولسفنرولا الذى كان يريد استبدال المسيح بالميديتشين ، ولم يكن پيروقد خلق ليتحمل هذه الأعباء الثقال .

وانتقلت أسرة سفنرولا من بدوا إلى فرارا حوالى عام ١٤٤٠ وذلك حين دعا نقولو الثالث د، ست Niccolo III d'Este ميشيل سفنرولا ليكون طبيب بلاطه . وكان ميشيل هذا رجلا نقياً قل أن يوجد مثله فى الأطباء ، وكان كثيراً ما يلوم أهل فرارا لأنهم يفضلون القصص الغرامية على الدين(١) . وكان ابنه نقولو متوسط القدرة فى الطب ، ولكن إلينا بوناكسى Elena Bonacossi زوجة نقولو كانت امرأة قوية الأخلاق ذات مثل عليا سامية؛ وكان چيرولاما ثالث أبنائهما السبعة ، وأعداه هو أيضاً لدراسة الطب ، ولكنه رأى أن تومس أكوناس أكثر إمتاعاً من التشريح ، وأن انفراده بكتبه ألذ من عبث الشباب ؛ وراعه ألا يجد فى جامعة ڤيرونا طالباً « بلغ من الفقر درجة تحمله على أن يحل الفضيلة » . وكتب يقول : « إذا شئت أن تكون رجلا فى هذا المكان ، فعليك أن تلوث فمك بأقذر ألفاظ التجديف ، وأكثرها حيوانية ، وأشدها فظاعة . . . وإذا درست الفلسفة والفنون الطيبة كنت فى نظرهم حالما ، وإذا عشت عفيفاً متواضعاً ، فأنت أبله ؛ وإذا كنت تقياً ، فأنت منافق ؛ وإذا آمنت بالله فأنت مغفل »(٢) ؛ ولهذا ترك المدرسة وعاد إلى والدته وإلى العزلة ؛ وأضحى رجلا ذا وجدان سليم يشعر بنقائصه ، وينغص عليه حياته تفكيره فى الجحيم وفى خطايا بنى الإنسان . وكانت أولى كتاباته المعروفة قصيدة يندد فيها برذائل إيطاليا وفيها البابوات أنفسهم ، وينذر نفسه لإصلاح بلده وكنيسته . وكان يقضى الساعات الطوال فى الصلاة والدعاء ، وطال صيامه حتى حزن أبواه مما

أصابه من نزال . ؛ وحدث فى عام ١٤٧٤ أن اشتدت تقواه عن ذى قبل بعد أن استمع إلى العظات التى كان يلقيها الراهب ميشيل Fra Michele أيام الصوم الكبير ، وسره أن يرى كثيرين من أهل فرارا يأتون بأقنعتهم ، وشعرهم المستعار ، وأوراق اللعب ، والصور البذيئة ، وغيرها من متاع الدنيا ليلقوها على كومة حريق فى ميدان السوق . وبعد عام من ذلك الوقت هرب خلسة من بيته ، وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، ودخل ديراً للبندكتيين فى بولونيا .

وكتب رسالة رقيقة إلى أبويه يرجوهما أن يغفرا له أنه خيب ما كانا يرجوان له من رقى فى الشئون الدنيوية ؛ ولما أن ألحا عليه بالعودة رد عليهما مغضباً : « أيها الأعميان ! لماذا تداومان على البكاء والأسى ؟ إنكما تزعجانى وإن كان عليكما أن تبتهجا . . . . وليس لى ما أقوله إذا داومتما على هذا الحزن إلا أنكما ألد أعدائى وأعداء الفضيلة ؟ فإن كان ذلك ، قلت لكما : كونوا كلكم دونى ، يا من ترتكبون الإثم »[٣] . وأقام فى دير بولونيا ست سنين ؛ وكان فى خلالها يطالب فى عزة وفخر أن يعهد إليه بأحقر الأعمال ، ولكن موهبته الخطابية تكشفت فى أثناء هذه المدة ، وعهد إليه بالخطابة ؛ ثم نقل إلى سان ماركو فى فلورنس عام ١٤٨١ ، وكلف بالخطابة فى كنيسة سان لورنسو ؛ لكن مواعظه فيها لم ترق الجماهير ؛ لأنها كانت ممتعة فى الناحية النظرية والتلقينية أكثر مما تطيقه مدينة عرفت بلاغة الكتاب الإنسانيين وأسلوبهم المصقول ؛ فأخذ من يستمعون إلى عظاته يقل عديدهم أسبوعاً بعد أسبوع ؛ فما كان من رئيس الدير إلا أن خصه بتعليم المستجدين .

وأكبر الظن أن السنين الخمس التالية هى التى تكونت فيها أخلاقه واتخذت صورتها النهائية . ولما ازدادت مشاعره وأغراضه قوة ظهرت آثارها على ملامحه ، فتغضنت جبهته وتجهمت ، وانقبضت شفتاه الغليظتان تنمان عن قوة العزيمة ، وانحنى أنفه الضخم إلى الخارج كأنما كان يريد أن يحيط

بالعالم أجمع ، ولبدا وجهه مكتئباً قاسياً ، ينم عن قدرة لا حد لها على الحب والكره ، وجسمه الضئيل تحطمه وتنتابه الرؤى ، والآمال الخائبة ، والأعاصير الداخلية المستبطنة ؛ وكتب وقتئذ لأبويه يقول : « لا زلت لحما ودماً مثلكما ؛ ولا زالت حواسي مستعصية غير خاضعة لعقلى ، ولهذا كان لابد لى أن أناضل بقسوة كى أمنع الشيطان أن يقفز على ظهرى »[٤] . وعمد إلى السوط وجلد نفسه كى يذلل ما بدا له إنه الفساد المتأصل فى الطبيعة البشرية . وإذا كان قد جسد وساوس الجسم والكبرياء فجعلها أصوات الشيطان ، فإنه لم يكن أقل من ذلك استعداداً لأن يجسد نصائح نفسه الخيرة وتحذيراتها . وهام وهو بمفرده فى صومعته يعلى من شأن وحدته بأن يصور نفسه كأنه ميدان تصطرع فيه الأرواح التى تحوم حوله ليظفر منها الخبيث أو الطيب ، وخيل إليه آخر الأمر أن الملائكة وكبارهم يتحدثون إليه ، وأخذ ألفاظهم على أنها وحى إلهى ، وقام فجاءة يتحدث إلى العالم كأنه نبى اختير ليكون رسولا من عند الله ، وآمن أشد الإيمان بالرؤى غير المعترف بها والمعزوة إلى الرسول يوحنا ، وورث فلسفة الأخرويات عن يواقيم الفلورى Joachiem of Flora الصوفى ، وقال كما قال يواقيم إن عهد المسيح الدجال قد أقبل ، وإن الشيطان قد استحوذ على العالم ، وأن المسيح سيظهر بعد قليل ليبدأ حكمه فى الأرض ، وأن الانتقام الإلهى سيحل بالطغاة ، والزانين ، والكافرين ممن خيل إليهم أنهم يسيطرون على إيطاليا

ولما أن أرسله رئيس ديره ليخطب فى لمبارديا (١٤٨٦) تنحى سفنرولا عن أسلوبه التعليمى الذى كان يصطنعه فى شبابه ، وصاغ عظاته فى صورة التشهير بالرذائل الخلقية ، والتنبؤ بيوم الدينونة ، والدعوة إلى التوبة . وأصغى إليه آلاف ممن لم يكونوا يستطيعون تتبع حججه الأولى ، وأخذوا يستمعون فى وجل إلى البلاغة الجديدة الثائرة القوية التى ينطق بها رجل خيل إليهم أنه يتحدث عن يقين وتأييد إلهى . وسمع پيكو دلا مرندولا بما أوتيه

الراهب من نجاح ، واستأذن اورندسو فى أن يعرض على رئيس الدير أن يأمر بعودة سفنرولا إلى فلورنس . وعاد سفنرلا فعلا ؛ (١٤٨٩) ، واختير بعد عامين رئيساً لدير سان ماركو ؛ ووجد فيه لورندسو عدوا أصرح وأقوى من أى عدو آخر اعترض سبيله .

ودهشت فلورنس إذ رأت أن الواعظ الأصحم الذى كان من قبل يبعث البأس بحججه فى قلوبهم ، قد أخذ الآن يروعهم بالرؤى والخيالات الدينية ، ويستحوذ على قلوبهم بالأوصاف الحية القوية التى يصور بها الوثنية ، والفساد ، والرذائل المتفشية بين جيرانهم ، ويسمو بأرواحهم إلى مراقى التوبة والأمل ، ويبعث فى نفوسهم من جديد قوة الإيمان التى كانت تلهمهم وتروعهم أيام شبابهم :

« يا أيتها النساء يا من تختلن بزينتكن ، وشعركن ، وأيديكن ، أقول لكن إنكن جميعاً قبيحات ، فهل تردن أن ترين الجمال الحق ؟ انظرن إلى الرجل التقى أو المرأة التقية ، حيث تسيطر الروح على المادة ؛ انظرن إليه وهو يصلى ، وحين يتلألأ عليه شعاع من الجمال الربانى ساعة يختتم صلواته ؛ سترين وقتئذ جمال الله يتلألأ فى وجهه ، فتبصرنه كأنه وجه ملاك »(٥) .

وذهل الناس من شجاعته ، فقد كان تنديده بالقساوسة والبابوية أشد من تنديده بغير رجال الدين ، وكانت قسوته على الأمراء أشد منها على الشعب ، وسرى فى قلوب الفقراء تيار قوى من التطرف ؛ انظر إلى قوله :

لا يوجد فى هذه الأيام شىء من نعم الروح القدسى أو هباته لا يستطاع شراؤه أو بيعه . أما الفقراء فقد أبهظت كاهلهم الأعباء الثقال ، وإذا ما دعوا لأداء مبالغ من المال فوق طاقتهم ، صاح الأغنياء فى وجوههم قائلين : « أعطونا ما بقى لديكم » . ومن الناس من لا يزيد دخلهم على خمسين (فلورينا فى العام) ، ثم يؤدون ضرائب عن مائة ، على حين أن الأغنياء لا يؤدون إلا القليل ، لأن الضرائب قد نظمت على هواهم . ألا فاتفكروا

جيداً أيها الأغنياء ، لأن العذاب سوف يحل بكم . ولن نسمى هذه المدينة بعد اليوم فلورنس ، بل ستكون معششاً للصوص ، وللدناءة ، وسفك الدماء . فإذا جاء هـــذا الوقت حلت بكم الفاقة . . . وانقلب اسمكم أيها القساوسة فصار هو الرعب(٦) .

ثم يأتى بعد القساوسة دور رجال المصارف :

لقـــد ابتدعتم وسائل كثيرة تجمعون بها المال ، وتجرون بها عمليات كثيرة من التبادل تقولون إنها مشروعة ، ولكنها أبعد ما تكون عن العدالة ، وقد أفسدتم بأعمالكم مناصب المدينة وكبار حكامها . ليس فى مقدور أحد أن يقنعكم بأن الربا إثم ، ولذلك نراكم تدافعون عنه وتعرضون نفوسكم للهلاك ؛ وليس فيكم من يستحى من إقراض المال بالربا ، بل إن من يفعلون غير فعالكم يرمون بالبلاهة والغفلة . . . . إن وجوهكم لهى وجوه العاهرات قد نضب منها ماء الحياة ، فأنتم تقولون إن الحياة الطيبة السارة هى حياة الكسب ، والمسيح يقول :

طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات .

ثم يوجه كلمة إلى لورندسو فيقول(٧) :

إن الطغاة لا يمكن تقويمهم ، لأنهم متكبرون ، ولأنهم يحبون الملق ، ولن يردوا مكاسبهم الحرام . . . وهم لا يستمعون إلى نداء الفقراء ، ولا يلومون الأغنياء . . . ويفسدون أخلاق الناخبين ، ويكلون جباية الضرائب إلى الملتزمين ليهظوا بذلك كاهل الأهلين(٨) . . . وقد جرت عادة الطاغية أن يشغل الناس بالمعارض والأعياد حتى ينصرفوا عن التفكير فى أعماله إلى التفكير فى ملاهيهم ، فينشأوا غير ملمين بسير أمور الدولة ، ويتركوا أزمة الحكم فى يديه(٩) .

وهو لا يرى أن ذلك الطغيان مما يستطاع تبريره بحجة أنه المال ينفق على الآداب والفنون . ذلك أن سفنرولا يقول إن الآداب والفنون من أعمال الوثنيين ؛ وإن قول الإنسانيين إنهم مسيحيون محض اختلاق ، وإن أولئك

المؤلفين الأقدمين الذين يجدُّون هم فى الكشف عن آثارهم ونشرها والثناء عليها. غرباء عن المسيح وعن الفضائل المسيحية ، وليس فيهم إلا وثنية وعبادة لآلهة الكفار ، أو إنها عرض فاجر للعرايا من النساء والرجال .

واضطرب لورندسو لهذا . لقد كان جده هو الذى أنشأ دير سان ماركو وأغناه ، وكان هو نفسه قد حباه بالمال الكثير ؛ وبدا له أن مما لا يقبله العقل أن يقوم راهب فيقضى من فوق منبر ذلك البيت المقدس الذى أنشأه آل ميديتشى على ذلك التأييد الشعبى الذى قام على أساسه سلطان أسرته ، مع أن هذا الراهب لا يكاد يعرف شيئاً عن صعاب الحكم ؛ ويقدس تلك الحرية التى لم تكن فى حقيقتها إلا حرية الأقوياء فى استغلال الضعفاء بلا وازع من سلطان القانون . وحاول لورندسو أن يسترضى الراهب ، فجاء إلى دير سان ماركو ليحضر القداس ، ونفح الدير بهبات سخية ، ولكن سفنرولا ازدراه وسخر منه ، وقال فى عظة له بعد ذلك إن الكلب الأمين لا يكف عن النباح دفاعاً عن صاحبه إذا ما ألقى إليه عظم . ولما وجد فى صندوق الصدقات قدراً كبيراً من الذهب على خلاف المعتاد ظن أنه جاء من لورندسو ، فوهبه إلى دير آخر وقال إن الفضة تفى بحاجات إخوانه الرهبان . وبعث إليه لورندسو خمسة من زعماء المدينة ليحاولوا إقناعه بأن عظاته النارية ستؤدى إلى العنف الذى لا طائل من ورائه ، وأنها قد أخذت تخل بالنظام وتهدد الأمن والسلام فى فلورنس . ورد عليهم سفنرولا بأن عليهم أن يأمروا لورندسو بأن يكفر عن سيآته ، وأغرى راهب فرنسيسى اشتهر ببلاغته أن يلقى عظات شعبية يهدف بها إلى إبعاد المستمعين من الرهبان الدمنيكيين عن سفنرولا ؛ ولكن هذا الراهب أخفق فى مهمته ، وهرعت إلى سان ماركو جماعات أكبر مما كان يهرع إليه من قبل ، حتى لم تعد كنيسة الدير تتسع للمستمعين . ونقل سفنرولا منبره إلى الكنيسة الكبرى ليلقى فيها عظاته فى موسم الصوم الكبير من عام ١٤٩١ ؛ وكان هذا الصرح يزدحم بالحاضرين كلما أعلن أن الراهب سيخطب فيه ، مع أنه قد أنشئ لكى

سع أهل مدينة بأكملها . ولم يحاول لورندسو بعدئذ ، وكان يقاسى آلام المرض ، أن يتدخل فى عظاته .

وكان ضعف بيرو بعد موت والده لورندسو سبباً فى أن أصبح سفنرولا أكبر قوة فى فلورنس ؛ ووافق البابا الجديد إسكندر السادس على كره على انفصال ديره عن المجموعة اللمباردية (من أديرة الدمنيك) التى كان هذا الدير جزءاً منها . وبهذا نصب سفنرولا نفسه من الوجهة العملية رئيساً مستقلا لأهل ديره . فلما تم له ذلك أصلح نظمه ، ورفع مستوى الرهبان الخاضعين لحكمه من الناحيتين الخلقية والعقلية ؛ فانضم إلى جماعته رهبان جدد ، وأحاطه أعضاء الدير البالغ عددهم ٢٥٠ عضواً بالحب والإخلاص اللذين كانا عوناً قوياً له فى جميع ظروف حياته ما عدا محنته الأخيرة . وأصبح سفنرولا من أجل ذلك أشد جرأة فيما يوجهه من نقد للفساد الشائع وقتئذ بين رجال الدنيا والدين على السواء . لكنه ورث على غير علم منه آراء الملحدين الولدنسيين Waldensian والبتارين Patarine المعارضة لآراء الكنيسة ؛ وكانت هاتان الطائفتان لا تزالان تكمنان فى أماكن مختلفة من شمالى إيطاليا ووسط أوربا ، فأخذ يندد بالثراء الدنيوى الذى يستمتع به رجال الدين ، وبما يتجلى فى الحفلات الكنسية من أبهة وفخامة ، ويشنع على « الأحبار الكبار الذين يضعون على رءوسهم تيجاناً فخمة من الذهب والحجارة الكريمة . . . وعلى ملابسهم الجميلة وأوشحتهم المنسوجة من الديباج المقصب » . وأخذ يقارن هذا بما كان عليه رجال الكنيسة الأولون من بساطة ، ويقول إن هؤلاء « لم تكن لهم تيجان ذهبية وأقداح قربان إلا أقل من القليل ؛ وذلك لأن القليل الذى كانوا يملكونه منها قد تحطم ليسد حاجة الفقراء والمعوزين . أما أحبارنا فإنهم ينهبون من الفقراء ما لا يملكون سواه ليقيموا به أودهم ، ليحصلوا هم به على أقداحهم »[١٠] . وكان يضيف إلى هذا التشهير نبوءات بسوء المصير ؛ وكان قد تنبأ بأن لورندسو وإنو سنت

الثامن سيموتان فى عام ١٤٩٢ ، ومات كلاهما فى ذلك العام بالفعل ؛ ثم تنبأ فى هذا الوقت الذى نتحدث عنه أن الله سيرسل على إيطاليا كارثة مدلهمة ينتقم بها لذنوبها وآثام طغاتها ورجال الدين فيها ، فإذا انقضت هذه الكارثة فإن المسيح سوف يقود الأمة فى سبيل الإصلاح المجيد ، وأنه هو نفسه ، سفنرولا ، سيموت موتاً عنيفاً . ثم تنبأ فى بداية عام ١٤٩٤ أن شارل الثامن سيغزو إيطاليا ، ورحب هو بهذا الغزو ووصفه بأنه يد الله المطهِّرة . ويقول أحد معاصرية إن ما كان يلقيه وقتئذ من عظات كانت « مليئة بالإرهاب ، والفزع ، والصراخ والعويل ، إلى حد جعل كل من سمعها يطوف بالمدينة ذاهلا ، صامتا شبيها بالأموات »(١١) .

وتحققت نبوءة سفنرولا ، فعبر شارل الثامن جبال الأپنين فى عام ١٤٩٤ وانقض على إيطاليا يعتزم ضم مملكة نابلى إلى التاج الفرنسى ، ودخل أملاك فلورنس فى شهر أكتوبر من ذلك العام وحاصر حصن ساردسانا Sarzana ؛ وظن پيرو أنه يستطيع إنقاذ فلونس من فرنسا ؛ كما أنقذها والده من نابلى ، بالذهاب بنفسه إلى عدوه . فقابل شارل فى ساردسانا وأجابه إلى كل ما طلب : فسلمت إلى الفرنسيين پيزا وليغورن Leghorn ، وجميع ما لفلورنس من حصون فى الغرب على أن تبقى فى أيديهم طوال أيام الحرب ، ورضى أن تقدم فلورنس مائتى ألف فلورين (٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) تساعد بها على تمويل حملة شارل(١٢) : فلما وصل نبأ هذا التسليم إلى فلورنس ارتاعت له حكومة المدينة ومجلسها ، ولم يكونوا قد استشيروا من قبل فى أمر هذه المفاوضات بعكس ما حدث من قبل فى أيام لورندسو . وقرر مجلس حكام فلورنس بزعامة المعارضين لپيرو من آل ميديتشى أن يخلعوه ويعيدوا الجمهورية القديمة ؛ فلما عاد پيرو من ساردسانا وجد أبواب قصر ڤيتشيو مغلقة فى وجهه ، وأخذ الناس يهزءون به وهو فى طريقه إلى منزله ، والصبية يقذفونه بالحجارة . وخشى پيرو الاعتداء على حياته

ففر هو وأسرته وإخوته من المدينة ، ونهب العامة قصر آل ميديتشى وحدائقهم ، وبيوت عمال پيرو على أمواله ؛ ونهبت المجموعات الفنية التي قضى آل ميديتشى فى جمعها أربعة أجيال ، وبعثرت ، وباعت الحكومة ما بقى منها فى مزاد علنى . وعرض مجلس حكام فلورنس مكافأة قدرها خمسة آلاف فلورين لمن يأتيهم بپيرو والكردنال چيوڤنى ده ميديتشى على قيد الحياة ، وألفين لمن يأتى بهما ميتين . وأرسلت خمسة رجال ، من بينهم سڤنرولا ، إلى شارل فى پيزا يطلبون إليه شروطاً للصلح أخف وطأة من الشروط السالفة الذكر ، وقابلهم شارل بمجاملة سلبية ، فلما غادر الوفد پيزا نزع أهلها شارات الأسد والسوسن وهى شعار پيزا عن منازلهم ونادوا باستقلالهم . ودخل شارل فلورنس ، ورضى بأن يدخل تعديلا طفيفاً على مطالبه ؛ ودفعه حرصه على الوصول إلى ناپلى إلى أن يتجه بجيشه نحو الجنوب ، وشرعت فلورنس وقتئذ تقوم بتجربة فى الدمقراطية تعد من أروع التجارب فى التاريخ :

الفصل الثانى

سفنرولا الحاكم

دعى أهل فلورنس فى اليوم الثانى من ديسمبر عام ١٤٩٤ إلى برلمان Parlamento ، دعاهم إليه الناقوس العظيم المعلق فى برج قصر ڤيتشيو . وطلب إليهم مجلس السيادة أن يخولوه سلطة ترشيح عشرين من رجالها ، يعينون هم مجلس سيادة جديد ورؤساء جدداً للموظفين ، وأن يحتفظ هذا المجلس وأولئك الموظفون بمناصبهم عاماً واحداً ، تملأ بعده جميع المناصب بطريق القرعة من سجل يحتوى أسماء الذكور المتمتعين بالحقوق السياسية والبالغ عددهم قرابة ثلاثة آلاف . ووافق البرلمان على أن يعهد بهذه السلطة إلى مجلس السيادة القديم . وحل « العشرون » المجالس والهيئات التى كانت تنظر فى الشئون العامة وتديرها أيام آل ميديتشى ، ووزعوا المناصب المختلفة على أنفسهم ، ولكنهم لم يكونوا ذوى خبرة ودراية بهذه الأعمال ، وقامت بينهم التحزبات للأسر فمزقتهم تمزيقاً ، وانهارت الأداة الحكومية الجديدة ، وأوشكت الفوضى أن تضرب أطنابها فى المدينة ، وشرع دبيب الكساد يدب فى التجارة والصناعة ، وتعطل الناس ، واحتشدت الجموع الغاضبة فى الشوارع ، وأقنع پيرو كپونى Pero Caponi « العشرين » أن لا سبيل إلى عودة النظام إلا إذا دعى سفنرولا إلى مجالسهم .

واستدعاهم الراهب إلى ديره ، وعرض عليهم منهاجاً طموحاً من التشريعات السياسية ، والاقتصـــادية ، والخلقية . ووضع « العشرون » بزعامته وزعامة پيترو سديرينى Pietro Soderine دستوراً جديداً اتخذوا بعض مبادئه من الدستور الذى نجح أيما نجاح فى استقرار الحكم فى البندقية وينص هذا الدستور على إنشاء مجلس أعلى Maggior Consiglio يتكون

من رجال تولوا هم أو أسلافهم من الأجيال الثلاثة السابقة مناصب كبيرة في الدولة ، على أن يختار هؤلاء الأعضاء الأولون ثمانية وعشرين عضواً آخر ينضمون إليهم فى كل عام . أما الهيئة التنفيذية للحكومة فتبقى فى جوهرها كما كانت فى أيام آل ميديتشى : مجلس للسيادة مكون من ثمانية رؤساء وحامل الشعار ، يختارهم المجلس الأعلى لمدة شهرين ، ومن عدة لجان — لجنة الأثنى عشر ، والستة عشر ، والعشرة والثمانية — مهمتها تصريف الشئون الإدارية ، وشئون الضرائب والحرب . وأجل إنشاء الدمقراطية الكاملة بحجة أنهـا نظام غير عملى فى مجتمع لا تزال كثرته من الأميين ، يندفعون وراء العواطف والانفعالات ؛ ولكن المجلس الأعلى الذى يكاد أعضاؤه يبلغون ثلاثة آلاف عضو كان يعتبر هيئة نباتية . وإذ لم يكن فى قصر فيتشيو حجرة تتسع لهذه الجمعية الضخمة ، فقد كلف سيمون بلايولو — ال كروناكا Simone Palaiuolo - Il Cronaca — بأن يعيد تخطيط جزء من داخل القصر ليجعل بهو قاعة الخمسمائة Sala dei Cinquecento يتسع لعقد جلسات المجلس مجزءاً . وقد كلف ليوناردو دا فنتشى وميكل أنچيلو بعد ثمان سنين من ذلك الوقت أن ينقشا الجدران المتقابلة متنافسين تنافسا ذائع الصيت فى التاريخ . ورحبت الجماهير بهذا الدستور المقترح ترحيباً كان الفضل فيه لنفوذ سفنرولا ، وشرعت الجمهورية الجديدة تباشر أعمالها فى اليوم العاشر من شهر يونية سنة ١٤٩٥ .

وبدأت أعمالها بداية طيبة ، فأصدرت عفواً عاماً عن جميع المؤيدين لحكم آل ميديتشى الزائل ، ودلت على كرمها المنبعث عن احترامها لنفسها بأن ألغت جميع الضرائب عدا ضريبة قدرها عشرة فى المائة من دخل الأملاك العقارية ، وبذلك أعفى التجار الذين كانوا يسيطرون على الأعمـال التجارية من الضرائب ، وألقوا العبء كله على الأرستقراطية المالكة للأرض ، وعلى الفقراء المنتفعين بها . ثم أنشأت الحكومة بإيعاز سفنرولا

مكتبا للقروض monte dè pieta يقرض المال بفائدة قدرها خمسة فى المائة ؛ وبذلك أنجت الفقراء من الاعتماد على المرابين الذين كانوا يتقاضون فوائد تبلغ أحياناً ثلاثين فى المائة . ثم حاول المجلس بتحريض الراهب أيضاً أن يصلح الأخلاق والقوانين : فحرم سباق الخيل ، والأغانى البذيئة فى الحفلات التنكرية ، وانتهاك الحرمات ، والميسر ؛ وشجع الخدم على أن يبلغوا عن أسيادهم إذا قامروا ؛ وكان من يحكم عليهم من المذنبين يعذبون ؛ كما كان المجدفون يعاقبون بخرق ألسنتهم ، ومن يرتكبون اللواط يلقون من العقوبات الشديدة مايزرى بهم . ونظم سفنرولا الغلمان من جماعته فى شرطة أخلاقية مهمتها المساعدة على تنفيذ هذه الإصلاحات . وتعهد هؤلاء الغلمان بأن يداوموا على الذهاب إلى الكنيسة بانتظام ، ويتجنبوا مشاهدة السباق والاستعراضات ، والألعاب البهلوانية ، وصحبة الأرذال الفاسدين ، والاطلاع على الأدب البذىء ، ومشاهدة الرقص ، ومدارس الموسيقى ، كما تعهدوا بتقصير شعر الرأس . وكانت « عصب الأمل » هذه تجوب الشوارع تطلب الصدقات للكنيسة : ونشتت الجماعات التى تحتشد للعب الميسر ، وتنتزع من أجسام النساء ما ترى أنه غير لائق من الثياب .

وارتضت المدينة هـــذه الإصلاحات إلى حين ، وأيدتها بعض النساء تأييداً حماسياً ، وسلكن مسلكاً مرضياً ، ولبسن ثياباً بسيطة ، وخلعن الحلى ؛ وبدلت الثورة الأخلاقية فلورنسة آل ميديتشى المرحة تبديلا ، وأخذ الأهلون يتغنون فى الشوارع بالترانيم الدينية بدل الأغانى الخمرية ، وغصت الكنائس بالمصلين ، وأخرج الناس الصدقات بمقادير لم يعهد مثلها من قبل ؛ ورد بعض رجال المصارف والتجار مكاسبهم غـــير المشروعة [١٣] . ودعا سفنرولا جميع سكان المدينة ، فقرائهم وأغنيائهم على السواء ، أن يتجنبوا البطالة ، والترف ، وأن يجدوا فى أعمالهم ، وأن يجعلوا حياتهم قدوة حسنة لغيرهم ، وقال فى ذلك : « يجب أن تبـــدأ إصلاحاتكم بشئون

الروح ... وأن تضعوا مغانمكم الدنيوية فى خدمة المصالح الأخلاقية والدينية التى هى أساس هذه المغانم ؛ وإذا كنتم قد سمعتم « أن الدول لاتحكم بالصلوات والأدعية » فاذكروا أن هذا هو حكم الطغاة المستبدين ، ... وهو حكم لا يعمل لحرية المدينة بل يعمل لظلمها ؛ فإذا شئتم حكماً صالحاً ، وجب عليكم أن تردوا هذا الحكم إلى الله »[١٤] . وطلب إلى فلورنس أن تعتقد أن لحكومتها ملكا لا تراه العين — هو المسيح نفسه ؛ وتنبأ بأن هذه الحكومة الدينية ستؤدى إلى « المدينة الفاضلة » . وقال « أى فلورنس ! وإذن ستكونين غنية بثروتك الروحية والزمنية ؛ وستفوزين بإصلاح رومة ، وإيطاليا ، وجميع الأقطار ، وستبسطين جناحى عظمتك على العالم كله »[١٥] . والحق أن فلورنس لم تسعد فى يوم ما قبل ذلك الوقت كما سعدت فى تلك الأيام التى كانت لحظة ساطعة فى تاريخ الفضيلة القلق المضطرب .

لكن الطبيعة البشرية لا تتغير ، فالناس ليسوا فضلاء بفطرتهم ، والنظام الاجتماعى إنما يحافظ على كيانه المزعزع وسط التنازع الخفى والعلنى القائم بين النفوس والأسر ، والطبقات ، والعناصر ، والعقائد . وكان فى المجتمع الفلورنسى عنصر قوى شديد الميل إلى الحانات ، والمواخير ، وأندية القمار ينفسون بها عن غرائزهم ، أويتخذونها وسيلة إلى الكسب ؛ وثارت ثائرة أسر الباتسيين ، والزيليين ، والكيونيين ، والفرع الأصغر من الميديتشيين وغيرهم من الأعيان الذين أخرجوا پيرو ، حين رأوا أزمة الحكومة تقع فى يدى راهب ؛ وكانت بقية من حزب پيرو لا تزال قائمة تتحين الفرص التى تستطيع بها العودة إلى الحكم وتستعيد بها الثراء . كذلك كان الرهبان الفرنسيس يعملون بكل ما أوتوا من حماسة دينية ضد سفنرولا الدمنيكى ، كما كانت عصبة صغيرة العدد من المتشككين تصب اللعنات على الطائفتين . واجتمعت هذه الطوائف المختلفة من أعداء النظام الجديد فى تجريح مؤيديه ووصفهم بالباكين Piagnoni (لأن الكثيرين منهم كانوا يبكون إذا سمعوا

عظات سفنرولا وذوى الرقاب الملتوية Collitorti ، والمنافقين Stopiccioni ومن يلوكون الصلوات Masticapternostri ؛ وكان الذين يلقبون بهذه الألقاب يسمون أعداءهم الكلاب الكلبة Arrabiati لشدة عداء هؤلاء لهم ؛ وأفلحت طائفة الأربياتى (الكلاب الكلبة) فى انتخاب مرشحها فلبو كوربتسى Filippo Corbizzi حاملا لشعار الدولة فى بداية عام ١٤٩٦ ، فلما تم له ذلك عقد فى قصر ڤيتشيو مجلساً من الكهنوت ؛ واستدعى سفنرولا للمثول أمامه ، واتهمه بالتورط فى نشاط سياسى لايليق بالرهبان ، وانضم إليه فى هذه التهمة عدد من رجال الدين من بينهم راهب دمنيكى من طائفة سفنرولا نفسه . وكان جواب سفنرولا : الآن قد حقت كلمات الله : (لقد حاربنى أبناء أمى) . . . ليس الاهتمام بشئون هذا العالم . جريمة يتهم بها راهب إلا إذا خاض فيها دون أن يكون له غرض أسمى ، ولم يكن يسعى لنصرة قضية الدين »[١٦] ، وطالبوه بأن يصرح هل كانت عظاته موحى بها من عند الله ، ولكنه أبى أن يجيب عن هذا السؤال ، وعاد إلى صومعته وهو أشد حزناً مما كان .

ولعله كان يستطيع التغلب على أعدائه او أن الظروف الخارجية كانت فى صالحه . لكنها لم تكن ؛ ذلك أن الفلورنسيين الذين يمتدحون الحرية كانو غاضبين أشد الغضب على پيزا لأنهم يطالبون بها ؛ وحتى سفنرولا نفسه لم يجرؤ على الدفاع عن المدينة الثائرة ، وعوقب قس من قساوسة الكنيسة عقاباً صارماً على يد مجلس للسيادة مؤلف من الباكين لأنه صرح بأن من حق أهل پيزا أيضاً أن يكونوا أحراراً . ووعد سفنرولا بأن يرد پيزا إلى فلورنس ، واندفع فادعى أن پيزا فى قبضة يده ؛ ولكنه كان ، كما وصفه مكيفلى ساخراً ، نبياً لا جند له . ودعمت پيزا استقلالها بعد أن طرد شارل الثامن من إيطاليا وذلك بتحالفها مع ميلان والبندقية ، وأسف الفلورنسيون لأن سفنرولا قد ربط نجمهم بنجم شارل الأغل ، ولأنهم دون غيرهم

لم يشتركوا فى ذلك العمل المجيد وهو طرد الفرنسيين من إيطاليا(١٧) . وكان القائدان الفرنسيان للحصنين الفلورنسيين ، وهما حصنا سردسانا وپيترا سانتا Pietra Santa قد باعا أحدهما إلى جنوى ، والآخر إلى لوكا : وقامت حركات تطالب بالتحرر فى مونتى پلتشيانو Montepulciano وأرتسو Arezzo ، وڤلتيرا Volterra وغيرها من المدائن التابعة لفلورنس اضطربت لها أنحاؤها ؛ ولاح أن المدينة التى كانت من قبل قوية مزهوة قد أوشكت أن تخسر ممتلكاتها الخارجة كلها تقريباً ، وأن تخسر كذلك جميع منافذها التجارية القائمة على نهر الآرنو ، والبحر الأدرياوى ، وعلى الطرق المؤدية إلى ميلان وروما . وكان لهذا أسوأ الأثر فى التجارة ، وقل إيراد الضرائب ، وحاول المجلس أن يحصل على المال الذى تتطلبه الحرب ضد پيزا بقروض جبرية من أغنياء المواطنين ، وعرض عليهم فى مقابل هذه القروض سندات حكومية ، فلما أن لاحت أمارات الإفلاس انخفضت قيمة هذه السندات إلى ثمانين فى المائة ، ثم إلى خمسين ، فإلى عشرة فى المائة من قيمتها الاسمية. وأقفرت خزانه الدولة فى عام ١٤٩٦ . وحذت الحكومة حذو لورندسو فاقترضت المال من رصيد أوتمنت عليــه الدولة لتقديم البائنات للعرائس الفقيرات . وفشت الرشوة هى والفساد والعجز وضربت أطنابها فى إدارة الأموال الحكومية سواء كان مديروها هم الكلاب الكلبة أو الباكين .

واختير فرانتشسكو ڤالورى حاملا لشعار الدولة (يناير ١٤٩٧) بأغلبية من الباكين فزادت الكلاب الكلبة جنوناً على جنونها بأن حرمت عليها جميع الوظائف الكبرى ومنعت من عضوية المجلس إذا كان أفرادها ممن تهربوا من أداء الضرائب ، ولم يسمح لغير الباكين بالخطابة فى المجلس ، وأخرج من فلورنس كل راهب فرنسيسى يرفع عقيرته بالخطابة ضد سفنرولا .

وحدث فى خلال عام ١٤٩٦ أن ظل المطر ينهمر فى كل يوم تقريباً مدة أحد عشر شهراً وأتلف المحصولات فى الأراضى الضيقة الرقعة الواقعة فى

مؤخر المدينة ؛ وبلغ من شدة القحط أن كان الناس يسقطون موتى من الجوع على قارعة الطريق . وافتتحت الحكومة محطات للإغاثة لمد الفقراء بالحبوب ، فكانت النساء يتساقطن موتى من شـــدة الزحام على طلبها . وأخذ حزب آل ميديتشي يدبر المؤامرات لعودة پيرو ؛ وعرفت أسماء خمسة من زعمائهم وحكم عليهم بالإعدام (١٤٩٧) ، ومنعوا من استئناف الحكم إلى المجلس وهو الحق الذى يضمنه لهم الدستور ، وأعدموا ولما يمض على صدور الحكم إلا ساعات قليلة ؛ وأخذ كثيرون من الفلورنسيين يوازنون بين ما هو منتشر فى الحكم الجمهورى من تحزب ، وعنف ، وقسوة ، وبين ما كان يسود عهد لورندسو من نظام وأمن وسلام . وتكررت مظاهرات الجموع الغاضبة المعادية أمام دير سفنرولا ؛ فكان **السكلاب الكلابة والباكوند** يتراشقون بالحجارة فى الشارع ؛ ولما أن شرع الراهب يلقى موعظته فى يوم الصعود من عام ١٤٩٧ قاطعه جماعة من الغوغاء وحاول أعداؤه فى أثناء الشغب أن يقبضوا عليه ولكن أصدقاءه ردوهم على أعقابهم . وعرض حامل الأختام على مجلس السيادة أن ينفى سفنرولا من المدينة لعل ذلك يسكن من غضب الأهلين ، ولكن الاقتراح رفض بأغلبية صوت واحد ؛ وكان سفنرولا فى هذه العاصفة التى انهارت فيها أحلامه انهياراً مريراً يواجه ويتحدى أعظم قوة فى إيطاليا .

الفصل الثالث

سفنرولا الشهيد

لم يضطرب البابا اسكندر السادس اضطراباً شديداً بسبب ما وجهه سفنرولا من نقد لرجال الدين أو لأخلاق أهل رومة . ذلك أنه سمع مثل هذا النقد من قبل ؛ فقد ظل مئات من رجال الكنيسة قروناً طوالا يشكون من أن القساوسة يحيون حياة تنافى الفضيلة ، ومن أن البابوات يحبون المال والسلطان حباً لا يليق بخلفاء المسيح(١٨) . وكان البابا اسكندر سهلا رضى الطباع ، لا يسوؤه النقد الهين ما دام يحس بأنه آمن فى الكرسى الرسولى . أما الذى كان يسوؤه من سفنرولا فهو آراء هذا الراهب السياسية ؛ ولسنا نعنى بهذه الآراء السياسية ما فى الدستور الجديد من نزعة شبه دمقراطية . كذلك لم يكن البابا يهتم اهتماماً خاصاً بالميديتشين ، ولعله كان يؤثر أن تقوم فى فلورنس جمهورية ضعيفة عن أن تكون فيها حكومة مستبدة قوية . كذلك كان يخشى أن يغزو الفرنسيون البلاد مرة أخرى ؛ فقد اشترك من قبل فى تكوين عصبة من الدول الإيطالية تعمل على طرد شارل الثامن من إيطاليا ، وتحبط أى هجوم ثان يقوم به الفرنسيون ؛ ولم يكن يطبق استمساك فلورنس بتحالفها مع فرنسا ، ويرى أن سفنرولا هو القوة الخفية التى توجه سياسة المدينة هذه الوجهة ، ويرتاب فى أنه يراسل فى السر الحكومة الفرنسية . وقد كتب سفنرولا فى واقع الأمر ثلاث رسائل يؤيد فيها ما اقترحه الكردنال جوليانا دلا روفيرى Guiliano della Rovere من أن يعقد الملك مجلساً عاماً من رجال الدين والحكم يصلح الكنيسة ، ويخلع الإسكندر لأنه « كافر وزنديق »(١٩) . وحرض الكردنال أسكانيو اسفوردسا Ascanio Sforza ممثل ميلان فى البلاط البابوى ، البابا على أن

يضع حداً لخطب الراهب ونفوذه ؛ فكتب الإسكندر فى اليوم الحادى والعشرين من شهر يوليه عام ١٤٩٥ رسالة موجزة إلى سفنرولا قال فيها :

إلى ابننا المحبوب نهدى تحياتنا وبركتنا الرسولية . لقد سمعنا أنك أشد العاملين فى كرمة الرب غيرة ، فابتهجنا لذلك أشد الابتهاج وحمدنا الله العلى القدير على هذا . وسمعنا كذلك ما تؤكده من أن تنبؤاتك لا تصدر منك بل من الله(*) . ومن أجل هذا نرغب فى أن نتحدث إليك فى هذه الأمور كما يقضى علينا بذلك قيامنا على رعاية أبناء هذا الدين ؛ حتى إذا ما زدنا بهذه الطريقة علما بإرادة الله كنا أقدر على أداء واجبنا ؛ ولهذا نأمرك بما لنا عليك من حق الطاعة المقدسة التى أقسمت بالحرص عليها أن تعجل بالمثول بين يدينا ، وسوف تلقى منا الترحيب المشفوع بالحب والحنان[٢٠] .

وكانت هذه الرسالة نصراً عظيما لأعداء سفنرولا ، لأنها وضعته فى مأزق لا يسعه معه إلا أن يختم حياته بوصفه مصلحا أو أن يعصى أمر البابا علناً . وخشى سفنرولا ألا يستطيع العودة إلى فلورنس إذا ألقى بنفسه فى قبضة البابا ؛ ولربما قضى بقية أيامه فى جب سانت أنجيلو Sant' Angelo ؛ وإذا لم يعد فإن أنصاره سيقضى عليهم لا محالة : لهذا عمل بنصيحتهم فرد على الإسكندر قائلا إن مرضه الشديد يحول بينه وبين القدوم إلى رومة . وتكشفت بواعث البابا السياسية إلى هذه الدعوة حين كتب إلى مجلس السيادة فى فلورنس فى الثامن من سبتمبر يحتج على استمرار التحالف بين فلورنس وفرنسا ، وينبه الفلورنسيين إلى أنهم لا يليق بهم أن يوجه إليهم اللوم بأنهم دون سائر الإيطاليين يتحالفون مع أعداء إيطاليا ؛ وأمر سفنرولا فى الوقت عينه أن يمتنع عن الخطابة ، وأن يخضع لسلطان الوكيل العام للرهبان الدمنيك فى لمباردى ، وأن يرحل إلى أى مكان يأمره هذا الوكيل بالرحيل إليه .

(*) وكانت الكنيسة قد أعلنت أن هذا الادعاء يعد خروجاً على الدين ، وذلك لكى تقف فى وجه المتنبئين الكذابين .

ورد عليه سفنرولا (فى التاسع والعشرين من سبتمبر) بأن أتباعه لا يريدون أن يخضعوا إلى الوكيل العام للدمنيك : ولكنه فى الوقت عينه سيمتنع عن الخطابة . فرد عليه الإسكندر مرة أخرى رداً يدل على رغبته فى التوفيق والمصالحة (١٦ أكتوبر) ، وأعاد فى هذا الرد أمره بالامتناع عن الخطابة ، وعبر عن أمله فى أن يجىء سفنرولا إلى رومة حين تسمح له صحته بالمجىء إليها لكى يستقبل منها « بروح البهجة والأخوة »[٢١] ، ثم ترك الإسكندر الأمر عند هذا الحد مدة عام .

وكان حزب سفنرولا فى هذه الأثناء قد استرد لنفسه السلطان فى المجلس وفى مجلس السيادة ، وزجا مبعوثو حكومة فلورنس فى رومة البابا أن يلغى أمره القاضى بمنع الراهب من الخطابة ، قائلين أن فلورنس فى حاجة إلى تأثيره القوى أيام الصوم الكبير . ويبدو أن الإسكندر أجابهم إجابة شفوية إلى ما طلبوا ، وعاد سفنرولا فى السابع عشر من فبراير سنة ١٤٩٦ إلى الخطابة فى الكنيسة الكبرى . وعهد الإسكندر حوالى ذلك الوقت إلى أحد الأساقفة الدمنيكيين المتبحرين فى العلم أن يفحص ما نشر من مواعظ سفنرولا ليتبين ما فيها من خروج على الدين . وكتب الأسقف فى تقريره يقول : « أيها الأب الأقدس ؛ إن هذا الراهب لا ينطق بشىء يتعارض مع الحكمة أو الشرف ؛ فهو يتحدث عن بيع المناصب الدينية وعن فساد القساوسة ؛ وهو إن شئت الحقيقة شائع شيوعاً كبيراً ؛ وهو يحترم عقائد الكنيسة وسلطانها ؛ وأفضل من أجل هذا أن أتخذه لى صديقاً — ولو تطلب هذا أن تعرض عليه ثياب الكردنال الأرجوانية » . ولم يفارق الإسكندر ظرفه فبعث إلى فلورنس راهباً دمنيكياً يعرض على سفنرولا القلنسوة الحمراء ؛ ولم يشعر الراهب بأن فى هذا تكريماً له بل كان وقعه عليه أليماً ، لأنه لم ير فيه إلا مثلا آخر من شراء المناصب . فقال لمبعوث الإسكندر « عليك أن تأتى إلى عظتى التالية تعرف ردى على رومة »[٢٣] .

وكانت عظته الأولى فى ذلك العام إيذاناً ببدء النزاع مع البابا ، وكان هذا النزاع حادثاً عظيم الخطر فى تاريخ فلورنس ؛ وتاق نصف المدينة المهتاجة إلى سماعه ، ولم تتسع الكتدرائية على رحبها لكل من أرادوا الدخول ، وإن كانوا قد ازدحموا فى داخلها حتى لم يستطع أحد منهم حراكا . وأحاطت بالرئيس جماعة من أصدقائه المسلحين حتى أوصلته إلى الكنيسة . وبدأ عظته بأن شرح سبب انقطاعه الطويل عن المنبر ، وأكد ولاءه التام لتعاليم الكنيسة ، لكنه أتبع ذلك بتحدى البابا تحدياً جريئاً فقال :

إن الرئيس لايستطيع أن يصدر إلى أمراً أياً كان يتعارض مع القواعد التى تسير عليها طائفتى ، ولايستطيع البابا أن يصدر أمرا ما يتعارض مع مقتضيات البر أو أوامر الإنجيل ؛ ولست أعتقد أن البابا سيحرص يوماً ١٠ على أن يفعل هذا ؛ فإن فعل فسأقول له : « إنك الآن لست براع ، ولست أنت كنيسة رومة ، إنك مخطئ » . . . . وإذا تبين بوضوح أن أوامر الرؤساء تتعارض مع أوامر الله ، وبخاصة إذا تعارضت مع قواعد البر والخير ، فما من أحد من الناس فى هذه الحال ملزم بإطاعتها . . . . إذا ما تبينت بوضوح أن رحيلى عن مدينة ما سيؤدى إلى هلاك أهلها الروحى والزمنى ، فإنى لن أطيع إنساناً على ظهر الأرض يأمرنى بالرحيل عنها . . . لأنى إن أطعته عصيت أوامر الله(٢٤) .

وندد فى عظته التى ألقاها فى يوم الأحد الثانى من آحاد الصوم الكبير بأخلاق عاصمة العالم المسيحية بأقسى الألفاظ فقال : « إن ألف عاهر ، وعشرة آلاف عاهر ، وأربعة عشر ألف عاهر عدد قليل لايكفى رومة لأن جميع من فيها من رجال ونساء فى العهر سواء »(٢٥) . وانتشرت هذه العظات فى طول أوربا وعرضها عن طريق الاختراع الجديد العجيب ونعنى به المطبعة ، وكان الناس يقرأونها فى كل مكان حتى سلطان تركيا نفسه . وأثارت عاصفة من المنشورات والكتيبات فى داخل فلورنس وخارجها ،

منها ما اتهم الراهب بالخروج على الدين والنظام ومنها ما دافع عنه ووصفه بأنه نبي وقديس .

وأخذ الإسكندر يبحث عن وسيلة غير مباشرة يتقى بها الحرب العلنية . ومن أجل هذا أمر فى شهر نوفبر من عام ١٤٩٦ أن توحد جميع الأديرة الدمنيكية التسكانية — لتؤلف مجموعة تسكانية — رومانية جديدة توضع تحت سلطة پادر چياكومودا تشيتشيليا (الصقلى) Padre Giacomo de Cicilia . وكان پادر چياكومو هذا ممن يعطفون على سفنرولا ، ولكنه فى أغلب الظن لايمانع فى نقل الراهب إلى بيئة أخرى إذا أشار عليه البابا بذلك . ورفض سفنرولا أن يطيع أمر التوحيد ، وعرض الأمر على الشعب برمته فى نشرة سماها : « دفاع من إخوان سان ماركو » . وجاء فى هذه النشرة : « إن هذا الاتحاد مستحيل ، وغير معقول ، ومضر ، ولايمكن إرغام إخوان سان ماركو على قبوله ، لأن الرؤساء لا يحق لهم أن يصدروا أوامر تتعارض مع القواعد التى تسير عليها الطائفة ، أوتتعارض مع قانون الخير العام أوسلامة النفوس »[٢٦] . وإذ نظرنا إلى الأمر من الناحية الرسمية فإن جميع من يؤمون الأديرة يخضعون خضوعاً مباشراً للبابوات ؛ ومن حق البابا أن يضم هؤلاء كلهم ويوحد بينهم رغم إرادتهم ؛ بل إن سفنرولا نفسه قد وافق فى عام ١٤٩٣ على أمر أصدره الإسكندر بضم جماعة الدمنيكيين فى دير سانت كترين بمدينة پيزا إلى جماعة سفنرولا فى دير سان ماركو الذى يرأسه[٢٧] على أن الإسكندر لم يتخذ إجراء عاجلا ، وظل سفنرولا يخطب وأصدر إلى الجمهور سلسلة من الرسائل يدافع فيها عن تحديه للبابا .

ولما اقترب موعد الصوم الكبير من عام ١٤٩٧ أعد الكلاب الكلبية عدتهم للاحتفال بالعيد بإقامة المهرجانات ، والمواكب ، والأغانى بجميع المظاهر التى كانت متبعة فى أيام الميديتشيين . وأراد مساعد سفنرولا الأمين الراهب دمنيكو أن يحبط هذه الخطط ، فأمر الأطفال من أتباعه أن ينظموا هم

احتفالا يختلف عن الاحتفال السالف الذكر . فأخذ هؤلاء الأولاد والبنات في خلال الأسبوع السابق لأيام الصوم يطوفون بالمدينة في جماعات ، يدقون الأبواب ، ويرجون أو يطلبون في بعض الأحيان — أن يعطوا ما يسمونه « الأباطيل » أو الأشياء الملعونة (أناثيمازى Anathemase) — ويقصدون بها الصور التي يرون أنها بذيئة ، وأغاني الغرام ، وأقنعة أعياد المساخر وملابسها ، والشعر المستعار ، وملابس التنكر ، وأوراق اللعب ، والنرد ، والآلات الموسيقية ، ومستحضرات التجميل ، والكتب الخبيثة مثل *بكمرون* أو *صور جنتي مجيوري* . . . ولما حل اليوم الأخير من أيام المساخر وهو اليوم السابع من فبراير ، سار أشد الناس حماسة من أتباع سفنرولا في موكب رهيب وهم ينشدون الأناشيد خلف تمثال للطفل يسوع نحته دوناتلو يحمله أربعة أطفال في هيئة ملائكة إلى ميدان مجلس السيادة Piazza della Signoria . وكان قد أعد في ذلك الميدان من المواد القابلة للاشتعال هرم ضخم ارتفاعه ستون قدماً ومحيطه عند قاعدته مئتان وأربعون . وصفت على طبقات الهرم السبع أو ألقيت عليها جميع « الأباطيل » التي جمعت في خلال الأسبوع أو جيء بها وقتئذ لتحرق ، وكان منها مخطوطات وتحف فنية عظيمة القيمة ؛ وأشعلت النار في الكومة من أربع نقط ، ودقت أجراس قصر فيتشيو اتعلن هذا أول « حريق للأباطيل يقوم به أتباع سفنرولا(*) » .

ونقلت عظات الراهب في أيام الصوم ميدان الحرب إلى رومة ، ذلك أن الراهب ، وإن قبل المبدأ القائل بأن الكنيسة يجب أن يكون لها قسط تعتمد عليه من السلطة الزمنية ، قال إن ثروة الكنيسة هي سبب انحطاطها . ولم يكن هجومه عليها وقتئذ يقف عند حد :

« إن الأرض تسفك فيها أنهار الدماء ، ولكن القسس لا يعبئون بشيء من هذا ؛ بل إنهم ينشرون الموت الروحي بين الناس جميعاً بما يضربونه

(*) كان حرق الأباطيل بهذه الصورة من العادات القديمة التي يقوم بها الرهبان المبشرون .

لهم من المثل السيئة . لقد ابتعدوا عن الله ، فلا يعرفون من أسباب التقوى إلا أن يقضوا لياليهم مع العاهرات . . . وهم يقولون إن الله لايعنى قط بشئون العالم ، وإن كل شىء يحدث فيه مصادفة واتفاقاً ، وهم لا يؤمنون بأن المسيح موجود فى العشاء الربانى . . . تعالى إلى أيتها الكنيسة السفيهة . . . إن الله يقول : لقد وهبتك ثياباً جميلة ، ولكنك اتخذتها أصناما ، وجعلت من الأدعية المقدسة زينة وغرورا ، وجعلت العشاء الربانى سلعة تباع وتشترى . لقد أصبحت فى شهوانيتك عاهراً مجردة من الحياة ، وأنت أحط من الحيوان ، إنك من الفظائع الممقوتة . لقد كنت يوماً ما تشعرين بالخجل من آثامك ، أما الآن فقد فارقك الحياء ؛ وكان من مسحوا من رجال الدين يسمون أبناءهم أبناء إخوتهم وأخواتهم . أما الآن فهم يتحدثون صراحـة عن أبنائهم(*) ... والآن أيتها الكنيسة الفاجرة لقد كشفت عن خبثك ورذائلك للعالم أجمع وبلغ خبث رائحتك عنان السماء[٢٨] .

وكان سفنرولا يتوقع أن يؤدى هذا الهجاء القاذع إلى حرمانه من حظيرة الدين ، وقد رحب فعلا بهذا الحرمان فقال :

يقول الكثيرون منكم إن قرار الحرمان سيصدر ... أما أنا فإنى أتوسل إليك يا الله أن يعجل بهذا القرار . . . . فليحمل هذا الحرمان إلىّ على سن حربة ، ولتفتحوا له الأبواب ! وسأرد عليه ، وإذا لم يذهلكم هذا الرد فقولوا فىّ ما شئتم . . . إنى لا أبغى منك يارب إلا صليبك ! فلأضطهد ؛ إنى أسألك هذه النعمة ؛ لا تمتنى فى فراشى ، بل دعنى أقدم لك دمى ، كما قدمت أنت دمك لى[٢٩] .

وأوقدت هذه الخطب النارية لهيب الحماسة فى كافة أنحاء إيطاليا ، وهرع الناس من أقصى مدائنها للاستماع إليها ، وجاء دوق فرارا متخفياً ،

(*) إشارة إلى قول البابا إسكندر السادس الصريح عن أبنائه .

وفاضت الجماهير إلى الشوارع من الكنيسة ، وكانت كل عبارة جامعة محكمة تنقل ممن فى داخل الكنيسة إلى من فى خارجها . أما فى رومة فقد انقلب الناس على الراهب انقلاباً كاد يشمل جميع الأهلين وأخذوا يطالبون بإنزال العقاب به[٣٠] . وحدث فى إبريل من عام ١٤٩٧ أن سيطرت الكلاب الكلبة على المجلس وادعوا أن المدينة معرضة لخطر الطاعون ، فحرموا الخطابة تحريماً تاماً فى الكنائس بعد اليوم الخامس من شهر مايو . وانصاع الإسكندر إلى تحريض الكلبيين فوقع فى الثالث عشر من مايو قراراً بحرمان الراهب ، ولكنه أذاع فى الوقت عينه أنه مستعد لإلغاء هذا القرار إذا استجاب سفنرولا إلى أمره بالقدوم إلى رومة . وأصر الراهب على رفض الدعوة لأنه كان يخشى أن يزج به فى السجن ؛ ولكنه لزم الصمت ستة أشهر ؛ فلما حل عيد الميلاد أنشد فى سان ماركو نشيد القداس الأكبر(*) ، وقدم العشاء الربانى لرهبان ديره ، وسار على رأسهم فى موكب كبير حول الميدان . وروع كثيرون من الناس حين رأوا رجلا محروماً يحتفل بالقداس ، ولكن الإسكندر لم يعترض على هذا العمل ، بل فعل عكس هذا إذ لمح بأنه مستعد للرجوع فى قرار الحرمان إذا انضمت فلورنس إلى الحلف الذى يقاوم عودة فرنسا لغزو إيطاليا[٣١] . لكن مجلس السيادة رفض هذا الاقتراح ظناً منه أن الفرنسيين قد ينتصرون فى هذا الغزو ، وفى الحادى عشر من فبراير عام ١٤٩٨ بلغ عصيان سفنرولا غايته ، فقد خطب فى كنيسة سان ماركو فوصف قرار الحرمان بأنه قرار ظالم باطل ، واتهم بالمروق من الذين كل من يؤيد صحته ، وانتهى الأمر بأن أصدر هو قراراً بالحرمان قال فيه :

ومن أجل هذا فلتحل اللعنة **Anathema Sit** على من يصدر أوامر تتعارض مع الخير . ولو أن هذا الأمر قد نطق به ملك من السماء ، بل

(*) وهو الذى تصحبه الموسيقى ، والطقوس ، والمواكب ، والبخور . (المترجم)

نطقت به مريم العذراء نفسها ، ونطق به جميع القديسين (وهو مستحيل بلا ريب) لحلت عليهم اللعنة . . . وإذا ما نطق أى بابا بما يناقض هذا ، فليعلن حرمانه(٣٢) .

وقرأ سفنرولا صلاة القداس فى اليوم الذى قبل الصوم الكبير فى الميدان القائم أمام كنيسة سان ماركو ، وقدم العشاء الربانى لجمع غفير من الناس ودعا الله جهرة بقوله : « اللهم إن كنت غير مخلص فى أعمالى ، أو إن كانت ألفاظى غير موحى بها منك فأمتنى فى هذه الساعة » ، ونظم سفنرولا فى عصر ذلك اليوم حرقاً ثانيا للإباطيل .

وأبلغ الإسكندر مجلس السيادة أنه سيصدر قراراً بحرمان المدينة إذا لم يستطع هذا المجلس إقناع سفنرولا بأن يكف عن الخطابة ؛ لكن المجلس أبى أن يسكته وإن كان فى ذلك الوقت شديد العداء له ، وآثر أن يحمل البابا وحده عبء هذا القرار ؛ هذا إلى أن الراهب البليغ قد يكون ذا نفع فى مقاومة البابا الذى كان فى ذلك الوقت ينظم الولايات البابوية تنظيما يجعل منها قوة عظيمة تقلق بال جيرانها . وواصل سفنرولا خطبه ، ولكنه قصرها على كنيسة الدير ؛ وكتب سفير فلورنس فى رومة يقول إن عداء رومة للبابا قد اشتد إلى حد يعرض حياة أهل كل فلورنسى فيها للخطر ، وإنه يخشى إذا نفذ البابا ما هدد به من الحرمان فإن جميع التجار الفلورنسيين فى رومة قد يلقى بهم فى السجون . ولم يسع مجلس السيادة إلا الخضوع ، وأمر سفنرولا أن يكف عن عظاته (١٧ مارس) . وأطاع الراهب الأمر ، ولكنه تنبأ بأن فلورنس ستحل بها أشد الكوارث ؛ وشغل الراهب دمنيكو منبر الدير بدله ، وجعل نفسه الناطق بلسان الراهب ؛ وكتب سفنرولا فى خلال ذلك إلى ملوك فرنسا ، وأسپانيا وألمانيا ، وبلاد المجر ، يرجوهم أن يدعوا إلى عقد مؤتمر عام لإصلاح الكنيسة وجاء فى رسالته :

لقد حان وقت الانتقام ؛ وقد أمرنى الله أن أكشف عن أسرار جديدة ،

وأن أظهر للعالم الأخطار التى تهدد سفينة القديس بطرس نتيجة لطول إهمالكم . إن الكنيسة غاصة بكل ما هو ممقوت ومرذول من قمة رأسها إلى أخمص قدمها ، ومع ذلك فإنكم لا تكتفون بالسكوت عن إصلاح مساوئها بل إنكم تقدمون الولاء والخشوع للمتسببين فى هذه الرذائل التى تدنسها ؛ وقد غضب الله من هذا أشد الغضب ، وترك الكنيسة زمناً طويلا من غير راع ... ذلك بأنى بهذا أقر ... أن الإسكندر هذا ليس بابا ، ولا يمكن أن يكون بابا ؛ لأنه يغض الطرف عن الخطيئة المهلكة خطيئة الاتجار بالمقدسات والمناصب الكهنوتية التى ابتاع بها كرسى البابوية ، وهو فى كل يوم يبيع المناصب الكنسية لصاحب أكبر عطاء ؛ وإذا غضضنا النظر عن آثامه الأخرى البادية للعيان ، فإنى أعلن على رءوس الأشهاد أنه ليس مسيحياً ولا يؤمن بالله[٣٣] .

وأضاف إلى ذلك قوله إنه إذا عقد الملوك مجلساً فإنه سيمثل أمامه ويبرهن على صحة هذه التهم جميعها . واعترض أحد عمال ميلان على إحدى هذه الرسائل وبعث بها إلى الإسكندر .

قام راهب فرنسيسى فى الخامس والعشرين من شهر مارس عام ١٤٩٨ وسلط أضواء المسرحية على نفسه بأن خطب فى كنيسة سانتا كروتشى (الصليب المقدس) يتحدى سفنرولا ويدعوه إلى التحكيم الإلهى بوساطة النار ؛ واتهم فى خطابه الراهب الدمنيكى بأنه خارج على الدين ، ومتنبئ كذاب ، وعرض أن يخوض النار إذا قبل سفنرولا أن يحذو حذوه ؛ وقال إنه يتوقع أن يحترق كلاهما ، ولكنه يرجو أن تنجو فلورنس بهذه التضحية من الاضطراب الذى أحدثه فيها دمنيكى مزهو يعصى أوامر البابا . ورفض سفنرولا هذا التحدى لكن دمنيكو قبله . واغتنم مجلس السيادة هذه الفرصة التى سنحت له لكى يندد بالراهب الذى أصبح فى زعمه زعيما مهرجاً أثار فى المدينة كثيراً من المتاعب . وارتضى الالتجاء إلى أساليب العصور الوسطى ،

وأعد العدة لكى يدخل النار الراهب چوليانو رنديلى Giuliano Rondinelli أحد الرهبان الفرنسيس والراهب دمنيكو دا بستشيا Domenico da Pescia فى الپيانسا دلا سنيوريا (ميدان مجلس السيادة) .

واحتشد فى اليوم المحدد جمهور كبير فى الميدان العظيم ليستمتع بالنظر إلى معجزة من المعجزات أو إلى عذاب يحل ببنى الإنسان ، واحتل النظارة كل نافذة وكل سقف يطل على هـــذا المنظر . وأعدت فى وسط الميدان كومتان متماثلتان من الخشب الممزوج بالقار ، والزيت ، والراتنج ، والبارود تعترضان طريقاً عرضه قدمان ، وتضمنان اشتعال لهب شديد . واتخذ الرهبان الفرنسيس موقفهم فى اللوجيا دى لاندسى Loggia dei Lanzi ، وأقبل الرهبان الدمنيك من الاتجاه المقابل لهم ؛ وكان الراهب دمنيكو يحمل قرباناً مقدساً ، بينا كانا سڤنرولا يحمل الصليب . وشكا الفرنسيس من أن قلنسوة الراهب الدومنيكى الحمراء قد سحرها رئيس الدير حتى أضحت غير قابلة للاحتراق ؛ وأصروا على أن يخلعها ؛ واحتج الراهب الدومنيكى على هذا الطلب ولكن الجماهير ألحت عليه بالامتثال ففعل . ثم طلب إليه الفرنسيس أن يخلع أثوباً أخرى ظنوا أنها هى أيضاً قد تكون مسحورة ؛ وارتضى دمنيكو هذا ، وسار إلى مجلس السيادة واستبدل بثيابه ثياب راهب آخر . وألح الفرنسيس مرة أخرى أن يحرم عليه الاقتراب من سڤنرولا ، لئلا يعود إلى التأثر بسحره ؛ وارتضى دمنيكو أن يحيط به الرهبان الفرنسيس ؛ وعارضوا فى أن يخوض النار وهو يحمل الصليب أو القربان المقدس ، فأعطاهم الصليب ولكنه أبى أن يعطيهم القربان ، وأعقبت هذا مناقشة فقهية بين سڤنرولا والرهبان الفرنسيس خلاصتها هل يحترق المسيح مع ظاهر القربان المقدس أو لا يحترق معه . وظل البطل الفرنسيسى فى خلال هذه المدة فى القصر يرجو مجلس السيادة أن ينقذه بوسيلة ما ؛ وأطال الرهبان الجدل حتى أقبل الليل وخيم الظلام ، ثم أعلنوا أن التحكيم الإلهى ان يحدث ...

وغضبت الجماهير لهذا الخداع الذى حرمهم رؤية الدم المسفوك ، وهاجموا القصر لكنهم صدوا ، وحاول بعض الكلاب الكلبة أن يعتقلوا سفنرولا ، ولكن حراسه دفعوهم عنه ، وعاد الدمنيك إلى سان ماركو وسط سخرية الجماهير وإن كان من الواضح أن الفرنسيس هم الذين كانوا السبب الأكبر فى هذا التأخير : وشكا الكثيرون من أن سفنرولا قد سمح بأن يمثله دمنيكو فى التحكيم الإلهى بل أن يواجهه بنفسه ، بعد أن أعان أنه يتلقى الوحى من الله ، وأن الله سيحميه . وانتشرت هذه الأفكار فى المدينة ، ولم يكد ينقضى الليل حتى تنحى أتباع رئيس الدير عنه .

وكان اليوم التالى هو أحد السعف ، وفيه سارت الغوغاء من جماعة الكلاب الكلبة وغيرهم تريد مهاجمة دير سان ماركو ، وقتلوا فى طريقهم بعض الباكين من بينهم فرانتشسكو ڤالورى ؛ ولما أطلت زوجته من النافذة حين سمعت بصراخه رميت بسهم أرداها قتيلة ، ونهب بيته وحرق ، وقتل أحد أحفاده خنقاً ودق جرس سان ماركو يدعو الباكين إلى النجدة ، ولكنهم لم يلبوا النداء ، واستعد الرهبان للدفاع عن أنفسهم بالسيوف والهراوات ؛ وأمرهم سفنرولا بأن يضعوا أسلحتهم ولكن أوامره ذهبت أدراج الرياح ، ووقف هو نفسه أعزل أمام المحراب ينتظر الموت . واستبسل الرهبان فى الكفاح ، وأخذ الراهب إنريكو يضرب بسيفه وهو مبتهج ابتهاج غير رجال الدين ، ويصرخ عند كل ضربة صرخة مدوية-قائلا : أنج شعبك يارب Salvum fuc populum tuum Domine . ولكن الجماهير الغاضبة كانت أكثر من أن يطيقها الرهبان ؛ وأقنعهم سفنرولا فى آخر الأمر أن يضعوا أسلحتهم . ولما أن جاء الأمر من مجلس السيادة باعتقاله هو ودمنيكو ، استسلم الرجلان ، وسيقا وسط الجماهير التى أخذت تسخر منهما ، وتضربهما بالأيدى ، وتركلهما بالأقدام ، وتبصق عليهما ، وأودعا زنزانتين فى قصر ڤيتشيو ، وضم الراهب سلفستر و إلى السجينين فى اليوم الثانى .

وبعث مجلس السيادة إلى البابا اسكندر بأنباء التحكيم الإلهى والقبض على الرهبان ، ورجاه أن يعفو عما وقع على أحد رجال الدين من عنف ، وطلب إليه أن يأذن بتقديم المسجونين إلى المحاكمة ، وأن يعذبا إذا استدعى الأمر تعذيبهم . وطلب البابا أن يرسل الرهبان الثلاثة إلى زومة ليحاكموا أمام محكمة كنسية ؛ فرفض مجلس السيادة هذا الطلب ، ولم يسع البابا إلا أن يقنع بأن يشترك مندوبان بابويان فى محاكمة المتهمين(٣٤) . وكان مجلس السيادة يصر على إعدام سفنرولا ، وذلك لاعتقاده أن حزبه سيبقى قائماً ما دام هو حياً وأن موته هو الذى يرأب الصدع الذى قسم المدينة والحكومة على نفسهما حتى أصبح حلفها مع فرنسا عديم القيمة لا تخشاه أية دولة أجنبية ، وأضحت فلورنس بسبب ذلك مُعَشِشاً للمؤامرات الأجنبية فى الداخل ومعرضة للغزو من الخارج .

وجرى المحققون على الشريعة التى سنتها محكمة التفتيش فأخذوا يعذبون الرهبان الثلاثة عدة مرات بين اليوم التاسع من أبريل واليوم الثانى والعشرين من مايو . وانهار سلفسترو على الفور ، ولم يتردد فى أن يجيب المحققين إلى كل ما رغبوا فيه حتى كانت اعترافاته عديمة القيمة بسبب الإفراط فى يسرها . أما دمنيكو فقد ظل يقاوم ؛ حتى النهاية وحتى بعد أن عذب عذاباً كاد يؤدى به إلى الموت ظل يجهر بأن سفنرولا قديس لا تشوبه شائبة من خداع أو إثم . وتوترت أعصاب سفنرولا وخارت قواه فلم يلبث أن انهار تحت ضغط التعذيب ، وأدلى أمام المحققين بكل ما أوحوا إليه به . فلما أفاق أنكر ما اعترف به ، فعذب وعاد إلى الخضوع . ولما تكرر عذابه للمرة الثالثة تحطمت روحه وأمضى اعترافاً مهوشاً بأنه لم يتلق وحياً إلهياً ، وأنه آثم فى كبريائه وأطماعه ، وأنه حث قوى أجنبية زمنية على أن تعقد مجلساً عاماً للكنيسة ، وأنه دبر مؤامرة لخلع البابا . وأدين الرهبان الثلاثة بأنهم منشقون خارجون على الدين ، وأنهم أذاعوا أسرار الاعترافات وادعوا

أنها رؤى ونبوءات وأنهم أشاعوا الفرقة والاضطراب فى الدولة ؛ وحكم عليهم بالإعدام باتفاق الدولة والكنيسة وتفضـــل الإسكندر فبعث إليهم بالغفران .

وتفذت الجمهورية العاقة قاتلة أبيها فى الثالث والعشرين من شهر مايو عام ١٤٩٨ حكم الإعدام فى منشئها ورفاقه . واقتيدوا حفاة مجردين من ثيابهم الكهنوتية إلى ميدان مجلس السيادة الذى حرقوا فيه « الأباطيل » مرتين ، واحتشدت جماهير كثيرة لتشاهد هذا المنظر كما احتشدت من قبل لتشاهد منظر التحكيم الإلهى ، ولكن الحكومة أمدتهم فى هذه المرة بحاجتهم من الطعام والشراب . وسأل أحد القساوسة سفنرولا « بأى روح تتحمل هذا الاستشهاد ؟ » فرد عليه بقوله : « ما أكثر ما تعذب الرب من أجلى ! » وقبل الصليب الذى كان معه ولم ينبس بعد ببنت شفة . وسار الرهبان بجنان ثابت ليلقوا مصيرهم المحتوم ، وكاد الطرب يستخف دمنيكو فأخذ ينشد تسبيحه الشكر لله الذى أنعم عليه بنعمة الاستشهاد . وشنق ثلاثتهم وتركوا معلقين ، وسمح للصبيان أن يرشقوهم بالحجارة وهم فى حشرجة الموت . وأوقدت تحتهم نار حامية أحالت جثتهم رماداً ؛ ثم ألقى الرماد فى نهر الأرنو لئلا يعبده الناس بوصفه بقايا القديسين . وجاء بعض الباكين يتحدون الإحراق بالنار فركعوا فى الميدان وأخذوا ينتحبون ويصلون ؛ وظلت الأزهار تنثر فى صباح اليوم التالى للثالث والعشرين من مايو فى كل عام حتى عام ١٧٠٣ فى البقعة التى سقطت فيها دماء الرهبان ساخنة : وترى اليوم لوحة فى أرض الميدان المرصوفة تشير إلى أشنع جريمة وقعت فى تاريخ فلورنس .

وبعد فقد كان سفنرولا هو العصور الوسطى بعثت حية فى عصر النهضة ، وكانت النهضة هى التى قضت عليه ؛ وكان يشهد انحلال إيطالية

الأخلاقى بفعل الثروة ، كما يشهد اضمحلال العقيدة الدينية ؛ ووقف مستبسلا ، متعصباً ، ولكنه وقف عبثاً ، فى وجه روح العصر المتشككة ، الشهوانية . لقد ورث الرجل ما كان يتصف به القديسون فى العصور الوسطى من غيره أخلاقية وسذاجة عقلية ، وبدا أنه لا مكان له فى عالم يسبح بحمد بلاد اليونان الوثنية التى عثر عليها من جديد . وأخفق الرجل فى هدفه وكان إخفاقه نتيجة قصور عقله وأنانيته التى نستطيع أن نغفرها له ، وإن كانت تضايقنا ؛ وكان يغالى فى استنارة عقله وفى كفايته ، ويستخف استخفاف الساذج الطيب القلوب بما تتطلبه مقاومة سلطان البابوية وغرائز الآدميين من قوة ليست له . ولقد روعته أخلاق الإسكندر ترويعا نستطيع أن ندرك سببه ، ولكنه كان عنيفاً فى اتهاماته عنيداً فى سياسته . لقد كان بروتستنتيا قبل أن يجيء لوثر ، ولكن بروتستنتيته لم يكن لها معنى إلا أنها الدعوة لإصلاح الكنيسة ؛ ولم يكن يشارك لوثر فى شيء من آرائه الدينية المخالفة لآراء الكنيسة القائمة ، ولكن ذكراه أصبحت قوة تملأ عقول البروتستنت ؛ ولذلك لقبه لوثر بالقديس وكان أثره فى الأدب ضئيلا لأن الأدب كان وقتئذ فى أيدى المتشككين والواقعيين أمثال مكيفلى وجولتشياردينى Guicciardini ، أما أثره فى الفن فكان عظيما إلى أبعد حد . وقد كتب الراهب بارتولوميو على صورته يقول : « صورة جيرولاما من أهل فرارا ، النبى المبعوث من عند الله » . وقد تحول بتيتشيلى من الوثنية إلى التقى والصلاح بتأثير مواعظ سفنرولا ، وكثيراً ما كان ميكل أنجيلو يستمع إلى الراهب ويقرأ عظاته فى خشوع ، وكانت روح سفنرولا هى التى حركت الفرشاة فى سقف معبد سستينى Sistine ورسمت وراء المحراب صورة يوم الحساب .

أما عظمة سفنرولا فترجع إلى ما بذله من الجهد لإحداث ثورة أخلاقية

فى فلورنس ، ولحث الناس على أن يكونوا أشرافاً ، صالحين ، عادلين .
ونحن نعرف أن هذه أشق الثورات كلها ، ولا ندهش لأن سفنرولا أخفق
فيما أفلح فيه المسيح ، وهو أن يصلح قلة ضئيلة يرقى لها من الخلائق ؛
ولكننا نعرف أيضاً أن ثورة كهذه هى وحدها التى تؤدى إلى تقدم حق
فى شئون الخلق ، وأن تقلبات التاريخ إذا قيست إليها كانت مناظر عارضة
سريعة الزوال عديمة الأثر ، إن بدلت شيئاً فلن تبدل الإنسان .

الفصل الرابع

الجمهورية والميديتشيون

١٤٩٨ – ١٥٣٤

لم يخفف موت سفنرولا من الفوضى التى كادت تجعل البلاد بلا حكومة أيام سلطانه . ذلك أن الفترة القصيرة التى لم تكن تدوم إلا ثلاثة شهور ، وهى التى كان يقضيها أعضاء مجلس السيادة وحامل الأختام فى مناصبهم ، كانت تقضى على الاستمرار الواجب فى الهيئة التنفيذية ، وتبعث فيها قلقاً أشبه بقلق المحموم ، وتؤدى إلى الفساد وعدم الإحساس بالتبعة . وحاول المجلس فى عام ١٥٠٢ ، وكانت تسيطر عليه وقتئذ أقلية ظافرة من أصحاب المال ، أن يتغلب على بعض هذه الصعوبة بأن يختار حامل الشعار على أن يبقى فى منصبه طول حياته حتى يستطيع مواجهة البابوات الحكام الزمنيين على قدم المساواة ، وإن ظل مع ذلك خاضعاً لمجلس السيادة ومجلس الحكام ٥ وكان أول من حظى بهذا الشرف پيتروسدرينى ، وهو من أصدقاء الشعب الأثرياء ، وكان وطنياً أميناً . لم يؤت من قوة العقل والإرادة درجة كبرى تهدد فلورنس بالدكتاتورية . واستخدم مكيڤلى فيمن استخدمهم من المستشارين ، وساس البلاد بحكمة وراعى جانب الاقتصاد ، واستعان بأمواله الخاصة على العودة إلى مناصرة الفنون التى انقطع حبلها فى عهد سفنرولا . واستبدل مكيڤلى بتأييد منه بجنود فلورنس المرتزقة مجندين من أهلها ، اضطروا پيزا آخر الأمر (١٥٠٨) إلى قبول « الحماية » الفلورنسية مرة أخرى .

ولكن السياسة الخارجية التى اتبعتها الجمهورية أوقعت البلدة فى عام ١٥١٢ فى الكارثة التى تنبأ بها الإسكندر السادس . ذلك بأن فلورنس

أصرت على الاستمساك بحلفها مع فرنسا طوال المدة التى كان فيها « الحلف المقدس » المكون من البندقية ، وميلان ، ونابلى ، وروما يبذل الجهود تلو الجهود ليطهر إيطاليا من الغزاة الفرنسيين . فلما توجت جهود الحلف بالنصر ولى وجهه شطر فلورنس لينتقم منها وسير إليها جنوده لكى يستبدلوا الأبلاركية الجمهورية بدكتاتورية ميديتشية . وقاومت فلورنس جنود الحلف ، وبذل مكيڤلى جهودا جبارة لتنظيم وسائل الدفاع عنها . واستولى الغزاة على براتو Prato حصنها الأمامى ونهبوه ، وولى عساكر مكيڤلى الأدبار أمام جنود الحلف المرتزقين المدربين ؛ واستقال سدرينى حتى لا يطول سفك الدماء ، ودخل جوليانو ده ميديتشى ابن اورندسو فلورنس ، بعد أن نفح الحلف بعشرة آلاف دوقة (٢٥٠,٠٠٠ دولار) ، فى حماية الجنود الأسپانية والجرمانية ، والإيطالية ؛ وسرعان ما انضم إليه أخوه الكردنال چيوڤنى ؛ وألغى دستور سڤنرولا ، وأعيدت سيادة آل ميديتشى على فلورنس ؛

وسلك چيوڤنى وجوليانو مسلك الحكمة والاعتدال ، وارتضى الشعب هذا التغيير بعد أن أتخمه طول الاستثارة والاهتياج . ولما أن أصبح چيوڤنى هو البابا ليو العاشر (١٥١٣) ، وتبين أن جوليانو أرق وأظرف من أن يكون حاكماً ناجحاً ، أسلم حكم فلورنس إلى ابن أخيه اورندسو ، ومات هذا الشاب الطموح بعد ست سنين من حكم الاستهتار ؛ وخلفه الكردنال جويليو ده ميديتشى Giulio de' Medici ، ابن جوليانو الذى قتل فى مؤامرة پاتسى Pazzi ، فأدار شئون فلورنس بكفاية ممتازة ؛ ولما أن أصبح هو البابا كلمنت السابع (١٥٢١) حكم المدينة وهو جالس على كرسى البابوية ؛ وانتهزت فلورنس فرصة الكوارث التى حلت به فطردت منها ممثليه (١٥٢٧) ، وظلت أربع سنين تستمع مرة أخرى بتجارب الحرية ؛ ولكن كلمنت خفف بالدبلوماسية وقع الهزيمة ، واستخدم جنود شارل

الخامس ليثأر لأقاربه المطرودين . وزحف جيش من الأسپان والجرمان على فلورنس (١٥٢٩) ، وأعاد قصة عام ١٥١٢ ؛ وقاومت المدينة مقاومة الأبطال ولكنها لم تجدها نفعا ، وبدأ ألسندرو ده ميديتشى Aiessandro de Medici (١٥٣١) عهداً من الظلم ، والوحشية ، والفجور لم يسبق له مثيل فى سجلات أسرته ؛ ومضت بعد ذلك ثلاثة قرون قبل أن تذوق فلورنس طعم الحرية مرة أخرى .

الفصل الخامس

الفن فى عهد الجمهورية

إن عصر الاهتياج السياسى يكون فى العادة حافزاً قوياً للأدب ؛ وسندرس فيما بعد كاتبين من الطراز الأول — مكيڤلى وجوتسياردينى Guicciardini — كانا من كتاب تلك الفترة . لكن الدولة المشرفة على هاوية الإفلاس ، والتى لاتكاد تخرج من ثورة إلا إلى ثورة ، لا تكون صالحة لنماء الفنون — وهى أقل ما تكون صلاحاً لنماء العمارة بوجه خاص ؛ ومع هذا فقد وجد عدد من الرجال الأغنياء ، أوتوا من البراعة ما يستطيعون به أن يطفوا فوق الفيضان الجارف ، فظلوا يتحدون الحظ العاثر بإقامة القصور . من ذلك أن چيوڤنى فرانتشيسكو ، وأرسطوطيلى دا سنجلو Aristotele da Sangallo ، أقاما قصراً فخماً لأسرة پندلفينى Pandolfini بناء على تصميم من عمل رفائيل . وخطط ميكل أنچيلو بين عامى ١٥٢٠ ، ١٥٢٤ غرفة مقدسات جديدة Nuova Sagrestia لكنيسة سان لورندسو بتكليف من الكردنال جويليو ده ميديتشى — تتكون من فناء مربع بسيط ، وقبة متواضعة يعرفها العالم كله بأنها موطن أجمل ما نحته ميكل أنچيلو وهو مقابر الميديتشيين .

وكان بين منافسى هذا الفنان الجبار المثال پيترو ترجيانو Pietro Torrigiano الذى كان يعمل معه فى حديقة التماثيل التى أنشأها لورندسو ، والذى جدع أنفه ليؤيد بذلك حجة له . وغضب لورندسو من هذا العمل العنيف غضباً اضطر ترجيانو من أجله أن يلجأ إلى رومة ويصبح جندياً فى خدمة سزارى بورچيا ، وأظهر بسالة عظيمة فى كثير من المعارك ، واتخذ سبيله إلى إنجلترا ، وخطط فيها إحدى آيات الفن الإنجليزية وهى قبر

هنرى السابع فى دير وستمنستر (١٥١٩) . ونحت بعدئذ(١) وهو يطوف فى أسبانيا طواف القلق المضطرب ، تمثالا جميلا للعذراء والطفل كلفه به دوق أركوس Arcos ، ولكن الدوق لم يكافئه عليه بما يستحق ، فحطم التمثال ، وانتقم منه الدوق بأن اتهمه لدى محكمة التفتيش بالمروق من الدين ، وحكم على ترجيانو بعقوبة شديدة ، ولكنه فوت على أعدائه غرضهم بأن أضرب عن الطعام حتى مات جوعا .

ولم تشهد فلورنس فى فترة من تاريخها مثل ذلك العدد الجم من الفنانين الذى شهدته فى عام ١٤٩٢ ؛ ولكن كثيرين منهم فروا منها بسبب ما كانت تموج به من اضطراب ، وخصوا بشهرتهم أماكن غيرها ؛ فذهب ليوناردو إلى ميلان ، وميكل أنجيلو إلى بولونيا ، وأندريا سانسوڤينو Andrea Sansovino إلى لشبونه واتخذ سانسوڤينو لقبه من جبل سان سوڤينو ، وأذاع شهرته إلى حد نسى معه الناس اسمه الحقيقى وهو أندريا دى دمنيكو كنتوتشى Andrea di Domenico Contucci . وكان أندريا ابن عامل فقير ولكنه أولع أشد الولع بالرسم وبعمل نماذج من الصلصال ؛ وأرسله رجل رحيم من أهل فلورنس إلى مرسم أنطونيو دل بولايولو ؛ وسرعان ما نضج الغلام فشاد فى كنيسة سانتو أسپريتو معبد القربان المقدس ، وصنع فيه تماثيل ونقوشا بارزة « بلغت من القوة والجودة » كما يقول ڤاسارى « درجة لا يجد الإنسان معها أى عيب فيها » ، ثم وضع أمام المعبد دريئة مصبعة من البرنز بلغت من الجمال حداً لا يسع الإنسان معه إلا أن يحبس أنفاسه عند النظر إليها . ورجا چون الثانى ملك البرتغال لورنسو أن يبعث إليه بالفنان الشاب ؛ وذهب إليه أندريا وظل عنده تسع سنين يكدح فى النحت والعمارة . وعاوده الحنين إلى إيطاليا ، فعاد إلى فلورنس (١٥٠٠) ، ولكنه سرعان ما غادرها إلى چنوى ، ثم انتهى به المطاف إلى رومة ، وأنشأ فى كنيسة سانتا ماريا دل پوپولو قبرين من الرخام — للكردنالين اسفوردسا — وبسو دلا روڤيرى Basso della Rovere نالا أعظم الثناء فى مدينة تزدحم وتشتد (١٥٠٥ — ١٥٠٧) بالعباقرة .

وأرسله ليو العاشر إلى لوريتو Loreto حيث زين بين عامى ١٥٢٣ و ١٥٢٨ كنيسة سانتا ماريا بمجموعة من النقوش البارزة مستمدة من حياة العذراء ، وبلغت من الجمال حداً بدا معه الملك فى صورة البشارة كأنه « من السماء لا من الرخام » ، على حد قول ڤاسارى ، ثم آوى أندريا بعد قليل من ذلك الوقت إلى ضيعة قريبة من موطنه مونتى سان ساڤينو ، وعاش فيها عيشة الفلاح المجد حتى توفى فى عام ١٥٢٩ فى الثامنة والستين من عمره .

وكانت أسرة دلا ربيا dell Robbia فى هذه الأثناء تواصل العمل بأمانة ومهارة فى أشغال الصلصال المزجج ؛ وطال عمر أندريا دلا ربيا أكثر مما طال عمر عمه الذى بلغ خمسة وثمانين عاماً ، وأوتى بذلك من الوقت ما مكنه من أن يدرب على فنه ثلاثة من أبنائه هم چيوڤنى ، ولوكا ، وجرولو . وقد بلغت أشغال أندريا فى الصلصال المحروق من بريق اللون والرقة حداً يذهل معه زائر المتحف ، فيبهر عينه ويمسك قدمه فلا يستطيع التحرك من مكانه . وقد امتلأت حجرة فى البرجيلو Bargello بروائع من صنع يده ، وامتاز مستشفى المبرئين بالزخارف الهلالية التى زين بها صورة البشارة . ونافس چيوڤنى دلا ربيا أباه أندريا فى مهارته الممتازة التى يتبينها الإنسان فى البرجيلو واللوڤر ؛ وكاد آل دلا ربيا يقصرون جهودهم على الموضوعات الدينية مدى ثلاثة أجيال كاملة ، وكانوا من أشد أنصار سڤنرولا وأعظمهم تحمساً لآرائه ، وانضم ثلاثة من أبناء أندريا إلى إخوان سان ماركو يطلبون النجاة مع الراهب .

وكان الرسامون يحسون أعمق الإحساس بتأثير سڤنرولا ، وقد أخذ لورندسو ده كريدى Lorenzo de Credi فنه عن ڤيرتشيو Verrocchio ، وحاكى طراز ليوناردو زميله فى الدرس ، وأخذ رقة صوره الدينية من التقوى التى بعثها فيه بيان سڤنرولا ومصيره المفجع ، وقضى نصف عمره يعمل فى تصوير العذراء ؛ حتى لا يكاد يخلو مكان من هذه الصور ،

فنحن نراها فى رومة ، وفلورنس ، وتورين ، وأثنيون ، وكليفلند :
ووجوه هذه الصور غير متقنة ، وأثوابها فخمة ، ولربما كانت أحسنها كلها
صور البشارة المحفوظة فى متحف أفيزى . ولما بلغ لورندسو الثانية والسبعين
من العمر وأحس بأن الوقت قد حان للتحلى بمظهر القداسة ، ذهب ليعيش
مع رهبان سانتا ماريا نوفو ؛ ومات فى ذلك المكان بعد ست سنين من
ذهابه إليه .

واتخذ پيرو دى كوزيمو Piero di Cosimo لقبه من معلمه كوزيمو
روسلى Cosimo Rosselli لأن « من يدرب الكفايات ، ويزيد من سعادة
الإنسان أب بحق لا يقل شأناً عن أبى الإنسان الذى ولده »[٣٥] . وأيقن
كوزيمو أن تلميذه قد بزّه ؛ فلما استدعاه سكستس الرابع لزخرفة معبد
سستينى صحب پيرو معه ؛ وهناك رسم پيرو صورة **هلاك جند فرعون فى
البحر الأحمر** وسط مناظر طبيعية مكتئبة من الماء ، والصخر ، والسماء الملبدة
بالغيوم . وقد خلف لنا صورتين عظيمتين كلتاهما فى متحف لاهاى وهما
صورتا جوليانو دا سنجلو وفرانتشيسكو دا سنجلو . ووهب پيرو نفسه
كلها للفن ، فقلما كان يعنى بالمجتمعات أو بالصداقة ؛ وكان يعشق الطبيعة
والوحدة ، وينهمك فى الصور والمناظر التى يصورها . ومات الرجل
وحيداً دون أن يعترف ، بعد أن أخذ عنه فنه تلميذان تفوقا على أستاذهما
كما تفوق هو على أستاذه من قبل : نعنى بهما الراهب بارتولميو وأندريا
دل سارتو Andrea del Sarto

واتخذ باتشيو دلا پورتا Baccio della Porta لقبه من باب سان پيرو
الذى كان يعيش عنده ، فلما انضم إلى طائفة الرهبان سمى الأخ بارتولميو
Fra Bartolommeo ؛ وبعد أن درس الفن مع كوزيمو روسلى ، وپيرو
دى كوزيمو اتخذ لنفسه مرسما مع ماريتو البرتنلى ، وشاركه فى رسم عدة
صور ، وظل وثيق الصلة به ، صديقاً وفياً له ، حتى فرق بينهما الموت :

وكان بارتولميو شاباً متواضعاً ، حريصاً على طلب الفن ، ينطبع فيه كل تأثير ، ظل فترة من الزمن يسعى للحاق بليوناردو ، والوصول إلى بعض ما وصل إليه ؛ ولما جاء روفائيـــل إلى فلورنس درس معه باتشيو فن المنظور والطرق المثلى لمزج الألوان ؛ ثم زار روفائيل بعدئذ فى رومة ، ورسم معه صورة فخمة نبيلة هى **رأس القديس بطرس** ، ثم شغف حباً بطراز ميكل أنجيلو الفخم الرائع ، ولكنه كانت تعوزه الشدة الرهيبة التى يمتاز بها ذلك الغاضب ؛ ولما حاول بارتولميو ذلك العمل الضخم فقد وهو يحاول تكبير آرائه البسيطة ما كان فى صفاته هو من سحر وفتنة — ونعنى بتلك الصفات ما كان فى ألوانه من غنى وعمق وتظليل رقيق ، وما فى تواليفه من تناسب فخم رائع ، وما فى موضوعاته من تقوى وعاطفة .

وتأثر أشد التأثر بعظات سفنرولا ، وجاء إلى حرق الأباطيل بجميع ما صور من الأجسام العارية ، ولما هاجم أعداء الراهب دير سان ماركو (١٤٩٨) انضم إلى المدافعين عنه ، وأقسم فى أثناء ذلك الاشتباك أن ينضم إلى سلك الرهبان إذا نجا من الموت ؛ وبر بقسمه فدخل دير الرهبان الدمنيك فى پراتو Prato ، وظل خمس سنين ممتنعاً عن التصوير ، منهمكاً فى ممارسة الشعائر الدينية ؛ ولما انتقل إلى دير سان ماركو رضى أن يضم روائعه الفنية المرسومة بالألوان الزرقاء ، والحمراء ، والسوداء إلى مظلمات الراهب أنچيلكو الوردية : وصور فى مطعم هذا الدير صورتين إحداهما للعذراء والطفل ، والثانية ليوم الحساب ؛ كما صور فى طريقه المقنطر المسقوف صورة للقديس سبستيان ؛ ورسم فى صومعة سفنرولا صورة قوية للراهب متنكراً فى زى القديس الشهير بطرس ، وكانت صـــورة **القديـــس سبستيان** الصورة العارية الوحيدة التى صورها بعد الانضمام إلى سلك الرهبان ؛ وقد وضعت هذه الصورة أولا فى كنيسة سان ماركو ، ولكنها بلغت من الجمال حداً اعترفت معه بعض النساء بأنها بعثت فى نفوسهن

أفكاراً خبيثة ، فما كان من الراهب إلا أن باعها إلى رجل من أهل فلورنس أرسلها إلى ملك فرنسا . وظل الراهب بارتوليو يرسم الصور حتى عام ١٥١٧ حين شل المرض يديه فلم يقو على أن يمسك الفرشاة ، ثم مات في تلك السنة وهو في الخامسة والأربعين من عمره .

وكان منافسه الوحيد على مركز السيادة بين المصورين الإيطاليين في عصره تلميذاً آخر من تلاميذ پيرو دى كوزيمو ، ذلك هو أندريا دمنيكو دانيولو دى فرانتشيسكو ڤينوتشي Andrea Domenico d'agnolo di Francesco Vennuci المعروف لنا باسم أندريا دل سارتو Andrea del Sarto لأن أباه كان خياطاً . ونضج الرجل نضوجاً سريعاً كما ينضج معظم الفنانين في عصر النهضة ، فقد بدأ تدريبه وهو في السابعة من عمره . ودهش پيرو من براعة الشاب في التصميم ، ولاحظ وهو فرحان جذل كيف كان أندريو في أيام العطلة التي يغلق فيها المرسم يقضي وقته في عمل صور في الرسوم التمهيدية التي كان يصنعها ليوناردو وميكل أنچيلو لقاعة الخمسمائة في قصر فيتشيو . ولما أن أصبح پيرو في شيخوخته رجلا شاذاً غريب الأطوار ، اتخذ أندريا وفرانشيابجيو Franciabigio زميله في الدرس مرسماً خاصاً بهما ، وظلا فترة من الزمن يعملان معاً . ويلوح أن أندريا بدأ حياته المستقلة بأن صور في فناء كنيسة البشارة Annunziata (١٥٠٩) خمسة مناظر مأخوذة من حياة سان فليپو بنتسي San Filippo Benizzi ، وهو نبيل فلورنسي أنشأ طائفة الرهبان الخادمين لعبادة مريم العذراء خاصة . وتمتاز هذه المظلمات ، رغم ما أصابها من عوادى الزمان وتعرضها للجو ، ببراعة التنفيذ ، والتأليف ، ووضوح القصص ، ومزج الألوان المتناسقة القوية حتى أصبح هذا الفناء في هذه الأيام كعبة يحج إليها المولعون بالفن إذا زاروا فلورنس . وقد اتخذ أندريا نموذجاً لإحدى صور النساء تلك المرأة التي أضحت زوجة له أثناء قيامه بهذه الرسوم — نعني بها لكريدسيا دل

فيدى Luerezia del Fede وهى سليطة جميلة ظل وجهها الأسمر ، وشعرها الفاحم يراودان خيال الفنان إلى ما قبل وفاته .

وشرع أندريا وفرانتشيابجيو فى عام ١٥١٥ يعملان طائفة من المظلمات فى طرقات دير إخوة أسكالسو Scalzo ، واختارا موضوعاً لها حياة القديس يوحنا المعمدان ؛ ولكن يد أندريا بلا ريب هى التى أظهرت خصائصها فى طائفة من الصور ؛ فقد رسم صور الأناث بكل ما فيها من كمال الشكل والتركيب . وتلقى فى عام ١٥١٨ دعوة من فرانسس الأول بالمجىء إلى فرنسا . فقبل دعوته ورسم صورة الصدقة المعلقة فى متحف اللوفر ؛ غير أن زوجته التى تركها فى فلورنس رجته أن يعود ؛ وأذن له الملك بالعودة بعد أن تعهد بالرجوع إلى فرنسا ، وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ليبتاع له تحفاً فنية من إيطاليا . لكن أندريا أنفق مال الملك فى بناء بيت له ولم يعد قط إلى فرنسا . ولما أوشك على الإفلاس رغم هذا عاد إلى التصوير ورسم لطرقات كنيسة البشارة آية من آياته الفنية يصفها ڤاسارى بأنها : « بتصميمها ، وظرفها ، وبراعة ألوانها ، وحيويتها ، ونقوشها ، لا تترك مجالا للشك فى أنه يسمو بمراحل طويلة على جميع من سبقوه » — ومنهم ليوناردو وروفائل[٢٦] . وقد تلفت هذه الصورة ، صورة عذراء الكيس ؛ Madonno del socco — وهو اسم سخيف سميت به لأنها تصور مريم ويوسف متكئين على كيس — ولم تعد تكشف عما كانت عليه من روعة الألوان وبهجتها ؛ ولكن تركيبها الذى يبلغ حد الكمال ، وألوانها الرقيقة المتناسقة ، وتمثيلها للأسرة تمثيلا هادئاً — بما فيها يوسف ، وقد أصبح فجأة قادراً على القراءة ، فأخذ يقرأ فى كتاب — كل هذا يضعها فى مصاف أعظم الصور فى عصر النهضة .

وصور أندريا فى مطعم دير سلڤى Selvi صــــورة العشاء الأخير (١٥٢٦) يتحدى بها ليوناردو ، واختار لها نفس الساعة ونفس الموضوع :

« سيخونني واحد منكم » . وكان أندريا أكثر جرأة من ليوناردو ، إذ أكمل في صورته وجه المسيح ؛ ولكنه هو أيضاً قصر عن بلوغ العمق الروحي ، والرقة والفطنة التي نعهدها في عيسى ، غير أن صور الرسل واضحة تتميز كل منها عن الأخرى تمييزاً يثير الدهشة ، والمعاني التي تبرزها واضحة ؛ والتلوين غزير ، هادئ ، كامل ؛ والصورة حين ينظر إليها الإنسان من مدخل قاعة الطعام تخدعه فلا يستطيع أن يحاجز نفسه عن الظن بأنها تمثل منظراً من الأحياء .

وقد بقي موضوع **الأم العذراء** الموضوع المحبب لأندريا ، كما بقي الموضوع المحبب للكثرة الغالبة من فناني عصر النهضة في إيطاليا ؛ فأخذ يصورها المرة بعد المرة في دراساته للأسرة المقدسة ، كما نشهد ذلك في معرض آل بورچيا في رومة ، أو في متحف نيويورك ، وقد صورها في إحدى الكنوز المحفوظة في معرض أفيزي في صورة **عذراء المنتقمات**(*) Madonna del Arpie ؛ وتعد هذه الصورة أجمل صورة لعذارى لكريلسيا ، وصورة **الطفل** هي أجمل ما أخرجه الفن الإيطالي . وتوجد في معرض پتي Pitti على الضفة الأخرى لنهر الآرنو صورة **صعود العذراء** يظهر فيها الرسل ورجال الدين ينظرون في ذهول وخشوع إلى الملائكة الصغار وهم يرفعون العذراء — وهي هنا أيضاً لكريلسيا — إلى السماء ؛ وهكذا تتم ملحمة العذراء بهذه الصورة المتلألئة التي رسمها أندريا .

وقلما نجد شيئاً من السمو في صور أندريا دل سارتو كما لا نجد فيها جلال ميكل أنچيلو ، أو التدرج غير المحس الذي لا يسبر عمقه والذي نجده في ليوناردو ، أو كمال الصقل الذي نراه في رفائيل ، أو مدى القوة التي نشهدها في الفنانين البنادقة العظام . غير أنه هو وحده الذي يضارع أولئك البنادقة في جمال اللون ويضارع كريچيو Correggio في الرشاقة ، وإن

(*) سميت كذلك لوجود صورة المنتقمات ممثلة على قاعدتها .



(شكل ١٥) مادنا دل أربى (عذراء المنتقمات)
فى معرض أفيزى بفلورنس — تصوير اندريا دل سارتو

براعته في التلوين — في عمقه ، وتدرجه ، وشفيفه — لترفع صورة فوق صور تيشيان Titian ، وتنتوريتو Tintoretto وڤيرونيرى Veonese لما في هذه من إسراف كثير في التلوين . نعم إن صور أندريا ينقصها التنوع ، فهي تتحرك داخل دائرة من الموضوعات والإحساسات شديدة الضيق ، فصور العذراء التي تبلغ المائة عدا كلها صورة من الأم الشابة الإيطالية ، المتواضعة ، المحببة ، المكتظة بالحلاوة ، ولكن ما من أحد قد فاقه في براعة التكوين ، وقلما بزه أحد في التشريح ، وعمل النماذج ، والتصميم . ويقول ميكل أنچيلو فيه : « إن في فلورنس إنساناً صغيراً إذا اشتغل بأعمال عظام تجعل العرق يتصبب من جبينك » (٣٧) .

ولم تطل حياة أندريا نفسه حتى يصل إلى درجة النضج الكامل ، ذلك أن الألمان الظافرين استولوا على فلورنس في عام ١٥٣٠ ، ثم نشروا فيها عدوى الطاعون ، وكان أندريا من أوائل ضحاياه ؛ وتجنبت زوجته حجرته في تلك الأيام الأخيرة المضطربة ، وكانت هي التي أثارت فيه آلام الغيرة التي تصحب الزواج بالحسان من النساء ، وقضى الفنان الذي محياها حياة تكاد تعز على الموت ، وليس إلى جانبه أحد ، وهو في الرابعة والأربعين من عمره .

وبعد فإن من واجبنا أن ننظر إلى الفنانين القلائل الذين ورد ذكرهم في هذا الباب ، لا على أنهم هم وحدهم الجديرون بأن تسجل أسماؤهم فيه ، بل على أنهم ممثلون لا أكثر لما كان في هذا العصر من عبقرية مرنة نيرة . فقد وجد في هذا العصر مثالون ومصورون غيرهم ، لا يزال لهم في المتحف وجود كوجود الأشباح — نذكر منهم بيذيديتو دا روڤيتسانو Bendetio da Rovezzano ، وفرانشيابچيو Franciabigio ، وريدلفو جرلندايو Ridolfo Ghirlandaio ومئات آخرين غيرهم . وعاش في ذلك العصر فنانون في شبه عزلة ، منهم سكان الأديرة ومنهم غير رجال الدين ، كانوا لا يزالون

يمارسون الفن ذا الصلة القوية بهم فن تزيين المخطوطات ، نذكر منهم الراهب يوستاتشيو Eustachio ، وأنطونيو دى چيرولامو ؛ وعاش فيه خطاطون بلغ حظهم من الجمال درجة لا يسع الإنسان معها إلا أن يعذر فيدريجو الأربنوى Federigo of Urbino حين يتحسر لاختراع الطباعة ؛ وكان هناك فنانون يتقنون أعمال الفسيفساء ، ويحتقرون التصوير لأنه فى رأيهم زهو زائل لا يدوم أكثر من يوم ؛ وكان هناك حفارون فى الخشب أمثال بتشيو دانيولو Baccio d'Agnolo ازدانت بيوت فلورنس بكراسيهم ، ونضدهم ، وصناديقهم ، ذات النقوش المحفورة ؛ وكان هناك من لم يحفظ التاريخ أسماءهم من العاملين فى الفنون الصغرى . ذلك أن فلورنس قد احتوت ثروة ضخمة من الفنون استطاعت بها أن تتحمل معها انتهاب الغزاة ، ورجال الدين ، وأصحاب الملايين ، من عهد شارل الثامن إلى هذه الأيام ؛ ولا تزال تحتفظ بقدر من روائع الصناعة الدقيقة يبلغ من الكثرة حداً لم يستطع معه إنسان فرد أن يحصى جميع الكنوز التى ادخرت فى تلك المدينة وحدها خلال قرنى النهضة ، أستغفر الله بل خلال قرن واحد منهما ؛ لأن عصر فلورنس العظيم فى الفن بدأ حين عاد كوزيمو من منفاه سنة ١٤٣٤ ، واختتم بوفاة أندريا دل سارتو سنة ١٥٣٠ . ذلك أن الشقاق الداخلى : وعهد سفنرولا المتزمت ، وما عانته المدينة من حصار ، وهزيمة ، ووباء قد أخمدت كلها روح أيام لورندسو المرحة ، وحطمت قيثارة الفن الهشة .

غير أن الأوتار العظيمة كانت قد ضربت ، وتردد صدى موسيقاها فى طول شبه الجزيرة وعرضها . فكانت الطلبات تنهال على فنانى فلورنس من سائر المدن الإيطالية ، بل جاءتها أيضاً من أسبانيا ، وفرنسا ، وبلاد المجر ، وألمانيا ، وتركيا . وهرع إلى فلورنس ألف فنان ليغترفوا من بحر فنها العباب ، ويكون كل واحد منهم طرازه — پيرو دلا فرانتشسكا

Piero della francesca وپيروچينو Perugino ، ورفائيل Raphael . . . ونقل مائة فنان وفنان إنجيل الفن من فلورنس إلى خمسين من المدن الإيطالية وإلى البلاد الأجنبية ؛ وفى هذه المدن الخمسين كانت روح العصر وذوقه ، وسخاء ذوى الثراء ، وتراث الفن تعمل كلها متضامنة مع الحافز الفلورنسى ؛ فلم تلبث إيطاليا كلها من جبال الألب إلى كلبريا Calabria أن أخذت تمارس فنون التصوير ، والنحت ، والبناء ، والتأليف والغناء ، فى سورة من الإبداع والابتكار ، يخيل إلى الإنسان معها أنها ، فيما انتابها من حمى العجلة ، كانت تدرك أن هذه الثروة الضخمة لن تلبث أن تبيد فى أتون الحرب العوان ، وأن كبرياء إيطاليا ستزول حين يطؤها الطغاة الأجانب بالأقدام ، وأن سجون العقائد التعسفية ستغلق أبوابها مرة أخرى على عقل إنسان النهضة الخصيب ، الوفير ، العجيب .

Bibliographical Guide

to editions referred to in the Notes

Books starred are recommeded for for further study

Abrarhms, Israel, Jewish Life in the Middle Ages, Philadelphia, 1896.

Adams, Brooks, The New Empire, New York, 1903.

Addison, Joseph, *et al.*, The Spectator, New York, 1881, 8v.

Addison, Julia D., Arts and Crafts in the Middle Ages, Boston, 1908.

Anderson, W. J., Architecture of the Renaissance in Italy, London, 1898.

Aretino, Pietro, Works : Dialogues, New York, 1926.

Ariosto, Lodovico, Orlando furioso, Firenze, n.d.

Ascham, Roger, The Scholemaster, London, 1863.

Ashley, W. J.. Introduction to English Economic History and Theory, New York, 1894 and 1936, 2v.

*Bacon, Francis, Philosophical Works, J. M. Roberton; Londou, 1905.

Baedeker, Karl, Northern Italy, London. 1913.

Balcarres, Lord. Evolution of Italian Sculpture, London. 1909.

Bandello, Matteo, Novels, tr. Payne, London, 1890, 6v.

*Barnes, H. E., History of Western Civilization, New York, 1935, 2v.

Basler, E., Lenardo, Collection des maîtres, Braun, Paris, n.d.

Beard, Miriam, History of the Business Man, New York, 1938.

Beazley, C.R., The Dawn of Modern Geography, Oxford, 1906, 3v.

Berenson, Bernard, Florentine Painters of the Renaissance, New York, 1912.

Berenson, Bernard, North Italian Painters of the Renaissance, New York, 1927.

Berenson, Bernard, Study and Criticism of Italian Art, London, 1901-17, 3v.

Berenson, Bernard, Venetian Painters of the Renaissance, New York, 1897.

Beuf, Carlo, Cesare Borgia, Oxford University Press, 1942.

Boccaccio, Giovanni, Amorous Fiammetta, New York, 1931.

Boccaccio, Giovanni, Decameron, New York, n.d.

Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe, New York, 1927.

Brinton, Selwyn, The Gonzaga Lords of Mantua, London, 1927.

*Burckhardt, Jacob, The Civilization of the Renaissance in Italy, London, 1914.

Cambridge Medieval History, New York, 1924f, 8v.

Cambridge Modern History, New York, 1907f, 12v.

Cardan, Jerome, The Book of My Life (De vita propria liber), New York, 1930.

Carlyle, R. W., History of Medieval Political Theory in the West, Edinburgh, 1928, 6v.

*Cartwright, Julia, Beatrice d'Este, London, 1928.

*Cartwrighight, Julia, Isabella d'Este, London, 1915, 2v.

.Chrtwright, Julia, Baldassare Castiglione, London, 1908.

*Castiglione, Baldassare, The Courtier, Evertier, Everyman's Library.

Castiglioni, A., History of Medicine, New York, 1941.

*Cellini, Benvencto, Autobiography, tr. J. A. Symons, Garden City, New York, 1948.

*Cubb, Thomas C., Aretino, Scourge of Princs, New York, 1940.

Commines, Philippe De, Memoirs, London, 1900, 2v.

Cornaro, L., Art ol Living Long (De vita sobria), Milwaukee, 1903.

Conlton, G. G., Five Centnries of Religion, Cambridge University Press, 1923 f, 4v.

Conlton, G. G., From St. Francis to Dante, a tr. of the Chrouicle of Salimbene, London, 1908.

Coulton, G.G., Inquisition and Liberty, London, 1938.

Coulton, G. G., Life in the Middle Ages, Cambridge Unversity Press, 1930, 4v.

Conlton, G. G., Medieval Panorams, New York, 1944.

*Craven, Thernas, Treasury of Art Masterpieces reised ed , New York, 1952.

*Creighton, Mandell, History of the Papacy dnring the Reformation, London, 1882, 4v.

Croce, Benedetto, Ariosto, Shakespeare, and Corneille, New York, 1920.

Crowe, J. A., aud Cavalcaselle, G. B., A New History of Painting in Italy, Loudon, 1864, 3v.

Crump, C. G., and Jacob, E. F., The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.

Dante, La commedia divina, ed. Paget Toynbec, London, 1900.

Dillon, Edward, Glass, New York, 1907.

Dopsch, Alfons, Economic and Social Foundations of European Civilization, New York, 1937.

Duhem, P., Études sur Léonard de Vinci : Cenx qu'il a lns et ceux qui l'ont lu, Paris, 1906 f, 3v.

Eiustein, Alfred, The Italian Madrigal, Princeton, 1949, 3v.

Ellis, Havelok, Studies in the Psychology of Sex, Philadelphia, 1911, 67.

*Emerton, Ephraim, The *Defensor Pacis* of Mersiglio of Padua, Harvard University Press, 1920.

Emporium : Rivista mensila d'arte e di cultura, LXXXIX, no. 534 (June, 1939), Begamo.

Encyclopaedia Britannica, 11th ed. when so specified.

Encyclopaedia Britanica, 14th ed. when no ed tion is specified.

*Fattorusso, J., Wonders of Italy, Florence, 1930.

Fattorusso, J., Florence Album, Florence, 1935. (Part of preceding)
* Faure, Élie, The Spirit of Forms, tr. Walter Pach, New Yor, 1937.
Ferrara, Orestes, The Borgia Pope, Alexaner VI, New York. 1940.
Figgis, J. N., From Gerson to Grotius, Cambridge University Press, 1916.
Foligno, Cesare, The story of Padua, London, 1910.
Freud, Sigmnnd, Leonardo da Vinci, New York, 1947.
Friedländer, L., Roman Life and Manners uuder the Early Empire, London, n.d., 4v.
Garrison, F., History of Meddicine, Philadelphia, 1929.
Genoa, Descriptive Booklet, Genoa, 1949.
*Gibbon, Edward, Decline and Fall of the Roman Empire, Everyman's Library, 6v.
Gierke, Otto, Political Theories of the Middle Age, Cambridge University Press, 1922.
Gregorovius, Ferdinaud. History of the City of Rome in the Middle Ages, London, 1900, 8v.
*Gregorovius, Ferdinand, Lucrezia Borgia, London, 1901.
Gronau, G., Titian, London, 1904.
Grove, Sir George, Dictionary of Music and Musicians, 3rd ed., New York, 1928, 5v.
*Gnicciardini, Francesco, History of the Wars in Italy, London, 1753, 10v.
Guizot, François Pierre, History of Erance, London, 1872, 8v.
Hallam, Henry, Introduction to the Literature of Europe in the 15th, 16th, aud 17th Centuries, New York, 1880 4v. in 2.
Hare, A.J.C., Walks in Rome, London, 1913.
Hearnshaw, F.J.C., ed., Medieval Contributions to Moderu Civilization New York, 1922.
Hegel, G.W.F., Philosphy of Hisrory London, 1888.
Hollway-Calthrop, H. C., Petarch, His Life, and Times, New York, 1907.
Holzknecht, Karl, The Backgrounds of Shakespeare's Plays, New York, 1950,
Huiziuga, J., The Waning of the Middle Ages, Londou 1948.
Huneker, James, Egoists, New York, 1910.
Hntton, Edward, Givanni Boccaccio, London, 1910.
James, E. E. Coulson, Bologna, London, 1909,
Jusserand, J. J., English Wayfaring Life in the Middle Ages, London, 1891.
*Lacroix, Paul, Arts, of the Middle Ages, London, n.d.
Lacroix, Paul, History of Prostitutiou, New York, 1931.
Lacroix, Paul, Science and Literatnre in the Middle Ages, n.d.
Lancioui, Rodolfo, Ancient Rome, Boston, 188.
Lanciani, Rodolfo, The Golden Days of the Renaissance in Rome, Boston, 1906.

*Lang, P.H., Mnsic in Western Civilization, New York, 1941.

La Tour P. Imbart De, Les Origines de la Réforme, Paris, 1905f, 4v.

Lea, H. C., History of Agrieular Coufession, Philadelphia, 1896, 3v.

*Lea H. C., History of the Inquistion in the Middle Ages, New York, 1888, 3v.

Leonardo Da Vinci, Phaidon ed., London, 1943.

*Leonardo Da Vinci, Note books, arranged, rendered into Englisb, and Introduced by Edward Mac Curdy, New York, 1938, 2v.

Lombardia : Vols. II and III of Attraverso l'Italia issuel by Touring Clnb Italiano, Milan, 1931, 2v.

*Machiavelli, N. Discourses, Modern Library.

Machiavelli Niccolò, History of Florence, London, 1851.

*Machiavelli, Nicolò The Prince, Modern Library.

Mantegna, Andrea, L'oeuver, Paris, 1911.

Mather, F. J, Western Enropean Painting of the Renaissance, New York, 1948.

Maulde LA Claviére, R. DE, The Woman of the Renaissance, New York, 1905.

*Michelet, Jules, Histore de France, Paris, n d., 5v.

*Michelet, Jules, History of France New Yorke, 1880, 2v, an English tr. of First two volumes of preceding.

*Milman, H. H, History of Latin Christianity, New York, 1860 8v.

Miniatures Of The Renaissance, Catalogua de l'xposition du 5éme centenaire de la Bibliothèque Vaticane, Rome, 1950.

*Molmenti, Pompeo, Venice, London, 1906, 6v.

Montalembert, Comite, de, The Monks of the West, Boston, n.d., 2v.

*Moley, C R., Medieval Art, New York, 1942.

*Müntz, Eugène, Leonardo da Vinci, London, 1898, 2v.

*Muntz, Eugène, Rapheal, London, 1882.

*Noyes, Ells, Story of Ferrara. London, 1904.

*Noyes, Ella, Story of Milan, London, 1908.

Nussbaum, F.L., History of the Economic Institutions of Moder Europe, New York, 1937.

Ogg, Frederic, Source Book of Medieval History, New York, 1907.

Owen, John, Sceptics of the Italian Renaissance, London, 1908.

Oxford History of Music, Introductory Volume, Oxford University Press, 1929.

*Pastor, Ludwig Von, History of the Popes, St. Louis, Missouri, 1898, 14v.

*Pater, Walter, The Renaissance, Modern Library.

Petrarch, Sonnets and Other Poems, London, 1904.

*Petrarch, Sonnets, tr. Joseph Auslonder, New York, 1931.

Pirenne, Henri, Economic and Sacial History of Medieval Europe, New York, n.d.

Podham, A. E., Drawins of Leonardo da Vinci, London, 1947.
Portigliotti, Giuseppe, The Borgia, New York 1928.
**Prescott, W. A, History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, Philadelphia, 1890, 2v.
Butnem, George H., Books, and Their Makers during the Middle Ages, New York, 1898.
*Ranke, Leopold Von, History of the Popes, London, 1878, 3v.
Rashdall, Hastings, The Universities of Europe in the Middle Ages, Oxford, 1936, 3v.
Rénan, Ernest, Averroès e l'averroïsme, Paris, n.d.
Renard, Georges, Guilds in the Middle Ages, London, 1918.
Richter, Jean Paul, Literary Works of Leonardo da Vinci, London, 1883, 2v.
Robertson, J. M., Short History of Freethonght, London, 1914, 2v.
*Robinson, J. H., and Rolf, H.W., Petrarch, New York, 1891.
*Roeder, Ralph, The Man of the Rensissance, New York, 1935.
Rogers, J.E.T., Economic Interpretation of History, Loudon, 1891.
*Roscoe, William, Life and Pontificate of Leo X, London, 1853, 2v.
*Roscoe, William, Life of Lorenzo de' Medici, Loudon, 1877.
Raskin. John, Modern Painters, Boston, n.d., 5v.
Ruskin, John, Stones of Veniee, Everyman's Library, 3v.
Sacerdote, Gustavo, Cesare Borgia : La sua vita, la sua famiglia, i suoi tempi Milan, 1950.
*Sarton, George, Introduction, to the History of Science, Baltimore, 1930f, 3v. in 5.
*Schevill, F., Sicena, New York 1909.
Sismondi, J.C.L., History of the Italian Republics, London, n.d.
Siviero, R., Catalogue of the 2d National Exhibition of the Works of Art Recovered in Germany, Florence, 1950.
Soulier, G., Le Tintoret, Paris, 1928.
Speculnm : a Journal of Medieval Studies, Cambridge, Massachusetts.
*Spengler, Otto, Decline of the West, New York, 1928.
Stoeckliu, Paul de, Le Corrège, Paris, 1928.
*Symonds, J.A., Life of Michelangelo Buonarroti, Modern Library.
*Symonds, J. A., The Renaissance in Italy, New York, 1883 :
Vol. I : The Age of the Despots ;
Vol. II : The Revival of Learning ;
Vol. III : The Fiue Arts ;
Vol. V : Italian Literature, Part II ;
Vol. VI : The Catholic Reaction, Part I, London, 1914 ;
Vol. VII : The Catholic Reaction, Part II.
*Symonds, J. A., Sketches and Studies in Ilaly and Gree, London, 1898, 3v.

*Tane, H.A., Italy : Florence and Venice, New Yerk, 1869.

Taine, H.A., Italy : Rome and Naples, New York, 1889.

Taylor, Rachel A., Leonardo the Florentine, New York. 1927.

Thompson, James W , Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages, New York, 1931.

Thorndike, Lynn, History of Magic and Experimental Science, New York, 1929 f, 6v.

Thorndike Lynu, History of Medieval Europe, Boston 1934.

Thorndike, Lynn, Science and Thought in the Fifteenth Ceutury, New York, 1929.

Treitschke, H. Von, Lectures, on Politics, New York, n.d.

Varchi, Benedetto, Storia florentina, Cologne, 1721.

Vasari, Giorgio, Lives of the Most Eminent Painters, Sculptors, and Archtects Everyman's Library, 4v.

Same, ed., E.H. & E.W. Biashfield, and A. A. Hopkins, New York, 1907 ; references to Vol. IV are to this edition.

Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire; Madison, 1921, 2v.

Venture, Lionello, and Skira - Venturi, Rosabianca, Italian Paining : The Creators of the Renaissance, Geneva, 1950.

Villari, Pasquale, Life and Times of Girolama Savonarola. New York, 1896.

Villari, Pasquale, Life and Time of Niccolò Machiavelli, New York, n.d., 2v.

Villari, Pasquale, The Two First Centuries of Florentine History, London, London, 1908.

Walsh, James J., The Popes and Science, New York. 1913.

Whitcomb, M., Literary Source - Book of Italian Renaissance, Philadephia, 1900.

Winckelmann, J., History of Ancient Art, Boston, 1880, 4v. in 2.

Wolf, A , History of Science, Technology, and Philosophy in the 16th and 17th Centuries, New York, 1935.

Wright, Thomas, The Homes of Other Days, London, 1871.

Young, G.F., The Medici, Modern Library.

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHAPTER I

1. Carlyle, R. W., *History of Medieval Political Theory*, VI, 85-6.
2. In Hollway-Calthrop, *Petrach, His Life and Times*, 14.
2a. Robinson, J. H, and Rolf, H. W., *Petrarch*, 67, 82.
3. Marquis de Sade, *Mémmoires pour la vie de Petrarque*, III, 243, in Prescott, *Ferdimand and Isabella*, I, 328n.
4. Petrach, *Sonnets and Other Poems*, sonnet 159.
5. Petrarch, *Sonnets*, tr. Jos. Auslander, 126.
6. *Epistolae variae*, no. 25, in Whitcomb, *Literary Source-book of the Italian Renaissance*, 13.
7. Renan, *Averrsès*, 328.
8. Robinson and Rolf, 107.
9. Hutton, E., *Giovanni Boccaccio*, 3-5.
10. Ibid., 25, quoting the *Filocolo*.
11. *Encycl. Brit*, III, 766b.
12. Boccaccio, *Filostrolo*, iii, 32.
13. Gregorovius. F., *History of the City of Rome*, VI, 245.
14. Robinson and Rolf, 426.
15. Ibid., 137.
16. Ibid., 61, 97n.
17. *Speculum*, Apr., 1936, p. 267.
18. In Hollway-Calthrop, 21.
19. Owen, John, *Sceptics of the Italian Renaissance*, 110,117.
20. Robinson and Rolf, 137.
21. *Epistolae rerum senilium*, i, 5, in Owen, 121.
22. Sismondi, *History of the Italian Republics*, 333.
23. Gregorovius, VI, 246.
24. Ibid., 25f.
25. Ibid., 271, 253.
26. Robinson and Rolf, 347.
27. Gregorovius, VI, 370-3; Sismondi 340-1.
28. In Foligno, C., *Story of Padua*, 155.
29. Owen, 130.
30. Pattornsso, J., *Wonders of the Business Man*, 141.
32. In Taylor, Rachel A., *Leonardo the Florentine*, 60.
33. Vasari *Lives of the Painters, Giotto*, I, 66.
34. Dante, *La commedia divina, Purgatorio*, xi, 94.
35. Vasari, *Taddeo Gaddi*, I, 139.
36. Villari, Pasquale, *The Two First Centuries of Florentine History*, 50.
37. Baccaccio, *Amorous Flammetta*, 39.
38. Castiglioni, *History of Medicine*, 355.

39. Coulton, G. G., *Black Death*, 10-11.
40. *Cambridge Modern History*, I, 501.
41. In Schevill, F. *Siena*, 210.
42. Machiavelli, *History of Florence*, ii, 9.
43. Boccaccio, *Decameron*, 2-7.
44. Ibid., II.
45. Ibid., 13.
46. Dante, *Inferno*, xxviii, 22-42.
47. *Decameron*, Introd. to Sixth Day.
48. *Combridge Medieval History*, VII, 756.
49. Hollway-Calthrop, 290.
50. Robinson and Rolf, 413.
51. Ibid., 119.
52. Genoa, *a Descriptive Booklet*, 6.
53. Crump and Jacob, *Legacy of the Middle Ages*, 442; *Cambridge Medieval History*, VI, 490.
54. In Sismondi, 527.
54a. Burckhardt. J., *Civilization of the Renaissance in Italy*, 79.
55. In Mathor, F. J., *Ventian Painters*, 5.
56. Hutton, *Boccaccio*, 201.
57. Hollway-Calthrop, 257.
58. Ibid., 280.
59. Robinson and Rolf, 428.
60. Symonds, *Age of the Despots*, 78.
61. Hallway-Calthrop, 123.
62. Robiuson and Roif, 4.

CHAPTER II

1. Sismondi, 305; Coulton, G. G. *Life in the Middle Ages*, 1, 205.
2. Mimas. H.H., *History of Latin Christianity*, VII, 205.
3. Gregorovlus, VI. 3.
4. Greghton, M., *History of the Papacy During the Reformation*, I, 42; Gregorovius, 192.
5. Milman, VII, 136.
6. Ibid., 137.
7. *Cambridge Medieval History*, VII, 278f; Rogers, J. E. T., *Economic Interpretation of History*, 75; Pastor, *History of the Popes*, I, 98.
8. Ibid., 66, 71.
9. Ibid.,
10. Ibid., 92.
11. Coulton, *Life in the Middle Ages*, I, 205.
12. *Cambridge Medieval History*, VII, 288; Milman, VII, 138n.
13. Pastor, I, 107.
14. Sarton, G., *Introd. to the History of Science*, IIIb, 1034.
15. Postor, I, 91.
16. Machiavelli, *History Florence*; i, 6.
17. Sismondi, 328.
18. Gregorovius, VI, 486.
19 Ibid.,
20. Sismondi, 489.
21. Pastor, I, 100.
22. Ibid., 103.
23. Sismondi, 489.
24. In Pastor, I, 105.
25. Lanciani, R., *Golden Doys of the Renaissance in Rome*, I,
26. Lea, H.C., *History of the Inqulstion in the Middle Ages*, III, 90-120; Milman, VII, 41-51.
27. Beazley, C.R., *Dawn of Modern Geography*, III, 181.
28. Coulton, G. G., *Medieval Panorama*, 650.
29. Sismondi, 458.
30. Gregorovius, VI, 522.
31. Pastor, I, 282.

32. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 45.

CHAPTER III

1. Thampson, James W., *Econamic and Social History of Europe in the Later Middle Ages*, 458.
2. Beard, Miriam, *History of the Business Man*, 134.
3. Cellini, B., *Autobiogrophy*, i, 69.
4. *Cambridge Medieval History*. *VI*, 487.
5. Pirenne, Henri, *Economic and Social History of Medival Europe*, 216.
6. Burckhardt, 76.
7. Nussbaum, F. L., *History, of the Economic Institutions of Modern Europe*, 70.
8. Beard, M., 115.
9. Sarton, IIIa, 125.
10. Thompson, *Economic and Social History*, 406.
11. Symonds, *Age of the Despots*, 197; Sismondi, 573.
12. Machiavelli, *History*, iv, 3.
13. Beard, M., 152; Burckhardt, 80..
14. Machiavelli *History*, iv, 6-7.
15. Beard, M., 152.
16. Villari, P., *Two First Centuries*, 358.
17. Sismondi, 568f; Beard, 152.
18. Burckhardt, 78.
19. Boissonnade, P., *Life ana work in Medieval Europe* 299.
20. Roscoe, Wm., *Life of Lorenzo de Medici*, 79.
21. Varchi, Benedetto, *Storia fiorentina*, end of book ix.
22. Ariosto, *Satire2*, vii, 25.
23. *Cambridge Modern History*, I, 542.
24. Symonds, *Revival of Learning*, 104.
25. Ibid., 243.
27. Villaari, *Macbiavelli*, I, 89.
28. Pastor, I, 27.
29. Villari, *Machiavelli*, 83; Symonds, *Revival of Learnig*, 234.
30. Villari, l.c.
31. Pastor, II, 201.
32. Symonds, *Revival*, 237.
33. Burckhardt, 503.
34. Symonds, *Revival*, 240.
35. In Dopsch, *Economic and Social Foundations of European Civilization*, 2.
36. Vasari, *Lives*, II, 270 *Andrea da Fiesole*.
37. Fattorusso 209.
38. Vasari, *Lives*, II, 299, *Baldassare Peruzzi*.
39. Beard, 153.
40. Symonds, *Fine Arts*, 134; *Cambridge Modern History*, I, 548.
41. Vasari, II, 52, *The Belli Family*.
42. Baedeker, *Northern Italy*, 567.
44. Ibid.
45. Sarton, IIIb, 1132.
46. Vasari, II, 239, *Raphael*.
48. Morey, C.R., *Medieval Art*, 340.
49. Vasari, II, 3, *Fra Filippo Lippi*.
50. Crowe and Cavalcaselle, *New History, of painting in Italy*, II, 234.
51. Symonds, *Sketches and Studies in Italy and Greece*, 21-6.
52. Machiavelli, *History*, vii, I.
53. Guicciardini, Fr., *History, of the Wars in Italy*, I, 181.
54. Machiavelli, *History*, vii, I.
55. In Young, G.F., *The Medici*, 77

CHAPTER IV

1. Machiavelli, *History*, *vii*, 2.
2. Ibid.
3. *Cambridge Modern History*, I, 991; Rosoc, *Lorenzo*, 156-7.
4. Roscoe, 169.
5. Ibid., 278; Yaung, 220.
6. Sismondi, 659; Villari, *Life and Times of Savonarola*, 45; Beard, 156.
7. Machiavelli, viii. 7.
8. Guicciardini, I,5.
9. Roscoe, *Lorenzo*, 235.
10. *Storia fiorentina*, ch. ix, In Villari, *Machiavelli*, I, 35.
11. Translation by Symonds, *Italian Literature*, I, 390.
12. Varchi, end af book ix.
13. Sellery, G. C, *The Renaissance*, 196.
14. Pastor, V, 154.
15. Villari, *Machiavelli*, I, 132.
16. Abrahams, I., *Jewish Life in the Middle Ages*, 421.
17. In Parer, W., *The Renaissonce*, 32.
18. Translated from the Latin text as gixen in Burckhardt, 354-5.
19. Symonds, *Sketches*, 319-20.
20. Pulci, *Morganic maggiore*, i, 54f, in Owen, 151.
21. XVIII, 115f, in Symonds, *Italian Literature*, I, Appendix V.
22. Canto xxv.
23. XXY, 229-30, in Prescott, *Ferdinand and Isabella*, I, 496.
24. In Roscoe, *Lorenzo*, 311.
25. Vasari, *Life of Rustici*.
26. Vasari, II, 98, *Andrea Verrocchio*.
27. Müntz, E., *Rapbael*, 146.
28. Berenson, B., *Study and Criticism of Italian Art*, 2.
29. Vasari, II, 23, *Benozzo Gozzoli*.
30. Berenson, *Florentine Painters of the Renaisance*, 63; Taine, H. A., *Italy : Florence and Venice*, 127.
31. In *The Martyrdom of St. Peter* it the Brancacci Chapel.
32. Vasari, II. 85, 87, *Botticelli*.
33. Crowe and Cavalcaselle, II, 431-3.
34. Von Reumont, *Lorenzo, il Magnifico*, II, 590, Creighton, III, 296-8, and Roscoe, *Lorenzo*, 327, accept Politian'z account : Villari, *Savonarola*, 168 - 72, prefers Pico's. Politian's third condition seems too innocuous to be historic.
35. Machiavelli, *History*, viii, 7; Guicciardini, I, 10.
36. Roscoe, *Lorenzo*, 334.

CHAPTER V

1. Noyes, *Ferraro*, 98.
2. In Roeder, R., *The Man of the Renaissance*, 6.
3. Ibid., 5.
4. Ibid.
5. Savonarola, 28th Sermon on Ezekiel.
6. In Villari, *Svvonarola*, 126.
7. In Roeder, 25.
8. Villari, *Savonarola*, 129.
9. Symonds, *Italian Literature*, I, 386.
10. Villari, 188.
11. Ibid., 189.
12. Guicciardini, I, 173.
13. Villari, 343.
14. Roeder, 57.
15. Villari, 380.

16. Ibid., 329.
17. Guicciardini, II, 391.
18. *Cambridge Modern History*, I, 672 and ch. xix.
19. Villari, 393.
20. Ibid., 376.
21. Ibid., 390.
22. Ibid., 400.
23. Ibid., 401.
24. Ibid., 406.
25. Ibid., 410.
26. Ibid., 474.
27. *Cambridge Modern History*, I, 179.
28. Lenten sermons of 1497, no. 22, in Villari, 516-8.
29. Sermon no. 28, in Villari, 519-20.
30. Villari, 522.
31. *Cambridge Modern History*, I, 179.
32. Villari, 601.
33. Ibid., 645.
34. *Cambridge Modern History*, I, 182.
35. Vasari, II, 176, *Piero di Cosimo*.
36. Id., III, 319, *Lombard Aritists*.
37. Crowe, III, 562.

CHAPTER VI

1. Beard, 134.
2. Boissondade, 326.
3. Pastor, V, 126.
4. Sismondi, 746; Burckardt, 296.
5. Ibid., 297.
6. Hollway-Calthrop, 14.
7. Thompson, J. W., *Economic and Social History*, 236.
8. Noyes, *Milan*, 132.
9. Thompsoq, 460; calculations made by Schmoller from gaverntal archives.
10. Barchkhardt 14; Symonds, *Age of the Desp0ts*, 151.
11. Machiavelli, *History*, vii, 6; Sismondi, 620-1.
12. Cartwright, J., *Beatrice d'Este*, 260.
13. Müntz, E., *Leonardo*, doviuci I, 103
14. Taylor, R, Leonardo, 104.
15. In Cartwright, *Beatrice d'Este*, 165.
16. Cf., eg., Cartwright, 78.
17. Sismondi, 741.
17. a In Noyes, *Milan*, 165.
18. Ibid., 183.
19. Cartwright. *Isabella d'Ests*, I, 151.
20. Cartwright, *Beatrice d'Esis*, 370-3.
21. Ibid., 141.
22. In Symouds, *Revival of Learning*, 278.
23. Ibid., 269.
24. Cellini, *Autobiography*, i 26.

